مصر البيزنطية

تأليف

الدكتور السيد الباز العريني
الأستاذ المساعد بكلية الآداب
بجامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر
دار النهضة العربية
٣٢ شارع عبد الخالق ثروت بالقاهرة

مطبعة لجنة البيان العربي
٢٠ الجامع الإسماعيلي بالحلمية
ت ٩٧٠٧٩

http://www.al-maktabeh.com

محتويات الكتاب

	صفحة
مقدمة	هـ — ى
الفصل الأول : أحوال الإمبراطورية الرومانية حتى القرن الرابع الميلادى	١ — ٧
الفصل الثانى : النظم الدينية	٨ — ٨٠
الفصل الثالث : التنظيم الإدارى بمصر حتى قبيل زمن جستنيان	٨١ — ٩٥
الفصل الرابع : التنظيمات الاقتصادية حتى قبيل عصر جستنيان	٩٦ — ١٢٩
الفصل الخامس : التنظيمات الحربية	١٣٠ — ١٤٣
الفصل السادس: تنظيمات جستنيان	١٤٤ — ١٥٤
الفصل السابع : التنظيمات الإدارية بمصر ، وفقاً للقانون رقم ١٣ ، الذى أصدره جستنيان	١٥٥ — ١٧٧
الفصل الثامن : التنظيم المالى منذ زمن جستنيان	١٧٨ — ٢١٥
الفصل التاسع : التنظيمات القضائية منذ زمن جستنيان	٢١٦ — ٢٣١
الفصل العاشر : التنظيمات الحربية منذ زمن جستنيان	٢٣٢ — ٢٤٧
الفصل الحادى عشر : الحياة الاجتماعية	٢٤٨ — ٣٢٢
الفصل الثانى عشر : تداعى الحضارة البيزنطية بمصر وانهيارها	٣٢٣ — ٣٩٢
الفصل الثالث عشر : فتح العرب لمصر	٣٩٣ — ٤٣٨
الحواشى والتعليقات	٤٤١ — ٥٠٢
اللاحق :	
١ — ملحق عن أقاليم القطر المصرى	
(ا) أقاليم الوجه القبلى	٥٠٥

صفحة

(ب) أقاليم الوجه البحرى ٥٠٦

٢ — ملحق بأسماء المدن اليونانية الواردة بالكتاب ،
وما يقابلها من الأسماء الحديثة ٥٠٧ — ٥٠٨

٣ — ملحق بأسماء أباطرة العصر البيزنطى فى مصر ٥٠٩ — ٥١٠

٤ — ملحق — جدول بأسماء الأباطرة والولاة والبابوات
والبطاركة فى العصر البيزنطى . ٥١١ — ٥٢١

٥ — الخرائط

ا — خريطة عن أقسام مصر الإداريه
حوالى سنة ٥٣٥ ميلادية . بعد ١٥٨

ب — خريطة عن أقسام مصر الإدارية
(الدوقيات) حوالى سنة ٦٠٦ ميلادية . بعد ٣٤٠

٦ — لوحات ٥٢٣

المراجع ٥٢٥ — ٥٣٣

الكشاف ٥٣٥ — ٥٦١

تصحيحات ٥٦٣

Appendices 5-42.

مقدمة

هذا الكتاب تناول دراسة ما قام بمصر ، من النظم الإدارية والقضائية والاقتصادية والاجتماعية والحربية ، منذ زمن دقلديانوس ، حتى الفتح العربي سنة ٦٤٠ . ومن العوامل التي أثارت الاهتمام بتاريخ مصر البيزنطية ، الرغبة في اكتشاف أسباب الفتح العربي ، والتعرف إلى موقف المصريين تجاه الدولة البيزنطية ، والإلمام بمظاهر القومية المصرية . ولم يحاول أحد من قبل ، القيام بهذه الدراسة باللغة العربية ، نظراً لأن المؤلفين السابقين عالجوا موضوعات معينة من تاريخ مصر البيزنطية[1] .

---

(١) في سنة ١٩٠٩ ، ألف جيلزر كتابا ، تناول فيه دراسة طائفة من المسائل المتعلقة بالإدارة المدنية في مصر ، في القرن الرابع والخامس والسادس .

Matthias Gelzer : *Studien zur byzantinischen Verwaltung Aegyptens*, Leipziger Historische Abhandlung, vol. XIII, Leipzig 1909.

وألف رويار Rouillard ، كتابا اختص بدراسة النظام الإداري في مصر ، منذ زمن جستنيان حتى الفتح العربي .

Rouillard, G. : *L'Administration civile de l'Egypte byzantine*, 2e éd. Paris 1928.

واهتم جان ماسبيرو بدراسة النظام الحربي في مصر

Jean Maspero : *Organisation militaire de l'Egypte byzantine*, Paris 1912.

وعند وفاته ترك مخطوطة تكاد تكون كاملة عن تاريخ مصر الكنسي ، نشرها بعد وفاته Wiet, Fortescue ، وعنوانه :

Histoire des Patriarches d'Alexandrie depuis la mort de l'empereur Anastase jusqu'à la réconciliation des églises Jacobites (518-616), Paris 1923.

وأسهم Hardy أيضا في دراسة الناحية الدينية بما أصدره أخيرا من كتاب عن مصر المسيحية.

Hardy : *Christian Egypt*, New York, 1952.

أما الناحية الاقتصادية فعالجها جونسون ووست في دراستهما عن مصر البيزنطية

Johnson and West : *Byzantine Egypt*, Economic Studies, Princeton 1949.

يضاف إلى ذلك ، ما صدر من مقالات عديدة عن هذه النواحي في المجلات العلمية المختلفة ، أنظر قائمة المصادر والمراجع .

والواضح أنه كان لمصر أهمية خاصة عند الحكومة البيزنطية ، بفضل ما كان يرد منها من الأموال الوفيرة والمؤن اللازمة لسكان القسطنطينية . وهذا هو السر فيما بذله الأباطرة البيزنطيون من اهتمام خاص بالنظام الإدارى للاقليم ، وفى أن كل ما طرأ على هذا النظام من التعديل والتغيير ، إنما يرمى إلى الاستغلال المنظم . إذ أن أهم ما شغل تفكير الحكومة البيزنطية ، ولا سيما زمن جستنيان ، هو جباية الضرائب ، وجمع القمح ، وإرسالهما إلى القسطنطينية . وما أدخله جستنيان فى مصر ، من إصلاحات إدارية وقضائية ومالية ، قامت على أساس نظرى ، واتسمت بالمركزية البالغة الحد . على أن السلطة المركزية ، عند مبادرتها إلى استغلال البلاد ، صادفت من العقبات والصعوبات ما تمثل فى مقاومة الفلاحين وكبار ملاك الأراضى ، الذين كانوا شبه مستقلين فى ضياعهم ، والذين بفضل ما هيأته لهم ثروتهم من النفوذ والسلطان ، ظفروا عادة بالوظائف الكبيرة ، وصار بوسعهم أن يعطلوا الإدارة الامبراطورية ، وأن يصبحوا ، على حد قول جستنيان نفسه ، أقوى من مرسومات الإمبراطور . يضاف إلى ذلك موقف الرهبان من الإدارة البيزنطية فى مصر ، وما قام به سكان الاسكندرية من مناوأة الحكومة ، بما أثاروه من الفتن والاضطرابات . على أن ما بلغته الإدارة البيزنطية فى مصر من السوء ، وما اتصف به الموظفون البيزنطيون من الاستبداد والظلم والفساد والرشوة ، كل ذلك عجل بانهيار الحكم البيزنطى فى مصر .

كان لمصر مكانة ممتازة فى الاقتصاد العام للامبراطورية ، غير أن استغلال هذا الإقليم ، لم يجر دون أن تصادف السلطة المركزية ، المعارضة والمقاومة من قبل الفلاحين ، وكبار الملاك ، والرهبان . فالمستأجر ارتبط بالأرض ، ونمت القنية ، غير أن اختفاء أرض التاج فى أوائل القرن الرابع ، أدى فيما يبدو إلى تحرير الرقيق فأضحى الفلاحون ملاكا . على أن نمو الضياع الكبيرة بمصر ، لم يبدأ باستثمار رءوس الأموال ، بل بنظام الحماية . فما صدر من القوانين ، منذ الامبراطور قنسطنطين إلى الامبراطور تيودوسيوس ، أكثر ما انطوت عليه ، كان يتعلق بنظام الحماية فى مصر . والواقع أن الأباطرة حرصوا على مقاومة نمو هذا النظام ، غير أنهم أدركوا آخر الأمر ، بعد فشل محاولاتهم ، أن أكثر ما يهمهم أن يحصلوا على الخراج بصورة من الصور ، فاعترفت الحكومة البيزنطية ، سنة ٤١٥ ، بالحماة على أنهم ملاك . ودل

http://www.al-maktabeh.com

نظام الحماية أيضاً على عيوب الحكومة ومساوئها . إذ أن ظلم جباة الضرائب واستبدادهم ، دفع الفلاحين لأن يلتمسوا الحماية ، فكان حماتهم عادة من كبار الموظفين ، العسكريين والمدنيين ، فأفادوا من مراكزهم ومكانتهم .

وبنهاية القرن السادس الميلادى ، لم يبق من مصر تحت الحكم الفعلى للامبراطور البيزنطى ، إلا شطر ضئيل ، إذ أن الإقليم تجزأ إلى ضياع شبه مستقلة ، تماثل إلى حد ما الإقطاعات فى أوربا العصور الوسطى ، وتتخللها مساحات شاسعة من الأراضى تسيطر عليها الطوائف الدينية . ومن أمثلة هذه الضياع ، أملاك أسرة أبيون فى البهنسا .

وصحب اعادة تنظيم مصر البيزنطية ، تغييرات فى حياة السكان . إذ انبعث الشعور القومى عند المصريين ، وأضحت الكنيسة أداة هذا الشعور ، إذ انفصل المصريون بعد سنة ٤٣١ عن المسيحية اليونانية ، واعتنقوا المذهب المونوفيزتى .. والدلالة على ما للكنيسة المصرية من صفة قومية ، مناهضة للامبراطور البيزنطى ، أن الطائفة الأرثوذكسية كان يجرى الاشارة اليهم على أنهم ملكانيون ، نسبة إلى الملك ، أى الامبراطور . ونجحت الكنيسة المصرية فى المحافظة على كيانها فى العصر البيزنطى ، فلم يستقر بالاسكندرية بطريرك ملكانى إلا بعد سنة ٥٣٧ . ومع أنه صار فى وسع الامبراطور أن يرسل إلى الاسكندرية بطاركة ملكانيين ، غير أنه لم يعتنق هذا المذهب ، الا فئة قليلة من الأغنياء وطبقة الموظفين ، بينما أصر سائر السكان على عقيدتهم ، وامتنعوا عن التعاون مع الحكومة البيزنطية . وذهب أدراج الرياح كل محاولة قام بها الامبراطور هرقل ، لمصالحة المونوفيزتيين . وما لجأ اليه كيرس (المقوقس) من الاضطهاد ، زاد فى ابتعاد المصريين ، وظهر من الأدلة ما يشير الى أن مصر ، حتى قبل قدوم العرب اليها ، افترقت نهائياً ، من الناحية الروحية ، عن الامبراطورية البيزنطية ، واتجهت نحو العالم الشرقى .

وترتب على اتخاذ الخط اليونانى ، بعد اضافة حروف هجائية من الديموطيقية ، فى كتابة اللغة القومية ، أن جرت ترجمة الأناجيل الى اللغة القبطية ، التى تعتبر المرحلة الأخيرة فى تطور اللغة المصرية القديمة . ولم تلبث الآداب بأكلها ، التى ترجم معظمها

من اليونانية ، فضلا عن احتوائها على مؤلفات أصلية ، كالقرانيم والعظات وحياة القديسين ، أن أمدت أولئك الذين يتحدثون باللغة المصرية ، من مادة القراءة والمطالعة ، ما يعتبر أكثر ملاءمة لأذواقهم من وثنية الكتاب اليونانيين . فأضحت القبطية اللغة الأصلية للكنيسة المصرية ، وصار كثير من كبار رجال الكنيسة لا يستطيعون الكتابة إلا باللغة القبطية ، ولم يعثر إلا على قدر ضئيل من البرديات اليونانية فى أواخر العصر البيزنطى .

والواقع أن الاتجاه القومى ، عززه ما حدث من اختفاء أسس المدنية الهلنستية فى مصر . إذ تعرضت الهلينية لخطر مزدوج ، ففى جهات الريف سادت العناصر المصرية ، التى أيقظت المسيحية احساسها وشعورها الذاتى . أما فى المدن ، فإن الحضارة الهلينية ، قوضها تداعى النظم التى كانت من أهم ما يعبر عن الحياة اليونانية ، فضلا عن نفوذ الكنيسة . فالانصراف إلى الجدل الدينى أضعف الاهتمام بالآداب اليونانية . ومع ذلك فإن دراسة الفلسفة الوثنية ظلت مستمرة بالاسكندرية ، على الأقل إلى الشطر الأخير من القرن الخامس ، كما أن الآثار الهلينية ، وهى وثنية أيضاً ، استمرت إلى ما بعد هذا التاريخ . وتعرفنا عن طريق برديات قرية أفروديتى (كوم أشقاو) ، على رجل (ديو سقورس) ، أصاب بعض النجاح فى حياته كمحام وموثق عقود ، واشتهر بنظم الشعر اليونانى ، وكان بحوزته مخطوطات لروايات مينا ندر ، ومسرحية ديموى من نظم يوبوليس . فإذا كانت هذه الدراسات لقيت اهتماما من أحد أعيان قرية بإقليم طيبة ، أفليس ذلك دليلا على أن الثقافة الهلينية لازالت زاهرة فى العواصم الكبرى . ومع ذلك فإن اللغة اليونانية وما يتعلق بها ، أخذت تندثر فى البلاد ، وتزايد استعمال اللغة القبطية فى تحرير العقود والوثائق .

والواقع أن مصر فى القرن السادس الميلادى كانت إلى حد كبير فى عصر انتقال ، إذ كانت إقليما احتفظ بتراثه القديم ، وكان فى الوقت ذاته جزءا قائماً بذاته ينتمى إلى الامبراطورية الرومانية الشرقية ، التى أخذت بدورها وقتذاك ، تحوز الصفة البيزنطية . فعلى الرغم من أن المجتمع كان يحمل كثيراً من مظاهر العصور الوسطى ،

من الأديرة والكنائس والمستشفيات ، والفلاحين والضياع ذات الجباية الذاتية ، والجيوش الخاصة ، فانه لا زال متأثراً بمظاهر العالم القديم .

ومع ذلك فان ما توافر بمصر من العوامل الداخلية ، وما أصاب الحكومة البيزنطية من انهيار ، وما جرى وقتذاك من ظهور النبي محمد صلى الله عليه وسلم فى بلاد العرب ، وقيام دولة إسلامية فتية ، استجاب لدعوتها شعوب الدولتين المجاورتين (الفارسية والبيزنطية) ، كل ذلك جعل مصر تدخل فى مرحلة جديدة من مراحل التاريخ .

وعلى الرغم من أن مصر انفردت عن سائر أقاليم الامبراطورية البيزنطية بوفرة ما جرى العثور عليه من البرديات بها [1] ، التى يصح أن نقف منها ، ومن المصادر الأخرى ، على دراسة النظم البيزنطية ، فلا زالت بعض النقط الهامة بحاجة إلى أدلة جديدة .

---

(١) فى السنوات المائة الأولى من تاريخ مصر البيزنطية (٢٩٧ — ٣٩٧) ، جاءت معظم البرديات من القرى الواقعة على حافة إقليم الفيوم (فيلادلفيا ، وكارانيس ، وتيادلفيا) ومنذ الشطر الأخير من القرن الرابع حتى زمن جستنيان ، لم يعثر إلا على عدد قليل من الوثائق ، وما هو مؤرخ منها ، فى القرن الخامس ، لم يتجاوز اثنتى عشرة ، وما تلى ذلك ، جاء معظم وثائقه من موضعين ، أفروديتو (كوم أشقاو) والبهنسا . وجانب كبير من هذه الوثائق ، ليس فيها يبدو سوى محفوظات أسرات إقطاعية ، وما يحمل تاريخاً منه ، كان عدداً ضئيلا ، وما تبقى منها جرى تأريخها وفقاً لأدلة باليوجرافية ، على أنها ترجع إلى القرن الخامس والسادس والسابع .

أما الحفريات فاقتصرت على الأديرة ، وما استمد منها من الأدلة جرى تحقيقه بتواريخ الديرية ومؤرخى الكنيسة ، على الرغم من أن أكثر ما اهتم به مؤرخو الكنيسة ، اتصل بالمنازعات الدينية . ونظراً لأن الأساقفة المصريين اعتنقوا النحلة الأريوسية ، فان معظم كتاباتهم أصابها الدمار .

وإنى لأتقدم بالشكر إلى الزميلة الدكتورة سعاد ماهر ، بقسم الآثار ، بجامعة القاهرة ، لما بذلته من جهد صادق فى مساعدتى ، بما أمدتنى به من المصادر والمراجع والصور عن الحياة الاجتماعية فى العصر البيزنطى ، فضلا عن مراجعتها لما كتبته عن المجتمع المصرى فى هذه المرحلة من التاريخ .

والله ولى التوفيق .

السيد الباز العرينى

القاهرة : ديسمبر سنة ١٩٦١

رجب سنة ١٣٨١

الفصل الأول

تمهيد

أحوال الإمبراطورية الرومانية حتى القرن الرابع الميلادى

الأوتوقراطية :

المعروف أن أغسطس هو الذى أقام نظام الإمبراطورية الرومانية على أنقاض نظام الجمهورية ، غير أن الدولة ظلت ثلاثة قرون ، بعد إنشائها ، تغلب عليها الصفة الجمهورية من الناحية الدستورية . ذلك أن الحكومة اشترك فى تسييرها الإمبراطور ومجلس السناتو (الشيوخ) . واتخذ الإمبراطور لقب سيد princeps، وتقيدت حقوقه بسلطة السناتو . ولذا يحسن أن نطلق على هذه المرحلة من التاريخ اسم الحكم الثنائى dyarchy . أما من حيث الواقع ، فإن السيد أو الأمير صار منذ البداية يعتبر صاحب النصيب الأكبر فى الإدارة ، فكاد يغتصب كل ما للسناتو من سلطات (*)(1) .

ولم يلبث الغشاء الجمهورى أن زال ، قبيل نهاية القرن الثالث . فاتخذ أوريليان من المظاهر الخارجية ما يمتاز بها الملك لا المواطن . ثم حول دقلديانوس وقسطنطين الحكومة نهائياً من النظام الجمهورى إلى النظام الأوتوقراطى . وهذا التغيير

(*) Bury : History of the Later Roman Empire. vol I. p. 5.

جرى تجريد السناتو من بعض الحقوق التشريعية والقضائية والمالية . إذ صار الإمبراطور غير مقيد بما يصدره السناتو من قوانين ، بل إن ما أصدره الإمبراطور من قوانين صار لها من القوة ما جعلها تقضى على سلطة السناتو ، فصار له ما للسناتو من حق العفو ، ولم يتقيد باحترام أحكام السناتو فى بعض القضايا . وصار للإمبراطور الحق فى الإشراف على جباية الضرائب ، وتعيين الموظفين . يضاف إلى ذلك ما حدث من ازدياد مكانة الإمبراطور ، حتى طغت على سلطة السناتو ، وعلى مكانة روما . ثم إن ما حدث من تغيير فى تأليف السناتو أضعف مكانة فئة السناتوريين ، وزاد من قوة الفئات الأخرى الموالية للإمبراطور (انظر :
Cambridge Ancient Hist. vol. XII p. 372. — 376.

وما صاحبه من إصلاحات أساسية ، يعتبر من الوجهة الدستورية ، انقلاباً على الماضي ، فكان هذا التغيير أمراً بالغ الأهمية ، لا يعدله إلا التغيير الذى أحدثه دقلديانوس . وقد مرت فترة الانتقال فى شيء من الهدوء والسهولة ، لأن الأباطرة لم يستبدوا بالأمر مرة واحدة ، فإذا كان أغسطس احتفظ بصلته بالماضى ، وأبقى على بعض النظم الجمهورية ، فإن قنسطنطين ومن سبقه من الأباطرة ، أقاموا على أساس جديد ما كان للإمبراطور من سلطة عليا ، وقضوا على كل مظهر جمهورى[٢] .

لم يترتب على الأوتوقراطية تغيير من حيث ولاية العرش ، إذ ظلت الإمبراطورية ، حتى سقوطها ، تحافظ على مبدأ انتخاب الإمبراطور . وارتبط الانتخاب بالسناتو والجيش . فالمناداة بالإمبراطور إنما تجرى من قبل السناتو أو الجيش ، ويترتب على المناداة أن يتخذ المرشح لقب إمبراطور . وجرت القاعدة بأن ما يقوم به فريق (الجيش أو السناتو) من الاختيار ، يلقى الموافقة من الفريق الآخر . فإذا لم تتم الموافقة، وقع الصدام بين الفريقين، حتى يتم إقرار الانتخاب[٣] . ويكفى لتحقيق هذا الغرض ، أن يمثل الجيشَ ، جانب منه . ومن الدليل على ذلك أن انتخاب الإمبراطور فى القسطنطينية صار موكولا للقوات المرابطة بها[٤] .

على أن تنصيب الإمبراطور لا يتم إلا بتهليل الشعب ورضاه . فالسناتو والجيش ، والشعب ، صار لكل منهم دوره فى احتفالات تنصيب الإمبراطور*[٥] .

وما هو معروف فى الشرق وقتذاك ، من أن الملك يعتبر إلهاً ، صار ممثلا فى التاج الإمبراطورى ، وأثرت هذه الفكرة فى كل ما يتعلق بالإمبراطور ، فهو فى ذاته إله ، وكل ما يتعلق به مقدس . وكل من يقدم للمثول بين يديه ، إنما يتصرف على أنه يؤدى فروض العبادة ، فيركع إلى الأرض ، ويقبل الرداء الأرجوانى ، الذى يلبسه الإمبراطور[٦] .

---

(٥) جرت العادة بأنه حينما يتم اختيار الإمبراطور من قبل الجيش والسناتو ، يخرج الإمبراطور إلى الملعب بالعاصمة ، فيستقبله الحاضرون ، الذين يعتبرون ممثلين للشعب ، بالتهليل ، وهذا الإجراء صار من تقاليد اختيار الإمبراطور .

http://www.al-maktabeh.com

وجرى التقليد منذ زمن بعيد على أن يخاطب الإمبراطورية بلقب السيد Dominus . وفى القرن الرابع الميلادى ظل الإمبراطور يستخدم هذا اللفظ ، ويشهد بذلك ورود عبارة Dominus Noster على النقود[٧] .

ومنذ زمن دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥) إلى أواخر القرن الخامس ، انقسمت الإمبراطورية إلى قسمين أو أكثر من الناحية الجغرافية . على أن التقسيم السائد، هو أنها انقسمت شطرين : الشطر الشرقى والشطر الغربى ، ويحكم الشطرين امبراطور واحد من الناحية القانونية . وهذا التقسيم ظلّ مستمراً من سنة ٣٩٥ إلى سنة ٤٧٦ بل إلى سنة ٤٨٠ . غير أن كُلاً من الشطرين اتخذ سبيلا معينا ، وما كان بينهما من علاقات لم تكن دائما ودية ، بل يصح أن يحدث بين الشطرين علاقات عدائية[٨] .

النظام الإدارى :

هذا النظام الذى جرى الاهتمام بتفاصيل إنشائه ، لم يكن المقصود منه ، سوى الإبقاء على وحدة الامبراطورية التى اشتهرت بعدم التجانس ، والتى تعرضت للتفكك ، وهددها الافلاس . يضاف إلى ذلك أن وضعها الجغرافى ألزمها بعبء ثقيل هو أن تدافع عن حدودها ، فى أربع جبهات[٩] . هى الراين والدانوب والفرات والنيل .

ثم أن إدارة دولة ضخمة ، بجهازين إداريين مستقلين ، برغم ما بينهما من التماثل والتشابه ، دون أن يجرى حكمها من مركز واحد ، بل من مركزين ، على أساس عدم التضحية بوحدتها ، يعتبر فى الواقع تجربة جديدة . وفعلا ظل هذان الجهازان الإداريان يعملان فى شىء من الاستقامة . وكان من الممكن أن يحققا نجاحا باهرا لو أن الحاكمين ، اللذين يقومان على إدارتهما ، امتازا بكفاءة فائقة ، غير أنهما تعرضا لمشاكل كثيرة ، وارتكبا أخطاء كبيرة ، لاسيما فى الناحيتين الاقتصادية والمالية[١٠] .

الإدارة المدنية :

تعرضت التقسيمات الإقليمية القديمة إلى شيء من التغيير والتعديل زمن دقلديانوس . إذ ازداد عدد الأقاليم ، وتضاءلت مساحتها . وتولى أمر هذه الأقاليم الجديدة حكام ، ليس في يدهم إلا سلطة مدنية خالصة[١١] .

ثم حدث أن عددا من الأقاليم المتجاورة اتحد سويا ، فتألف منها وحدات اتخذت اسم (Diocese) تطابق فى مساحتها الاقليم الذى كان معروفا قبل زمن دقلديانوس . وتولى حكومة هذه الوحدة الإدارية الجديدة موظف . ليس فى يده أيضا إلا سلطات مدنية خالصة[١٢] .

واجتمعت هذه الوحدات الجديدة ، بدورها ، فى أربع ولايات كبيرة ، يتولى كل منها موظف كبير بلقب Praetorum Praefectus يرأس كل الإدارة المدنية ، ويشرف على حكام الأقاليم والدوقيات[١٣] .

ويختلف هذا النظام ، عما كان معروفا من قبل ، فى ثلاثة مظاهر أساسية : انفصال السلطة المدنية عن السلطة العسكرية ، صغر مساحة الوحدات الإقليمية ، ثم إنه صار يفصل بين الإمبراطور وحاكم الإقليم ، موظفان كبيران ، وهما : Praetorum Praefectus ، Vicarius . ويصح أن نضيف إلى ذلك مظهرا رابعا ، ذلك أن الوالى الكبير (الذى جرده قنسطنطين من سلطته الحربية) حاز من ناحية الإدارة المدنية ، من السلطة مايزيد اتساعها ومداها على مانااله أى حاكم من حكام الأقاليم فى ظل نظام أغسطس[١٤] .

ولتحقيق التنظيم الإدارى ، انقسمت الامبراطورية الرومانية فى نهاية القرن الرابع ، إلى أربعة أقسام إدارية كبيرة وهى : غاليا ، وإيطاليا ، وإيلليريا ، والشرق. فاشتملت غاليا على بريطانيا ، وغاليه (فرنسا) ، وأسبانيا . والطرف الشمالى الغربى من أفريقيا . أما إيطاليا ، فشملت افريقية ، وإيطاليا ، والأقاليم الواقعة

بين نهر الدانوب وجبال الألب ، والطرف الشمالى الغربى من شبه جزيرة إيلليريا. وكل هذه الجهات ، تخضع للإمبراطور الذى يتخذ مقره بإيطاليا[١٥] .

وتعتبر إيلليريا أصغر الأقاليم الكبرى مساحة ، فاشتملت على داسيا ، ومقدونيا ، و بلاد اليونان .

وخضع لإقليم الشرق تراقيا ، ومصر ، والأملاك الامبراطورية بآسيا . وتخضع كل هذه الجهات للإمبراطور المقيم بالقسطنطينية[١٦] . واشتمل اقليم الشرق على خمسة أقطار ، dioceses وهى تراقيا ، والأملاك الإسيوية ، و بونطوس ، والشرق ، ومصر*[١٧] .

واتخذ حاكم كل قطر من هذه الأقطار لقب vicarius ماعدا حاكمى الشرق ومصر ، إذ اتخذ حاكم الشرق لقب كونت الشرق Comes Orientis واتخذ حاكم مصر لقب الوالى الأوجستالى[١٨] Praefectus Augustalis .

على أن خضوع وتبعية كل واحد من هؤلاء الموظفين لغيره لم يكن تاما ، أو دقيق التدرج . ذلك أن العلاقة مثلا بين حاكم القطر ، و بين الوالى Prefect لم تكن مباشرة فحسب ، بل إن فى استطاعة الامبراطور أن يتصل مباشرة بوالى الاقليم وحاكم القطر . على أن ثمت قطران كان لهما وضع خاص ، وهما أفريقيا وآسيا ، إذ أنهما خرجا عن اختصاص كل من الوالى أو الوالى الكبير ، و يحكمهما الأمبراطور مباشرة[١٩] .

و يقيم الوالى الكبير للشرق بالقسطنطينية ، و يضارعه فى المكانة الوالى الكبير لإيطاليا ، و يعتبران أعلى الموظفين مكانة فى الامبراطورية . و يؤدى الوالى الكبير أعمالا إدارية ومالية وقضائية ، بل وتشريعية . ويتم تعيين حكام

(*) اشتملت غالباً على أربعة أقطار ، وانقسمت إيطاليا ثلاثة أقطار ، بينما كانت ايلليريا عبارة عن قطرين .

الأقطار بناء على توصيته ، وله الحق فى عزلهم بعد موافقة الامبراطور . و يتلقى بانتظام تقارير من ولاة الأقاليم ، وحكام الأقطار ، عن أحوال الإدارة ، فى كل هذه الجهات ، وله خزانة خاصة . ومن واجباته أن يدفع نفقات الجيش و يمده بالمؤن . و يعتبر أيضا كبير القضاة ، فترفع إلى محكمته القضايا ، التى تم الفصل فيها فى محا كم صغرى ، وتعتبر أحكامه نهائية ، فلا يجرى استئنافها إلى الامبراطور . ومن حقوقه ، أنه بما له من سلطة يستطيع أن يصدر قوانين بريتوريه ، غير أن هذه القوانين لا تتعلق إلا بالأمور التنفيذية التى تحتاج إلى شىء من الشرح والتفصيل. وأما القوانين التى يصدرها الأمبراطور ، فتصدر فى صورة قرار موجه إلى الوالى الكبير ، باعتباره من رؤساء الإدارة الاقليمية ، ولديه من الأجهزة ما يكفل إذاعتها ونشرها فى سائر أنحاء الإمبراطورية[٢٠] .

ومن أهم مظاهر النظام الإدارى ، ما حدث من تنظيم فئة صغار الموظفين فى درجات هرمية مع زيادة عددهم ، والواقع أن لفظتى إدارة (ديوان) Office وموظف (Cfficial) مشتقتان من المعنى الذى تنطوى عليه لفظة officium التى تدل على هيئة من الموظفين العسكريين والمدنيين[٢١] . فلكل من الوزراء والولاة وكبار القادة العسكريين ، ديوان أو إدارة يتولى العمل فيها موظفون عديدون ، فكأن إدارة الحكومة انقسمت إلى دواوين عسكرية ومدنية ومالية[٢٢] .

النظام المالى :

للوقوف على مالية الامبراطورية الرومانية ، لا بد من الإلمام بثلاثة أمور هامة :

الأول : يتعلق بمصادر الدخل ، وكيف تجرى جبايته .

الثانى : مجموع ما يتحصل من الدخل (الخراج) .

http://www.al-maktabeh.com

الثالث : مجموع ما يجرى عادة انفاقه (المصروفات) .

اختلفت الادارة المالية زمن الأوتوقراطية عنها فى زمن الأمبراطورية . فعند تقدير الخراج ، كانت المساواة والوحدة هى المثل الأعلى ، الذى ينبغى السعى لتحقيقه ، كأن تتم المعـــاملة فى الأمبراطورية على قدم المساواة ، وذلك بإلغاء ما جرى بذله من الحقوق والإمتيازات والإعفاءات . مثال ذلك أن إيطاليا درجت على ألا تتحمل من الأعباء ما يتحمله سائر الأقاليم ، فتقرر حرمانها من هذا الامتياز طبقا للسياسة التى اتخذها دقلديانوس[٢٣] .

فمن خصائص النظام الذى أقامه دقلديانوس : — ماتقرر من توحيد الضريبة، والاستعانة فى جباية الضرائب بموظفين امبراطورية أو نواب المدن ، وماحدث من فرض ضرائب جديدة ، وتغيير فى طرق تقدير الضرائب[٢٤] .

الفصل الثاني

النظم الدينية

ظهور المسيحية :

لا نعرف إلا قليلا عن بدء دخول المسيحية إلى مصر . ومع ذلك تشير الروايات المتواترة إلى أن القديس مرقس هو الذى أسس كنيسة الاسكندرية ، وانه أول من بشر بالإنجيل في مصر ، وأنه يعتبر أول أسقف قام بالاسكندرية ومات بها . ثم نقل البنادقه رفاته فى القرن التاسع الميلادى الى مدينتهم البندقيه ، واعتبره البنادقة راعيا لمدينتهم ، وأقاموا بها تذكارا له، الكاتدرائية المعروفة باسمه . على أن ذلك لم يمنع الاسكندرية أن تنسب إلى هذا القديس ، كنيستها ، المعروفة بالكنيسة المرقسية .

وعلى الرغم من أن هذه الرواية لم يشر إليها كلمنت الاسكندرانى وأوريجين وهما من رواد الدعوة المسيحية فى مصر ، فإن ذلك لا يعتبر دليلا على أن القديس مرقس لم يؤسس الكنيسة المرقسيه .

ومن الأدلة التى تشير أيضا إلى وجـود المسيحية فى مصر فى القرن الأول الميلادى ، خطاب كلوديوس إلى أهـل الاسكندرية ، يطلب فيه إلى اليهود أن يقنعوا بما حصلوا عليه من امتيازات بالاسكندرية ، وألا يعملوا على دعوة اليهود من الشام للقدوم بحرا إلى مصر . وإذا أصروا على ذلك ، فان هـذا سوف يثير شكوكه فيهم ، وسوف يضطر إلى الانتقام منهم ،لأنهم يبثون سمومهم ، و ينشرون وباءهم فى أنحاء العالم، غير أن الأستاذ بل Bell لا يجد فى هذا النص إلا تحذيرا لما هو سائد فعلا من النزاع بين أهل الأسكندرية واليهود .

غير أنه لا شك أن الانجيل وصل إلى الاسكندرية قبل نهاية القرن الأول الميلادى ، فالاسكندرية كانت أكبر ميناء فى شرق البحر المتوسط، يفد إليها الناس

باستمرار من سوريا وآسيا الصغرى ، وبلاد اليونان . ويدل خطاب كلوديوس على وفرة القادمين إلى الاسكندرية من اليهود السوريين . ونحن نعلم من جهة أخرى أن اليهود كانوا يؤلفون بالاسكندرية جالية شبيهة بجالياتهم فى فلسطين ، ونرجح أن عددا منهم رأوا فى التعاليم المسيحية الجديدة نورا جديدا ، وإصلاحا لما هو قائم بينهم وقتذاك فى فلسطين أو مصر وغيرها ، حيث كانت هـذه الجاليات تبتغى الاصلاح والتطور . ولا بد كذلك أن يهود الاسكندرية ترددوا كثيرا إلى بيت المقدس (والعكس صحيح) . وسمع سكان مصر القادمين ، يتحدثون بألسنة مختلفة ، وليس من المعقول أنه لم يـكن بين هؤلاء السامعين مسيحيون ، أو أنه تحتم على زائرى الاسكندرية من المسيحيين ألا ينشروا الإنجيل بها .

على أن الثورة التى قام بها اليهود زمن تراجان (٩٨–١١٧م) لابد أنها قضت على كل أثر للمسيحية لو كانت المسيحية معروفة ، إذ كثر الخراب وعم الدمار بالاسكندرية ، وهلك عدد كبير من سكانها . غير أن المسيحيين أضحى لهم من خطورة الشأن ، ماجعل اليهود ينظرون اليهم بعين الكراهية ، وما جعل اليونانيين يهتمون بأخبارهم ، وماجعل الحـكومة الرومانية تحرم دينهم .

وكيفما كان الأمر ، فلا شك أن المسيحية بلغت من القوة فى الاسكندرية ماجعل لها وزنا وأهمية : فالمعروف أن الغنوسية* انتشرت فى مصر أواخر القرن الثانى للميلاد ، وأنه كان ينظر إليها . على أنها هرطقة ، أى نحلة مخالفة المذهب

(*) الغنوسية : من اللفظ اليونانى gnosis معناه معرفة ، مذهب لفرقة دينية فلسفية . ومبدؤها أن العرفان الحق ليس العلم بوساطة المعانى المجردة والاستدلال كالفلسفة ، وإنما هو العرفان التجريبى الحاصل عن اتحاد العارف بالمعروف . أما غايتها فهى الوصول إلى عرفان الله على هذا النحو ، بكل ما فى النفس من قوة حدس وعاطفة خيال . فالغنوسية نحلة صوفية تزعم أنها المثل الأعلى للمعرفة ، وترجع بأصلها الى وحى أنزله الله منذ البدء وتناقله المريدون سراً ، وتعد مريديها بكشف الأسرار الإلهية وتحقيق النجاة . فكان العامة منهم يؤخذون بسحر طقوسها ، وكان الخاصة يتعلقون بتعاليمها النظرية . وكانت الغنوسية تنزع إلى التأويل والتحوير ، فيما يتعلق بالأديان والمذاهب ، مدعية تحويلها الى معنى أعمق . (انظر : يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية الطبعة الثانية ؛ ص ٢٤٤).

السائد . ومعنى ذلك أنه كان يوجد إلى جانبها المذهب المسيحى الأرثوذكسى . وفى أثناء القرن الثانى للميلاد ، قامت مدرسة الاسكندرية المعروفة باسم الديداسكاليه Didascalée ، وهذا اللفظ مشتق من الفعل ديداسكو بمعنى يعلم ، وهى مدرسة لتعليم مبادىء الدين catechtical . وهذا دليل أيضا على أهمية الجماعة المسيحية.

انتشار المسيحية فى مصر :

وكانت الاسكندرية الحاضرة التجارية والبحرية ، فضلا عن كونها العاصمة الادارية لمصر . ولما كانت مقرا للحكومة الرومانية ، كان يزورها سكان مصر ، لا من أجل التجارة والمتعة فحسب ، بل أيضا من أجل التقاضى والأعمال الرسمية . واذا استقرت المسيحية بالاسكندرية[(٢)*] ، كان طبيعياً أن تنتشر منها إلى سائر أنحاء القطر المصرى .

ومن الدليل على أن المسيحية أخذت تنتشر بمصر فى القرن الثانى الميلادى ما جرى العثور عليه من البرديات ، وعددها أربع ، ترجع كتابتها إلى القرن الثانى الميلادى . و يتضح من هذه الكتابات أن الأثر المسيحى ، بمصر الوسطى ، التى تعتبر موطن البرديات التى تم العثور عليها ، كان عظيم الأهمية فى منتصف القرن الثانى الميلادى . وتضمنت الرسائل ، التى هى موضوع هذه البرديات ، بعض عبارات دينية وثنية . على أن الكاتب انما تعمد ذلك ، ليتجنب الأضطهاد الدينى . فالمسيحية وقتذاك كان ينظر اليها نظرة ازدراء واحتقار . ومن المخطوطات التى جرى العثور عليها ، مما يتعلق بالإنجيل ، نسخ من العهد القديم ، مكتوبة

(*) أورد يوزيبيوس قائمة بأسماء الأساقفة الذين تولوا كنيسة الاسكندرية ، مثل ديمتريوس (١٩٠ — ٢٣٣ م) ، ومن هؤلاء جوليان السابق مباشرة على ديمتريوس ، جرت الإشارة على أنه تولى ابروشيات الاسكندرية paroikiai . والإشارة إلى الأبروشيات ، بصيغة الجمع ، زمن ديمتريوس وخلفائه ، تدل على تنظيم كنيسة الاسكندرية ، واشتمالها على وحدات مستقلة ، يرأس كل منها قسيس (انظر Hardy : p. 11) .

باللغة اليونانية ، وثمة دليل آخر مستمد من المصادر الأدبية والبردية ، يدل على امتزاج المسيحية باليهودية، والفلسفة بالوثنية. وما جاء فى بردية اهناسية (الفيوم) ، من أقوال المسيح « ارفع قطعة الخشب فسوف تجدنى ، واقلب الحجر ، تجدنى » ، يدل على وصول المعرفة بالمسيح إلى بلد فى إقليم مصر فى أوائل القرن الثانى الميلادى .
ولم ينته القرن الثانى للميلاد حتى كانت المسيحية قد انتشرت فى الوجه القبلى .

غير أن من ظهر من المصريين أو السكندريين ، فى تاريخ الكنيسة ، فى منتصف هذا القرن ، لم يكونوا من الأساقفة الأرثوذكس ، بل كانوا من الغنوسيين الذين جعلوا المسيح مرتبطا بعقائد دينية ، لم تكن أصلا مسيحية . وفى زمنهم كانت روما هى المركز (العاصمة) الذى يتطلع له العالم الرومانى وقتذاك ، وذاعت بها تعاليم الغنوسيين . وترتب على ذلك أن تلقت الاسكندرية مزيدا من قوة الأثر المسيحى . فما ورد عن تنظيم الأبروشيات بالاسكندرية ، على نسق النظام المعروف فى روما ، ورواية القديس مرقس ، ليسا الا بقايا من الاتصال القديم بين مصر وروما . وتشير الرواية إلى أن القديس مرقس ، قدم من روما إلى الاسكندرية ، حيث نزل بحى اليهود بالاسكندرية ، وأن أول ، من اعتنق المسيحية كان أحد اليهود بها .

وكيفما كان الأمر ، فان الكنيسة عندما كان يرأسها ديمتريوس بالأسكندرية (١٩٠ — ٢٣٣ م) كانت هيئة متينة التنظيم ، تماثل فى نظامها ما هو سائد فى روما ، وتستخدم اللغة اليونانية فى طقوسها وتعاليمها . وما حدث بروما ، حدث مثله بالاسكندرية ، اذا شملت الكنيسة طائفة من المبشرين ، تولوا تعليم المريدين أصول الدين المسيحى ، وتولوا فى الوقت ذاته ، تقديم هؤلاء ، المريدين ، للسلطات الكنسية لتعميدهم وتنصيرهم ، ومن اشهر الدعاة بانتانيوس Pantaenus وكلمنت ويتمثل جهدهما فى ادارة مدرسة جرى إنشاؤها للمسيحية catochtical لكى تقابل المدارس الهلينستية القائمة على التقاليد الوثنية .

الاضطهادات الدينية :

وأول حادث هام فى تاريخ كنيسة الاسكندرية ، هو الاضطهاد الذى أعقب ماقام به الإمبراطور سبتيموس سفيروس Septimus Severus من زيارة لمصر سنة ٢٠٢ . وإذا كان المرسوم الإمبراطورى المتعلق بالاضطهاد الدينى موجهاً إلى أولئك الذين اعتنقوا المسيحية أو اليهودية ، فقد أصاب بصفة خاصة الطلاب ، الذين تلقوا من التعذيب ما يؤهلهم للتنصير والدخول فى المسيحية ، وتعرض للاضطهاد أيضا المعلمون الذين قاموا على تهذيبهم .

على أنه ينبغى ألا نظن أن الرومان اضطهدوا ديانة من الديانات ، بسبب العقائد الدينية ذاتها . فالمعروف أن الرومان ، شأنهم شأن اليونانيين ، اشتهروا بالتسامح ، طالما كانت الأديان لم تعرض نظمهم للهدم والتدمير . فاذا عمدت روما إلى قمع مذهب من المذاهب ، أو نحلة من النحل ، فانما يرجع ذلك إلى أسباب أخلاقية أو سياسية ، أو للسببين معا . إذ أن المسيحية كان ينظر اليها على أنها تنطوى على أعمال مخلة بالآداب ، ومنافية للأخلاق ، وأنها تهدد الأمن ، وتعمل على تقويض المجتمع . على أنه ثمة فارق بين ما حدث من اضطهاد الرومان للمسيحية ، وبين ما جرى من اضطهاد الهراطقة فى العالم المسيحى فى العصور الوسطى . فالديانة القديمة (الوثنية) انما تألفت أساسا من الشعائر والطقوس ، لا العقائد ، وعلى هذا الأساس كان كل ماهو مطلوب من الناس أن يشاركوا فيما للدولة من طقوس وشعائر ، وأن يقدموا القرابين لآلهتها . أما ما يختارونه لأنفسهم من عقائد فهو أمر لا يهم غيرهم .

ومن الخطأ الاعتقاد بأن الأضطهاد كان مستمرا . فالمسيحية لاتعبر مذهباً مخالفا الامن الناحية الرسمية . أما من الناحية العملية فإن المسيحيين ، اذا لم يظهروا عقائدهم ، ولم يمتنعوا عن المشاركة فى عبادة الوثنية ، فالراجح أن الحكومة تغض النظار عنهم .

http://www.al-maktabeh.com

وهذا واضح من رسالة وجهها الأمبراطور تراجان إلى بليتى : إذا جاء إليك مسيحيون ، وامتنعوا عن تقديم القرابين ، بعد أن تحدثت إليهم بالحسنى ، فلابد أن يتخذ القانون مجراه . غير أنه ينبغى ألا تصر على التفتيش عنهم . هذه هى روح تعاليم الإمبراطور إلى واليه بمصر .

والواضح أن كثيراً من الولاة تجنبوا استخدام العنف مع المسيحيين . بل الثابت أن كثيراً من الموظفين الوثنيين ، تولوا حماية عدد كبير من أصدقائهم المسيحيين زمن الاضطهاد . وأن اجراءات الاضطهاد لم تتخذ إلا أثناء هياج الشعب ، أو عند وقوع خطر يثير غضب الألهة . ويشير ترتوليان Tertullian إلى ذلك فيقول «إذا فاضت مياه نهر التيبر ، و بلغت أسوار المدينة (روما)، أو إذا لم تصل مياه النيل إلى الحقول ، أو توقفت السماء عن أن ترسل المطر مدرارا ، أو إذا زلزلت الأرض زلزالها ، أو حدثت مجاعة من المجاعات ، أو انتشر طاعون من الطواعين ، ارتفعت الصيحات من كل جانب ، تدعو إلى إلقاء المسيحيين إلى الأسود » .

ولم ينته القرن الثانى الميلادى ، حتى ازداد انتشار المسيحية ، فوصلت إلى الوجه القبلى . وابتدأ عقب ذلك الاضطهاد . فى اوائل القرن الثالث تعرض المسيحيون لحملة اضطهاد شديدة من قبل الأمبراطور سبتيموس سفيروس ، بلغ من شدتها بالاسكندرية ، أن المسيحيين واجهوا التعذيب والموت فى اصرار وثبات . وتقرر إرسال المسيحيين من سائر جهات مصر ، للمحاكمة بالاسكندرية . والمعروف أن كلمنت الاسكندرانى غادر الاسكندرية ، بعد أن تعرض للاضطهاد ، شأنه فى ذلك شأن كثير من الجماعات والأفراد .

وفى زمن الأمبراطور دكيوس Decius (٢٤٩ — ٢٥١) ، جرت محاولة للقضاء على المسيحية والتخلص من آثارها . فأصدر هذا الأمبراطور مرسوما

بحتم تقديم شهادة ، تتضمن الإشارة إلى أن حاملها قام بتقديم القرابين . ولابد من تقديم هذه الشهادة إلى لجنة تألفت لهذا الغرض . وقد عثر بمصر على عدد كبير من هذه الشهادات libelli ، ومعظمها جاء من الفيوم .

على أن المسيحيين لم يتساووا فى مواجه خطر الاضطهاد ، وذلك راجع إلى أن منهم من قام بتقديم القرابين ، ومنهم من حصل ، بفضل ما قدمه من رشوة للموظفين ، على شهادة تثبت أنه قام بتقديم القرابين ، وذلك كيما يريح ضميره من ذنب الارتداد عما ارتكبه من التزوير . وهؤلاء الذين ارتكبوا الغش ، وعمدوا إلى التزوير ، اشتهروا باسم libellatiei (أى حملة الشهادات)، وصار أمرهم موضع نقاش وجدل، بين المسيحيين . إذ طالب غلاة المسيحيين حرمانهم من الكنيسة ، ورأى المعتدلون جواز قبولهم بالكنيسة . وعلى الرغم من أن الرأى الأخير هو الذى انتصر ، فإن ذلك أدى إلى حدوث انشقاق فى المسيحية .

على أن عدداً كبيراً من المسيحيين ، صمدوا للاضطهاد ، وتحملوا ألوان التعذيب ، أو استشهدوا فى سبيل عقيدتهم ، أو لجأوا إلى الاختفاء . ويشير ديونيسيوس أسقف الاسكندرية فى القرن الثالث الميلادى ، إلى ما أصاب المسيحيين من التعذيب . فيصف ما تعرض له الرجال والنساء من الضرب المبرح بالعصى الغليظة ، وكيف كان يجرى فقء عيونهم بالغاب والبوص ، وكيف كان يجرى سحبهم وجرهم على أرصفة الشوارع مسافات طويلة ، حتى إذا بلغوا ضاحية المدينة ، رجموا بالحجارة أو أحرقوا بالنار ، وهذا الوصف إنما يدل على شدة التمسك بالمسيحية وانتشارها .

يشير ديونيسيوس أيضا إلى وفرة عدد المسيحيين فى الفيوم فى القرن الثالث الميلادى . ومع ذلك لم ينته القرن الثالث حتى صارت مصر إقليما مسيحيا ، بل إن الاضطهاد نفسه ، يعتبر من عوامل انتشار المسيحية . إذ أن بطولة الشهداء اجتذبت عدداً كبيراً من الوثنيين . ويقول تيرتوليان فى ذلك «إن دماء المسيحيين

تعتبر البذور التى نبتت ونشأت منها المسيحية » . كما أن الذين تعرضوا للنفى إلى الواحات أو الجهات النائية بمصر ، أو اختفوا عن أعين رجال الحكومة ، عملوا على نشر الديانة فى هذه المواضع . ثم انتهى الاضطهاد ، ومنح الإمبراطور جالينوس Gallienus للمسيحيين الحرية فى ممارسة العبادة ، فأضحوا أحرارا فى أن يشيدوا لأنفسهم كنائس . ففى قائمة رسمية ترجع إلى سنة ٣٠٠ م . ما يشير إلى وجود كنيستين فى اهناسيا ، احداهما بشمال المدينة والأخرى بجنوبها .

وتهيأت الأحوال وقتذاك لانتشار المسيحية ، لا سيما فى مصر . فالمبشرون الأوائل بالدين المسيحى كانوا يتحدثون اللغة اليونانية . ولا شك أن السكان اليونانيين أو الهلنستيين كانوا من أوائل الجماعات التى اعتنقت المسيحية ، أما الذين بلغوا حظا كبيرا من العلم واشتهروا بالذكاء ، فإنهم اتخذوا لأنفسهم نحلة دينية وهى المعروفة باسم Syncreticism ، تدعو إلى اعتبار وجود إله واحد ، كما تدعو إلى مستوى رفيع من الأخلاق ، وكان لهذه النحلة شعائر وطقوس بالغة التأثير ، ومن خصائصها الاعتقاد فى الخلود . وهذه النحلة تشابه إلى حد كبير فى خصائصها ما كان للمسيحية من خصائص .

أما عامة الناس ، ومن لم ينل من المصريين إلى حظا ضئيلا من الهلنستية ، فإنهم وجدوا فيما هو معروف لهم من عبادة أوزريس ، السبيل إلى البعث والنشور . وعلى الرغم من الاختلاف الواضح بين هذه العبادة و بين المسيحية ودعوتها ، فإن عامة المصريين لم يتبينوا الفرق بين ما يمثله أوزريس من بعث ، هو أقرب إلى الشعوذه والسحر ، و بين ما جاءت به المسيحية من البعث الذى يعتبر من الأمور الروحية . فقد أدرك المصريون مظهر التشابه وأهملوا وجه الاختلاف .

من العسير أن نحدد التاريخ الذى شرعت فيه المسيحية تؤثر فى السكان الوطنيين الذين يتحدثون اللغة المصرية ، غير أنه لا شك أن ذلك التأثير اكتمل

فى منتصف القرن الثالث الميلادى .فنى هامش بعض البرديات التى ترجع إلى القرن الثالث الميلادى شروح انجيلية باللغة القبطية ، وفى ذلك دلالة على أن بعض المصريين كانوا يترجمون من اللغة اليونانية إلى اللغة القبطية .

وفى خطاب ديونيسيوس ، الذى تقدمت الإشارة إليه ، جاء ذكر أسماء بعض المصريين ، بين الذين استشهدوا فى سبيل عقيدتهم . وهذا يدل على انتشار المسيحية بين المصريين . وعلى اعتناق المصريين للمسيحية كما يدل على الأثر المصرى فى الكنيسة المسيحية . ويؤيد هذا الزعم أن الحركة الديرية بدأت حوالى ذلك التاريخ .

وفى الكنيسة الأولى لم يكن ثمة ما يدعو إلى وجود الشقاق فى الدين . فالمسيحيون فى عصر الرسل تأثروا بما صورته حياة المسيح من تجارب وعاطفة ، وآمنوا بالبعث ، واعتقدوا فى عودة المسيح ، لكنهم لم يحفلوا بالأفكار الدينية المجردة . إذ بلغ من شدة تأثرهم بالمسيح أنهم لم يكونوا فى حاجة إلى دراسة مفاهيم الأصول المسيحية Christology . نعم نلمس فى العهد الجديد، لاسيما رسائل القديس بولس ، بداية علم اللاهوت (أصول الدين)، غير أنه كان فى صورة أولية ، غير كاملة . أما فى الفترة التى تلى عصر الرسل ،وحين أخذت الكنيسة فى النمو ، وازداد عدد المسيحيين ، وأقبل الوثنيون على اعتناق المسيحية ، ومن بينهم من اشتهر بالتبحر فى العلم ، والتعمق فى الفلسفة المعروفة وقتذاك ، فقد صار من المحتم تنظيم وتحديد التعاليم أو العقائد الأساسية للمسيحية . ولم يكن هذا الأمر سهلا ميسورا. إذ أن عددا كبيرا من المسيحيين الأوائل ، كانوا ينزعون إلى التمسك بالتقاليد اليهودية التى لا علاقة لها بالديانة الجديدة (المسيحية) ، وقد أثار ذلك قدرا كبيرا من الجدل والنقاش . وكذلك كان شأن المسيحيين الذين تحولوا من الوثنية إلى المسيحية ، فإنهم ظلوا يمارسون عقائدهم المسيحية فى صورة منتزعة من الماضى أو التراث الوثنى ، برغم عدم ملاءمتها وموافقتها للتعاليم المسيحية وقواعدها . ولهذا

http://www.al-maktabeh.com

يعتبر ما حدث بالكنيسة فى أول عهدها ، من هرطقات ، نوعا من المحاولات ، التى عمد إليها المتنصرون عفوا وعن حسن نية ، لتشكيل حياتهم وتجربتهم المسيحية فى صورة يونانية ، وذلك أمر ينكره رجل الكنيسة المتفقه فى دينه .

على أن مصر تعتبر موطنا خصبا ترعرعت فيه الهرطقات ، بفضل ما اشتهرت به من أنها من أعظم وأقدم مواطن الديانة فى العالم القديم ، وبفضل اختلاف عناصر سكانها ، وشهرتها فى الاعتقاد فى الآخرة . وتشير الأدلة الأثرية إلى أن المصرى عند اعتناقه المسيحية ، احتفظ بكثير من أفكاره الوثنية . فالمصريون القدماء يعتقدون فى استمرار الحياة بعد الموت ، وهذا هو السر فى أنهم لجأوا إلى تحنيط الجثث ، والاحتفاظ بأدوات الميت . واعتقد المسيحيون أيضاً فى بعث الأجسام ، غير أن القديس بولص ، يشير إلى أن هذا البعث ليس إلا بعثا روحيا . ومع ذلك فقد عثر على جثث لمسيحيين مصريين جرى تحنيطها ، كما وجد بمقابرهم بعض الأدوات المادية التى تخص المتوفين .

هذا الدليل الأثرى يدل على مالاقاه المسيحيون الأوائل من صعوبة فى التخلى عن العادات الوثنية . ومن أقدم الهرطقات التى تأثرت بالأفكار المصرية مايعرف بالغنوسية gnosticism التى انتشرت فى سائر العالم القديم ، غير أنها كانت شديدة الارتباط بمصر . لم تكن الغنوسية هرطقة مسيحية خالصة ، إذ توجد هرطقات غنوسية وثنية ، وحفل التصوف بكثير من المؤثرات الغنوسية . فالغنوسية المسيحية ، يصح اعتبارها من ناحية ، محاولة للتعبير عن العقيدة المسيحية فى صورة فلسفية ، وتعتبر من ناحية أخرى ، محاولة لتشكيل المسيحية وفقا للوثنية السائدة وقتذاك . والواقع أن الاتجاهين يعتبران متفقين من الناحية العملية . فالفلسفة كانت دينية ، واتخذت الغنوسية صورا مختلفة ، تتدرج من التأمل العميق ، إلى الشعائر الخفية التى ينكرها الصالحون والأتقياء ، من

الغنوسيين . فالمعروف أن الفكرة اتخذت اسمها من gnosis ومعناها بلوغ معرفة الله وطبيعته ، وإدراك طبيعة الكون وكنهه . وثمت فارق كبير بين هذه الغنوسية ، و بين فلسفة بلاد اليونان القديمة . فالغنوسيون يعتبرون الانسان عاجزا عن إدراك ، ما عند الله من علم ومعرفة ، فلا يحظى بالغنوسية ولا يتمتع بأسرارها إلا الفئة أو الصفوة المختارة ، ولا يمكن بلوغها إلا بتأدية شعائر خاصة ، مثل دعوة أسماء سرية ، وتلاوة تعاويذ خاصة ، واستخدام حروف سحرية . فالغنوسية إنما تدعو إلى التجرد من المادة على أساس أن المادة شر . وتنظر الغنوسية إلى العالم نظرة مزدوجة ، فهى من جهة تعتبر المادة شرا ، و يتفرع على ذلك اتجاهان أخلاقيان متناقضان : إذ أخذ بعض الغنوسيين يدعون إلى التزمت والصلابة فى الخُلُق ، و بلغ من شدة تزمتهم أنهم حرموا العلاقة الجنسية والزواج ، بينما اتخذ الفريق الآخر الاتجاه المضاد الذى يتمثل فى الامعان فى الاستهتار .

وكان طبيعيا أن يفكر المسيحيون فى مقاومة هذه النزعات المنحرفة ، وأن ينشئوا لذلك المدرسة التبشيرية Catechtical ، بمتحف بالاسكندرية وأن يجعلوا مهمتها أن تهىء للمسيحيين من الوسائل ، ما يستطيعون بها أن ينالوا من التعليم مايزيدهم قدرا وشأنا . وما يمدهم بمناعة ضد التعليم المستمد من الجامعة الوثنية .

كلمنت الاسكندرانى :

وأول رئيس معروف لهذه المدرسة التبشيرية بالاسكندرية ، كان بنتائينوس Pantaenus الذى ينتمى فيما يقال إلى اليهود السامرة . غير أنه درس الفلسفة اليونانية ، وتأثر إلى حد كبير بالفلسفة الرواقية ، وخلفه على هذه المدرسة أواخر القرن الثالث الميلادى ، كلمنت الاسكندرانى Clement of Alexandria وهو مواطن أثينى ، لم يعتنق المسيحية إلا فى الأربعين من عمره . ومن مبادىء كلمنت مزج ما اشتهرت به المسيحية الخالصة من التقوى ، بما انطوت عليه الثقافة اليونانية

من الخير والمحبة . واشتهر كلمنت بسعة الاطلاع فى الآداب اليونانية ، واقتبس منها فى كتاباته قدرا غير قليل . والواقع أن كتابات كلمنت كانت مصدرا رجع إليه الباحثون فى الدراسات القديمة ، الذين يسعون للحصول على شذرات من المؤلفات القديمة . وعلى الرغم مما اشتهر به كلمنت من متانة الخلق ، فإنه لم يكن متعنتا ولا متعصبا ، بل كان يميل إلى الاعتدال والتسامح ، فأجاز شرب النبيذ فى اعتدال ، وأجاز للنساء أن يتخذن الحلى والملابس الفاخرة ، غير أنه أنكر المغالاة والاسراف فى التبرج والزينة . ومن شواهد اعتداله أنه كان يعتبر الحماس من أجل التضحية والاستشهاد ، ضربا من ضروب الانتحار ، ويخالف كلمنت من جاء بعده من المتنسكين ، فى أنه لم يعتبر الامتناع عن الزواج فضيلة ، واشتهر بميله للفكاهة والنكتة والسخرية . ولم يجد ما يمنع من ممارسة التداريب الرياضية ، وهذا أمر لم يألفه المسيحيون . وتأثر كلمنت بالغنوسية ، شأنه فى ذلك شأن ، سائر الكتاب الاسكندرانيين . وعلى الرغم من أنه كان شخصية جذابة قوية ، فإنه لم يضارع من الناحية الفكرية ، أريجين الذى تولى من بعده أمر المدرسة التبشيرية بالاسكندرية .

ومن مؤلفات كلمنت ، رسالته عن المسيحية ، وهى المعروفة باسم المدخل إلى المسيحية Introduction to Christianity التى ألقت ضوءا على الحالة العقلية للعصر الذى شهد موقف الثقافة اليونانية من الديانة الجديدة ، وكيف تأثرت المسيحية بالثقافة اليونانية . وتشير رسالته المعروفة باسم « حديث إلى اليونانيين Address to the Greeks إلى ما للمسيحية من روعة وجاذبية . وتشرح رسالته المعروفة بالمؤدب Tutor الطريق لما يلائم المسيحيين من أساليب الحياة والسلوك . أما مصنفه المعروف بالمتفرقات miscellanies فهو عبارة عن مجموعة آراء عالجت أساسا الغنوسية الحقيقية ، ويذهب كلمنت فى هذا الكتاب إلى أن الغنوس الحقيقى هو المسيحى المستنير الذى يستطيع أن يستخلص من الفلسفه والعقل ، أسباب الحياة المسيحية ودلالتها الصحيحة .

أريجـــين :

وهو من أهل الاسكندرية ، ولد بها سنة ١٨٥ م ، وأبوه ليونيـداس Leonidas الذى استشهد فى اضطهاد سفيروس ، ولم ينقذ أريجين من مصيره المحتوم سوى أمه ، التى أخفت ملابسه فمنعته عن اللحاق بوالده . تلقى الصبى قسطاً كبيراً من التعليم . ولما مات أبوه ، وجرت مصادرة ممتلكاته ، أخذ أريجين يكسب عيشه عن طريق التدريس . ولم تمض سنتان على ذلك ، أى حين بلغ التاسعة عشرة من عمره ، حتى أخذ يرشد التلاميذ الوثنيين إلى الإيمان الصحيح (المسيحية) . ولما سمع بذلك ، ديمتريوس أسقف الاسكندرية ، عينه رئيساً للمدرسة التبشيرية ، وهى وظيفة كانت شاغرة بسبب الاضطهاد الدينى ، وكان يشغلها كلمنت . وشغل أريجين هذه الوظيفة سنوات عديدة ، إذ بقى فى رئاستها حتى سنة ٢٣٢ ، حين وقع نزاع بينه و بين ديمتريوس ، أدى إلى أن يغادر أريجين الاسكندرية ويقيم فى قيسارية بفلسطين ، ولم يلبث أن مات فى صور سنة ٢٥٣م متأثراً بما قاساه من اضطهاد دكيوس سنة ٢٥٠ ، و بما تعرض له من التعذيب والتنكيل على أيدى رجال الحـكومة .

و يعتبر أريجين أشهر شخصية فى تاريخ المسيحية المصرية ، لما اشتهر به من الجرأة والتعمق فى أصول الدين ، فضلا عما اشتهر به من التقوى والقداسة . ولقى أريجين من تلاميذه الإجلال والإكبار ، ومن هؤلاء جريجورى القبادرقى ، الذى قدم إلى بيروت لدراسة القانون ، غير أنه ما كاد يسمع عن أريجين و يجتمع به ، حتى تحول إلى دراسة المسيحية ، ولم يلبث أن أصبح أسقفا .

اشتهر أريجين بدراسة فلسفة أفلاطون ، وتأثر بالغنوسية المصرية ، ولم يتهم أثناء حياته بالهرطقة أو الإلحاد ، غير أن التهمة لحقت به بعد وفاته ، فأصبحت الأريجينية origenism تهمة استخدمها بطاركة الاسكندرية أمثال تيوفيل

وكيرلس فى نضالهم ضد بطاركة القسطنطينية . ذلك أن بعض آراء أريجين ، لا سيما ما يتعلق منها بالتثليث ، أى العلاقة بين الابن والروح القدس والأب ، لم تكن تتفق تماماً مع الأرثوذكسية الخالصة التى اشتهرت بها الأزمنة المتأخرة (زمن تيوفيل وكيرلس) ، والمعروف أن الفقه المسيحى فى الزمن الأول كان مرنا خالياً من الصلابة ، ثم أدركته الصلابة بعد ذلك .

والله عند أريجين الجوهر الأول لجميع الأشياء ، وليس المسيح هو الإنسان الآدمى ، الذى يصفه العهد الجديد (الإنجيل) ، بل هو العقل الذى ينظم العالم ، وهو بهذا الوصف قد خلقه الله الأب ، وجعله خاضعاً له . والنفس عند أريجين تنتقل فى مراحل وتجسدات متتالية ، قبل أن تدخل الجسم ، وهى تنتقل بعد الموت فى مراحل متتالية أيضاً ، قبل أن تصل إلى الله . وجميع الأنفس ، حتى أطهرها تتعذب زمناً فى المطهر ، ولكنها كلها تنجو آخر الأمر .

لم يبق من كتابات أريجين إلا شذرات . وكتابه المعروف باسم Contra Celsum الذى يقع فى ثمانية أجزاء ، وصل إلينا كاملا ، ويتضمن دفاعه عن المسيحية . والجانب الأكبر من كتابات أريجين اتخذ صفة شرح الإنجيل ، أو شرح ما كان يتلى من المواعظ فى مجالس المؤمنين . وما بقى من ترجمات أريجين اللاتينية ، إنما تتمثل فى كل ما يتعلق بشرح وتفاسير الكتاب المقدس.

واهتم أريجين بصفة خاصة بتقويم عبارة التوراة العبرية ، وحاول أن يصوب الترجمة اليونانية المعروفة وقتذاك باسم septuagint(٣*) ولم يكن أريجين يعرف

(٣*) هى الترجمة اليونانية للعهد القديم (التوراة) ، وسميت كذلك لأنها فيما يقال تمت على يد سبعين من اليهود ، وكان ذلك فى عهد بطليموس فيلادلفوس (انظر : بل : مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى — ترجمة الدكتورين عبد اللطيف أحمد على ، ومحمد عواد حسين ص ١٠٥ ، حاشية ١ .

من العبرية إلا قليلا . غير أن هذا القدر القليل الذى عرفه ، كان كافياً بحيث يمكنه من أن يحكم على المترجمين اليهود أمثال أكويلا Aquila وسيما كوس Symmachus وتيودوتيون Theodotion . وجمع أريجين كل ترجمات هؤلاء للكتاب المقدس ، فى مؤلف واحد اشتهر باسم Hexapla ، حيث عرض فى أعمدة متوازية ، العهد القديم (بالعبرية) ثم النص العبرى فى لفظ يونانى ، ثم ترجمة أكويلا ، ثم ترجمة سيماكوس ، وترجمة تيودوتيون . أما العمود السادس فاختص بالترجمة اليونانية بعد أن راجعها أريجين ، الذى قام بإجراء بعض تصحيحات ، ومعظمها أسماء أعلام ، حتى تتفق مع النص العبرى ، وغير أريجين كذلك وضع بعض الألفاظ والعبارات ، لتحقيق نفس الغرض . وإلى جانب هذه التعديلات وضع علامة شرطة — إزاء الفقرات التى لم ترد فى الترجمة السبعينية ، والتى أضافها من ترجمة أكويليا أو تيودوتيون ،ووضع علامة ÷ إزاء الفقرات الواردة فى الترجمة السبعينية ، والتى لم ترد فى النص العبرى .

هذا المصنف الضخم Hexapla الذى بلغ فى الحجم ستة أمثال حجم العهد القديم ، تعرض للدمار ، فلم يصل إلينا منه إلا فقرات تناثرت فى بعض مخطوطات الترجمة اليونانية للعهد القديم ، وفى مؤلفات رجال الكنيسة .

ومن العسير على العلماء المحدثين أن يحكموا على أريجين من الناحية التاريخية البحتة . إذ أن البحث الحديث إنما ينزع نحو النقد ، ولم يكن اريجين إلا رجل سريع التصديق لما يطالعه ، فجمع كل ما كتبته الكنيسة ، وكل ما قرأه وفسره وشرحه اعتبره من تعاليم الكنيسة . وكتابه المعروف باسم الدفاع عن المسيحية ، الذى ألفه سنة ٢٤٨ م ، قبيل اضطهاد ديكيوس ، وهو فى الستين من عمره ، إنما تضمن أكبر دفاع عن المسيحية . إذ اشتمل هذا الكتاب على كل ما أورده كيلسوس Celsus فى مهاجمة المسيحية ، وما قدمه اريجين من براهين

http://www.al-maktabeh.com

وأدلة لنقض آراء كيلسوس . فهو الكتاب الذى يتضمن مذهب اريجين . والمعروف أن كيلسوس ، كتب ما كتبه زمن الإمبراطور ماركوس أوريليوس ، وأنه كان وثنيا ، متشبعاً بفلسفة افلاطون . وقد اهتم كيلسوس بهذا الدين الجديد (المسيحية) الذى أخذ فى الظهور والذيوع ، ورأى فيه خطراً يهدد المجتمع والدولة . فأخذ على نفسه أن يرد على ماتضمنته المسيحية من مزاعم ، وذهب إلى أن المسيح ليس إلا دعيا دجالا يعتمد على الشعوذة . وأعلن أن المسيحية إنما تطلب الإيمان الأعمى ، وزعم كيلسوس بأنه على دراية تامة بالكتب المقدسة الأصلية عند اليهود والمسيحيين ، وأنه على علم تام بالعقائد المسيحية الصحيحة . ولم يقتصر كيلسوس على مهاجمة المسيحية ، بل طلب إلى المسيحيين أن يؤيدوا الإمبراطورية ، التى تحميهم وذكرهم أنهم يجدون فيها من السعادة مالا يجدونه عند رفاقهم من المسيحيين . وتساءل لماذا لم يحترم المسيحيون شعائر الإمبراطورية الدينية وطقوسها ، إذا لم يرغبوا فى التخلى عن ديانتهم ، ولماذا لم يشاركوا فيها ؟

لم نعرف مقدار ما لقى هذا الكتاب من الاهتمام . غير أنه من المعروف أن اريجين انبرى إلى الرد على كيلسوس ، وكتاباته ، بعد أن لفت نظره إليه أحد أصدقائه . وتتبع اريجين ما أثاره كيلسوس من النقط المختلفة ، وأخذ يدافع عن المسيحية ، دفاعا يدل على درايته التامة بعلوم اليونانيين . وعلى الرغم من هذه المعركة بين اريجين وكيلسوس ، فإنهما كانا يتفقان فى تقدير افلاطون وتبجيله . ويذهب اريجين كذلك إلى أن ما تعرض له المسيح من التعذيب ، لم يكن إلا جانبا من امتحان المسيح جثمانيا وروحيا . وقد كان منهج اريجين هو استخدام الفلسفة اليونانية فى تفسير الديانة المسيحية ، على الرغم من أنه مسيحى متعصب ، مستعد لأن يستشهد فى سبيل عقيدته ، وليس فى وسعه التوفيق بين المسيحية وبين الفلسفة اليونانية .

كان أريجين يعرف ما تنطوى عليه الإمبراطورية الرومانية الموحدة من صفة إلهية، ولم يمنعه ذلك من أن يسهم فى نشر المسيحية فى كافة ارجائها ، فهو لا يدين مطلقا بالولاء للحكومة الرومانية . كذلك لم يحفل أريجين بدعوى كيلسوس ، التى يحث فيها المسيحيين على المشاركة فى تحمل مسئوليه الأعمال العامة ، بل رأى أن يلجأ المسيحيون إلى الهيئات المسيحية الاقليمية بكل مدينة ، التى اشتهرت بسمو مبادئها ، وتفانيها فى خدمتهم . هذه الهيئة تألفت من رجال ، لم يجر اختيارهم لأطماع خاصة ، بل لما اشتهروا به من التواضع ، وهذه الهيئة هى الكنيسة .

وما اشتهر به أريجين من حب للأدب اليونانى ، وما يدين به من تقدير للفلسفة اليونانية ، إنما يفترق عنده عن الثقافة اليونانية ، والدولة الوثنية التى ترعاها. إذ أن روح الاستشهاد غلبت عليه ، ووجهت حياته الثقافية والمدنية

وخلف أريجين فى رئاسة المدرسة التبشيرية هيراقلاس Heraclas الذى صار أسقفا للاسكندرية ، ومن بعده جاء ديونيسيوس الذى تولى رئاسة المدرسة ، والذى صار أسقفا أيضاً (٢٤٨ — ٢٦٥م) . وهو يمثل المسيحية الأسكندرانية ، وهو صاحب فكرة قبول توبة المسيحيين الذين أذعنوا لأوامر الحكومة .

وفى المدرسة التبشيرية بالاسكندرية ، كان للكنيسة أثر أو أثران بالغا الأهمية فى تاريخ المسيحية . إذ كان للاسكندرية أكبر الأثر فى نمو الفقه المسيحى Theology وتوطيد قواعد الكتب المقدسة ، وتقويم نص العهد الجديد (الانجيل) ، وظهور العامل القبطى فى لغة الكنيسة المصرية ، فأسهمت الأسكندرية المسيحية بذلك فى تحرير نص الانجيل واستخلاصه[(٤)*] ، مثلما أسهمت الاسكندرية

(٤*) الواضح أن الكنيسة كانت على اتصال وثيق بالعنصر المصرى من السكان ، ولا شك أنها استخدمت اللغة القبطية فى الثلث الأخير من القرن الثالث الميلادى . ومن الدليل على أن القديس أنطون عاش شطراً من حياته فى هذه الفترة ، وعلى الرغم من أنه لم يعرف اللغة اليونانية فإنه لم يلجأ إلى الصحراء إلا بعد استماعه لما يتلى من المواعظ فى الكنيسة . والراجح أن الدروس كانت تتلى باليونانية ، ثم يجرى ترجمتها إلى القبطية . ولم يلبث الإنجيل أن ترجم إلى القبطية . وما كاد يستهل القرن الرابع الميلادى حتى أصبحت اللغة القبطية كافية لتحقيق الأغراض الدنيوية والكنسية .

انظر: Hardy : Christian Egypt. p. 35

الوثنية من قبل ، فى نمو وتقدم الآداب اليونانية القديمة . أما الأثر الثانى وهو الأثر الذى يعتبر من مبتكرات مصر ، فهو الديرية .

الرهبانية أو الديرية . Monasticism

تعتبر مصر الوسطى مهد الرهبانية المسيحية . ولكن الشىء الجديد فى رهبنة القرن الثالث الميلادى ، لم يكن حياة التنسك التى عاشها المسيحيون ، والتى ترجع إلى أقدم العصور ، بل الجديد هو الانسحاب من العالم والتوحد فى الصحراء ، فالمتنسك من هذا النوع ، الذى ينسحب من العالم يعرف باسم المنقطع عن العالم anchorite من anchoretes اليونانية ومعناها السائح المبتعد عن القرى ، ساكن الصحراء ، وهو أيضاً الناسك eremite ، وراهب monachos لأنه يعيش منعزلا . أما لفظ coenobites الذى لم يستعمل إلا فى زمن متأخر ، فجرى إطلاقه على الراهب الذى يعيش بعيداً عن العالم مع جماعة من أمثاله ، غير أنه ينبغى أن تعرف بأن نظام الرهبانية إنما قام أصلا ، قبل أن يتخذ أسماء معينة من هذه الأسماء التى ذكرناها .

والبحث عن مصادر الرهبنة ، يقتضى الرجوع أولا إلى الكتاب المسيحيين الأوائل الذين عالجوا هذا الموضوع ، والذين أرجعوا الرهبانية إلى ما درج عليه المسيحيون الأوائل فى بيت المقدس ، من حياة مشتركة (جماعية) . أما علاقة الرهبانية بما سوى المسيحية من المذاهب والاعتقادات ، فأمر توضحه عادة مصرية قديمة ، تتمثل فى فكرة الانسحاب من الدنيا لتحقيق رغبة دينية ، وهى فكرة انتشرت لدى السكان الوطنيين ، وجوهرها المزج بين التقوى والتدين وبين الفلسفة اليونانية . فى القرن الثانى قبل الميلاد اشتهر معبد سيرابيوم Serapeum بما كان فيه من زوايا (خلوات) ، غير أننا لا نتبين مدى هذه العزله ، والغرض

منها . ومن هذا القبيل أيضاً مايشير إليه الفيلسوف فيلو Philo من قيام التآخى بين العلماء اليهود فى مصر، والتجائهم بعد التآخى إلى زوايا أوخلوات monasteria واقعة على شواطىء بحيرة مريوط ، للتفكير فى القانون ، غير أنهم كانوا فى أثناء خلواتهم يجتمعون سويا عند تناول الطعام ، أو تأدية الصلاة .

ونحن نلمس هنا أوجه التشابه بين ما قام به رهبان مصر فى وقت متأخر ، وبين ما حدث فى الزمن الغابر ، من حيث الموضع ، ومن حيث نواحى النشاط ومن حيث صفة القائمين به ، حتى ليزعم بعض مؤرخى الكنيسة أن فيلو لابد أنه وصف الجماعة المسيحية الأولى ، التى أقامها القديس مرقص ، غير أنه لا داعى لهذا الزعم والافتراض . لأن فيلو نص على أن ما كان معروفاً عند يهود الإسكندرية من التقوى والصلاح ، ربما كان له نظير عند الجماعة المسيحية .

وجرى حديثاً كشف نقش فى (اخميم) panopolis التى صارت مركزاً لصورة خاصة من صور الرهبانية المصرية . ويشير هذا النقش إلى وجود مزار (مشهد) دينى تحيط به حديقة ، وأنه جرى تشييده لغرض الضيافة والتأمل الدينى . على أن أول حالة معروفة عن التجاء المسيحيين إلى الاعتزال والتنسك ، ظهرت فى فلسطين ، وتتمثل فى اعتزال أسقف بيت المقدس narcissus فى مكان مهجور ، أوائل القرن الثالث الميلادى .

أما فى مصر فيعتبر الانسحاب anachroesis من القرية إلى الصحراء ، وسيلة من وسائل الاحتجاج أوالهروب ، من قدوم جباة الضرائب أو رجال الشرطة. وتهيأت بمصر الوسائل لتيسير هذا الانسحاب . فإن كثرة القوافل بين النيل وموانى البحر الأحمر يسَّرَ التوغل فى الصحراء ، والبعد عن الاتصال بالعالم، بينما ساعدت فى الوقت ذاته على تيسير الحصول على المواد الضرورية للحياة . ويروى ديونسيوس ، أن عدداً كبيراً من المسيحيين ، هربوا إلى الصحراء فراراً من اضطهاد ديكيوس ،

http://www.al-maktabeh.com

فهلك منهم عدد كبير على يد البدو ، في الجبال الواقعة غرب البحر الأحمر . غير أن هؤلاء اللاجئين لا يصح اعتبارهم رهباناً ، على الرغم من أنه ينطبق عليهم المعنى الحرفي للفظتى ناسك hermit ومعتزل . أما من وجهة نظر الحكومة فإنهم لم يختلفوا عن سائر الناس الذين لجأوا إلى الصحراء هربا من تنفيذ القوانين . غير أنه من جهة أخرى يجوز اعتبار هروبهم دليلا على شدة إيمانهم ، إذ أنهم آثروا النفى والتشريد ، على خطر الارتداد عن الدين ، كما آثروا النفى خوفاً من أن تعوزهم القوة لمواجهة الاستشهاد والتعذيب . وفى ظل هذا الوضع أخذ يظهر مبدأ جديد يجعل الناسك يلى فى المكانة الشهيد .

أنطون : (أنطون Anthony)

يشير أثناسيوس إلى أن أنطون كان أول شخص ، على الأقل فى مصر الوسطى ، لجأ إلى الصحراء من أجل التنسك المسيحى ، فلو أن أنطون وقع وثيقة من الوثائق القانونية التى تتضمن الاعتراف بديانة الإمبراطورية ، لأصبح من غير شك من المواطنين الرومان . غير أنه على الرغم من أن أنطون سليل أسرة على جانب كبير من الثراء ، تقيم بقرية من قرى مصر الوسطى ، (بوصير ، قمن العروس ، مركز الواسطى ، محافظة بنى سويف) . فإنه كان قبطيا فى ثقافته ولغته ، ومصرياً خالصاً فى اتجاهه ونزعته . والحياة المسيحية عنده ، هى محاربة الشيطان (وكبح جماح النفس عن السعى إلى خيرات الحياة المادية) ، وشرط النجاح ، فى هذه المعركة هو التهذيب والشجاعة .

ولد أنطون حوالى سنة ٢٥٠ م . ولما بلغ العشرين من عمره ، توفى والده وكثر تردده على الكنيسة . و بينما كان ذات مرة يستمع فى الكنيسة إلى الآية الواردة فى الإنجيل (متى : ١٩ : ٢١) « إذا أردت أن تكون كاملا ، فبع ما عندك واتبعنى ، فسوف يكون لك كنز فى السماء » ، واعتبر هذه الآية موجهة

إليه ، فمضى إلى تحقيقها . وعندئذ باع ما كان يملكه من الأراضى ، التى تبلغ نحو ٣٠٠ فدان arourae ، وتصدق بثمنها على الفقراء ، وعهد ، برعاية أخته إلى مؤسسة (دير) للعذارى . وعكف على العمل والصلاة تحت إرشاد ناسك شيخ كبير السن ، ودخل بذلك فى زمرة المتنسكين بالقرية . ثم انصرف إلى العزلة التامة ، بعد أن قضى نحو ١٥ سنة فى تنسكه . على أنه تدرج فى ذلك ، إذ لجأ فى أول الأمر إلى المقابر ، ثم إلى حصن مهجور بالجبل ، فى الموضع المعروف باسم بوصير على الضفة الشرقية للنيل ، تجاه الفيوم ، والمعروف الآن باسم دار المأمون . وجرى ذلك حوالى سنة ٢٨٥ م ومارس القديس أنطون هذه العزلة الصارمة نحو عشرين سنة (٢٨٥ — ٣٠٥ م) ، قضاها فى النضال ضد الشيطان ، وفى الانصراف إلى العبادة وتأدية الطقوس الدينية . وكان يتردد عليه فى بعض الأحوال عدد من الزائرين ، يحملون إليه زاده المتواضع ، المؤلف من الخبز وبعض الإدام الرخيص ، ويستمعون أثناء زيارتهم إلى ما درج عليه من تحدى الشياطين الذين يهاجمونه من كل جانب . فالمعروف عند المصريين ، من وثنيين ومسيحيين ، أن الصحراء موطن الشياطين والأرواح الشريرة ، وأن البطولة والشجاعة ، أن يصر الإنسان باختياره على أن يعيش بين الشياطين ويتحداهم . ولم يختلف أنطون عن معاصريه فى تفسير هذه الظواهر ، وهى أن غواية الشيطان إنما تتجه إلى مواطن الضعف فى الطبيعة البشرية ، على أن ما تراءى له فى صورة حيونات مفترسة وصور الإنس أو صورة كنز ، لم تكن فى الواقع إلا من نسيج الخيال ، على الرغم من أنه وصفها بالشياطين ، ولم يحاول تعليلها من الناحية السيكلوجية و (النفسية) . ولم يحرص أنطون على أن يتخلص من الغوايات بالوسائل المعروفة عند الناس ، بل عمد إلى مواجهتها أعزل من غير سلاح ، ولم يتطلع إلى مساعدة زملائه فى الكنيسة ، فقد تكون غواية الشيطان هى التى تثير الراهب ، وتجعله يسهر طوال

الليل ، فى صلاة مستمرة ، فلا يحصل على قدر كاف من النوم . فإذا ضعف استولى عليه الشيطان ، أما إذا ثبت فإنه يرى الرؤيات السماوية ومن مزايا الرؤيات السماوية (مثل رؤية الجنة لا رؤية الجحيم) أنها تؤنس النفس وتعمل على تهدئتها واطمئنانها . ولم يلبث أن اجتمع حول أنطون عدد من أولئك الذين يرغبون فى ممارسة حياة التنسك ، وقد أحبوا أن يكون أنطون معلمهم ومرشدهم . ولما نصب أنطون نفسه لتعليم هؤلاء المتنسكين ، برزت مواهبه وما امتاز به من الحكمة ورجاحة العقل .

ونستطيع أن نقول إنه لم يستهل القرن الرابع ، حتى استقر الرهبان المتنسكون بالصحراء ، لا سيما الجهات المجاورة للمكان الذى تنسك فيه أنطون ، فنشأ بذلك عالم آخر على حد قول ، القديس أثناسيوس « عالم مجرد من الشرور والآثام » يقطنه جماعات من الناس يرتلون آيات الإنجيل ، ويهوون القراءة ، ويمارسون الصوم ، ويؤدون الصلاة ، ويبذلون الإحسان ، ويعملون على أن تسود بينهم المحبة والوفاق . فليس بينهم شرير ولا أثيم يجلب عليهم الكوارث ، بل هم جمع من النساك ، جعلوا قبلتهم تحقيق الفضيلة . وإن كان منهم من يحسون بالراحة لبعدهم فى صحرائهم عن تقريع جباة الضرائب وتعسفاتهم .

لم ينشأ فى ذلك الحين نوع من التنظيم الديرى ، وكل ما كان هو أن جمعا من الناس ، يربط بينهم غرض مشترك ، كرسوا حياتهم للتنسك ، وتولى أنطون قيادتهم دون أن يعتبر نفسه سيدهم . على أننا لا نستطيع أن نقف على مدى انتشار الرهبانية فى مصر ، سواء فى صورتها الأولى الساذجة ، أو فى صورة أكثر تنظيما ورقيا . وكل ما نعتمد عليه فى ذلك ما وصل إلينا من الروايات التاريخية ، وربما كان لاشارة عابرة ، من الدلالة ما يفوق فى الأهمية ما ورد فى المصادر التاريخية ، فمن الروايات مايشير إلى أن أسقفا من مصر العليا (الصعيد) شهد مجمع نيقية ، الذى انعقد سنة ٣٢٥ م ، وكان قد عاش سنوات عديدة يتنسك فى خلوة من الخلوات asceterion ووجه الأهمية فى هذه الرواية ، أنه يصح القول بأنه كان

فى طيبة منذ سنوات عديدة ، سابقة لانعقاد مجمع نيقية ، كثير من المتنسكين anchorites . واسم هذا الأسقف يعتبر دليلا على انبثاق عهد جديد فى المسيحية المصرية . فهوقبطي ومسيحي فى وقت واحد ، كان اسمه بافنوتيوس paphnoutius و بالقبطية pa-p-noute ، وهذا اللفظ معناه رجل الله . ومن الواضح أنه اسم نبت فى دوائر مسيحية فى عقيدتها ، مصرية فى لغتها .

وتألف من النساك (الزهاد) ، الذين التفوا حول أنطون ، مجتمع اعترف أفراده ، بما لشيوخهم من سلطة أدبية عليهم . وقام أنطون على تلقين المبتدئين مبادىء الرهبنة ، وفقا لنظام شبيه بنظام التلمذة . غير أن الفرد الراهب كان يعتبر مستقلا قائما بذاته ، بحيث أنه عندما يتم تلمذته ، لم يكن ليدين لأحد بالطاعة سوى معلمه .

هذا النوع من الرهبانية استقر فى شيء من اليسر والسهولة ، وقد انتشر فى سرعة فى الوجه البحرى ، و بلغ أطراف الاسكندرية ، وكانت مراسيم الدخول فى الرهبنة بسيطة . فكل المطلوب من الشخص عند قبوله فى طائفة الزهاد أن يحلف اليمين على التقشف والطهارة والطاعة ، و يعتبر هذه اليمين ضماناً كافياً يجعله راهباً أو راهبة . و يجوز ألا يكون الراهب والراهبة من المنقطعين ، فيصح أن يمارس حياة الزهد والتنسك فى داره ، أو مع جماعة صغيرة من رفقائه . ومن الأمثلة المستمدة من تاريخ الرهبانية ، بولص الساذج ، تلميذ أنطون ، الذى تلقى عليه التهذيب والتعليم مدة ثلاث سنوات ، ثم استقر بقلايته أو خلوته . ومنهم أيضاً دوروتيوس الطيبي Dorotheus الذى عاش على ساحـــل البحر بالقرب من الاسكندرية ، وانصرف إلى تشييد قلايات من الآجر لينزل بها سائر الرهبان ، ومنهم الراهبة بيامون Piamoun ، التى أقامت مع أمها وعاشت الاثنتان على ماتنسجانه من الكتان . و يرجع السبب فى اهتمام المؤرخين بذكر اسمها إلى أنها منعت وقوع شجار بين قريتها وقرية أخرى ، على توزيع مياه الفيضان ، والرسالة

التى عنوانها العفة On Virginity التى تنسب كتابتها إلى اثناسيوس ، أو ترجع على أقل تقدير إلى زمنه ، إنما تتضمن معلومات عن حياة إحدى هؤلاء الراهبات، على الرغم من أنها لم تنزل بدير من الأديرة ، إذ تحتم عليها أن تتلو الإنجيل فى دارها ، وأن تراعى الساعات المقدرة للصلاة ، وأن ترتدى ثياباً خاصة عند توجهها إلى الكنيسة أو للقيام بعمل من الأعمال ، وأن تقتصد فى وجبة العشاء بعد الساعة التاسعة ، وعليها ألا تشرب النبيذ . أما إذا حدث أن كانت فى صحبة راهبات أخريات لم يتقيدن بهذه القاعدة ، فمن الخير أن تتناول قليلا من النبيذ ، حتى لا تتهم بالكبرياء . وإذا تصادف أن كان صديقاتها ، متقدمات فى السن ، ورغبن فى الثرثرة عند تناول الشراب فينبغى أن تكون نموذجاً حسناً . والمعروف أن من صفاتها بذل الإحسان والسخاء . وإذا حدث أن اجتاز بها أحد الرهبان ، فيتحتم عليها أن تحسن استقباله ، وتستمع إلى موعظته .

وانتشرت الرهبانية التى نبعت من القديس أنطون ، فى مصر السفلى (الوجه البحرى) ، ولم ينته القرن الرابع الميلادى ، حتى زخرت الجهات الممتدة على النيل شمال أسيوط Lycopolis وما يجاورها من الصحارى ، كما حفلت شواطىء البحر المتوسط بالقرب من الإسكندرية ، بأعداد كبيرة من الرهبان يعيشون تارة فرادى ، وتارة أزواجاً ، وتارة فى جماعات صغيرة أو كبيرة . غير أن الحياة لم تكن حتى ذلك الحين تنسكيه خالصة ، وأقصى ما بلغته رهبانية أنطون من نمو ، إنما جرى فى صحراء وادى النطرون Nitra وصحراء سقيط Scete . ومن هذين الموضعين ، توافر لدينا من المعلومات ، ما يكفى لتكوين صورة عن حياة هؤلاء الرهبان . ونحن نعرف أن بالاديوس Palladius وكاسيان Cassian عاشا فى هذه المنطقة سنوات عديدة ، فى السنوات العشر الأخيرة من القرن الرابع ، وزار هذه المنطقة أيضاً القديس جيروم St. Gerome وروفينوس Rufinus مؤلف تاريخ الرهبانية Historia Monachorum .

لخلفوا لنا ما سجلوه عن مشاهداتهم . ولم تكن نيتريا المذكورة عندهم إلا وادى النطرون المعروف ، وهو واد يقع حول بحيرات النطرون ، وفى جوف الصحراء فى غرب النيل ، وعلى مسافة ستين ميلا إلى الجنوب من الاسكندرية .

ومن أوائل الذين مارسوا حياة الرهبانية فى هذا الموضع ، آمون ومقار (مكاريوس) ، وكان مقار من تلاميذ القديس أنطون . وقد اشتهر كذلك قسم من الصحراء ، على مسافة بضعة أميال من صحراء النطرون ، هو صحراء Cellia التى اتخذت اسمها من cells (القلايات) التى يأوى إليها الرهبان ، والتى انتشرت بهذه الجهات . ويصف صحراء سيليا ، روفينوس ، مؤرخ الرهبانية ويقرر أنه جرى إنشاء القلايات ، على قاعدة أن تبتعد الواحدة عن الأخرى ، ما كاد يتجاوز حد النظر والسمع . على أن لا يجتمع الرهبان سوياً إلا فى يومى السبت والأحد من كل أسبوع ، لتأدية الصلاة ، وما عدا ذلك من الأيام كانوا ينصرفون فيها إلى العزلة التامة ، فلا يزور أحدهم الآخر ، إلا فى حالة المرض ، أو لبعض الدواعى الروحية ، ويشير بالاديوس إلى أنه كان يقيم فى سيليا نحو ستمائة راهب . والواقع أن ما جرى فى سيليا ، إنما ينطوى على حياة تنسكية خالصة . أما فى النطرون فكانت الحياة مختلفة . وفيما يلى ما أورده بالاديوس عما شاهده سنة ٣٩٠ م فى النطرون .

« وأقام فى جبل النطرون خمسة آلاف راهب ، يمارسون ألواناً مختلفة من الحياة كل منهم حسب طاقته ووفق رغبته ومشيئته . فلكل منهم الحرية فى أن يعيش منفرداً ، أو مع شخص آخر أو فى جماعة . وفى الجبل سبعة مخابز ، وكنيسة كبيرة ، قام بجوارها ثلاث نخلات ، تدلى من كل منها سوط ، أعد أحدها لتأديب الرهبان الذين يثبت سوء خلقهم وسيرتهم ، ويستخدم الثانى لإنزال العقاب باللصوص ، أما الثالث فيجرى استعماله للمخالفين من الزائرين الذين يقدمون فى زيارة عابرة . فمن ارتكب ذنباً ، وجرى عليه الحكم بما يستحقه ذنبه من الجلد

http://www.al-maktabeh.com

تقرر ربطه إلى النخله ،لتنفيذ العقوبة المقررة عليه ،وبذلك يصلح حاله .وقام قرب الكنيسة دار للضيافة ، وكل من يفد إليها من الضيوف، يلقى الترحيب، وحسن الضيافة ، حتى يرحل باختياره ، حتى لو امتدت ضيافته سنتين أو ثلاثة . ففى الأسبوع الأول يعيش الضيف كيفما شاء من حياة الدعة والكسل، ثم بعدئذ يطلب إليه أن يعمل، إما فى الحديقة أو فى المخبز، أو فى المطبخ. فاذا كان من ذوى المكانة، جرى إعطاؤه كتابا يطالع فيه ، غير أنه لا يجوز له أن يتحدث إلى غيره ، حتى ظهر اليوم. وأقام فى هذا الجبل أطباء ، وصناع للفطائر ، وصناع النبيذ ، وجاز بيع النبيذ،واشتغل الجميع بنسج الكتان بأيديهم، كيما يسدوا بذلك حاجاتهم.وحوالى الساعة الثالثة بعد الظهر ،جاز للواحد منهم أن ينهض ، ليستمع إلى ما يصدر من كل دار من التراتيل ، فيتخيل ما يلقاه من نعيم الفردوس غير أنهم لا يجتمعون فى الكنيسة إلا فى يومى السبت والأحد .

يتحدث بالاديوس أيضاً عن تاجر اسمه ابوللوريوس Apollorius صار راهبا فى وادى النطرون ، ولما بلغ من كبر السن ، ما جعله عاجزا عن أن يتعلم صناعة أو حرفه ، اشترى من الاسكندرية عقاقير (أدوية) وسلعا تجارية ، وعكف على معالجة اخوانه ، وظل عشرين عاما يطوف بالزوايا ، منذ بزوغ الفجر ، إلى الثالثة بعد الظهر ، يقرع أبواب الزوايا (القلايات) ، ويسأل عما إذا كان بها أحد من المرضى . ويتحدث بالاديوس أيضاً عن راهب آخر ، أنفق كل ثروته فى إنشاء الدور لإيواء الفقراء والشيوخ والمرضى ، واعترف آباء الكنيسة بأنه لا يقل مكانة عن أخيه الذى تنازل عن أملاكه ومتاعه ، ووهب نفسه لحياة التنسك والزهد .

وما سبق ذكره من الاشارات، إنما يدل على ما امتاز به هذا النوع من الرهبانية من صفة خاصة ، وهى التطوع والاختيار . فلم يكن ثمة حياة جماعية تسير وفقاً لقانون معين ، حتى ولو أقام الرهبان سويا إذ أن قدرا كبيرا من حرية التصرف، كان متروكا لكل راهب من هؤلاء الرهبان . فلكل منهم الحرية فى أن يسير

وفقاً لما أعده لنفسه من الخطط ، وفى أن يرتب لنفسه الوقت أو الزمن الذى يمارس فيه الزهد والتنسك . والخلاصة أن هذا النوع من الرهبانيه إنما نبت من حياة الانقطاع ، واحتفظ بصفته التنسكية أو شبه التنسكية حتى فى المستعمرات أو المحلات الكبرى للرهبان ، بوادى النطرون وصحراء سكيتى .

الديرية : (نظام باخوم)

وتختلف رهبانية ، أو على الأصح ديرية ، باخوم عن النظام الذى اتخذه القديس أنطون . وانتشرت رهبانية باخوم بمصر العليا (الصعيد) . نشأ باخوم وثنيا ، فقد ولد حوالى سنة ٢٩٠م ، وخدم فى جيش قسطنطين وليكينوس Licinus . وحدث أول لقاء له مع المسيحيين ، حينما استضافه هو ورفقاؤه من الجند ، جماعة من المسيحيين ، ولما تم تسريحه من الجيش ، اعتنق المسيحية ، وهو فى العشرين من عمره ، فاتخذ لنفسه حياة التنسك والزهد ، وذلك بارشاد و اشراف ناسك اسمه بالامون Palaemon عاش فى إقليم دندره Tentyra بالقرب من النيل ، ويروى بالاديوس أيضا ، القصة التى جعلت من باخوم مؤسسا للحياة الديرية الجماعية Cenobitical فيشير إلى أن باخوم كان من أشد الناس محبة لغيره ولاخوانه من الرهبان . فبينما كان جالسا فى مغارته ، ظهر له ملاك ، فقال له « لقد وُفِّقتَ فى تنظيم حياتك ، فلا داعى ، لأن تقيم بالمغارة ، فلتنهض وتجمع كل الرهبان الزهاد ، ولتقم معهم ، واجعل لهم من القانون ما يكون على المثال الذى امنحه لك » . ثم أعطاه لوحة من النحاس ، نقش عليها قاعدة الديرية . ومن هنا جاء أصدق نص ، لأقدم قاعدة مسيحية للرهبان .

حدث هذا حوالى سنة ٣٢٣م ، ويعتبر هذا التاريخ بداية ما صار للرهبانية من صفة الديرية (الحياة الجماعية) Cenobitic . واتخذ باخوم لتنسكه ، أول الأمر معبدا مهجورا من معابد سيرابيس Serapis وأدى ذلك إلى الافتراضات التى شاعت ، والتى تربط بين الديرية ، وبين ما كان لسيرابيس من خلوات

أو زوايا ، استمرت زمنا طويلا فى جهات أخرى من الإقليم . والراجح أن لخبرة باخوم العسكرية ، أثرا فيما ابتكره من نظام الديرية . إذ أن الدير الباخومى إنما اتخذ الاطار الحربى . إذ اجتمع الرهبان فى بيوت لكل بيت رئيس (قائد) ، لا يخضع الا لسلطان رئيس الدير ، وكل رئيس من رؤساء هذه البيوت أو الدور ، يتولى الارشاد والتهذيب فى داره ، فجرى فى الصباح والمساء ، طقوس العبادة ، و يجرى القداس فى أوقاته المعروفة . وفيما عدا ذلك تجرى العبادة والعمل بالتناوب فى وحدات قليلة. وفى الروايات ما يشير إلا أنه يصلح أن يجتمع بالبيت أو الدار من الرهبان من يتفقون فى الطباع والمزاج ، ومنهم من يجتمعون بحسب المهنة . ويجوز أن يجرى على النظام من التعديل ما تقتضيه الضرور يات المحلية . ولم يكن الدير الباخومى النموذجى الا مجتمعا مهنيا يكفى نفسه بنفسه ، ويسد حاجات الجهات المجاورة ، ويصح أن تمتد تجارته إلى جهة بعيدة .

وأول دير أنشأه باخوم كان فى تبنيسى قرب دندره . وحينما مات باخوم ، كان لطائفته أحد عشر ديرا ، منها تسعة أديرة للرجال ، واثنان للنساء ، وكلها تمتد من بانو بوليس (اخميم) شمالا إلى لاتوبوليس Latopolis (اسنا) جنوبا . واشتملت جميعها على نحو ٣ آلاف راهب . وبعد وفاته قامت أديرة أخرى ، منها دير فى كانوب Canopus قرب الاسكندرية ، ومنها أديرة عديدة بالحبشة . ولم ينته القرن الرابع الميلادى ، حتى صار عدد الرهبان الباخوميين نحو ٧ آلاف على حد رواية بالا ديوس ، أو نحو خمسين ألفا على حد رأى القديس جيروم ، وهو رأى لم يؤخذ به .

زار بالاديوس ، دير باخوم فى اخميم ، وخلف لنا أصدق وصف لما يجرى به من أعمال الحياة اليومية . يروى بالاديوس أنه كان بهذا الدير ٣٠٠ راهب ، يمارسون جميعا الصناعات اليدوية ، فأسهموا بما زاد على حاجتهم فى سد حاجة أديرة النساء والسجون . والموكلون بالخدمة فى الأسبوع ، يستيقظون من نومهم عند بزوغ

الفجر ، فيعمل فريق منهم فى المطبخ ، بينما يقوم فريق آخر بترتيب الموائد ، حتى تكون معدة وجاهزة فى الوقت الملائم ، فيضعون عليها الخبز وأوراق الخردل ، والزيتون المكسود ، والجبن ، وبعض الأعشاب ، وشرائح من اللحوم للشيوخ والمرضى . فيقدم بعضهم فى وقت الظهيرة ليتناولوا الطعام ، ويصل بعضهم فى الساعة الواحدة أو الثانية أو الثالثة أو الخامسة ، أو فى العشاء الآخرة ، ولا يتناول بعضهم الطعام إلا يوما بعد يوم . ويسير عملهم على النحو الآتى : منهم من يشتغل بالحديقة ، أو فى الحقل ، ومنهم من يعمل فى الحدادة ، أو فى الخبز ، أو فى النجارة ، أو فى تنظيف الثياب ، أو فى صناعة السلال ، أو الدباغة . ومنهم من يقوم برتق الأحذية ، أو حياكة الملابس ، أو نسخ الكتب . ويذكر بالاديوس أيضاً ، أنهم يقومون بتربية الإبل والخنازير ، ويضيف إلى ذلك أنهم يحفظون الأناجيل عن ظهر قلب . ويتضح من قاعدة باخوم أنهم يجتمعون بالكنيسة أربع مرات فى اليوم ، ويؤدون القداس فى يومى السبت والأحد .

وهنا نلمس حياة جماعية شديدة التماسك ، بالغة التنظيم ، إذ جرى تقسيم اليوم بين ما يؤدى عادة من الطقوس والصلوات بالكنيسة وتلاوة الإنجيل ، وبين تأدية أعمال تعتبر على جانب كبير من الأهمية فى الحياة . وفى ذلك اختلاف يعتبر من أهم الاختلافات ، بين ديرية باخوم ، وبين رهبانية أنطون . ففى رهبانية أنطون ، لم يرد عن العمل إلا إشارات قليلة ، ولم يكن العمل إلا من النوع الذى لا يتطلب الحركة ، وهو يشمل عادة صناعة السلال ، ونسج الكتان ، فيجوز للراهب أن يؤدى هذه الأعمال فى داخل خلوته . وما كان يؤدى من العمل ، إنما الغرض منه سد مطالب الحياة ، أو شغل الوقت الذى لا تجرى فيه الصلاة ، أو لا يصلح للتأمل والتفكير ، أو لقراءة الانجيل .

أما وصف بالاديوس لدير باخوم ، فهو صورة لجماعة شديدة النشاط ، متينة

http://www.al-maktabeh.com

النظام ، تسد حاجاتها ، وتجرى حياتها على المثابرة والانتظام فى تأدية الفروض الدينية ، والأعمال اليومية التى لها أهمية فى الحياة ، ولذا تعتبر هذه الصورة كبيرة القيمة ، عظيمة الشأن .

وكيفما كانت الفكرة عن الحياة التى يعيشها النساك وأمثالهم بشمال مصر ، فإن ثمت رأيان يتعلقان بالهدف الذى يرمى إليه القديس باخوم ، وما اشتهر به هذا الهدف من الصرامة والحيوية . فالمثل الأعلى عند أنطون هو المثل الذى ساد فى الشرق فى كل العصور ، على الرغم من اختلاف صوره . أما مبدأ باخوم فانتشر فى غرب أوربا وكان الأصل الذى أقام القديس بنيدكت عليه ديريته فى الغرب ، ثم طرأ على نظام بندكت تعديلات ، اقتضاها المناخ أو الطابع القومى ، وكانتا الطريقتين تعتبر العمل لذاته وفى أية صورة من الصور ، جانبا جوهريا من جوانب الحياه .

وعلى الرغم مما اشتهرت به ديرية باخوم من الصرامة ، فإن هذه الصرامة يلطفها ما اشتهر به باخوم من العطف . ومن الدليل على ذلك ، ما أشار به من أن المريض ينبغى أن يحظى بكل العناية والاهتمام . وما ورد من الأخبار عن باخوم ينطوى معظمها على ما اشتهر به من العطف والإحسان والحماس . فمن ذلك أنه رفض أن يشترى لديره قمحا بسعر أقل من السعر السائد زمن المجاعة . وأمر بهدم منبر ، جرى إقامته ، لما لاحظه فيه من الزخرفة والجمال .

وفى منتصف القرن الرابع الميلادى ، انتشرت الرهبانية فى سائر أنحاء مصر ، ومات روادها الأوائل ، إذ أن باخوم مات سنة ٣٤٦ ، بعد أن خلف وراءه نحو ٥ آلاف راهب ، أما أنطون فإنه عمر طويلا ، فمات سنة ٣٥٥ ، وأسهم القديس أثناسيوس فى انتقال الديرية إلى الغرب . وعلى الرغم من ذيوع شهرة الرهبانية المصرية ، فإنها ظلت نظاما مصريا خالصا ، فأنطون و باخوم لم يعرفا شيئا من

اليونانية ، واحتاج كل منهما إلى مترجم عند التحدث إلى المتـكلمين باليونانية والذين لا يعرفون القبطية .

ومن أهم الشخصيات فى الرهبانية المصرية ، شنوده الأتريبى ، ومات وعمره نحو ١١٨ سنة . وشملت حياته الطويلة ، الفترة الممتدة من النصف الثانى من القرن الرابع ، إلى النصف الأول من القرن الخامس . دخل شنوده ، وهو صغير ، ديرا يقع تجاه اخميم ، يعرف باسم الدير الأبيض . وحوالى سنة ٣٨٨ ، صار رئيسا لهذا الدير ، وازداد عدد رهبان هذا الدير ، الذى سار على قاعدة باخوم . على أن شنوده شيد حول الدير الأبيض ، عمائر جديدة ، منها كنيسة كبيرة ، وأديرة أخرى للرجال والنساء ، ووضع لهذه الأديرة قانونا جديدا ، أشد قسوة وصرامة من قانون باخوم . واشتهر شنوده بالشدة والعنف فى معاقبة المسيئين من القسس . وطلب من الرهبان الطاعة . وكان يقول أنه يرى فى الارهاب وسيلة يجبر بها الناس على حب الله وطاعة أوامره . ومع ذلك ذاعت شهرته فى البلاد ، وكان الناس يجلونه ويخشونه فى آن واحد . واشتد نفوذ شنوده بين أهل إقليمه . وصار الناس يتقدمون إليه بالهدايا ، ويطلبون منه النصيحة ، وكان حكام طيبة يخشونه ، كما كان المتبربرون يخشونه ولا يتعرضون لناحيته ، أما الإمبراطور البيزنطى فـكان يقدره ويحترمه . وكان شنوده من أكبر أعوان بطاركة الاسكندرية ، ومن أخلص جنودهم .

وشنوده من أصل مصرى ، شأنه فى ذلك شأن أنطون وباخوم ، كتب مواعظه ورسائله باللغة القبطية . وعلى الرغم من إلمامه باليونانية ، فإن البيئة التى عاش فيها كانت مصرية خالصة . وهذه الصفة القومية الظاهرة فى هذه الشخصية هى السر فى أهمية شنوده ، وهى من الدلائل على أن المسيحية المصرية اقترنت بالصفة القومية منذ البداية تقريبا .

و بفضل جهود هؤلاء الرجال ونشاطهم ، زخرت مصر بالرهبان فى القرن الرابع الميلادى ،وحاز هؤلاء الرهبان مدنا بأكملها مثل اهناسية (أوكسر نيكوس). فانتشرت الأديرة والمناسك على امتداد نهر النيل ، والصحراء من سبين (أسوان) إلى الدلتا ، وكان هؤلاء الرهبان الأتقياء الذين اشتهروا بالزهد فى بيئاتهم ومواطنهم، مثلا صالحاً لرجال الدين والمؤمنين الذين لم يدخلوا فى سلك الرهبانية .

وذاعت شهرة الرهبانية فى أنحاء العالم المسيحى ، وأصبحت مصر قبلة الزوار الذين يحرصون على رؤية القديسين والسماع إلى تعاليمهم ومواعظهم . فجاءوا من سوريا وآسيا الصغرى ، ومن روما وغاله وأسبانيا ، ومع هؤلاء الزائرين قدم سيدات من الأسرات النبيلة ، ومنهم أناس من رجال الدين أمثال كاسيان وبالاديوس وجيروم ، فلما عاد هؤلاء الزائرون إلى بلادهم ، كانوا قد تأثروا بالتهذيب الدينى ، واشتد حماسهم لهذه النظم الدينية . و بفضل هؤلاء الزائرين ، انتشرت مبادىء باخوم فى أنحاء العالم ، فنقلها أثناسيوس إلى الغرب ، حينما التجأ إلى روما . وترجم جيروم إلى اللاتينية قانون باخوم ، واسترشد رهبان بيت لحم بقانون باخوم . وكان الناس فى فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى ، يأخذون أنفسهم بحياة تشبه حياة النساك والمتوحدين (المنقطعين) المصريين ، واعتبر كاسيان تلك الحياة التنسكية مثالا طيبا ، واقترح نشرها فى غاله .

وازداد نفوذ الرهبان فى مصر ، إذ اعتبروا أنفسهم حماة الأرثوذكسية ، والجاهدين فى سبيلها ، واشتركوا فيما جرى بمصر من المنازعات الدينية والسياسية فصاروا يؤيدون الأسقف أثناسيوس ضد الأريوسيين ، وتظاهروا ضد أعداء أثناسيوس . و يشير أحد مؤرخى الكنيسة إلى أن الأباطرة طالما ضاق صدرهم بهذه الجماعات ، (الرهبان) ، التى تألفت ممن زعموا لأنفسهم حق تقويم الشرود، ودأبت على التدخل فى الأحكام وفى تطبيق القوانين . ومن الدليل على ذلك أن

الإمبراطور فالنز أخذ رهبان مصر بالشدة ، فأمر جنده باقتحام أديرة وادى النطرون ، وأدخل رهبانها فى الجيش قسرا ، وذلك سنة ٣٧٥ . وعلى الرغم مما اشتهر به الأمبراطور ثيودوسيوس من التقوى ، فإنه حرم على الرهبان الأقامة بالمدن ، لأنه اعتبرهم عنصرا بالغ الخطورة ، إذ كانت الرهبانية ملاذا للعامة من المصريين ، الذين لم يكن لهم من أمر البلاد شىء ، وكانت الرهبانية تكفل لهم الحرية ، وتحيط أشخاصهم بنفوذ لم يعرفوه من قبل . ولذا لم تلبث الرهبانية أن اتخذت طابعا قوميا ، بالغ الخطورة . فالرهبان كانوا من أهل البلاد بل انهم اعتبروا أهل الاسكندرية من الأجانب ، لتغلب العناصر الأجنبية بها .

على أن الرهبانية أخذت فى التدهور بعد مجمع خلقدونية سنة (٤٥١ م) ولم تلبث أن انهارت فى القرن السادس الميلادى ، حتى إذا جاء الفتح الاسلامى لمصر ، كان الانهيار قد أصبح تاما .

كنيسة الاسكندرية :

يرى المؤرخون أن ما أوجده الإمبراطور دقلديانوس من تنظيمات فى إدارة الإمبراطورية الرومانية ، وما ترتب عليها من تنظيمات إدارية ، كان عظيم الأثر فى تنظيم الكنيسة وازدياد مكانتها ذلك أن التنظيم الكنسى سار على نسق التنظيم الإدارى . فامتدت سلطة أسقف الاسكندرية إلى خارج حدود مصر الحالية وبلغت اقليم برقة ، كما أن انقسام القطر المصرى إلى بلديات ، شجع على ما أجرته الكنيسة من تنظيم يقابل التنظيم الادارى . ففى أوائل القرن الرابع ، صار معظم المدن بمصر مراكز لاسقفيات .

وفى سنة ٣٠٠ تولى أسقفية الاسكندرية بطرس ، وهو من اكفأ علماء الدين ، الذين شهدتهم مدرسة أورجين . وحرص بطرس على عدم الأخذ بالآراء المتطرفة التى اشتهر بها أوريجين وبعض اتباعه . على أنه حدث من الأمور ما جعل بطرس

يهتم بأمور لا تتعلق كثيراً بالعقيدة الدينية . ولم تمض على رسامته (تعيينه) أسقفا على الاسكندرية ، ثلاث سنوات ، حتى بدأ أشد الاضطهادات عنفا وخطورة .

وما عزم عليه دقلديانوس ، وفقا لخطة منظمة ، من المشروع فى القضاء على الكنيسة ، لم يكن من بعض النواحى إلا استمرارا لما جرى عليه من سياسة لإعادة تنظيم الدولة ، غير أنه لم يكن من ناحية أخرى سوى انهيار ، لما اشتهرت به سياسته السابقة من الحكمة والروية .

بدأ الاضطهاد أول الأمر ، هينا فى مصر وسائر الجهات ، بأن جرى الاستيلاء على الكنائس والكتب المقدسة ، والقبض على كبار رجال الدين . ثم أعقب ذلك ما أصاب المسيحيين من القتل والصلب ، وما ترتب على ذلك من استشهادهم فى سبيل العقيدة . ثم جرى شىء من الهدوء ، بعد أن استمر الاضطهاد أربع سنوات ، فأصدر بطرس من الأوامر والتعليمات ، ما يقضى بتهذيب أولئك الذين ارتدوا عن المسيحية ، ثم أرادوا العودة إلى حظيرة الكنيسة . وهذه الرسالة الكنسية التى وجهها بطرس ، انطوت على روح الاعتدال والعطف والمحبة . فأولئك الذين تعرضوا للتنكيل والتعذيب ، ينبغى أن يتحللوا مما أرغموا عليه من الارتداد عن المسيحية ، بأن يعلنوا التوبة ويظهروا النـــدم ، بممارسة الصيام . ومن تعرض منهم للحبس والسجن ، ينبغى أن يتحللوا من ذلك ، بالاستغفار والتوبة مدة ستة شهور . أما الذين لم يكن لديهم من الأعذار ما يبرر ارتدادهم ، فينبغى أن يثابروا على الاستغفار لمدة ثلاث سنوات . ومن لم يقدم منهم القرابين فعلا ، وجرى اعتبارهم أنهم قاموا بذلك بسبب ممالأة بعض أصدقائهم من الوثنيين ، أو لاهمال مقصود من قبل السلطات المحلية ، فينبغى أن يستغفروا مدة ستة شهور . ومن حل من العبيد المسيحيين ، مكان سادتهم فى تأدية القرابين فيؤدون التوبة مدة ثلاثة شهور ، لأنهم ليسوا مسئولين عما قاموا به ، بينما تطالب من سادتهم

أن يستغفروا مدة ثلاث سنوات، لأنهم أساءوا معاملة بعضهم وهذا يخالف تعاليم الرسل. أما الذين اعترفوا بذنوبهم، ورجعوا إلى عقيدتهم، فينبغى الصفح عنهم، وإعادتهم إلى حظيرة الكنيسة، لأنهم فى أشد الحاجة إلى مساعدتها. ومن غلب عليهم الاندفاع والانزلاق، فلا يجوز لومهم أو انكار عملهم، كما لا يجوز لوم أولئك الذين هربوا، والذين حملوا قسرا على تقديم القرابين. ومن الملحوظ أن من دفع أموالا حتى لا يقدم قربانا، جرى اعتباره بريئاً، لأنه آثر أن يتخلى عن أملاكه، ولم يتنكر لدينه.

وتكرر الاضطهاد زمن جاليريوس، واقترن بمحاولة اقامة نظم وأساليب فى الوثنية، كالتى كانت معروفة فى الكنيسة المسيحية، غير أن هذه السياسة لم يمتد تأثيرها إلى مصر. وفى ٢٥ نوفمبر سنة ٣١١، تم القبض على الأسقف بطرس وإعدامه، بأمر الأمبراطور، ويعتبر بطرس خاتم الشهداء فى الكنيسة، وبذلك انتهت المرحلة التى عاشت الكنيسة فيها، فى ظل الإمبراطورية الوثنيه. ففى سنة ٣١٣، أنزل ليكينوس الهزيمة بمكسيموس، وتولى حكم الشطر الشرقى من الأمبراطورية، على حين أن قنسطنطين كان يحكم فى الشطر الغربى منها. ولما أصدر قنسطنطين مرسوم ميلان سنة ٣١٢، الذى يقضى بالتسامح مع المسيحيين، رأى ايكينوس أن يتخذ سياسة الوفاق مع قنسطنطين ومسايرة المسيحيين، وعلى الرغم من أن مرسوم ميلان أنهى الاضطهاد الدينى، فانه لم يترتب عليه، أن عاد الأمن والهدوء إلى مصر، إنما خلف وراءه انشقاقا دينياً. والواقع أن رجال الدين انقسموا على أنفسهم فى أمر المرتدين، فهم فريق المتسامحين بزعامة بطرس، أسقف الاسكندرية، وهو الذى يجيز عودة هؤلاء إلى حظيرة المسيحية، أما فريق المعارضين، فتولى زعامته مليتيوس الأسيوطى Melitius أسقف الوجه القبلى، وهذا الفريق ينكر عودة هؤلاء إلى الكنيسة. وترتب على ذلك انشقاق فى الكنيسة اذ صار كل من الأسقفين يعتبر أنه على حق وأن خصمه

http://www.al-maktabeh.com

مخطىء ، وتكرر الاختلاف وكثرت النحل بعد مرسوم ميلان وكان ظهور أية نحلة يزيد الانشقاق فى صفوف الكنيسة .

الأريوسية :

ومن هذه النحل الجديدة الأريوسية ، وهى نحلة ترتبط بطبيعة المسيح . فالمعروف أن الكنيسة المسيحية منذ نشأتها تعتقد أنه ثمة ثلاثة أقانيم (الأب ، والابن ، والروح القدس) ، وأن هؤلاء الثلاثه ليسوا إلا واحدا فى الجوهر . غير أنه ظهر فى الكنيسة من حين إلى آخر ، اناس يخالفون هذا المعتقد ، ويقولون ببدعة جديدة ، وهذا ما يعرف بالهرطقة . ومن هؤلاء فى القرن الثالث أسقف ليبيا ، واسمه سابيليوس ، الذى زعم أن اللوجوس (الكلمة) هو المسيح ، وأنه مظهر من مظاهر اللاهوت ، شأنه فى ذلك شأن الأب وروح القدس . فأنكر بذلك ، التمييز بين الأب والابن وروح القدس . وفى سنة ٢٧٠ ، تقرر حرمان بولص أسقف انطاكية من الكنيسة ، وتقرر أيضا عزله ، لتمسكه بآراء مماثلة ، وكذلك كان شأن لوسيانوس .

أما أريوس ، فانه خالف لوسياتوس وسابيليوس ، كان أريوس فى سنة ٣١٨ ، على رأس كنيسة صغيرة ، بأحد أحياء الاسكندرية ، فى بوكاليس . وكان وقتذاك ، شيخا معروفا بالتصوف ، متمتعاً باحترام عدد كبير من الأتقياء والصالحين . تعلم أريوس فى حداثته فى انطاكية ، المذهب العقلى المنسوب إلى لوسيانوس Lucianus وقد تشبع بهذا المذهب . فتعلم ، أن « الكلمة » التى اتحدت بالمسيح ليست من نفس جوهر الرب ، وأن المسيح ليس إلا مخلوقا ، جاء من العدم ، لا من نفس المادة الالهيه ، وأن المسيح ، فى وقت من الأوقات لم يكن موجوداً ، وأن ابن الله تبعا لذلك لا يشارك الاله فى شىء ، ولا يشبهه لأن الله ليس له شبيه ، وكان أريوس ، يقصد بهذه الأقوال تأييد وحدانية الله ، غير أنه لم يدرك أن

ما نسبه إلى المسيح من ألوهية تعتبر ثانوية ، أنما جرد بذلك المسيح مما اتصف به من أنه ، منقذ العالم ، ومحا فكرة المسيحية الأساسية وهى فكرة الخلاص .
Redemption.

يتضح من ذلك أن كلا من سابيليوس وأريوس ، اتخذ طرقا مخالفة تمام المخالفة للطرف الآخر فبينما اعتقد الأول فى ألوهية المسيح ، رأى أريوس غير ذلك . وترتب على دعوى أريوس ، أن اشتد السخط بالاسكندرية ، لاسيما عند الذين يعتقدون فى الألوهية المطلقة للمسيح ، وبأن الكلمة هى الله نفسه ، وازداد السخط بقدر ما كثر عدد الذين اتبعوا البدعة الجديدة . فانقسم رجال كنيسة الاسكندرية إلى فريقين ومذهبين .

رأى اسكندر أسقف كنيسة الاسكندرية أن يتدخل فى الأمر ، وكان من أخلص مستشاريه فى ذلك اثناسيوس ، الذى صار فيما بعد ، ولمدة نصف قرن ، بطل المسيحية ، وكان وقتذاك ، شماسا . فانعقد بالاسكندرية سنة ٣٢٠ مجمع شهده نحو مائة قسيس ، هذا المجمع قرر حرمان أريوس وعزله ، كما أمر بعزل جماعة من القسس والشمامسة الذين تمسكوا بآرائهم الأريوسية .

وغادر مصر آريوس وأتباعه ، فارتحلوا إلى فلسطين ، فلقوا استقبالا حافلا ، لا سيما من يزو بيوس أسقف نيقوميديا ، لأن الإمبراطور ليكينوس والإمبراطورة قنسطنطينا كانا من أتباع الأريوسية ، وبفضل حماية الأمبراطور أخذ يزو بيوس يدعو للأريوسية ، ويلتمس أتباعا للمذهب فى سائر أنحاء الشرق . وفى أثناء ذلك قام أسقف الاسكندرية ، وهو اسكندر ، بمقتضى رسالة وجهها إلى سائر الأساقفة بالاحتجاج على مكائد يزو بيوس ، وتعاليم أريوس واعتبر هذه التعاليم أخطر ماظهر من البدع ، واعتبر أريوس نذيرا بظهور المسيخ الدجال . وبينما كان أسقف الاسكندرية يقوم بذلك ، أنعقد مجمعان اتخذا قرارا فى صالح أريوس . وترتب

على ذلك أن أتسع الخلاف المحلى بين أريوس وأسقف الاسكندرية ، والذى كان من اليسير تسويته وصار خلافا يشمل كل الكنيسة ، وجذب اهتمام الأمبراطور ، والواقع أن هذا الحادث ، الذى ترتب عليه نتائج خطيرة ، إنما تقع مسئوليته على عاتق يوز بيوس .

ومن الطبيعى أن يشتد سخط أهل الإسكندرية ، لا سيما حين عاد أريوس إلى المدينة وواصل بها نشر مذهبه ، واجتهد هو واتباعه فى اجتذاب العامة إلى جانبه ، وقد أصدر لهذا الغرض رسائل ومنشورات ، وألف أناشيد وأغانى ، كالتى اسمها تاليس Thalis . وهى أغنية شرح فيها معالم مذهبه ، وذاعت هذه الأناشيد بين الجماهير وعمال الميناء والبحارة . ونظمت المحاضرات لشرح المذهب الجديد . وانتقل الخصام بين أريوس ورئيسه إلى الأماكن العامة ، فوقعت المشاجرات بين الناس فى الإسكندرية التى اشتهرت بشدة تأثرها ، وكثرة اضطراباتها .

وما كاد قنسطنطين ينتصر على خصمه ليكينوس سنة ٣٢٤ ، ويصبح سيداً على كل الامبراطورية الرومانية ، حتى التفت إلى معالجة النزاع الدينى ، وأول عمل قام به قنسطنطين فى هذه الناحية ، أنه طلب إلى اسكندر (اسقف الإسكندرية) وأريوس ، أن يعملا على إعادة السلام إلى الكنيسة ، وتسوية الأمور بينهما ، وأن يحرصا على التماس رضى الامبراطور . ثم قرر الامبراطور قنسطنطين أن يعقد مجمعاً دينياً مسكونياً لتسوية الأمور الدينية . ومنها مشكلة أريوس . فأنعقد المجمع فى نيقية سنة ٣٢٥ . ولما هو معروف من خضوع المجمع لسلطة الامبراطور قرر المجمع إدانة أريوس ، واعتباره عدوا للمسيح وتقرر أيضاً تحديد العقيدة الأرثوذكسية : بأن جرى اعتبار المسيح من نفس مادة الأب ،

أى أن صفته الألهية مستمدة من الأب . وأمر بسجن أريوس واتباعه ونفيهم إلى ايلليريا .

وظن قسطنطين أنه أعاد السلام إلى الكنيسة والامبراطورية، غير أن ظنه قد خاب . فما صدر من القرارات فى مجمع نيقية لم يؤد إلا إلى ازدياد السخط ، واستمرار النزاع الدينى نحو نصف قرن . فلم يلبث أن ظهر ذلك النزاع من جديد بعد فترة وجيزة من انعقاد مجمع نيقيه . إذ وقع التشاحن بين المصريين ، ونجح يوزبيوس فى حمل الامبراطور على الافراج عن أريوس ، بل أنه استقبله ، وحصل منه على إقرار بأن عقيدته لا تختلف عن الأرثوذكسية ، وحوالى هذا الوقت (ابريل سنة ٣٢٨) مات أسقف الإسكندرية ، وتم انتخاب اثناسيوس أسقفا ، وتحمس لذلك أهل الإسكندرية الذين تعلقوا به ، لما اشتهر به من النزاهة والتقوى والزهد ، وأنه خير من يمثل الكنيسة .

أثناسيوس :

كان اثناسيوس من أكبر الشخصيات الدينية فى مصر ، إذ أنه ظل نحو نصف قرن (٣٢٨ — ٣٧٣)، يوجه التاريخ الدينى بمصر، وكان من أشد أتباع مذهب نيقية ، واكتسب سلطانا قويا فى مصر والعالم المسيحى حتى صار قادراً على تحدى الامبراطور ومن تبعه من رجال الكنيسة .

والواقع أنه توافر فى اثناسيوس من الصفات ، مثلما توافر فى رجال السياسة والأعمال ، مثل الذكاء والوفاء والقدرة على إدراك الحقائق ، وكان اثناسيوس حريصاً على رعاية التقاليد المسيحية ، والوقوف على ما يجرى من الأحداث والأعمال ، فضلا عما اشتهر به من خلق متين ، ومن الصلابة فى الحق ، وما اشتهر به من روح وثابة ، ومن الثبات المطلق والعناد الشديد ، حين يعتقد أنه يؤدى واجبه .

http://www.al-maktabeh.com

لم يكن اثناسيوس جاهلا ولا أميا ، غير أنه لم يكن له نصيب من رحابة الصدر ،ولا من حب الاستطلاع ، أو الميل إلى الهلينية أو الإنسانية ، وهى الصفات التى تقوم عليها الأفلاطونية الحديثة . إنما تشبع أثناسيوس بالتوراة والانجيل فلم يحفل بما اشتهر به الفلاسفة والعلماء من التعقيد ، بل أنه كلما تعرضت الأرثوذكسية لأزمة من الأزمات ، ظهر عناده ، واشتد فى مهاجمة خصومه ، واتخذ من الوسائل ما يقهرهم .ولذا لجأ خصومه إلى اتهامه بأنه شخصية خطيرة من الناحية السياسية ، و بأنه متآمر ، يطمع فى أن يكون له من السلطان والنفوذ ما يتجاوز حدود وظيفته الدينية ، و بأنه قد يعمل على مخالفة القوانين .

وكان اثناسيوس يدفع عن نفسه هذه التهم ،و يعتبرها من قبيل الافتراء والكذب . ولكن الذى لا شك فيه ، أن ما اشتهر به اثناسيوس من العناد ، وما كان له من سلطان قوى على نفوس المصريين ، هو الذى اعتبر مصدر خطر على سلطان الامبراطور ، وهو الذى كان سبباً لما تعرض له اثناسيوس من محنة . والواقع أنه كان لأثناسيوس من قوة الجدل ، وصدق العقيدة ، وشدة الاخلاص ماجعله يعتبر كل ما يحدث من أمور ، مرتبطاً بكرامته وشخصه. ولذا قضى الجانب الأكبر من حياته فى نضال مستمر ، سواء كان مدافعا عن نفسه ، أو متهما غيره . واعتمد فى ذلك على ما اشتهر به من قوة فكرية نادرة ، وفصاحة دافقة ، وقدرة فائقة فى التماس ما يتفق مع صالحه من الحقائق . وتدل كتابات أثناسيوس على ما أحدث من أثر كبير فى أهل الإسكندرية المعروفين بالتقوى والصلاح ، وفى رهبان الصحراء ، الذين صاروا من أخلص أنصاره وأتباعه ، على أن هذه الكتابات تصور لنا من جهة أخرى ما أثاره ـ أثناسيوس من الأحقاد العنيفة .

فمنذ البداية اجتمع المليتيون والأريوسيون على مقاومة أثناسيوس ، الذى تولى الأسقفية بعد وفاة الاسكندر . على أن أثناسيوس رد على هذا التحالف بما

اتخذه من اجراءات عنيفة ، فتعرض أتباعهم للحبس أو الضرب بالمقارع ، وجرت مهاجمة كنائسهم ، وتحطيم ما بها من أوان مقدسة ، وبلغ الاضطراب بالإسكندرية من العنف حداً جعل الامبراطور يستدعى اثناسيوس إلى القدوم إلى نيقوميديا سنه ٣٣١ ، كيما يبرر سلوكه . ولم يلبث الامبراطور أن عفا عن أريوس وطلب إلى أثناسيوس، أن يقبل الأريوسيين فى شهود القداس ، وأن يرد رؤساءهم إلى وظائفهم الدينية ، والواقع أنه على الرغم من أن مذهب نيقية لم يجير أبطاله من الناحية الرسمية ، فانه تقرر عن قصد إغفاله وإهماله ، والاستعاضة عن بعض قراراته ، باتخاذ قرارات جديدة .

ومن العسير تعليل ماحدث من معارضة شديدة لمجمع نيقية ، ومعرفة السبب الذى أدى إلى تغيير ميل قنسطنطين ، والراجح أن من هذه الأسباب ما يتعلق بتأثير دوائر القصر ، والعلاقات الأسرية الوثيقة ، وما إلى ذلك . اذ أن قنسطنطين حينما حاول أول الأمر أن يحل مشكلة الأريوسية لم يقف تماما على الوضع الدينى فى الشرق، حيث لقيت الأريوسية تأييداً كبيرا ،وحظيت بالقبول والرضى. ويرجع السر فيما حدث من تأييد الأمبراطور لقرار مجمع نيقية ، إلى ما كان من أمر تربيته وتعليمه فى الغرب، وتأثره بزعماء الغرب ، مثل هوزيوس Hosius أسقف قرطبة . فاذا كانت هذه القرارات تتفق مع أغراض قنسطنطين وقتئذ ، فانها لا تلائم أحوال الشرق . وحينما أدرك الإمبراطور فيما بعد أن قرارات نيقية تتعارض مع روح غالبية الكنيسة ولا تتفق مع رغبات الجماهير فى الشرق ، أخذ يتحول إلى جانب الأريوسية، وفى السنوات الأخيرة من عهد قنسطنطين، تغلغلت الاريوسية فى البلاط الامبراطورى وازدادت رسوخا واستقرارا فى الشطر الشرقى من الإمبراطورية، وتعرض عدد كبير من أنصار مذهب نيقية للنفى بعد تجريدهم من مراكزهم الدينية .

ولم يسلم أثناسيوس من التعرض لهذه السياسة إذ ترتب على رفضه إعادة الأريوسيين

إلى وظائفهم ، وماجرى من اتهامه بأنه جبا ضرائب غيرمشروعة ، ودبرمؤامرات سياسية بلغت من الخطورة حد اعتبارها خيانة عظمى ، أن تقرر سنة ٣٣٤ محاكمة أثناسيوس فى مجمع صور، غير أنه لم يحضر المحاكمة فأصدر المجمع حكما بإدانته ، وعزله عن أسقفية الاسكندرية ، ومنعه من الإقامة بمصر ، وتقرر ارسال القرار إلى الامبراطور للتصديق عليه ، وتقرر أيضا السماح للأريوسيين بمباشرة تقديم القرابين . ولم يفلح أثناسيوس فى حمل الأمبراطور على تغيير قرار المجمع ، بل أن تهمة جديدة قد وجهت إليه ، وهى أنه فكر فى منع إرسال القمح من مصر إلى القسطنطينية .فلم يتردد الأمبراطور فى أن يتخذ قرارا بنفى أثناسيوس إلى تريف Tréves بعد محاكمة قانونية ، اشترك فيها زملاؤه .

لم يقبل أنصار أثناسيوس ، ما تعرض له أسقفهم من معاملة سيئة فقامت المظاهرات بشوارع الاسكندرية وكنائسها ، وكتب القديس أنطون إلى الأمبراطور ينكر ما تعرض له أثناسيوس من الاتهامات ، وعلى الرغم من أنه تقرر العفو عن أريوس، والسماح له بالعودة إلى الإسكندرية، فإنه مات بالقسطنطينية فى طريقه إلى مصر .

و يشير المؤرخ دوشين « هكذا انتهى الفصل الأول من مأساة أثناسيوس وربما جرت الأمور منذئذ على نحو أفضل ، لوأن أثناسيوس ، أسقف الأسكندرية لم يلجأ إلى الشدة فى معاملة خصومة (المليتيين) ، أو أنه أجاز لمن انهزموا فى مجمع نيقية ، بأن يعودوا إلى حظيرة الكنيسة ، فلو أنه فعل ذلك ، لما استطاع الناس أن يصوروه للأمبراطور ، على أنه مثير للاضطرابات ، و بأنه رجل عنيـــد ، لا يتحول عن رأيه ، غير أن أثناسيوس لم يلبث أن لجأ ، إلى المسالمة والتزام الهدوء .

موقف الأمبراطورية البيزنطية من أثناسيوس :

عاد اثناسيوس إلى الاسكندرية سنة ٣٣٧ ، عقب وفاة الأمبراطور قنسطنطين مباشرة ، فاستقبله أهل الاسكندرية استقبالا حافلا ، وخرج القديس أنطون من عزلته ، وقدم إلى الاسكندرية للاشتراك فى الاحتفال به . غير أن خصومه لم يعترفوا بالهزيمة ، بل أصروا على أن قرار عزل أثناسيوس عن الأسقفية لا زال قائما ، وترتب على ذلك أنه تم تعيين أسقف آخر وهو جريجورى ٣٣٩ ولقى الأسقف الجديد التأييد والمساعدة من والى الاسكندرية ، فوقعت بالمدينة حوادث عنيفة ، منها أن الشرطة هاجموا كنائس الأرثوذكسيين ، فوقع عدد كبير من القتلى والجرحى ، وشبت النار ، أثناء هذه الفتنة ، فى كنيسة كيرينوس Quirinus (بالاسكندرية) فاحترقت هى وكنيسة المعمودية المجاورة لها . وأمر الأسقف الجديد بالقاء القبض على المعارضين ، وجلد فريقا منهم ، وسجن الآخرين ، أما أثناسيوس فلجأ إلى كنيسته حتى يتجنب تفاقم الأمور ، ثم وجه اثناسيوس إلى رجال الدين احتجاجا صارخا على انتهاك حرمة كنيسته ، وعلى أكاذيب خصمه القديس يوزبيوس أسقف نيقوميديا . وفى وسط هذه المشاكل ارتحل اثناسيوس إلى روما .

على أن الحزبين المتنازعين كانا قد لجأ إلى البابا يوليوس ليحكم فيما بينهما من نزاع فحكم البابا لصالح أثناسيوس ، وكان أمبراطور الدولة الرومانية فى الغرب ، قنسطانز(٥)* راضيا عنه أيضاً ، فانعقد فى خريف سنة ٣٤٠ ، مجمع فى

(*٥) بعد وفاة الإمبراطور قنسطنطين سنة ٣٣٧ ، اقتسم الحكم من بعده أبناؤه الثلاث قنسطنطين وقنسطنطيوس وقنسطانز ، فلم يلبث النزاع أن دب بينهم ولقى اثنان منهم مصرعهما ، إذ أن قنسطنطين لقى حتفه سنة ٣٤٠ ، بينما جرى اغتيال قنسطانز سنة ٣٥٠ ، فانفرد قنسطنطيوس بالحكم ، فظل يحكم الإمبراطورية حتى سنة ٣٦١ . ولما تعلق قنسطنطين وقنسطانز بمذهب نيقية ، اتخذ قنسطنطيوس جانب الأريوسيين ، ولعل ذلك راجع إلى أنه أثناء السنوات الأخيرة من حكم أبيه قنسطنطين . كان يصرف الأمور السياسية بالإمبراطورية كلها .
Vasiliev : Histozy of the Byzantine Empire, p. 36.

روما ، أعلن بطلان قرار مجمع صور بعزل أثناسيوس ، وعزل أنصاره . غير أن الأساقفة الشرقيين ردّوا على ذلك ، فعقدوا مجمعاً فى أنطاكية سنة ٣٤١ ، أعلنوا فيه احتجاجهم على الأرثوذكسية ، وأدانوا خصومهم من جديد . وفى أثناء ذلك اشتد الاضطراب بالاسكندرية ، وظل الأسقف جريجورى يضطهد كل من ظل من المسيحيين بها على ولائه لأثناسيوس . ثم تقرر آخر الأمر ، بفضل نفوذ الأمبراطور قنسطانز ، عقد مجمع ، اجتمع فيه أساقفة شطرى الأمبراطورية ، لتسوية الخلاف الدينى ، وتم ذلك فى مجمع سارديكا سنة ٣٤٣ . وكان يرأسه هوزيوس — القرطبى ، غير أن الأساقفة الشرقيين انسحبوا من المجمع ، واحتجوا بأنهم لا يرغبون فى الاجتماع برجال من أمثال أثناسيوس جرى الحكم عليه بالالحاد ، وأن هذه التهمة لازالت عالقة به ، وأنه لم يتحلل منها . على أن قنسطانز لم يتخل عن أتباعه ، فألح على أخيه قنسطنطيوس امبراطور الدولة الشرقية ، حتى يعدل عن سياسة الشدة التى اتبعها ضد أهل الاسكندرية . فكتب قنسطنطيوس إلى ولاة الأقاليم ، بألا يتعرضوا بالأذى لأتباع اثناسيوس (٣٤٤ م) . فلم يلبث اثناسيوس نفسه ، أن عاد إلى أسقفية الاسكندرية وكان جريجورى قد مات فى يونية سنة ٣٤٥ . وفى اكتوبر سنة ٣٤٦ . دخل اثناسيوس الاسكندرية . فتلقاه أهلها بمظاهر الترحيب والاحترام(٦)* .

وحينما مات قنسطانز سنة ٣٥٠ ، تعرض أثناسيوس من جديد للاضطهاد والسخط من قبل أعدائه . ومن الامبراطور قنسطنطيوس ، إذ أنه صدق كل

(*٦) أعقب عودة اثناسيوس ، فترة هدوء استمرت عشر سنوات ، تمتع فيها اثناسيوس بكل السلطات . يصف اثناسيوس ازدياد حماس الجماهير وتعلقهم بالزهد والتنسك وإقبال الناس على حب الخير ، والخروج عن الأموال والصدقات ، وفى هذه الفترة ، فيما يبدو ، عاد فرومنتيوس ، من اكسوم ، (الحبشة) ، لجرى رسمه أسقفاً ، فوضع بذلك أساس الكنيسة الحبشية . ويعتبر ذلك أول امتداد لبطريركية الاسكندرية خارج حدود الإمبراطورية الرومانية انظر .

Hardy : Christian Egypt. p. 61.

الاتهامات التي وصفت أثناسيوس بأنه شخصية خطيرة ، يدبر المكائد السياسية، بل نسب إليه أنه اشترك فى اغتيال قنسطانز ، ولم يسع أثناسيوس ، إلا أن يلجأ مرة أخرى إلى روما ، وأرسل رجال الكنيسة المصرية إلى البابا ليبيريوس ، احتجاجا وقعه ثمانون أسقفا مصريا ، يعلنون فيه تأييدهم المطلق لأثناسيوس سنة ٣٥٣ . غير أن البابوية ، التى لم تدر عن مشاكل الشرق شيئا ، خافت أن تنتصر لرجل مثل أثناسيوس ، جرى اتهامه بالخيانة ، فتخلت عنه ، وترتب على ذلك ، أن تقرر إدانته فى مجمع آرل Arles (سنة ٣٥٣) ومجمع ميلان سنة ٣٥٦، وبذلك لم يعد لأثناسيوس نصير من الأساقفة فى الشرق والغرب .

على أنه عندما لقى الأمبراطور قنسطانز مصرعه سنة ٣٥١ ، وأصبحت الأمبراطورية خاضعة لأمبراطور واحد هو قنسطنطيوس ، حتى شرع هذا الأمبراطور فى تعيين أساقفة أريوسيين ، أو شبه أريوسيين ، فى الكنائس الرئيسية الشاغرة ، كيما يسهموا فى طرد أثناسيوس وعزله . وجرى التماس التهم السياسية مرة أخرى والصاقها به . فاتهموه بأنه حرض على مقتل قنسطنطين وقنسطانز ، ورد أثناسيوس على ذلك بأنه كان من أخلص الناس للامبراطور . ولم يكن من اليسير التخلص نهائيا من أثناسيوس ، بفضل التفاف المخلصين حوله ، وعزمهم على حمايته ، ولم يسع أثناسيوس إلا أن يرفض أمر الأمبراطور قنسطنطيوس ، بالخروج من الاسكندرية . فظلت المدينة طوال سنة ٣٥٥ تموج بالقلاقل والاضطرابات . وفى أوائل سنه ٣٥٦ شرع الدوق سريانوس syrianus فى حشد قواته بالاسكندرية ، فطاب منه رجال الدين والسلطات البلدية ، مايؤكد أنه لم يتلق تعليمات ضد اثناسيوس . ومع ذلك فإنه قام فى فبراير سنة ٣٥٧ بمهاجمة كنيسه تيوناس Theones بالاسكندرية ، حيث كان أثناسيوس يؤدى الصلاة، وتعرض كثير من الراهبات للأذى والقتل ، غير أن أثناسيوس ، استطاع أن يفلت من أيديهم ، بفضل مساعدة أتباعه المخلصين ، فظل مختفيا نحو ست سنوات

http://www.al-maktabeh.com

دون أن تهتدى الشرطة إلى مقره ، وهذه هى المرة الثالثة التى يرغم فيها على التخلى عن منصبه ، غير أنه لم يغادر البلاد فى هذه المرة ، على الرغم من شدة وطأة الحكومة وقسوتها ، إذ ظل أثناسيوس ست سنوات مختفيا فى جهات متفرقة بمصر وليبيا ، ومكث فترة طويلة فى المناسك المجهولة بالصحراء ، وتردد أحيانا إلى الأديرة الباخومية فى اخميم ، وبلغت به الجرأة أحيانا أن يزور الاسكندرية . على أن هذا الاختفاء لم يلبث أن صار مصدرا خصبا لكثير من الروايات والقصص بين الجماهير . والواقع أن سيطرة أثناسيوس على رعاياه من المصريين لم تبلغ من القوة مثلما بلغته أثناء هروبه من وجه السلطات الأمبراطورية . ولما فشلت السلطات الحكومية فى القبض على أثناسيوس ، حاولت أن تقيم مكانه أسقفا آخر . وفى يونيه جرى تسليم الكنائس إلى الأريوسيين ، واشترك الوثنيون فى شن هجوم عنيف على كنيسة قيصروم Caesarum بالاسكندرية ، واقتحموا البيوت ، ونبشوا القبور ، مدعين أنهم يبحثون عن أثناسيوس . وتقرر نفى أربعين من أنصار أثناسيوس إلى خارج الاسكندرية . وفى هذه السنة (٣٥٧ م) قدم جورج القبادوقى ليتولى أسقفية الاسكندرية ، والمعروف أنه كان من أنصار الأريوسيين . وهذه كانت الفترة الوحيدة التى جرى فيها الاهتمام بتنصيب أسقف أريوسى فى مصر ، فسيطرت فئة صغيرة على كنيسة الاسكندرية ، وتعرض عدد كبير من رجال الدين والعلمانيين لاهانات الجند ، بسبب ما أبدوه من المقاومة والمعارضة . إذ قرر جورج نفى ١٦ أسقفا ، وفر من وجهه نحو ثلاثين آخرين ، ونفى عددا من رجال الدين الموالين لأثناسيوس ، فأرسل طائفة منهم إلى المناجم ، ومنع عقد الاجتماعات ، وتعرض كثير من النساء المعروفات بحماسهن لأثناسيوس للاهانة من قبل الجند ، فظل الأرهاب مستمرا نحو ١٨ شهرا . و بلغ الارهاب من الشدة

والعنف ، أن تعرض الأسقف جورج نفسه للهلاك على يد الثوار ، فقرر الخروج من المدينة ، ولم يعد إليها إلا بعد ثلاث سنوات(٧) .

على أن أثناسيوس لقى من تبجيل الناس واحترامهم مالم يلقه من قبل، فإذا كان الإمبراطور قنسطنطيوس اعتبره عدو الدولة ، فإن أعيان مصر اعتبروه المدافع عن العقيدة ، واعتبروه البابا الشرعى لجميع المؤمنين . وكلما ازداد اضطهاد الحكومة كلما ذاعت شهرته .

وعكف أثناسيوس فى منفاه بالصحراء على التأليف ، والمعروف أنه ألف من قبل ، فى سنة ٣٥٠ ، رسالة بعنوان « الرد على الأريوسيين » وألف فى منفاه « الأحاديث ضد الأريوسيين Aretions against the Arians » ووضع لأصدقائه الرهبان الكتاب المعروف باسم تاريخ الأريوسيين History of the Arians ، وذلك فى سنة ٣٥٨ ، وكتب أثناسيوس ، فى هذه الفترة أيضاً سيرة القديس أنطون Life of Anthony الذى يعتبر من أعز أصدقائه ، والذى توفى حوالى هذا التاريخ ، وأصدر أثناسيوس أيضاً رسالته عن « تبرير هروبه » Defence of the Flight . وبفضل كل هذه الكتابات ، وما رسمه أثناسيوس من صور ساخرة ، وما اشتهر به من المهارة فى إظهار الشخصيات ، استطاع أن يهيىء لقرائه زاداً فكرياً ممتعاً ، وزاداً من الحجج والدفاع عن نفسه وأعماله ، كفيلا بأن يضمن له الشهرة وذيوع الصيت وتقدير المسيحيين إلى اليوم .

أوضح أثناسيوس فى كتاباته فى هذه الفترة ، التى اختفى فيها ، ما كان له

(٧*) تعرض جورج لاتهامات كثيرة ، منها أنه كان قبل أن يلى الأسقفية متعهداً لأعمال حكومية ولم تكن نزاهته فوق مستوى الشبهات . ومارس تجارة النطرون والبردى الناتجة من أملاك الكنيسة . وتعرض لهجوم أهل الاسكندرية ، حتى أرغموه على مغادرة المدينة ، ولم يعد إلا سنة ٣٦١ ، أى بعد وفاة الإمبراطور قنسطنطيوس ، وتولية جوليان المرتد (الوثنى) ، فلم يلبث أهالى الاسكندرية من الوثنيين والمسيحيين أن هاجموه وقتلوه .

من آراء صريحة فى العلاقة بين الكنيسة والدولة . فاعتبر أن ما للإمبراطور من سلطة روحيـــة ، ينبغى ألا تتعدى حدودها ، فلا تتطرق إلى الشئون الداخلية للكنيسة ، فمن الاعتراضات الموجهة إلى مجمع صور (الذى تقرر فيه عزل أثناسيوس) أن إجراءاته وأعماله إنما قام بها كونت من قبل الإمبراطور . وأسوأ من ذلك ما لجأ إليه الإمبراطور قنسطنطيوس ، من عقد اجتماع للأساقفه فى البلاط لاتخاذ قرارات . فهما يكن للدولة من علاقات ، فلابد للكنيسة أن تحتفظ بحقها فى إصدار القرارات واختيار زعمائها . واعتبر أثناسيوس أن الإمبراطور قنسطنطيوس ليس إلا المسيخ الدجال ، ورأى أن مصر كانت قبل هذا الفساد موطن الديانة الصحيحة .

مات الإمبراطور قنسطنطيوس سنة ٣٦١ ، وخلفه على حكم الإمبراطورية جوليـان الوثنى ، فحرص على أن يضعف نفوذ أثناسيوس ، فأمر بطرده من الاسكندرية ومصر كلها ، بعد أن عاد إليها عقب وفاة قنسطنطيوس ، إذ اتهمه بأنه أقدم على تنصير سيدات وثنيات ، حظين بمكانة عالية فى بلاط جوليان . غير أن أوامر جوليان لم تلق شيئاً من الاحترام عند أثناسيوس ، ولم تتجاوز هذه الأوامر حدود الاسكندرية ، أما أثناسيوس ، فإنه غادر الاسكندرية ، واتخذ طريقه نحو الجنوب ، ولم يحفل بأن يختفى عن أعين رجال الحكومة ، فلما وصل إلى طيبة ، استقبله الرهبان الباخوميون بالاحترام والإجلال .

وعاد أثناسيوس إلى الاسكندرية ، بعد مصرع الإمبراطور جوليان ، فتولى الأسقفية من جديد سنة ٣٦٦ ، وظل بقية حياته يخلد إلى الهدوء والسكون ، إلى أن مات سنة ٣٧٣ . غير أن الاضطرابات لم تلبث أن سادت الاسكندرية بعد أن تولى الأسقفية أحد الأريوسيين وهو (لوسيوس Lucius) وتعرض الرهبان والراهبات للقتل ، كما أنه تقرر نفى المعارضين إلى سوريا أو إرسالهم إلى المناجم ،

ثم عاد المنفيون بعد مصرع الإمبراطور فالنز سنة ٣٧٨ ، ومن بينهم بطرس أخ أثناسيوس .

بطريركية الاسكندرية :

كان أسقف الاسكندرية ، أواخر القرن الرابع الميلادى ، من أكبر رجال الدين مكانة فى كل العالم المسيحى دون استثناء ، ومن أقواهم نفوذاً فى العالم المسيحى ، وقد اعترف له مجمع نيقية بحق السيادة الدينية ، فجعل له السلطة على أساقفة مصر وليبيا و برقة ، فصار لأسقف الاسكندرية ما لأسقف روما من الامتيازات والحقوق ، فى رئاسة الأساقفة . وعلى الرغم من أن مجمع القسطنطينية الذى انعقد سنة ٣٨١ ، جعل أسقف القسطنطينية يلى فى المكانة أسقف روما ، فأنه اعترف لبطريرك الاسكندرية بما له من سلطة على أساقفة الكنائس المصرية .

فحاز أثناسيوس من المكانة مالم ينله غيره فى كل العالم المسيحى ، إذ اتخذ مثلما فعل أسقف روما ، لقب بابا ، دون أن يشاركه فيه أحد فى الشرق . وكان مطلق السلطان على حد رأى ممثلى الحكومة الإمبراطورية . وكان الرهبان جنداً مخلصين له ، متفانين فى خدمته ، ومستعدين لتأييده . كما كان الشعب يكن له كل احترام وتبجيل ، بفضل الروح القومية التى نمت فى ظل الكنيسة ، حتى صار يعتبر خليفة الفراعنة .

ومن عوامل ازدياد مكانة البطريرك أيضاً ، ما اشتهر به من الثروة المستمدة من بعض الاحتكارات ، مثل تجارة النطرون والبردى والملح ، وما كان يتقاضاه من الرسوم نتيجة ممارسة الشئون الدينية .

على أن أساقفة الاسكندرية حرصوا على استقلال كنيستهم ومد نفوذها ولتحقيق هذه الرغبة ، بذلوا جهوداً كبيرة استغرقت أكثر من نصف قرن (٣٨٥ — ٤٥١ م) ، وأحسن هؤلاء الأساقفة الإفادة من كل الوسائل ، مثل

http://www.al-maktabeh.com

مكانتهم الروحية ، ومثل ما حصلوا عليه من تأييد بابا روما ، ومثل اتفاق أسقفى روما والاسكندرية على مبدأ الحط من مكانة أسقفية القسطنطينية . يضاف إلى ذلك أنه توالى على أسقفية الاسكندرية ، ثلاثة أساقفة ، اشتهروا بالحماس الدينى والجرأة والنشاط : وهؤلاء الأساقفة هم : تيوفيل (٣٨٥ — ٤١٢) ، وكيرلس (٤١٢ — ٤١٤)، ثم ديوسقوروس (٤٤٤ — ٤٥١) .

أما تيوفيل فاقتصر جهاده أول الأمر على الاسكندرية وعلى إزالة بقايا الوثنية، فإنه على الرغم من مرسومات الإمبراطور تيودوسيوس الكبير ، بتحريم الطقوس الوثنية فى سائر الإمبراطورية سنة ٣٩١ فإن المعابد الوثنية فى مصر ظلت مفتوحة ، بل أن بعضها ظل قائما حتى آخر القرن الخامس ، لا فى الجهات النائية فحسب ، مثل جزيرة فيله ، وواحة آمون ، بل على أبواب مدينة الاسكندرية . وظلت أيضاً مدارس الاسكندرية ، التى تتمثل فى المتحف والأكاديمية (المكتبة) ، موطن المقاومة الوثنية . وظل الأساتذة والفلاسفة على وثنيتهم حتى آخر القرن الخامس ، واعتقدوا أن من واجبهم أن يستخدموا العلم فى الدفاع عن بقايا الوثنية . فظلت الآداب وثنية خالصة ، وفى هذه البيئة نشأ الشاعر « نانوس » بأخميم ، وهو من أعظم كتاب مصر فى القرن الخامس الميلادى . وهو الذى ألف الملحمة المعروفة باسم Dyonysiacs وهى ملحمة ميتولوجيـة تأثر صاحبها بالأساطير اليونانية وشعر هوميروس .

وليس أدل على ما كان للأفكار الوثنية (اليونانية) من مكانة فى مصر فى القرنين الرابع والخامس ، من هذا القدر الكبير من المختارات المقتبسة من كتب المؤلفين القدامى وشعراء الملاحم ، ومؤلفى التراجيديا والكوميديا ، والمؤرخين والفلاسفة ، والتى حفظتها أوراق البردى .

ولا شك أن الوثنية أحست بالخطر الشديد الناجم عن انتشار المسيحية ،

فازدادت قلقها ، وحاولت منع هذا الخطر ، وتيسر لها ذلك بفضل ما جرى من المنازعات الداخلية بين المسيحيين، فالمعروف أن فريقاً كبيراً من أهل الاسكندرية ظل على وثنيته حتى القرن الرابع . وهـذا الحزب الوثنى هو الذى استند إليه هرقليوس الحاكم الإمبراطورى بالاسكندرية فى سنة ٣٤٦ ، ضد أثناسيوس ، حين هدد هذا البطريرك بتحطيم الأصنام ، وهذا الحزب الوثنى هو الذى أحرق ما تحتويه الكنيسة الكبرى بالاسكندرية من متاع وأثاث ، وهو الذى حرض على قتل الأسقف جورج سنة ٣٦١ ، لما اشتهر به من الشدة ضد الوثنيين والعمل على تدمير معابدهم ، وهـذا الحزب هو الذى قام بالثورات بعدئذ زمن الإمبراطور فالنز .

وعاشت فى القرن الخامس جماعات وثنية قرب هرمو بوليس ، وفى إقليم إخميم ، وفى أنتيابوليس (الشمانية) ، وفى طيبة . وأثارت هذه الجماعات الرهبان والأساقفة . وكان لايزيس معبد فى مينوتيس Menouthis على مسافة أميال قليلة من الاسكندرية ، وقد ظل هـذا المعبد يتمتع بشهرته حتى القرن الخامس الميلادى ، وبلغ من تهاون المسيحيين أن كتب أحد المعارضين للوثنية ، أن المسيحيين فى مينوتيس ، بلغوا من ضعف الإيمان ، أنهم صاروا عبيداً للذهب الذى كان يمنحهم به الوثنيون ، حتى لا يمنعوهم من تقديم القرابين لآلهتهم .

ومن أشد الأسلحة التى استخدمها الوثنيون ضد المسيحية ، أنه كان بأيديهم حتى القرن الخامس أمر تعليم الشبان وتثقيفهم . فعلى الرغم من مصرع هيباتى على أيدى المسيحيين وقد كانت تعتبر من أعظم المدرسين الوثنيين ، فان المدرسة الوثنية بالاسكندرية ظلت مزدهرة حتى اواخر القرن الخامس الميلادى ، ومع ذلك تكرر وقوع الشجار بين الطلبة المسيحيين والطلبة الوثنيين . على أن المصريين أقبلوا فى القرنين الرابع والخامس الميلادى على دراسة كل ما يتعلق بأصلهم ووطنهم دون أن يفرقوا بين التقاليد المصرية ، وبين الاخلاص الوثيق للمسيحية .

وما حدث من الاختلاف والنزاع حول نظريات وآراء أريجين ، أدى إلى نشوب الخلاف بين كنيستى الاسكندرية والقسطنطينية ، فعلى الرغم من أنه لم يكن وقتئذ من يدافع عن هذه الآراء ، فإن كثيراً من الناس أخذوا منها ما يعتبر صالحا وسليما ، وتسربت هذه الآراء إلى الرهبان فى وادى النطرون ، وذلك لسهولة الاتصال بين الاسكندرية ومحلات الرهبان فى وادى النطرون . إذا أن عددا من الرهبان لم يكتفوا باستظهار التوراة والانجيل ، بل وعوا أيضا مختارات كثيرة من كتابات أريجين وأتباعه من الاسكندارنيين . فالمعروف أن الرهبان المصريين درجوا على الاعتقاد بأن الله انما اتخذ صورة إنسان ، وأنكروا كل ما عدا ذلك من الأراء ، فلما بعث تيوفيل سنة ٣٩٩ ، برسالة إلى محلات الرهبان أشار فيها إلى أن ما ورد فى الأنجيل من المصطلحات المتعلقة باليدين والعينين ، انما يقصد بها الناحية الرمزية ، أظهر الرهبان سخطهم واستياءهم ، وبعثوا من قبلهم وفدا ، إلى الاسكندرية ليحتج عند تيوفيل ، الذى لم يلبث أن طيب خاطرهم ، وأعلن استعداده ، لانكار كتابات أريجين العدائية . على أن الجدل والمناقشة حول هذه الآراء الأريجينية ، أدى فى وادى النطرون إلى اضطرابات عنيفة ، وترتب على ذلك أنه تقرر حبس جماعة منهم ، وجرى الهجوم على قلاياتهم ، غير أن فريقا من الرهبان الاريجنيين يبلغ عددهم ٨٠ راهبا هربوا إلى فلسطين ، ومنها لجأوا إلى القسطنطينية . ومن التهم الموجهة إلى الرهبان الأيجنيين أنهم مزجوا الرهبنة الانعزالية بتصور غير سليم عن العلاقة بين الأب والابن ، وبعث الأجساد ، وفكرة التجسيد .

استقبل بطريرك القسطنطينية ، حنا كريزوستيم (فم الذهب) أنصار أريجين الفارين بالترحاب على الرغم من أنه تقرر حرمانهم من الكنيسة بمصر . فانتهز تيوفيل هذه الفرصة وتزعم المعارضة ضد حنا وضد النفوذ الذى يتمتع به كل بطريرك بالقسطنطينية ، ومن ثم انتقل الخلاف الى نزاع بين بطريرك الاسكندرية

وبين بطريرك القسطنطينية. والمعروف أن حنا فم الذهب ولى كرسى (بطريركية) القسطنطينية منذ سنة ٣٩٨، بفضل تأييد القصر الإمبراطورى، وكان تيوفيل قد رشح من قبله قسا للبطريركية فى القسطنطينية، فلم يحظ بالقبول، بل جرى إرغام تيوفيل على الاشتراك فى رسامة حنا. ولذا كان تيوفيل يكره بطريرك القسطنطينية، ويتحين الفرص للنيل منه. فلما تقرر دعوة تيوفيل إلى القدوم إلى القسطنطينية، ليدافع عن تصرفاته ضد الرهبان الذين لجأوا إلى العاصمة.

وفى منتصف سنة ٤٠٣ م قدم تيوفيل إلى القسطنطينية فى حاشية كبيرة من الأساقفة المصريين، وحمل معه مالا كثيرا وهدايا قيمة. فاستقبله هو وصحبه، بحارة اسطول القمح بميناء القسطنطينية بهتاف شديد. ولكن تيوفيل تجاهل ما كان لأسقف القسطنطينية من مكان، وصار يقيم الولائم، ويوزع الهدايا، فاجتذب اليه رجال البلاط وتجمع لدى تيوفيل أدلة كثيرة وشكاوى عديدة ضد حنا فم الذهب، فانعقد فى أغسطس سنة ٤٠٣، مجمع قرب خلقدونية، وتقرر فيه عزل حنا فم الذهب من البطريركية، والواقع أن الأغلبية فى هذا المجمع كانت من الأساقفة المصريين، إذا كان عددهم يبلغ ٢٩ أسقفا، من مجموع الحاضرين، وعددهم ٣٦ أسقفا، وعلى الرغم من هذا القرار، فان أهالى القسطنطينية كانو حريصين على التمسك ببطريركهم وقد اظهروا شعورهم عندما عاد إلى مقره فاستقبلوه فى حماسة شديدة، على حين أن تيوفيل وأساقفته لم يجرأوا على الظهور فى القسطنطينية، ونشب عراك عنيف بين غوغاء المدينة وبين البحارة المصريين، فلم يسع تيوفيل إلا التعجيل بالعودة إلى مصر. غير أن تيوفيل أثار مسألة فنية، وهى أن حنا فم الذهب عاد إلى منصبه الدينى، دون أن ينعقد مجمع لالغاء القرار الذى سبق اتخاذه بعزله. فتقرر آخر الأمر نفى حنا فم الذهب، وذلك سنة ٤٠٤، فأضحت كنيسة القسطنطينية فى أيدى خصومه، وبذلك أحرز بطريرك الاسكندرية النصر على منافسه بالقسطنطينية

أما موقف البابا ، انوسنت ، فى روما ، فيتمثل فى أنه حين استنجد به حنا فم الذهب وأنصاره ، انضم اليهم فأقر سلامة موقفهم ، وامتنع فترة من الزمن عن المشاركة فى شعائر الكنائس الشرقية ، وكأنما كان ذلك إيذانا بما حدث فيما بعد من القطيعة بين كنيستى روما والاسكندرية .

على أن تيوفيل أثبت بذلك لنفسه حق الصدارة فى أمور الشرق الدينية ، بعد أن عرض منافسه ، بطريرك القسطنطينية للذلة والمهانة ، ومات فى سنة ٤١٢ .

البطريرك كيرلس : Cyril

كان كيرلس ابن أخ تيوفيل ، وقد جرى انتخابه بطريركا بعد وفاة تيوفيل ، فجرى ابن الأخ على نهج خاله فى سياسته الدينية ، واشتهر بفضل ما ناله من حظ كبير من التعليم والثقافة ، وبما اتصف به من مضاء العزيمة ، وقوة المنطق ، والذكاء الحاد ، وبفضل ماعرف به من الإعتداد برأيه وشدة التعصب ، والتشبث بكل وسيلة تؤدى إلى تحقيق مطامعه ، وتوطيد سلطانه . وعلى الرغم من أن كيرلس يعتبر آخر ممثل لمذهب كنيسة الاسكندريه فى أصول الدين المسيحى ، فاننا نلمس فى عمله ، امتزاج دراسه رجل الدين ، وروح الرجل السياسى الماهر . فبفضل هذه الصفات استطاع كيرلس أن يفرض أراءه مدة ثلاثين عاما . ونحن نعتبر ماحازه من نفوذ أوضح دليل على عبقريته .

على أن بطريركيته استهلت بما جرى من المنازعات مع السلطات المدنية ، ولم تلبث هذه المنازعات أن تفاقمت حتى صارت حربا أهلية فى الاسكندرية . إذ وقع فى صدام ونزاع مع السلطات الحكومية بالمدينة ، ومع اليهود الذين حرصوا على التمسك بما منحهم الإمبراطور من امتيازات ، برغم ضآلتها . وأصر كل من

كيرلس ، بطريرك الاسكندرية ، وأورستيس Orestes الوالى الاوجستالى على أن تـكون له دون غيره السيادة بالمدينة . فلجأ كيرلس أول الأمر إلى أن يستخدم ماله من سلطة على رجال الـكنائس ، فأمر بإغلاق كنيسة .Novatian(التى تنتمى فى مذهبها إلى الـكنيسة البيزنطية) ، وازدادت — الحالة سوءا ، فى سنة ٤١٥ ، حينما أمر أورستيس بالقبض على أحد انصار كيرلس ، وأمعن فى تعذيبه والتنكيل به ، وكان أورستيس يميل إلى اليهود ، فلم يلبث النضال والقتال ، أن نشب بين اليهود والمسيحيين ، وأخذ كيرلس فى طرد اليهود ، دون أن يكترث بالوالى البيزنطى ، الذى لم يسعه إلا أن يتقدم بالشكوى إلى الإمبراطور ضد كيرلس، لأنه اعتدى على سلطته . غير أن كيرلس أظهر من الجرأة ما هو أشد من ذلك ، إذ أن جماعة من الرهبان كانوا قد جاءوا من وادى النطرون إلى الاسكندرية، فتظاهروا ضد الوالى فى الشارع ، بل أن أحدهم قذفه بحجر ، ولم ينج الوالى إلا بعد عناء شديد، ولما لقى المعتدى مصرعه على أيدى رجال الوالى ، أقام البطريرك له جنازة رسمية واعتبره شهيدا .

ولم ينته النضال بين الوالى والبطريرك ، إلا بعد مصرع هيباتيا Hypatia المعروفة بتبحرها فى العلوم الرياضية بالاسكندرية ، وهى وثنية وكانت من أقرب الناس إلى الوالى ، وحامت حولها الشبهات فى أنها باعتبارها من زعماء الوثنيين ، حرضت الوالى على البطريرك. ولهذا صدر فى العام الثانى (٤١٦ م) مرسوم من قبل الإمبراطور يقضى بتخفيض عدد افراد الفرقة المعروفة باسم parabolani ،وكانت مهمتها أول الأمر تقوم على مساعدة المرضى ودفن الموتى ، غير أنها صارت تعتبر شرطة خاصة للبطريرك ، فتقرر تخفيض عددها إلى ٤٠٠ ، وحرمان البطريرك من الاشراف عليها. غير أنها لم تلبث أن زادت فى سنة ٤١٨ إلى ٦٠٠ ، وعاد البطريرك إلى السيطرة عليها .

http://www.al-maktabeh.com

أضحى لـكيرلس من النفوذ والهيبة ماجعل خصومه يطلقون عليه لقب فرعون ، والواقع أن كيرلس كان يطمع فى أن يمتد سلطان بطريركية الاسكندرية إلى كل الشرق ، فينتزع هذه الجهات من يد بطريرك القسطنطينية ، وقد اتسع له مجال العمل وتهيأت الفرصة لأن بطريرك القسطنطينية كان رجلا قليل الحذر غير كفء للوقوف أمام مثل كيرلس .

شغل علماء الدين فى الشرق ، منذ مجمع نيقية الذى انعقد سنة ٣٢٥ ، بأمر خطير يرتبط بطبيعة المسيح، فالمعروف أن هذا المجمع أعلن أن الميسح من نفس جوهر الله ، وأن ماله من صفة بشرية ، كان مستمدا من ناحية العذراء مريم . فجرى النقاش حول « كيف تجتمع فى شخص المسيح الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية » أما مدرسة أنطاكية التى احتفظت بالتفكير العقلى ، والتى تأثرت بالاريوسية ، فإنها جعلت الطبيعة البشرية هى الغالبة فى المسيح ، وقالت أن يسوع إنسان استقرت فيه الالوهية ؛ وبذلك نفت عن العذراء صفة « أم الله » . ويبدو أن التوحيد أو الاتحاد يعتبر المبدأ الاساسى فى فقه كيرلس ، ويعتبر أيضا الهدف النهائى لسياسته الكنسية . على أن مدرسة الاسكندرية كانت أكثر تصوفا فى ميولها ، وكانت أكثر اتباعا للارثوذكسية أيضا . فاهتمت قبل كل شىء باقرار وحدة المسيح ، متبعة فى ذلك مذهب أثناسيوس ؛ ولذا كانت الطبيعة البشرية عندها فى المقام الثانى ، وتعتبر المسيح إلها تحول إنسانا وهو قول صاغة علماء الدين من أهل مصر فى عبارة « الطبيعة المتجسدة للاله الكلمة » . أراد كيرلس أن يفيد من النزاع بين هذه النظريات لخـــدمة مصالحه وآرائه الدينية والسياسية .

على أن ماجرى فيما بعد من سياسة كيرلس الكنسية لم يمس كنيسة الاسكندرية إلاقليلا ؛ ذلك أنه حدث فى سنة ٤٢٨ أن تولى بطريركية القسطنطينية

نسطوريوس ، وهو من انسوريا ، شديد الاعتناق لآراء المدرسة الانطاكية ، ومن أشد المتحمسين لها ، فكان يجهر بها فى غير حذر ، ويهاجم ما جرى اطلاقه على العذراء من لقب « أم الله » . جعل نسطوريوس رسالته فى ألا يلصق بالالوهية صفات بشرية .

والمعروف أن لدوائر القصر الامبراطورى بالقسطنطينية أثر كبير فيما يجرى من المنازعات الدينية. وكان يحكم بالقسطنطينية وقتذاك الأمبراطور تيودوسيوس الثانى ، الذى وقع تحت تأثير زوجته بولكيريا وأخته ايدوسيا وعن طريق هاتين السيدتين حصل كيرلس على تأييد الامبراطور ، وكانت علاقته بهما طيبة لأنهما كانتا تبغضان منافسة بطريرك القسطنطينية .

المعروف أن ما دعا إليه كيرلس من تجسيد الله ، مذهب يناقض المذهب القائل بالأحجام عن الصاق الصفات البشرية بالمسيح الإله . وهذا المبدأ اللاهوتى هو الذى أدى ، منذ البـــــداية ، إلى مهاجمة نسطوريوس ، والواقع أن الفروق بين مدرستى الاسكندرية وأنطاكية إنما ترجع جذورها إلى تاريخ التفكير الدينى . ومن هذه الفروق أن الاسكندراريين إنما يجنحون فى تفسير الأناجيل إلى الأساليب الرمزية ، على حين أن الأنطاكيين يؤثرون التزام الحرفية ، ولا يعتبر هذا الأمر بدعا فى الاسكندرية ، فما حدث من اندماج المفاهيم اليهودية والهيلينية ، إنما تم عن طريق الرمزية ، وساعد على ذلك ما كان معروفا فى مصر القديمة من أفكار . وانتقلت أفكار فيلو Philon وخلفائه من المسيحيين والوثنيين إلى اللاهوت المسيحى ، وانتهت إلى تقرير اتحاد الجانبين الألهى والبشرى فى طبيعة المسيح . على حين أن مدرسة أنطاكية تعتبر اتحاد هذين الجانبين فى المسيح إنما يجرى من الناحية الأخلاقية لا من الناحية الجسمانية . وكان مؤسس هذا المذهب ، وهو تيودور المصيصى أستاذاً لنسطوريوس . وقد

حرص على ألا يستنتج أن الصفتين الإلهية والبشرية متماثلتان فى علاقاتهما بالمسيح وأتباعه . وما يعزى للمسيح من أفعال وصفات باعتباره إنساناً ، لا سيما ما يتعلق منها بمولده ، وآلامه ووفاته ، لا ينبغى أن تُعزى إلى الإله .

أما روما فكان يتولى البابوية بها وقتذاك سلستين الأول Celestin (٤٢٢—٤٢٣م)واشتهر سلستين بالإخلاص والحزم فى أعماله ، والحرص على التزام القواعد ، غير أنه لا يجنح إلى استخدام الشدة فى معالجة المخالفين . واتخذت روما جانب الاسكندرية فى نزاعها ضد أنطاكية والقسطنطينية ،وذلك لسببين :

الأول ما حدث من التوتر فى العلاقات بين بطريركية القسطنطينية وبابوية روما ، بسبب تنازعهما على السيادة الكنسية فى إقليم أيلليريا . أما السبب الثانى ، أن سلستين من أشد الناس تعلقاً وإعجاباً بالقديس أغطسين ولم يكن لعلماء الدين بأنطاكية ما لأوغسطين من الوضوح فى نظرية الخطيئة الأولى والقضاء والقدر .

نشب النزاع بين كيرلس ونسطوريوس ، حينما تعرض نسطوريوس وأتباعه إلى مهاجمة « أم الإله » إذ طالب نسطوريوس إلى الناس فى إحدى مواعظه بأن يفرقوا بين « كلمة الله » وبين الهيكل الذى تحل به الآلهة ، وأن يتجنبوا القول بأن المسيح إنما ولدته مريم ، أما أتباعه فإنهم أنكروا لفظة « أم الإله » ، واعتبروا كل من يذكرها متهرطقاً وملحداً . ومن العسير أن نقرر إلى أى حد انتشر رأى نسطوريوس ، وهل تطرقت أفكاره إلى مصر ؟ . إذ يتوقف على هذا السؤال إدانته او براءته من التهم التى وجهت إليه ، وهى أنه هاجم فى عنف رأى الاسكندرانيين . وكيفما كان الأمر ، فإن كيرلس أصدر فى يوم عيد القيامه ، سنه ٤٢٩ ، منشورا أسقفيا إلى الرهبان المصريين ينذرهم بما ينتظرهم من أخطار؛ إذ أشار إلى أن المبشرين يذيعون من العقائد ما يجعل المسيح يهبط إلى مستوى الإنسان العادى . ثم كتب إلى الإمبراطور وإلى الأميرتين البيزنطيتين ينكر هذه البدعه،

ولم يترك كيرلس وسيلة إلا اتخذها لتحقيق غرضه ؛ فكان له بالقسطنطينية وكلاء وأنصار ، حرص على أن يتخذوا جانبه ، مهما كلفه ذلك من عناء ونفقات ، ويعتبر الرهبان بالقسطنطينية من أشد أنصاره .

وما حدث من التقارب بين كيرلس وسلستين بابا روما ، أدى إلى عقد مجمع فى روما أقر رأى كيرلس ، وطلب إلى نسطوريوس شرح فكرته ورأيه ، ومنحه فرصة (١٠ أيام) ليبدى فيها رأيه ، فإذا لم ينته هو وأتباعه إلى قرار ، تقرر حرمانهم من الكنيسة ، وعهد البابا إلى كيرلس بأن يتخذ الإجراءات اللازمه ضد نسطوريوس وأتباعه . فعقد كيرلس مجمعا بالاسكندريه ناقش آراء نسطوريوس ، وأصر على اندماج الصفتين الإلهية والبشرية فى جسد المسيح . وازداد تمسك نسطوريوس برأيه ، وأصدر قرار الحرمان ضد كيرلس .

ولما اشتدت الخصومة ، قرر الأمبراطور تيودوسيوس ، بالاشتراك مع ابن عمه (فالنتينيان) (الذى يحكم فى الغرب) الدعوة إلى عقد مجمع فى سنة ٤٣١ فى إفيسوس Ephesus (بآسيا الصغرى) ، يشهده الأساقفة بالشرق والغرب . ولم يحاول الامبراطور أن يشهد بنفسه المجمع ، بل أرسل مندوبا عنه ، كلفه بحفظ الأمن ، واستخدام الجند إذا دعت الأحوال ، لمنع الرهبان والعلمانيين من حضور المجمع . وأرسل البابا سلستين مندوبين ، وطلب إليهما أن ينحازا إلى جانب كيرلس ، وقدم كيرلس فى حاشية كبيرة من الأساقفة المصريين ، وقدم نسطوريوس واتباعه بالقسطنطينية غير أنه حرص على أن يبتعد عن المصريين ، ولم يصل إلى المجمع بطريرك أنطاكية وأساقفته إلا متأخرين . وقد عمل كيرلس على استمالة الأساقفة الشرقيين ، ورهبان القسطنطينية ، والأميرتين البيزنطيتين ، كما أنفق أموالا و بذل عطايا وهدايا لكبار الشخصيات ، ومن بينهم الأميرتان البيزنطيتان ، كما استغل انحياز البابا إليه ، وتخاذل الأساقفة الشرقيين عن تأييد نسطوريوس ، و بكل ذلك

http://www.al-maktabeh.com

استطاع كيراس أن يطلب إعفاء نسطوريوس من البطريركية والالتجاء إلى الدير (٨) * وبذلك انتصر بطريرك الاسكندرية مرة أخرى على بطريرك القسطنطينية .

وترك كيراس من بعده كنيسة ، بلغت من المكانة والقوة ، ماجعل أساقفة الاسكندرية جديرين بما أطلق عليهم من لقب « الفراعنة » . وصار لبطريرك الاسكندرية من السلطة المباشرة على أساقفة مصر والمدن الخمس (بنتابوليس) ماجعل من البطريركية أكبر وحدة كنسية فى الشرق وأشدها متانة. فلم يجر بها عقد مجامع إقليمية مستقلة ، وكل ما كان يحدث أنه يجوز أن يجتمع سويا أساقفة إقليم من الأقاليم ، مثل بنتابوليس أو طيبة ، وعندئذ يعتبر زعيم المجتمعين مفوضا من قبل البطريرك. والمعروف أن أضحى لبابا الاسكندرية، مالبابا روما ، من السلطة فى رسامة معاونيه من القسس والأساقفة. ويضاف إلى ماللكنسية من قوة ونفوذ أهميتها من حيث ثرواتها الضخمة ؛ إذ أن كنيسة الاسكندرية تتلقى من الحكومة منحا وهبات ، المقصود منها تحقيق أغراض خيرية ، وازدادت أيضا أملاك الكنيسة بما أضيف إليها من هبات وأراضى ، تبرع بها أو أوصى بها المسيحيون . وتشير وثيقة مؤرخة فى سنة ٣٩٠ إلى سفينة ، تمتلكها كنيسة الاسكندرية ، وترسو فى ميناء Charreuns النهرى (على النيل) . ويجوز أنها كانت تستخدم فى نقل المتاجر ، أو أنها كانت تتولى نقل الحبوب المخصصة للكنيسة . وترتب على نهوض مصر فى القرن الرابع الميلادى ، من الأزمة الاقتصادية التى سبق أن

(٨*) أقام نسطوريوس سنوات فى دير بالقرب من أنطاكية ، غير أن العلاقات لم تلبث أن ساءت بينه وبين بطريرك أنطاكية . وفى سنة ٤٣٥ تقرر نفيه إلى البتراء ، غير أن هذا القرار جرى تعديله ، فتقرر إبعاده إلى إحدى الواحات بمصر ، غير أنه وقع فى أسر البليميين ، فاستخلصه حاكم طيبة من أيديهم ، ونفاه إلى جزيرة الفنتين ، حيث قضى نحبه بها .

Gamb. Med. Hist. I. p.p. 502 — 503.

ومن هذه الهدايا سجاجيد ومنسوجات حريرية وسائر أدوات الترف التى اشتهرت الاسكندرية بصناعتها ، وذلك فضلا عن المبالغ الطائلة من المال ، التي بلغت على حد تقدير بعض المؤرخين نحو مليون دينار ، انظر Diehl : L'Egypte Byzantine p, 439

تعرضت لها سائر أقاليم الدولة الرومانية ، أن أخذت الملكيات الخاصة فى الظهور على الرغم من اختلافها فى مقادير مساحتها . غير أن الحكومة كانت تنظر إلى مصر على أنها مصدر للدخل أو الخراج ، فاشتدت فى مطالبها مما أدى إلى أن صغار الملاك أخذوا يسعون للحصول على حماية كبار الملاك أو أشخاص ذوى نفوذ كبير ، أو أن يكونوا مجرد مستأجرين عند هؤلاء الملاك الأقوياء . ولما لم تستطع الحكومة البيزنطية وقف نظام « الحماية » لم يسعها إلا أن تسلم بها سنة ٤١٥ .

ويعتبر من دواعى الدهشة أن يكون هناك ارتباط بين إقرار الحماية وبين ما جرى فى هذه السنة من الحوادث بالاسكندرية ، فقد تقرر الاعتراف بالحماة على أنهم ملاك ، إذا تعهدوا بتأدية الالتزامات والواجبات العامة ، وبهذه الوسيلة جاز لكنيستى الاسكندرية والقسطنطينية أن تحتفظا بالأراضى التى صارت فى حوزتهما عن طريق الحماية حتى هذا التاريخ . ومنذ القرن الخامس صار كبار الموظفين بالاقليم يختارون من الطبقة الأرستقراطية به ، وصار للبطريرك مكانة عالية بين كبار الموظفين ، وحاز مثل هذه المكانة أيضاً الأساقفة المحليون وبعض الأديره ، ومن الدليل على ذلك أنه حينما تعرض إقليم طيبة للغارات من قبل البليميين من جهة الجنوب صار دير شنوده مأوى لألوف اللاجئين الذين فروا من وجه البليميين ، بعد أن تخلى عن حمايتهم كونت طيبة . فحصلوا على المؤن من مخازن الدير ، وتولى علاج مرضاهم الأطباء الذين استأجرهم الدير لهذا الغرض ، وتولى الدير أيضا أمر دفن موتاهم ، ورعاية الأطفال ، أثناء الفترة التى قضوها فى الدير ، وقدرها ثلاثه شهور . فلما انتهت أيام كيرلس سنة ٤٤٤ م تولى ديوسقوروس ، رئيس الشمامسة ، كرسى البطريركية بالاسكندرية .

بطريركية ديوسقورس :

لم يكن ديوسقورس ليختلف كثيرا عن كيرلس فى سياسته وسلوكه لولا

أن ما جرت به المقادير ، وما كان يفتقر إليه ديوسقوروس من المهارة السياسية ، حرمه مما يبتغيه من الفوز . ففى مستهل بابويته كتب إليه تيودوريت صديق نسطوريوس يهنئه ، وأعلن ليو بابا روما استعداده للابقاء على ما كان من التحالف بين كنيستى روما والاسكندرية ، وحرص على أن يبذل له النصيحة .

وعلى الرغم من التهم الخلقية التى وجهت إلى ديوسقوروس ، فإنه جرى على نهج كيرلس فى ثلاث نواحى (١) فى حماسه لما حصلت عليه بطريركية القسطنطينية من امتيازات (٢) ، وفيما اشتهر به من المثابرة ، والتوسل بكل الطرق ، لتحقيق أغراضه (٣) ، وفى ارتكانه على تأييد الرهبان .

والمعروف أن تيودوريت كان من أنصار نسطوريوس المعتدلين ، وأنه حرص أثناء النزاع بين كيرلس ونسطوريوس ، أن يتجنب العداء مع البطريرك المصرى ، فأقر عودة الأساقفة إلى كراسيهم بعد أن تقرر عزلهم فى مجمع Ephesus أفيسوس غير أن ديوسقوروس لم يلبث أن اتهم تيودوريت بأنه تجاوز العدالة ، بما لجأ إليه من مساعدة أسقف صور ، الذى كان نسطوريا ، فى العودة إلى منصبه ، واتهمه أيضا بأنه ألقى موعظة نسطورية فى أنطاكية ، وأنه ادعى لنفسه من النفوذ والاختصاص فى بطريركية أنطاكية ، مالم يبلغه إلا بعد أن أضاف توقيعه إلى وثيقة أصدرها بطريرك القسطنطينية السابق . واستطاع ديوسقوروس أن يحصل من الأمبراطور على أمر يقضى بمنع تيودوريت من مغادرة أبروشيته ، وذلك سنة ٤٤٨ .

على أن ما نشب أيضا سنة ٤٤٨ من جدل دينى عنيف انما يرجع أيضاً إلى ديوسقوروس ، على أنه يصح أن نضيف إلى ذلك ما جرى تدبيره فى القصر الإمبراطورى من مؤامرة : ذلك أن الطواشى كريسافيوس Chrysaphuis اعتقد أن فلافيان بطريرك القسطنطينية انما يقف عقبة فى طريقه ، إذ أنه أثار غضب

الإمبراطور تيودوسيوس الثانى بما نهى عنه من عادة إرسال الهدايا ، وبحرصه على أن يتجنب الموافقة على إرغام بوليكيريا اخت الإمبراطور ، على الإنسحاب إلى الدير . وكان المسئول الأول عن هذه المناظرة الدينية ، أوتيخا **Eutythes** رئيس أحد الأديرة بالقرب من القسطنطينية ، وكان شيخا متقدما فى العمر ، لم يبرح مطلقا الدير ، غير أنه كان من أشد خصوم نسطوريوس ، وجرى اتهامه بأنه روج نظرية الطبيعة الواحدة ، فتقرر استدعاؤه لحضور المجمع الذى جرت العادة بانعقاده كل نصف سنة فى القسطنطينية ، فلما حضر قرر بأن للمسيح طبيعتين ، قبل أن يجرى تجسيده ، ثم صار للمسيح طبيعة واحدة بعد تجسيد الاله . ولما لم يتراجع عن هذا الرأى ، تقرر اداننه وعزله . وحاول عبثا أن يثبت أن قرارات المجمع تعرضت للتزوير ، وأخذ يتوسل إلى الأمبراطور ، والبابا ليو ، و إلى رهبان القسطنطينية . واستطاع أصدقاؤه ، لا سيما كريسافيوس ، أن يجعلوا ديوسقوروس يتخذ جانبه . وجرى الاقتراح بعقد مجمع كبير لمراجعة القرارات التى صدرت أخيرا من مجمع القسطنطينية ، فوافق الإمبراطور على انعقاد المجمع ، وعلى أن يرأسه ديوسقوروس .

غير أنه إذا كان ديوسقورس يعتقد أن الفرصة قد حانت لتحقيق أغراضه ، فان البابا ليو [(٩)*] اعتبر هذه الفرصة فى صالحة . تلقى ليو رسالة أوتيخا فى شىء من الكياسة ، وساءه تأخر فلافيان فى اخطاره بالأمر ، وتمهله فى طلب نصيحته . غير أنه لما انتهى من دراسة الأمر بأكمله ، اقتنع بأن فلافيان كان مصيبا فى قراره

(٩*) لواقع أن ليو امتاز بمتانة الخلق ، والكفاءة النادرة . ويعتبر من أكبر البابوات فى التاريخ ، باعتباره قوة خلقية فى روما لها مكانتها فى زمن ساد فيه الفساد ، وبفضل سلطانه استطاع أن يوقف زحف الهون بقيادة اتيلا نحو روما . ووجه أهميته فى هذا الموضوع حرصه على دعاوى وامتيازات كرسى البابوية فى روما ووجوب سيادتها على سائر الكراسى الرسولية ، وما جرى اتخاذه مركزاً وسطاً ، بفضل دبلوماسيته الدينية ، بين المذاهب الدينية المتنازعة انظر **Gamb. Med. Hist. I. p. 503,**

بينما كان اوتيخا مخطئا . وبادر بارسال رأيه كتابة إلى فلافيان، وتيودوسيوس، وبولكيريا وغيرهم . ودفعه إلى إتخاذ هذا الاجراء ثلاثة مبادىء : الأول : أن المسألة ليست من المسائل التى ينظرها مجمع كبير ، غير أن الإمبراطور قرر عكس ذلك . المبدأ الثانى : فإذا تقرر عقد مجمع ، فينبغى أن ينعقد فى الغرب ، غير أنه لم ينجح أيضا فى ذلك . أما المبدأ الثالث فيقضى بأنه من حقه ، باعتباره خليفة القديس بطرس ، أن يرسم للكنيسة صيغة رسمية Tome للنقط التى أثارت النزاع والجدل . وعلى الرغم من أنه نجح فى ذلك ، فان نجاحه كان جزئيا . فلما تقرر أخيرا عقد المجمع ، أرسل ثلاثة مندوبين : أسقفا، وقسيسا، وشماسا ، ليمثلوه فى هذا المجمع ، وليوقفوا اعضاء المجمع على رسالته .

انعقد المجمع فى أفيسوس فى أول أغسطس سنة ٤٤٩ ، وتولى ديوسقورس رئاسته . على أنه بلغ من اغفال سلطة بابا روما أنه لم تجر تلاوة رسالته إلى المجمع، وجرى الحصول قسرا على توقيعات أكثر من ١١٥ أسقفا . وتقرر عزل كل من فلافيان بطريرك القسطنطينية الذى أدان أوتيخا ، ويوزيبيوس الذى وجه إليه الاتهام . أما أوتيخا ذاته فتقرر إعادته إلى منصبه ، واعتباره مصيبا فى رأيه، ومن كان من الأساقفة صديقا لنسطوريوس أو عدوا للكنيسة الاسكندرية ، تقرر إدانته وعزله من منصبه بناء على ما نسب اليه من أقوال صدرت عنه جهرا أو سرا ، أو لما أرتكبه من ذنوب خلقية . ومن بين الذين تعرضوا للادانه تيودوريت صديق نسطوريوس . ولم يلبث فلافيان أن قضى نحبه ، وأضحت كنيسة بيت المقدس بطريركية مستقلة بذاتها . وتولى بطريركية القسطنطينية اناتوليوس Anatolius الذى رشحه ديوسقووس لهذا المنصب . أما ممثلوالبابا فاكتفوا بالاحتجاج على ما حدث . وما أطلقه ليو على هذا المجمع من اسم مجمع اللصوص (وهو اسم ظل عالقا به طوال التاريخ) لم يتجاوز فيه الحقيقة ، غيرأن مساعيه لتعديل قرارات مجمع افيسوس لم تصادف نجاحا . ولم يتغير الموقف

إلا عقب وفاة الإمبراطور تيودوسيوس نصير ديوسقوروس وقراراته ؛ وذلك في يولية سنة ٤٥٠ ، إذ تولى عرش الإمبراطورية مارقيان ، زوج بولكيريا . والمعروف أنها كانت تكره نسطوريوس ، غير أنها لم تكن من جهة أخرى ، تعطف على الحزب الآخر المتطرف ، ولما اشتهرت به من الاهتمام بالأمور الدينية ، ابدت استعدادا كبيرا لكى تغتنم الفرصة السانحة لاعادة السلطة والوحدة إلى الكنيسة .

مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١

أضحى للاسكندرية ، بعد مجمع افيسوس سنة ٤٤٩ ، من المكانة ما يجعلها تضارع روما ، بعد أن نجح ديوسقوروس في تنصب مرشحه بطريركا بالقسطنطينية ، فصار بذلك يسيطر بموافقه الإمبراطور على الكنيسه الشرقيه .

على أن ما أصابه ديوسقوروس من توفيق بالغ ، أدى آخر الأمر إلى زواله إذ اجتمع سويا حلفاء الاسكندريه السابقون لمناوءتها ؛ لما أحسوا به من علو شأن كنيستها . إذ فزعت روما من مطامعه بعد أن كانت تؤيده لما تكنه من الكراهيه والحقد للقسطنطينيه . وأدرك البابا ليو الكبير أن الخطر إنما أصبح بمصر . أما الإمبراطور مارقيان والإمبراطورة بولكيريا فكانا ينشدان السلام والوحدة ، والتحرر من تدخل بطريرك الاسكندريه ، غير أنهما لم يكونا يرغبان في التخلص من استبداد الاسكندريه ، لكى يخضعا لسلطان روما .

وتقرر عقد المجمع في خلقيدونيه في اكتوبر سنه ٤٥١ ، نظرا لقربها من القسطنطينيه ، وبذلك يستطيع أن يشرف على المجمع لجنه من وزراء الإمبراطور وبعض أعضاء السناتو البارزين ، كما أن في وسع الإمبراطور والإمبراطورة أن يشهداه وأن يلاحظا ما يجرى فيه من أعمال .

http://www.al-maktabeh.com

وأدركت الاسكندرية خطر هذا المجمع، ومن الدليل على ذلك ما قاله اصدقاء ديوسقوروس حينما جاءه خطاب الإمبراطور يدعوه فيه لحضور المجمع « يا رجل الله (البطريرك) ، ان الموت ليكمن فى هذه الرسالة» . وشهد هذا المجمع بعض الأساقفة الذين تقرر عزلهم فى مجمع افسوس ، مثل تيودوريت ، ومندوبو البابا ليو ، الذين حرصوا على أن يفرضوا ما وضعه ليو من حل للمشكلة . أما ديوسقوروس، فانه جاء فى جماعة قليلة من الأساقفة الذين صحبوه فى افيسوس ، ولقى التأييد أيضا من الأساقفة الذين لم يخضعوا لسلطان روما ، ومن عدد كبير من الرهبان السوريين والمصريين . وتولى رياسة المجمع مندوبون من قبل الإمبراطور .

وتقرر تخصيص الجلستين الأولى والثالثة لموضوع ديوسقوروس وجعل الجلستين الرابعة والخامسة لموضوع « العقيدة » بينما تحددت الجلسات الأخرى للنظر فى سائر الأمور الشخصية ، والتى تقل أهمية عن الأمور السابقة . فتقرر إنكار قرار مجمع أفيسوس المعروف بمجمع اللصوص ، وتقرر أيضا قبول رسالة البابا ليو المعروفة باسم Tome واعتبارها صحيحة ومتفقة مع العقيدة السليمة (الأرثوذكسية)، وما انطوت عليه هذه الرسالة من أفكار أساسية ، انما تضمنت تعريفاً للعقيدة يقضى بوجود المسيح « فى طبيعتين ، دون اندماج ، أو تغيير، أو انقسام ، أو انفصال .»(١٠) أما ديوسقوروس بطريرك الاسكندرية . فقد جرت محاكمته وتقرر عزله ، لا لإلحاده وهرطقته ، بل لأن سلوكه مخالف للقوانين الكنسية ؛ اذ جرى اتهامه بسوء السلوك الشخصى ، وانه اغتصب من أقارب سلفه وأصدقائه أملاكا أضافها إلى أملاك الكنيسة، وأعلن أحد الذين اتهموه بأن ديوسقوروس انما كان يتصرف على أنه الوالى الحقيقى للاسكندرية . على أن بطريرك الاسكندرية تقبل قرار العزل فى كبرياء ؛ اذ رفض ما عرضه عليه مارقيان من أمر البقاء

(*10) "in two natures, without confusion, without change, without division, without separation".

فى منصبه بشرط أن يستجيب ويخضع له ، وذلك لأنه لم يقبل الخضوع للبابا أو الإمبراطور ، وحينما غادر المجمع أعلن « لقد تحطمت ، فتحطمت معى عقيدة آبائنا ». وتقرر نفيه إلى جانجرا Gangra فى بافلاجونيا بآسيا الصغرى ، حيث ظل بها إلى أن مات سنة ٤٥٤ .

أما الصيغة الجديدة المتعلقة بالعقيدة ، والتى وافق عليها المجمع ، فإنها نصت على ما يأتى : « أننا نعلم جميعاً تعليما واحداً ، تابعين الآباء القديسين ، ونعترف بابن واحد ، هو نفسه ربنا يسوع المسيح ، وهو نفسه كامل بحسب الناسوت ، إله حقيقى وإنسان حقيقى ، وهو نفسه من نفس واحدة ، وجد مساوٍ للآب فى جوهر اللاهوت ، وهو نفسه مساوٍ لنا فى جوهر الناسوت ، مماثل لنا فى كل شىء ، ماعدا الخطيئة ، مولود من الأب قبل الدهور بحسب اللاهوت . وهو نفسه فى آخر الأيام مولود من مريم العذراء والدة الإله بحسب الناسوت ، لأجلنا ولأجل خلاصنا . ومعروف هو نفسه مسيحاً وابنا وربا ووحيداً ، واحداً بطبيعتين بلا اختلاط ، ولا تغيير ، ولا انقسام ولا انفصال ، من غير أن ينفى فرق الطبائع بسبب الاتحاد ، بل أن خاصة كل واحدة من الطبيعتين ما زالت محفوظة ، تؤلفان كلتاهما شخصاً واحداً ، وأقنوما واحداً ، لا مقسوما ، ولا مجزءا إلى شخصين ، بل هو ابن ، ووحيد واحد ، وهو نفسه الله ، الكلمة ، الرب ، يسوع المسيح ، كما تنبأ عنه الأنبياء منذ البدء ، وكما علمنا الرب يسوع المسيح نفسه ، وكما سلمنا دستور الآباء »[(11)*] .

وما أقره مجمع خلقيدونيه من عقائد ، ليست إلا توكيداً لما أصدرته المجامع

(*11) The Council described Jesus Christ as complete in his humanity as well as in his divinity ; one and the same Christ in two natures, without confusion or change, division or separation, each nature concurring into one person and one hypostasis (individual).

المسكونية السابقة من قرارات تتعلق بالعقيدة ، فأضحت قرارات مجمع خلقيدونية المتعلقة بالعقيدة ، أساس التعاليم الدينية عند الكنيسة الأرثوذكسية .

وكان لقرارات مجمع خلقيدونية أهمية سياسية كبيرة فى التاريخ البيزنطى ، فما أقدمت عليه الحكومة البيزنطية صراحة من مقاومة أنصار مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزتيين) فى القرن الخامس ، أدى إلى أن ينفصل عنها الأقاليم الشرقية ، مثل الشام ومصر ، حيث ساد المذهب المونوفيزتى . إذ أن المونوفيزتيين ظلوا متمسكين بعقيدتهم الدينية ، برغم ما أصدره مجمع سنة ٤٥١ من قرارات بإبطالها ، ولم يقبلوا ما جرى من المحاولات للتوفيق بين مذهبهم المونوفيزتى و بين المذهب الخلقدونى . فأبطلت كنيسة الاسكندرية استخدام اللغة اليونانية فى طقوسها الدينية ، وأحلت مكانها اللغة المصرية (القبطية) ، وقامت الاضطرابات الدينية فى بيت المقدس ، والاسكندرية وأنطاكية ، عندما حاول الإمبراطور فرض قرارات مجمع خلقيدونية وتنفيذها بالقوة ، واتخذت هذه الاضطرابات طابع الثورات القومية العنيفة ، ولم تقمعها السلطات الحربية إلا بعد إراقة الدماء . على أن قمع هذه الثورات لم يؤد إلى تسوية المشاكل الجوهرية القائمة ؛ فإن هذه المنازعات الدينية الحادة ، أدت إلى ظهور الاختلافات العنصرية لا سيما فى مصر والشام . ذلك أن المصريين والسوريين أخذوا ينزعون إلى الانفصال عن الدولة البيزنطية ، فى أثناء هذه الاضطرابات الدينية ، وزاد من حدة هذه النزعة طبيعة تكوين السكان فى هذه الجهات ، وكل هذا خلق من الأحوال والظروف ما يسر فيما بعد انتقال هذه الأقاليم الخصيبة الغنية إلى يد الفرس ثم العرب .

ومن قرارات مجمع خلقيدونيه أيضاً أن لكنيسة القسطنطينية من الامتيازات والحقوق ما لكنيسة روما ، فصار لبطريرك القسطنطينية أن يرسم الأساقفة لأقاليم

بونطوس ، وآسيا، وتراقيا ،فازداد بذلك نفوذ كنيسة القسطنطينية . أما البابا ليو (روما) فقد أقر بسلامة ما صدر فى خلقدونيه من قرارات بشأن العقيدة ، غير أنه لم يقر ما صار لكنيسة بيزنطة من حقوق ، وعلى الرغم من أن البابوية حققت بعض أغراضها ، فالواضح أن الشرق ،خرج من دائرة نفوذها . كما على الرغم من أن الإمبراطور هو الذى انتصر ، إلا أن هذا الانتصار أضعف سلطانه فى الجهات الشرقية ، ومن الدليل على ذلك ما قام من الثورات ، فى فلسطين ومصر والأقاليم الشرقية .

ففى الاسكندرية اشتدت المقاومة وطال أمدها ، فمهما يكن لديوسقوروس من أخطاء ، فلا زال له أنصار بين الرهبان والعامة . على أن بروتيريوس Proterius البطريرك الذى خلف ديوسقوروس على بطريركية الاسكندرية تهيأت له خير فرصة لجعل الكنيسة المصرية تتلاءم مع الوضع الجديد ، فعلى الرغم من أنه كان وثيق الصلة بديوسقوروس (حتى إنه تولى أمر الكنيسة أثناء غيابه فى مجمع خلقيدونيه) ، فإن ما حدث من اشتراك الطبقة الارستقراطية بالاسكندرية فى اختياره ، ومن تأييد الحاكم البيزنطى له ، جعله يعتبر ممثلا للنفوذ الأجنبى بمصر. وظهر فى الاسكندرية شعور عدائى موجه ضد الحكومة البيزنطية بالاسكندرية وضد البطريرك الجديد ؛ فتحرك الناس لمهاجمة الموظفين ،واضطر الجند أن يعتصموا بالسرابيوم خوفاً من العامة فأشعل العامة به الحريق، وأرسلت القسطنطينية مدداً من الجند غير أنه لم يجد نفعاً مع أهل الاسكندرية ، إلا ما حدث من منحهم امتيازات سياسية ، ومع ذلك لم يكن البطريرك الجديد محبوباً من أهل الاسكندرية ، ولم يكن يتحرك إلا فى ظل الحراس .

وما تلى ذلك من الأحداث يكشف عن الجانب السياسى لميول العناصر القوية فى مصر إذ حرص الاسكندرانيون على التمسك بحقهم ، وقد درجوا على

http://www.al-maktabeh.com

أن يكونوا فى جانب البطريرك ، غير أن ما حدث من الانقسامات ، أساء إلى سمعة المسألة القومية ، فطالما أظهر أساقفة الاسكندرية الصلابة والثبات ، لقوا تأييداً كبيراً من سكان البلاد ، أما إذا تخلوا عن موقفهم ، انصرف الناس عن تأييدهم ، ومن العوامل التى لها وزن فيما جرى من الحوادث ظهور طبقة أرستقراطية مصرية ، انحاز إليها تجار الاسكندرية . ونظرا لما لهذه الطبقة من الصلات بمصر والاسكندرية والقسطنطينية ، فقد حرصت على أن تؤيد كل سياسة تساندها الحكومة البيزنطية ، وأضحى من العسير على الإمبراطور ، منذ مجمع خلقيدونية ، أن يختار بطريركا للاسكندرية ، فكان لزاماً عليه إما أن يعين بطريركا على المذهب الخلقدونى ، و بذلك يتعرض لمقاومة المصريين ، و إما أن يرشح لكنيسة الاسكندرية أحد الزعماء المحليين ، و بذلك يضعف سلطانه وسيطرته فى البلاد . والمعروف أن مصر امتازت بطابعها القومى الذى يتمثل فى لغتها ، ونظمها ، وفى الرهبنة . وما حدث من انفصال الكنيسة المصرية عن الكنيسة اليونانية أدى إلى زوال النفوذ البيزنطى فى أهم مراكز الحضارة اليونانية فى الشرق .

فعلى الرغم من الهزيمة التى حاقت بديوسقوروس فى مجمع خلقيدونية ، ظل المصريون يتخذون من معارضتهم لمجمع خلقيدونية ، ومن تمسكهم بعقيدة كيرلس وديوسقوروس ، رمزا للمقاومة الوطنية ، نحو قرنين من الزمان . فلم تكن المونوفيزتية عندهم إلا رمزاً لهذه المقاومة ، وهذا هو السر فى حدة النزاع الدينى منذ منتصف القرن الخامس (مجمع خلقيدونية) حتى الفتح العربى لمصر ، فلم يكن هذا النزاع إلا مظهراً لما يكنه المصريون من الحقد للسيادة اليونانية والروح اليونانية (البيزنطية) . ولم تدخر الحكومة الإمبراطورية أية وسيلة لاسترضاء المخالفين ، إلا أن محاولتها باءت بالفشل . أما الأساقفة المونوفيزتيون بالاسكندرية فقد عملوا على قبول الائتلاف مع الخلقدونيين ، غير أن ذلك لم يؤد إلا إلى ازدياد المقاومة الشعبية ؛ فالقوة الكامنة عند الشعب ، التى اكتشفها بعض علماء

الدين ، لم تلبث أن أصبحت أقوى من الأساقفة ، إذ لم يكن رجال الدين وحدهم هم أنصار ديوسقوروس وأخلافه ، بل كان المصريون لهم نصيراً ومؤيداً .

وعلى الرغم من أن الحكومة البيزنطية اختارت للاسكندرية بطاركة يميلون إلى السلم والسكينة ، ويستجيبون لها ، فإن الهدوء لم يسد ، حتى صار المونوفيزتيون يقولون للبطريرك الجديد « أننا نحبك ، غير أننا لا نريدك أسقفاً علينا » .

على أن ما حدث من سقوط إيطاليا في يد المتبربرين سنة ٤٧٦م ، وخضوعها لأدواكر ، ثم ثيودوريك من بعده ، جعل روما خارجة عن دائرة سياسة القسطنطينية ؛ فحاول الإمبراطور زينون ، ومستشاروه من رجال الكنيسة ، أن يتخذ سياسة الوفاق في الشرق ، فصدر في سنة ٤٨٢ ما يعرف بمشروع الاتحاد « Henotikon » الذى ظل المذهب الرسمى فى عصر الإمبراطورين اللذين خلفاه فى الحكم . وجاء فى هذه الوثيقة ، أن سعادة الإمبراطورية إنما تتوقف على توحيد الصلوات والطقوس عند رجال الدين والعلمانيين والرهبان ، ولضمان الحصول على الوحدة المطلوبة فى الكنيسة والحكومة (الدولة) ، أيدت هذه الوثيقة مذهب نيقية ، كما أقره مجمعا سنة ٣٨١—٤٣١ ، بأن اعتبر المسيح إلهاً وإنساناً فى شخص واحد(١٢)* ، ولم تشر الوثيقة إلى طبيعتى المسيح ، وأنكرت كل ما يقول بغير ذلك فى مجمع خلقيدونية أو غيره من المجامع ، وأدانت أيضاً نسطوريوس وأوتيخا ، وهذه الوثيقة يصح أن يقرها المعتدلون من المونوفيزتيين والخلقدونيين .

(*21) It declares that Christ is "consubstantial" with the Father in réspect of the Godhead and consubstantial with onrselves as respects the manhood; thât He, having descended and become in carnate of the Holy Spirit and Mary the Virgin and mother of God, is one and not two ... for we do in no degrre admit those who make either a division or a confusion or introduce a phantom. (Camp. Med. Hist. I. p. 517)

والمعروف أن الغرض من صيغة الاتحاد ، هو إعادة السلام والوحدة إلى الكنيسة . على أن الوسيلة التى جرى اتخاذها لتحقيق هذه الوحدة لم تكن لترضى إلا حزبا واحدا ؛ إذ أن روما اعتبرت هذه الصيغة هجوما على مذهب خلقيدونية والباباليو ، وترتب على ذلك انشقاق دينى بين روما والقسطنطينية ، استمر نحوه ٣٥ سنة .

على أن الاسكندرانيين والمصريين كانوا مستعدين لأن يقبلوا هذه الصيغة ، على الرغم من الحزب المتطرف (المعروف بانه ليس لهم رئيس acephali)(١٣*) المناهض للمذهب الخلقدونى ، ويرجع عدم رضاهم إلى أن هـذه الصيغة لم تشر صراحة إلى إنكار الصيغة التى وضعها الباباليو والمعروفة باسم Tome ، غـير أن هؤلاء الناس تغالوا وأسرفوا فى معارضتهم ، والواقع أن كنيسه الاسكندريه انقسمت إلى ما لا يقل عن أربعه أو خمسه أحزاب . على أن صيغه الاتحاد (الوحـدة) كانت نصرا للقسطنطينيه ، إذ أن بطريرك القسطنطينيه اكاسيوس Acacius (الذى يعتبر الموجه الروحى للسياسة البيزنطيه) هو الذى فرض إرادته على « بطرس » خليفه البطاركة تيوفيل وكيرلس وديوسقوروس .

ومهما يـكن من شيء ، فان مصر قبلت صيغه الوحدة ، غير أنها فسرتها على أساس منوفيزتى ، فأعادت بذلك إلى البلاد شيئا من الهدوء الدينى وعلى الرغم من أن كنيسة الاسكندرية لم تكن على وفاق مع كنيسة القسطنطينية ، فإن المونوفيزتيه هى التى أحرزت النصر ، وصار لمصر أن تحتج على البابا ليو وعلى المجمع البغيض (خلقيدونيه) . واستقر هـــذا الوضع زمن الإمبراطور أنستاسيوس (٤٩١ – ٥١٨) ، الذى كان يعطف على المنوفيزتيين . وكان انستاسيوس كما

(١٣*) جرى تسميتهم بهذا الاسم لأنهم لم يبلغوا فى نضالهم ما يؤدى إلى تعيين بطريرك من بينهم (انظر Hardy : Christian Egypt, p. 119

زاد النزاع بينه وبين روما ، ازداد جنوحا وميلا نحو المنوفيزتيين ، حتى بلغ الأثر المنوفيزتى أقصاه فى السنوات الأخيرة من عهده حين نصب سفيروس المنوفيزتى بطريركا على انطاكيه (سنه ٥١٢). و بذلك استقرت المنوفيزتيه فى الاسكندريه وانطاكية ، برغم معارضة القسطنطينية وبيت المقدس ، وأضحت مصرفى زمن البطاركة الذين خلفوا بطرس مونجوس، قلعة المونوفيزتية المنيعة .

الفصل الثالث

التنظيم الادارى بمصر حتى قبيل

زمن جستنيان

المعروف أن الأمبراطورية الرومانية خضعت من حيث الشكل بمقتضى التسوية التى تمت سنة ٢٧ ق . م لحكومة ثنائية . فلم يكن أغسطس أمبراطورا مطلق السلطة ، وإنما كان بمثابة المواطن الأول فى جمهورية حرة princeps) civitatis) واقتسم السلطة معه مجلس الشيوخ أو السناتو . وانقسمت أقاليم الأمبراطورية ، طبقا لذلك ، إلى أقاليم خاضعة للسناتو ، وإلى أقاليم تابعة للأمبراطور . وامتازت الولايات الخاضعة للامبراطور بأنها كانت ولايات ترابط بها حاميات عسكرية .

وكان لزاما على أغسطس ، فى سبيل المحافظة على رضاء الجماهير ، أن يحقق شرطين وهما : صيانة الأمن الداخلى ، وضمان وصول المؤونة بانتظام إلى إيطاليا وروما . وكان أهم مستودعين للغلال فى الأمبراطورية هما إفريقية ومصر . وكانت إفريقية ولاية سناتورية ، ولم يكن بها حامية عسكرية . أما مصر ، فرابطت بها حامية عسكرية ، اشتملت فى زمن أغسطس على ثلاث فرق عسكرية ، فضلا عن القوات الإضافية المساعدة ، للمحافظة على الأمن فى داخل البلاد ، وضمان إرسال الغلال إلى إيطاليا ، والمحافظة على سلامة الطرق التجارية التى تربط الأمبراطورية الرومانية بالشرق ؛ ولذا عين أغسطس حاكما على هذه الولاية من طبقة الفرسان ، بل إنه وضع قاعدة ، تقضى بأنه لايجوز لعضو من طبقة السناتو أو رجل مشهور

قوى النفوذ من طبقة الفرسان ، أن يدخل مصر ، دون الحصول على إذن صريح من الإمبراطور .

واحتفظ الرومان، بما كان جاريا زمن البطالمة من تقسيم البلاد الى أقاليم ، يحكم كل منها مدير أما السلطة العليا فتتركز فى يد الحاكم الذى كان فى نفس الوقت ، القائد الأعلى للجيش ، ورئيسا للادارة المدنية ، ومديرا للشئون المالية ، والمسئول عن سيادة العدالة ، ويساعده فئة من كبار الموظفين يعهد إليهم بالنظر فى سائر هذه الشئون . فقسم أغسطس ، مصر إلى ثلاث مناطق كبرى ، جعل على كل منها حاكما ، وتشمل هذه المناطق طيبة ، ومصر الوسطى (التى سميت رسميا الأقاليم السبعة ، هيبتا نومياو إقليم ارسينويتيس) ، والدلتا . ولم يكن لحكام هذه المناطق سلطة عسكرية ، ولا كانوا يتدخلون إلا نادرا فى الشئون المالية ، وإنما اقتصرت أعمالهم على الشئون الادارية البحتة ، ومنها تعيين الموظفين المحليين . وانقسمت البلاد إلى أقاليم على رأس كل منها « مدير »[(١)*] ، يعاونه كاتب ملكى ، على أن هذا المدير قد تجرد من السلطة العسكرية .

والراجح أن الإسكندرية فقدت عند الفتح الرومانى ، ما اشتهرت به منذ تأسيسها من مجلس شورى (boulé) . إذ أن أغسطس رفض ماتقدم به مواطنو الإسكندرية من طلب بإنشاء مجلس للشورى ، أو إعادته للمدينة . كما أنه لم يسمح

(١*) انقسمت مصر منذ أقدم الأزمنة إلى أقاليم أو مديريات nomoi يحكم كل منها نومارك nomarchês وأخذت اختصاصات النومارك تتضاءل ، حتى صار آخر الأمر مجرد موظف مالى صغير ، بينما أصبح الاستراتيجوس Stratêgos الذى كان أول الأمر قائداً للقوات العسكرية فى الإقليم ، ينظر فى الشئون المالية والإدارية ، ثم لم يلبث أن صار المدير الفعلى للاقليم .

(انظر بل : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ص ٨٥) .

http://www.al-maktabeh.com

بقيام مجالس للشورى أو ما يشبهها فى عواصم الأقاليم (metropolels) ، التى لم تكن إلا قرى ضخمة komai . ومع ذلك فقد اتخذ أغسطس سياسة ترمى إلى رفع مكانة هذه العواصم ، وتقوم هذه السياسة على أساس تقسيم المجتمع إلى طبقات محددة ، فجرى التمييز بين سكان عواصم الأقاليم ، من اليونانيين ، ومن اليونانيين الذين امتزجوا بعناصر أخرى ، و بين المصريين . ومن مظاهر التمييز أن سكان عواصم الأقاليم إنما دفعوا نصف ما هو مقرر من ضريبة الرأس ، على حين أن سكان الريف دفعوها كاملة . ثم صار يوجد بكل عاصمة من عواصم الأقاليم ما يشبه الجمعية العمومية للمواطنين ، فاكتسبت بذلك نظاما شبيها بنظام البلديات .

وطرأ على وضع عواصم الأقاليم تغيير هام فى سنة ٢٠٢ ، عندما أنشأ فيها سبتيموس سفيروس ، مجالس للشورى أو مجالس بلدية ، و بذلك تحققت أمنية بالاسكندرية ، على الرغم من أن عواصم الأقاليم تشاركها فيها . ولم تظفر العواصم بمقتضى النظام الجديد ، بالحكم الذاتى الكامل ، إذ كان حاكم الاقليم (ستراتيجوس) لا يزال صاحب السلطه العليا فى الإقليم ، وله السيطرة على مجلس الشورى بعاصمة الإقليم ، التى اتخذها مقرا رسميا له . وعلى الرغم من أن مجلس الشورى يعتبر ، فيما يبدو ، امتيازا لعواصم الأقاليم ، فالواقع أنه كان عبئا على الطبقة الموسرة ، التى جرى اختيار أعضاء مجلس الشورى من بينها . ومن واجباته أن يعين موظفى العاصمة ، وعددا كبيرا من موظفى الدولة ، ومنهم الموظفون المعروفون باسم dekaprôtoi الذين يشرفون على تحصيل ضريبة القمح وتخزينها ، وأن يراقب أيضا الشئون الماليه المتعلقة بالمعابد ، وكل عضو بمجلس الشورى كان مسئولا ، لا عن تقصيره الشخصى فحسب ، بل عن تقصير زملائه فى اللجنة التى ينتمى إليها ، وازدادت الأعباء المالية .

سبق أن أشرنا إلى النظام الذى وضعه دقلديانوس لإدارة الأمبراطورية الرومانية ، وأعاد به تنظيم إدارة الولايات ، وقد ألغى هذا النظام التفرقة بين

الولايات السناتورية والولايات الامبراطورية، وجعل الولايات صغيرة المساحة، وفصل السلطة العسكرية عن السلطة المدنية ، ثم أدمج الولايات فى وحدات إدارية كبيرة تعرف كل منها باسم دوقية (dioecêsis).

والمعروف أن مصر كانت تنتمى إلى دوقية الشرق التى يتولى حكمها كونت الشرق ، وظلت كما كانت جزءاً تابعاً لدوقية الشرق حتى حوالى سنة ٣٨٢ ، حين انفصلت وأصبحت دوقية مستقلة Aegyptiaca dioecosis يحكمها الوالى الأوجستالى praefectus Augustalis .

وجرى تقسيم زمن دقلديانوس إلى ثلاثة أقسام وهى :

Aegyptus Herculia (شرق الدلتا)، وطيبة، و Aegyptus Jovia (غرب الدلتا) . وخضع كل من القسمين الأول والثانى لإمرة حاكم اتخذ لقب praeses ، أما القسم الثالث ، وهو يشمل الاسكندرية ، فخضع لإمرة حاكم احتفظ باللقب القديم praefectus Aegyp ti أى حاكم مصر ، ويزيد فى السلطة على زميليه ، غير أنهم جميعا يخضعون لسلطة كونت الشرق (comes orientis) ، وكان هؤلاء الحكام موظفين مدنيين ، وتولى أمر السلطة العسكرية قائد يلقب بدوق مصر dux Aegypti .

ظلت البلاد مقسمة إلى أقاليم ، غير أن عواصم الأقاليم لم تحظ بالاستقلال الذاتى إلا بين سنتى ٣٠٧ ، ٣١٠ ، بعد تنازل دقلديانوس عن العرش (سنة ٣٠٥)؛ فلم يعد الاقليم وحدة التقسيم الإدارى ، وتقرر إلغاء منصب الاستراتيجوس ، ومنصب الكاتب ، وصار مجلس الشورى مسئولا عن الإدارة المدنية والمالية ، فكأن الأقاليم تحولت إلى بلديات civitates تتمتع بالحكم الذاتى ، يخضع لها ما يحيط بها من الأراضى .

وتعتبر القرية فى مصر البيزنطية ، أهم وحدة إدارية ، إذ كانت مسئولة عن زراعة ما يتبعها من الأراضى territorium ، وعن الضرائب والالتزامات المقررة عليها . فالقرية تعتبر مالكة للأرض ، وللقروى أيضا هذا الحق ، فلم يعمل فحسب على الاحتفاظ بهذه الملكية ، بل إنه حاز قدرا من الحماية بمقتضى القانون الذى يحرم على الأجانب حيازة أراضى، تقع فى نطاق زمام القرية .

وللقرية حكومتها التى تسير أمورها الداخلية ، فكان يرأسها موظف معروف بلقب كومارك comarch ، و يساعده الكاتب ، ومجلس مؤلف من شيوخ القرية ، يتولى النظر فى الأمور المحلية ، دون أن يكون للسلطات العليا أثر كبير فى عمله . وفى القرن السادس صار العمدة meizon (meizoteros) أكبر موظف فى القرية ، وحل مكان مجلس شيوخ القرية ، ملاكها وأرباب الاقطاعات بها .

ومن الأمور التى استحدثها البيزنطيون فى الإدارة ، اتخاذ ما كان معروفا فى الغرب من وحدة إدارية ، وهى المعروفة بالباجوس pagus إذ كان كل إقليم من الأقاليم (النومات) مقسما إلى أقسام pagi[٢] ، يتولى إدارة كل منها أحد أعضاء مجلس الشورى الاقليمى (السناتو) ، اتخذ لقب praepositus واشتمل الباجوس على عدد من القرى ، ولحاكم الباجوس سلطة كبيرة فى إدارتها ، فهو المسئول عن زراعة الأرض المهملة ، وتقدير الضرائب وجبايتها ، و يمارس أحيانا القضاء . على أن هذا النظام لم نعد نسمع عنه بعد القرن الرابع الميلادى .

ثم تحول الاقليم إلى باجركية ، جرى اختيار رئيسها من بين الأغنياء ، مثل ابيون فى أهناسية ، والراجح أن الباجرك تولى منصبه على أنه تكليف لا يتقاضى عنه راتبا[٣]* .

(*٣) من المقطوع به أن هذا التغيير حدث فى القرن الخامس الميلادى ، والراجح أنه تم زمن الإمبراطور ليو الأول (٤٥٧ — ٤٧٤ م) ولم يكن إشراف الباجرك يشمل فى الأحوال العادية كافة أنحاء الأقليم .

(انظر : بل: مصر من عهد الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ص ٢٣٧) .

ومنذ أن نظم دقلديانوس الإدارة المصرية سنة ٢٩٧ ، لم يتوقف الأباطرة فى القرنين الرابع والخامس عن الاهتمام بوادى النيل . غير أن عدد الأقسام الإدارية ازداد بما استجد من إقليم أوجستامنيكا (فى شرق الدلتا) ، فى سنة ٣٤١ م ، و إقليم اركاديا سنة ٣٨٦ (٤*) ، و بانقسام إقليم طيبة إلى قسمين مستقلين . وما حدث سنة ٣٨٢ من ارتقاء مصر إلى دوقية ، أدى إلى أن تستعيد وحدتها الإدارية ، فصارت تخضع بأسرها لسلطة الوالى الأوجستالى ، الذى يقيم بالاسكندرية على أنه نائب للامبراطور . ولم تلبث اوجستامنيكا أن انقسمت إلى شطرين كما أن الدلتا انقسمت شطرين : مصر الأولى ومصر الثانية .

وما حدث من انقسام مصر إلى أقسام بالغة الصغر ، أضعف المبدأ الذى كان دقلديانوس يدين به ، وهو مبدأ فصل السلطات ؛ إذ صار الموظف يجمع فى يده اختصاصات عديدة .

وعلى الرغم من المبدأ الذى قرره دقلديانوس ، ويقضى بالفصل بين السلطتين المدنيـة والعسكرية ، فقد حدث خـلال القرن الخامس أن اشتدت الحاجة إلى حـكومة قوية و إلى زيادة الحرص على الدفاع عن البلاد فأدى إلى أن تجتمع السلطتان المدنية والعسكرية فى يد الوالى الاوجستالى (الاسكندرية) ، الذى يعتبر أيضا قائد الجيش ، وهذا التغيير ، جرى أيضا فى طيبة العليا (الجنوبية) ، بسبب موقعها ، وتعرضها باستمرار لإغارات بدو الصحراء ، واتخذ واليها لقب الأوجستال (٥) . وصدر من القوانين المالية الجديدة ما أكمل النظم التى وضعها دقلديانوس أو عدل فيها .

وهذه التغييرات ، التى تثبت جهود السلطة المركزية لاقامة نظام صالح للادارة بمصر ، انما تدل على أن الحاجة لازالت ماسة إلى الاصلاح المالى والقضائى . والواقع أن ما ارتفع من الأقاليم فى أحوال كثيرة من الشكاوى ، وماتكرر صدوره

(٤*) أركاديا : هى الإقليم الذى كان معروفاً من قبل باسم هيبتانوميا (مصر الوسطى) (انظر : Ronillard, p. 4)

http://www.al-maktabeh.com

من الدساتير الإمبراطورية ، انما دلت على فساد الاصلاحات التى تمت قبيل عصر جستنيان[٦].

فعلى الرغم من التعديلات التى دخلت فى النظم القضائية فى القرن الرابع، لاسيما ما حدث من جعل السلطات القضائية فى أيدى موظفين اداريين ؛ فان العدالة لم تتحقق لسائر سكان القطر المصرى. وقد تضمنت المراسيم الادارية اشارات عديده لما تعرض له الشاكون من الاضطهاد والتعذيب والظلم ، إذا لم يكن لهم سند أو مدافع ينهض لمساعدتهم. يضاف إلى ذلك ما اشتهر به القضاة من الفساد والرشوة بحيث كان الأغنياء والأقوياء يستطيعون بفضل ثروتهم ونفوذهم أن يفلتوا من سلطة القضاء ، وبذلك صارت مصر فريسة لقضاء فاسد بغيض .[٧] وعجزت الحكومة من أن توفر لسكان البلاد من الأمن والعدالة والحماية ، ما يقابل ما فرضته عليهم من أعباء ثقيلة فزاد ذلك فى تذمر الناس وسخطهم .

أما النظام المالى ، لا سيما ما يتعلق منه بالضرائب ، فكان من المشاكل البالغة التعقيد فى إدارة مصر ، والتى انكشفت للاباطرة البيزنطيين فى القرنين الرابع والخامس . فالخزائن خاوية من المال ، واشتدت الحاجة إلى الحصول على المال وجرت الحكومة الإمبراطورية على اعتبار مصر إقليما كثير الخيرات ينبغى استغلاله إلى أقصى حد عن طريق إدارة استغلالية منظمة[٨]

والمعروف أن دافعى الضرائب من المصريين اجتمعوا فى طبقات اجتماعية مختلفة، فمنهم الملاك possessores، والفلاحون colons، والصناع (أرباب الحرف)، وكانوا جميعا يخضعون لضرائب مباشرة مختلفة (ضريبة الخراج ، ضريبة الرأس ، ثم ضريبة المهن)، ولم يكن فى وسعهم أن يفلتوا ، من الناحية النظرية ، من أيدى الخزانة ، مهما اتخذوا من الوسائل[٩]. ويعتبر نواب البلدية curiales مسئولين

عن تقدير الضرائب فى الجهات الخاضعة لسلطانهم ، ومن واجباتهم تحصيل هذه الضرائب .

على أن هذا النظام المالى لم ينجح فى أن يعالج ما أصاب الإمبراطورية من اقتصاد سيء . فعلى الرغم من شدة الموظفين وقسوتهم ، وصرامة القوانين ، لم تؤد الضرائب على الوجه المطلوب . وتحمل دافعو الضرائب ما يزيد على ما هو مقدر عليهم من الضرائب ، ولم يُجْد نفعا ما لجأ اليه الأباطرة السابقون على جستنيان ، من التهديد وفرض العقوبات ، ضد الموظفين الذين اشتهروا بعدم الاكتراث بمصالح الخزانة ، وانزال الظلم بالسكان ، وضد نواب البلدية الحريصين على أن يتخلوا عن القيام بجباية الضرائب . ومنذ القرن الرابع كان كثير منهم يهجرون المدن ، ويهربون إلى الصحراء ، فرارا من القيام بوظيفتهم ومن تأدية الواجبات الملقاة على عاتقهم . ولم ينجح الإمبراطور ڤالنس فى محاولته استخدام القوة لإعادتهم إلى مدنهم ، وفى زمن ليبانيوس Libanius (والى الاسكندرية) ، تضاءل عدد نواب بلدية الاسكندريه حتى بلغ الحد الأدنى .(١٠)

أما دافعو الضرائب فإنهم بذلوا قصارى جهدهم فى أن يتخلصوا من تأدية واجباتهم ، بما لجأوا اليه فى مقاومة عمال المالية من استخدام الخداع والتمويه ، أو الامتناع عن دفع الضرائب .(١١) فاذا كانوا من الملاك ، آثروا التخلى عن أراضيهم ، لعجزهم عن تأدية ما تقرر عليهم من ضرائب جائرة ، ولجأوا إلى الصحراء ، أو انخرطوا فى سلك الجيش ، أو انسحبوا إلى بعض الأديرة ، فتناقص عدد سكان القرى ، وتعرضت الأراضى الزراعية للإهمال(١٢) .

وما حدث من إدخال نظام السخره العقاريه epibole ، الذى يعتبر ملاك الأراضى مسئولين عن دفع ما هو مقرر على الأراضى التى هجروها ملاكها من الضرائب ، لم يؤد إلا إلى ازدياد الطغيان والظلم(١٣) .

ولما لم يستطع الإمبراطور (فالنتينيان الأول) أن يحمى السكان من استبداد الموظفين وظلمهم ، أنشأ فى سنة ٣٦٤ وظيفه حامى المدينه defensor civitatis ومن واجباته ، أن يقوم بحمايه دافعى الضرائب مما يتعرضون له من ظلم الموظفين ومندوبى الماليه ، وحماية أرباب الشكاوى والقضايا مما يتعرضون له من الأذى والاضطهاد فى المحاكم ، التى لجأوا إليها يلتمسون العدالة والانصاف . والخلاصه أن حامى المدينه إنما يقوم برعاية الضعفاء وحمايتهم ، مثلما يقوم الوالد بحمايه أبنائه ورعايتهم .(١٤)

وكان حامى المدينه يعتبر فى نظر الأباطرة ، العلاج الوحيد ، وقتذاك ، لما تعرضت له الادارة المدنية من أحوال بالغة السوء . وفى ذلك من الدلالة على أن هذا الإجراء لم يكن إلا مجرد وسيلة للإصلاح ، غير أن هذا النظام لم يحقق فى مصر النتائج المرجوة (١٥) ، على الرغم من التعديلات التى طرأت عليه : ففى سنة ٣٨٧ صدر قرار بتعديل وظيفة حامى المدينه ، بأن جعل للمدن ذاتها ، الحق فى أن تنتخب حاميها ؛ بعد أن كان والى الشرق هو الذى يتولى تعيينه . غير أن هذا الاجراء لم يؤد إلى نتيجة طيبة فى مصر : إذ أن الحماة بلغ من تجاوزهم حدود سلطتهم ، أن الحكومة البيزنطية لفتت نظرهم إلى أن يراعوا الأمانة فى تأدية واجباتهم(١٦) .

وفى سنة ٤٠٩ أدرك الأباطرة ، بعد أن اشتد قلقهم على ما أصاب ملاك الأراضى من الخراب ، أن الفقراء كانوا فى حاجة ماسة إلى حماية الحماة(١٧) . ولذا حدث تعديل فى اختصاصات هؤلاء الموظفين ، وجرى أيضاً تغيير طريقة اختيارهم . فلم يعد ينتخبهم سكان المدن ، بل صار انتخابهم واختيارهم موكولا فقط إلى الأساقفة ورجال الدين والأعيان ، وملاك الأراضى ، ونواب البلديات . على أن هذه التدابير لم تؤد إلى نتائج طيبة ، فإن ما تحمله حماة المدن من المسئوليات ،

بلغت من الضخامة والشـدة ، ما جعلهم لا يقلون عن نواب البلدية رغبة فى التخلص من الالتزامات المفروضة عليهم[١٨] .

وأورد الامبراطور انستاسيوس فى مرسوم سنة ٥٠٥ ، ما جاء فى مرسوم سنة ٤٠٩ ، وعلى الرغم من هذا الاجراء الجديد ، فإن وظيفة حامى المدينة اختفت قبل زمن جستنيان ، ومن الدليل على ذلك أنه أراد أن يعيدها من جديد[١٩] .

ولجأت الحـكومة إلى أن تتخذ من الوسائل الأخرى ما يكفل الحصول على الأموال ، وسبق الإشارة إلى انقسام النومات إلى أقسام pagi فى القرن الرابع ، وتولى إدارة هذه الأقسام موظفـون يخضعون لسلطة موظف معين من قبل الأمبراطور ، وهو المعروف exactor civitatis الذى يقيم فى عاصمـة الإقليم ، وينظر فى الشئون المالية . ثم تنازلت الحـكومة المركزية الامبراطورية عن حق اختيار هذا الموظف ، وعهدت إلى البلديات أن تتولى اختياره . ثم حدث أن استعاض الامبراطور انستاسيوس ، عن أعضاء البلديات ، بموظف معين من قبله وهو المعروف باسم vindex يتولى إدارة الشئون المالية[٢٠] .

على أن أمراً واحداً ، اهتمت به الحـكومة البيزنطية ، وشغل بالها وذلك أن مصر هى الإقليم الذى ينتج القمح اللازم لإطعام أهل القسطنطينية. ودرج سكان القسطنطينية ، كل سنة على أن ينتظروا ببالغ اللهفة وصول أسطول القمح القادم من الاسكندرية . كما أن الملاحين المـكلفين بنقل القمح ، كانوا يلجأون أحياناً إلى التهرب من أداء واجبهم ، ويضطر الامبراطور أحيانا للتدخل فى هذا الأمر[٢١] .

والخلاصة أن حالة مصر ، أوائل القرن السادس الميلادى ، كانت تنذر بالخطر ، فما حدث من فداحة الضرائب ، وما ترتب على ذلك من فقر البلاد ، إنما ولّد سخطا شديداً ، وتفاقم الوضع ؛ فاقترنت الأزمة الاقتصادية بأزمة اجتماعية .

وازدادت الأحوال سوءا بما اشتهرت به الإدارة من الفساد والمظالم . ولذا ورد فى مستهل المرسوم الذى أصدره جستنيان لاصلاح أمور مصر ، ما يشير فى عبارات قاسية ، إلى ما لجأ إليه عمال الخراج من الوسائل، وما اتخذوه من تدابير ، فصاروا لا يرسلون إلى القسطنطينية من الضرائب التى يجبونها إلا شطراً ضئيلا ، و يعملون على إثارة القلاقل والفتن فى البلاد ، كيما ينالوا من وراء ذلك ربحا وفيراً ، ويشير أيضاً إلى ما حاق بالبلاد من سوء النظام والفوضى ، التى بلغت من الشدة أنه لم يكن فى استطاعة الامبراطور ، بالقسطنطينية ، أن يتعرف على أحوال مصر[٢٢] .

وثمة أسباب أخرى أسهمت فى اضعاف سلطة الامبراطور فى مصر . فما حدث لطبقة أعضاء (نواب) البلدية ، الذين تتألف منهم فى المدينة الطبقة الارستقراطية ، من الفقر والانهيار ، وما ترتب على الأعباء المالية الشديدة من فقر الطبقة المتوسطة ، كل ذلك أضعف الطبقة التى تأثرت بالثقافة اليونانية ، والتى كانت الدعامة الأساسية للحضارة اليونانية ، والحكومة اليونانية (البيزنطية) فى مصر . وحل مكان هذه الطبقة ، عنصر وطنى يتمثل فى المسيحيين الذين اشتهروا ، برغم ضآلة حظهم من الثقافة ، بالحماس الوطنى ، وكراهيتهم الشديدة لكل ماهو يونانى ، وذلك بفضل ماوهبتهم المسيحية من أهمية وقوة[٢٣] .

وقد رأينا أن المنازعات الدينية أسهمت فى أزدياد حدة المقاومة ، حتى أضحت مصر كلها أو معظمها تكن للحكومة الامبراطورية بالقسطنطينية من العداء الشديد ما ينذر بالثورة ، وأصبح الامبراطور لا يعتمد فى توطيد سلطانه بمصر إلا على طبقة السناتوريين من اليونانيين بالإسكندرية ، وعلى موظفى الإدارة والجند[٢٤] .

وما حدث من تغيير فى نظام الملكية أثناء القرنين الرابع والخامس ، أدى إلى نتائج بالغة الأهمية . إذ أن أملاك الامبراطور الخاصة[٢٥] ظلت حتى القرن الرابع الميلادى ، قائمة إلى جانب الأملاك العامة ، والأملاك التى حازتها الكنيسة ،

والأملاك الخاصة . على أن أملاك الأمبراطور الخاصة أخذت تتضاءل نتيجة لما حدث من تطور فى نظام الملكية الخاصة .

ذلك أن الملكية الخاصة التى لم تكن معروفة فى مصر زمن البطالمة ، لم تلبث أن ظهرت فى العصر البيزنطى . وأخذت هذه الملكية الخاصة تزداد بالتدريج على حساب الأملاك الأمبراطوريه ، بسبب ما صادف الحكومة من عقبات أدت إلى عجزها عن زراعتها[٢٦] .

وأورد الأستاذ بل Bell تفسيرا مبتكراً لهذه الظاهرة ، إذ أن الأراضى الأمبراطورية كانت تلاصق الأراضى الخاصة ، ويلتزم ملاك الأراضى الخاصة بزراعة ما يجاورهم من الأراضى الامبراطوريه ، وهذا الإجراء هو المعروف باسم epibolé أما الإجراء الآخر وهو المعروف باسم epimêrismos ومعناه أن ترغم قرية من القرى على زراعة الأراضى غير المستأجرة فى قرية أخرى ، وتوزع مسئولية زراعتها بين أهالى تلك القرية ، وبمقتضى هذا الاجراء ، صارت القرية كلها مسئولة عن الزراعة ، وبذلك تعتبر أيضاً مسئولة عن دفع الضرائب المقررة ، وهذا هو الذى تهتم به الحكومة . أما فى حالة نظام epibolé كانت المسئولية فردية ، غير أنها لم تلبث أن أصبحت بمضى الزمن مسئولية جماعية ، فإذا فر المسئول عن دفع الضريبة ، التزم أهل القرية بسدادها عنه متضامنين[٢٧] . فأخذت الأراضى الامبراطورية بمضى الزمن ، بفضل هذه الوسيلة ، وبما حدث من استمرار انتقال الملكية ، تقع بين كتلة من الأراضى الخاصة ، فأسهمت هذه الظاهرة بذلك فى تكوين الملكيات الكبيرة ، التى أخذت تتزايد وتنمو فى القرنين الرابع والخامس[٢٨] .

على أن هذه الملكيات الكبيرة تكونت أيضاً على حساب الضياع الصغيرة ، التى أخذت تتضاءل كلما ازداد نمو الملكيات . وترتب على ذلك أن الطبقات المتوسطة المؤلفة من العنصر اليونانى المصرى،[٢٩] أخذت فى التداعى

http://www.al-maktabeh.com

والانهيار ، على حين أن طبقة أرستقراطية شبة اقطاعية أخذت فى الظهور ، وقد اشتهرت بالثروة والنفوذ والقدرة على مناهضة الموظفين، ومن الطبيعى أن يلجأ إلى هذه الطبقة كل من يشكو من عبء الضرائب، ومن هم فى حاجة إلى الحماية[٣٠]. وللتخلص من الأعباء الملقاة على عاتقه ، جعل الفلاح نفسه تحت حماية جاره القوى، وتنازل له عن الأراضى التى حازها باعتباره مالكا لها أو مستأجرا حراً لها . ثم أضحى بالتدريج قنا لذلك السيد ، الذى اختاره له مولى وحاميا ، ولم تستطع الحكومة الأمبراطورية أن تمنعه من ذلك[٣١] .

لم يلتمس حماية كبار الملاك الأفراد فحسب ، بل سعى إليها أيضاً قرى بأسرها . ولم يسع الحكومة المركزية ، إلا الاعتراف بالأمر الواقع . وما ورد فى القانون الذى يتعلق بمصر، والذى أصدره الامبراطور تيودوسيوس الثانى سنة ٤١٥، من تحريم الحماية مستقبلا ، إنما يدل على الاعتراف بالأمر الواقع . إذ جعل من صغار الملاك الأحرار ، الذين قبلوا حماية المالك الكبير، أقنانا واعترف للسيد بامتلاك ما حازه فعلا من الأراضى ، وعهد إليه بجباية ما هو مقرر من الضرائب على الفلاحين الأقنان ، الذين استقروا بضيعته ، واعتبره مسئولا عنهم[٣٢] وجعل للمالك الكبير الحق فى أن يخضع الفلاح إلى حالة رق الأرض colonus adscriptici[٣٣] . ومن الطبيعى أن نظام الحماية ازداد نموا ، برغم ما صدر سنة ٤١٥ من قرار بتحريمه . وما اتخذه الامبراطور ليو سنة ٤٦٨ من اجراء لمنع نظام الحماية ، لم يوقف انتشاره وامتداده . ومن ثم انتقل إلى حوزة المالك الكبير ، الأراضى التى كانت مرتبطة حتى ذلك الحين بوحدة المدينة الإدارية[٣٤] .

أما الجباية الذاتية Autopragia ، التى تعتبر أيضاً من نتائج نمو الملكيات الكبيرة ؛ والمقصود بها أن صار للمالك الكبير الحق فى تحصيل ما هو مقرر من الضرائب على أراضيه ، فإن الحكومة اعترفت بها فى السنوات التالية ، وترتب

على ذلك إضعاف السلطة المالية التى كانت بيد البلديات والموظفين الامبراطوريين[٣٥]. فلم يبق لهؤلاء الموظفين الامبراطوريين من سلطة ، سوى أن يجبوا الضرائب المقررة على الأراضى الزراعية المحيطة بالمدن ، باستثناء ما يتمتع منها بالجباية الذاتية[٣٦] .

وزاد أيضاً فى مكانة كبار الملاك ما كان لهم من ثروة ونفوذ ووظائف رسمية فى بعض الأحوال . إذ تولوا أحيانا الوظائف العامة ، فجرى انتخابهم فى المجالس البلدية ، وشغلوا أحيانا وظائف الباجركية (ولعل هذه الوظيفة نشأت بين سنتى ٤٦٠ ، ٤٧٠) . ويقوم الباجرك بتحصيل الضريبة من الفلاحين الأحرار المقيمين بالأراضى التى تحيط بالمدينة ، ومن ثم ترتب على قيام الملكيات الكبيرة أن ضعف شأن النظم البلدية والسلطة المركزية.[٣٧] وبفضل ما لهؤلاء الملاك الكبار من الثروة والنفوذ الذى يحميهم من امتداد سلطة القضاء إليهم ، عمدوا إلى تخفيف ما هو مقرر من الضرائب على أراضيهم ، بينما ازدادت هذه الأعباء على سائر دافعى الضرائب . وللتخلص من هذا الوضع السىء ، سعت بعض القرى ، إلى أن تطلب من الامبراطور أن يمنحها حق الجبايه الذاتية[٣٨] . ومن الدليل على ذلك ما حصلت عليه قرية افروديتو (كوم اشقاو الحالية) بطيبة ، من حق الجباية الذاتية زمن الامبراطور ليو ، إذ صار فى مقدورها أن تتولى تحصيل ما هو مقرر عليها من الضرائب.[٣٩] على أن أفروديتو لم تكن وحدها هى التى حصلت على حق الجباية الذاتيـــة ، إذ أن قرى أخرى استطاعت أن تحصل على هذا الحق[٤٠] .

والخلاصة أن القرى المتمتعة بحق الجباية الذاتية ، صار أمرها معروفا ومقررا فى الإدارة البيزنطية ، حتى أن تيودوسيوس الثانى ، حاول أن يبطلها بعد أن اعتبرها بدعة خطيرة[٤١] .

ومن هنا ، نتبين أن جانبا كبيرا من دافعى الضرائب المصريين ، سعوا منذ أوائل القرن السادس إلى التحرر من السلطان المباشر للإدارة المالية، فلحقت الخسارة بخزينة الدولة . ونتج عن هذا الوضع المالى السىء ، ما حدث من اختلال الأمن ، والاضطراب الشديد . وصحب هذا الخلل الاقتصادى أزمة نقدية عنيفة ، تعتبر دليلا على ما أصاب مصر من اقتصاد سىء ، و بذلك تعرضت خزانة الدولة للخراب ، نتيجة ازدياد نفوذ كبار الملاك ، وما حدث من تنازل فريق من الملاك عن حريتهم و الالتجاء إلى كبار الملاك ، وكلا الفريقين إنما أسهما فى خراب خزانة الدولة[٤٢] .

الفصل الرابع

التنظيمات الاقتصادية
حتى قبيل عصر جستنيان

ملكية الأراضى :

نما وترعرع فى سائر أجزاء البحر المتوسط فى العصر القديم ، أنماط مختلفة من حيازة الأرض . ففى الممالك القديمة بالشرق ، اختص بملكية الأراضى ، الملوك والكهنة بمصر وأعالى العراق (الجزيرة) ، أو إمارات المعابد التى استمرت زمناً طويلا بآسيا الصغرى .

ومن الواضح أن ما حدث من تطور نظام الإشراف على مياه النيل ، إنما يرجع إلى ما اشتهر به طبقة الكهنة من مهارة هندسية عالية ، ودراية علمية بالغة. وكلما أمعن الكهنة فى إصلاح الأراضى وزراعتها ، كلما نمت قوة المعابد وزادت ثروتها . وما حدث من تركيز السلطة فى يد فرعون ، الملك الكاهن ، يعتبر تطوراً طبيعياً ، وذلك لأن توجيه الإشراف والسيادة على نظام الرى ، يعتبر من ألزم الأمور للرخاء الاقتصادى[١] .

اقتسم الأرض زمن البطالمة ، الملوك والمعابد ، غير أن ملوك البطالمة تولوا إلى جانب إدارة ضياعهم ، الإشراف على إدارة المعابد واقتسام خراجها .

وحدث زمن البطالمة أن جرى منح بعض الأراضى للنزلاء اليونانيين . غير أن معظم الأراضى الصالحة للزراعة ، ظل خاضعاً لسيطرة الملوك ، واستمر هذا النظام جارياً حتى زمن الرومان ، على عهد أغسطس وخلفائه ، ولم يطرأ عليها إلا تغييرات ضئيلة[٢] .

http://www.al-maktabeh.com

ولم يخرج عن هذه القاعدة إلا إقطاعات قليلة ، اختص بها الجند المسرحون catoecic ، أو أجزاء أخرى من الأرض امتلك معظمها اليونانيون ، ومنح بعض الأباطرة ، أمثال كلوديوس ويوليان ، بعض الأراضى لأشخاص ينتمون للأسرة الأمبراطورية أو البلاط الأمبراطورى . غير أن هذه الأراضى لم تلبث أن اندمجت فى الضياع الأمبراطورية قبل نهاية القرن الأول ، ولم يبق منها إلا ما جرى منحه للجند المسرحين[٣] .

ويعتبر من الضياع الأمبراطورية ، أرض التاج (الحكومة) ، والأملاك الخاصة للأمبراطور ، وأرض الكنائس[٤] . ومن الواضح أن ما كان للمعابد قديما من أراضى اعتبرها دقلديانوس من أراضى التاج[٥] . كما أن ما صادره دقلديانوس من أملاك أهل الاسكندرية الذين نهضوا لنصرة أخيلوس ، صارت تعتبر أيضا من أرض التاج[٦] . ومن أملاك الأمبراطور بمصر ، محاجر الجرانيت والمرمر ، والشب والنطرون ، ومن الواضح أن الملح كان احتكارا حكوميا فى سائر أنحاء الأمبراطورية[٧] .

وما ورد من الفيوم من إقرارات إنما يشير معظمها إلى وفرة أرض التاج ؛ وفى سجل تيادلفيا إشارة إلى وجود أرض التاج فى سنوات ٣٢٣ ، ٣٣٢ ، ٣٦٥[٨] . وجرى إطلاق اسم patumonialia على أرض الأمبراطور بالبهنسا سنة ٣٢٢[٩] .

وفى القرن الخامس ، صار يطلق على أملاك الأمبراطور الخاصة ، اسم البيت المقدس . ولما كانت دوقيه مصر نشأت سنة ٣٨٠ ، فالراجح أن هذا النظام الجديد قام منذ ذلك الحين[١٠] . وفى إقليم البهنسا لازال المدير العام للأملاك الأمبراطورية معروفا فى القرنين الخامس والسادس[١١] .

ومن أرض التاج ما انتقل إلى الأفراد ، فأصبح ملكا خاصا لهم ، ومنها

ماصار أرض طعمة emphyteutic ، كما أن جانبا من هذه الأراضى جرى التصرف فيه بالبيع[١٢] .

وإذ جرى اعتبار الأرض ملكا للتاج ، فمعنى ذلك أنه لم يقم بمصر ضياع كبيرة كالتى تميز بها الغرب بعد نمو روما ، فالفلاحون يتسلمون من الدولة الأراضى مقابل إيجار ثابت ، وتبقى بأيديهم طالما قاموا بدفع الإيجار[١٣] . ومن العسير أن نقرر إذا كانت الأملاك الأمبراطورية ازدادت مساحتها عن طريق نظام الحماية ، لأن الأباطرة حرصوا على عدم تشجيع هذا الإجراء بمصر[١٤] .

ثم أخذت أملاك الأمبراطور فى التناقص ، فلم يعد الأمبراطور فى العهد البيزنطى هو المالك الوحيد بمصر ، بل لم يكن أهم الملاك[١٥] .

الملكية الخاصة .

وعلى الرغم من أن الفلاحين حازوا أرض التاج فى القرن الثانى بطريق الإيجار فى هيئة أجزاء صغيرة ، فإن ثمة من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن بعض الاسكندرانيين ، وغيرهم من الأغنياء ، أخذوا يستفيدون من ارتفاع أسعار الحبوب بحيازة الأراضى ، لزراعتها حبوبا ثم قاموا بتأجيرها لغيرهم[١٦] .

ثم حدث فى القرن الثالث الميلادى بعض التغييرات نتيجة قيام بعض الثورات ، إذ جرى تضخم فى النقد فى الشطر الثانى من القرن الثالث . وقد وصل إلينا من هذا العصر مقدار كبير من حسابات المزارع فى البرديات وعلى قطع الفخار . ومن هذه الحسابات يتبين لنا ارتفاع أسعار القمح ، وفى ذلك من الدليل على أن الفلاحة صارت أكثر ربحا فى مصر عما كانت عليه من قبل . وربما أدى ذلك إلى أن يقدم أرباب رءوس الأموال على مد إيجارات ما استأجروه من أرض التاج أو الأملاك الأمبراطورية . وعلى الرغم من أن الدولة كانت فى حاجة ماسة إلى المال ، فلا يوجد ما يدل على أن أرض الأمبراطور جرى التصرف فيها بالبيع ،

أو أن الأراضي الخاصة أخذت تنمو فى مصر[١٧] . ومع ذلك فإن إقرارات الأراضى تشير إلى أن أرض التاج يجوز أن يملكها الحائز لها[١٨] .

وما باعته الحكومة من الأراضى ، إنما اقتصر على أملاك الأمبراطور أو الأراضى المهملة ، التى تخلى عنها أصحابها ، وأراضى الأطراف ، التى كانت تباع بأثمان منخفضة ، والواضح أنها لم تصبح ضياعا كبيرة . أما اليونانيون فإنهم بفضل ما كان لهم من امتيازات خاصة فى الضرائب اشتد تعلقهم بالأرض ، ولم تكن الضياع الخاصة كبيرة[١٩] .

وعلى الرغم من أن جانبا كبيرا من أرض التاج صار ، فيما يبدو ، أملاكا خاصة للأفراد، فإن الجانب الآخر منها اتخذ وضعا مختلفا[٢٠] . فما استأجره الأفراد من أرض التاج ، لم يلبث أن أصبح فى القرن الرابع ملكا لهم[٢١] .

ومع أنه ثمة من الأدلة ما يشير إلى اختفاء ما كان معروفا من الأراضى العامة فى القرن الرابع ، وما يتبع ذلك من نمو الملكية الخاصة ، فلا زالت توجد سجلات عن بيع الأراضى بعد دقلديانوس . ويبدو أن حق الملكية شاع وانتشر ، بعد أن قضى دقلديانوس على ثورة اخيلوس وأعاد تنظيم البلاد ، وتقرر بيع الأراضى الزراعية ، بشرط أن يقبل المشترى أن يتحمل مسئولية تسديد ما على الأرض من التزامات عامة فى المستقبل[٢٢] .

ولم يجر فحسب بيع أرض التاج، إنما شمل البيع أيضا أراضى الكنائس والمعابد. وهذا واضح من سجل هرمو بوليس المحفوظ فى مجموعة البردى بفلورنسه، وحدث هذا التحول حوالى سنة ٣٥٠ أو ٣٤٠م . إذ أورد السجل، فى ترتيب أبجدى ، ما حازه من الأراضى أفراد يعيشون فى الحامية المرابطة فى غرب المدينة[٢٣] ، وكل ما حازه أهل أنتينوى Antinae (الشيخ عباده) من أرض فى هرمو بوليس (الأشمونين). وتبلغ مساحة الأرض كلها، حسبما ورد فى هذا السجل نحو ٢٠ ألف فدان ،

منها نحو ١٧ ألف فدان تعتبر أرضا خاصة ، ١٤٥٠ فدانا تعتبر أرضا عامة ، ومساحة صغيرة لا تتجاوز عشرة أفدنة تعتبر زماما للمدينة ، وما تبقى لا يرتبط بأية فئة من الفئات .

وسجل هرمو بوليس ، إذا صح أنه يرجع إلى حوالى سنه ٣٤٠ م ، يدل على أن التقسيم القديم للأراضى ، لم يكن ساريا فى هرمو بوليس[٢٤] . ولما لم يظهر فى الوثائق المتأخرة ما يشير إلى أرض التاج أو أرض المعابد أو أرض الكنائس ، فإننا نطمئن إلى أن نقرر بأن عملية انتقال هذه الأراضى إلى ممتلكات خاصة ، نشأت فى مصر زمن دقلديانوس ، وتطورت زمن قنسطنطين أو فى الزمن الذى تم فيه تصنيف سجل هرمو بوليس ، ولما لم يكن ثمت نص على السبب الذى تم به هذا التحول ، فيصح أن نفترض أن حاجة الأمبراطور للأنفاق على جيشه الجديد وإدارته الجديدة ، هى التى أدت إلى بيع هذه الأراضى ، غير أنه ليس ثمة دليل على شيء من هذا القبيل . ولعل ما حازه الفلاحون من الأراضى عن طريق الإيجار ، وانتقل إليهم بطريق الوراثة ، تحول إلى أراضى خاصة . والفرق الوحيد هو أن المستأجر إنما يدفع الخراج للدولة ، على حين أن المالك يدفع الضريبة بدلا من الخراج[٢٥] .

وفى قانون سنة ٣٩٥ الموجه إلى والى مصر ، ما يدل على أن ملاك الأراضى أضحوا ، من القوة ما جعلهم يتحدون سلطة الحكومة[٢٦] .

الحماية والأبعاديات :

ومن الواضح أن الأملاك الخاصة نمت واتسعت نتيجة قوة الحماية التى بسطها الشخص القوى الغنى ، ويعتبر استبداد الجباة مسئولا إلى حد ما عن ذلك . إذ لم يكن للوالى سلطان على الأداة الحكومية الفاسدة ، كما أنه لم يعد له نفوذ وسيطرة على القوات الحربية ، فضلا عن أن مدة بقائه فى منصبه كانت قصيرة ، يضاف

إلى ذلك أن فصل السلطة العسكرية عن السلطة المدنية ، أدى إلى نتائج غير متوقعة . ومن الطبيعى ألا يكون ثمة تعاون بين السلطتين المدنية والعسكرية . ولما كانت القوة الحربية صغيرة وموزعة على أقاليم عديدة ، لم تقع ثورات خطيرة . غير أن أخطارا أشد وقعا ، وأ كبر أثراً ، أخذت فى النمو والازدياد[٢٧] . ذلك أن نمو الأبعاديات فى الشرق كان مصدر خطر على حياة الدولة والحكومة ؛ إذ صار لأربابها من القوة ما يستطيعون بها تحدى جباة الضرائب ومناوءتهم[٢٨] .

وما حدث من تحول أرض التاج إلى ملكية خاصة ؛ إنما انطوى على الخطر ، لأن ما شهدته الأمبراطورية الرومانية فى الغرب من الضياع الكبيرة أصبح له مثيل فى مصر[٢٩] .

ويعتبر سجل هرموبوليس المصدر الأساسى لهذا الاتجاه فى القرن الرابع الميلادى . ويدل هذا السجل على أن الضياع الكبيرة أخذت تنمو ، غير أنها لم تبلغ من الضخامة ما كان معروفا فى الغرب ، ونلحظ أيضاً أن الغالبية العظمى من الأسماء الواردة فيه ، إنما تدل على أن أصحابها مصريون ، أو مصريون يونانيون[٣٠] . وورد فى هذا السجل أسماء ٤٧ مواطنا ، بلغ متوسط مايحوزه الفرد منهم ٤٤ فدانا ، وبلغت أ كبر مساحة نحو ١٣٧٠ فدانا ، حازها عدد من ورثة أمونيوس ولم يجر تقسيمها[٣١]

وعلى الرغم من أنه لم يكن ثمة دليل على حيازات الأرض فى سائر المدن ، فإن سجل ضرائب فيلادلفيا (كوم الخرابة) ، الذى يرجع إلى الشطر الثانى من القرن الرابع ، اعتبر الأفراد ، الذين أشار إليهم ملاكا ، وما هو مقرر على كل منهم من الضرائب ، إنما يدل على أن جميع هؤلاء الأشخاص ينتمون إلى فئة واحدة فيما يتعلق بالملكية[٣٢] .

ولم يرد فى برديات القرنين الرابع والخامس إلا أدلة قليلة عن الملكية الخاصة . ولدينا فقط مراسيم كثيرة صدرت فى عهد تيودوسيوس وهى تعالج أساسا الأحوال السائدة فى مصر ، وتكشف عن الجهود التى بذلها الأمبراطور لوقف نمو الضياع الكبيرة فى هذا الأقليم (مصر) ، وكيف لجأ بصفة خاصة إلى سن قوانين لمنع نموها عن طريق الحماية، التى يبسطها الموظفون الأقوياء والملاك الأغنياء على أرباب الأملاك ، بسبب قسوة جباة الضرائب وشدتهم [٣٣] .

وأول مرسوم أصدره الأمبراطور قنسطنطيوس سنة ٣٦٠ م ، أشار فيه إلى كثرة عدد الفلاحين الذين سعوا إلى التماس حماية الموظفين ، وهجروا المجتمع القروى الذى ينتمون اليه ، فتحتم بذلك على أهل القرية أن يدفعوا النصيب المقرر عليها من الضرائب ، وهم الذين لفتوا نظر الأمبراطور إلى هذا الأمر [٣٤] ، فأمر قنسطنطيوس بأن كل من يحمى المخالف يلتزم بأن يدفع لأهل القرية ما دفعوه للمخالف من الأموال ، و ينبغى أن يعود هذا المخالف إلى وضعه بالقرية [٣٥] . وتلى هذا المرسوم مراسيم أخرى ، تضمنت العقوبات المفروضة ضد الحماية ، ففى مرسوم سنة ٤١٦ ما يشير إلى أن اللجنة التى تألفت من قبل من ثلاثة أعضاء ، وكان لها سلطات قضائية كبيرة ، لفحص ماتم من الملكيات عن طريق الحماية ، تقرر حلها بأمر تيودوسيوس ، ونقل أختصاصاتها القضائية إلى الأوجستاليس ، الذى صار له الحق فى فحص عقود كل الملكيات التى جرت منذ سنة ٣٩٨ ، فالعقود السابقة على هذا التاريخ والباقية فى حوزة أربابها، تعتبر عقودا صحيحة، وكل حماية تجرى مستقبلا تعتبر باطلة ، وتقرر إلغاء لقب الحامى [٣٦] . وعلى الرغم من أن حق الملكية ثبت لسكان القرية الكبرى metrocomiae فلا ينال هذا الحق أجنبى، مالم تكن هذه الملكية تمت قبل سنة ٣٩٨. ومن الواضح أن هذا الحق ظل قائما فى القرن السادس [٣٧] . ومن الدليل على ذلك أن الأمبراطور زينون Zenon أقره ، وورد أيضا فى قوانين جستنيان. وسمى

http://www.al-maktabeh.com

أرباب رءوس الأموال أيضا إلى أن يتحاشوا ما صدر من القوانين ضد الحماية ، بأن لجأوا إلى إجراء ايجارات و بيوع صوريه ، غير أن هذا الإجراء أبطله قانون صـدر سنة ٤٤١ ، وتجدد سنة ٤٨٨ ، واندمج أيضاً فى قوانين جستنيان (٣٨).

ولما كان من المفروض أن الضياع الـكبيرة ظلت تنمو فى الغرب ، فان ما جرى تطبيقه بمصر من قوانين الأباطرة ، لم تـكن من القوة ما يجعلها توقف نمو الضياع بهذا الإقليم . على أن هذا الزعم لم يستند إلى أى دليل مستمد من البرديات ، فلم يظهر فى وثيقة مصرية أسم أحد الحماة بعد تيودوسيوس . يضاف إلى ذلك أنه إذا جرى فحص حسابات أبيون لا تضح منها ، أن أملاكه تفرقت فى مساحات صغيرة ، بل أنه لم يمتلك قرية بأسرها حينما كان باجركا (٣٩)*.

وتشير الوثائق الواردة من افروديتو إلى أن أهم شخصين بها هما ديوسقوروس والـكونت أمونيوس (٤٠)**. وتدل حسابات أمونيوس على أن جانبا كبيرا من أرضه إنمـا حازه من الأديرة المجاورة ، ثم قام بتأجير هـذه الأراضى لغيره من الناس ، مقابل حصوله على ربح ضئيل (٤١).

أما حسابات الضرائب المقررة على ديوسقوروس ، فيتبين منها أنه لم يملك من الأراضى الصالحة للزراعة إلا قدرا صغيرا ، وأن معظم ماحصل عليه من أرباح

(٣٩*) Johnson : Egypt, p. 83.

سبق أن أشرنا إلى أن الموظفين كانوا أكثر الناس حماية للضياع ، ومن أعظم منشئيها ، فليس غريباً أن يكون رأس الأسرة (أبيون) من أشهر كونتات أقليم أركاريا ، وقد تولى منصبه حوالى سنة ٤٨٨ . والمعروف أن الأسرة ظهرت سنة ٤٩٧ ، وفى نفس السنة نسمع عن أحد جباة ضيعة أبيون فى هراقلدبوليس (أهناسية) ، ومن ثم كان زعيم الأسرة من كبار الملاك ، ولا شك أنه كان مصرياً ، ولم يلبث أن اشترك فى سياسة الأمبراطورية ، التى أسهمت فيها الأسرة ثلاث أجيال . (Hardy p. 25) .

(٤٠**) ورد فى بردية أفروديتو التى ترجع إلى منتصف القرن السادس الميلادى ، ما يشير إلى ضيعة الـكونت أمونيوس ، والراجح أنه كان حاكماً على طيبة وقتذاك .

(أنظر Hardy : op. cit. p. 43)

إنما جاءه من تربية الماشية . وامتلكت أرملته ضيعة فى هرموبوليس « شمال طيبة » . ولما ماتت ، تولى أبناؤها إدارة الضيعة ، فلو جرى تقسيم الربح الخالص بينهم ، لما اختص كل منهم إلا بمبلغ قليل(٤٢) .

أما ضيعة اوليبريوس فى مصر العليا ، فانها تعتبر صورة أخرى من الضياع ، ومن الواضح أن هذا الرجل ينتمى الى أسرة من القناصل ، شغل أفرادها مراكز عالية فى القسطنطينية ، وما امتلكته الأسرة من الأراضى بمصر ، لم تكن إلا منحة من الأمبراطور ، واشتملت على مساحة كبيرة من الأرض(٤٣) .

وفى زمن جستنيان امتلك أحد طبقة السناتوريين ضيعة كبيرة ، استخدم فيها عددا من الجند(٤٤) . ومن الضيعات الكبيرة ما كان فى حوزة أسرة أبيون ، ومنياس وأوليبريوس وكريستودورا . أما أبيون وأوليبريوس فمن طبقة السناتوريين ، بينما كان ميناس حاكما على إقليم من الأقاليم ، وكانت كريستودورا أرملة أحد الملاك . ولاشك أن ثمة ملاكا آخرين لم نعرف عنهم شيئاً ، وقد جأر جستنيان فى قانون ١٣ بالشكوى من سلطانهم ونفوذهم . والراجح أن عددا كبيرا من هذه الضياع الضخمة نما وتطور فى القرن السادس ، وربما كان بعضها عبارة عن منح وهبات من قبل الإمبراطور(٤٥) .

وعلى الرغم من توافر الأدلة التى تشير إلى ازدياد نمو الضياع الخاصة بمصر فى القرن السادس ، فلم يكن ثمة من الأدلة ما يؤكد أن أحدا من الملاك حاز من المساحات الشاسعة من الأراضى مثلما كان جاريا فى الغرب . على أنه لا يمكن القطع بأن ما كان بمصر من ضياع صار ملكا خاصا للأفراد ، أو كانت عبارة عن أملاك مستأجرة من أراضى الأمبراطور والكنيسة(٤٦) . وفى سجل أرض هرموبوليس لم تتجاوز مساحة أكبر الضياع ١٣٠٠ فدان ، وبلغ متوسط الملكية نحو ٤٤ فدانا ، على أن هرموبوليس تعتبر من أغنى المناطق وأكثرها رخاء ، ومع

ذلك لا بد أن نقرر أن الضيعة التى تبلغ مساحتها ٨٠٠ فدانا لم تضارع ما هو معروف فى الغرب من الضياع الأقطاعية[٤٧]

أرض القرية :

ويرتبط بنمو الضياع ما كان للقرية من أراضى خاصة ، ذلك أنه جرى العرف بتحديد الأرض بما يجاورها من الأراضى التى تتفق معها فى تبعيتها للتاج ، ومثال ذلك سجل أراضى تيادلفيا الذى يرجع إلى أوائل القرن الرابع والذى اعتبر الأرض «أرض قرية» ، فكأن القرية جمعت بين الأرض الخاصة وأرض التاج . والواضح أن زمام القرية خاص بسكانها ، ثم حدث فى القرن الرابع أن انتقل الجانب الأكبر من أرض التاج إلى نطاق الملكية الجماعية للقرية التى يقع فى زمامها هذه الأراضى[٤٨] .

ونظرا لما أدركه دقلديانوس من أن القريه تعتبر وحدة بالغة الأهمية فى زراعة الأرض ، اعتبرها مسئولة عن الأرض المحيطة بها ، وبذلك دخل فى زمامها جانب من أرض التاج[٤٩] . وفى قانون سنة ٣٩٥ الموجه إلى والى مصر ، ما يدل على أن ملاك الأراضى أضحوا من القوة ، ما جعلهم يتحدون سلطة الحكومة ، كما أن بعض القرى بلغت من الرخاء والثروة ، بفضل ماصار لها من ملكية الأراضى ، أنها استطاعت أن تشترى من كبار الموظفين ما صار اليهم من حماية[٥٠] . وليس لدينا إلا مثل وحيد عن قرية خضعت لحماية أحد الأقوياء فى القرن الرابع الميلادى ، وهى قرية Euhemeria التى تقع على حافة واحة الفيوم . وسار على نهجها ، فيما يبدو ، القرى الواقعة على حافة الصحراء مثل Tebtynus وتيادلفيا . والمعروف أن قرية Euhemeria وضعت نفسها تحت حماية Nechos . ومهما يكن لنيكوس من سلطان ، فإن أهل القريه لم يكونوا بحال من الأحوال أرقاء مستذلين كالذين عرفهم غرب البحر المتوسط . وزاد فى مكانة القرية ما صدر من تشريعات تمنع بيع أراضى القرية لأى اجنبى عنها ، بينما أجازت البيع لأهل القرية الواحدة ،

فأصبحت القرية بذلك تؤلف نقابة للفلاحين ، مسئولة عن زراعة الأرض التابعة لها ودفع الضرائب المقدرة عليها[٥١] .

ومن أنواع ملكية الأراضى ، ما يعرف بأرض الكنائس ، والراجح أن ما وهبه قنسطنطين لكنائس روما من الضياع ، إنما ترجع إلى الأراضى التى صادرها بعد أن أنزل الهزيمة بخصمه ليسينوس ، ويدل خراجها على أن مالكها السابق كان مهتما بصناعة الورق والعقاقير والتوابل التى جاء بعضها من الهند و بلاد العرب[٥٢] .

و يشير قانون تيودوسيوس الصادر سنة ٤١٥ إلى أن لكنيستى القسطنطينية والاسكندرية أملاكا بمصر . ومن الواضح أنه كان فى كل قرية من قرى البهنسا فى القرن السادس الميلادى ، كنيسة ، وهذه الظاهرة كانت فيما يبدو ، شائعة فى كل مكان[٥٣] . وتألفت أملاك الكنيسة أساساً من الهبات الخيرية ، سواء كانت هبات عامة أو هبات خاصة . إذ اشتهر الأباطرة فى كثير من الأحوال بالجود والسخاء ، كما أن المصريين جعلوا فى وصاياهم نصيباً للكنيسة[٥٤] .

والمعروف أن الأديرة ازدهرت فى القرن الرابع الميلادى ، ونصت قاعدة باخوم على تشجيع العمل ، ونوّهت بالتخصص فى هذا العمل ، فأشارت إلى النساجين ، والبستانيين ، والخبازين والحدادين والنجارين ، وصناع الأحذية ، والخطاطين . وكانت النساجة من الحرف الشائعة ، وذلك لأنه من اليسير تأدية الصلاة و إجراء التراتيل أثناء العكوف على المنسج ، وقضت القاعدة بأن يقوم بعض الرهبان بصناعة الحصر ، على حين يتولى فريق آخر جمع البوص والغاب ، فجرت صناعة الحصر والحبال والسلال ، من البوص والغاب وسعف النخيل[٥٥] .

فإذا حان زمن جمع المحصول ، توجه الرهبان للعمل فى الحقول ، ومن ثم توافر النشاط الجم المثمر فى الأديرة ، وهذا يتطلب نظاماً إدارياً بالغ الأهمية[٥٦]* .

(*٥٦) وعلى الرغم من أن رؤساء الأديرة جعلوا اهتمامهم الرئيسى الانصراف إلى الأمور الروحية ، فإنهم أشرفوا أيضاً على الأحوال الاقتصادية . فكان لبعض الأديرة نصيب=

http://www.al-maktabeh.com

وفى القرن السادس كثرت أملاك الكنائس والأديرة ، فصار لها الصفة القانونية فى امتلاك الأراضى . وتدل حسابات أمونيوس فى أفروديتو (كوم أشقاو) على أن جانباً كبيراً من الأراضى ، كان مستأجراً من الأديرة المجاورة . وتولى أسقف أهناسيا الإشراف على عدد كبير من الرهبان والراهبات أثناء قيامهم بالعمل فى الأراضى(٥٧) . ومن الدليل على ما للكنيسة بهذه الجهة من أملاك وفيرة ، ما ورد فى سجلات الضرائب فى القرن السادس عما يرد للكنيسة من الشعير ، وقدره ١٥٤١ أردباً أى $\frac{١}{٣}$ المحصول(٥٨) .

ومن الأراضى التى دخلت فى حوزة الكنيسة أيضاً ، ما يعرف بأرض الحيازة (الطعمة) emphyteusis ، وهى أصلا من الأراضى المهملة والقابلة للإصلاح ، وتعتبر من أراضى الدولة أو بيت المال ، فكان يجرى تأجيرها لمدة طويلة مقابل دفع خراج مخفض ، على أن يقوم الحائز لها بإصلاحها وزراعتها أو غرسها بأشجار الكروم والزيتون(٥٩) .

ومن الوسائل التى لجأت إليها الكنيسة لتنمية ثروتها ، ما جرى من قبولها ماتقدم به إليها ، من المنح والهبات من الأراضى ، الملاك الذين عجزوا عن مقاومة استبداد الموظفين وطغيانهم(٦٠) . ولم تكن هذه الصورة من الحماية ممنوعة . ففى قانون تيودوسيوس ، الصادر فى سنة ٤١٥ ، ما يشير إلى إقرار كنيستى

= فى الضرائب المقررة . مثال ذلك دير ميتانوس بكانوب فى ضواحى الاسكندرية ، كان يحصل فى السنة على ٥٧٥٦ أردباً من القمح من أفروديتو ، ويتعهد الدير بتقديم السفن اللازمة لنقل القمح ، وفى حسابات أبيون بالبهنسا (أهناسية) ، أن دير الأب أندرياس كان يحصل باستمرار على منحة قدرها ٥٠ دينار . وهذا المبلغ يقابل ثمن ألف أردب من القمح وذلك بناء على أمر مالك الأرض . على أن ماحصل عليه دير ميتانوس من المنح ، يجوز ألا يجرى كل سنة ، ولعل ذلك حدث فى كل دورة مالية ، وجرت العادة بأن تحصل كنائس القرى الواقعة فى ضيعة أبيون ، على مقادير معينة من القمح والمال كل سنة . ويعتبر هذا أول أبواب مصروفات الضيعة التى اتخذت صورة ضريبة (انظر Johnson : Ec. St. p. 69)

الأسكندرية والقسطنطينية على امتلاك ما بأيديهما من الأراضى ، بشرط الوفاء بما على الأراضى من تعهدات والتزامات[٦١] .

ويبدو أن إيجارات أرض الكنيسة كانت مجزية ومثمرة ، ولعل ذلك كان من الوسائل التى نشأ بها وقف الأراضى وحبسها على الكنائس ، أو جرى الحصول بمقتضاها على حماية الكنيسة ، وذلك بأن يتنازل المالك عن أرضه للكنيسة ، ثم يستردها بطريق الإيجار ، وجنحت السلطات الكنسية إلى إجراء عقود للإيجار طويلة الأمد[٦٢] .

القنية فى مصر البيزنطية :

المعروف أن الملوك الكهنة بمصر القديمة امتلكوا الأراضى ، وأن الفلاح ، باعتباره مستأجراً لأرض فرعون ارتبط بسيده بعلاقات إقطاعية . وظل الملوك البطالمة يختصون بملكية جميع الأراضى ، فيما عدا ما جرى منحه للنزلاء اليونانيين أو الجند من أجزاء الأرض صغيرة المساحة . على أن سيطرة هؤلاء الحائزين لم تلبث أن ضعف شأنها ، لأن الدولة حددت ما ينبغى زراعته من المحصولات ، وتقرر الإشراف العام على المستأجرين وما عليهم من التزامات[٦٣] . وعلى الرغم من أنه لم يكن ثمة فيما يبدو ، من القوانين ما يربط الفلاح بالأرض ، فإن أفقه لم يتجاوز الحدود الضيقة لقريته ، ولذا صار الأبناء يتعلمون منذ طفولتهم حرفة الزراعة ، وأضحت حيازة الأرض وراثية[٦٤] .

وعلى الرغم من أنه جرى عادة بأن يتخذ الابن حرفة أبيه ، غير أنه لم يكن ثمة ما يقضى باتباع هذه القاعدة . فللأبناء أن يتخذوا من المهن ما يشاءون عن طريق التلمذة الصناعية . وترتب على دخول مصر فى محيط تجارة البحر المتوسط أن نمت المدن الصناعية ، لاسيما الأسكندرية ، فاجتذب نشاطها الصناعى أعداداً كبيرة من سكان القرى[٦٥] . ويشير سجل ضرائب فيلادلفيا ، الذى يرجع زمنه إلى

عصر تيباريوس ، إلى أن ثمانى وستين من أهل فيلادلفيا ، من الخاضعين لضريبة الرأس ، أقاموا بالأسكندرية ، وليس ثمة من الأدلة ما يشير إلى أن هؤلاء كانوا أبناء فلاحين أو صناع ، والراجح أن من بين هؤلاء النازحين عدداً كبيراً من أبناء الفلاحين[٦٦] .

ونظرية الأصل ، أو المنبت ، لم تلزم الفلاح بأن يرتبط بمسقط رأسه ، وكل ما هو مطلوب منه أن يسجل اسمه فى موطنه ، لأهمية ذلك فى تعداد السكان ، وتقرر تبعاً لذلك أن يدفع فى موطنه ضريبة الرأس . والاستثناء الوحيد الذى خالف هذه القاعدة ، هو ما أصدره الأمبراطور كراكلا من الأوامر التى تقضى بإلزام المصريين المقيمين بالأسكندرية بالعودة إلى قراهم ، على أن هذا القرار لم يكن له تأثير على المشتغلين بالصناعة من سكان المدينة[٦٧] .

والفلاح زمن الحكم الرومانى وفى كل عصر من العصور ، يؤثر أن يقيم بالبلد الذى ألفه واعتاد الإقامة به . فإذا لم يتعلم حرفة ، وهجر أرضه التى استأجرها بقريته ، لم تتهيأ له الفرص لأن يعيش عاملا متمرنا ، وعلى الرغم من أن هروب الفلاحين من الوادى الخصيب إلى الصحراء ، لم يكن أمرا غير مألوف زمن الرومان ، فالواقع أن هذا الهروب لم يكد يمس مستأجر الأرض أو حائزها ، بل إنه اقتصر على الأبناء الصغار للمستأجرين أو أرباب الحرف ، ومن الدليل على ذلك ماحدث من تقديرات ضريبة الرأس ، على أساس أنها تسد الضرائب التى لم يدفعها الذين هربوا ، وأصبحت هذه الضريبة عبئا ثقيلا فى بعض القرى فى القرن الثانى[٦٨] . على أن الأرض الواقعة على حافة الصحراء تعرضت فى أحوال كثيرة للإهمال والخراب وهجرة السكان ، بسبب انخفاض النيل ، أو إهمال تطهير الترع ، أو توالى رداءة المحصول ، وهذه المؤثرات المحلية يصح أنها سببت بصفة مؤقتة انتقال المستأجرين من منطقة إلى أخرى[٦٩] .

ولعل أوضح وصف لحالة الفلاح وقتذاك فى ظل النظام الإدارى الجديد، أن الفلاح التزم بزراعة أرض التاج عن طريق السخرة (٧٠) .

وتضمنت القوانين الإشارة إلى ثلاث فئات من الأقنان أو الفلاحين Originales ، homologi ، adscupticu ، فالفئة الأولى هم الفلاحون الذين عاشوا بالقرية ، واشتغلوا منذ عصور سحيقة بفلاحة الأرض وزراعتها ، على أنهم أرقاء أو مستأجرون أو أحرار . أما الفئة الثانية فيبدو أنها خاصة بمصر ، وربما كان هذا اللفظ اسما محليا للسكان الأصليين ، إذ لم يرد هذا اللفظ فى برديات العصر البيزنطى ، ولم يشر إليهم دستور تيودوسيوس سنة ٤١٦ م . ومن الواجبات المفروضة عليهم زراعة أراضى القرية ، فإذا هجروا القرى التى أقاموا بها ، وانتقلوا إلى قرى أخرى أو سادة آخرين ، تحتم عليهم العودة إليها . وإذا حاول السادة منعهم من العودة ، أرغموا على مباشرة أعمالهم ، وعلى تعويض سادتهم السابقين عن الخسائر التى لحقت بهم بسببهم . والمفروض أن هذه الفئة من الفلاحين يمثلون فى الزمن البيزنطى ، أهل القرى الذين لم يمتلكوا أراضى ، بعد أن آلت أرض التاج إلى القرى ، أو أنهم فقدوا ، لسبب من الأسباب ، ما فى حوزتهم من الأراضى .

وكان لزاماً على هؤلاء أن يقوموا بزراعة الأرض التى هجرها أربابها بعد أن تم استصلاحها (٧١) . وتحتم عليهم أن يحصلوا على الأراضى المهملة الواقعة فى زمام القرية ، فأضحوا بذلك أعضاء فى المجتمع القروى ، الذى التزموا بالارتباط به إلى حد ما . غير أن فى استطاعتهم أن يستأجروا أراضى من ملاك آخرين (٧٢) .

واشتملت الفئة الثالثة على الفلاحين القراريين adscriptiscu فيصح تعريفهم بأن الواحد منهم هو فلاح حر وهو الذى ارتبط بالأرض فى قريته التى نشأ بها ، وجرى تسجيله فى التعداد (٧٣) ، وسعى بمحض اختياره إلى الحصول على حماية بعض الأفراد الأغنياء أو الأقوياء ، فأصبح بذلك مستأجرا لأرضه . فالسيد (الحامى)

يعتبر بهذه الصفة مسئولا عن كل ماهو مقرر على مستأجره من التزامات أوضرائب نقدية أو عينية . وأبناء هؤلاء الفلاحين الأحرار يعتبرون أيضا أحرارا ، غير أنه ينبغى أن يقوموا بزراعة أراضى آبائهم [٧٤] . على أن لفظه فلاح قرارى adscriptiscium إنما ورد ذكرها الأول مرة فى برديات سنة ٤٩٧ ، أى خلال حكم انستاسيوس . ولم يرد اللفظ إلا فى وثائق من محفوظات أسرة أبيون فى البهنسا [٧٥] .

أما العلاقة بين السيد والفلاح ، فتتمثل فى أن الفلاح يعترف بتسلمه أدوات المزرعه التى يعمل بها ، وأن يقوم بأعمال الرى ، وأن يؤدى عن طيب خاطر ما تقرر عليه من الخراج ، وأن يعلن ولاءه وخضوعه لسيده فى كل الأحوال . ويقوم السيد أحيانا بإقراض المستأجر أموالا ، على أن يتعهد المستأجر بتسديد ماعليه من الديون بضمان كل ممتلكاته . واتفق الذين اشتغلوا منهم فى عصر القصب ، وسائر فلاحى ضياع أبيون ، على أن يؤدوا من الكروم التى يزرعونها ٢٤ ألف استارا من النبيذ ، فاذا لم يؤد الفلاح ما التزم بتأديته ، كان لزاما عليه أن يدفع ما تضمنه العقد من شرط جزائى بضمان كل أملاكه [٧٦] . على أن الفلاح ظهر فى كل الأحوال على أنه عامل حر ، له الحق فى أن يرتبط مع الملاك بعقود . وعلى الرغم من أنه يصح الإشارة إلى أن قريته إنما تتبع السيد أبيون ، فإنه يعتبر قبل كل شيء مواطن رومانى ، ولد ونشأ حراً ، ودرج على أن يذكر اسم أبيه وأمه . وفى مثال واحد ، أشار إلى أنه يشترك مع سائر أهل القرية فى امتلاك أرضها ، وأن أخاه يعمل مديراً للضيعة فى تلك المنطقة . على أن العقود بين الفلاح القرار و بين السيد يصح تقسيمها إلى ثلاثة أنواع ، ففى نوع منها اعترف الفلاح بما اقترضه من أدوات المزرعة ، مثل جانب من الطاحون أو الساقية والراجح أن العقد إنما جرى لمنع ما ينشأ من النزاع عند انتهاء الإيجار حول ملكية هذه الأدوات .

أما النوع الثانى من العقود، فيتمثل فى قروض المال، إذ حرص الدائن أن يتقاضى مقدما الربح المطلوب، وبهذه الوسيلة يتجنب ما تقرر من العقوبات على من يتجاوزون سعر الربح زمن أغسطس وهو ١٢ ٪ أو زمن جستنيان وهو ٨٪ . وجرت العادة أن يجعل المستأجر ملكه ضمانا للسداد . ولهذا النص أهميته ، من حيث أن أرض المستأجر لم تكن ملكا للمالك، ولذا لا يصح أن تخضع للرهن أو الضمان .

و يقضى النوع الثالث ، بأن يبقى المستأجر على حيازة الأرض، أو يبقى رهن إشارة السيد ليؤدى ما يقرره من سخرة أو خدمة . وهذا الضمان يؤديه عادة الفلاحون القرارون الذين يقومون فعلا بأستئجار الأرض باسم أفراد آخرين ليسوا رقيقا ، وتشير حسابات أبيون إلى ما حدث فى بعض القرى الصغيرة من جماعة من المستأجرين ألفوا نوعا من النقابة ، اشترك أعضاؤها فى تحمل ما تقرر على الأرض ، أو على الجماعة من إيجار أو ضرائب.

ومن دراسة هذه الوثائق نستخلص أن الفلاحين بضياع أبيون يملكون من الأراضى ما لم يكن تابعا للمالك ، وجرت علاقات بين الفلاح والمالك مصدرها العقود ، كأن يقترض الفلاح ما يحتاج من المال والبذور وجانب من الأدوات ليصلح بها الطاحون أو الساقية ، يضاف إلى ذلك أنه كان يعتبر مواطنا رومانيا . كل ذلك يخالف ما كان معروفا فى الغرب ، إذ لم يكن للفلاح حق الامتلاك ، ولم تكن حالته تزيد كثيرا عن حالة الرقيق(٧٧) .

ومع ذلك فإن من المظاهر التى لم ترد فى قانون من القوانين ، ما اتخذ من الاحتياطات فى مصر ، أو فى البهنسا على الأقل ، من ضرورة تعيين ضامنين للفلاحين ، يتولون دفع تعويضات ، إذا هجر الفلاحون الأرض . ففى بعض الوثائق إشارة إلى تعهد الضامن « بأنه يعد بأن فلانا ، سوف يقيم باستمرار فى ضيعته ،

http://www.al-maktabeh.com

مع أسرته وماشيته ومتاعه ، ويؤدى ما عليه من التزامات وما هو مقرر عليه من واجبات باعتباره رقيقاً للأرض ، وأنه لن يبرح هذه الضيعة أو ينتقل إلى جهة أخرى ». وإذا أراد المالك أن يتسلم هذا الفلاح ، فإن الضامن يعهد بتسليمه له فى أى موضع شاء ، وإذا لم يف بذلك فعليه أن يدفع غرامة قدرها ٨ دنانير[٧٨] .

على أن القانون لم يقيد المستأجر بالأرض . والراجح أن هذه الضمانات فى القرن السادس ، لم يكن لها من الأهمية إلا حينما لم يكن بالجهة إلا مستأجر واحد أو مستأجران ، أو لم يكونوا من الوفرة والكثرة ما يكفى لتأليف نقابة تتولى الاضطلاع بالمسئولية بالنيابة عن المخالفين[٧٩] .

غير أن وضع الفلاح القرار adscriptiscu فى ضيعة أبيون ، اختلف كل الاختلاف عما ورد عنه فى دستور أنستاسيوس ، أو عن وضع الفلاحين القرارين فى غرب البحر المتوسط ، فالأول حق التعاقد ، وله أن يرهن ملكه ، وأن يقدم من الضمان ما يكفى تسديد ما هو مطلوب من الإيجار ، ولم يقم الدليل على أنه رقيق أو عبد . ولما كان أبيون يتمتع بحق الجباية الذاتية ، فإنه قبل أن يتحمل مسئولية تأدية ما على أرضه من خراج[٨٠] ؛ فإذا استأجر شخص أرضاً من أبيون ، فلابد من إثبات ذلك فى مأمورية الضرائب التى تدخل فى اختصاصها الضيعة ، حتى لا يتعرض المستأجر لدفع الضرائب المفروضة على أهل قريته ، ومن ثم نجد أفراداً من البهنسا يسجلون انتقال تبعيتهم الضرائبية من مأمورية إلى أخرى[٨١] .

على أن التحول من مبدأ امتلاك الحكومة للأراضى إلى الملكية الخاصة ، أدى إلى ثورة وانقلاب فى وضع مصر ، فليس من الراجح أن يصبح الناس جميعاً ملاكا للأرض ، أو أن أحداً من الفلاحين تقرر إعفاءه من واجب القيام بزراعة الأرض المهملة ، التى تخلى عنها أربابها[٨٢] .

وليس من الإنصاف أن نزعم بأن القنية والرق سارا فى خطوات واحدة من حيث النمو والتطور فى عالم البحر المتوسط ؛ فلم يكن بمصر ضيعات خاصة كبيرة ، حينما كانت الأرض ملكا للدولة . وعلى الرغم من أنه يصح أن يكون للفلاح الذى يعمل بأرض الدولة صفة شبه إقطاعية ، فإن حدود إقطاعيته لا تتجاوز ما عليه من الالتزام بزراعة الأرض المهملة ، وما يقدمه من مساعدة فى صيانة وتطهير قنوات الرى . فلما تحولت أراضى الدولة إلى ملكيات خاصة ، أخذت هذه الملكية الخاصة تنمو وتتسع ، عن طريق الشراء والزواج وحيازة الأراضى على الرغم من المحاولات التى بذلت لمنع نموها(٨٣) . إذ جرى تحريم شراء الأرض على من كانوا من خارج القرية ، فأملاك أبيون بلغ من شدة تفوقها ، أنه لم يكن ليدّعى أنه يملك قرية بأسرها . وعلى الرغم من أنه لا سبيل إلى إنكار قيام الملكيات الكبيرة زمن الحكم البيزنطى ، فإن وجود القنية يحتاج إلى دليل(٨٤) .

وثمت عاملان يصح الاستدلال بهما على عدم وجود القنية بمصر ، الأول ما أشار إليه سجل ضرائب أنتيبابوليس (العثمانية) من أن الضرائب العينية انخفض مقدارها انخفاضاً محسوساً . والواضح أن هذا السجل إنما يعطى صورة حقيقية للضرائب المقررة وقتذاك ؛ وفى ذلك من الدلالة على أن الفلاح توافر لديه من الحبوب ما يصح له أن يتصرف فيها بالبيع فى السوق الحرة . وبلغ متوسط سعر القمح طوال القرن السادس ، ديناراً لكل ستة أرادب ، ويعتبر هذا السعر مجزياً للفلاح . ومن الدليل على ما أصاب مصر من الرخاء ووفرة المال ، ما جرى تحصيله من أفروديتو وأنتيا بوليس والبهنسا من مقادير كبيرة من الذهب(٨٥) .

أما العامل الثانى فهو نمو المسيحية ، لا سيما الديرية ، التى ناهضت كل محاولة قام بها المالك لإنزال الظلم بمزارعيه وفلاحيه . فلما صار الهارب والآبق

من الفلاحين تديناً ، وجد من الكنيسة حامياً له ، وتيسر له بذلك أن يفلت من ظلم الملاك . و إذا كانت الديرية نمت وتطورت أوائل عهدها نتيجة ما أنزله جباة الضرائب من الظلم والاستبداد ، فليس ثمة من الأدلة ما يشير إلى أن الفلاح اتخذ هذه الوسيلة في العصر المتأخر للديرية[٨٦] .

بيع الأراضى و إيجارها :

على الرغم من وجود أدلة تشير إلى اختفاء ما سبق من تصنيف معقد للأراضى فى القرن الرابع ، وما تبع ذلك من نمو الملكية الخاصة ، فلا زال يوجد سجلات عن بيع الأراضى بعد دقلديانوس ، ويبدو أن حق الملكية انتشر وشاع بعد أن أخمد دقلديانوس ثورة أخيلوس ، وأعاد تنظيم البلاد ، وتقرر بيع الأراضى الزراعية بشرط أن يقبل المشترى أن يتحمل مسئولية الوفاء بما على الأرض ، مستقبلا ، من التزامات عامة[٨٧] .

وفى العصر الرومانى صارت إيجارات الأراضى التى تزرع حبوبا ، تحصل من نفس المحصول، بينما تدفع إيجارات الكروم والحدائق والبساتين نقداً . غير أن هذه القاعدة لم تستمر بعد القرن الرابع ، إذ أن حسابات ضيعات أبيون فى البهنسا تشير إلى أن الإيجارات كانت تدفع نقداً وعيناً على السواء ، وليس من السهل فى هذا الوضع التفرقة بين الإيجار والضرائب . فالعقد الذى أجراه المشتغلون بزراعة الكروم فى إحدى الضيعات ، قد لا يعتبر إيجارا ، حيث أنه لم يكن سوى اتفاق يقضى بأن يسلموا كمية معينة من النبيذ عند عصر العنب[٨٨] .

وفى أفروديتو كانت أرض القمح والشعير تؤجر بشروط، ويدفع الإيجار نقداً أو عينا . وجرت العادة بأن يكون الإيجار لأجل قصير ، وفى بعض الأحوال يحصل المستأجر مقدما على سلفة من البذور ، وأن يأخذ نصف المحصول خاليا من كل الالتزامات ، ويجرى امداده بالماشية وسائر أدوات الزراعة حتى زمن الحصاد .

على أن المستأجر مقابل ذلك ، ينبغى ألا يتخلى عن عقد الإيجار ، وأن يؤدى جميع العمل فى الأوقات المحددة . ومن الواضح أن هذه الأراضى كانت من الأراضى التى تزرع قمحا، وتلى الأراضى الداخلة فى نظام الرى الدائم، وتحتاج فى ريها إلى استعمال الساقية ، وتتطلب جهدا كبيرا[٨٩] . و يبدو أن السلطات الكنسية كانت تميل إلى أن تجعل عقود الإيجار طويلة الأمد ، كما يبدو أنها بلغت أحيانا عشر سنوات[٩٠] .

على أن المستأجر لم يأمن على نفسه فى كثير من الأحوال، إذ تعرض للطرد من أرضه ، وفى بعض الأحوال احتج على انتهاء مدة الإيجار ، وفى أحوال أخرى تمسك بالبقاء فى الأرض مهما كان الإيجار محددا بسنة واحدة . وقلما زاد مقدار الإيجار فى الفيوم فى القرن الرابع على ٢ ½ أردب للفدان ، و يؤدى المالك الضريبة من هذا المقدار . والواضح أن هذه الإيجارات إنما تؤخذ من القرى الواقعة على حافة الصحراء ، والتى تبعد أراضيها عن الأراضى الزراعية . على أن الأحوال فى هرمو بوليس ، كانت أكثر استجابة فكان متوسط الإيجار فى القرن الرابع ٤ أرادب عن الفدان ، وشاع الإيجار الذى يقوم على اقتسام المحصول بين المالك والمستأجر[٩١] . و يبدو أن مركز المستأجر أخذ ينهار فى القرن السادس ، و يتضح ذلك فى الأحوال التى طبق فيها مبدأ المشاركة فى المحصول ، وفى هذه الحالات لم يأخذ المستأجر سوى ⅓ أو ¼ أو ⅕ المحصول[٩٢] .

الإقطاع والقنية :

هناك كثير من أوجه التشابه بين الأحوال الاقتصادية والاجتماعية فى مصر البيزنطية ، و بين هذه الأحوال فى أور با العصور الوسطى . وما ساد هذه الفترة من الحياة إنما اتسمت بصفة العصور الوسطى . على أنه ينبغى ألا نقرر بأن هذين النظامين كان واحدا فى كلتا الجهتين، إذ نستطيع أن نتبين بعض أوجه الاختلاف

http://www.al-maktabeh.com

بمازال بمصر البيزنطية النظم البلدية الرومانية ،والنظم الإدارية ، كما أنه لم يكن هناك أى أثر من العلاقات الشخصية بين السيد والقن ، أو بين التابع والأمبراطور ، فى الظواهر الشبيهة بالإقطاعية .

والواقع أننا نستطيع أن نكتشف مجموعتين أساسيتين من هذه الظواهر — المجموعة الأولى ، وتتمثل فى اغتصاب كبار الملاك لوظائف الحكومة ، والمجموعة الثانية تتعلق بنظام القنية .

ومن أهم مظاهر المجموعة الأولى ماحدث من تدخل أصحاب الضياع فى جباية الضرائب، وتشير الوثائق إلى طريقتين حصل بمقتضاهما كبار الملاك على حق جباية الضرائب ، بأن تولوا جمع الضرائب المقررة على فلاحيهم ، و بأن اكتسبوا حق الأوتوراجيا (الجباية الذاتية) . أى الحق الذى حازه شخص من الأشخاص ، أو جماعة من الجماعات ؛ و بمقتضاه يؤدى ما هو مقرر من الضرائب للحكومة المركزية مباشرة ، لا إلى عامل الخراج المختص بالجهة . وأول هذين التقليدين كان معروفا منذ زمن بعيد يرجع إلى سنة ٣٦٦ ، حين صدر قانون يعتبر أصحاب الضياع الكبيرة مسئولين عن الضرائب المقررة على فلاحيهم . وفى سنة ٥٢٩ ، يشير قانون جستنيان عرضا إلى شىء من التعديل فى هذا التقليد ، ذلك أن بعض الفلاحين دفعوا ضرائبهم للحكومة مباشرة ، بينما دفع فريق منهم إلى المالك أموالا ، احتجز المالك منها جزءاً على أنه ضرائب ، واحتفظ بما تبقى لنفقاته[٩٣] .

وهذا النظام يفسره حسابات ضيعة أمونيوس فى طيبة ، ففى بعض الأحوال صار لكل مستأجر حساب خاص ، يبين مقدار ماجرت جبايته منه عينا أو نقدا، ومقدار مادفع منه للضرائب ، ومقدار ما تبقى . وفى بعض الأحوال تحرر جريدة (سجل) مفصلة بما يسهم به الفلاحون من الضرائب (القمح) embole المقررة على الضيعة[٩٤] .

وفى مرسوم سنة ٥٣٨ وردت الإشارة إلى الجباية الذاتية فى عبارة «الجند والباجاركات وأولئك الذين يتولون الإشراف على الضرائب». ويزداد وضوح هذا النظام فى وثائق افروديتو، إذ أن قرية أفروديتو زعمت أن لها منذ زمن الأمبراطور ليو، الحق فى أن تدفع ضرائبها وفقا لنظام الجباية الذاتية، وأنها احتجت بشدة على ما قام به الباجاركات فى انتيابوليس من انتهاك هذا الحق». وأشهرت أفروديتو استقلالها عن موظفى الباجركية التى تتبعها فى دفع الضرائب الأمبراطورية(٩٥).

وتمتعت أسرة أبيون بحق الجباية الذاتية بأوسع حدودها، فأرسلت ما هو مقرر عليها من الضرائب النقدية إلى الأسكندرية مباشرة، فلم يتولى إرسالها موظفو باجركية أهناسيا أو إقليم أركاديا حيث تقع ممتلكات الأسرة. وفى وثائق أسرة أبيون ما يشير إلى الأقساط (وعددها ثلاثة) التى تدفع بها الضرائب، وإلى القوة العسكرية التى تقرر إنفاذها لحراسة المال عند إرساله، وإلى الأشخاص الذين جرى إرسالهم إلى جهات مختلفة لنقل الأموال(٩٦).

ودرجت قرية أفروديتو أيضاً على أن ترسل ما هو مقرر عليها من ضريبة القمح إلى الأسكندرية غير أنها كانت تؤدى أيضاً إلى دير ميتانويا مباشرة ما يخصه من هذه الضريبة(٩٧).

الضرائب :

لما كانت مصر تعتبر من الأملاك الخاصة للإمبراطور، وليست ولاية من ولايات الإمبراطورية، صار ما يجمع منها من الخراج ينتهى إلى خزانة الإمبراطور بروما. وأهم هذه الضرائب، ما كان يؤخذ منها عيناً، وهى التى تقررت على الأرض الصالحة للزراعة، وجرى استخدامها فى إمداد أهل روما بالمؤونة(٩٨). وفى عهد أغسطس، جرت جباية نحو

٢٠ مليون مد من القمح (٦ مليون أردب) ، والراجح أن هذا المقدار يمثل متوسط الخراج فى نهاية عصر أغسطس . وما قرره أغسطس من ضرائب إضافية لم يكن المقصود منها سوى سد نفقة جمع الضرائب ، فلم يجر إرسالها إلى روما[٩٩] . وعلى الرغم من أن الضريبة المقررة سنوياً توقفت فى مقدارها على فيضان النيل ، فإنه لم يكن ثمة دليل أن المقدار السنوى للضريبة قد تغير فى الفترة الممتدة زمن أغسطس إلى زمن أوريليان[١٠٠] .

وتدل السجلات على أن الضرائب النوعية الأخرى جرت جبايتها ، وتشمل هذه الضرائب : الشعير والفول والبصل والكتان والزيتون وغيرها من المحصولات ، على الرغم من أنه لم يكن ثمة قاعدة معينة تسير وفقها هذه الضرائب . فالحبوب جرى شراؤها من أجل الجيش[١٠١] ، وخضعت الأراضى فى القرن الثالث لمقررات من أجل الميرة الحربية annona ، ومن أجل نفقات أخرى اقتضتها تحركات الجيش ، أو زيارة بعض كبار الموظفين الأمبراطوريين أو غير ذلك من الطوارئ ، غير أن هذه الضرائب لم تكن فيما يبدو منتظمة[١٠٢] .

وجبى الرومان عدداً كبيراً من الضرائب النقدية ، تقرر بعضها على الأرض لا سيما تلك التى تزرع محصولات أخرى لا الحبوب ، مثل الكروم والزيتون والنخيل ، وأشجار الفاكهة ، وما ينتج من الحدائق . ولم تكن فئات الضرائب مرتفعة ، ولعل المقصود بذلك تشجيع الإنتاج المحلى ، وبذلك تستغنى البلاد عن الاستيراد[١٠٣] .

وما وضعه البطالمة من فئات ظلت مستمرة حتى زمن الرومان دون تغيير ، فتقرر على الأرض الخاصة ضريبة صغيرة تنفق فى سبيل إصلاح الرى ، وفى القرن الثالث تقرر فرض ضريبة التاج على الأرض الملكية ، وجرى فرض ضرائب على الإبل والحمير والخيول والأغنام والماعز والحمام والدجاج ، وجرى تقديرها على

ما يملكه الفرد من العدد . غير أن هذه الضريبة صارت تعتبر فى أحوال كثيرة إيجاراً لما تملكه الحكومة من الأراضى . وتقررت ضريبة المراعى على ما ينتجها من قطعان الماشية والغنم[١٠٤] . أما الضريبة المعروفة بضريبة الخنزير ، وصارت تجبى فى بعض الأحوال مع ضريبة الرأس ، فكان الغرض منها أن تنفق فى شراء لحم الخنزير ، غير أنه لم يكن من المحقق أن هذا اللحم كان من أجل ميرة الأسكندرية والجيش[١٠٥] ، بينما كان الغرض من ضريبة الرأس الأنفاق منها على الحمامات والجسور والملح وأمور أخرى كثيرة . واختلفت ضريبة الرأس باختلاف الأقاليم ، بل صارت تختلف أيضاً فى المنطقة الواحدة مثلما حدث فى طيبة ، ولم يكن للكهنة أو القسس إلا امتيازات محدودة[١٠٦] . ولم تكن ضريبة اليهود معروفة إلا فى الفترة الواقعة بين عصر فسباسيان وعصر هادريان . وتقرر إعفاء الرومان والإسكندرانيين من معظم ضرائب الرأس[١٠٧] . ويدفع النزلاء اليونانيون الضريبة المعروفة باسم catoecic غير أن ملاك الأراضى جاز إعفاؤهم من ضريبة الرأس ، وتقرر على أرباب المهن ضريبة خاصة[١٠٨] . وإلى جانب مايرد من الخراج من الاحتكارات ، ازدادت أهمية المكوس ، فأضحت مصدراً هاماً من مصادر الخراج ، لا سيما بعد أن ازداد استيراد سلع الترف من الشرق . وازداد ما تحمله المصريون من أعباء ، بسبب كثرة ما تقرر من الرسوم الصغيرة ، وما فرضه الرومان من ضرائب استثنائية عديدة لسد نفقات جباية الضرائب فضلا عن الالتزامات والخدمات الشخصية[١٠٩] .

وليس معروفا ما إذا كان تغيير وضع ومكانة المواطنين بعد قرار كراكلا بشأن حق المواطنة الرومانية ، كان له تأثير فيما تقرر من الضرائب ، والمفروض أنه لم يحدث تغيير فى الضرائب النوعية ، على الرغم من أن بعض القادة الذين تولوا إدارة مصر أو الاسكندرية صادروا الحبوب لمصالحهم الخاصة[١١٠] .

على أن الضريبة النقدية ظلت محتفظة بقيمتها زمناً طويلا ، ولم تتأثر

بما حدث فى القرن الثالث من تضخم مالى ، وترتب على ذلك أن الفلاح احتاج إلى عشرة أو عشرين أردباً من القمح ، ليسد ماهو مقرر عليه من ضريبة رأس كان مقدارها زمن أغسطس ٤٠ درهما ، بينما جرى تسديد هذه الضريبة فى مستهل القرن الثالث ببيع أردبين أو ثلاثة أرادب[١١١] . وحيث أنه لم يوجد من الأدلة ما يشير إلى أن الضرائب ، النوعية أو النقدية ، زادت فى هذه الفترة ، فلا بد أن زارع القمح أصابه شىء من التحسن المضطرد[١١٢] .

ترتب على نشوب الحروب ، وازدياد عدد الجيش ، وكثرة عدد الموظفين ، فضلا عن كثرة نفقات البلاط ، وتكاليف المنشآت المعمارية ، أن ازدادت الأعباء على مالية الدولة ، ونجم عن انخفاض سعر العملة ، أن ما تحصل من الضرائب لم يسد حاجات الدولة . كل ذلك أدى إلى تقرير ضريبة نوعية ، ينفق منها على الجيش ، وتقرر تحصيلها بناء على أمر الأمبراطور من الأقاليم التى تجتازها الجيوش ، وأشتهرت هذه الضريبة الخاصة باسم الميرة annona ، ولم تلبث أن صارت زمن دقلديانوس ضريبة دائمة . وما تحصل من هذه الضريبة صار يعتبر أساس اقتصاد الدولة ، فكانت تؤخذ عينا ، وتقررت على كل الإمبراطورية ، وارتبطت بما ينتج من المحصولات ، ومن ثم جرى إعفاء سكان المدن منها[١١٣] .

ولتحقيق جباية هذه الضريبة ، جرى تقدير عدد الوحدات التى تلتزم بدفع الضريبة (الميرة) . وتقررت مراجعتها كل خمس سنوات ، ثم صارت مراجعتها كل ١٥ سنة . وهذه العملية هى المعروفة بالدورة indictio[١١٤] .

والوحدة المقررة لأغراض الضريبة عبارة عن مساحة من الأرض الزراعية قدرها فدان jugum ، يقوم بالعمل فيها رجل واحد caput ، وتكفى لسد حاجته فى المعيشة . فالوحدة إذن عبارة عن الأرض وما يجرى بها من العمل ، وتعتبر المرأة بنصف رجل . ومن ثم يطابق عدد الوحدات عدد الأفراد الذين يعملون

بها ، ووفقاً لهذه الطريقة فى التقدير ، صارت الضريبة تعرف باسم jugatio أو capitatio ، وتحدد مساحة الوحدات من الأرض بقدرتها الإنتاجية وما يتعلق بها من نوع الزراعة (١١٥) . فنى سوريا مثلا اشتملت وحدة الأرض ، وفقاً لدرجة جودتها ، على مقادير تتراوح بين ٢٠ ، ٤٠ ، ٦٠ فداناً من الأرض المحروثة ، أو ٥ أفدنة من الكروم ، أو ٢٢٥ فداناً من الأرض الجبلية ، أو ٤٥٠ شجرة زيتون . أما فى أفريقية فإن الوحدة ظلت ثابتة على النحو المعروف حتى ذلك الحين ، وجرى تقديرها بنحو ٢٠٠ فدان ، باعتبارها الأساس الذى بمقتضاه يجرى الالتزام بدفع الضريبة عيناً لتموين روما (١١٦) . فضلا عن ضريبة الرأس capitatio humana ، وضريبة الماشية capitatio animalium ، و بهذه الوسيلة اندمج فى النظام الجديد ما كان معروفاً قبـــل دقلديانوس من ضريبة الرأس وضريبة الحيوان (١١٧) .

وما جرى اكتشافه حديثاً من بردية احتوت على المرسوم الخاص بهذا النظام ، ترجع فى تاريخها إلى ٦ مارس سنة ٢٩٧ وصدر عن والى مصر ، الذى جعل لوائح الضريبة موضع التنفيذ ، و يشير فيه «إنى لأقرر صراحة ما يخص كل فدان من الضريبة وفقاً لطبيعة أرضه ، وكذا مما يخص كل رأس من الفلاحين من الضريبة» ، فـكأن ضريبة الأرض وضريبة الرأس تقررتا معاً (١١٨) .

ومن هذا المرسوم يتبين وجود ضريبتين رئيسيتين فى مصر ، إذ تقرر لـكل فدان نصيب معين من الضرائب وفقاً لنـوع الأرض ، ومن الواضح أن هذه الضريبة النوعية تقررت أساساً على الفدان Jugum ؛ أما صفة الأرض فالمقصود بها نوع الأرض وتربتها ، سواء أرض صالحة للزراعة ، أو أرض مراعى ، أو أرض كروم ، أو مستنقعات ، أو حدائق . ونستخلص من المرسوم أنه لا بد من فرض ضريبة موحدة على الأرض بحسب صفتها ؛ و بذلك تقرر فرض ضريبة موحدة على أرض التاج والأراضى الخاصة وأراضى الـكنائس ، وتقرر إزالة ما كان من امتياز لليونانيين لا سيما فى أوائل عهد الإمبراطورية (١١٩) .

http://www.al-maktabeh.com

أما الضريبة النقدية فتقررت على من ينزل بالريف من الناس فى أعمار مختلفة ، فلم يشر القانون إلى سكان المدن ، و إلى ما إذا كانت الضريبة على المهن ظلت مستمرة . ومن الواضح أن كل الضرائب المفروضة ، قبل كرا كلا ، لابد أن يحل مكانها ضريبة واحدة تفرض على الأشخاص ، أما الرسوم الجمركية فكانت خاضعة لسيطرة الحكومة ، ولذا لم يرد لها ذكر فى هذا القانون(١٢٠) .

وتولى تقدير الضرائب مندوبون جرى تعيينهم لهذه المهمة ، واشتد حرص الدولة على أن تبقى ما كان قائما من الوحدات ، ولذا إذا أهمل المزارعون حقولهم قامت الحكومة بمنحها لغيرهم ، فيعتبرون مسئولين عن تسديد ما عليها من الضرائب . ومتى تم التعداد لا تجرى مراجعته إلا فى حالات استثنائية . على أن مقدار الضريبة المطلوبة من الوحدة لم يكن ثابتا بصفة مستمرة ، إذ أنه يجرى كل عام بمقتضى أمر أمبراطورى ، تقدير ما تحتاجه الحكومة ، ثم تتولى إدارة الوالى التى تعتبر أهم سلطة مالية توزيع هذا المقدار على الأقاليم ، فيقوم حكام الأقاليم باتخاذ الخطوات اللازمة لجمع الضرائب ، فإذا حدث لسبب من الأسباب أن المبلغ المقرر بمقتضى أمر الأمبراطور لم يكن كافيا ، تقرر فرض مبلغ إضافى(١٢١) .

ويقوم بجمع الضرائب الموظفون الخاضعون لحاكم الأقليم وتحت إشرافه ، ويقوم بهذه المهمة ، بوجه خاص ، أعضاء مجالس البلديات ، وتعتبر من التكاليف المفروضة عليهم . ويتحتم على المكلفين بجمع الضرائب تسديد العجز الناجم عن الضرائب التى لم تتم جبايتها ، فإذا لم يؤدوا هذا العجز ، وقعت المسئولية على هيئة الأعضاء التى عينتهم . فلا عجب إذا قررت الدولة جمع الأفراد فى طوائف ، حتى لا يفلتوا من دفع المقرر عليهم ، وبهذه الوسيلة ترتب على لوائح الضرائب نمو الالتزامات الوراثية ، وارتباط الفلاح بالأرض ، وارتباط المستأجر بنظام الحيازة(١٢٢) .

وليس معروفا كيف كانت تجبى الضريبة النقدية ، ومن الواضح أن ضريبة الأرض كانت نوعية وتقررت على الوحدة الزراعية بمصر jugusm . والمعروف أن الضريبة تقررت على كل أنواع ملكيات الأراضى ، فإذا تقررت ضريبة نقدية ، لم تكن هذه الضريبة مقررة على الرأس (الأشخاص) ، إنما تقررت على أملاكهم ، وذلك لأن المصرى أضحى مالكا لما يحوزه من الأرض . والخلاصة أن ضريبتى capitatio,jugatio تعتبران فى الواقع أمرا واحدا ، فإذا كان ثمت اختلاف بينهما فهذا الاختلاف إنما يتمثل فى ضريبة الرأس تجرى جبايتها نقدا ، بينما تجرى جباية ضريبة الأرض عينا ، ومن الواضح أنهما تقررتا على الملك الخاص(١٢٣) .

يشير قانون ١٣ الذى أصدره جستنيان ، إلى أن معظم خراج مصر إنما كان يستنفذ عند الجباية ؛ والمقصود بذلك فى الواقع هو الضريبة النقدية ، إذ أن الضريبة النوعية لم تتأثر إلا قليلا بسوء الإدارة وفساد الحكم ، وهذه الضريبة النوعية ضريبة القمح (الميرة) جرى تقديرها ٨ مليون أردب ، لا بد من تسليمها فى الاسكندرية ، كيما تشحن منها فى أغسطس إلى القسطنطينية(١٢٤) .

وما تخلف عن انتيابوليس من سجل للضرائب فى القرن السادس ، يدل على أنه تقررت ضريبة موحدة على الأراضى بحسب الفئات الآتية .

الأرض الزراعية	$1\frac{1}{4}$ أردب عن الفدان
الكروم	$\frac{7}{12}$ « «
أرض المستنقعات	$\frac{23}{40}$ « «
الحدائق	لا يؤخذ عنها ضريبة نوعية

ويدل هذا البيان على الصلة الوثيقة بالنظام الذى اقترحه دقلديانوس الذى يقضى بضرورة فرض ضريبة موحدة على الأرض وفقا لطبيعتها ، والمفروض أن القمح كان مقررا لمؤونة أهل القسطنطينية . وما كان يجبى إلى جانب ذلك ،

من القمح والشعير والنبيذ واللحم ، إنما كان برسم الجيش . ونستطيع أن نقرر أن ما كان يجمع من القمح إنما جرى لسد حاجة كتيبة مؤلفة من ٥٠٠ جندى من النوميديين (أو السيزيين) ، رابطت بصفة مستمرة فى أنتيابوليس وهو رمو بوليس ، وأسهمت أفروديتو بنصيب كانت تؤديه سنويا[١٢٥] :

أما الضريبة النقدية largitionalia التى اختصت بها الخزانة الإمبراطورية ، فجرى تقديرها على أساس أن مايدفعه الفدان من الأرض الزراعية ، يبلغ نحو ١½ قيراط ، وما حدث من تقدير الميرة annonica بنحو ٦٠٠٠ دينار يعتبر تقديراً بالغ الزيادة ، فلو أن الضريبة منتظمة (ثابتة) ، فإنها تقابل ٤ قراريط عن الفدان[١٢٦] .

يضاف إلى ذلك أنه تقرر فرض ضرائب أخرى صغيرة ، أهمها ما كان يجبى برسم الإدارة المحلية والإقليمية . وفى الشطر الثانى من القرن السادس ، صرح سكان أفروديتو بأن حنا موظف التعداد هو الذى فرض على الفدان من الأراضى الزراعية ضريبة قدرها قيراطان ، وعلى الفدان من أرض الكروم ٨ قراريط ، ورفع الباجرك جوليان هذه الضرائب إلى ٤ قراريط (على الأرض الزراعية) ، و٢٣ قيراطاً على الكروم ، وهدد بأنه سوف يضيف ٢½ قيراط (على الأرض الزراعية) . واحتج أهل القرية على الزيادة المفروضة أخيراً بالرغم من انخفاض النيل وقتذاك[١٢٧] .

وتدل الشواهد عن ضرائب القرن السادس ، على أن الضريبة النوعية كانت موحدة ، ومقررة على سائر الطبقات فى كل باجاركية ، غير أنه ليس معروفاً عما إذا كانت هذه الضريبة اختلفت فى مقدارها من باجركية إلى أخرى . وما كان يجبى برسم الجيش من الضريبة لادليل عليه إلا فى أنتيابوليس وأفروديتو ، وجرى تقديرها بأقل نصف أردب عن الفدان[١٢٨] .

وما كان يجبى لخزينة الإمبراطور من الضرائب العادية يبلغ فيما يبدو ١½

قيراط عن الفدان ، فإذا جرى اعتبار ما كان يجبى برسم الإمبراطور ، وقدره ٦ آلاف دينار ، ضريبة خاصة ، صار تقدير الضريبة العادية فى أنتيابوليس بنحو قيراطين عن الفدان ، وإذا اعتبر هذا التقدير (٦ آلاف دينار) ضريبة دائمة ، صار السعر نحو ٥ قراريط للفدان ، فإذا كان السعر العادى للقمح فى القرن السادس ، هو أن كل عشرة أرادب ثمنها دينار ، كان مجموع الضريبة (تشمل النقدية ، والميرة المدنية ، والميرة العسكرية) تساوى تقريباً ٣½ أردب عن الفدان(١٢٩) .

أما ضريبة الرأس فى القرن السادس فلا زالت موضع دراسة ، فلم يرد فى سجل أنتيابوليس دليل على هذه الضريبة ، ولعلها لم تجمع من تلك المنطقة عند تحرير هذا السجل ، وفى حسابات أسرة أبيون ، قامت نقابات الفلاحين ، لا الأفراد ، بدفع ضرائب معينة من حين إلى آخر ، وفى حسابات ضيعة بهرموبوليس عن مدة أربع سنوات ، لم يرد دليل عن ضريبة رأس تقررت على الأبناء الأربعة والأرقاء والمستأجرين للأرض . (١٣٠)

أما حسابات أمونيوس فى أفروديتو فمنها ما شمل أربع سنوات ، فى ثلاث سنوات منها دفع بعض المستأجرين ديناراً أو أقل ، وهذا القدر دفعه النساء والرجال على السواء ، غير أنه لم يرد دليل عن هذه الضريبة فى السنة السابعة للدورة المالية .

وفى البهنسا حصلت Stephanous على قطعة أرض ، اتفقت على أن تدفع عنها ضريبة ديناراً برسم ضريبة Canonica ، وديناراً آخر برسم ضريبة arcarica ، وهذا هو الدليل الوحيد فى القرن السادس الميلادى ، عن ضريبة قدرها دينار (يخرج منه تكاليف جمع الضريبة) ، غير أنه ليس ثمت ما يفسر طبيعة هذه الضريبة(١٣١) ، وهذا هو أقرب مثال لضريبة الرأس على سكان القرى(١٣٢) .

وتضمن قانون جستنيان ما أصدره دقلديانوس من قانون يقضى بإعفاء سكان المدن من دفع ضريبة الرأس ، وليس معروفا إذا كان دقلديانوس ألغى الضريبة

http://www.al-maktabeh.com

المقررة على المهن والحرف والتى كانت تجبى على الرءوس. ولم يرد فى العصر البيزنطى من الأدلة الواضحة ما يشير إلى الطريقة التى تحدد بها الضريبة على سائر الحرف. وفى العصر المتقدم اختلفت القيمة بين سائر الحرف وفى سائر المدن . غير أن هذه التفرقة إنما ترجع إلى التطور الإقتصادى ، فإذا جرى إعفاء أهل الأسكندرية من هذه الضرائب ، كان ذلك راجعا إلى ازدياد النشاط الاقتصادى بالمدينة(١٣٣) ، وما هو معروف باسم diagraphia ليس إلا نوعا من الضرائب المقررة على المهن أو على سكان المدن .(١٣٤)

وفى القرن السادس ، يدل سجل أنتيابوليس على أن كل الأراضى الزراعية فى الباجركية تقرر عليها ضريبة موحدة ، وفى سجل أفروديتو ما يدل على أنه فى سنوات الفيضان المرتفع جرى جمع ما يقرب من ٦ آلاف أردب للميرة المدنية ، أما سجل الجند المرابطين فأشار إلى ما تقرر لهم فى السنة ؛ و يقدر بنحو ٧٠٠ مد (٢٢٥ أردب) ، أى نحو ٣½٪ من الميرة المدنية ، فإذا كان هذا المقدار يمثل متوسط ما هو مقرر لمؤونة الجيش فى مصر ، فيعتبر ذلك ضريبة معتدلة . وفى بعض الأحوال تتحول الضريبة المدنية (الميرة) إلى الكنيسة (دير ميتانو يا) ، فتحل بذلك محل الضريبة السنوية ، ولا تعتبر ضريبة إضافية(١٣٥) .

ومجموع الضريبة المطلوبة من مصر ، حسبما أورده جستنيان ، يبلغ نحو ٨ مليون أردب . والمفروض أن هذا المقدار يمثل الميرة المدنية للقسطنطينية ، غير أنه من الراجح أنه ينطوى أيضاً على مقدار طيب برسم الجيش فى أور با(١٣٦) ، فإذا افترضنا أن مقدار الضريبة فى أنتيابوليس كان موحداً فى سائر القطر المصرى ، فإن مساحة الأرض المزروعة يصح تقديرها بنحو ٦٫٠٠٠٫٠٠٠ فدان(١٣٧) .

لم يجر تقدير للضريبة النقدية بعد دقلديانوس ، والضريبة الرئيسية هى التى تقررت فى القرن السادس على الأرض . ومن الأدلة ما يشير إلى أن سعر الضريبة النقدية فى أنتيابوليس صار ١½ قيراط للفدان ، وفى أفروديتو قيراطان ،

بينما تقرر عن كل فدان من الكروم ٨ قراريط ، و بلغ سعر الضريبة على الفدان المزرع فى الفيوم قبيل الفتح الإسلامى نحو ٣ قراريط[١٣٨] .

فإذا افترضنا أن السعر المقرر على الفدان قيراطان ، وأن متوسط الأفدنة بمصر ٦٠٤٠٠٠٠ر٦ فدان ، كان مجموع المقرر نحو ٥٠٠ ألف دينار بعد خصم النفقات وأجور الجباية[١٣٩] . وماجرى جمعه من القمح زمن جستنيان إذا حولناه إلى مال ، صار يساوى ٨٠٠ ألف دينار . والمعروف أن الميرة النقدية largitionalia تضيف ٨٠٠ ألف دينار ، كما أن الميرة النقـــدية بافروديتو تبلغ ½ الميرة العينية canonica ، والراجح أن كل ذلك يعتبر جانبا من الخراج الذى يرسل إلى القسطنطينية . فإذا أضفنا إلى ذلك المكوس الجمركية ، والضرائب المقررة على الكروم والحدائق والمهن ، وما يؤخذ من الضياع الإمبراطورية ، واحتكارات الحكومة ، صار مجموع نصيب الحكام البيزنطيين سنوياً من الدخل نحو ٢ مليون دينار[١٤٠] .

والالتزام (السخرة) ، وفقاً لنظام البلديات زمن اليونان والرومان ، يعتبر ضريبة ، واشتدت وطأتها فى أحوال كثيرة ، أدى إلى أن يهرب الفقراء من السكان ليتخلصوا من أعبائها والتزاماتها ، ومن كان منهم فى حوزته أرض ، تنازل عن خراجها لمن عينوهم ، على أن يؤدوا ما هو مقرر عليهم من الضرائب[١٤١] .

وحدث فى العصر البيزنطى نزوع إلى دفع ضرائب برسم موظفى الباجركية أو الإقليم ، فتقاضى جباة الضرائب عمولة تتراوح بين ١½ ، ٢½ قيراط عن الدينار ، وفقاً لطبيعة الضريبة ، وتقاضى عمدة القرية meizon أجره نقداً أو عيناً . على أن نظام الأجور فى القرن السادس خضع لتشريع الإمبراطور ولذا حصل معظم الموظفين على مكافآت مهما كان قدرها .

ومن الالتزامات المعروفة فى العصر المتأخر ، ما كان يقوم به من يسمى hydrophylax الذى من واجبه أن يراعى ما إذا كانت القرية حصلت على نصيبها المقرر لها من مياه فيضان النيل ، فهو يتولى منصبه سخرة ، على حين أن حراس الحقول يتقاضون عن خدماتهم أجوراً(١٤٢) .

أما السخرة المعروفة باسم munera sordida كالعمل فى تطهير القنوات وإقامة الجسور ، فلم يرد عنها إشارة فى الوثائق على أنها من أعمال السخرة ، غير أن إغفالها ليس دليلا على إعفاء الفلاحين منها ، فيذكر مؤرخو العرب السخرة فى مصر بعد الفتح ، والراجح أن المسلمين أخذوا هذا النظام عن البيزنطيين(١٤٣) .

ومن المعروف أن الحرف المختلفة انتظمت فى نقابات ، وانتقلت العضوية فى هذه النقابات من الأب إلى الإبن ، واستخدم الرومان نظام الحرف على أنه وسيلة ناجحة لجمع الضرائب وتقرير الإلتزامات . والمعروف أن كل عامل يدفع من الضريبة التى قررتها الحكومة ، ما يدفعه سائر العمال(١٤٤) دون الالتفات إلى القدرة على الإنتاج . وليس من المحقق أن الرهبان الذين يؤدون أعمالا دنيوية فى الأديرة جرى إعفاؤهم من الضريبة(١٤٥) .

وليس ثمة ما يدل على أن ضريبة الميراث كانت تجبى فى العصر البيزنطى ، بينما تقرر زمن فالنتنيان الثالث ضريبة موحدة على المبيعات فى سائر أنحاء الإمبراطورية . أما المكوس فجرت جبايتها فى الموانىء عند وصول المتاجر إليها ، وتقرر تحصيل ١٢½ ٪ من أثمانها . وتقررت ضريبة تصدير على الفخار ، لموازنة خراج الإسكندرية زمن أنستاسيوس غير أنها ألغيت زمن جستنيان(١٤٦) .

الفصل الخامس

التنظيمات الحربيـــة

اختلفت الخصائص الأساسية للنظام الحربى الذى نشأ فى القرن الرابع ، عن تلك التى اختص بها النظام الحربى زمن العصر الأول من الإمبراطورية ، بما حدث من تأليف جيش نظامى ، ينتقل فى يسر وسهولة من موضع إلى آخر ، و بما جرى من انفصال قوة الفرسان عن قوة المشاة ، واعتبارهم قوة مستقلة ، و بما حدث من تصغير أو تقليل حجم الفرق العسكرية[١] .

ذلك أن دقلديانوس ، ومن بعده قسطنطين ، أقام جيشاً يستطيع الإمبراطور أن يحركه إلى أى مكان من ممتلكاته ، يتعرض لخطر من الأخطار ، على حين أن أطراف الإمبراطورية تولى حمايتها فى نفس الوقت ، جيوش ترابط فى أقاليم الحدود . و بذلك تألفت القوى العسكرية من فئتين أساسيتين : الجيش النظامى، المعروف باسم comitatenses ، والذى يدل على أن هـذا الجيش يصحب الإمبراطور فى تحركاته ، وأن الإمبراطور يتولى القيادة فى كل الحروب الهامة ، ومن ثم تعتبر هذه القوات حاشيته وأتباعه comitatus [٢] ، و يطلق هذا الاسم على المشاة legiones والفرسان معا vexillationes[٣] . وفى أواخر القرن الرابع الميلادى ، صار يدخل فى نطاق الجيش النظامى قوتان اشتهرت إحداهما باسم pseudo - comitatenses ، واشتهرت الأخرى باسم palatini ، التى تعتبر من خيرة الفئات التى يتألف منها الجيش النظامى ، واحتفظت بما للحرس الإمبراطورى من صفات خاصة، و يرابط معظمها بجوار القسطنطينية أو فى إيطاليا . والمعروف أن القوات النظامية كانت أعلا مكانة من الجند المرابطين على الأطراف الخارجية للإمبراطورية ، يضاف إلى هاتين القوتين جماعات من المشاة اشتهروا

باسم القوات المساعدة auxilia التى جرى تجنيدهم أساساً من غاله، ومن الفرنجة وسائر المتبربرين الجرمان. ومن المشاة أيضاً فرق صغيرة يبلغ عدد الفرقة الواحدة ألف رجل على حين أن عدد أفراد الفرقة من الفرسان لم يتجاوز خمسمائة فارس[٤].

أما الفئة الثانية من الجيش الرومانى ، فهى المعروفة باسم جيش الأطراف (الحدود) limitanei الذى يرابط على أطراف الإمبراطورية ، ويقوم الجند بزراعة الأرض الواقعة على امتداد الحدود terrae limitaneae ، ويحوزونها على أنها نوع من الإقطاع الحربى ، ويرث أبناؤهم هذه الإقطاعات عند دخولهم فى الخدمة الحربية[٥] .

ومن العسير تقدير قوة الجيش الرومانى زمن دقلديانوس وقنسطنطين، وماورد من الإشارات عن تقدير عدد المشاة بنحو ٢٥٠ ألف ، وعدد الفرسان بنحو ١١٠ ألف وذلك فى جيش الأطراف ، وماحدث من تقدير الجيش النظامى بنحو ١٥٠ ألف (المشاة) ، ٤٦ ألف للفرسان ، كل ذلك يعتبر موضع شك، ولا يخلو من المبالغة فى التقدير[٦] ؛ ذلك أن عدد أفراد الفرقة الرومانية أخذ يتضاءل ، فالمعروف أن الفرقة الرومانية كان يبلغ عددها قديماً من ٦ آلاف إلى ١٠ آلاف جندى ، وكان يتولى أمرها قائد legatus . غير أن عدد الفرقة لم يتجاوز أواخر القرن الرابع ، ألفين أو ألفاً من الجند . وانقسم جيش الأطراف إلى وحدات ، يبلغ عدد الوحدة منها ١٠٠٠ رجل (تقابل ما كان معروفاً من قبل باسم cohort) .

وإلى جانب الفئتين السابقتين ، نشأت فئات جديدة يصح أن تعرف باسم قوات الحرس الإمبراطورى . فالمعروف أنه سار منذ أوائل عصر الإمبراطورية الإجراء الذى يقضى بأن يحيط بالإمبراطور حرس من المقربين ،وكان مؤلفاً من المتبربرين ولا سيما من الجرمان ، واتخذ أغسطس هذه القوة . ثم نشأ من جديد قوة من الحرس ، اتخذت اسم protectores divini lateris ،واشتملت

على جرمان ورومان من مختلف الطبقات العليا والدنيا . ثم أضاف إليها دقلديانوس فئة جديدة تألف شطر منهـا من المشاة ، وشطر منها من الفرسان ، وتعتبر القوة المختارة corps d'élite وجرى استخدامها لتدريب القادة . والتحق بهذه الفئة أبناء الضباط ، وأفراد من مختلف الطبقات انتقلوا إليها من الجيش النظامى ، وطائفة من أبناء الأسرات الشريفة الموسرة . واتخذت هذه الفئة اسم domestici أى خواص الإمبراطور ، ويرابط أفرادها بالقصر الإمبراطورى ، حتى يتيسر للإمبراطور التعرف إلى الأشخاص الذين سوف يختار منهم رجال القيادة، ولاسيما القيادات الهامة بالجيش النظامى ، ويعهد إليهم الإمبراطور أحيانا القيام بتأدية أعمال خاصة خارج العاصمة. وأفراد هذه الفئة يزيدون فى المكانة على الجندى العادى ، بما لهم من وضع خاص ، وبما صارلهم من امتيازات وأجور خاصة، بل ويضارعون فى بعض الأحوال أفراد الطبقة المدنية من ذوى المناصب العليا ، بمالهم من مكانة ملحوظة(٧) . وتخضع هذه القوة لقيادة كونتات comes domesticorum ويعتبرون مستقلين عن مقدم العساكر Magister militum(٨) .

ومن فرق الحـرس ، الفرقة التى أنشأها قسطنطين ، واتخذت اسم Soholae palatinae وهى مؤلفة من عناصر رومانية ومتبربرة ، وجرى فصلها عن الجيش النظامى، وصارت تخضع لرئيس الدواوين Magister officiorum؛ ويرتبط بالاسكلارية فئة أخرى من الحرس اشتهرت باسم candidati وذلك لما يرتديه أفرادها من حلة بيضاء(٩)* .

(٩*) المعروف أن اسم مدرسة schcla ، إنما اقترن بالفلاسفة اليونانيين الذين كانوا يلقون دروسهم لجماعات الطلاب فى السقائف بأثينا particoes وجرى إطلاق هذا اللفظ على حرس قسطنطين ، لأنه أعد لهم سقيفة بالقصر الإمبراطورى ، حيث يقضوا وقت فراغهم فى دعة وخول ، إلى أن يتلقوا الأوامر من الإمبراطور . وكان بالقسطنطينية سبع طوائف من الإسكلارية ، اشتملت كل منها على ٥٠٠ من الرجال الأشداء ، ويتولى قيادتهم تريبون ، الذى كان عادة من كونتات الطبقة الأولى . انظر Bury : op. cit. p. 37. Camb. Med. Hist. I. p. 46.

http://www.al-maktabeh.com

وأنشأ قسطنطين منصبين رئيسيين ، أحدهما خاص بقيادة المشاة ، والآخر يتعلق بقيادة الفرسان ، غير أن قائديهما يخضعان للإمبرطور ، وتقضى طبيعة العمل بأن يعتمد أحدهما على الآخر . على أنه جرى فى بعض الأحوال ، أن توليا أثناء غياب الإمبراطور أمر القيادة العليا . ولم يلبث قائدا الفرسان والمشاة أن صارا تحت قيادة شخص واحد . ثم حدث فى النصف الثانى من القرن الرابع الميلادى، أن انقطعت الصلة بين القائدين و بين الإمبراطور ، فصارت القيادة من اختصاص الدوقية المعرضة للخطر ، وصار للقادة السلطه على كل من يخضع لهم ، لا فى الأمور العسكرية فحسب ، بل فى الجرائم والإجراءات المدنية(١٠)* .

ظلت الفرق الرومانية تتألف من المواطنين الرومان ، غير أنه منذ أن تقرر فى أوائل القرن الثالث ، منح حق المواطنة لكل سكان الولايات الرومانية ، زالت التفرقة بين المواطنين والرعايا ، ولم تعد الفرق الرومانية من المشاة والفرسان المؤلفة من المواطنين لها أهمية أو مكانة ممتازة ، بل كانت القوات المساعدة المرابطة على أطراف الدانوب ، والتى يتألف معظمها من العنصر المتبربر ، أرقى مكانة من القوات التى تتألف منها الفرق الرومانية ، والخاضعة لنفس القيادة(١١) . و بذلك تقرر إلغاء المبدأ الذى يقضى باستبعاد الأجانب من الخدمة ، وجرى التخلى أيضاً عن المبدأ الذى يفرض الخدمة الحربية على المواطنين الرومان ، فلا يجوز إرغام أحد الرعايا الرومان على الخدمة العسكرية ، إلا فى حالة الدفاع عن مدينته عند تعرضها للخطر(١٢) . أما المبدأ الذى يقضى بألا يدخل فى الجيش إلا الأحرار فظل باقياً على ما هو عليه ، غير أنه لم يتم تطبيقه ، والراجح أنه لم يلتحق بالجيش الرومانى إلا عدد قليل من الرقيق .

(١٠*) صار يطلق لقب القومس comes على قادة أربعة مناصب حربية كبيرة ، قائد المشاة، وقائد الفرسان ، وقائد الخواص من المشاة ، وقائد الخواص من الفرسان.

Cam. Med. Hist. I. p. 47.

Bury : op. cit. p. 39.

من ذلك يتبين لنا أن المجندين ينتمون إلى أربع فئات .

١ — عدد كبير من المقامرين ، من الرومان أو الأجانب ، الذين يتقدمون من تلقاء أنفسهم للقائد المكلف بتجنيد العساكر ، فيحصلون منه على شهادة تدل على قبولهم pulveraticum .

٢ — فئة من المجندين ، يجمعهم كبار الملاك من بين فلاحيهم ، ويتقدمون بهم إلى قائد التجنيد . ويعتبر ذلك من الإلتزامات المقررة على الضياع فى بعض الولايات .

٣ — المعروف أن ابن الجندى ملزم بأن يتخذ حرفة أبيه ، غير أن هذه الخدمة الوراثية بطلت قبل زمن جستنيان .

٤ — تعتبر منازل أو مواطن المتبربرين الأجانب ، التى تقع داخل الحدود الإمبراطورية ، من مصادر التجنيد العسكرى . فهؤلاء الأغراب الذين استقروا فى الإمبراطورية ، على الرغم من أنه ليس لهم من الحقوق الشخصية ما للرومان ، كان معظمهم من الجرمان أو السارماتيين ، وجرى تنظيمهم فى جماعات تخضع لسلطة قادة من الرومان(١٣) .

وإذ غلب على الجيش الإمبراطورى الصفة الديمقراطية ، ارتقى العسكرى — أيا كان أصله ونسبه — فى سلك الجيش ، حتى يصل بكفايته إلى رتبة قومص(١٤) .

ومن التغييرات الهامة فى تركيب الجيش، ما ترتب من نتائج على معركة أدرنة سنة ٣٧٨ من انتصار الفرسان الجرمان الساحق على الفرق الرومانية من المشاة ، إذ أدرك الأباطرة ما للفرسان من أهمية ، ولا سيما بعد أن دلت التجربة التى قام بها الإمبراطور تيودوسيوس على أهمية هذا السلاح ، بعد استخدامه الفرسان ، الذين بفضلهم أحرز انتصاراته . وإذ تحتم على الرومان بعد تيودوسيوس أن يدافعوا عن

أقاليمهم ضد الجرمان الشرقيين، إزدادت أهمية الفرسان ، على حين أن المشاة تضاءل شأنهم.(١٥) وانعكست هذه الثورة فى الخطط الحربية على التنظيم الحربى ، وترتب عليها ما تم من تغيير فى نظام الفرق الرومانية ، ومن التغييرات الأخرى ، ما كان من ازدياد أهمية الرماة ، وذلك نتيجة الحروب التى خاضها الرومان فى الشرق ، فدخل هذا السلاح فى الجيش الرومانى(١٦) .

على أن روما لم تعتمد فحسب على قواتها النظامية فى حماية حدودها ، بل أفادت أيضاً من مساعدة الإمارات الصغيرة المحالفة لها federate states ، إذ أن أمراء هذه الإمارات ارتبطوا بمعاهدة تحالف معينة foedus التزموا بمقتضاها على أن يدافعوا عن أنفسهم ، و بذلك يدافعون عن الإمبراطورية ضد العدو الخارجى فى مقابل الحصول على حماية الإمبراطورية ، والإعفاء من الأتاوة المقررة عليهم ، واشتهر هؤلاء الأمراء بالمحالفين foederati

ثم اتخذ العهد صفة أخرى ، إذ أضحى الأمير التابع (المعاهد أو المحالف) يتلقى من الإمبراطور مبلغاً معيناً من المال فى السنة ، على أنه أجور الجند الذين تعهد بإحضارهم إلى المعركة . ومن هؤلاء المعاهدين الأنجار واللاظ بالقوقاز، والعرب على نهر الفرات ، والأحباش على أطراف مصر الجنوبية . وعلى أساس تعاهد من هذا القبيل ، أنزل تيودوسيوس (فى القرن الرابع) القوط بالجهات الواقعة جنوب نهر الدانوب (١٧) .

وفى القرن الخامس ، تألفت فئة جديدة من العساكر ، اتخذت أيضاً اسم المعاهدين foederati يجرى اختيار عساكرها من العناصر الأجنبية عادة ، وتتولى الحكومة دفع مرتباتهم ، و يقودهم قادة من الرومان ، وصاروا يؤلفون قطاعاً خاصاً فى النظام الحربى ، وأضحوا فى القرن السادس من أشد العساكر قوة، وأكثرهم أهمية فى الجيش الإمبراطورى(١٨) .

وثمة فئة أخرى من المحاربين ، لعبت دوراً كبيراً فى حروب القرن السادس، واشتهرت باسم البقلار أى الأتباع ؛ إذ دأب كبار القادة بل كبار المدنيين أيضاً ، على أن يؤلفوا لأنفسهم حاشية مسلحة أو حرساً خاصاً ، واتخذ هؤلاء العسكر اسم البقلار[١٩]. وعلى الرغم من أن هذه القوات العسكرية الخاصة تعتبر غير قانونية وأن الأباطرة حرموا استخدامها ، فإن هذا الإجراء شاع استعماله، وتوقف عدد الأتباع على ثروة السيد الذى لجأ إلى تأليف حرس خاص له ، كما اتخذ صغار القادة أيضاً أتباعاً مسلحين[٢٠].

والمعروف أن السلطة فى الولايات اقتسمها أغسطس مع مجلس الشيوخ أو السناتو ، وأن مصر كانت من الولايات الخاضعة لسلطة الإمبراطور ، وأنه كان حريصا على ألا يسمح لأحد من طبقة السناتو أن يدخل مصر دون تصريح خاص منه، وذلك لما لمصر من أهمية خاصة من حيث كونها مستودعاً للغلال فى الإمبراطورية،ومن حيث نزوع أهلها إلى مقاومة الدولة الحاكمة . واشتداد الحاجة إلى حفظ الأمن تتطلب إقامة حامية عسكرية قوية بها ، لذا وضع أغسطس بها مالا يقل عن ثلاث فرق رومانية ، فضلا عن القوات المساعدة الملحقة بها auxilia . ثم أمر تيبيريوس الذى خلف أغسطس فى الحكم ، بسحب فرقة من الفرق ، بعد أن تبين أن الحاجة ليست ماسة إلى هذا الجيش الضخم ، نظراً لسهولة الدفاع عن مصر[٢١*].

(٢١*) كان الجيش الرومانى يتألف فى عصر الإمبراطورية من فرق ، بلغ أقصى عدد لها فى وقت من الأوقات ٣٠ فرقة (١٥٠ ألف جندى) ، ولم يكن يجند فيها سوى المواطنين الرومان ، وكانت الفرقة الواحدة ، تشمل ما بين ٥٠٠٠ ، ٦٠٠٠ جندى ، وتنقسم الى كتائب ، تسمى كل منها (cohors) ، وتشمل حوالى ٦٠٠ رجل . وتنقسم الكتيبة الى ٦ سرايا ، كل سرية منها تشمل ١٠٠ رجل وتعرف باسم centuria . أما القوات المساعدة anxilia فتألفت من كتائب من المشاة وآلايات من الفرسان ، كل منها يشمل ما بين ٥٠٠ =

http://www.al-maktabeh.com

لم يختلف الجيش الإقليمى فى تكوينه عن الجيش الأساسى للإمبراطورية ، ونستطيع أن نتبين فيه الفئات الثلاث الأساسية فضلا عن الأتباع :

فالفئة الأولى ، المعروفة باسم comitatenses يعتبر أفرادها من خيرة الجند، ويمثلون أحسن ما تبقى من آثار الجيش الرومانى ، والمعروف أن أفرادها يجرى تجنيدهم بطريق الإلزام ، أو التطوع، أو بالوراثة (إذ أن أبناء المسرحين يجرى اثباتهم وإلحاقهم بالفرق التى كان آباؤهم ينتمون إليها) . وترتب على التطوع ، أن دخل فيها عناصر متبربرة(٢٢) .

وإلى جانب هذه الفئة توجد فئة أخرى من الجند ، ترابط على الحدود ، وهى المعروفة بجيش الأطراف ، ومهمتها حراسة الحدود والقلاع ، ويعيش أفرادها على الأراضى الزراعية الواقعة على الحدود بشرط ألا يغادروها . ومن المحقق أن هذا النظام جرى تطبيقه فى أفريقية عقب هزيمة الوندال زمن جستنيان .

أما النوع الثالث من الجيوش فهو المعروف بالمعاهدين ، وهم من عناصر

= أو ١٠٠٠ رجل تحت إمرة قائد ، وكان أفرادها يجندون من بين رعايا الولايات ، لا من المواطنين . وقدر عدد رجالها جميعاً زمن أغسطس بحوالى ١٣٠ ألف ، وفى القرن الثانى بحوالى ٢٢٥ ألف . ولا نعرف على وجه التحقيق عدد الكتائب والآلايات المساعدة التى كانت مرابطة فى مصر ، نظراً لتغيير هذا العدد من حين لآخر (انظر بل : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، الترجمة العربية ص ١٢٩) . على أن أغسطس عمل على تخفيض عدد القوات المرابطة بمصر ، بعد أن استقرت الأمور ، وهدأت الأحوال ، وارتد الأحباش على أعقابهم . فصار بمصر ثلاث فرق وتسع كتائب من القوات المساعدة ، وثلاث آلايات من الفرسان ، ولا يزيد مجموع عددها على ٢٣ ألف رجل . ومن هذه القوات ، رابطت فرقة بالإسكندرية ، وأخرى عند رأس الدلتا (بابليون) ، أما الثالثة فالراجح أنها رابطت إما فى قفط أو فى طيبة . ومن الكتائب رابطت ثلاث بالإسكندرية ، وثلاث فى سيين (أسوان)، وثلاث فيما تبقى من الإقليم ، ولعل المقصود بذلك مصر الوسطى ، ولم ترد إشارة إلى مواضع الفرسان . انظر : Bell : Egypt under the Early Principate
C. A. H. vol. 10. ch. X. pp. 243—244.

متبربرة ، وانحاز إليهم كل المقامرين الوافدين من خارج حدود الإمبراطورية ، ويتولى قيادتهم قادة معينون من قبل الإمبراطور[٢٣].

ومن المأجورين أيضا الفئة المعروفة بالبقلار ، التى سبق الإشارة إليها ، ويعتبرون جنداً خاصا لكل من يقوم على دفع رواتبهم وإعاشتهم . وهؤلاء الجند على نوعين : فئة تنتمى إلى كبار موظفى الإمبراطورية ، أمثال دوقات الأقاليم وقادة الجيش . أما الفئة الأخرى فتؤلف جنداً خاصا لبعض الأفراد ، ولم يكن لهؤلاء صلة بالجيش غير أنه يحدث أحيانا أن يقدم سيد هؤلاء الأفراد بعرض خدماتهم على الدولة فى مقابل أجور خاصة ، فيسهمون بذلك فى الدفاع عن الإمبراطورية[٢٤].

هذه الفئات جميعها كانت ممثلة فى الجيش البيزنطى المرابط بمصر ، ففيما يتعلق بالجيش النظامى comitatenses تشير البرديات إلى الحاميات المرابطة فى بعض مدن الأقاليم ، أمثال السيزيين Scythians فى Apollônopolis ، والمقدونيين فى Antaiou ، والداسيين فى أرسينوى ، والايسوريين فى الإسكندرية . والواقع أن هذه القوات ، إنما جرى انتزاعها من الجيش الإمبراطورى ، وتقرر إنزالها بهذه المواضع . على أن ما ارتبط بهذه الحاميات من أسماء ، لا يدل على أن هؤلاء الجند يرجع أصلهم إلى هذه العناصر ، إذ أن هذه الأسماء جرى إطلاقها منذ العصر الرومانى حينما ساد استخدام العناصر المتبربرة ، وبعد أن اتخذت مواضعها فى سائر جهات الأقاليم ، فظل الإسم عالقا بالحاميات على الرغم من تغيير نظام التجنيد ، فالمعروف أن الجند جرى تجنيدهم بأن يقدم كل مالك عدداً من الجند يتفق مع مساحة أراضيه ، أو عن طريق التطوع أو الوراثة . ومعنى ذلك أن سكان كل إقليم هم الذين يؤلفون القوة المرابطة به أو

الجانب الأكبر منها ، ومن ثم كان الجيش المرابط بمصر ، يتألف معظمه من المصريين [(٢٥)*].

وإذ كان القتال هو المهنة الأساسية للجندى ، تحتم عليه أثناء أزمنة السلام ، المضى فى ممارسة استخدام السلاح تحت إشراف قائده ، وحرم القانون أن ينصرف الجند عن مزاولة استخدام السلاح ، وقضى بألا يعملوا لحساب فرد من الأفراد ، وألا يعملوا فى التجارة ، وألا يقوموا بتأجير أراضيهم .

وهذا الإجراء الأخير كان سائدا فى مصر ، إذ أن بعض الجند صاروا ملاكا ، إما عن طريق الوراثة أو بوسيلة من الوسائل . مثال ذلك فيكتور ، من أفروديتو ، جرى تجنيده من بين البربر النازلين فى هرمو بوليس ، وكان يملك فى مسقط رأسه دارا ، وقطعة أرض لم يكن يستغلها بنفسه ، إنما كان يستأجر من يقوم على زراعتها . على أن بعض الجند مارسوا من الأمور المدنية ما طغى على حياتهم الحربية [(٢٦)**].

(٢٥*) سبق الإشارة إلى أن موظفاً خاصاً تولى الإشراف على عملية التجنيد ، وهذا الموظف هو المعروف باسم epimèléte ، ومتى تقررت صلاحية المجند للخدمة العسكرية ، تحتم عليه أن ينسحب من كل أعماله . ويجرى التجنيد عادة فى مواطن المتقدمين للجندية ، على أن الأمر النهائى يتوقف على موافقة الدوق . ومتى تم اختيار المجندين تقرر توزيعهم على سائر الحاميات بالإقليم ، وعندئذ تحرر لكل مجند شهادة probàlàra تدل على تجنيده ، وتوصى بإثبات اسمه فى سجل الكتيبة التى حل بها . انظر : Maspero pp. 47—55.

(٢٦*) ومن ذلك أن جنود حامية سيين والفنتين وفيلة ، كانوا يقومون بأعمال حربية ومدنية . فكان لبعضهم سفن ، تستخدم فى أغراض مدنية . وكانت سيين مقر فئة بحرية ، وأهل أفرادها كانوا يقومون بأعمال النقل بين سيين وفيلة عبر الجنادل . ومن قبيل ذلك أيضاً ، ما جرى فى أرسينوى من أن جندياً استأجر جانباً من إحدى الدور ، واستخدمه مخبزاً . وعلى الرغم من القوانين ، صار من المألوف أن يملك الأجناد أراضى ودوراً ، خارج المدن التى ترابط بها حامياتهم ، وأن يمتهنوا حرفاً مدنية . ومن الطبيعى أن يكون ذلك من عوامل ضعف الجيش بمصر Maspero p. 56. — 57.

والمعروف ، من الناحية النظرية ، أن الخدمة العسكرية كانت تمتد إلى أن يبلغ عمر الجندى أربعين سنة ، كما جرت العادة بذلك فى سائر أنحاء الإمبراطورية. فإذا جاوز هذا الحد من العمر ، تقرر إعفاؤه من الخدمة ، وصارت له امتيازات وحقوق خاصة ، مثل الإعفاء من الضرائب والإلتزامات البلدية [٢٧] .

وما أصدره الإمبراطور انستاسيوس ، فى مستهل القرن السادس الميلادى ، من مرسوم إلى دانيال ، حاكم بنتابوليس يوضح بعض الأمور الهامة المتعلقة بالإدارة ، لا سيما ما يرتبط منها بحقوق وواجبات الجند المرابطين بهذا الإقليم .

وهذا القرار يشرح لنا الوضع الحربى فى بنتابوليس ، وتضمن المرسوم فئتين من الجند : الجند النظاميين بالجيش ، والجند الفلاحين (جيش الأطراف limitanei) الذين يحصلون من الحكومة على أراضى على الحدود مقابل الدفاع عنها . على أن الإشارة إلى هؤلاء الجند الفلاحين ، الذين تركزوا حول القلاع ، إنما يدل على وجود حدود limes [٢٨*] .

(٢٨*) ترتب على الحروب التى نشبت بين قوات الاحتلال الرومانى فى مصر ، وبين الأحباش زمن أغسطس ، أن تقرر احتلال المنطقة المعروفة باسم دوديكاشونيون Dodekashonion الممتدة من سيين حتى قرب حلفا ، وخضعت من الناحية الإدارية للاقليم الذى يقع فى أقصى الجنوب ، وتحميها سلسلة من القلاع الحربية المنيعة ، التى منعت انتهاك الحد الجنوبى حتى منتصف القرن الثالث الميلادى ، وبذلك نشأت منطقة الأطراف الجنوبية ، وتعتبر الصحراء الشرقية ، والصحراء الغربية من الحدود الطبيعية لمصر ، فلم تكن لغارات القبائل النازلة بها من الخطورة ماتدعو إلى تعكير صفو السلام.

أما الدلتا فهى عبارة عن مثلث ، تشمل رءوسه الإسكندرية ، وبابليون والفرما ، (بيلوزيوم) ، وتتصل هذه الرءوس بفروع من النيل وبالقنوات وبشبكة من الطرق . وتعتبر الإسكندرية قاعدة برية بحرية ، وازدادت أهميتها بمضى الزمن . أما أهمية حصن بابليون ، فترجع إلى أنه يسيطر على المواصلات بين الدلتا والصعيد ، ولبيلوزيوم مكانة كبيرة لاحتلالها موقعاً برياً خطيراً ، إذ رابطت بها حامية عسكرية ، وجرى تشييد قلاع على امتداد الطريق الساحلى المؤدى إلى سوريا ، لمنع غارات العرب . ولا شك أن القلاع الحربية التى رابطت بها قوات من الفرق الرومانية أو الكتائب المساعدة ، لم تلبث أن جرى تشييدها على =

غير أن المرسوم ينطوى أيضا على قدر من التفاصيل المتعلقة بنظامهم . إذ أن من واجبهم حراسة الطرق ، وملاحظة القبائل المتمردة ، ومنع الرعايا الرومان من أن يهربوا إلى بلاد البربر إلا بعد الحصول على إذن من الدوق . فرابط الجند الفلاحون على امتداد الحدود ، التى قامت عليها قلاع متقاربة (٢٩) . والراجح أن ماحدث فى ليبيا من إقامة جيش حدود أو أطراف ، جرى أيضا فى الأطراف الشرقية والجنوبية (٣٠)* .

والمعروف أن الخدمة فى جيش الأطراف كانت وراثية ، إذ أن جند الأطراف كانوا يخدمون فى الجهات التى يقيمون أو ينزلون بها ، و يجرى تجنيدهم بانتظام ، فكل مجند يصير إثبات اسمه فى سجل الفرقة ، بناء على مايحمله من أمر

= الحافة الشرقية للدلتا ، على الطريق الذى يربط الفرما ببابليون ومنف عن طريق النيل ، وهيروونبوليس Heroonopolis ، وعلى الطريق الممتد من الفرما إلى القلزم مجتازاً سيرابيوم ، وتقرر أيضاً إقامة حصون متباعدة فى برقة . ولما هدأت الأحوال تقرر سحب الحامية المرابطة فى بابليون وحلت مكانها كتائب من القوات المساعدة ، فصار عدد الجيش الرومانى لايتجاوز ١٧ ألف مقاتل ، على أنه حدث بعدئذ أن رابطت حاميات فى مواضع معينة فى وادى النيل ، لأهميتها ، مثل هرمو بوليس (الأشمونين) ، وقفط (نظراً لما يرد إليها ويخرج منها ، من السلع التى تصل إلى موانىء البحر الأحمر) . وما يصل إليها من منتجات المناجم والمحاجر بالصحراء الشرقية ، ومثل الحاميات التى رابطت بالقلاع المشيدة على جانبى النهر جنوب طيبة . (انظر Bell : op. cit. pp. 243—246.

(٣٠*) ما استخدمه البيزنطيون من نظام للدفاع عن مصر ، يتلخص فيما يأتى ، على امتداد الصحراء الليبية والصحراء العربية ، لم يوجد من التحصينات ، سوى ما أقامه سكان البلاد فى جهات متفرقة ، من أبراج للحراسة ، ومن الأسوار المرتفعة لمراقبة القادمين نحو الوادى ، أما فى الجنوب ، حيث تتعرض البلاد لغارات النوباد ، فإن ما اشتهر به الجزء المأهول من ضيق المسافة ، أسهم فى اختصار أسباب الدفاع ، غير أنه كان فى فيلة والفنتين وسيين ، من الحصون والقلاع ما يؤلف ثغراً لمنع الغارات الموجهة إلى داخل البلاد . وفى الشمال الشرقى ، والشمال الغربى ، قام ما هو معروف بالحدود limes ، إذ جرى تشييد خط من القلاع ، ثم حدث بعدئذ إنشاء حصون منيعة . وفى الداخل انتشرت المواضع الحصينة ، التى يتخللها القلاع ، لوقف تقدم الغزاة من جهة ، والقضاء على الثورات الداخلية من جهة أخرى . Maspero : op. cit. p. 42.

من قبل السوق ، وهذا الأمر هو المعروف باسم Probaloria ، على أن يخصص الجند جانبا من وقتهم لممارسة التداريب الحربية .

على أنه لم يرد إلا النذر اليسير فى البرديات والمصادر التاريخية ، عن جيش الأطراف والمعاهدين foederati وما حدث من الإشارة إلى هؤلاء المعاهدين ، إنما تنطوى على انحياز مقدم المتبربرين ، فى زمن متأخر (جستنيان) إلى الجماعة التى تقدمت للإتصال ببطريرك الإسكندرية الخلقدونى ، للتوسط فى إعادة الدوق الأوجستالى حنا إلى منصبه بمصر ، لما اشتهر به من السيرة الطيبة ، وحرصه على نشر العدل بين الناس ، ومراعاة مصالحهم.[٣١] ووجه الأهمية فى هذه العبارة : أنه كان بمصر وقتذاك فئة من المعاهدين ، غير أنه من العسير أن نتبين الدور الذى قام به هؤلاء المعاهدون فى مصر . أما المحالفون الذين يمثلون الشعوب أو الأقوام المجاورين للإمبراطورية وتعهدوا بمقتضى المعاهدات أن يقدموا للدولة عددا معينا من الجند للإشتراك فى الحروب ، ويتولى قيادتهم جماعة منهم فإنما يمثلهم النوباد على الطرف الجنوبى لمصر ، وظل الأباطرة البيزنطيون يدفعون لهم ما قرره دقلديانوس لهم من الإعانات ، حتى يخلدوا للهدوء والسلام ، ولكى يدافعوا عن الحدود ضد غيرهم من المتبربرين[٣٢] . ومن حلفاء الدولة البيزنطية، فى غرب مصر ، قبائل البدو المعروفين بالمازيك maziques فعلى الرغم من عدم وجود إشارات تدل على أنهم كانوا حلفاء ، فإن الدولة أفادت من مساعدتهم الحربية[٣٣] .

وما يتعلق بالجيوش الخاصة المعروفة بالبقلار Bucellarii ، إنما تتمثل فيما اتخذه ملاك الأراضى لأنفسهم من حرس خاص ، مؤلف من الجند المأجورة ، وفيما لجأ إليه بعض المغامرين من تأليف جماعات مسلحة ، يصح أن تكون عند الحاجة قوى نظامية . وقد أشارت بعض البرديات إلى طوائف من المأجورين انحازت بصفة دائمة إلى الجيش النظامى ، فتقاضوا بذلك ماهو مقرر لهم من الرواتب والجراية[٣٤] .

http://www.al-maktabeh.com

وعلى الرغم من أن الأمن والسلام توفرا لمصر منذ منتصف القرن الخامس إلى أوائل القرن السابع الميلادى ، فإن الحكومة الإمبراطورية لم يسعها إلا أن تقيم فى البلاد قوة وفيرة العدد لحفظ الأمن ، والقضاء على ما تعرضت له من غارات المغيرين من أجل النهب. يضاف إلى ذلك مالهذه القوات من أهمية فى جباية الضرائب وفى حفظ الأمن داخل البلاد ، لاسيما بعد أن أدت المنازعات الدينية إلى المظاهرات والثورات . وكان لزاما على الحكومة أيضا أن تظهر مالها من السيادة المطلقة فى أمر مصر ، إذ كانت تعتمد اعتمادا كبيرا على مصر ، فيما تحصل عليه من القمح لغذاء أهل القسطنطينية ، ذلك أن أى اضطراب بالعاصمة إنما يؤدى إلى نتائج وخيمة فى سائر أنحاء الإمبراطورية . هذه الأسباب كلها تكفى للتدليل على حرص الحكومة المركزية على أن يكون لها بالقطر المصرى جيش قوى التنظيم ، وعلى ما لهذا الجيش من صفة خاصة[٣٥] .

الفصل السادس

تنظيمات جستنيان

سبق الإشارة إلى ما تعرضت له النظم الإدارية والمالية من تغيير وتعديل ، عند تطبيقها من الناحية العملية ، فما حدث من انقسام مصر إلى أقسام إدارية بالغة الصغر ، أضعف المبدأ الذين يدين به دقلديانوس الذى يقضى بالفصل بين السلطتين المدنية والعسكرية . وما حدث فعلا من اغتصاب القادة العسكريين للوظائف المدنية ، أضحى حقيقة ملموسة . وما أظهرته التجربة من مساوىء نظام دقلديانوس ، وما يتطلبه من استخدام الشدة والعنف أدى منذ القرن الخامس ، تحت ضغط أحوال سيئة ، إلى الإلتجاء إلى جمع السلطتين المدنية والعسكرية فى يد الوالى الأجستال بمصر ، الذى يعتبر فى الوقت نفسه قائد الجيش. وهذا التغيير أيضاً ، جعل السلطتين المدنية والعسكرية فى يد الوالى ، كما كان الحال فى طيبة العليا ، التى اتخذ واليها لقب الوالى الأوجستال ، وذلك بسبب موقعها ، وتعرضها باستمرار للغارات من قبائل الصحراء[١] .

وما حدث من تنظيم الأقسام الإدارية ، عند إعتلاء جستنيان العرش ، لم يكن إلا نتيجة لما أصاب إصلاحات دقلديانوس من تعديلات متتالية . وعلى الرغم من أن هذه التعديلات والتغييرات إنما تبين ما بذلته الحكومة المركزية من جهود لإقامة نظام إدارى صالح بمصر ، فإن ما كان جاريا فعلا من ممارسة الشئون المالية والقضائية ، أوائل القرن السادس الميلادى ، يدل على أن الحاجة لا زالت ماسة إلى الإصلاح[٢] .

والواقع أن ما ارتفع من الأقاليم من الشكاوى، وما تكرر إصداره من الأوامر

الإمبراطورية ، ليس إلا دليلا على أن كل ما جرى من محاولات للإصلاح فى القرنين الرابع والخامس لم تؤد إلى نتيجة طيبة[٣] .

فعلى الرغم من التغييرات التى جرت فى النظم القضائية فى القرن الرابع ، لا سيما ما حدث من جعل السلطات القضائية فى أيدى موظفين إداريين ، فإن العدالة لم تتحقق لسائر سكان القطر المصرى . فتضمنت الدساتير إشارات عديدة ، لما تعرض له الشاكون من ألوان العنت ، إذا لم يكن لهم مسند أو مدافع عن حقوقهم . وأشار جستنيان إلى ما اشتهر به القضاة من الفساد والرشوة ، ولم تمتد سلطة القوانين إلى الأقوياء والأغنياء ، وبذلك وقعت مصر ضحية لقضاء فاسد بغيض[٤] .

أما النظام المالى ، لا سيما ما يتعلق منه بالضرائب ، فكان من المشاكل بالغة التعقيد ، فالخزائن خاوية من المال ، واشتدت الحاجة إليه ، ولما تولى جستنيان العرش ، لم تكن النظم المالية إلا ما أجراها مصلحو القرن الرابع الميلادى ، من حيث تعديل نظم الضرائب ، وطرق جبايتها ، والمسئولين عن الجباية . ومع ذلك لم ينجح النظام المالى فى إصلاح الأحوال الاقتصادية ، ولم يحسن الموكلون بجباية الضرائب استخدام السلطة التى بأيديهم ، فتحمل دافعو الضرائب فوق طاقتهم ، وصاروا يؤدون أكثر مما هو مقرر عليهم من الضرائب[٥] . ولم يجد نفعاً ما لجأ إليه الأباطرة السابقون على جستنيان ، من التهديدات وفرض العقوبات على الموظفين الذين لم يكترثوا بمصالح الخزانة ، والذين أمعنوا فى ظلم السكان . وفشلت أيضاً تدابير الحكومة المركزية ضد نواب البلدية ، الذين حرصوا على أن يتخلوا عن القيام بواجباتهم ، فهجروا المدن ، ولجأوا إلى الصحراء ، وهجروا أراضيهم[٦] .

أما دافعو الضرائب فإنهم التمسوا من الوسائل ، ما يجعلهم يتخلصون من

دفع الضرائب وتأدية التزاماتهم ، فلجأوا إلى استخدام أساليب الخداع والغش ، لكى يفلتوا من قبضة عمال الخراج ؛ فإذا كانوا من الملاك ، رأوا أنه من الخير لهم أن يتخلوا عن أراضيهم ، حتى لا يدفعوا ما تقرر عليهم من ضرائب جائرة ، فخربت الحقول ، بعد أن لجأ أربابها إلى الصحراء أو الأديرة ، أو الدخول فى الجيش ، وبذلك خربت قرى وحقول عديدة(٧).

ومهما اتخذت الحكومة المركزية من وسائل لمنع هذا الفساد ، بما أدخلته من نظم وإصلاحات ، فإن ذلك لم يكن علاجاً ناجعاً . وفى مقدمة قانون ١٣ ، الذى أصدره جستنيان ، ما يشير إلى خلاصة الموقف قبيل إجراء إصلاحاته ، إذ أشار إلى أن ما اتصف به جباة الضرائب من أخلاق ، جعلته يفكر طويلا فى حقيقة استقامتهم وإخلاصهم . إذ استغلوا ما أصاب الإدارة المالية من اضطراب ، وصاروا يستفيدون من ذلك لمصلحتهم ؛ فلم يرسلوا إلى القسطنطينية من الضرائب التى يجبونها إلا النذر اليسير ، وما كانوا يرسلونه من القمح كأنه صدقة ، ومع ذلك فإن دافعى الضرائب صاروا يؤكدون بأنهم أدوا كل ما هو مقرر عليهم من الضرائب(٨) . وعلى الرغم من المحاولات التى قامت بها الحكومة المركزية بالقسطنطينية لمناهضة التقاليد الإدارية السيئة ، بما أجرته من إصلاحات جديدة ، فإنه كان لزاماً على جستنيان بعد أن تعرضت هذه الإصلاحات للتداعى والإنهيار ، أن يبدأ من جديد ، فيجرى إصلاحات شاملة يصح أن تؤدى إلى نتائج مثمرة ، ولا شك أن جستنيان قد أفاد من التجارب والإصلاحات السابقة(٩) .

وأسهم فى ضعف سلطة الإمبراطور بمصر ، ما جرى من انهيار وتلاشى القوى التى يعتمد عليها الإمبراطور فى تنفيذ سياسته بمصر ، أمثال طبقة أعضاء البلدية الذين تتألف منهم الطبقة الأرستقراطية فى المدن ، وكذا الطبقة المتوسطة التى اشتهر أفرادها بالتشبع بالثقافة اليونانية ، وكانوا الدعامة الأساسية للحكومة البيزنطية وحضارتها بمصر ، وحل مكان هذه الطبقة عنصر وطنى ، يتمثل

http://www.al-maktabeh.com

فى المصريين ، الذين اشتهروا بحماسهم الوطنى ، وبما يكنونه من الكراهية والاحتقار لكل ما هو يونانى ، بفضل ما وهبتهم المسيحية من أهمية وقوة . وقد رأينا ما ترتب على المنازعات الدينية ، من اشتداد المقاومة المصرية ، حتى أضحت مصر كلها أو معظمها ، تُكِنّ للحكومة المركزية (البيزنطية) بالقسطنطينية من العداء الشديد ما ينذر بالثورة ، وحتى أصبح الإمبراطور لا يعتمد فى توطيد سلطانه بمصر إلا على طبقة السناتوريين من اليونانيين بالإسكندرية ، وعلى موظفى الإدارة والجند[(١٠)].

ومن العوامل التى أدت أيضاً إلى فساد الأحوال فى مصر ، وإلى إضعاف سلطة الإمبراطور ، ما تعرض له نظام الملكية من تغيير ، وذلك بما حدث من نمو الملكيات الكبيرة وظهور طبقة أرستقراطية شبه إقطاعية ، اشتهرت بالثروة والنفوذ والقدرة على مناهضة الموظفين . فنشأ ما يعرف بنظام الحماية ، الذى يقضى بأن يبسط كبار الملاك حمايتهم ، على من يلجأ إليهم من المتذمرين من شدة جباة الضرائب ، وفداحة الأعباء الملقاة على عاتقهم ، سواء أكان هؤلاء الساخطون من الفلاحين أو صغار الملاك ، أو قرى بأسرها ، ولم يسع الحكومة البيزنطية إلا الإعتراف بالأمر الواقع[(١١*)]. وترتب على ذلك أن الأراضى التى خضعت للسلطة الإدارية بالمدينة انتقلت إلى حوزة كبار الملاك ، كما أن حق الجباية الذاتية ، أى حق السيد فى تحصيل الضرائب المقررة على الأراضى التى صارت فى حوزته ، أضعف ما كان فى أيدى البلديات وموظفى الحكومة البيزنطية فى مصر ، من سلطة مالية.

(١١*) على أن الحماية التى لجأ إليها ، على هذا النحو دافعو الضرائب ، اتخذت صوراً مختلفة . إذ أن أرباب المهن والحرف بالمدن ، والتجارة ، حاولوا ، شأنهم فى ذلك شأن الملاك بالقرى ، أن يتهربوا من واجباتهم والتزاماتهم ، بأن جعلوا أنفسهم تحت حماية سيد من السادة . ويصح أن يكون حامياً ، كل مالك كبير ، أو كل موظف سواء كان مجرد عضو من أعضاء البلدية ، أو من كبار الموظفين المدنيين أو العسكريين ، يضاف إلى ذلك أن الكنيسة امتلكت أراضى شاسعة عاش عليها الفلاحون . والخلاصة أن صار بمصر من السلطة أو القوة ما يصح بفضلها مقاومة عمال الخراج انظر : Rouillard p, 12.

وزاد أيضاً فى مكانة كبار الملاك ، أنهم تولوا ، فى أحوال كثيرة ، الوظائف العامة ، وجرى انتخابهم فى المجالس البلدية ، وشغلوا وظائف الباجركية ، فأصبح لهم نفوذ كبير من النواحى الإدارية والمالية ، ماأضعف سلطة الحكومة الإمبراطورية فى مصر ، ولم يَعدُ بمصر إلا طبقتان : طبقة فقيرة من المسترقين ، وطبقة أرستقراطية من الإقطاعيين الذين ينزعون إلى الإستقلال (١٢) .

ومن الأسباب التى دفعت جستنيان ، إلى المبادرة بالإصلاحات ، ما جرى من اشتداد ، المنازعات الدينية ، وجنوحها إلى إثارة الفوضى ، فأسهمت بذلك بقسط كبير فى ازدياد النزعات الانفصالية ، التى رسخت فى مصر منذ القرن الخامس الميلادى (١٣) .

والواقع أن مصر ظلت زمناً طويلا مسرحاً لحوادث دامية ، فطالما أدت الخصومات الدينية إلى مظاهرات شعبية عنيفة . فالمعروف أن المصريين اشتهروا بتعصبهم لمذهبهم الدينى ، فتعرضوا بذلك إلى ما اتخذته الحكومة البيزنطية ، فى الإسكندرية والقسطنطينية ، من تدابير صارمة لقمع مظاهراتهم ، ولفرض المذهب الرسمى للدولة بالبلاد ، غير أن ذلك لم يؤد إلا إلى ازدياد صلابة المصريين ، وشدتهم فى مقاومة الحكومة (١٤) .

ثم حدث بعد ذلك أن اندلع النضال العنيف ضد المونوفيزتية ، وهذا النضال هو الذى سبَّب لولاة مصر متاعب جديدة ، وذلك بفضل ما كان للمونوفيزتيين الذين يدينون بوحدة طبيعة المسيح ، من قوة خطيرة ، فإذا أصر بلاط بيزنطة على أن يفرض الأرثوذكسية (المذهب الرسمى) على مصر ، اصطدم بمقاومة شديدة من قبل السكان ، الذين أثار حميتهم ما اشتهر به رهبان الصحراء من حماس وتعصب شديد (١٥) . وكان لزاماً على بيزنطة أن تقدر ما يتمتع به بطريرك الإسكندرية من نفوذ قوى ، إذ أنه بلغ من النفوذ والسلطان ما أضعف سلطة الإمبراطور التى يمثلها الدوق الأوجستال (حاكم مصر) (١٦) .

حدث بعد مجمع خلقيدونية (سنة ٤٥١م)، الذى تقرر فيه حرمان بطريرك الاسكندرية المونوفيزتى، ديوسقوروس، أن قام الإسكندرانيون بثورات ضد بروتيريوس Proterius، الذى نصبه بلاط بيزنطه بطريركا بالإسكندرية، وتقرر أن يرابط بالمدينة (الاسكندرية) قوة من الجند، بلغ عددها ألفين، للمحافظة على البطريرك الجديد، والتضييق على سكان المدينة. غير أنه من العبث أن تلجأ الحكومة إلى حرمان السكان من ملاهيهم، و إغلاق الحمامات، وحرمان المدينة من مؤونتها من الغلال(١٧).

وما جرى اتخاذه من تدابير شديدة، لم تجد نفعاً إزاء ما أشتهر به أهل الإسكندرية من العناد والصلابة، فانتهزوا فرصة رحيل قائد القوات المرابطة بالإسكندرية إلى الوجه القبلى، وقاموا بالثورة من جـــديد، فقتلوا البطريرك بروتيريوس. وبعد فترات من الهدوء، تخللتها بعض الأعمال العدوانية، انتخب أهل الإسكندرية بطريركا مونوفيزتيا، وهو تيموتيوس Timotheus، وذلك سنة ٥١٨، فترعرعت وازدهرت فى زمنه المونوفيزتية، لأن الخلقدونيين لم يكونوا إلا أقلية ضئيلة(١٨). على أن المذهب المونوفيزتى نفسه، لم يلبث أن أصابه الانشقاق والاختلاف، فظهرت فيه نحل عديدة، منها ما يدعو إلى قبول قاعدة التوفيق Henoticon بين المونوفيزتية والخلقيدونية (الأرثوذكسية)، التى عرضها الإمبراطور زينون، ويمثل هذه الفئة الطائفة المعروفة باسم Acephales التى سبق الإشارة إليها، ومن النحل الجديدة أيضاً التى تفرعت عن المونوفيزتية، نحلة تعرضت لمناقشة أمر جسد المسيح، فانقسم أربابها إلى فريقين، فريق يشير إلى أن جسد المسيح لا يتطرق إليه الفساد، وهم المعروفون باسم Incorrupticoles، ويعتبرون من تلاميذ يوليان الأوتيخى Julian of Halicarneses، أما الفريق الآخر وهم المعروفون باسم corrupticoles، فيتفقون مع سفيروس الأنطاكى، فى أن جسد المسيح، إنما يتعرض لما تتعرض له سائر الأشياء المادية من الفساد(١٩).

وثمة طائفة أخرى اشتهرت باسم Agnoetes يتساءل أنصارها عما إذا كان المسيح بحكم طبيعته البشرية يحيط بكل الأمور ، أو يجهل شيئاً منها[٢٠] . وترتب على تعدد هذه المذاهب ، أن انتشرت الاضطرابات فى مصر ، غير أن المذهب المونوفيزنى لا زالت له السيطرة[٢١] .

ازداد الاضطراب شدة عقب وفاة البطريرك تيموتيوس ، فى فبراير سنة ٥٣٦ ، لا سيما بعد أن ادعى كل من زعيمى الحزب المونوفيزتى ، أنه خليفة المسيح ، واغتنم الإمبراطور جستنيان ، (٥٢٧ — ٥٦٥ م) الفرصة ، لكى يعين بالاسكندرية بطريركا أرثوذكسياً ، على الرغم من نفوذ الإمبراطورة تيودورا المعروفة بحمايتها للمونوفيزتيين[٢٢] . فما كادت تيودورا تعلم بوفاة تيموتيوس ، حتى أرسلت من قبلها إلى مصر ، أحد المقربين لها ، وهو الطواشى كالوتيخيوس Calotychios ، الذى اجتمع بدوق مصر أريستوماك (قائد الجيش) ، والوالى الأوجستال ، ديوسقوروس ، و بفضل نفوذهما تم انتخاب الشماس تيودوسيوس بطريركا ، الذى تمتع برعاية الإمبراطورة وعطفها . وكان من المونوفيزتيين المعتدلين ، واشتهر بالميل إلى المسالمة[٢٣] . وعلى الرغم من أن كبار رجال الدين هم الذين اختاروا تيودوسيوس ، وأنه لقى التأييد من الإمبراطورة ورجال الحكومة البيزنطية فى الإسكندرية ، فإن البطريرك الجديد تعرض للسخط والكراهية من قبل الرهبان ، وسكان الإسكندرية ، وأرباب الحرف ، وكبار الملاك ، وسائر الجند بالاقليم ، وهم يؤلفون الغالبية الساحقة ، و يدينون بالبدعة المعروفة باسم (incorrupticoles) فأعلنوا عدواتهم للبطريرك الجديد ، واعتبروه ملحداً ، وأنه من صنائع الحكومة البيزنطية ، وطلبوا أن يحل مكانه جائينوس Gaienos رئيس الشمامسة وزعيم الحزب القائل بعدم فساد جسد المسيح ، فتقرر طرد تيودوسيوس ، الذى لم يمكث فى منصبه سوى يومين ، تعرض فى أثنائهما للهجوم ومحاولة إغتياله ، لولا أن أسرع بالهروب . وتم انتخاب جائينوس ، الذى ظل

يلى هذا المنصب حتى يوم ٢٣ مايو سنة ٥٣٦[٢٤]. وعندئذ استطاع الطواشى ، نارسيس ، مندوب تيودورا ، أن يعيد تيودوسيوس إلى كرسى البطريركية ، وأن يأمر بنفى جائينوس . فاندلعت الثورة فى الإسكندرية ، ووقعت معارك عنيفة أريق فيها الدماء ، وسقط ضحايا عديدون من الجانبين بلغوا عدة ألوف . واشترك النساء فيما حدث من الثورات ، إذ أخذن يلقين من سطوح المنازل ، بكل مايقع فى أيديهن من القذائف والأدوات على جند نارسيس . وكلما اشتد نارسيس فى قمع الفتنة ، ازدادت المدينة صلابة وتماسكا ، فلم يسعه إلا أن يشعل الحرائق فى جانب من المدينة للقضاء على هذه الفتنة[٢٥] .

وعلى الرغم من الهزيمة التى حلت بأهل الإسكندرية ، فإنهم لم يلقوا السلاح ، إذ واصلوا مباشرة القتال الصامت ضد تيودوسيوس ، فاتخذوا خطة المقاطعة ، ولم يعد يرتاد الكنائس إلا الموظفون الإمبراطوريون . و إذ أدرك تيودوسيوس ، أن ثمة سلطة فاقت سلطاته فى هذه الأحوال ، لجأ إلى الهرب سراً[٢٦] .

وفى تلك اللحظة حدث تطور فى سياسة بيزنطية الدينية ، بعد عزل البطريرك أنتيموس ، بطريرك القسطنطينية ، الذى عقد عليه المونوفيزتيون آمالا كبيرة ، إذ عدل جستنيان عن سياسة التسامح مع المونوفيزتيين ، وأصر على تحقيق الوحدة الدينية فى سائر أنحاء الإمبراطورية[٢٧] .

أما تيودوسيوس ، البطريرك السابق للإسكندرية ، فاستدعاه جستنيان إلى القسطنطينية ، ورتب له استقبالا حافلا ، وأنزله بالقصر الإمبراطورى ، ثم طلب إليه أن يخضع لما أصدره مجمع خلقيدونية من قرارات ، غير أنه لم يقبل ، لاعتقاد أن ذلك يثير من جديد مقاومة سكان الإسكندرية ، بل إنه مضى فى عصيانه ، بأن تمثل بالقول « ليس للأمير من سلطان إلا على جسدى ، أما المسيح فله السلطان على روحى ونفسى[٢٨] » ، وطال الأخذ والرد بينهما أشهراً ، إلى أن قرر جستنيان

سنة ٥٣٧ ، اعتبار تيودوسيوس ملحداً ، فقرر عزله ، وأمر بنفيه إلى تراقيا[٢٩] .
و بفضل بيلاجيوس،مندوب البابا آجابيتوس Agapetus ، الذى تصادف وجوده وقتذاك فى بيزنطه،تم اختيار بولص ،رئيس أحد الأديرة التابنيسية فى كانوب،بطريركا للإسكندرية ، وهو مصرى عهد إليه الرهبان بالقيام بمهمة فى القسطنطينية ، وهذا هو السر فى وجوده وقتذاك بها . واشتهر بولص بدرايته بما يجرى فى مصر من المنازعات الدينية ، وفى استطاعته أن يتخـذ من الإجراءات ما يمنع حدوث الاضطرابات والمذابح ، كالتى صاحبت بطريركية تيودوسيوس ، بفضل ما صار له من سلطات استثنائية ، إذ كان فى يده أن يعين رجال الدين بمصر ، وأن يعزلهم ، وجاز له أن يعين مكانهم جماعة يعتنقون مذهب خلقيدونية ، وأكثر من ذلك أنه كان له اليد العليا فى تعيين الدوقات والتريبونات[٣٠] . ومن الطبيعى أن يستقبل أهل الإسكندرية الأسقف (البطريرك) الجديد استقبالا سيئاً و يعتبرونه دخيلا عليهم ، فلقبوه « يهوذا الثانى » وذلك إشارة إلى ارتداده عن مبدأ المونوفيزتية[٣١] . غير أن بولص كان بيده من أسباب السلطة والقوة ما يكفل له الإحتفاظ بمركزه ، ففرض على الناس حكم الإرهاب ، وأمر بإغلاق الـكنائس المونوفيزتية ، ثم لم يلبث أن سلمها إلى الخلقدونيين . أما الشعب الاسكندرى ، فلم يقدم هذه المرة على الثورة ، إنما أظهر الحزن العميق، ولم يتظاهر الرهبان ، بل أذعنوا للأمر الواقع . وعلى الرغم من أن الأسقف الجديد لم يكن فى مكانة كبار موظفى الحـكومة ، فإن جستنيان صار يفخر ، بأنه أدخل الأرثوذكسية (المذهب الرسمى) فى مصر[٣٢] .

على أن الإجراء الذى يقضى بأن يجتمع فى يدى شخص واحد سلطات متعددة، لم يكن إلا إجراء مؤقتاً ، الغرض منه ، القضاء على مقاومة المونوفيزتيين المتطرفين، وانتهاج سياسة دينية جديدة[٣٣] . ولما أدرك جستنيان المزايا التى ترتبط على تركيز

http://www.al-maktabeh.com

السلطة فى يد شخص واحد ، أخذ يفكر فى أن يجعل من ذلك نظاماً ، كيما يعالج به ماحل من الاضطراب بالإدارة منذ زمن بعيد[٣٤]. بل أكثر من ذلك ، قرر القيام بإصلاح جوهرى فى الوقت الذى أدت فيه الأزمة الدينية ، التى نشبت بعد وفاة البطريرك تيمو تيوس سنة ٥٣٦ ، إلى نشوب فوضى خطيرة[٣٥].

فما جرى من الحوادث منذ سنة ٥٣٦ ، يعتبر فيما يبدو ، السبب المباشر لإصدار قانون ١٣ ، الذى اتخذه جستنيان أساسا لإعادة التنظيم الإدارى بمصر[٣٦]. على أن ثمة من الأسباب الأخرى ما جعل المؤرخ جيلزر وجماعة من المؤرخين ، يعتبرون سنة ٥٣٨/٥٣٩ هو التاريخ الذى صدر فيه المرسوم ، لما قام به جستنيان وقتذاك من إصلاح فى سائر أنحاء الإمبراطورية ، إذ ألغى وظيفة الحاكم Vicarius فى سائر الأقاليم ، وجمل السلطتين العسكرية والمدنية فى يد موظف واحد[*] .

على أن ما حدث بمصر من المنازعات الدينية ، لم يكن السبب الوحيد الذى دعا جستنيان إلى إصدار هذا القانون، فإن ثمة من الأسباب الأخرى ما أدى إلى الإقدام على هذه الإصلاحات، إذ اشتدت كراهية الناس للإدارة الإمبراطورية ، لما اشتهرت به من العجز والفساد والرشوة ، وازدادت الأزمة الاقتصادية حدة ، وارتفعت أسعار ضروريات الحياة ، وازداد ضعف الحكومة المركزية إزاء سخط الشعب وكراهيته للحكومة . وترتب على ذلك ، مالقيته الحكومة من المشقة والعناء فى تحصيل الضرائب، وجمع القمح، وانتظام حمله على السفن إلى القسطنطينية[٣٧]. وكان لابد من إجراء إصلاح يقر فى مصر حكومة حازمة ، وأحست الحكومة فى بيزنطة بهذه الحاجة إحساسا شديداً ، بعد أن تكرر الإضطراب واختل النظام فى وادى النيل .

ورأى جستنيان أن الوقت صار ملائما للتخلص من الفساد الإدارى الذى شاع بمصر ، ومن ثم أراد جستنيان بالمرسوم الذى أصدره فى سنة ٥٣٨ أو سنة ٥٣٩ ،

(*) عند مناقشة الآراء المختلفة حول تاريخ صدور المرسوم رقم ١٣ التى أجرى جستنيان بمقتضاه إصلاحاته فى مصر ، انظر : (Rouillard, pp. 20—24)

أن يحقق فى مصر ما كان يأمل فى إقرار الأمن والوحدة ، وأن يجعل بين النظم الإدارية وتطبيقها من المواءمة والتوافق ، ما كانت تفتقده فى فترة الفوضى التى نشبت فى القرن الثالث[٣٨] .

ويعتبر هذا المرسوم أكبر محاولة لبسط سلطان الإمبراطور على الولاة والرعية ،وهذه المحاولة لم يقم بها أحد من الأباطرة منذ القرن الثالث، وبفضل هذه الوثيقة نستطيع أن نقف على إدارة مصر البيزنطية[٣٩] .

الفصل السابع

التنظيمات الإدارية بمصر ، وفقا للقانون رقم ١٣

الذى أصدره جستنيان سنة ٥٣٨ أو سنة ٥٣٩

أولا : الأقسام الإدارية الكبيرة بمصر — الدوقيات . Dioceses

تعتبر التنظيمات الإدارية أساس ما قام به جستنيان من الإصلاحات بمصر ، وما حدث من تغيير الجغرافية السياسية للإقليم ، إنما الغرض منه أن يتحسن بذلك الموقف الداخلى فى مصر .

ولحرص الإمبراطور على أن تزداد سلطة الموظفين قوة ، عمل على تحديد طبيعة ومدى هذه السلطة[1] . فرأى قبل كل شىء ، أنه من المستحيل أن يقوم شخص واحد بالتغلب على المشاكل والمتاعب التى تعرضت لها إدارة دوقية مصر بأكملها ، وأن يفى بما عليه من التزامات وواجبات بصورة مرضية لدى حكومة بيزنطة ، فالوحدة الإدارية التى احتفظت بها مصر ، منذ زمن السيادة الرومانية ، لم تلبث أن تلاشت لأول مرة فى التاريخ[2] .

فأوجستال دوقية مصر ، والذى يعتبر فى الوقت ذاته نائب الإمبراطور على كل الاقليم ، سوف يصبح مجرد حاكم على وحدته الإدارية ، و بذلك زالت مهمة النائب الإمبراطورى . وترتب على ذلك أنه جعل الدوقيات المختلفة التى يتألف منها القطر المصرى ، حكاما إداريين ، يرجعون فى تصريف الأمور إلى والى الشرق مباشرة ، دون أن يكون ثمة وسيط بينهم و بينه. ولذا جرى توجيه القانون أو المرسوم رقم ١٣ إلى والى الشرق، لا إلى نائب الإمبراطور[3] . ولم يعد ثمة ما يعتبر دوقية مصر ، إنما أضحى القطر المصرى عبارة عن مجموعة من الدوقيات لكل منها إرادة خاصة[4] . وعلى الرغم من أن هذه الدوقيات متساوية فى المكانة من الناحية

النظرية ، فإن الدوق الأوجستال لمصر ، الذى يتولى مصر الأولى ومصر الثانية ومدينة الإسكندرية ، صارت له مكانة ملحوظة ، إذ أن الإسكندرية التى اتخذها مقرا له ، لازالت تعتبر أكبر مدينة بالقطر المصرى، وبها يجرى جمع القمح الوارد من أنحاء القطر، ويتولى دوق مصر السهر على نقل القمح بحرا إلى القسطنطينية. وعلى الرغم من أن دوقية مصر لا زالت وحدة معنوية قائمة ، فإن ماحدث فعلا من الإستغناء عن أكبر موظف ، كان يعتبر منذ زمن بعيد ، صاحب السلطة المطلقة فى البلاد ، يعتبر تغييرا بالغ الأهمية(٥) .

أعاد جستنيان تقسيم القطر المصرى إلى الأقاليم التى انقسم إليها ، فانقسمت مصر إلى خمس دوقيات، وهى : مصر، أوجستامنيكا، أركاديا ، طيبه ، ثم ليبيا(٦) . وما أدخله جستنيان من تغييرات ، إنما انطوت على الأقسام الثانوية التى تنقسم إليها هذه الأقاليم أو الدوقيات ، وعلى ألقاب وواجبات الموظفين المسئولين لدى الحكومة عن إدارتهم(٧) .

ولم يرد فى المصطلحات البيزنطية ،ما يصح تطبيقها على سائر أقاليم مصر ، سوى ماجرت العادة بتسميتها دوقيات . على أنه لم يرد فى قانون ١٣ ، أو على الأقل فيما هو معروف لنا من أجزائه ، أية إشارة إلى لفظة « دوقية » فيما يتعلق بمصر الأولى ، أو مصر الثانية، أو الأوجستامنيكا ، أما ليبيا وطيبة فقد وصفهما بالحدود أو الأطراف limes .وفى ديباجة المرسوم ، وفى البرديات ، لم ترد الإشارة إلى دوقيات مصر ، بل إلى أبروشيات مصر ، وأشارت نصوص عديدة إلى لفظ شديد الغموض (Khôra) جرى إطلاقه على الدوقيات(٨) .

دوقية مصر : تشتمل هذه الدوقية على الجزء الواقع غرب الدلتا ، بمافيه مدينة الإسكندرية. أما منطقتا مينيلايت Menelaites ومريوط Mareotis ، اللتان صارتا جزءا من دوقيه مصر سنة ٥٣٥ ، فإن قانون ١٣ ، جعلهما تابعتين لليبيا .

http://www.al-maktabeh.com

وأبقى جستنيان على تقسيم مصر إلى أبروشيتين eparchies ، مصر الأولى ، ومصر الثانية ، وفقا لما ورد فى ملحق ٨ ، سنة ٥٣٥ .

وعلى رأس هاتين الأبروشيتين ومدينة الإسكندرية ، عين دوقا أوجستالا ، عهد إليه بالسلطتين المدنية والعسكرية . فباعتباره أوجستالا ، اتخذ هذا الموظف لقب Spectabilis وصار يؤدى الأعمال المدنية . و باعتباره دوقا خضعت له قيادة جميع القوات المرابطة فى مصر الأولى ومصر الثانية والإسكندرية، واتخذ لقب نائب قائد جند الشرق (أى أنه مفوض من قبل قائد جند الشرق)[٩].
magister militum praesentalis et per Orientem.
واشتملت إدارته ، أى مجموع دواوين الدوق الأوجستال ، على موظفين مدنيين وعسكريين[١٠]* .

وبعد أن حدّد جستنيان سلطات هذا الموظف الكبير ، أصر على تحقيق أغراضه الخاصة التى تتمثل فى المبادرة إلى قمع الثورات الشعبية ، وحفظ الأمن بمدينة الاسكندرية ، فأراد بذلك أن يجعل للدوق الأوجستال سلطة بالغة القوة والنفوذ[١١] .على أن جمع السلطتين العسكرية والمدنية فى يد حاكم واحد للإقليم ، إنما يقابله ما يتحمله الوالى من مسئوليات ضخمة ، غير أنه ينبغى أن نلاحظ بأن هـذا الإجراء الذى أدى إلى القضاء على ما كان يقع بين الدوق ، و بين الأوجستال من التنافس والنزاع ، لم يلبث أن كان عامـــلا فى ازدياد اضطراب الأمن[١٢] .

أوجستامنيكا Augustamnica : تألفت من الجزء الشرقى للدلتا . وانقسمت إلى أبروشيتين : أوجستامنيكا الأولى ، وأوجستامنيكا الثانية.[١٣]** وكان يتولى

(١٠*) المعروف أن جيش مصر ،وفقاً لهذا التقسيم، لم يخضع بأسره لقائد عام واحد، إنما جرى توزيعه بين خمسة دوقات متساوين فى المكانة ، يتولون أمر إدارة الدوقيات والحاميات. انظر : (Maspero, P. 79

(١٣**) كانت هليو بوليس عاصمة أوجستامنيكا الثانية . Maspero, p.29.

أمر أوجستامنيكا بقسميها ، وال يجمع أيضا بين السلطتين المدنية والعسكرية .

أركاديا : امتدت على الشاطىء الأيسر للنيل ، ابتداء من رأس الدلتا حتى Kynopolis (الشيخ فضل) ، فاشتملت بذلك على ما كان يعرف قديما باسم هيبتا نوميا ، المشهورة بمزروعاتها الوفيرة[١٤] . وكانت أركاديا وحدة إدارية ، لم تنقسم كغيرها إلى أبروشيتين ، وكان حاكمها يجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية ، ويحمل لقب كونت أو لقب دوق على حد قول بعض المؤرخين . وكانت عاصمة أركاديا أرسينوى Arsinoe (مدينة الفيوم)[١٥] .

طيبة : — اشتملت على الجزء الجنوبى من القطر المصرى ، حتى جزيرة فيلة . وتعتبر إقليم أطراف limes ، ونظرا لمجاورتها للأقاليم الصحراوية تعرضت للغارات من قبل قطاع الطرق واللصوص[١٦] . وتولى حكم طيبه دوق وأوجستال ، مثلما كان جاريا فى مصر الأولى ومصر الثانية . وكان يقيم تارة فى انتينوى Antinoe (العثمانية) وتارة فى بتولمايس Ptolemais[١٧] (المنشاه) . وظلت طيبة منقسمة إلى أبروشيتين ، كما كان شأنها فى القرن الخامس ؛ ذلك أن طيبة السفلى ، خضعت لسلطة دوق وكونت الطرف الطيبى limes ، أما طيبة العليا (الشمالية) ، فتولى حكمها موظف مدنى Praeses يخضع لدوق الأطراف[١٨] . وما حدث من التغيير ، طبقا للقانون ١٣ ، أن الدوق الأوجستال بطيبة ، لم يكن يخضع إلا لوالى الشرق ، وكان يجمع فى يديه السلطتين المدنية والعسكريه فى الأبروشيتين اللتين تتألف منهما طيبة . على أن كلا من هاتين الأبروشيتين تولى إدارته حاكم مدنى Praeses يخضع للدوق الأوجستال الذى يحكم الاقليم كله .[١٩]

ليبيا : منذ زمن الإمبراطور انستاسيوس ، جرت إضافة هذا الإقليم إلى مصر من الناحية الإدارية . وصار هذا الإقليم يعتبر من أقاليم الأطراف ، نظرا

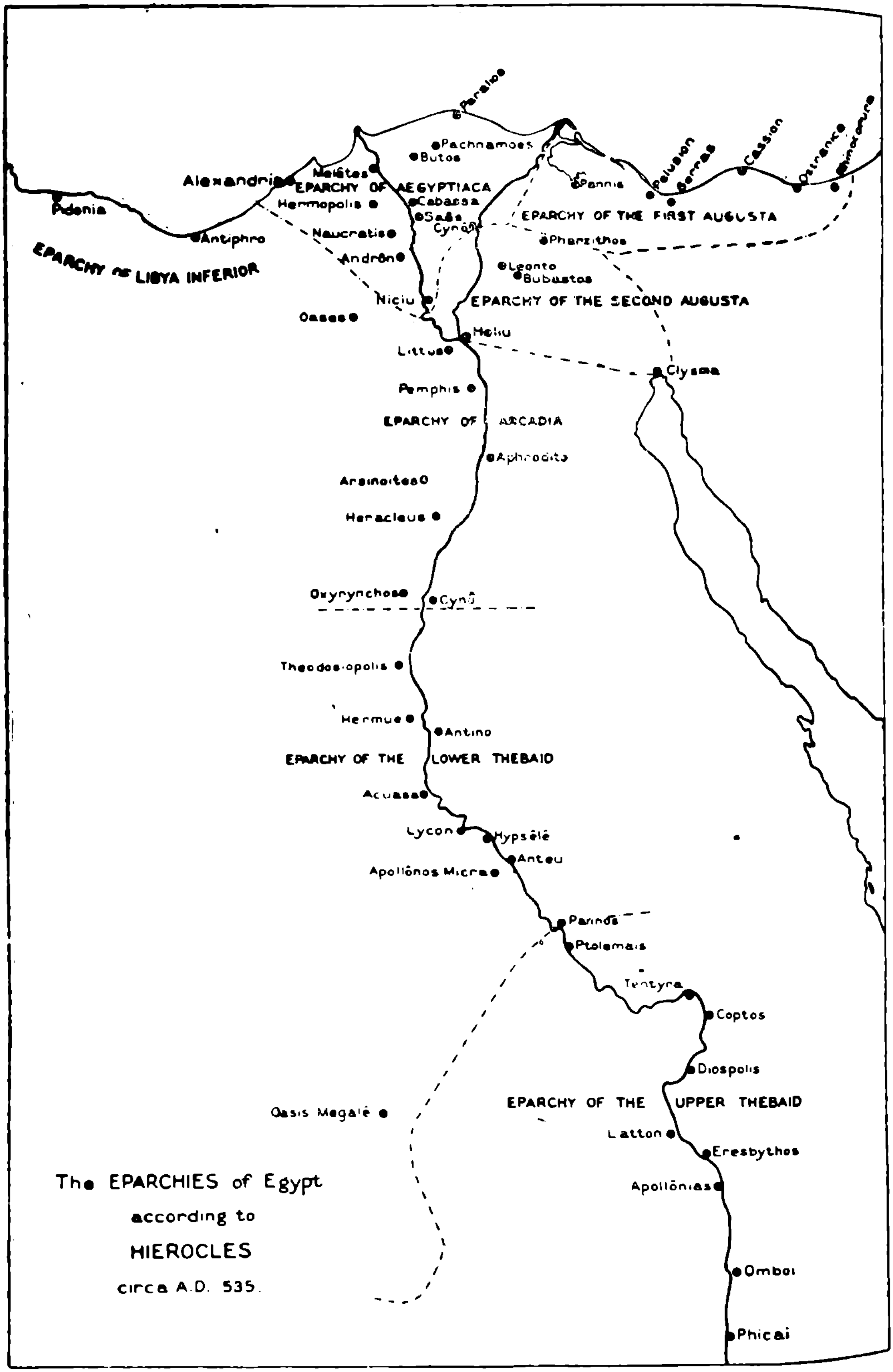

أقسام مصر الإدارية حوالى سنة ٥٣٥ ميلادية

لما تعرض له من غارات عصابات البدو [٢٠]. وفى زمن انستاسيوس (٤٩١ — ٥١٨ م)، خضعت ليبيا لسلطة دوق ، لم يكن فى يده إلا السلطة المدنية ، واستمر ذلك زمن جستنيان ، غير أن التغيير الوحيد الذى حدث هو أن دوق ليبيا لم يعد يخضع لسلطة أوجستال الإسكندرية، وكانت باراتونيوم Paratonium العاصمة الإدارية لإقليم ليبيا . [٢١]*

فانقسمت مصر بذلك ، وفقا لقانون ١٣ ،إلى خمسة أقاليم ، يتولى كل منها حاكم يجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية ، وهى مصر ، وليبيا ، وطيبة ، وأوجستامنيكا ، وأركاديا . وهذه الدوقيات انقسمت بدورها إلى أبروشيات ، فانقسمت كل دوقية إلى أبروشيتين ، تولى كل منهما حاكم ، تغلب عليه الصفة المدنية الخاصة . أما أركاديا فلم تكن إلا أبروشية واحدة ، والراجح أن ليبيا ، كانت أيضا عبارة عن أبروشية واحدة .[٢٢] وانقسمت الأبروشيات إلى وحدات أصغر ، وهى الباجركات ، والمدن ، والقرى والضياع الكبيرة . [٢٣]

وما قام به جستنيان من إصلاحات فى الأقسام الإدارية الكبرى بمصر ، إنما ترتبط بالخطة العامة للنظام الجديد الذى طبقه الإمبراطور فى كل الأقاليم الشرقية للإمبراطورية . على أنه ترتب على هذا الإصلاح نتيجة بالغة الأهمية ، إذ تلاشت وانهارت وحدة البلاد السياسية ، بما أقدم عليه جستنيان من إلغاء وظيفة نائب الإمبراطور ،ومنح حاكم الدوقية السلطتين العسكرية والمدنية ، إذ أن

(٢١*) اختلف المؤرخون فى عدد الأقسام التى تألف منها إقليم ليبيا ، فاعتبرها بعضهم قسمين : ليبيا المعروفة بالجدب ، وليبيا العليا (بنتابوليس) المعروفة بوفرة خيراتها ، ورأى فريق آخر أن نفقات الجند والدوق فى ليبيا ، تطلبت توحيد القسمين ، وإضافة ميتلايت ومريوط الى ليبيا ، حتى يتيسر توفير النفقات المطلوبة للجند ، ومع ذلك ، فإن قانون ١٣ لم يشر إلا الى حاكم واحد خاضع لسلطان دوق ليبيا . (انظر : Rouillard p. 35)

جستنيان رأى فى ذلك وسيلة فعالة لتحقيق غرضه ، من حيث إضعاف مقاومة مصر ، وازدياد المحافظة على الأمن ، واستعادة ما للحكومة الأمبراطورية من سلطان .(٢٤)

ثانيا : الدوقات

يعتبر دوقات مصر ، من أهم الشخصيات فى ترتيب الوظائف البيزنطية ، يختارهم الإمبراطور مباشرة ، وهو الذى يقلدهم الوظائف ويقرر عزلهم. وللدوق مكانة عالية بين نبلاء البلاط ، فيعتبر من فئة القناصل أو البطارقة .(٢٥) وما اتخذه بعض دوقات مصر من ألقاب ، يجعلنا نقرر أنه لابد أن جرى اختيار هؤلاء الدوقات من بين موظفى البلاط ، فاحتفظوا عند تعيينهم فى وظائفهم ، باللقب الذى يتعلق بوظيفتهم فى البلاط ، غير أنه لم يكن لهذا اللقب إلا صفة شرفية ؛ ومن هؤلاء نجد موظفين مدنيين وموظفين عسكريين ، أمثال Quaster (المستشار القانونى)، والدمستق Domesticus وغيرهم .(٢٦)

ولا نستطيع أن نقرر أن دوقات مصر جرى اتخاذهم من قدماء القادة بالبلاد ، أو من حاشية الإمبراطور ، أو من خارج الإقليم بل حدث عكس ذلك ، إذ أن عددا من بين السكان الأصليين ، وصلوا إلى وظيفة دوق ، دون أن يشغلوا من قبل وظيفة بالبلاط .(٢٧)

وللدوق فى إقليمه سلطات بالغة الاتساع ، إذ يمثل السلطة الإمبراطورية ، كأنه بذلك يعتبر نائبا للملك ؛ فهو يلى كل الأعمال المدنية والعسكرية ، ويعتبر الرئيس الأعلى للإدارة والقضاء والشرطة ، وما اجتمع تحت قيادته من العساكر فى دوقيته ، هيأله بوجه خاص ، أن يقوم بحفظ الأمن العام فى المدن ، وفى بذل المساعدة لعمال الخراج لاستخلاص الضرائب(٢٨) .

http://www.al-maktabeh.com

ومن الناحية العسكرية ، يعتبر الدوق رأس كل ما يتعلق بالجيش من الوظائف ، إذ يتولى إدارة فرق الجيش ، ويحرص على انتظام صرف رواتب العساكر وملابسهم ، ومن أعماله أن يوالى الطواف بالإقليم من أجل تفقد أحوال البلاد ، وفى أثناء ذلك يقف على أحوال الحاميات والاستحكامات . وفى الأحوال التى يتعرض فيها إقليمه للخطر ، يتولى قيادة حملة حربية ، أو يعهد بقيادتها إلى أحد نوابه لحماية دوقيته والدفاع عنها ، وله أن يعقد معاهدة صلح مع العدو[٢٩] ، ويسهر على المحافظة على الحدود، وحمايتها من إغارات البدو[٣٠] .

والمعروف أن وظيفة الدوق لها صفة مزدوجة ، فهو يجمع بين السلطتين العسكرية والمدنية . على أنه ينبغى ألا يغيب عن فكرنا أن الصفة العسكرية فى إقليم هادئ يخلد للسكون ، تعتبر ضئيلة الأهمية ؛ ولذا يعتبر الدوق قبل كل شىء حاكماً مدنياً ، وقاضياً ومتولياً للخراج . وما ورد فى مرسوم جستنيان عن الوظائف العسكرية ، إنما يقصد بها أنها تخدم ما للدوق من وظائف أخرى[٣١] . فلم يكن من دوقات مصر من رجال الحرب إلا عدد قليل ، مثال ذلك نارسيس القائد الذى ينتمى إلى أصل أرمنى فارسى ، والذى ولى فى مستهل حياته العامة دوقية طيبة ، وذلك لغرض معين ، إذ عهد إليه جستنيان بأن يطرد كهنة البليميين من معبد فيله ، لما كان يتوقعه من مقاومتهم[٣٢] . على أن الاختيار العادى كان مختلفاً ، فالمعروف أن ليبريوس دوق أوجستال الإسكندرية ، أول دوق عينه جستنيان فى منصبه سنة ٥٤٠ ، كان من فئة السناتوريين[٣٣] ، كما أن أبيون دوق طيبة كان من كبار الملاك ، وكان كيروس Kyros دوق طيبة حوالى سنة ٥٦٦ من المدنيين أيضاً[٣٤] . فلم يكن من الدوقات من انفرد بالصفة العسكرية سوى نارسيس ، وكالينكوس دوق طيبة ، الذى يحمل لقب كونت دمستق ، وكان هؤلاء عادة من موظفى البلاط الذين ينتدبهم الإمبراطور إذا ساءت الأحوال فى إقليم من الأقاليم[٣٥] . على أنه جرى فى معظم الأحوال ، اختيار الدوقات من

بين أعيان البلاد ، الذين لهم مكانة مرموقة ، واشتهروا بنفوذهم وسلطانهم فى البلاد[٣٦] .

وحرم مرسوم جستنيان على المتهرطقين أن يتولوا الوظائف العامة ، غير أن المصريين لا سيما فى الصعيد ، كانوا يعلنون كراهيتهم وسخطهم صراحة لمذهب خلقيدونية ، و بذلك لم يتحقق للإمبراطور غرضه فى هذه الناحية . فحوالى سنة ٥٤٣ م كان دوق طيبة ، واسمه هوريون Horion من المغالين فى المونوفيزتية ، حتى أن الإمبراطورة تيودورا ، المشهورة برعاية هذا المذهب وحمايته ، عهدت إليه بنشر المونوفيزتية بين النوباد[٣٧] . ومن المصريين عدد غير قليل ، تولى منصب الدوقية ، على الرغم من اعتبارهم من الناحية الرسمية متهرطقين ، مثال ذلك من ولاة الإسكندرية : هافيستوس Haphaistos ، ولاكسريون Laxarion (زمن جستنيان) ، ومن ولاة طيبة : أبيون ، وهوريون (زمن جستنيان)[٣٨] .

وازداد سلطان الدوق فى داخل البلاد ، بفضل ما ركزه جستنيان فى أيديهم من سلطات ، إذ أنه كان يأمل من وراء ذلك استتباب الأمن فى مصر ، والاطمئنان إلى استغلال هذا الإقليم فى هدوء[٣٩] . على أن افتراضه بأن السكان سوف يخلدون إلى الهدوء ، و يخضعون للقوانين المالية ، لن يتحقق إلا إذا اختفى الخطر الموجه للحكومة من قبل الدوقات ، نظراً لازدياد سلطانهم ، ومحاولاتهم لأن يعملوا مستقلين عن الحكومة الإمبراطورية ، وأن يكونوا شبه ملوك فى أقاليمهم[٤٠] . ولم نقف على الفترة التى يقضيها كل دوق فى ولايته ، والراجح أن هذه الوظيفة لم تتقيد بمدة معينة أو أجل محدود ؛ فمتى تعين أحد الدوقات ، فلا يصرف عن منصبه إلا بناء على مرسوم إمبراطورى ، أو إذا انتقل إلى وظيفة أخرى[٤١] .

ولمنع خطر الدوقات ، ولضمان ولائهم ، عمل جستنيان على زيادة مرتباتهم ، حتى لا يتطرق إليهم الفساد أو يمتنعوا عن إرسال ما هو مقرر من الضرائب إلى

القسطنطينية ،وحتى لا ينصرفوا إلى أن يكدسوا لأنفسهم ما يشاءون من الأموال، على حساب الخزانة العامة ودافعي الضرائب[٤٢]. وكان جستنيان يأمل من وراء ذلك ، أن تبقى يدا الدوق طاهرة نظيفة ، وأن يكون جديرا بما أولاه الإمبراطور من ثقة[٤٣].

وتوافر لدينا من المعلومات ما يفيد في الوقوف على تقدير مرتبات الدوقات ، لا سيما الدوق الأوجستال بمصر ،ودوق ليبيا . إذ أن الدوق الأوجستال بمصر كان يتقاضى سنويا نحو ٤٠ ليرة ذهبية (أى ما يقابل ٢٨٨٠ دينارا) ، برسم المؤونة (الميرة) والمرتب والهدايا (التقادم) . والمعروف أن هذا المرتب يفوق ما تقاضاه دوق ليبيا ،الذى لم يتجاوز مبلغ ١٤٣٥ ديناراً (صولدا)[٤٤] . ومن الملحوظ أن مرتب دوق مصر يزيد على مرتب سائر الولاة فى تراقيا، وبافلاجونيا ، وليكاؤنيا ، وإيزوريا ، وكذا دوق افريقية ، الذى لم يتقاضى سوى ١٥٨٢ صولدا (دينارا) ، يدخل فيها مرتبات الجند المرافقين له[٤٥]. والمعروف أيضاً أن مرتبات سائر الولاة المصريين ،فى طيبة ، وأوجستامنيكا ،وأركاديا ، تقل عن مرتب الدوق الاوجستال بمصر .[٤٦]

ولعل السر فى زيادة مرتب الدوق الاوجستال بمصر (الاسكندرية) ، يرجع إلى ما كان له من قبل من مكانة باعتباره نائب الإمبراطور على مصر كلها ، وأن ما يضطلع به من وظائف تفوق فى أهميتها ما يتحمله زملاؤه ، على الرغم من أنه ليس له عليهم سلطان، إذ أن واجبه لم يقتصر على جباية الضرائب، بل كان مكلفاً بحفظ ما يخص الحكومة المركزية من الضرائب،ثم إرسالها إلى بيزنطة[٤٧].وما يتقاضاه الدوقات وسائر الموظفين بمصر من المرتبات ، يؤدى جانب منها نقدا ، وجانب منها نوعا .[٤٨]

على أن جستنيان لم يكتف بتحديد مرتبات هؤلاء الموظفين الكبار ، بل صار يعمل على استرضائهم بما غمرهم به من كرمه وسخائه ، وفى ذلك دليل على تقديره

لهم . غير أنه لم ينس أن هذا الإجراء لم يبلغ من الكفاية والكمال ، ما يجعل الدوقات يؤدون عملهم فى شىء من الأمانة والدقة ، ولذا فرض عقوبات صارمة على الدوقات المخالفين[٤٩] .

وللدوق فى كافة الأحوال حاشية خاصة ، تتألف من حرس الشرف أثناء سيادة السلام والأمن ، ومن الجند المختارة فى حالة الحرب[٥٠]. ويؤدى أعمال الأقاليم كل الإدارات التى تخضع لديوان الدوق officium ، وحرص جستنيان على أن تندمج كل الأمور المدنية والعسكرية فى الإدارات التى يتألف منها ديوان دوق مصر الأوجستال، وهذا الاندماج ليس إلا نتيجة طبيعية لجمع السلطتين العسكرية والمدنية فى يدى الدوق الأوجستال[٥١] . وكان ديوان الدوق الأوجستال يضم ما لا يقل عن ستمائة موظف من المدنيين والعسكريين.[٥٢]

والمعروف أن الدوق هو الذى يتولى إجراء التنظيم الفعلى لديوانه ، غير أن جستنيان كان شديد الحرص على أن يباشر بنفسه كل تفاصيل الإدارة . ولذا حتم على الدوق الأوجستال بأنه حينما ينتهى من تأليف ديوانه، أن يرفع إلى والى الشرق نتيجة عمله ، حتى يتم بذلك تصديق الإمبراطور . ومتى تمت موافقة الإمبراطور على اختيار الموظفين ، تلقى موظفو الديوان من الديوان الإمبراطورى ، الموافقة الرسمية Probatorial ،وهى عبارة عن شهادة تدل على قبول هؤلاء الموظفين فى الخدمة . وبذلك يحصل كل موظف من موظفى الديوان ، على إقرار رسمى من من بيزنطة بتعيينه فى وظيفته[٥٣] . والراجح أن إدارة دواوين سائر الدوقات جرت على النحو المتبع فى ديوان الدوق الأوجستال بمصر[٥٤] .

وتبين من البرديات والمصادر التاريخية أن الإدارات التى يتألف منها ديوان الدوق، تشمل ما يأتى :

١ — الإدارة المالية bureaux des numerarié ،وتتولى الشئون المالية

http://www.al-maktabeh.com

بالدوقية ، لا سيما مايتعلق منها بجباية الخراج ، وحفظ أموال الضرائب بالإسكندرية ، تمهيداً لنقلها إلى القسطنطينية ، ويخضع لهم مساعدون adjutores .

٢ — إدارة التجنيد primiscrinius ، وأشار إليها مرسوم انستاسيوس عن ليبيا ، ولم يرد لها ذكر فى النصوص المعروفة عن عهد جستنيان . ويتولى مدير هذه الإدارة ، بالاتفاق مع مدير الإدارة المالية ، توزيع الشهادات على الجندين ، وهى التى تشير إلى أنهم أصحاء البدن ، وأن التحاقهم بالجيش لم يكن الغرض منه الهروب من الإلتزامات البلدية[٥٥] . والراجح أن من هذه الإدارة ، خرجت الإقرارات أو الشهادات probatoriae التى حصل عليها الموظفون المدنيون عند دخولهم الخدمة . وظل ذلك سائداً إلى أن تم الاندماج ، بمقتضى قانون ١٣ ، بين الوظائف المدنية والعسكرية فى الدوقية[٥٦] .

٣ — إدارة الشئون القضائية commentariensis ، وله السلطة العليا فى القضاء الجنائى .

٤ — إدارة المحفوظات (ديوان الإنشا) scrinium de l'abactes ، وبها يجرى تحرير الوثائق وحفظ السجلات .

٥ — إدارة المظالم scrinium de l'a libellis ، وإليها ترفع الملتمسات والشكاوى .

٦ — إدارة المنشآت العامة scrinium operum ، وتنظر فيما يتعلق بالعمائر ، وبفضل اهتمامها تم تشييد استحكامات فيله ، والحصون فى طيبة ومصر الأولى . والراجح أن هذه الإدارة التابعة للدوق الأوجستال ، هى التى تولت مباشرة الأعمال التى جرت فى القرن السادس[٥٧] .

٧ — إدارة الخزانة Scrinium arcae ، فما تم جبايته من الضرائب

بالدوقية ، تتجمع فى الإدارات المعدة لما يتحصل من الخراج نوعاً ، أو المعدّة لما يتحصل من الخراج عيناً[٥٨] .

وأشارت البرديات أيضاً إلى الموظفين المرتبطين بحاشية الدوق ، منهم الموثقون، والمبعوثون (الرسل)، ويتولون أحياناً نقل ما تجمع من الضرائب ، ومنهم رجال البريد[٥٩]. والراجح أيضاً أن ديوان الدوق يشمل مترجمين ، يتولون نقل النصوص الرسمية إلى اللغة القبطية ، ويصح أيضاً أن نشير إلى رجال الحرس المكلفين بالإشراف على الإدارات المختلفة وديوان الدوق، وإلى كاتب ديوان الرسائل، وإلى المقومين assessors .ولهؤلاء المقومين أهمية كبيرة ، إذ يؤدون خدمات جليلة للدوق ، ويتقاضى الواحد منهم مقابل ذلك ليرات ذهبية[٦٠] . ويجوز أن يكون فى حاشية الدوق أيضاً ، أطباء ومدرسون ، مثلما كان معروفاً فى أفريقية . على أن ما وردت من الإشارات فى البرديات عن الأطباء ، إنما يقصد بها الأطباء الملحقون بالبلدية .

والخلاصة : أنه تعددت أعمال ديوان الدوق ، إذ صار مسئولا عن الإدارة المالية ، والإدارة القضائية ، وإدارة العمائر والمنشآت ، والإدارة الحربية . وتقرر لنفقة هيئة ديوان الدوقية فى مصر ، نحو ١٠٠٠ دينار (صولد) ، وديوان دوقية ليبيا نحو ١٨٧½ ديناراً ذهبياً. وخضع الموظفون الذين تألف منهم ديوان الدوق، لما خضع له الدوق نفسه ، من أعباء ومسئوليات ثقيلة[٦١] .

ثالثاً — رؤساء الأبروشيات Praesides

لم يكن لهؤلاء الرؤساء إلا نصيب متواضع فى قانون ١٣، وسبق أن أشرنا إلى أن الحاكين praesides، اللذين توليا حكم مصر الأولى، ومصر الثانية، إنما يخضعان للدوق الأوجستال لمصر، مع احتفاظهما بكل ما كان لهما من امتيازات. وخضع لدوق طيبة، رئيسا أبروشيتيها بديوانهما، وكان ذلك شأن حاكم ليبيا. ومعنى ذلك أن كل حكام الأبروشيات، إنما يخضعون للدوقات الذين ينتمون لهم[٦٢]. ومنهم من اتخذ لقب أرخون archon، أو كونت، وأحياناً دمستق، بل إن حاكم أركاديا اشتهر بأنه كونت دمستق، ومنهم من اتخذ لقب تريبون[٦٣]. كل ذلك يحملنا على أن حاكم أو رئيس الأبروشية، يصح أن يجرى اختياره من بين موظفى الإقليم، ونلحظ أيضاً أن أهل الإقليم كانوا يتولون اختيار رئيس الأبروشية[٦٤]. ولا شك أن إصلاحات جستنيان أضعف بصورة محسوسة، ما كان لحاكم الأبروشية، من مكانة وأهمية فى مصر؛ وذلك لما كان للدوق من سلطة مدنية كبيرة فى كل الدوقية، فأصبح رئيس الأبروشية مجرد تابع للدوق، يرجع إليه فى كل الأمور بعد أن كان منذ زمن قريب، ينوب عنه فى إدارة الدوقية[٦٥]. إذ أنه كان فيما مضى، يلى عمله من قبل الدوق الأوجستال الذى يعتبر الرئيس الأعلى لدوقية مصر كلها، أما الآن فصار يلى عمله من قبل حاكم قريب منه، وهو الدوق الذى يتولى السلطان فى الإقليم، فكأنه صار مجرد مرءوس، وهذا يفسر لنا عدم الاهتمام بالإشارة إليه فى مرسوم الإمبراطور جستنيان. وعلى الرغم من أن الحامى defensor، كان منذ إصلاح سنة ٥٣٥، نائبا عن رئيس الأبروشية، فإن قانون ١٣ ألغى هذه الوظيفة، وبذلك لم يكن لرئيس الأبروشية إلا دور ثانوى، فما يقوم به فى أبروشيته من ممارسة القضاء وجباية الضرائب، إنما يتم تحت إشراف الدوق. ولتأدية هذه الوظائف، كان لزاماً عليه أن يطوف

بأنحاء الإقليم ، فصار تحت تصرفه سفينة أو قارب ، كيما يستخدمها فى رحلاته .

ولما كان رئيس الأبروشية موظفا مدنيا ، فمن الواضح أن تنمو روابط وثيقة بين موظفى إدارته ، و بين الموظفين الموكلين بالإدارة العسكرية . فإذا تقرر مثلا ، جمع المؤن اللازمة للعساكر ، فإن أمر الجباية إنما يصدر من ديوان رئيس الأبروشية. ومثال ذلك ما حدث فى هرمو بوليس ، حينما تلقى أعيان المدينة الأمر بأن يجبوا و يؤدوا المؤن اللازمة لفرقة النوميديين ، المرابطة فى هرمو بوليس لحماية طيبة من غارات المتبربرين(٦٦) .

وثمة حالة خاصة تتعلق بليبيا ، بعد أن انضم إليها ميناليتس ومريوط ، إذ أنه نظرا لبعد هذين الإقليمين عن عاصمة ليبيا ، المعروفة باسم باراتونيوم ، كان السكان يقاسون كثيرا عند قدومهم للعاصمة لرفع قضاياهم أمام محكمة الدوق . يضاف إلى ذلك أن هذين الإقليمين تعرضا لاضطرابات شديدة ، منشؤها من كان يقدم إليهما من الإسكندرية من المثيرين والمحرضين على الفتن . وترتب على ذلك ، أن بُعد مقر الدوق عن هذين الإقليمين ، جعل من العسير المحافظة على الأمن ، لاسيما فى الجهات القريبة من الإسكندرية ، التى اشتهرت بكثرة ماحدث بها من الفتن والاضطرابات ، فضلا عن صعوبة تحقيق العدالة لسكان ميناليتس ومريوط. ولذا عهد الإمبراطور إلى دوق ليبيا ، أن يختار تحت مسئوليته ، موظفا نشيطا ، يوفده نائبا عنه فى كل من ميناليتس ومريوط ، لمباشرة القضاء وحفظ الأمن(٦٧) . وهذا الموظف هو المعروف باسم topoterete ، وكان يتقاضى مرتبا قدره مائة دينار ذهبى ، ولمساعدته فى أعماله ، تقرر ندب عشرين موظفا من ديوان دوق ليبيا ، . وتحتم أيضا على العساكر المرابطين بهذه الجهات النهوض لمساعدته(٦٨) .

أما الإدارات التى يتألف منها ديوان رئيس الأبروشية ، فتشمل إدارة المالية ، والإدارة القضائية ، و إدارة المحفوظات وكتابة الإنشاء ، و إدارة للإشراف على

الموظفين (وتشمل سائر صغار الموظفين ، ومنهم الكاتب ، وساع يحمل الرسائل ، وعمال البريد ، ومشرفون على ميادين السباق ، ومرافقون مدنيون وعسكريون للحاكم (رئيس الأبروشية) . ولدى رئيس الأبروشية كاتب للرسائل يقوم بما يقوم به الكاتب فى ديوان الدوق ، ويخضع لسلطان رئيس الأبروشية فصيلة من رجال الشرطة(٦٩) .

رابعاً — الباجركات

كان الباجركات معروفين قبل صدور قانون ١٣ ، غير أننا لا نعلم على وجه الدقة تاريخ ظهورهم . إذا لم يرد فى قانون من القوانين ، ما يشير إلى إصلاح نتج عنه اختفاء ما كان من تقسيم الأقاليم المصرية إلى أقسام pagi ، وإلى أنه حل مكان هذه الأقسام ، تقسيم جديد هو الباجركات(٧٠) .

وما ورد فى برديات قينا من نصوص ، تدل على أن الموظف المعروف باسم praepositus pagi ، لا زال معروفا فى سنة ٤١١ . غير أن ثمة نص آخر ، نستطيع بمقتضاه أن نقرر أنه كان بطيبة باجركات زمن الإمبراطور ليو ، أى قبل سنة ٤٧٤ (أى سنة التى توفى فيها هذا الإمبراطور)(٧١) . ويرى جان ماسبيرو أن نظام الباجركات يرجع إلى حوالى سنة ٤٦٠ أو سنة ٤٧٠ ، اعتمادا على ما كان حادثا فعلا فى سنة ٤٧٤ من وجود باجركات ، ولما لاحظه من جهة أخرى من أن ميناس كان فى سنة ٥٥١ الباجرك التاسع لأنتايو Antaiou(٧٢)* . على أنه كيف حدث فى القرن

(٧٢*) يقرر ماسبيرو أنه لما كان متوسط ما يقضيه الباجرك فى وظيفته هو عشر سنوات ، فكأن أول باجرك تعين فى أنتايو ، كان سنة ٤٧٠ ، ولما كانت أفروديتو ، فى إقليم أنتيابوليس حصلت على براءة بالجباية الذاتية من الإمبراطور ليو ، فإن ذلك يدل على أن الباجركيات ظهرت فى زمنه ، انظر Maspero: p. 1—3

الخامس، احلال الباجركات مكان الباجوسات؟(٧٣)* . الراجح أن ظهور الباجركات مرتبط بما حدث فى القرن الخامس من تغييرات خطيرة فى الإدارة المالية . فما حدث سنة ٤١٥ من اعتراف الحكومة المركزية بنظام الحماية ، بعد أن فشلت فى منعه، وما جرى من ازدياد عدد كبار الملاك ، ونمو نفوذهم ، وحصولهم على حق الجباية الذاتية Autopragia ،وظهور القرى المتمتعة بالجباية الذاتية ، كل ذلك دعا بيزنطة إلى تعديل وتغيير التنظيمات الإدارية ، التى لم تعد تتفق وتتلاءم مع مقتضيات الأحوال(٧٤) .

ويستمد الباجرك سلطاته من الإمبراطور رأسا ، وفى حالة ما إذا لم يقم بتأدية واجبه ،لم يكن للدوق السلطة فى عزله،فإذا لم يؤد الباجرك واجبه على الوجه السليم تقدم الدوق بتقرير عنه إلى والى الشرق ، حتى إذا وقف الإمبراطور على ماوقع كان وحده هو الذى يقرر عزل الباجرك المذنب، وتعيين من يخلفه فى منصبه(٧٥) . والواضح أن وظيفة الباجرك ، كان يتولاها أفراد ينتمون إلى طبقة الموظفين officiales ،أو إلى طبقة كبار الملاك المحليين ، واتخذ بعض الباجركات لقب كونت(٧٦) . ويعتبر الباجرك من الناحية الرسمية ،مرؤوسا للدوق، ومن النصوص البردية مايشير إلى أن جستنيان هو الذى قرر تنفيذ هذا المبدأ(٧٧) .

غير أنه من العسير أن نتبين تماما،ماللباجركات من اختصاص إدارى، فيرى بعض العلماء أن الباجركية تطابق « النوم nome »المعروف قديما ،وأن سلطة الباجرك لا تتجاوز عاصمة النوم (الاقليم) ، وما يتبعها من القرى والضياع، فالباجركية تعتبر من الوحدات الإدارية الأساسية(٧٨)** . بينما يرى فريق آخر عكس ذلك ،و يشيرون

(٧٣*) يرى Bell أن الباجوس ، الذى كان يعتبر من أقسام النوم ، يصح أن يطابق ما كان معروفاً من قبل باسم توبارخيه toparchie ، على حين أن الباجركية تطابق النوم nome بأكمله ، ولا تطابق الباجوس . انظر : Rouillard :p. 57

(٧٨**) يرى ماسبيرو ، صاحب الرأى الذى سبق الإشارة إليه، أنه كان بمصر ٨٤ باجركية ، تقابل النومات المعروفة من قبل . انظر : maspero: p. 77

http://www.al-maktabeh.com

إلى أن رجال البلدية هم الذين يتولون شئون عاصمة النوم (الإقليم) ، أما الباجرك فإن سلطته تشمل كل مايحيط بالمدينة من القرى ومايتبعها من الأراضى ، باستثناء القرى والضياع التى تتمتع بحق الجباية الذاتية[٧٩] .

وعلى الرغم من أن سلطة الباجرك فى المدينة لم تكن شديدة الوضوح، فالراجح أن الباجركية ، أى المدينة وكل الأراضى المحيطة بها ، تعتبر فعلا وحدة مالية تخضع للإشراف العام من قبل الباجرك ، وأن الباجرك مسئول عن جباية الضرائب من سائر الجهات التى لم تتمتع بالجباية الذاتية[٨٠] . فنى قانون ١٣ مايشير إلى أن أعمال الباجرك تغلب عليها الصفة المالية ، وورد أيضاً فى البرديات ما يؤيد هذه الحقيقة . غير أن الباجرك فيما يبدو كان يشارك أيضاً فى الأمور القضائية ، بما يقوم به مثلا من تنفيذ القرارات أو الأحكام التى تصدر عن محكمة الدوق[٨١] .

ويخضع لأوامر الباجرك جماعة من الموظفين ، منهم الجباة ، والمراقبون ، والكتاب، والمساعدون. وتقرر أن يكون تحت تصرفه سفينة و بحارة ، حينما يطوف بالبلاد لتفقد أحوالها[٨٢] .

وتقرر فرض عقوبات مالية على الباجركات المهملين أو المتهمين بعدم الأمانة، وعندئذ يتعرض الباجاركة إلى مصادرة أملاكهم . والإمبراطور وحده هو الذى يقرر ما للباجاركة المعزولين من أملاك[٨٣] . و بذلك توافر لدينا دليل جديد على أهمية الباجاركة فى إدارة مصر ، إذ أنهم متى باشروا جباية القمح أو الأموال ، أو قاموا بتنفيذ أحكام القضاء ، صارت مهمتهم بالغة الدقه ، إذ أنهم يتصلون بالسكان مباشرة[٨٤]* .

(٨٤*) يرى ماسبيرو أن الباجرك يمثل السلطة المركزية (الحكومة) ، على حين أن نواب البلدية يمثلون السكان ، والمعروف أن الباجركية اتخذت اسم المدينة التى تطابق عاصمة النوم القديم ، ومايقوم به الباجرك من عمل من الناحية المدنية ، شبيه بما يؤديه التريبون من الناحية الحربية . فكأن المدينة يديرها الباجرك من الناحية المدنية ، والتريبون من الناحية الحربية (انظر Rouillard : p. 59, Maspero : p. 88.

وما للباجرك من عمل مزدوج ، باعتباره ممثل السلطة المركزية فى المدينة ، وفى الأراضى المحيطة بها ، وباعتباره جابياً للضرائب فى الجهات التى تتمتع بالجباية الذاتية ، إنما يتضح إذا أدركنا أن الباجاركة إنما جرى تعيينهم لسد الحاجات الإدارية الناجمة عن انتشار نظام الجباية الذاتية . فباعتبار الباجرك جابياً للضريبة، شغل وظائف رؤساء المراكز praepositi pagi، المعروفين منذ عهد قريب فى دائرة النوم القديم [٨٥] . يضاف إلى ذلك ، أنه ترتب على ازدياد عدد الذين أفادوا من الجباية الذاتية من الأفراد والقرى ، أن ضعفت سلطة رئيس الباجوس فصار من الطبيعى أن تجتمع كل الأقسام (الباجوسات) التابعة للنوم فى يد الباجارك [٨٦] .

خامساً — إدارة المدن أو البلديات

اهتم جستنيان بإعادة تنظيم إدارة المدن ، بعد أن تعرضت منذ القرن الثالث للانهيار والتداعى ، إذ أن نواب البلدية ، بعد أن تجردوا من سلطانهم ، وتخلوا عن واجباتهم لممثلى الحكومة ، أخذوا بالتدريج يخضعون، نتيجة ذلك ، لنوع من الوصاية [٨٧] .

ولا شك أن ما كان للسلطة المركزية من سيطرة على ممثلى الإدارة المحلية ، إنما تتفق وتتجاوب مع الرغبة فى إقرار الأمن والوحدة ، التى تنطوى عليها كل اصلاحات جستنيان [٨٨] . ولذا أبقى جستنيان بالإسكندرية ، التى كان لها مكانة ملحوظة فى اصلاحاته ، الموظف المعروف باسم Vindex ، الذى أقامه الإمبراطور أنستاسيوس لإدارة الشئون المالية ، والذى يخضع لسلطانه نواب بلدية الاسكندرية ويعتبر ممثل السلطة المركزية ، ويخضع لسلطة الأوجستال فيما يتعلق بالإدارة المالية [٨٩] . والواضح أن إقامة الموظف الإمبراطورى Vindex يلائم سياسة جستنيان ، فما اشتهرت به الإسكندرية من سرعة الإثارة ، وجنوحها لإحداث

القلق والاضطراب ، إنما يهدد باستمرار نظام جباية الضرائب وحفظ الأمن في البلاد [٩٠]. أما خارج الإسكندرية ، فإن جستنيان ، وجه اهتمامه إلى اتخاذ التدابير اللازمة لأن تجعل من أعضاء البلديات ، عمالا مخلصين للحكومة في جباية الضرائب وحفظ الأمن العام [٩١].

و بفضل ما ورد فى الملحق ١٥ ، وفى القانون ١٣ ، من تفاصيل ، و بفضل ما توافر من المعلومات من أوراق البردى ، يصح الوقوف على الخطوط العريضة التى تنطوى عليها النظم البلدية [٩٢] . ففى كل من المدن التى تتألف منها الأبروشية ، يقوم إلى جانب الباجرك ، نواب البلدية ، وقد اشتهروا باسم bouleutes ، وورد ذكرهم فى القانون ١٣ ، على أنهم عمال لجباية الخراج ، إلى جانب الباجاركة ، ويجوز لهم أن يقدموا إلى عاصمة الدوقية للتشاور مع ممثلى السلطة المركزية فى أمر الضرائب [٩٣] . وقام بمساعدة نواب البلدية ، ديوان (مجلس) البلدية ، ومن أعضائه كاتب الحسابات ، والكاتب ، ومتولى الدعاوى أو الشكاوى ، والخازن المكلف بحفظ الضرائب بعد جبايتها . وارتبط بالمدينة أيضاً كبير الأطباء ، وموظفون موكلون بالإشراف على صيانة الجسور ، و يرأسهم موظف اشتهر باسم lepistate ، وموظفون يشرفون على الحمامات العامة بالمدينة [٩٤] .

ثم أخذت أعمال البلدية فى التضاؤل ، بسبب وجود وظيفة حامى المدينة defensor civitatis ، التى عمل جستنيان آخر الأمر على تعديلها [٩٥] . ذلك أنه اهتم بأن يضع حداً للابتزازات والمظالم التى لم يستطع الحماة أن يوقفوها و يمنعوها ، بل أنهم هم الذين ارتكبوها ، فقرر جستنيان أن تكون هذه الوظيفة من الالتزامات المفروضة على الأعيان ، و بذلك فقد حامى المدينة ما كان له من صفة تقليدية ،

التى تتمثل فى أنه كان وسيلة لجأت إليها السلطة المركزية لحماية دافعى الضرائب من ظلم الجباة[٩٦] .

ومنذئذ ، أخذ نفوذ حامى المدينة يتضاءل ، بسبب تداعى النظم البلدية ، وازدياد نفوذ كبار الملاك[٩٧] . ومع ذلك لا زال للحامى فى المدينة أهمية خاصة ، ذلك أنه يعتبر رئيس هيئة نواب البلدية ، يشارك فى إدارة المالية و إدارة القضاء[٩٨] . و يجرى انتخابه من بين رجال الدين بالمدينة وأعيانها ، و بناء على ترشيح ملاك الأراضى[٩٩] .

و يخضع لسلطان الحامى عدد من المستخدمين، يساعدونه فى تأدية أعماله[١٠٠] . وما حدث فى القرن السادس من ازدياد نفوذ الكنيسة ، إنما يرجع إلى ما كان لها من أهمية فى الإدارة البلدية ؛ إذ أضحى للأسقف الحق فى أن يشترك مع الأعيان فى اختيار بعض الموظفين ، وأن يشرف على الموارد المالية للمدينة ، و يسهر الأسقف ، بمساعدة بعض الوطنيين ، على صيانة الحمامات ، والأهراء البلدية (الشون) ، والسقايات والجسور . ومن أعماله التأكد من صحة ما يستخدم بالمدينة من الموازين والمكاييل[١٠١] . ومن الطبيعى أن تسود هذه النظم العامة فى مصر ، إذ أن بطريرك الإسكندرية حنا المتصدق ، كان يبعث من قبله من الموظفين أمثال economes ، و chaneellors ، فيطوفون بأرجاء المدينة[١٠٢] .

أما عن القرى فقد ظلت الحياة البلدية جارية فى القرى المتفرقة فى زمام المدينة ، سواء كانت هذه القرى تمتعت أو لم تتمتع بالجباية الذاتية فيما يتعلق بالضرائب[١٠٣] . وتعتبر القرية فى مصر البيزنطية أهم وحدة إدارية ، لما تحتمله من مسئولية زراعة الأرض التابعة لها ، وتأدية ما تقرر عليها من ضرائب والتزامات . فكانت القرية هى التى تملك الأرض ، و يعتبر القرويون ، كجماعة ، مسئولين عن هذه الأراضى .

http://www.al-maktabeh.com

فلم يكتف القروى بالتمسك بهذه الملكية ، بل إن القانون تولى حمايته ومساعدته ؛ إذ حرم على الغرباء (الأجانب عن القرية)، أن يحوزوا شيئاً من الأراضى الواقعة فى زمام القرية[١٠٤] .

وللقرية حكومتها الخاصة التى تسير أمورها الداخلية ؛ فعلى رأس القرية يقوم أعيانها ، ومن بينهم جماعة كانت لهم مكانة ملحوظة ، بل إنهم قاموا بالسلطة التنفيذية واشتهر هؤلاء الأعيان بأسماء مختلفة، منها comarchs,protocometes ، وهم الذين يشتركون بطبيعة الحال ، فى الإدارة المالية ، فيتدخلون فى كل ما يتعلق بجمع المؤونة اللازمة للجند ، و يسهمون فى تنظيم الشرطة بالقرية[١٠٥] .

على أن ما تقلده هؤلاء الأعيان من الوظائف ، إنما دانوا بها إلى مواطنيهم، فكانوا يعملون لصالحهم . مثال ذلك أن أعيان أفروديتو تدخلوا ذات مرة لصالح أحد سكان قريتهم ، الذى استأجر أرضاً تابعة لكنيسة أنتينوى[١٠٦] .

أما الكومارك فمن الواضح أنهم يؤلفون جانباً من هيئة الأعيان protocometes ،وكذلك كان شأن الميزون (meizoteros) meizon. على أن الموظف الأخير تعرضت اختصاصاته للتعديل فى الأزمنة المختلفة ، فتارة كان يقصد به حاجب القصر ، وأحيانا كان يستمد سلطته من الباجرك ، وقد يتخذ لقب كونت . وفيما سوى هذه الحالات يعتبر الميزون من موظفى بلدية القرية ، و يتقاضى مقابل ما يؤديه من أعمال مرتبات، وهذه الأعمال تتعلق تارة بإدارة القضاء، وتارة بالإدارة المالية[١٠٧]. فكأن أعماله لا تختلف كثيراً عن أعمال هيئة الأعيان protocometes ، والراجح أنه كان يرأسهم[١٠٨] . على أن المعروف أن قرية أفروديتو ، بوجه خاص ، كان يتولى إدارتها اثنان أو ثلاثة من الموظفين المسمين protocometes، يؤدون أعمالهم بطريق الإلزام، لا سيما ما يتعلق منها بجمع القمح. ومن الواضح أنه متى ازداد عدد رؤساء هيئة الأعيان(meizons)تألف منهم شبه

لجنة تنفيذية . فكأنه تألف بكل قرية مجلس محلى، يتكون من الأعضاء المكلفين بإدارة المالية مثل الجباة ، والكتّاب ، وعمال البريد . والراجح أن القائمين على الشرطة المحلية ينتمون أيضا إلى هذا المجلس . والراجح أيضا أن هذا المجلس يختلف باختلاف حال القرى ، ما إذا كانت تتمتع أولا تتمتع بالجباية الذاتية(١٠٩) . فإذا كانت القرية تتمتع بحق الجباية الذاتية ، صار لأعضاء المجلس علاقات دائمة مع دواوين رؤساء الأبروشيات ، فيما يختص بإدارة الشئون المالية . فمن هذا الديوان ، يتلقون الأوامر المتعلقة بجباية الضرائب أو الشرطة ، ويتلقون أيضا الإنذارات بالعقوبات ، التى يجرى توقيعها على المخالفين . ويتحتم عليهم فى بعض الأحوال ، أن يقدموا للمدينة ليجتمعوا بممثل السلطة المركزية ، للتشاور فى الأمور المتعلقة بمصالح القرية . ولهؤلاء الأعيان أيضا علاقة بالباجرك ، الذى تمتد سلطته إلى القرى الواقعة فى باجركيته ، ولو كانت متمتعة بحق الجباية الذاتية(١١٠) .

وحدث فى القرن السادس الميلادى أن اتخذ الاهتمام بتأدية بعض الخدمات العامة صورة إلزام أو تكليف ، جرى فرضه على أشخاص ينتمون إلى الطبقة الموسرة . والراجح أنه لم يجر تعديل ، منذ العصر الرومانى ، بشأن المكلفين بتأدية أعمال عامة ، ونستدل من وثائق القرن السادس أنه لا يجوز تكليف شخصين فى وقت واحد ، بتأدية عمل واحد ، وأن بعض أعمال السخرة كانت وراثية ، مثل وظيفة جابى الخراج exactor ، وفئة المجدفين فى سفن الدوق . ويجوز أن تتحول وظيفة التزامية إلى وظائف عديدة ، تؤدى بطريق الإلزام أو السخرة(١١١) .

والوقع أن وثائق العصر البيزنطى تشير إلى طائفة من الأعمال التى يجرى تأديتها عن طريق السخرة أو الإلزام ، فى المدن والقرى ، وأعمال حكومية . فمن الالتزامات بالمدن والقرى ، ما يتعلق بالشروط المحلية ، ومن الالتزامات الحكومية ما يرتبط بالتجديف فى سفينة الدوق التى يطوف بها الدوقية لتفقد شئونها ، ومنها أيضاً وظيفة جابى الضرائب exator ، أما وظيفة حامى المدينة فتعتبر من أهم أنواع السخرة والإلزام ، ويتولاها شاغلها لمدة سنتين ، ولا يستطيع فى أثنائهما أن يتخلى عن الأعباء المفروضة عليه مهما انتحل من المعاذير . وعلى الرغم من أن نقل القمح إلى القسطنطينية يعتبر من الأعباء المقررة على البحارة ، فإن الحكومة كانت حريصة على أن تبذل لهم ما يعوضهم ويجزيهم[١١٢] .

الفصل الثامن

التنظيم المالى منذ زمن جستنيان

أنواع الضرائب :

فرض الإمبراطور على كل الموظفين واجباً واحداً ، وهذا الواجب هو أن يهتموا بالإدارة المالية بالقطر المصرى . إذ أن مصر ، بما اشتهرت به من الخصوبة والثروة ، لا بد من اتخاذ الوسائل اللازمة لتنظيم استغلالها . وعلى الرغم من أن جستنيان لم يفرض ضرائب جديدة على مصر، فإنه أجرى من الإصلاحات المالية ما يكفل جباية الضرائب المقررة[1] .

فما تقرر من ضريبة القمح ، ومن واجب صيانة الجسور ، يعتبر من الواجبات التى اختصت بهما مصر ، وفيما عدا ذلك ، كانت مصر تؤدى من الضرائب ما تؤديه سائر أقاليم الإمبراطورية ، فى زمن الأباطرة السابقين على جستنيان[2] .

والضرائب على نوعين : الضرائب المباشرة ، والضرائب غير المباشرة . وتعتبر ضريبة الأرض أهم الضرائب المباشرة ، ويجرى تحصيلها إما عيناً (من نفس المحصول) ، أو نوعاً (تقديراً) . وما تحصل من دافعى الضرائب المصريين من النوع الثانى ، انقسم قسمين : الأول ، يشمل الضرائب الثابتة أو الدائمة ، أما القسم الثانى فهو عبارة عن الالتزامات الاستثنائية[3] .

وحدث فى القرن السادس أن تكفلت القرى والمدن بدفع مرتبات موظفى الحكومة ، أو موظفى الباجركية والأبروشية والدوقية . ومن الطبيعى أن يقع الجانب الأكبر من هذا العبء على عاتق دافعى الضرائب ، دون أن يُعفوا مقابل ذلك من دفع الضريبة المعروفة باسم arcarica، التى جرى تخصيصها لدفع مرتبات الموظفين[4] .

ضريبة الرأس :

وإلى جانب ضريبة الأرض ، تقررت ضريبة مباشرة أخرى ، وهى المعروفة بضريبة الرأس ، وهى ضريبة شخصية . وتقرر تسجيل وإثبات دافعى هذه الضريبة ، حسب الشوارع والدروب التى يقيمون بها ، وهذه الضريبة كان يدفعها أيضاً أرباب الحرف(٥) .

فعلى الرغم من أن القانون الذى أصدره والى مصر سنة ٢٩٧ ، قضى بإجراء إحصاء لكل السكان المشتغلين بالزراعة ، وقدر الحد الأعلى والحد الأدنى للأعمار ، وفقاً لقانون الإمبراطور دقلديانوس ، فإنه لم يجر تعداد السكان(٦) إلا بعد سنة ٣٠٩ — ٣١٠ م ، حين تقرر ذلك فى كارانيس (كوم أوشيم) ، وتيادلفيا (بالفيوم) . وترتب على الذكور البالغين من العمر بين ١٢ ، ٥٤ سنة ، أن يدفعوا الضريبة (ضريبة الرأس)(٧)* ، ولم ترد إشارة إلى أن أحداً من السكان دفع ضريبة الرأس ، وفقاً لحسابات ضيعة هرمو بوليس فى القرن السادس(٨)** .

والراجح أن الضريبة المعروفة باسم capitatio ليست إلا ضريبة الأرض ، وذلك لارتباط الشخص بأرضه وفلاحيه وسائر ما يملكه من الأشياء(٩)*** .

(٧*) لا توجد أدلة أخرى تشير إلى الحد الأعلى أو الحد الأدنى للأعمار ، ولم تظهر سجلات أخرى لتعداد سكان مصر البيزنطية ، ولم ترد إشارة إلى أن أحداً من السكان ، دفع ضريبة الرأس ، وفقاً لحسابات ضيعة هرموبوليس فى القرن السادس
Johnson : Ec. St. p. 262.

(٨**) هرموبوليس قرب أبى قرقاص الحالية. Ibid p. 262

(٩***) المقصود بذلك أن الحائز للأرض يدفع ضريبة عن أرضه ، وعن نفسه ، وعما يمتلكه ، وفى حوزته من الدواب والحيوان وسائر الأشياء . إذ جرت الإشارة إلى **capitatio Jugatio** و **capitatio humana** وإلى **capitatio animalium**
انظر : Camb. Anc. Hist. XII, p. 400.

المكوس الجمركية :

ومن الضرائب غير المباشرة ، المكوس الجركية ، التى تفرض على المتاجر التى ترد إلى مصر ، أو تخرج منها . إذ أن الحركة التجارية ، عبر مصر ، كانت بالغة النشاط . فمن الإسكندرية ، ومن الموانى المصرية على البحر الأحمر ، ارتحل التجار يسعون للحصول على ما تحتاج إليه بيزنطة من آسيا ، من مواد الترف والزينة . فالمر والعطور ، التمـوها من اليمن ، والتوابل واللؤلؤ من الهند ، والحرير من الصين (لسد حاجة المصانع الإمبراطورية). وقد رضى البيزنطيون بأن يحصلوا على الحرير من الصين عبر إيران ، لاستخدامه فى الصناعة الإمبراطورية ، وذلك على الرغم من أن هذه التجارة ، تعرضت للأخطار الناجمة عن الحروب المستمرة بين فارس و بيزنطة . على أن الإمبراطور جستنيان حاول سنة ٥٣٢ أن يتخذ طريقا جديدا لتجارة الحرير عبر مصر ، فعقد معاهدة صداقة مع الأثيوبيين ، الذين تولوا نقل الحرير ، عن طريق البحر الأحمر . غير أن هذه المحاولة فشلت لأن التجار الأحباش حينما كانوا يترددون على موانى (سيلان) التى تصل إليها السفن القادمة من جزر الهند الشرقية ، تبين لهم أن الفرس كانت لهم السيطرة على الأسواق . ولم يلبث أن انعقد الصلح بين فارس وبيزنطة فى نفس السنة (٥٣٢م) ، فعادت الأمور إلى مجاريها ، وعاد البيزنطيون إلى الاستيراد عن طريق فارس [١٠] . أما المتاجر الأخرى ، فان الأحباش تفوقوا فيها على الفرس ؛ ومن ثم نشطت التجارة بين الموانى المصرية ، و بين ميناء عدول (زيلع) ، الذى يعتبر أهم موانى أثيوبيا . فمن هذا الميناء صارت ترد المتاجر من داخل افريقية ، الزمرد (من بلاد البليميين) ، والعاج والذهب . وصارت السفن المصرية تحمل مقابل هذه المتاجر ، إلى أهل البلاد اللحوم والملح والحديد والرقيق [١١] .

على أن مصر قامت أيضاً بتصدير بعض منتجاتها ، فقد جاز لمصر أن تصدر

http://www.al-maktabeh.com

ما استغنى عنه من القمح إلى الخارج، بعد تأدية ما هو مقرر عليها من ضريبة القمح القسطنطينية . وصار للمصريين الحق أيضاً فى أن يصدروا منتجات أراضيهم إلى بلاد العرب شرقا ، وإلى الغرب . فالبردى الذى كان ينمو على شواطىء النيل ، والأوانى الفخارية المصنوعة فى مصر، والمنسوجات الحريرية ، صارت كلها تصدر من الإسكندرية إلى غرب البحر المتوسط ، وقد اشتهرت الإسكندرية بما كانت تصنعه من المنسوجات الحريرية والملابس التى اختصت بصناعتها القسطنطينية(١٢) .

والواضح أن السلطة المركزية أفادت من النشاط التجارى بالبلاد ، بما فرضته على المتاجر من مكوس جمركية . ففى زمن جستنيان ، كانت هذه المكوس باهظة ؛ ومن الدليل على ذلك أنه قرر فى مرسوم ١٣ الصادر فى سنة ٥٣٨ ، تخفيض مقدار الضريبة المقررة على المتاجر المصدرة من الإسكندرية ،وتقرر أيضاً تحصيل رسوم على السلع التى تصدر من الموانى المصرية الأخرى ، وعلى السلع التى ترد إليها . مثال ذلك أنه كان بجزيرة يوتاب(جزيرة تيران الحالية بخليج العقبة)، جمرك تحتم على السفن المتوجهة نحو القلزم أن تؤدى فى هذا الجمرك ما تقرر من الرسوم على المتاجر القادمة من الهند(١٣) . والراجح أن ما أقامه الرومان من قبل ، من نقط ومراكز لتحصيل الرسوم الجمركية ، لازال قائما حتى القرن السادس . على أن المصادر لم تشر إلا إلى الرسوم المقررة على الأسواق(١٤) .

ومن الدليل على أهمية الرسوم الجمركية،أن الموظف المكلف بإدارة الجمارك، المعروف باسم الابارك alabarque ، كان يعتبر من كبار الموظفين ،إذ أن جستنيان كان يستدعيه للاجتماع بالدوق الأوجستال، ومتولى الخزانة العامة ، ويطلب إليهم الإهتمام بأن مايدفعه المولون من الضرائب ، ينبغى أن يؤدى بالنقد الصحيح الخالص(١٥) .

ومن الضرائب غير المباشرة ، ما تحمله دافعو الضرائب من أعباء السخرة ، إذ تحتم عليهم أن يقوموا بصيانة الجسور ، وحفر الترع وتطهيرها ، وزراعة الأراضى

العامة[١٦] . و إلى جانب مايدفعه سكان مصر إلى الحكومة من الضرائب قاموا أيضاً بدفع رسوم للبلدية ، تقررت على القرى والمدن لسد النفقات المحلية [١٧] . وما لجأ إليه جستنيان سنة ٥٤٥ ، من مبدأ فصل ضرائب الحكومة عن ضرائب البلدية ، لم يطبق من الناحية العملية . و يضاف إلى الضرائب التى سبق ذكرها ، ماجرى الالتزام به من تزويد الجيش بالمؤونة و إمداده بالجند[١٨] .

تقدير الضرائب

لم تتعرض المبادىء العامة لتقدير ضريبة الأراضى إلا لبعض التعديلات منذ القرن الرابع ، إذ ظلت أراضى مصر منقسمة إلى الوحدات المساحية التى جرت زمن دقلديانوس . غير أن الضريبة العقارية المقررة على كبار الملاك ، لم تعد داخلة فى هذا التقدير ، بل أضحت عبارة عن مقدار معين « حصة معينة » يؤديه أولئك الملاك الكبار رأساً إلى الحكومة ، اعتماداً على ما صار لهم من حق الجباية الذاتية[١٩] .

وقد حدد جستنيان فى قانون ١٣ ، الوسائل التى يجرى بمقتضاها تقدير الضرائب ، إذ أن والى الشرق يبعث من قبله كل سنة ، فى شهرى يوليه وأكتوبر ، مندوبين مفوضين ، إلى حكام الأقاليم . و يشير والى الشرق إلى ما ينبغى تحصيله من كل وحدة ضرائبية من الخراج نوعاً أو عيناً ، وما هو مقرر على كل وحدة من هذه الوحدات من الضريبة ، إنما يجرى بمقتضى العرف والعادة . غير أن نوع الضريبة ، إنما ارتبط بحالة الإقليم وقدرته الإنتاجية . مثال ذلك ، أن ليبيا ، حينما اختل بها زراعة القمح ، صارت ضريبتها نوعاً[٢٠] .

و يقوم هؤلاء المندوبين بشرح الطريقة ، التى تتبع فى تحصيل الضريبة فى سائر الأقاليم . وتحتم على الموظفين أن يستقبلوا اللجان أو المندوبين الذين

تبعث بهم بيزنطة (القسطنطينية) ، فى يوليو أو أغسطس ، كما تشرف على ما يرسل من مصر من الضرائب ، فى سبتمبر وأكتوبر[٢١]. وهؤلاء المندوبون إنما يجرى تقديمهم إلى رؤساء الأبروشيات ، لا إلى الدوقات ، زمن جستنيان ، باعتبارهم الحكام المدنيين للاقاليم ، وهم الذين يتولون توزيع مقادير الضرائب للباجركات والمدن والقرى.[٢٢]

وفى داخل الباجركية ، يتولى الباجرك عادة توزيع مقدار الضريبة ، تحت إشراف موظف كبير ، هو عادة رئيس الأبروشيه ،غير أن التوزيع لا يقوم به فى كل الأحوال رئيس الأبروشية . ومن الدليل على ذلك ما ورد فى ملتمس أهل أفروديتو ، من أن الباجرك زاد من الضريبة المقررة ، وليس من حقه أن يعدل فى المقدار ، الذى تحدد بمقتضى قرار ليس فى وسع الباجرك إلا أن ينفذه[٢٣] .

على أن مقدار الضريبة العقارية (الخراج) ، التى تؤخذ نوعاً من الباجركية، لم يكن موحدا ؛ لأن هذه الضريبة جرى وضعها بحسب طبيعة الأرض وقوتها الإنتاجية . فنى الشكوى التى سبق الإشارة إليها ، شرح سكان أفروديتو ، (كوم اشقاو) لدوق طيبة ، أن تربة أرض القرية رملية ، وليست جيدة الخصوبة، ومع ذلك تقرر عليها من الضرائب ، مثلما تقرر على سائر جهات الباجركية ، إذ تقرر على الفدان الصالح للزراعة أن يدفع قيراطين ، بينما تحتم تحصيل ثمانى قراريط عن الفدان الذى يزرع كروما . وهذه المقادير إنما تقررت ، عقب زيارة مفتشين من قبل الإمبراطور ، عهد إليهم بتثبيت مقدار الضريبة فى كل الباجركية[٢٤].

وجرت التفرقة أيضا ، عند تقدير الضرائب، بين الأرض المهملة(البور)، و بين الأرض التى لا تصلها مياه الفيضان،غير أنه يصح أن تبلغها المياه بالأدوات الرافعة . على أنه ترتب على مبدأ تقرير الضريبة العقارية، وفقا لخصوبة الأرض أن قرية من

قرى الباجركية قد تعجز عن تسديد الضريبة المقررة عليها بسبب خيبة المحصول فى وقت من الأوقات(٢٥). ومتى تقرر مقدار الضريبة على القطاعات (الأقسام) المختلفة بالباجركية، لابد من تقدير مساحة كل قرية ، حتى يتحدد ما يخصها من الضرائب(٢٦).

ونظراً للمسئولية الجماعية التى تحملها دافعو الضرائب ، منذ زمن قنسطنطين، فى كل الإمبراطورية ، إزداد الاهتمام بتوزيع الضرائب على جميع أراضى الإقليم سواء كانت مهملة أو لا مالك لها(٢٧). ولضمان جباية الضريبة ، برغم هروب الملاك الذين هجروا أراضيهم حتى لايدفعوا ما هو مقرر عليها من الضرائب ، ولإصلاح ما أصاب الزراعة من تدهور مستمر ، لجأت السلطة المركزية ، إلى إلزام من تبقى من المزارعين بالقرى الواقعة فى هذه الأراضى ، التى هجرها أربابها ، والتى تقع على حافة الصحراء ، بأن يدفعوا الضريبة المطلوبة . وأبقى جستنيان على النظام المعروف باسم epibolé ، الذى يلزم أرباب الأراضى بأن يقوموا على زراعة ما يجاور أراضيهم من الأراضى المهملة ، والراجح أن الأباطرة الذين جاءوا بعد جستنيان لم يقدموا على إلغائه(٢٨).

ومتى تحددمقدار الضريبة المقررة على كل قرية جرى توزيع هذا المقدار بين سكان القرية،وفقاًللسجل المحفوظ عند رئيس القرية،والذى يحوى أسماء السكان(٢٩). وعند تحـــديد الضرائب المقررة على أراضى كل شخص ، لابد من مراعاة مساحة الأرض ، ودرجة خصوبتها . فإذا تمت مساحة القرية ، وجرت معرفة صفة الأرض وطبيعتها التى على أساسها تقررت الضريبة ، وتحدد مقدارها ، صار من اليسير الوقوف على مقدارما يدفعه المالك من الضرائب. والراجح أن أعيان القرية كانوا يشتركون فى تقدير الضرائب، على أنه لم يكن يكفى الأخذ بما يقدمه الملاك

http://www.al-maktabeh.com

من إقرارات ، إذ أن أعضاء مجلس البلدية كانوا يتحرون الوقوف على عدد الوحدات الضرائبية المرتبطة بدافعى الضرائب[٣٠].

جباية الضرائب :

إذا كانت جباية الضريبة العقارية المعينة ، تبـدأ فى مستهل كل دورة مالية ، فإن الضريبة النوعية تجرى فى وقت معين ، عقب قدوم المندوبين الذين أوفدهم والى الشرق[٣١].

وحدث فى القرن السادس ، التزام القاعدة التى وضعهـا الإمبراطور انستاسيوس ، والتى بمقتضاها صارت الضريبة تؤدى على ثلاثة أقساط ، ولم تخرج مصر على هذه القاعدة[٣٢].

ووفقا لقانون ١٣ ، تجرى جباية الضريبة العقارية النوعية تحت الإشراف المباشر لوالى الشرق ، أو يعهد بجبايتها إلى الدوقات حسبما تقتضيه الأحوال . وتنقسم الضرائب الثابتة إلى قسمين : الأول ، ويشمل الضريبة المعروفة باسم canonica أو largitionalia[٣٣]* ، وهى التى ترسل إلى الخزانة العامة بالعاصمة (بيزنطة) ، أما القسم الثانى ، فكان عبارة عن الضريبة المعروفة باسم arcarica ، والتى يجرى إرسالها إلى خزانة الوالى الكبير[٣٤] .

وتقرر فى قانون ١٣ ، أن الدوق الأوجستال وإدارته ، ليس له أن يتدخل

(٣٣*) المعروف أن أهم مصادر الدخل وأوفرها ثمرة ، ضريبة الأرض واشتملت هذه الضريبة على شطرين : الشطر الأول ، يتمثل فى الضريبة المقررة فعلا على الأرض canonica ، وتقابل الضريبة التى كانت مقررة على البلاد المفتوحة (tributum) ، والشطر الثانى ، وهو الضريبة المعروفة بالميره ، وكانت الضريبة الأولى تدفع نقداً . (انظر :

Bury : op. cit. p. 46.

فى جباية ضريبة arcarica ،إلا فيما يقدمه من المساعدة الأكيدة لموظفى والى الشرق . و بناء على أمر الوالى ، أو على طلب موظفيه أو مساعديهم ، ينبغى على الدوق أن يجعل نفسه تحت تصرف هؤلاء الموظفين ، و يتعهد بأن يندب لمعونتهم كل من يخضع لأوامره من التريبونات والجند ، فضلا عن موظفى إدارته أو ديوانه . و بذلك تلقى موظفو الإدارة المالية ، المساعدة من قبل الموظفين المدنيين والعسكريين ، من أجل استخلاص الأموال من الذين تأخروا فى دفعها ، بما لجأوا إليه من التسويف والمماطلة فى الدفع ، أو عصيان الأوامر (٣٥) .

وعهد الوالى الكبير بجباية ضريبة arcarica من دوقيات مصر ، إلى فئتين من الموظفين ، الفئة الأولى اشتهرت باسم tracteutai ،والفئة الأخرى اشتهرت باسم scrinarioi ،واختص كل واحد من الفئة الأولى بوحدة إدارية ، أما الفئة الثانية فكان أفرادها أقل مكانة من أفراد الفئة الأولى وأكثر عدداً ، ومهمتهم النهوض لطلب المساعدة من الدوق ، وديوانه (إدارته) والجند (٣٦) . ومن الموظفين المكلفين بتحصيل ضريبة arcarica ،أولئك المعروفون باسم expelleutes الذين اهتموا بوجه خاص بتحصيل ما تأخر تأديته من الضرائب (٣٧) .

على أن الإهتمام بجباية الضرائب النوعية ، التى برسم الخزانة العامة ، إنما يقع على عاتق الدوق و إدارته والجند .ولذا كانت مهمة شديدة الوطأة ؛ إذ تساوى ما تعرضت له من القيود ، ما كان للدوق من الحقوق والامتيازات المالية المرتبطة بالضرائب التى برسم خزانة الوالى الكبير (٣٨) . إذ جاء فى قانون ١٣ ما يشير إلى امتداد سلطات دوق مصر ، من أجل تحصيل ضريبة arcarica أو largitionalia حتى شملت كل دافعى الضرائب الذين يملكون أراضى فى مصر الأولى ومصر الثانية ، حتى لو أقاموا خارج دوقيته ، وفى هذه الحالة يستطيع دافعوا الضرائب أن يتحدوا سلطة الأوجستال (٣٩) . ولما أدرك

جستنيان هذه الحقيقة ، رأى أن يتجنب ما يلحق بالمالية من الأضرار ، فجعل الدوق الأوجستال بمصر ، ولدوق ليبيا ، اللذين لم تتجاوز سلطتيهما حدود دوقيتيهما ، الحق فى التدخل فى أمر الدوقيات الأخرى ، نتيجة هذه الأحوال ، وجعل لهما الحق فى أن يستخدما القوة فى أن يعيد اسلطانهما الملاك الهاربين ، وأن يستخلصا منهم الضرائب[٤٠] .

أما رئيس الأبروشية ، فمن أعماله الإشراف على جباية الضرائب المقررة عليها .غير أنه من العسير أن تحدد ما يقوم به من عمل ، نظراً لأنه لم يرد عنه إلا إشارة عابرة فى قانون ١٣ . وفيما يتعلق بالمتمتعين بالجباية الذاتية ، الواضح أن بلديات القرى المتمتعة بالجباية الذاتية ، كانت تتلقى من رئيس الأبروشية مباشرة، الأوامر المتعلقة بجباية الضرائب . على أن رئيس الأبروشية ، لم يكن له ، فيما يبدو ، من السلطة ما يجعله يتدخل فى جباية الضرائب بالمدن و بزمام الباجركية ، وذلك لأن الباجاركة ، ونواب البلدية إنما يخضعون مباشرة للدوق[٤١] .

ويتولى الباجرك الإشراف على جباية الضرائب بداخل باجركيته ، فهو الذى يعطى الإيصالات لدافعى الضرائب ، ما عدا من كان منهم يقيم بالقرى أو الضياع المتمتعة بحق الجباية الذاتية[٤٢] . وفى هذه الحالة يعتبر الباجرك مسئولا إلى حد ما عن انتظام الجباية ، فمن واجبه أن يجبى الضرائب من ملاك القرى المتمتعة بالجباية الذاتية ، و إذا لم يكن لهؤلاء الملاك أنفسهم حق الجباية الذاتية ، فيجبى الضرائب العامة ، والراجح أيضاً أنه كان يقوم بجباية المبالغ المقررة على سبيل الالتزام[٤٣] .

على أن الباجرك لا يتولى ، فيما عدا الحالات التى يتدخل فيها شخصياً ، جباية الضرائب المقررة على القرى الواقعة فى دائرة اختصاصه ، إنما يتولى ذلك موظفون من قبله أمثـــال hypodectes و tractentes ، الذين يقومون بمنح

الإيصالات ، بالنيابة عنه ، لمن يؤدى الضرائب[٤٤] ، وهؤلاء يعملون بالقرى التابعة للباجركية ، ومن واجبهم أن يحصلوا من موظفى القرية على المبلغ المتحصل من الضريبة المفروضة على القرية[٤٥] .

وفى المدن المصرية ، ماعدا الاسكندرية ، تولى جمع الضرائب نواب البلدية الذين يخضعون مباشرة لسلطة الدوق[٤٦]* . على أن سلطانهم لم يتجاوز الأراضى التى تحيط بالمدينة ، ولم يتعد الضواحى التى تقع بها أراضى سكان المدينة[٤٧] .

أما القرى المتمتعة بحق الجباية الذاتية ، مثل أفروديتو ، فإن أعيان القرية protocometes ، يعتبرون مسئولين عن جباية الضريبة تحت إشراف رئيس الأبروشية ، ويقوم بالجباية الموظف المعروف باسم practor ، وهو الصراف الذى يتولى جباية الضرائب النقدية[٤٨] .

يضاف إلى ذلك أنه لما كانت قرية افروديتو ، جرى إلحاقها بالدار الإمبراطورية (domus divina) بفضل ما حصلت عليه من الدعاية الإمبراطورية ، فالراجح أن الموظفين المكلفين بإدارة الضياع ، أسهموا فى جباية الضرائب ، ولا شك أن هؤلاء الموظفين ، جرى اختيارهم من بين سكان القرية ، غير أنهم فيما يبدو ، كانوا يخضعون لسلطة مراقب[٤٩] .

وفى الضياع الكثيرة المتمتعة بحق الجباية الذاتية ، تولى جباة خاصون ، تحصيل ما هو مقرر من الضرائب على الفلاحين الذين يقيمون بأرض المالك الكبير[٥٠] . وليس لمندوبى الإدارة المالية (المركزية) الحق فى الدخول إلى هذه الضياع المتمتعة بالجباية الذاتية . وهؤلاء الجباة الخاصون ، اشتهروا باسم Proenoetai'hypodectes يعطون الإيصالات للفلاحين الذين يسلمون لهم بدورهم ، ماهو مقرر عليهم من الضرائب . وهذه المبالغ تودع فى خزائن خاصة بالدور (القصور) التى ينتمى إليها الجباة . ووفقاً

(٤٦*) أما الإسكندرية فتولى جمع الضرائب بها الموظف المعروف باسم **Vindex**.

لأحد النصوص ، جرى دفع الضريبة إلى شيخ القرية meizon ، ولا شك أن هذا «الميزون» ، كان ينتمى إلى مالك كبير ، تولى رجاله جمع الضرائب المطلوبة[٥١]. وفى بعض الأحوال يجرى نقل مجموع أو حصيلة الضرائب إلى موظفين عديدين بالقرية[٥٢]. ومن الواضح أنه ثمة مندوبون من قبل الأبروشية ، ينتمون إلى إدارات رئيس الأبروشية ، إذ حدث أن الجباية الذاتية فى القرية تطابق الجباية الذاتية الممنوحة لكبار الملاك ، مثال ذلك أن جباة انتايو Antaiou ، المعروفين باسم topotorétes الذين الزموا عامل (جابى) ورثة الكونت فويبامون Phoibammon المقيم بقرية بوخيس Poukhis ، بأن يدفع ماهو مقرر على سادته من الضرائب ، كانوا من غير شك مندوبين من قبل رئيس الأبروشية[٥٣].

أما جباية الضرائب ، أى الخارجة عن الضرائب العقارية ، فليس لدينا عنها سوى معلومات شديدة الضآلة . فما جرى إعطاؤه من إيصالات عن ضريبة digraphea ، [٥٤*] ، إنما وقعها موظف معروف باسم Boephos ، أو موظف آخر باسم hypodectes ، ولم نقف على الإدارة التى ينتمى إليها هذان الموظفان[٥٥].

ويتولى رئيس النقابة epistate تأدية ما على أفراد نقابته من ضرائب . والمعروف أن الضرائب التى جرت جبايتها ، فى بانو بوليس من النقابات أكثر من التى يدفعها ملاك الأراضى[٥٦].

ويقوم بإدارة الضرائب موظف معروف باسم alabarch ، وأشار قانون ١٣ إلى أن ثمة عدد من الموظفين المعروفين بهذا الإسم ، فقد كان فى انتينوى ، آلابارك ، والراجح أنه كان لكل دوقية آلابارك[٥٧]. فالمعروف أن وظيفة « الألابارك » لم تكن معروفة إلا فى مصر وحدها ، وترجع إلى أوائل العصر الرومانى فى مصر ، وكان صاحبها يقوم بالإشراف على الجمارك والمكوس ، ويشرف أيضا على تجارة القوافل بين الاسكندرية وسائر القطر المصرى أو بلاد العرب ، فكان

(٥٤*) ضريبة استثنائية جرى فرضها على الرءوس للإنفاق منها على أغراض خاصة .
انظر : Johnson : Ec. St. p. 286

يتقاضى ضريبة مقابل مرورها ، ويتولى جباية المكوس المحلية على الواردات والصادرات[٥٨]. وقد كان من هذه الفئة موظف يتولى إدارة الجمارك فى دوقيه مصر، وآخر يتولى إدارة الجمارك فى طيبة. والراجح أن نقط الجمارك ، كانت كبيرة الأهمية ، ولم تختلف مواضعها عما كانت عليه فى العهد الرومانى. فما يقع من الجمارك فى الشمال إنما كان بجوار الإسكندرية ، وكان بالقلزم جمرك ، وآخر فى الجنوب يقع عند أطراف طيبة، لتحصيل الرسوم المقررة على المتاجر الواردة من أثيوبيا. والصادرة من مصر . ولا شك أن جمرك سيين ، أو الواقع بالميناء، إنما تقرر نقله زمن جستنيان إلى فيله[٥٩].

وجرت الإشارة فى إحدى الوثائق إلى الوكلاء التجاريين commerciaires ، غير أن هؤلاء اقتصر نشاطهم فى القرن السادس على الناحية التجارية ، فلم يباشروا أعمال الجباة الذين يتولون تحصيل الرسوم[٦٠].

وليس لدينا إلا تفاصيل قليلة ، ترجع إلى القرن السادس ، وتتعلق بالطريقة التى يجرى بها جباية الخراج من الأملاك (الضياع) الخاصة (res privata)، التى تشمل الأراضى الإمبراطورية ، والأملاك المصادرة . إذ ورد فى بعض النصوص والوثائق ما يشير إلى نظار (مراقبى) الأراضى الإمبراطورية ، كما أنه ورد فى سجل حسابات أسرة أبيون Apion ما يشير إلى ضيعة إمبراطورية ، والراجح أن أفراد أسرة أبيون كانوا يتولون إدارتها لحساب الضياع الإمبراطورية[٦١].

واهتم جستنيان بما ينبغى أن تسير عليه جباية الضرائب بمصر ، من حيث تقدير المبالغ المطلوبة من دافعى الضرائب ، والوقت المناسب لتأدية هذه الضرائب، والإيصالات التى يحصلون عليها ، وذلك لحرصه على المحافظة على مصالح الخزانة من جهة ، ولحماية سكان الإقليم من جهة أخرى ، ولتجنب الأزمة المالية التى تهدد الدولة البيزنطية[٦٢].

http://www.al-maktabeh.com

فما حدث بمصر من الاضطراب ، لم يلبث أن ازداد شدة بسبب الأزمة النقدية ؛ فالقانون ١٣ ، الذى أصدره جستنيان إنما كان يأمل من ورائه ، معالجة الأضرار التى تعرضت لها مالية البلاد ، ودافعو الضرائب ، والتى ترتبت على انخفاض سعر العملة فى مصر ؛ وذلك لتأثيرها على ما يتحصل من الضرائب . إذ أن الجنيه الذهبى (الليرة) المتداول فى مصر ، لم يلبث أن هبطت قيمته ، نظراً لضربه فى عيار منخفض ، فبعد أن كانت قيمته ٧٢ سنتا ذهبياً ، انخفض فأصبح ٨١ سنتاً ذهبيا[٦٣] . ومن اليسير أن نتصور مايترتب على ذلك من النتائج فى جباية الأموال ، فإما أن يقبل الجباة الجنيه أو الدينار ، بالسعر الجارى وهو ٨١ سنتا ، على حين أنه لا يساوى فى بيزنطة سوى ٧٢ سنتا ، و إما أن يقبلوا الدينار بالسعر العادى وهو ٧٢ سنتا الذى يعتبر فعلا منخفض القيمة ، وفى كلتا الحالتين ، يتعرض بيت المال للخسارة[٦٤] . ولعلاج هذه المشكلة ، طلب جستنيان فى قانون ١٣ ، إلى موظفى المالية المكلفين بوزن النقود وختم السبائك الذهبية[٦٥*] ، أن يثبتوا الوزن الصحيح لا القيمة الاسمية لما يرد إليهم من النقود . وترتب على ذلك أن تعرض بيت المال لخسارة جسيمة ، لأن ماتلقاه (بيت المال) من دافعى الضرائب المصريين من الدنانير (الجنيهات) الذهبية كان بسعر ٨١ سنتا ذهبيا ، على حين أنه لم يكن يساوى فى بيزنطة سوى ٧٢ سنتا ذهبيا . على أن مصالح دافعى الضرائب ، ومصالح الحكومة جرت المحافظة عليها ، على الأقل من الناحية النظرية ، بما اتخذ من الإجراءات التى صارت تشتد ابتداء من سنة

(٦٥*) هذان الموظفان هما المعروفان باسم Zygostates و chripones ، ومن واجب الموظف الأول الإشراف على الموازين والمكاييل ، وفض ما يقع من النزاع بشأن وزن النقود المتداولة . أما الثانى ، فكان من واجبه شراء الذهب من الفلاحين المصريين ، ثم صار مكلفاً باستلام ما يتحصل من الأقاليم من الضرائب التى تؤدى ذهباً . انظر :
Johnson : Ec. St. p. 173 — 174.

٥٥٩[٦٦]. إذ لجأت الحكومة فى القرن السادس إلى أن تقبل من دافعى الضرائب ما هو مطلوب منهم عينا، بدلا من تأدية الضرائب نوعا أو نقداً[٦٧].

وتولد عن جباية الضرائب نقيصة أو عيب، لم تخف على فطنة جستنيان الاقتصادية، وهذه النقيصة تتمثل فى الإفادة من حق الإحتماء الذى تتمتع به الكنائس. فمنذ زمن طويل تمتعت الكنائس بحق الحماية، واستغل هذا الحق المدينون للتهرب من دفع الضرائب، كما استغله المختلسون من الموظفين حتى لا يسلموا ما حصلوه من الأموال[٦٨].

وفى مرسوم ١٣، أشار جستنيان إلى الصعوبات والعيوب، التى نجمت عن حق الإلتجاء، فيما يتعلق بالناحية المالية. إذ أن موظفى الأبروشيات صاروا يمنحون هذا الحق إلى من يثقون فيهم، غير أنه حينما تبين لجستنيان أن جباة الضرائب أساءوا استخدام حق الحماية، بأن احتفظوا لأنفسهم بأكبر جانب من الأموال، طلب إلى الموظفين أن يكفوا عن منح دافعى الضرائب حق الالتجاء. ومع ذلك لم يسفر هذا الإجراء عن النتيجة المطلوبة. وجرى آخر الأمر التوفيق بين دعاوى الخزانة، وبين ما تمسك به دافعو الضرائب من وسائل التهرب من التزاماتهم[٦٩].

ذلك أن جستنيان أعلن فى قانون (مرسوم) ١٣، بأن بطريرك الإسكندرية ليس له سوى ما للدوق الأوجستال، من الحق فى أن ينزع من مدينى المالية من الأموال، التى ينبغى أن يؤدوها لمندوبى والى الشرق[٧٠]، وأن يعطيهم حق الإلتجاء[٧١]، ومع ذلك، إذا قبل ورضى والى الشرق، أو مندوبوه، أمثال tracteutai وScriniaires، والموظفين التابعين لهم، أن يمنحوا تحت مسئوليتهم الخاصة، لأحد دافعى الضرائب خطابات بتأجيل الدفع، فإن للبطريرك أن يأوى هذا الممول، طبقا للشروط التى يحددها موظفو الوالى[٧٢]. ويعتبر التأجيل

فى هذه الحالة وحدها مشروعا . فالمنتفع بحق الإلتجاء ، يلتزم بدفع دينه ، عند انقضاء أجل مهلة التأجيل ، التى منحها البطريرك بموافقة والى الشرق ، أو يقدم ضمانا كافيا ، على أنه ينبغى أن يثبت وجوده أثناء فترة التأجيل فى نطاق (دائرة) الحرم المقدس[٧٣] .

ويجوز أيضا الإفادة من حق الإلتجاء فيما يتعلق بجباية الضرائب التى ترسل إلى الخزانة الإمبراطورية ، وهى الضريبة المعروفة باسم largitionalia ، وذلك بشروط خاصة . فإن خطابات التأجيل قد لا تمنح إلا فى أحوال خاصة ، وقد لا تمنح مطلقا . ومع ذلك فإن حق التأجيل يصير عديم القيمة ما لم تجر مراعاة القانون فى كل تفاصيله[٧٤] ، وذلك لأنه من العسير القضاء نهائيا على حق الكنيسة لاسيما فى مصر[٧٥] .

على أن جستنيان من جهة أخرى أخذ يناهض جباة الضرائب hypodectes الذين حرروا الإيصالات دون اهتمام أو تحديد ، حتى يتيسر لهم إخفاء ما صار فى حوزتهم من أموال بغير حق[٧٦] . فلجأ جستنيان إلى اتخاذ ما سبق الأباطرة أن اتخذوه من إجراءات ، فحدد صورة الإيصالات التى ينبغى على جباة الخراج أن يسلموها لدافعى الضرائب . وهذه الإيصالات ينبغى أن تكون دقيقة جداً ، إذ تضمنت عدد الوحدات العقارية التى يؤدى عنها الضريبة المطلوبة ، وانطوت أيضا على اسم المالك ، وأشارت إلى ما يملكه من الأراضى[٧٧] . ويثبت الجباة فى الإيصالات ، ما كان من الضرائب التى حصلوا عليها برسم خزانة الوالى ، وما كان برسم خزانة الإمبراطور حتى يتجنبوا بذلك انتقال المال من خزانة إلى أخرى . وحرص جستنيان أيضاً على ألا يكون للجباة الحق فى أن يطلبوا من دافعى الضرائب ، أكثر مما هو مقرر عليهم من الضرائب[٧٨] .

إيراد الضرائب والنفقات العامة :

ووفقا للمبدأ العام ، الذى ساد الإمبراطورية البيزنطية ، لم تكن كل الضرائب المتحصلة من الأقاليم المصرية ، ترسل كلها إلى بيزنطة ، لتودع فى خزائنها المختلفة . فالمندوبون ، الذين يرسلهم كل سنة والى الشرق إلى ولاة الأقاليم المصرية ، ينبغى عليهم أن يبينوا ما ينبغى إرساله من الضرائب إلى الخزانة العامة ، وما يرسل منها إلى خزانة والى الشرق ، وما ينفق منها بمصر ذاتها ، وما هى المبالغ المقررة على كل أبروشية(٧٩) .

ولم يكن جستنيان يرمى من وراء إنشاء إدارات للحسابات بالأقاليم المختلفة بمصر ، إلا إلى ضبط الموظفين الذين يجنحون إلى القيام بأعمال غير سليمة(٨٠) . وأصر الإمبراطور جستنيان فى قانون ١٣ ، على ضرورة إقامة موازنة دقيقة للإيرادات والمصروفات فى ليبيا ، حتى يتجنب الوسائل التى حاول بعضهم بمقتضاها زيادة النفقات على الإيرادات ، وأشار فى الملاحظة التى ألحقها بالمرسوم ، إلى ما ينبغى أن يرد إلى خزانة والى الشرق من ليبيا ومريوط ومتيلائيتس ، ومقدار ما ينفق على الموظفين بالأبروشية ، ومرتبات دواوينهم ، وجراية الجند المرابطين بالمواضع المختلفة ، والأموال المخصصة برسم ملاهى المدن(٨١) . والراجح أن جستنيان راعى فى مصر ما كان مألوفا من النفقات(٨٢) . والواضح أنه تقرر فى كل وحدة إدارية ، تودع بها الضرائب ، إنشاء إدارة لمراجعة ما تحصل من الإقليم من الضرائب ، وما جرى إنفاقه منها ، مثال ذلك إدارة حسابات انتيابوليس ، تقوم على مراجعة حالة ما تحصل من المبالغ ، بأن جعلتها فى ثلاث فئات : الفئة الأولى تتعلق بضريبة القمح ومرتبات الموظفين ، والفئة الثانية تتعلق بالضرائب العامة للإمبراطورية ، أما الفئة الثالثة فتتعلق بما يخص الباجركية من الضرائب ، التى منها يجرى صرف مرتبات موظفى الباجركية ، التى تعتبر انتيابوليس حاضرتها(٨٣) .

http://www.al-maktabeh.com

وفى سجل آخر للحسابات ، مستمد من البهنسا ، قائمة بالنفقات التى جرى صرفها على سجن المدينة ، وموظفى السجن ، ونفقات رئيس الأبروشية ، والمحكمة ، والمؤن اللازمة لموظفى الأبروشية[٨٤] .

وفى القرى التى تتمتع بالجباية الذاتية خزانة للمالية وما يتصل بها من إدارة الحسابات ، حيث يثبت بها إجمالا الإيرادات والمصروفات . والمعروف أن الموظفين المكلفين بتدوين الحسابات هم المعروفون باسم logographes ، ومن جهة أخرى جرى تحرير قوائم بالضرائب التى أداها دافعو الضرائب ، مع ذكر اسم كل منهم . ويودع جابى القرية hypodecte ماجرى جمعه من الأموال ، فى الخزانة المحلية (خزانة القرية) ، ثم يبعث بها إلى حاضرة الأبروشية . وهذا مانجم عن عدد من الإيصالات التى وزعها متولى حسابات الأبروشية فى طيبة على أعيان أفروديتو ، الذين بعثوا عن طريق جابى القرية ماتحصل منهم من الأموال[٨٥] ، ومن الناحية العملية قام رجال الشرطة بنقل الأموال المتحصلة من الضرائب إلى أنتينوى[٨٦] .

وفى كل مدينة من المدن خزانة ، يودع بها ماتحصل من الضرائب ، ويتولى إدارة الحسابات بها ، موظف معروف باسم archiupêrétès . وكان بالبهنسا موظف يتولى الإشراف على الأملاك العامة . ومن الموظفين المعروفين ، رئيس إدارة الحسابات فى انتيابوليس ومساعده (كاتب) . واشتهر متولى الخزانة باسم trapezites[٨٧] .

وفى كل أبروشية ، تولى أمر الجباية موظفان ، الأول وهو المعروف باسم arcaricarios ، ويتكفل باستلام ماتحصل من ضرائب arcarica ، والثانى هو متولى الخزانة الذى يتلقى ما يتحصل من الأموال فى الأبروشية برسم ضريبة canonica أو largitionalia ، من القرى أو الضياع المتمتعة بحق الجباية الذاتية[٨٨] .

أما الباجاركة ونواب المدن فيؤدون ما تجمع لديهم من الضرائب إلى الدوق ، لأنهم يخضعون له مباشرة[٨٩] .

وجرى إعداد إدارة خاصة فى ديوان الدوق ، توزع بها ما تحصل من الضرائب ، ويتولى إدارتها موظف معروف باسم scrinaire[٩٠] . ويؤدى الدوق ما تحصل من الضرائب فى دوقيته ، أى الضريبة المعروفة باسم largitionalia ، إلى الموظف المعروف باسم palatinus الذى أوفده إلى مصر متولى الخزانة العامة بالقسطنطينية . ولما لم يكن بليبيا خزانة برسم الأموال التى تؤدى للإمبراطور ، تقرر نقلها إلى الإسكندرية ليتسلمها مندوب الخزانة العامة . والراجح أن الخزانة العامة بالقسطنطينية لم ترسل إلا مندوبا واحداً لكل القطر المصرى[٩١] ، وذلك لأن كل الضرائب المتحصلة فى سائر الدوقيات لا بد من إرسالها أول الأمر إلى الإسكندرية ، ومنها إلى القسطنطينية[٩٢] .

أما ضرائب arcarica ، فيؤديها إلى خزانة والى الشرق ، الموظفان اللذان ندبهما هذا الوالى إلى مصر ، وهما المعروفان باسم tracteutai, scrinaire ، أو يسلمانها إلى الموظفين الموكلين بالمصروفات ، وفقاً لأوامر والى الشرق[٩٣] . والواقع أن الدوق هو المسئول عن التصرف فى النفقات والمصروفات فى دوقيته ، فيتحمل هو وديوانه المسئولية فى تنظيم صرف الأموال فى الوجوه أو النواحى المقررة[٩٤] .

ولما كان الدوق يجمع فى يده السلطتين المدنية والعسكرية ، قرر جستنيان فى قانون ١٣ ، استبعاد الموظف (scrinaire) الذى كان يوفده والى الشرق إلى مصر ، للنظر فيما تخصص للجيش من النفقات . وما كان لهذا الموظف من سلطات ، انتقلت إلى موظفين عديدين بديوان الدوق . وتولى هؤلاء الموظفين التصرف فى الأموال اللازمة للإنفاق على الجند المرابطين بالدوقية[٩٥] .

والنفقات فى الدوقية على ثلاثة أنواع : نفقات حربية ، ونفقات (مصروفات) مدنية ، ثم النفقات العامة solemnia ، وارتبط النوع الثانى (النفقات المدنية) بمرتبات الدوق وموظفى ديوانه ، على أن مرتب دوق مصر ، كان يؤدى مما يتحصل من رسوم الجمارك[٩٦] . وما ورد من نصوص من طيبة والبهنسا ، يبين أن أهالى المدن والقرى ، أسهموا فى دفع مرتبات موظفى الدوقية[٩٧] .

ويتكفل رؤساء الأبروشيات بتوزيع الأموال اللازمة لنفقات المدن ، وبدفع مرتبات موظفى الدوقية ، وهذه الأموال إنما ترد إلى الأبروشية من المدن . أما الباجرك ، فمن واجبه الاهتمام بتدبير النفقات اللازمة للباجركية ، باستثناء المدن . ولذا صاروا يعتبرون متولين للخزانة ومكلفين أيضاً بالإنفاق . وتسهم المدن والقرى فى نفقات الباجاركة وموظفيهم[٩٨] . وكل ما حصلنا عليه من المعلومات لا يتعلق إلا بإيداع الأموال أو الضرائب المتحصلة برسم الضريبة المعروفة باسم arcarica ، والضريبة المعروفة باسم largitionalia[٩٩] .

وتشمل نفقات المدينة ، مرتبات موظفى البلدية ، والإنفاق على الخدمات العامة ، كالبريد ، والمدارس والحمامات ، وألعاب السيرك . ولسد كل النفقات ، لجأت البلدية إلى فرض ضرائب جديدة اتخذت اسم astika ، والراجح أيضاً أن صار يرد لخزانة البلدية ما يرد من الأملاك العامة من الخراج[١٠٠] . وينظم نفقات المدينة مندوبو جباة الضرائب ، الذين يتولون فى الوقت ذاته التصرف فى هذه النفقات ، فيتسلم الموظفون مرتباتهم من الجباة[١٠١] .

واهتم جستنيان ، فى قانون ١٣ بتنظيم نفقات الإسكندرية ، ذلك أن الموظف المعروف باسم vindex (متولى الحسابات) ، هو الذى يضع ميزانية

المدينة . واشتملت ميزانية المصروفات على الأبواب الآتية : الحمامات العامة ، وقود الحمامات العامة antichantharus ، ونقل الحبوب (القمح)[١٠٢] . ولم ترد إشارة إلى المصادر التى يتحصل منها المال اللازم لهذه النفقات . يذكر جستنيان أن ما كان مخصصاً من الأموال للإنفاق على الحمامات العامة ونقل الحبوب ، جرى اختلاسه أو ساء استخدامه ، ولم يعد ثمة من المال ما ينفق فى هذه الأبواب . إذ أن بعض الأموال كان يجرى تحصيلها من الرسوم المفروضة على تصدير الفخار ، غير أن المصدرين استطاعوا أن يحصلوا على الاعفاء من هذه الرسوم ، و بذلك انقطع المورد الذى ينفق منه على الحمامات ونقل الحبوب[١٠٣] . ولما أدرك جستنيان هذه الحقيقة ، أبطل ما كان يجرى من منح اعفاءات للمصدرين ، وتقرر تحصيل ضريبة الصادر من الجميع[١٠٤] . وألزم نواب البلديات بأن يسهموا بمبلغ ١٠٠ صولد لما يجرى فى الملعب الكبير من سباق الخيل ، وطلب إلى الدوق الأوجستال أن ينفق ٣٢٠ صولدا على الخيول التى تجرى باسمه فى السباق ، وعددها ٣٦ حصاناً ، والراجح أن هذا المبلغ إنما يخصم من الأموال التى برسم الإمبراطور[١٠٥] . و بمقتضى هذا القانون (١٣) صارت ميزانية الإسكندرية سنوياً ١٨٨٩ صولدا[١٠٦] . أما النفقات اللازمة لتسخين الحمامات العامة ونقل القمح فإنها ترتبط بأبواب أخرى من الضريبة سوف نشير إليها فيما بعد[١٠٧]* .

وفى القرية كان جانب من الضرائب ينفق لسد الحاجات المحلية بالقرية ، وما تبقى يرسل إلى خزانة الباجرك أو رئيس الأبروشية[١٠٨] . ومن حسابات أفروديتو يتبين ما كان يدفع من الأموال والنفقات لسائر الموظفين بها ، ويصح اتخاذ أفروديتو مثالا لما كان يحدث فى كل الوحدات الإدارية ، بل فى القطر كله ، فكان يصرف جانب من الإيرادات بنفس المواضع التى أودعت بها الأموال ، سواء

(١٠٧)* ومن الواضح أن هذه النفقات إنما الغرض منها الوفاء بنفقة نقل القمح الذى برسم الإعانة لفقراء الإسكندرية . انظر (Johnson: p. 115.).

كانت القرية ، أو المدينة ، أو الباجركية ، أو الأبروشية ، أو الدوقية . كما أن جابى الخراج هو الذى يقوم بالإنفاق[١٠٩] .

العقوبات المتعلقة بالإدارة المالية :

كان جستنيان يفخر فى أحوال عديدة بما ترتب على إصلاحاته المالية من نتائج طيبة . و بفضل هذه الإصلاحات ، واستتباب الأمن والطمأنينة ، صار الموظفون يعملون لصالح الدولة فى أمانة كبيرة ، واختفت السرقات والغشوش ، وجعل الإمبراطور ثقته فى موظفيه ، الذين قدّروا أهمية ماهوموكول لهم من عمل. غير أن جستنيان أدرك أيضاً ، أن هؤلاء الموظفين ، سوف لا يغفلون مصالحهم الخاصة ، إذ أنهم متى ركنوا إلى الإهمال أو ارتكبوا مخالفات، تعرضوا للطرد من وظائفهم ، فضلا عن مصادرة ممتلكاتهم[١١٠] .

مثال ذلك أنه إذا لم يجر إرسال مندو بى والى الشرق فى الميعاد المحدد من كل سنة ، تحتم على مستخدمى خزانة الوالى أن يدفعوا غرامة قدرها ثلاثون دينارا ذهبياً ، وتقرر على موظفى خزانة الأبروشية tracteutai أن يدفعوا عشرين ديناراً ذهبياً ، و إذا لم يعلن رئيس الأبروشية خبر قدوم المندو بين ، تحتم عليه أن يدفع عشرة دنانير ذهبية ، وتقرر عزله ، و يدفع ديوانه خمسة دنانير ذهبية[١١١] . وفيما يتعلق بضريبة arcarica ، قرر بالتفصيل العقوبات التى تطبق على أولئك المفسدين ، والمذنبين فى حق الدولة[١١٢] .

و إذا تعرض مندوبو والى الشرق للمقاومة والمعارضة من قبل دافعى الضرائب ، تحتم على الأوجستال وموظفى ديوانه من العسكريين والمدنيين ، وقادة الجند ، أن يبادروا باستخدام الشدة ضد المعارضين ، حتى لا يتعرضوا للعزل ودفع الغرامات. و إذا لم ينهض قادة الجند لمساعدة مندو بى الوالى ، عند حدوث الاضطرابات ، التى نجمت عن دفع الضرائب ، تقرر حرمانهم من جراياتهم ، وتعرض قادة الجند

المهملون للمصادرة ، وقد يصل العقاب إلى التعذيب حتى الموت[١١٣] ، ويجرى نقل زعمائهم بأسراتهم إلى جهات نائية عن مصر ، فيبعدون إلى شواطىء الدانوب المشهورة بتعرضها للقلاقل والحروب[١١٤] .

وألزم جستنيان الموظفين الكنسيين والمدنيين ، بأن يمتنعوا عن منح دافعى الضرائب خطابات بالإعفاء من الضرائب ، إلا فى الحالات التى تقرها القوانين الإمبراطورية . فإذاجرى اتهام بطريرك الإسكندرية بأنه أظهر الضعف نحو أحد المدينين لبيت المال ، تحتم على موظفى الكنيسة ، أن يدفعوا تعويضاً لما أصاب الحكومة من الضرر ، فإذا لم يتوافر لديهم من المال ما يكفى لسد العجز ، تقرر الحصول من خزانة الكنيسة على التعويض اللازم . وإذا منح رجال الكنيسة ، حق الإلتجاء لبعض دافعى الضرائب ، بدون موافقة البطريرك ، تقرر عزلهم من وظائفهم وحرمانهم من الكنيسة .

أما الدوق الأوجستال والقادة العسكريون ، فيتعرضون فى حالة الإهمال ، إلى العزل والغرامة ، ويظلون مدينين للحكومة حتى بعد وفاتهم ، فيتكفل ورثتهم بسدادها بضمان أملاكهم[١١٥] .

وتحمل الدوق وديوانه مسئولية كبيرة ، فيما يتعلق بجباية ضرائب الإمبراطور المعروفة باسم Iargitionalia . فإذا تهاونوا فى أداء واجبهم ، تعرضوا للعزل ومصادرة ممتلكاتهم ، ويتحمل ورثتهم مسئولية أخطائهم ، من حيث تسديد ماهو مقرر عليهم من الغرامات[١١٦] . وليس للدوق الحق فى أن يعزل الباجرك ، إذ أهمل فى جباية الضرائب ، ولم يراع قواعد المصروفات . وتولى جستنيان بنفسه أمر محاكمة الباجاركة المهملين[١١٧] .

ولحرص جستنيان على توزيع الإيصالات على دافعى الضرائب ، اهتم بالعقوبات التى تفرض على الموظفين الذين خالفوا تنفيذ أوامره ، فتراوحت

http://www.al-maktabeh.com

الغرامات المقررة بين عشرة دنانير ذهبية وعشرين دينارا ، فضـلا عن تعذيبهم والتنكيل بهم [١١٨] .

ولم يسلم دافعو الضرائب من العقوبات إذا امتنعوا عن تأدية المقرر عليهم من الضرائب ، فإذا قاوموا مندوبى والى الشرق ، تقررت مصادرتهم ونفيهم من مصر . فإذا تمادوا فى إثارة الفتن والقلاقل ، وتطلب الأمر إستخدام القوات الحربية ، تقرر مصادرة أملاكهم ونفيهم إلى شواطىء البحر الأسود . [١١٩]

ومن حصل من دافعى الضرائب ، بطريقة غير عادية ، على حق الإلتجاء ، جاز لمندوبى جباة الخراج أن يطاردوهم ، فإذا دخل هؤلاء فى نطاق الحرم المقدس (الـكنيسة) ، صار لزاما على مندوبى جباة الخراج ألا يتعقبوهم إلى هذا الموضع ، وإذا خطر لأحد أصدقاء دافعى الضرائب ، أن يعمل على عرقلة أعمال الجباة ، جرى اعتباره مدينا للخزانة ، وتعرض لما يتعرض له دافعو الضرائب من العقوبات [١٢٠] .

على أن كثيراً من دافعى الضرائب ، لم يترددوا فى هجر أراضيهم ، تهربا من تأدية الضرائب والتكاليف المطلوبة منهم ، ولمنعهم من ذلك أجاز جستنيان للأوجستال أن يتتبعهم ، وأن يجدّ فى البحث عنهم ، وجعل له الحق فى أن يمتد سلطانه فى هذه الحالة ، إلى الأقاليم التى لا تدخل أصلا فى نطاق ولايته . [١٢١]

وبفضـل ما اشتهر به جستنيان من المثابرة المتواصلة ، والاهتمام المستمر بالأمر ، حرص على أن يستخلص الضرائب كاملة . ومع ذلك فإنه زعم بأن ما اتخذه من الأساليب ، وما وضعه من الخطط ، إنما كان يقصد بها حماية السكان من شدة الموظفين وما يرتـكبونه من المظالم . غير أن رجاءه لم يتحقق كما سترى . [١٢٢]

ضريبة القمح (١٢٣)*

حرص الحكام الذين استولوا على مصر فى الأزمنة السابقة ، على أن يستغلوا موارد البلاد إلى أقصى حد ، وأن يلزموا الفلاحين المصريين على أن يملأوا شون أو مخازن الحكومة بالحبوب . ومن الأعباء التى كانت مفروضة على مصر ، ما يعرف باسم الميرة المدنية annona civica أو الشحنة السعيدة ، وهى عبارة عن القمح الذى يرسل إلى القسطنطينية لإطعام أهلها ، وكان جانب من هذا القمح يرسل للإسكندرية لإطعام أهلها أيضاً . (١٢٤)** إذ أنه منذ أن أصبحت القسطنطينية عاصمة للامبراطورية ، توقف ما يرسل إلى روما من القمح برسم الميرة . ومنذئذ صارت الشحنة السعيدة ، تبحر كل سنة من الإسكندرية نحو البوسفور. وتطلبت إدارة الميرة (الأنونا) اهتماماً خاصا من جستنيان . فالمعروف أن كل تأخير فى تسليم القمح ، وكل نقص فى الكمية المطلوبة ، إنما يؤدى إلى إثارة

(١٢٣)* لم تكن ضريبة القمح أول أمرها إلا ضريبة استثنائية ، تقرر فرضها على بعض الأقاليم عند حدوث طوارئ ، كأن يجرى تزويد روما بالقمح عند حدوث مجاعة ، أو مد الجيش بالمؤن عند نشوب الحرب . وما حدث من الحروب الأهلية ، وندرة المعادن ، وانخفاض النقد ، أدى إلى إجراء تغيير فى طريقة دفع مرتبات الجند ، فصاروا يتقاضون جانباً منها نقداً ، وجانباً من المؤن ، وهذا الإجراء نظمه دقلديانوس ، إذ قرر تقدير ما يؤدى من المؤن اللازمة لغذاء الجندى سنة كاملة من القمح والزيت والنبيذ ، ولحم الخنزير واللحم ، وتسمى هذه الضريبة الميرة annona ، وفى أثناء القرن الرابع ، صار الموظفون المدنيون أيضاً يتقاضون مرتباتهم عينا . ثم قرر دقلديانوس ، جعل الميرة ضريبة ثابتة ، بعد أن كانت استثنائية ، وفرضها على سائر أجزاء الإمبراطورية ، غير أنه لم يحدد لها مقداراً ثابتاً ، فتعرضت بذلك للتغيير والتعديل وفقاً لحاجات الحكومة وأحوال البلاد ، وتقرر مراجعتها من حين إلى آخر ، بعد إجراء مساحة جديدة للأراضى . (انظر : (Bury : Vol. I, p. 46—47.

(١٢٤)** جعل دقلديانوس للاسكندرية هذا الحق فى سنة ٣٠٢ ، فصار يُوَزَّع جانب من القمح المتحصل من دافعى الضرائب المصريين ، على سكان المدينة (انظر: (Rouillard : p. 122.

الحوادث الخطيرة ، سواء كان بالقسطنطينية أو الإسكندرية[١٢٥]*.

لذا لجأ جستنيان إلى إعادة تنظيم إدارة الميرة (القمح) ، فاشتد اهتمامه بجباية القمح ، ونقله بالقنوات المنتشرة فى أنحاء القطر ، ثم حمله على النيل إلى الإسكندرية ، ومنها يجرى شحنه إلى القسطنطينية .[١٢٦] ولما لضريبة القمح من أهمية كبيرة ، صار الدوقات وموظفو دواوينهم والجند المرابطون بالبلاد ، مسئولين عن تنفيذ أوامره وتحقيق سياسته .[١٢٧] وما تضمنه قانون ١٣ من تفاصيل عن النظم المتعلقه بالقمح ، وما اشتمل عليه من العقوبات التى ينزلها الإمبراطور بكل من يتسبب فى الإهمال ، يدل على أهمية هـــذه الضريبة عند جستنيان .[١٢٨]

المعروف أن كمية القمح التى التزمت مصر كل سنة بإرسالها إلى القسطنطينية، إنما حددها قنسطنطين ، والراجح أن قانون ١٣ لم يشر إلى تعديلات جوهرية فى هذه الناحية . ويتبين من هذا القانون أن مقدار الضريبة المخصصة لدفع نفقات نقل القمح ، والمعروفة بالنولون naulage ، ارتفع إلى ٨٠ ألف سنتا ذهبيا ، وذلك مقابل نقل كمية القمح ، التى يبلغ مقدارها ٨ مليون أردب (٢٤ مليون مد)[١٢٩] .

ويشترك فى توريد القمح : مصر الأولى ، ومصر الثانيه ، وطيبة ، وأركاديا ، وأوجستامنيكا ، ولم تشترك فى ذلك ليبيا ، لأنها لم تنتج من وافر القمح مثلما تجود به مصر ، ويعتبر هذا الإقليم مدينا باستمرار للخزانة .[١٣٠]

---

(١٢٥)* وفى السنوات التى يخيب فيها المحصول بمصر ، ولم يجلب الأسطول الحبوب اللازمة لمؤونة بيزنطة ، يتحتم الإلتجاء إلى اتخاذ الوسائل التى تمنع حدوث الفتن ، فوضع الإمبراطور ، نظاماً يحصل بمقتضاه على ماتحتاجه البلاد من القمح من تراقيا وبثينيا وفريجيا وإذ زاد مايرد من قمح مصر على حاجة السكان ، لجأ والى الشرق إلى أن يخزن فى الشون ، الإمبراطورية ، كميات كبيرة من القمح ، ثم يلزم أهل الإقاليم على شراء هذه الزيادة بأثمان مرتفعة .

(انظر : Rouillard : p. 122.)

ويعلن والى الشرق فى كل سنة ، ماهو مقرر على دوقات مصر من كمية القمح التى يؤدونها إلى القسطنطينية . ثم تتولى إدارات الدوق ، اتخاذ مايلزم لتوزيع هذه الضريبة على الأقسام التى تتألف منها الأبروشية ، وهذه الأقسام هى المعروفة باسم poleis .[١٣١]* ثم يجرى توزيع نصيب هـذه الأقسام ، على مايتبعها من المدن والقرى والضياع التى تتمتع بالجباية الذاتية والضياع الخاصة، على أن ديوان الدوق هو المسئول عن توزيع كميات القمح فى هذه الوحدات .[١٣٢]

على أن التزام تأدية الغلال ألحق بالملكيات العقارية أضرارا كبيرة ، فعند انتقال الأرض من مالك إلى آخر ، تضمنت من الشروط ، ما يلزم المشترى بتأدية ماهو مقرر على الأرض من الضرائب لاسيما ضريبة القمح embole . وكل انتقال للملكية ، سواء نتيجة البيع أو الميراث ، يقتضى إخطار مندوبى الخزانة ، فيعلن المالك الجديد بأنه مسئول عن تأدية الضرائب المرتبطة ومنها الميرة (القمح)[١٣٣] .

وجرى توزيع ضريبة القمح على أساس مساحة الأرض ودرجة خصوبتها ، مثال ذلك ما ورد فى سجل انتيابوليس ، الذى يرجع إلى أوائل عصر جستنيان ، من تصنيف ما اشتملت عليه من الأراضى إلى فئات : منها أراض صالحة للزراعة، وجزائر ، وبطائح (مستنقعات) ، وأرض كروم ، و بساتين (للحضروات) ، وتحديد ماهو مقرر على الفدان من أرادب القمح ، فى كل فئة من هذه الفئات . فالأرض الصالحة للزراعة تؤدى عن الفدان ١ ¼ أردب ، وتؤدى الجزائر عن الفدان ١ ½ أردب ، وتؤدى المستنقعات ¼ أردب ، وتؤدى البساتين (الخضروات) ½ أردب[١٣٤] . ومن الملحوظ أن الجزائر ، وهى الأراضى التى لا تظهر إلا عند انخفاض النيل ، والتى يصيبها قدر كبير من غرين النيل ، تعتبر أخصب أجزاء المنطقة ، ولذا تقرر عليها أعلا قطيعة من القمح[١٣٥] والذى يدعو إلى الدهشة والغرابة،

---

(١٣١)* وفقاً لما ورد فى قانون ١٣ تنقسم الأبروشية إلى مدن ، والضياع المتمتعة بالجباية الذاتية والضياع الخاصة . (انظر: Rouillard : p.60)

أنه على الرغم من أن أرض الكروم والمستنقعات ، التى لم تصلح لزراعة القمح ، تقرر عليها قطيعة من القمح (١٣٦) .

http://www.al-maktabeh.com

ومن واجبات مساحى الأراضى ، أن يتفقدوا أراضى الباجركية ، وأن يقوموا بتقدير درجة خصوبتها ، حتى يتحدد بذلك نصيبها فى الضريبة (١٣٧) .

وعلى الرغم من حرص بيزنطة على استغلال خصوبة الأرض التى يرويها النيل ، غير أنه إذا حدث أن انخفض النيل أو خاب المحصول ، فما موقف الإدارة البيزنطية من ذلك ؟. الوقع أنه لم يجر دائما التمسك بتحصيل كميات معينة من الفلاحين المستقرين بأراضى كبار الملاك ، وجرى أحيانا التجاوز عن بعض الضرائب المفروضة على المزارعين الذين لم تتوافر مياه الرى لأراضيهم (١٣٨) .

وفى ديوان الدوق ، يجرى وفقا لما يرفعه المساحون من تقارير ، تحديد الواجبات الملقاة على القرى ذات الجباية الذاتية ، والباجركات والمدن . وصار لإدارة الدوق ، بعد أن جعل جستنيان فى يده السلطتين العسكرية والمدنية ، أن تقرر الضرائب العينية المفروضة على الأقسام التى تتألف منها الدوقية . ولذا صدر من ديوان دوق طيبة ، الإخطارات الموجهة إلى أعيان أفروديتو ، بما ينبغى أن يجبوه من كميات القمح (١٣٩) .

أما عدد الأرادب المطلوبة من كل مالك للأراضى ، فجرى تقديرها بناء على ماورد فى سجلات العدادين (المساحين) ، على أساس مساحة الأرض ودرجة خصوبتها ، فضياع الكونت أمونيوس انقسمت إلى الفئات الآتية : أرض صالحة للزراعة ، و بساتين ، وأرض كروم ، ومستنقعات ، وأراضى نخيل (١٤٠) .

جباية القمح :

ينبغى جباية الكمية المقررة من القمح فى نفس السنة التى تحددت فيها ، والتزم رئيس الأبروشية ، قبل صدور قانون ١٣ ، بجباية القمح . فلما صار للدوق

السلطتان المدنية والعسكرية ، بفضل إصلاح جستنيان ، أصبح الدوق مطلق السلطة فى كل مايتعلق بجباية القمح فى الباجركات والمدن والقرى التى تتمتع بالجباية الذاتية ، الواقعة فى داخل دوقيته (١٤١) .

ففى كل سنة ، يخرج من إدارات ديوان الدوق ، إلى القرى المتمتعة بالجباية الذاتية ، الأوامر التى تقضى بجباية القمح . وورد فى برديات أفروديتو ، نماذج لهذه الأوامر ، ومنها أمر موجه إلى هيئة أعيان أفروديتو ، التى تعتبر مسئولة عن جباية الضرائب ، بتحصيل ماهو مقرر من القمح فضلا عن الضرائب الإضافية (الالتزامات) (١٤٢) .

ولم ينس موظفو ديوان الدوق ، أن يذكروا أعيان أفروديتو ، بما يتعرضون له من العقوبات ، إذا فترت همتهم وضعف حماسهم (١٤٣)* . أما جباية القمح من ضياع كبار الملاك المتمتعين بحق الجباية الذاتية ، فإن ما تحصل منها لم يكن مقداراً ثابتاً ، وكل ما نعلمه ، أن الموظفين الموكلين بجباية الحبوب ، لا يتدخلون مباشرة فى أراضى كبار الملاك ، وإنما تحتم على كل فلاح يعمل بالضيعة أن يؤدى ما هو مقرر عليه من كمية القمح ، إلى الناظر أو المشرف الذى يتولى إدارة الممتلكات ، أو إلى الجابى المعين من قبل المالك الكبير (١٤٤) . وما تجمع لديه من القمح المتحصل من الفلاحين يؤديه إلى موظف آخر ، اشتهر باسم embolator (١٤٥) .

ولم يتوافر لدينا معلومات عن تفاصيل الجباية فى المدن ، وكل ما نعرفه يتعلق بمندوبى الجباة ، الذين يقدرون الكمية التى يؤديها دافعو الضرائب (sitometres) ، والذين يقومون بجباية الضرائب المتأخرة expelleutes (١٤٦) .

---

(١٤٣)* Diehl: p. 469, Rouillard : p. 132.

وقد كتبوا إلى عمال الخراج : « لا تركنوا إلى الإهمال ، فتتعرضوا للوم ، واتقوا شدة القانون وسطوته» .

ويعتبر الباجرك مسئولا عن القمح المتحصل من الكور . ويخضع لأوامر الباجرك موظفون يتكفلون بجباية القمح مثل tracteutes ، الذى يوزع باسم الباجرك إيصالات الجباية[١٤٧] .

ومن أهم الشروط التى يجرى بمقتضاها جباية القمح ، التزام عمال الخراج بالتأكد من جودة صنف القمح ، وخلوه عند استلامه من الفلاحين من الغشوش ، فالمعروف أن الإدارة كانت تلجأ فى السنوات التى يتوافر فيها القمح ، إلى أن تبيع للسكان ما تكدس منه فى الشون الإمبراطورية . ولذا جرى التنويه فى بعض الإيصالات بجودة القمح أو رداءته عند استلامه .[١٤٨]

وفى بعض الأحوال الاستثنائية يجرى تحصيل الضريبة نقداً بدلا من القمح adaeratio[١٤٩] ، إذ تشير وثيقة ترجع إلى القرن السابع الميلادى إلى أن ضريبة القمح تحولت إلى ضريبة نقدية ، ويقال أن الإمبراطور موريس (٥٨٢ — ٦٠٢) باع كل ما تقرر على مصر من ضريبة القمح ، واستعاض عنها بضريبة نقدية.[١٥٠] على أن مدن البهنسا والشيخ فضل (Cynopolis) كانت تدفع الضريبة تارة قمحاً ، وتارة نقداً[١٥١] .

وكانت الإدارات المتعلقة بحسابات القمح ، تتم عادة بجوار الشون العامة التى يرد إليها القمح ، والتى يظل بها حتى يشحن إلى الإسكندرية . وهذه الشون على نوعين : الشون الكبيرة ، والشون الصغيرة ، وتقع فى كل المدن والقرى وتستخدم الشون الكبيرة لخزن القمح الذى يرسل إلى القسطنطينية ، بينما اختصت الشون الصغيرة بالقمح الذى يرسل إلى الإسكندرية .[١٥٢]

وينبغى أن تتم جباية القمح فى سرعة بالغة فى سائر أنحاء القطر ، كيما تصل فى الوقت المحدد ، قوافل السفن التى تحمل القمح من سائر أنحاء القطر المصرى إلى مدينة الإسكندرية[١٥٣] .

نقل القمح إلى الإسكندرية

وما تم جمعه من القمح فى الشون العامة بالقرى والمدن بالقطر المصرى، لا يشحن جميعه إلى الإسكندرية . إذ أن شطراً من هذا القمح يبقى بالإقليم ، إما لدفع المرتبات العينيه للموظفين المحليين ، و إما للوفاء بما يمنحه الإمبراطور من الإعانات سنوياً للأديرة والكنائس (١٥٤) . وتعتبر كنيسة الإسكندرية من الكنائس التى أفادت من الميرة المدنية ، وما اشتهر باسم Prosphora Alexandreia إنما يدل على ما كان يؤدى إلى الكنائس من القمح (١٥٥) .

مثال ذلك أن قرية أفروديتو تعهدت بأن تؤدى سنوياً ٥٧٥٩ أردباً من القمح إلى دير ميتانويا بالقرب من الإسكندرية ، ويتكفل سكان القرية بنقل القمح ، ودفع ما يتطلبه من أجور إضافية ، والتزم أمونيوس أيضاً بأن يؤدى للدير ٨٠٠ أردب ، يقوم مندوبه بتسليمها إلى مندوب الدير ، ويحصل منه على إيصال ، كما أن أعيان أفروديتو يحصلون من مندوب الدير على إيصال يشير إلى أنهم قاموا بتوريد القمح المطلوب من القرية. (١٥٦) ويجرى شحن القمح المتحصل من أفروديتو تحت إشراف proedrus ، epimeletes وطائفة من البحارة حتى أنتينوى، وفى بعض الأحوال ، تؤدى القرى ما هو مقرر عليها من الضريبة إلى قادة السفن مباشرة ، ويتولى ذلك الكاتب (١٥٧) . وإنما يجرى ذلك فى حالة الضياع الكبيرة المتمتعة بالجباية الذاتية ، فيقوم قائد الأسطول بإعطاء الكاتب (ممثل المالك) إيصالا بما استلمه من القمح (١٥٨) .

أما الملاحون الذين يتولون نقل القمح nautae ، فالراجح أنهم ينتمون إلى نقابات ملاحى النيل ، و يلتزمون بتأدية خدمات الحكومة . على أن مسئوليتهم تتفاوت فى ضخامتها أو ضآلتها بحسب الأحوال ، فأرباب السفن التى تحمل القمح

المتحصل من الضياع الكبيرة هم وحدهم المسئولون عن تسليم الحبوب ، على حين أن مسئولية الملاحين الذين تولوا نقل قمح أفروديتو ، قلل من شأنها وجود الموظفين الذين صحبا الشحنة حتى أنتينوى .[159]

وكل السفن، القادمة من أنحاء الدوقية ، عن طريق الترع والنيل ، تتجمع فى عاصمة الدوقية فى الموعد المحدد . ومنها يتولى الدوق وموظفوه،[160] نقل القمح على أسطول إلى الإسكندرية ، على دفعتين . وأشار قانون ١٣ إلى أن قمح طيبة المتحصل بإسم الشحنة السعيدة (الموجه إلى القسطنطينية) ، ينبغى أن يتجمع فى أنتينوى فى ٩ أغسطس ، وأن يبلغ الإسكندرية قبل ١٠ سبتمبر . أما الشحنة التى برسم الإسكندرية ، فينبغى أن تصل إليها قبل ١٠ أكتوبر .[161] ويتبين من الملاحظة الملحقة بالأمر الصادر إلى أعيان أفروديتو ، أن الدفعة الأولى وقدرها ٤٠٥٣ أردبا ، كانت برسم الشحنة السعيدة (القسطنطينية) ، أما الدفعة الثانية وقدرها ٢٠٠٠ أردب ، فقد جرى شحنها على سفن صغيرة . ومن الواضح أن هاتين الدفعتين المتتاليتين ، ترتبط أولاهما بالشحنة السعيدة التى برسم بيزنطة ، وترتبط الثانية بمؤونة الإسكندرية[162] .

على أن الفترة التى تستغرقها أساطيل الميرة (القمح) فى المسير إلى الإسكندرية يصح اختصارها ، إذا اهتم ديوان الدوق فى كل دوقية ، مثلما حدث فى طيبة ، بشحن القمح على سفن صغيرة ، تستطيع فى يسر وسهولة ،أن تبلغ الإسكندرية، على حين أن السفن الكبيرة لا تستطيع أن تجتاز القناة التى تربط النيل بالإسكندرية ، فكان لزاماً عليها أن تتوقف عند Chairemon (Chaereas) حيث يجرى تفريغ القمح ، ثم نقله إلى سفن أخرى أصغر حجماً ، تحمله إلى الإسكندرية[163] .

وقد يحدث فى الأقاليم التى لا يكثر فيها القنوات ، أن ينقل القمح براً إلى الميناء التى يشحن منها ، وحيث يوجد بها الشون اللازمة لخزن القمح ، إلى أن

يشحن منها فى قوارب . و ينبغى أن نقدر فى هذه الحالة ما تحتاج إليه دواب الحمل من الحمير والإبل ، من المؤونة ، مثلما حدث قبل القرن السادس (١٦٤) .

وجرت الإشارة إلى ما يصرف لدواب الحمل ، فى برديات القاهرة ، وفى حسابات البهنسا المتعلقة بنقل القمح . ولضمان انتظام جباية القمح وحفظه ، جعل جستنيان المشتركين فى إدارة الميرة (القمح) متضامنين فى تحمل المسئولية (١٦٥)* .

فأعيان القرى المتمتعة بالجباية الذاتية، والباجاركة ، والجند ، والتريبونات ، الذين يصح الاستعانة بهم ، يعتبرون جميعاً مسئولين ، و يتعرضون للعقوبة ، إذا أهملوا فى تأدية واجباتهم . فإذا تأخروا فى جمع ماهو مطلوب من كمية القمح ، و إرسالها إلى الإسكندرية ، تعرض للخطر مركزهم وأملاكهم وحياتهم ، بل إن ورثتهم يتعرضون أيضاً لما تفرضه الحكومة من العقـــوبة ، بسبب إهمالهم . و يجرى تقـدير الغرامة عن الإهمال ، على أساس سنت ذهب ، عن كل ثلاثة أرادب (١٦٦) .

شحن القمح إلى بيزنطة

تحمل الدوق الأوجستال لمصر مسئولية ثقيلة ، فلم يكن فحسب مكلفاً بجمع قمح المعونة وتوزيعه بالإسكندرية، بل كان لزاما عليه أيضا ، بعد أن اجتمع بالإسكندرية حوالى منتصف سبتمبر ، كل القمح المخصص لبيزنطة (القسطنطينية) ، أن يبادر إلى إعداد الأسطول ، حتى لا تتعرض الشحنة السعيدة لأى تأخير بسبب خطأ ينسب إليه أو إلى إدارته (١٦٧) .

---

(١٦٥)* تطلب النقل بالنيل نظاماً مركزياً قوياً ، يقضى بجمع السفن أو القوارب المطلوبة فى أماكن معينة ، تنقل أكبر كمية من القمح فى أثناء الفيضان . وانتظم أرباب السفن فى نقابة تضامنوا فى تحمل المسئولية . وإلى جانب السفن الخاصة ، كانت توجد سفن أخرى تمتلكها بيت المال والحكومة ، وسفن تمتلكها الكنيسة . وامتلكت بعض الضياع سفناً خاصة فى بعض الأحوال . (انظر : Johnson : Economic Studies, p. 158) .

http://www.al-maktabeh.com

ومن الخير ألا تبقى محصولات مصر معطلة فى الشون أو فى ميناء الإسكندرية، إذ يكفى أن تحدث بالمدينة ثورة عنيفة، حتى تصير هذه المحصولات نهبا للسكان الثائرين [١٦٨]. ولذا كان واجب الدوق الأوجستال، ألا يتم شحن كميات القمح اللازمة للإستهلاك الخاص، إلا بعد إعداد الأسطول اللازم لشحن القمح المطلوب للقسطنطينية [١٦٩].

ونظراً لما يقوم به الدوق الأوجستال بمصر من جهد فى سبيل انتظام شحن القمح إلى بيزنطة، صار هذا الدوق وإدارته له من المكانة ما يزيد على مكانة سائر الدوقات [١٧٠]. وتقرر فرض غرامة قدرها دينار (صولد) عن كل أردب، إذا أهمل فى واجباته. [١٧١] ومنذ إنشاء بيزنطة، تولى أسطول الإسكندرية بمساعدة أسطولى أفريقية وسوريا، نقل القمح سنويا إلى القسطنطينية (العاصمة) [١٧٢].

أما بحارة الإسكندرية navicularii الذين ألفوا من أنفسهم نقابة، شأنهم فى ذلك شأن بحارة افريقية، فإنهم ظلوا حتى القرن السادس يتعاهدون إعداد أسطول الميرة وتسييره، مقابل امتيازات خاصة أو نتيجة مسئوليات ضخمة. على أنه حدث فى القرن الخامس أن بذل البحارة جهوداً كبيرة للتهرب من الالتزامات المرتبطة بمهنتهم [١٧٣].

لم يشر قانون ١٣، إلى الأساطيل العامة، فلم تكن هيئة البحارة، فيما يبدو، سوى طائفة صغيرة من أرباب السفن، دفعت إليهم الحكومة أجرا معتدلا على أساس سنت ذهبى لكل مائة أردب، وخضعت سفنهم باستمرار لأوامر الحكومة، إذ تحتم عليهم أن يحملوا كل سنة قمح الميرة، وأن يشتركوا مع الدوق

الأوجستال فى تحمل مسئولية عملية النقل (١٧٤)*.

ووفقاً لما ورد فى تاريخ حنا النقيوسى ، كان الإمبراطور موريس هو الوحيد من الأباطرة البيزنطيين ، الذى ألغى القانون الصارم ، الذى بمقتضاه تحمل قادة الأسطول المسئوليات والغرامات الناجمة عن غرق سفينة من السفن (١٧٥). ونتبين من ذلك أن الحكومة الإمبراطورية لم تكن تثق فى البحارة ، ورأت أنه من الحكمة أن تلاحظهم وتراقبهم حتى لا يتعمدوا إغراق السفن (١٧٦).

وتعتبر أحوال الملاحة فى البحر المتوسط ملائمة فى شهرى أغسطس وسبتمبر . و يشير بروكوبيوس ، (١٧٧) أنه من المستطاع القيام برحلتين أو ثلاث رحلات بحرية قبل حلول الشتاء. على أن أخطر مرحلة من الرحلة ، هى التى تقع فيما بين الدردنيل والبوسفور (١٧٨) ، بسبب عدم اتساع البوغاز فلا تستطيع السفن أن تدخل فى المضايق ما لم تهب رياح جنوبية لدفعها نحو بيزنطة ؛ وذلك لأن الرياح الشمالية والتيارات تتعرض لها أثناء توجهها نحو بيزنطة (١٧٩).

وللتغلب على هذه العقبات ، أمر جستنيان بتشييد شون كبيرة فى تنيدوس Tenedos ، تبلغ من الضخامة ، ما يجعلها تتسع لكل حمولة أسطول القمح . فإذا حدث أن هبت رياح عكسية ، جرى تفريغ القمح بهذه الشون وعاد الأسطول إلى الإسكندرية ، فيتولى أسطول آخر نقل القمح من تنيدوس إلى القسطنطينية (١٨٠)**.

---

(١٧٤)* قرر جستنيان مبلغ ٨٠ ألف صولدا لنقل ٨ مليون أردب ، فإذا عرفنا أن متوسط ثمن كل ١٠ أرادب دينار ، كان سعر الشحن هو ١٠٪ من ثمن الشحنة وهو يقارب ما قرره دقلديانوس . وأمر جستنيان بأن يؤدى هذا المبلغ إلى صاحب السفينة ، كما جرت بذلك العادة . (انظر : Johnson :Ec. St. p. 160.) .

(١٨٠)** يشير مرشد بالبحر الأسود إلى أن الرياح الجنوبية الغربية والشمالية الشرقية ، يندر هبوبها من شهر مارس إلى شهر سبتمبر ، بينما يسود هبوب الرياح الشمالية والشمالية الشرقية تسعة شهور فى السنة ، من ديسمبر إلى سبتمبر . ففى الخريف ، بعد دخول السفن إلى المضايق ، نتيجة دفع الرياح الجنوبية لها ، يطمئن الملاح إلى أنه سوف يجد رياحاً جنوبية شرقية فى بحر مرمرة تدفع سفنه إلى بيزنطة . (انظر : Johnson :Ec. St. p. 156.) .

أمور نقل القمح :

يرتبط ارتباطاً وثيقاً بضريبة القمح، جباية الضرائب المعروفة باسم النولون naula، أى الضرائب المخصصة لسد نفقات نقل القمح . وفى القانون ١٣، شرح جستنيان الأهمية التى ترتبط بضرائب أو رسوم النولون . فنظراً لما أولته الحكومة المركزية (مقرها القسطنطينية) من اهتمام بالغ، بأن يرد إلى العاصمة القمح المطلوب فى الوقت المحدد، دون أن ينقص شىء من الأرادب المطلوبة من دافعى الضرائب، حرص جستنيان على ألا يتعرض نقل القمح لأى عائق أو تأخير (١٨١).

ولكى يضمن انتظام تسليم القمح فى الميعاد المحدد، قرر جستنيان جعل مبلغ ٨٠ ألف سنتا ذهبياً (صولدا) رسوما للنولون (أجورا للنقل) ، فإذا فرضنا أن متوسط ثمن كل ١٠ أرادب من القمح هو صولد (سنت ذهبى) ، كان سعر الشحن هو ١٠ ٪ من ثمن الشحنه (١٨٢)* .

وما تحمله من المسئولية ، كل من الدوق ، وموظفو ديوانه ، ومتولى جباية النولون apodecte ، يعتبر دليلا على أهمية هذه الضريبة، وأشار جستنيان فى قانون ١٣ ، إلى أن من أول واجبات الدوق ، جباية هذه الضريبة مع ضريبة القمح (الميرة) (١٨٣) .

ويجرى توزيع ضريبة النولون على الأبروشيات والمدن والقرى والضياع الكبيرة ، ويجرى تحصيل هذه الضريبة مع ضريبة القمح فى وقت واحد ، وما يوزع من إيصالات القمح تتضمن أيضاً الإشارة إلى ما يحصل من ضريبة النولون (١٨٤) .

---

(١٨٢)* المعروف أن كمية القمح المقرر توجيهها إلى القسطنطينية ، بلغ مقدارها ٨ مليون أردب من القمح . (انظر : Johnson. : Ec. St. p. 160.) .

و يقوم على جباية ضريبة النولون ، الدوق ، يساعده موظفو ديوانه و إداراته، والعساكر ، فضلا عن المتولى شحن القمح apodecte ، وأمرّ جستنيان على ألا يتدخل هذا الموظف apodecte فى جباية ماهو خارج عن ضريبة النولون(١٨٥) .

وما يتحصل من المبالغ برسم النولون ينبغى أن تنقل مع القمح المخزون فى الشون العامة ، ذلك أن عمليتى تحصيل النولون وجباية القمح إنما جرى إثباتهما معاً فى إدارة الحسابات(١٨٦) .

وكيفما كان الأمر ، فإن المبلغ المتحصل برسم النولون ، يجرى تسليمه إلى يد المشرف على شحن القمح إلى القسطنطينية وهو المعروف باسم apodecte ، فمتى وصله هذا المبلغ ، بادر بتوزيعه على أرباب المراكب وأصحاب السفن navicularii ، حتى لا يتعرض إرسال القمح إلى أقل تأخير(١٨٧) .

فجباية رسوم نقل القمح (النولون) ، تطلبت مسئولية الدوق ، ومسئولية ديوانه و إداراته ، ومسئوليات رؤساء الأبروشيات ، فضلا عن مسئولية المشرف على شحن القمح apodecte . فإذا حدث إهمال من قبل الدوق ، ولم يتم جمع المبلغ المطلوب (النولون) فى الوقت المحدد ، وتسليمه إلى المشرف على شحن القمح ، تقرر أن يؤدى هو و إدارته ضعف المبلغ المطلوب بصفة تعويض(١٨٨) .

ومن ملحقات النولون من الرسوم المرتبطة بالقمح ، ما كان يتحصل من رسوم إضافية ، وتحصل إما نوعاً أو نقداً ، وتتفاوت بين ١ ٪ ، ٥ ٪ ، ٦ ٪ . وما تحصل من هذه الضرائب ، يتقاضاه المكلفون بجمع القمح ، والذين يقومون بكيالة القمح، أوتعتبر ضمانا لنظافة القمح وسلامته وخلوه من الآفات(١٨٩) .

على أن هذه الإجراءات وتلك الاحتياطات ، إنما تدل على حقيقة خطيرة ؛ وهى أن الحكومة البيزنطية ، وما يمثلها من الأداة الحكومية فى مصر نهضت لتحدى دافعى الضرائب ، ولم يسعها إلا أن تستخدم الجند لإرغامهم على دفع

http://www.al-maktabeh.com

الضرائب المقررة ، كما أنها نهضت لمقاومة الموظفين المعروفين بالإهمال ، وعدم الأمانة ، والحرص على استغلال وظائفهم ومناصبهم للإثراء على حساب الحكومة ودافعي الضرائب . غير أنه مهما كان لدى الإمبراطور من النوايا الطيبة ، فإن ما أجراه من إصلاح لن يفيد ولن يكون ناجعا ، بسبب هذه العيوب الخطيرة ، ولا بد أن تتعرض مصر البيزنطية ، إلى الاضمحلال والانهيار من الناحيتين الإدارية والاقتصادية(١٩٠) .

الفصل التاسع

التنظيمات القضائية منذ زمن جستنيان

حدود ولاية القضاء :

جرى فى القرن السادس الميلادى ، أن تحمل مسئولية إدارة القضاء عادة ولاة (حكام) الأقاليم ، ومن يخضع لسلطانهم من الموظفين . ولما كان الدوقات يتقلدون الوظائف المدنية ، فأصبحوا يمارسون على هذا الأساس وظيفة القضاء. وتعتبر محكمة الدوق أهم المحاكم المحلية[1] ، وكانت تعقد جلساتها فى عاصمة الدوقية . ويمارس الدوقات القضاء الجنائى العالى ، ويفصلون فى الخصومات التى تقع بين الموظفين ، الذين يباشرون أعمالهم فى أقسام الدوقية ، وبين من يخضع لإدارتهم ،فينظرون مثلا فى الدعاوى المتعلقة بالإدارة المالية، ويحكمون فى القضايا المدنية الهامة ، لاسيما تلك التى يشتبك فيها القادة والجند[2] .

وماورد فى البرديات من التماسات موجهة إلى دوقات طيبة ، يوقفنا على ماتنظر فيه محكمة الدوق من مختلف الأمور ؛ مثال ذلك أن جماعة من السناتور يين بجهة أومبوس Ombos ، يطلبون إلى دوق طيبة ، فلافيوس ماريانوس Flavius Marianos ، أن يعاقب شخصا اسمه كوللوتوس Kollouthos ،لأنهم ارتابوا فى أنه وثنى ؛ ذلك لأنه أثار البليميين ضد سكان المدينة ، ولأنه بفضل مساعدة هؤلاء المغيرين المتبربرين شن الإغارة على البلاد ونهبها[3] . أما شكاوى أهل أفروديتو ضد الباجاركة ، وشكاوى سكان أنتيابوليس ، ضد الموظف المعروف باسم strategе ،فإنها مع غيرها من الاحتجاجات العديدة من قبل دافعى الضرائب الذين تعرضوا لإيذاء الموظفين ، قد انتهت إلى محكمة الدوق[4] . وتقدمت أرملة

بالشكوى لدى الدوق ، ضد بلدية قريتها ، لأنها فرضت عليها من أعمال السخرة ، ما زعمت أنها معفاة منها[٥]. وتظلم فلاح بضيعة كبيرة ، من أن ورثة سيده ، جردوه من كل شيء ، وألزموه بأن يدفع من الضرائب ما لم يكن مقررا عليه . وطلبت أرملة بأفروديتو ، من دوق طيبة أن ينصفها من مندوب القاضي بالقرية المسمى Boethos ، الذى نزع منها طفلها ولم يرده إليها[٦]. وجرى أيضا أمام محكمة الدوق ، أن طلب رهبان دير بطيبة ، إثبات حقوقهم فى قطعة أرض انتقلت إليهم بطريق الوصية ، غير أن بعض الأفراد نازعوهم ملكيتها ، وأن راهبا بدير St. Jermie فى انتايو Antaiou ، استنكر ما تعرض له من اعتداءات[٧] .

وفى سيرة رئيس الدير دانيال ، قصة راهب زاهد شديد الورع ، جرى اتهامه باطلا بأنه سرق الأوانى المقدسة ، فألزمه الموظف الموكل من قبل الكنيسة بعقابه (econome) بالمثول بين يدى الدوق ، الذى أمر فورا بالتنكيل به ، غير أنه لم يستطع أن ينتزع منه اعترافا بالجريمة التى ألصقت به[٨]. والمعروف أنه تفرع من ديوان الدوق إدارة خاصة ، وهى المعروفة باسم scrinium a libellis ، يتولى إدارتها ، موظف كبير ، عظيم الأهمية اتخذ لقب كونت ، ترفع إليه الشكاوى (الملتمسات) ، وعن طريقه ترفع الشكاوى للدوق[٩] ؛ أى أنه يتوقف على هذا الموظف الكبير ، من الناحية العملية ، إرسال الشكوى ، أو رفع الأمر إلى المحكمة[١٠] .

أما إدارة الجنايات commentariensis ، فإنها اختصت بالقضايا الجنائية ، فالموظف المعروف باسم commentariensis ، الملحق بإدارات أوجستال مصر ، جرى تكليفه بمطاردة مثيرى الفتنة والثورة بالإسكندرية ، وكذا الذين

أخلوا بالأمن ، ولجأوا إلى مينيلاتيس ومريوط . ويخضع لأوامر هذا الموظف Boèthos Ton Kommentôn[(١١)].

وللدوق مستشار قضائى ، رهن إشارته ، وارتبط بمحكمة الدوق محامون (Scholastici) ،وفى وسع المتقاضيين أن يلجأوا فى بعض الحالات إلى نائب عنه topotérète ينتدبه لهم الدوق،على الرغم من أن استخدام هذا النائب topotérète لم يكن مشروعا (إلا فى بعض الأحوال الاستثنائية)[(١٢)]. ولكن هل بعث الدوق بهؤلاء النواب إلى المدن الواقعة بدوقيته،أو أقاموا مكانه وفى مجلسه بالحكمة المنعقدة فى عاصمة الدوقية؟. الحقيقة أننا لا نستطيع أن نجزم بما جرى فى الحالتين ، غير أنه من الملحوظ أن إرسال مندوب الدوق topotérète إلى سائر المدن بالدوقية لا يتعارض مع الحقيقة الواقعة، وهى أن الباجرك كان يقيم فى كل من هذه المدن التى يتوجه إليها مندوب الدوق، وأن صلاحية الباجرك للنظر فى القضايا لا تتعارض مع صلاحية مندوب الدوق.ولعل الباجرك ومندوب الدوق هما اللذان يتوليان تنفيذ الأحكام الصادرة من الدوق ، بين المتخاصمين الذين يقيمون فى دائرة الباجركية[(١٣)] . فما وجهه رهبان دير Apôtres Christophre إلى دوق طيبه من التماس ، جاء فى خاتمته أنهم يرجون أن يطلب الدوق من الباجرك أو مندوبه فى أنتابو تنفيذ الحكم الذى أصدره[(١٤)]*.

ونظراً لأنه صار فى يد الدوق من السلطات المدنية ما اختص به رئيس الأبروشية ، فأصبح بذلك كبير القضاة فى إقليمه ، وفقد رئيس الأبروشية كل ماله من الامتيازات المتعلقة بالقضاء، ولم يعد إلا مجرد مرءوس للدوق[(١٥)].

---

(١٤)* وللدوق أيضاً أن يباشر القضاء أثناء طوافه لتفقد البلاد ، غير أن ذلك لم يكن القاعدة السائدة .

وما ورد في وثيقة ترجع إلى القرن السابع الميلادى ، من الإشارة إلى محكمة رئيس الأبروشية Praeses ، فإن ما كان ينظر فيه من القضايا، لا يزيد دوره فيها على أنه مجرد قاض[١٦].

ولم يكن ثمة محكمة متوسطة بين محكمة الدوق ، التى تنعقد فى عاصمة الدوقية ، والتى كان للدوق فيها مباشرة القضاء الجنائى العالى بالإضافة إلى القضاء المدنى ، وبين محاكم الباجاركة وحماة المدن defensores ، الذين لم يكن لهم من ولاية القضاء الجنائى إلا النظر فى القضايا الجنائية الصغيرة ، وبعض القضايا المدنية[١٧]. ومن ثم قام بالباجركية محكمتان : محكمة الباجرك ، ومحكمة حامى المدينة. وتدل النصوص على أن الباجرك لم يمارس من الوظائف القضائية ، إلا وظيفة قاضى المصالحات ؛ فينظر فى عقود الضمان وفى الشكاوى ، فيرد الحقوق إلى أصحابها. أما اختصاصات حامى المدينة ، فإنها وردت فى الملحق ١٥ الذى أصدره جستنيان ، وبمقتضى ذلك صار لحامى المدينة حق القضاء المدنى والجنائى ؛ فمن الناحية المدنية كان حامى المدينة ينظر فى قضايا المعاملات المالية التى تتجاوز قيمتها ٣٥٠ صولدا ذهبياً ، على حين أنه لم يكن ينظر قبل صدور الملحق ١٥ إلا فى القضايا الصغيرة التى لم تتجاوز قيمتها ٥٠ سنتا ذهبيا (صولدا)[١٨].

ومنذ سنة ٥٣٥ صار اختصاص حامى المدينة فى القضاء مطابقا لاختصاص رئيس الأبروشية . إنما هل ظلت العلاقات بين حامى المدينة وبين رئيس الأبروشية بعد إصلاح جستنيان الذى جرى بمقتضى قانون ١٣ ، على ما كانت عليه فى سنة ٥٣٥[١٩]؟. الواقع أنه تقرر قبل صدور الملحق ١٥ ، منع الحماة من أن يصدروا أحكاما بالديات فى القضايا الجنائية . ولم يجز لهم جستنيان إلا بتوقيع العقوبة ، بشرط ألا تبلغ بحال من الأحوال حد القسوة . ووفقا لما ورد فى ملحق ١٥ من نصوص ، صار لحماة المدن المصرية ، وسائر المدن بالإمبراطورية ، الحق فى أن ينظروا

فى القضايا التى لم تكن الجرائم فيها بالغة الخطورة ، وأن ينفذوا ما أصدروه من عقوبة . فإذا وقعت جريمة أو جناية كبيرة ، فلم يكن لحامى المدينة سوى أن يأمر بالقبض على الجانى ، ويودعه السجن ، ثم يقدمه إلى محكمة رئيس الأبروشية، وفقاً لنصوص الملحق ١٥[٢٠]. وتلك هى الحالة الواردة فى بردية تتمثل فى ملتمس ، طُلِب فيه إلى حامى المدينة أن يفحص أمر شخص اسمه سوروس Sourous، وقع عليه من الاعتداء الشديد ما كاد يزهق روحه، وأن ينهى إلى رئيس الأبروشية بما وقف عليه من الحقائق كيما يصدر فى ذلك حكما[٢١]. ومن اختصاص حامى المدينة أيضا النظر فى العقود ، فمن أعماله أن يتسلم عقود الضمانات ، وأن يصدر الإقرارات .[٢٢] وتشير الوثائق أيضاً إلى أنه كان يمارس وظيفة قاضى الصلح ، وينظر فيما يقع من المنازعات ، وتلقى شكاوى من يتعرضون للأذى بمحض الصدفة ، ويقضى فى الأمور المتعلقة بالإدارة المالية[٢٣]*. ولمساعده (Boethos) أن يشترك فيما يجرى بالمجالس (المحاكم) من مناقشات . وكان حامى المدينة ، فيما يبدو ، يجرى اختياره من بين المحامين ، وذلك لأنه يحمل لقب (Scholasticus)[٢٤].

وفى القرى يباشر رجال الشرطة المحلية riparii السلطة القضائية فى بعض الأمور ، فيتسلمون من سكان القرية الشكاوى ، ويبادرون إلى فحص موضوع الشكوى ، ويجوز لهم بعد فحص الشكوى ، أن يلزموا المتهمين بإصلاح ما أفسدوه ،

---

(٢٣)* تدخل حامى مدينة أرسينوى ، فيما وقع من نزاع بين قادة قوات Transtigritans المرابطين فى كركيه Kerké ، وبين سكان هذا المكان. ويقوم أحياناً بمراقبة الآداب العامة ، ويفصل فى قضايا الطلاق والاختلاف بين الزوجين . وتلقى حامى مدينة البهنسا شكوى من شخص تعرض للأذى من شخص يحمل اسماً مطابقاً لاسمه . ويفصل أيضاً فى النزاع الذى يقع بين القرى على امتلاك الأراضى ، (انظر :
(Rouillard: p. 155, notes 3. 4. 5.

http://www.al-maktabeh.com

أو ما أنزلوا به الأذى والضرر [٢٥] ، فإذا امتنعوا عن تنفيذ ذلك بعثوا بهؤلاء المتهمين إلى المدينة ، فيتولى محاكمتهم حامى المدينة أو الباجرك [٢٦] . حتى إذا مثل المتهمون أمام المحكمة ، أصبحت مهمة رجال الشرطة riparii قاصرة على مراقبتهم ، والحرص على ألا يختفوا قبيل المحاكمة [٢٧] .

وفى المنازعات البسيطة ، يجرى الاتفاق بين المتخاصمين على أن يحتكموا إلى أشخاص يختارونهم . وعلى هذا النحو ركن المتخاصمون إلى الحكم الذى أصدره محامو محكمة الدوق فى طيبة [٢٨] . وفى نزاع آخر، أصدر الحكم ثلاثة من شيوخ القرية meizones بالقرية [٢٩] . ومع ذلك فإن هؤلاء الموظفين فيما يبدو لم تكن مهمتهم فى أمور التحكيم سوى الإشراف والمراقبة [٣٠] .

أما القضاء الكنسى ، فإنه نشأ منذ زمن الإمبراطور قنسطنطين الكبير . وجاز للمتخاصمين فى الأمور المدنية أن يلجأوا باختيارهم أيضاً إلى تحكيم الأسقف ، حتى أصبحت أعباء القاضى والحاكم تثقل كاهل الأسقف [٣١] . وما أصدره الأسقف فى مجلسه (episcopalis audientia) من الأحكام ، جرى الاعتراف بها قانوناً .

وإلى جانب المحاكم القائمة بالبلاد ، صار لسكان مصر الحق فى أن يرفعوا مباشرة أمورهم وقضاياهم إلى محكمة الإمبراطور بالقسطنطينية . فالمعروف أن المتخاصمين جاز لهم بمقتضى الإجراء المعروف بالالتماس supplicatio ، أن يرفعوا شكاويهم رأساً إلى محكمة الإمبراطور فى صورة ملتمس ، فيصدر الحكم فى هذه الحالة فى صورة أمر . وحفظت لنا أوراق البردى ، أوامر إمبراطورية قضائية ، صادرة من بيزنطة ، فى قضايا مصريين [٣٢] . ولا شك أن جستنيان استغل هذه الفرصة كيما يجعل سلطته محسوسة عند سكان مصر ، الذين درجوا على أن يلجأوا فقط إلى ما كان للأعيان وكبار الملاك من نفوذ محلى ، نظراً لأنهم يحسون دائماً بهذا النفوذ فى قريتهم أو مدينتهم [٣٣] .

أما القضاء الخاص الذى يتمثل فى المحاكم العسكرية والمحاكم الكنسية، فكان أيضاً معروفاً فى القرن السادس. على أنه فى الواقع ، اختلط القضاء العسكرى بالقضاء المدنى فى محكمة الدوق، غير أن الأمر لم يكن كذلك فى الأحوال الأخرى، إذ قامت محاكم عسكرية خالصة تألفت من ضباط ، تنظر فيما يرفع إليها من القضايا التى يكون الجند فيها أحد طرفى المتخاصمين[٣٤]. ويخضع رجال الدين أيضاً للقضاء الكنسى، فلا ينبغى مطلقاً لأحد رجال الدين أن يمثل أمام محكمة مدنية ، إلا فى حالة كانت الدعوى فيها جنائية ، غير أن مايصدره الأسقف من أحكام ، يتولى تنفيذها بالنيابه عنه القاضى إذا وافق على ذلك الطرفان[٣٥]. وفى زمن هرقل ازداد ما لرجال الدين من حصانة من الناحية القضائية، إذ صار للأسقف الحق فى تنفيذ الأحكام. يضاف إلى ذلك ، ماجرى فى كل القضايا المتعلقة بأحد رجال الكنيسة ، أنه لايجوز للمتهم أن يلجأ إلى القضاء المدنى ، بعد أن اعتبرته الكنيسة الأسقفية مذنبا[٣٦].

الاستئناف :

ما أدخله جستنيان من تعديلات فى نظام القضاء ، أكثر ما تتعلق أوترتبط بالاستئناف ، لابالولاية القضائية ذاتها . فما تعرضت له اختصاصات القضاء من التعديل ، لم يتجاوز ما حدث من تغيير نتيجة الاختصاصات الجديدة التى جرى منحها للدوق ، والسلطات البالغة الاتساع التى جرى بذلها لحامى المدينة ، وفقاً لما ورد فى الملحق ١٥[٣٧].

فوفقا لهذا الملحق ، جرى اطلاق اسم محكمة حامى المدينة على محكمة حاكم الإقليم ، والواقع أنها من الناحية الشكلية لم تكن سوى محكمة رئيس الأبروشية. غير أنه يجوز أن تغيرت الأمور ، بما حدث وفقا لقانون ١٣ ، من تغييرات فى

السلك الإدارى البيزنطى فى مصر ، وأنه تبعا لذلك ينبغى أن يرفع إلى الدوق ، لا إلى رئيس الأبروشية ، كل الأحكام الصادرة من قبل حامى المدينة[٣٨] .

والراجح أيضاً أن ما يصدره الباجاركة من أحكام ، يجرى رفعها إلى محكمة الدوق ؛ إذ أن من القصص المرفوعة إلى دوق طيبة ، قصة مظلمة تنطوى على شكوى من الأرملة صوفيا ، تشير فيها إلى ما تعرضت له من المعاملة السيئة من قبل زوجها الثانى ، وأنها سبق أن تقدمت بشكواها إلى الباجرك فحكم لصالحها ، غير أن الحكم لم يجر تنفيذه ، فلجأت صوفيا إلى محكمة الدوق[٣٩] . ولعل ما قامت به صوفيا يعتبر إجراء عاديا ، فوفقا لبردية من برديات القاهرة ، يجوز أن يرفع إلى الدوق ما يصدره مندوبه أو نائبه المعروف باسم topotérete من أحكام . وتشير البردية إلى قضية فلاح يعمل عند ورثة الكونت فويبامون Phoibammon ، فعندما أدرك هذا الفلاح أن مندوبى الدوق ألزموه ظلما وعدوانا بأن يدفع الضرائب ، رفع الأمر إلى دوق طيبة[٤٠] .

ولمناهضة ما اشتهرت به الإدارة من التراخى والتباطؤ ، التزم المتقاضون مضطرين بأن يسيروا مسافات طويلة ، وأن يتعرضوا لتكاليف باهظة . وأدرك جستنيان أن هذه المساوىء والأضرار ، إنما نجمت عن عدم وجود محكمة استئناف تقع وسطا بين محكمة حاكم الإقليم ، و بين محكمة الوالى الكبير بالقسطنطينية (والى الشرق)[٤١] ؛ ومن ثم زخرت العاصمة بأخلاط من سكان الأقاليم ، اضطروا إلى أن يدفعوا من النفقات ، ما يجعل مصاريف الدعوى فى بعض الأحوال تبتلع المبلغ المتنازع عليه[٤٢] ، يضاف إلى ذلك أن المتخاصمين يتركون زراعاتهم تتعرض للاهمال ، بجانب ازدياد عدد المتعطلين فى المدينة الكبيرة[٤٣] ، على حين

أن كبار الموظفين بالعاصمة ازداد قلقهم واضطرابهم ، لانصرافهم إلى النظر فى قضايا تافهة ضئيلة الأهمية(٤٤) .

ولذا قرر جستنيان إنشاء محاكم متوسطة ، بين محكمة والى الشرق فى بيزنطة ، و بين محاكم ولاة الأقاليم ، وهذا الإصلاح جرى تطبيقه بمصر فى سنة ٥٣٦ . ففى الملحق ٢٣ ، جعل جستنيان ، لأوجستال الإسكندرية أن يفصل نهائيا فى كل القضايا التى لا تزيد قيمة الدعوى فيها على خمسمائة صولد ذهبى ، فلا يجوز استئناف القضايا التى من هذا القبيل ، أو الالتجاء بها إلى سلطة أخرى(٤٥) .

على أن هذه الصفة التى للأوجستال ، فيما يتعلق بالقضاء فى مصر ، لم تلبث أن تعرضت للتغيير ، حينما فقد الأوجستال مكانته على أنه نائب الإمبراطور فى الدوقية (Diocese) ، وصار مجرد حاكم مدنى وعسكرى لدوقية من الدوقيات. والواقع أنه وفقا للملحق ٢٣ ، يجوز الاستئناف إلى الأوجستال دون الرجوع إلى أية هيئة أخرى ، فى كل الدعاوى التى لا تقل قيمتها عن خمسمائة صولد ، إذا كان الحكم الأول أصدره رئيس الأبروشية . ومن الواضح أنه يجوز أيضا أن يرفع إلى الأوجستال ، الحكم الذى أصدره موظف من الفئة المعروفة باسم « spectabilis» وهـذه هى بالضبط حالة دوقات مصر الذين اتخذوا لقب peribleptoi. (مشرف) وفقا لقانون ١٣ . على أنه ينبغى رفع الاستئناف ، وفقا لمحتويات الملحق ٢٣ ، إلى بيزنطة لدى محكمتى والى الشرق والمستشار القضائى ، فيما يتعلق بالأحكام الصادرة من قبل دوقات مصر . غير أننا لم نقف على مثال واحد لقضية حكم فيها الدوقات أول الأمر ، ثم جرى استئنافها إلى بيزنطة(٤٦) . و بذلك ازداد بطء القضاء ، وهو ما لم يكن يريده جستنيان من أول الأمر ، ومع ذلك كان الاستئناف وسيلة ، يتخذها الإمبراطور لأن يظهر فى أنحاء البلاد ما اشتهرت به الحكومة المركزية من أعمال جليلة الشأن(٤٧) .

http://www.al-maktabeh.com

ويجوز للمتخاصمين أيضاً أن يرفعوا ، إلى محكمة الأسقف ، أحكام القضاء ، وذلك إلى جانب ما كان لهم من الحق فى رفع هذه الأحكام إلى محكمة الإمبراطور(٤٨) .

على أن بطء اجراءات القضايا لم يكن ، على حد تفكيرنا ، النقيصة الوحيدة التى شاعت فى القرن السادس . فما اتصف به القضاة من الفساد ، والإستخفاف بواجباتهم ، وما غلب عليهم من الجشع والشراهة فى جمع المال ، تطلب أيضاً ماأورده جستنيان فى الملحق ٨٣ ، ١٢٨ عن الإصلاحات(٤٩) . فما أورده جستنيان من نصوص تتعلق بما ينبغى على الموظفين فى أنحاء الإمبراطورية أن يتبعوه من أحكام ، عند مباشرة القضاء ، جرى حتما تطبيقها فى مصر ، حيث كان القضاء يعتبر سلعة يجرى بيعها ، مثلما حدث فى سائر الأقاليم ، لمن يدفع أعلا الأثمان(٥٠) .

الشرطة :

يعتبر الدوق فى إقليمه رئيس الشرطة ، لأنه يقوم بمساعدة الجند على حفظ الأمن العام ، ويكفل انتظام جباية الضرائب ، بما يبذله لعمال الخراج من المساعدة بالقوة العسكرية(٥١) . ويؤدى رئيس الأبروشية فى إقليمه مهمة قائد الشرطة ، فيصدر من ديوانه أوامر القبض والاعتقال ، وفى إقليمه سجن يلقى فيه من يعيث فساداً ، أو يرتكب جرماً(٥٢) .

وتضمن قانون ١٣ تفاصيل دقيقة عن تنظيم الشرطة ، فى منطقتى مينيلاتيس ومريوط ، اللتين تعرضتا بصفة خاصة للاضطراب والقلق ، نظرا لقربهما من الإسكندرية . والمعروف أن هاتين الجهتين تدخلان فى اختصاص ليبيا . فدرج حاكم ليبيا على أن يرسل إلى هاتين الجهتين نائباً عنه ، عهد إليه بأن يقبض على

من يلجأ إلى هذين الموضعين من مثيرى الفتن بالإسكندرية ، والذين أرادوا أن يتجنبوا مطاردة مندو بى الأوجستال لهم . ولمندوب الوالى القضائى أن يتصرف فى هذه الحالة ، إما من تلقاء نفسه ، أو بناء على طلب الأوجستال ، بأن يسلم المذنبين إلى نواب الدوق الأوجستال[٥٣] . ولتنفيذ ما صدر عن محكمة نائب والى ليبيا من أحكام ، ومن أجل القبض على المشبوهين ، وتسليمهم إلى نائب الأوجستال ، كان لدى نائب حاكم أو والى ليبيا ، إلى جانب الموظفين المدنيين الذين يؤلفون ديوانه ، خمسون جندياً اتخذهم من الحامية المعسكرة أو المرابطة بالمنطقة ذاتها[٥٤] .

ومهما يكن من الأهمية لما قام به الجيش المرابط بمصر من أعمال الشرطة ، فإن الجند لم يكونوا وحدهم هم المكلفون بالسهر على حفظ الأمن فى البلاد ؛ إذ أن فئة خاصة من الموظفين تولت أيضاً تأدية أعمال الشرطة فى المدن والقرى[٥٥] .

ففى المدن صارت إدارة الشرطة فى القرن السادس ، موكولة دائما إلى حامى المدينة ، وإلى من يخضع لسلطانه من رجال الشرطة riparii . والراجح أن مهمة هؤلاء المساعدين كانت فى القرن السادس ،مثلما كانت فى القرن الخامس ،من قبيل السخرة والتكاليف ، على الرغم من أن متوليها حصلوا على أجر وراتب[٥٦] . أما من باشر منهم (riparii) مهمة الشرطة العادية ، كما سبق أن رأينا، فقد جرى تكليفهم بحفظ الأمن فى المدينة ، وفى التحرز والتحفظ على أشخاص المتهمين ، وجعلهم يمثلون أمام القضاء[٥٧] .

ونظراً لأنهم ورثوا ما كان لولاة المدن (strateges) فى العصر الرومانى ، من امتيازات وحقوق ، أصدروا الأوامر بالقبض على المشبوهين والمذنبين[٥٨] ، وأبدوا للمحكمة استعدادهم لمساعدتها فى إعلان الأحكام . ويرأسهم موظف

معروف باسم archiupêrétès ، ويخضع لأوامرهم رجال البريد . وما يصدر من إدارتهم من القرارات ، يجرى نقلها إلى الفئـــة المعروفة باسم irenarques (الحراس) ، الذين يرأسهم تريبون[٥٩] ، وفى كل مدينة جرى إنشاء سجن[٦٠] .

وفى القرى أيضاً جماعة من رجال الشرطة riparii ، بينما اهتم أعيان القرية بالقبض على المتهمين ، وإرسالهم للمثول أمام المحاكم ، مثل محكمة رئيس الأبروشية ، وذلك إذا تلقوا من المحـكمة المذكورة أمراً بذلك[٦١] .

ولا شك أن أعيان القرية ، برغم ما بيدهم من السلطة العامة ، كانوا يلجأون فى القبض على المذنبين إلى الموظفين المـكلفين بأعمال الشرطة ، أمثال الحراس irenarques فى القرية ، الذين يخضعون لأوامر التريبون ، والذين جرى تعيينهم من قبل رئيس الأبروشية[٦٢] . وفى القرى أيضاً كان يوجـــد جماعة أخرى باسم phylacites ، الذين يرأسهم Kephaliotes[٦٣] .

وبذلك تألف من phylacites, irenarques فئة أو جماعة من الشرطة المحلية التى تقابل القوة العسكرية التى يمثلها جيش الإمبراطور . على أن العساكر ورجال الشرطة كانوا يتعاونون فى المحافظة على الأمن فى بعض الجهات[٦٤] .

وإذا حدث أنه لم يكن فى وسع أعيان القرية ، وقوات الشرطة المحليـة ، أن يقوموا بتسليم المجرمين ، أو أهملوا تأدية ذلك الواجب ، نتيجة سوء قصد ظاهر ، جرى الإلتجاء إلى الاستعانة بالعساكر الإمبراطورية . إذ أن السلطات المسئولة قد تبادر ، فى بعض الأحوال ، إلى استدعاء قائد العساكر (tribun) من مدينة مجاورة ، فلا يلبث أن يقدم على رأس ثلة من العساكر ، تعيد السكان إلى رشدهم وصوابهم[٦٥] .

وإلى جانب الشرطة المحليـــة ، قام بالقرى المصرية فى القرن السادس ، موظفون صغار ، يعتبرون من رجال الشرطة يؤدون أعمالا معينة على الرغم

من تنوعها . فحراس الحقول الذين يخضعون لسلطة irenarques، كانوا يؤدون أعمالا هامة فى القرية comé، أما الرعاة المكلفون بحراسة القطعان ، والحراس المكلفون بالإشراف على الحقول ، فينبغى عليهم جميعاً ، أن يلاحظوا رى المزروعات ، وأن يهتموا بالمنشآت العامة على اختلاف أنواعها ، وأن يعملوا على حفظ الأمن ، وإلزام سكان المدن بالمثول أمام المحكمة متى اقتضى الأمر ذلك (٦٦) . وجرى تقسيم زمام القرية إلى أقسام ، اختص بكل قسم منها حارس أو عدة حراس ، وذلك وفقاً لما تم الاتفاق عليه بين هيئة الرعاة choinon ، و بين موظفى القرية . و ينبغى أن يخضع الرعاة وحراس الحقول مباشرة لشرطة القرية (riparii) ، وذلك لأنهم (رؤساء الشرطة) هم المسئولون عنهم فى تأدية أعمالهم (٦٧) .

وفى الجهات الواقعة على أطراف الصحراء ، لاسيما ما كان تابعاً منها لطيبة ، حيث تتعرض القوافل لهجمات المغيرين ، جرت إقامة أبراج منيعة ، يصح الالتجاء إليها والاحتماء بها ، عند حدوث خطر شديد ، و يعتبر حارس البرج فى هذه الحالة مندوب الشرطة ، جرى تعيينه بصفة خاصة فى هذه المواضع (٦٨) . أما رجال الشرطة فى القرية ، فإنهم يقومون بهذا العمل ، فيما يبدو ، على سبيل التكليف والإلزام ، مثلما كان حادثا فى العصر الرومانى (٦٩) .

وعلى الرغم من أن كبار الملاك صار لهم فى مصر نفوذ قوى ، واستقلال داخلى كبير ، وأنشأوا لأنفسهم فى ضياعهم جيوشاً خاصة (البقلار) ، وأخذوا ينفقون عليها ، فالواقع أنه لم تكن لهم ولاية قضائية على أملاكهم ، ومع ذلك كانت لهم شرطة خاصة بهم (٧٠) .

ومن العقود المعروفة ، عقد (اتفاق) مبرم بين مالك فى البهنسا ، اسمه فلافيوس أبيون ، ورئيس حراسه المعروف باسم Protophylax . وفى ضياع

أسرة أبيون ، وهى أسرة من كبار الملاك الأغنياء ، ومنها أفراد تولوا وظائف كبيرة ، لم يقم بأعمال الشرطة حراس الحقول فحسب ، بل تولاها أيضاً فئة خاصة معينة من قبلهم من رجال الشرطة riparii [٧١] .

ولا شك أنه كان بالضياع الكبيرة الواقعة بالجنوب ، وفيما كان منها معرضاً لغارات البدو ، طائفة من الحراس الطوافين ، جرى تكليفهم بمنع ما يجىء من الأخطار من الصحراء الغربية منهم . والراجح أنه كان بالضياع الكبيرة الهامة سجون خاصة [٧٢] .

والخلاصة أنه حدث فى القرن السادس الميلادى ، أن بذل مجهود كبير لإصلاح النظام الإدارى بمصر بعد أن أصابه من الإنهيار الكبير ، ما ألحق الأذى والضرر بمصالح بيزنطة فى مصر . و بفضل ما اشتهر به الإمبراطور جستنيان من المهارة الفائقة ، حرص على أن يجرى تغييراً حاسماً فى النظم القائمة ، فقام بإصلاحات خطيرة الشأن ، واستخدم فى ذلك نهجاً بالغ المرونة ، فكان تارة يكتفى بأن يلفت نظر سكان الإقليم والموظفين إلى الاهتمام بواجباتهم التى أغفلوها ، بما كان يورده فى دقة متناهية من تفاصيل الإدارة ، وكان تارة يقضى نهائياً على ما جرى فى الماضى ، بالالتجاء إلى اتخاذ تدابير بالغة الصرامة . غير أنه كان دائما يسعى إلى تحقيق هدف واحد [٧٣] .

فالإدارة المدنية فى مصر ، كما تألفت من الناحية النظرية وفقاً لإصلاحات جستنيان ، كشفت بصفة خاصة عن مدى اهتمام الإمبراطور بالمسألة المالية ، إذ تعتبر السبب الرئيسى لكل ما جرى بمصر من إصلاحات . وما ورد فى قانون ١٣ من الأحكام ، إنما كشفت عن رغبة الإمبراطور جستنيان فى استغلال موارد البلاد . فكل ما ورد فى هذا القانون عن القضاء ، أو عن قمع

الفتن والثورات ، لم يقصد جستنيان من وراء ذلك إلا ضمان انتظام جباية الضرائب [٧٤].

فالإدارة المدنية لإقليم من الأقاليم تكاد تطابق الإدارة المالية، ولم يكن الحكام قبل كل شيء سوى موظفين للمالية ، وما يمارسونه من السلطة الإدارية إنما يمارسونها بالإضافة إلى الأمور المالية [٧٥] ؛ إذ أن واجباتهم على أنهم قضاة أو رؤساء شرطة ، بل أيضاً كقادة جيش، ليست في الواقع إلا واجبات إضافية ، إزاء ما يباشرونه من وظائف جباية الضرائب، وما يقومون به من تنظيم النفقات (المصروفات العامة). فالنظام الحربي في مصر كان شديد الخضوع والتبعية للنظام المالي [٧٦].

وما قام في مصر ، في القرن السادس الميلادى ، من نظم مدنية لم يكن ثمة مايدعو لقيامها سوى ضمان الاستغلال المثمر لموارد البلاد لصالح بيزنطة . ألم تعان مصر ، منذ الفتح الرومانى ، قدراً كبيرا من الظلم والاستبداد ؟ . فعلى الرغم من إصلاح كراكلا ، لم يكن المصريون في أعين الرومان مواطنين ، بل كانوا يعتبرون مجرد دافعي ضرائب ، لابد من حملهم على دفع الضرائب مهما بلغت حالتهم من الفقر . وجرى الإمبراطور جستنيان على هذه القاعدة ؛ فما أدخله من تعديلات جوهرية في سلك الوظائف الإدارية ، وما أجراه من تغييرات في التنظيم المالى والقضائي ، إنما كان يخدم بذلك غرضاً واحدا ، وهو الاستغلال المنظم للبلاد [٧٧].

وعلى الرغم من أن جستنيان راعى في إصلاحاته ، ما حدث منذ القرن الرابع من تغييرات اقتصادية ودينية ، بأن حرص على أن تتلاءم ما أجراه من النظم مع الحقيقة في الواقع ، فإنه لم يختلف عن أغسطس وهادريان في أنه نظر إلى مصر على أنها إقليم لابد من استغلاله إلى أقصى حد . على أن الزمن كان قد تغير ، فلم تكن بيزنطة في القرن السادس تملك من الوسائل ما ملكته روما ، عند فرض إدارتها على مصر ؛ إذ أن قوة المقاومة والمعارضة .

http://www.al-maktabeh.com

وروح الاستقلال ، ازدادت شدة عند أهـل البلاد ، وعند موظفى الحـكومة . وازدادت قوة الـكنيسة ظهوراً وجلاء . وما لجأت إليه الإدارة الإمبراطورية من النضال ، إنما دخل بعد إصلاحات جستنيان فى مصر ، فى مرحلة جديدة ، بالغة الشدة والعنف ، وتعتبر آخر مرحلة من النضال خاضتها الدولة البيزنطية فى مصر . فقد اشتد النضال بين ما أدخله جستنيان من النظم ، و بين ما هو سائد فى مصر من تقاليد؛ ومن ثم نتوقع ما سوف يجرى ، فالإدارة الإمبراطورية التى جرى فرضها على مصر ، إنما يقابلها المعارضة العنيفة من قبل سكان البلاد والموظفين ، الذين لم يكن فى وسعهم ،فيما يبدو ، أن يحترموا مايصدر من بيزنطة من أوامر[٧٨]

الفصل العاشر

التنظيمات الحربية منذ زمن جستنيان

لعل ماحدث من تقسيم مصر إلى أقاليم ، ومن فصل السلطتين المدنية عن العسكرية ، يرجع إلى زمن دقلديانوس ، بعد أن قضى على ثورة أخيلوس سنة ٢٩٧ ، وتقرر فى نفس الوقت تثبيت الطرف الجنوبى لمصر عند (فيله) ، واستطاع دقلديانوس أن يوطن النوباد فى المنطقة المعروفة باسم دوديكاشينوس ، بعد أن تبين أن ما تحصل عليه الدوله من ضرائب من هذه المنطقة كان ضئيل المقدار ، على حين أن نفقات الدفاع كانت باهظة . وعلى الرغم من أن الحكومة الرومانية تعهدت بدفع إتاوة لهذه القبائل ، كيلا تغير على مصر ، فإن هذا الإجراء لم يكن وحده كافيا لردهم عن الغارة . وتطلب الأمر إقامة حاميات عسكرية ، ومعنى ذلك أن دوق طيبة ، الذى توافر له من القوة الحربية مالم يتوافر لغيره ، أضحى مسئولا عن المحافظة على أطراف البلاد الجنوبية . واستقرت حامية عسكرية أيضاً فى الفيوم فى القرن الرابع الميلادى ، لمنع غارات الليبيين[1] .

ولم يكن ثمة ما يدعو إلى الإبقاء على قوات حربية كبيرة العدد فى طيبة إلا لرد غارات البليميين، ولم تزد الفرق فى حجمها على كتائب . ثم حدث فى سنة ٤٦٨ أن حصل الوالى الأوجستالى على لقب دوق الأطراف المصرية ، فصارت له قيادة الجند للمحافظة على الأمن بالإسكندرية[2] .

وفى القرن السادس ، تعرض الجيش أيضا لما أجراه جستنيان من الإصلاحات؛ إذ أصبح الدوقات يجمعون بين السلطتين المدنية والعسكرية[3]* . أما حذود القطر

---

(٣)* الواقع أن النوباد والبليميين دأبوا على شن الغارات ، على الرغم من تنظيم حكومة أطراف طيبة ، زمن تيودوسيوس الثانى ، فصار فى يد حاكم طيبة السلطتان المدنية=

المصرى زمن جستنيان وخلفائه، فقد عينها وحددها ثلاثة مواضع : العريش ، وبوريون Borion ،وجزيرةفيله . فالعريش تعتبر أكثر المدن تطرفا نحو الشرق ، ويقع الحد بينها و بين رفح الواقعة فى فلسطين الأولى طوال العصر البيزنطى . وتقع بوريون فى أقصى الغرب بإقليم ليبيا ، وظلت كذلك إلى أن صار الساحل ، بعد إضافة ليبيا من توابع إقليم مصر . وانتهى الحد الجنوبى عند جزيرة فيله ، على مسافة غير بعيدة من سيين ، وذلك بعد أن انسحبت القوات الرومانية ، زمن دقلديانوس من النوبة ، وفى زمن الإمبراطور موريس ، اهتم دوق طيبة بعمارة استحكامات قلعة فيله، لمنع غارات النوباد(٤) .

ويشير ماسبيرو إلى أهمية النقط التى تنتهى إليها أطراف القطر المصرى ، وإلى أنها مدن حصينة ، نظرا لأن المغيرين أخذوا يرتادون الصحارى والجبال . غير أن البيزنطيين لم يتخلوا ، عن سيادتهم على الصحراء . فتعتبر الصحراء العربية أهم صحارى مصر ، لما توافر بها من عيون الماء والأعشاب والزراعة ، ولما انطوت عليه التربة من المعادن والأحجار الكريمة مثل المرمر والزمرد ، التى جرى استغلالها فى كل العصور . يضاف إلى ذلك أنه بفضل الاهتمام بالطرق وصيانتها ، سارت القوافل من طيبة وقفط إلى موانى البحر الأحمر مثل برنيس (قرب سفاجة الحالية)، وميوس هورمز (القصير) ، التى تمارس التجارة مع الهنود . على أن سلطة الحكومة البيزنطية على هذه الجهات لم تكن قوية . والواقع أن القلزم

= والعسكرية (comes et dux limitis Thebaidis) . ثم حلت الهزيمة بالنوباد وتداعى أمر البليميين ، الذين تلقوا هزيمة ساحقة من قبل النوباد سنة ٥٣٥ م ، كما أن دوق طيبة البيزنطى المعروف باسم نارسيس أغلق نهائياً معبد إيزيس فى فيلة ، فغادروا مواطنهم الى الصحراء الممتدة من النيل والبحر الأحمر ، وبانتهاء القرن السادس ، لم يعد لهم ذكر فى التاريخ . أما النوباد فلم يعودوا ، بعد أن حصلوا من الدولة البيزنطية على أتاوات ، مصدر خوف للامبراطورية . وما كادوا يتحولون الى المسيحية سنة ٥٤٠ ، بفضل اهتمام وعناية الإمبراطورة تيودورا ، حتى دخلوا فى دائرة النفوذ البيزنطى، وصار للإمبراطور البيزنطى ممثل له لدى ملكهم .(انظر: Diehl :p. 473) .

وحدها (السويس الحالية) ، كانت الموضع الذى ظل النفوذ الرومانى البيزنطى قويا به . واستقبلت الأديرة المجاورة لهذه المنطقة ، مثل دير القديس أنطون على البحر الأحمر ، العساكر . وفيما عدا ذلك فإن الصحراء العربية ، ابتداء من أركاديا حتى طيبة ، خلت من الجند البيزنطيين(٥) .

أما فى الغرب ، فإن البيزنطيين حرصوا على المحافظة على سلطانهم ؛ إذ أبقوا على نفوذهم فى الواحات المعروفة بخصوبتها ، فى مواضع مثل هيبس (التابعة لدوقية طيبة)، وفى Angila التى شيد بها جستنيان كنيسة كبيرة، أفادت فى تحول الناس إلى المسيحية(٦) . ومع ذلك فلا زالت هنالك بعض المخاوف ، إذ أن البربر كانوا يعتبرون من أخطر المغيرين ، والمعروف أن أريستوماك دوق مصر ، قاد زمن الإمبراطور موريس ، حملة ضد هؤلاء المغيرين ، الذين أمعنوا فى سيرهم حتى وصلوا إلى النيل ، فأنزل بهم هزيمة منكرة . وتعرض أيضا رهبان وادى سقيط (وادى النطرون) ، لغارات المغيرين من الواحات الداخلة ، وهاجم المازيك Maziques ،المعروفون بإثارة القلق والاضطراب، برقه وواحة سيوة وأديرة وادى النطرون ، وذلك فى القرنين الخامس والسادس الميلادى . وعلى الشاطئ الأيمن للنيل نزلت قبائل تنتمى إلى أصل عربى ، كانت تثير أحيانا الرعب والخوف(٧) .

ونظرا لما للصحارى من أهمية فى حماية مصر ، لم تكن البلاد فى حاجة إلى أن يقيم بها عدد كبير من الجند . غير أن الجند البيزنطيين تولوا إلى جانب حماية البلاد من الغارات الخارجية ، المحافظة على الأمن الداخلى ، والمساعدة فى جمع وجباية الضرائب ، ولهذا صار لزاما على كل موظف أن يستعين بالجيش والعساكر فى توطيد مركزه . ولما للإسكندرية من أهمية خاصة ، باعتبارها الميناء الذى تشحن منه القمح إلى القسطنطينية ، والتزامها بتسيير الأسطول فى شهر أغسطس من كل عام ، فرض جستنيان عقوبات صارمة على كل موظف لم يؤدى واجبه ، فيما يتعلق بشحنة القمح على الوجه الأكمل . إذ حدث أن جرى للإسكندرية من الأحداث

http://www.al-maktabeh.com

ما أدى بأن يلقى بجانب من القمح فى الماء ، فبذل مهندسو الإمبراطور جهدا كبيرا فى منع تكرار هذا الحادث[٨] .

والخلاصة أن كل اعتداء خارجى ، أو وقوع ثورة أو فتنة ، يعكر صفو السلام والهدوء بمصر ، يتردد صداه وأثره فى سائر أنحاء الإمبراطورية ، ولذا اقتضت الحاجة توفير عدد كبير من الجند بالقطر المصرى ، لما لهم من الأهمية فى الدفاع عن الإمبراطورية البيزنطية[٩] ، فما حل بمصر من جيش كبير العدد ، لم يمارس الحرب والقتال كثيرا ، إنما كان يقوم بالمحافظة على الأمن الداخلى ، ويكفل جباية الضرائب[١٠] .

على أن الصحراء لم تحط بمصر من جميع الجهات ، فما زال يؤدى إليها أبواب ومنافذ مفتوحة ، مثال ذلك ليبيا ، والوادى الأعلى للنيل عند فيله ، وهو طريق طبيعى يجتازه النوبيون فى غاراتهم ، ثم برزخ السويس ، حيث يمتد من ورائه إقليم فلسطين وشبه جزيرة سيناء ، وحيث يكثر العرب من التردد إلى هذه الجهات[١١] .

وما ورد عن نظام الجيش فى مصر فى القرن الخامس الميلادى ، يدل على ما حظيت به الحدود من دفاع متين ، وكذلك كان الحال فى القرن السادس ، إذ كان لزاماً على الحكومة أن تبذل جهداً شاقاً فى تنظيم أمر الدفاع عن الحدود . ففيما يتعلق بليبيا ، أصدر الإمبراطور انستاسيوس الثانى ، مرسوماً شرح فيه بالتفصيل ما تؤديه القوات المرابطة بهذا الإقليم من واجبات . إذ كان لزاماً على جيش الأطراف limitanei ، الذى يرابط جنده بالقلاع الواقعة على الحدود ، أن يخضعوا القبائل المتمردة ، وأن يحرسوا الطرق ويراقبوها ، فيمنعون الرعايا الرومان من أن يجتازوا البلاد ، لينفذوا إلى أراضى المتبربرين إلا بعد الحصول على إذن من الدوق . فكأن الجند الفلاحين (جيش الأطراف) ، رابطوا على امتداد الحدود ،

فى القلاع المتقاربة التى قامت على هذه الأطراف ، والراجح أن جستنيان أبقى على هذا الاتجاه . وجرت العادة بأن يحصل الجند الفلاحون من الحكومة على إقطاعات من الأراضى مقابل الدفاع عن الإقليم[(١٢)].

وحرص جستنيان على توفير الأمن والسلام على حدود ليبيا ، فلم يكتف بإعادة تنظيم الجيش ، بما أنشأه من الفرقة المعروفة بفرقة جستنيان الليبية Libycus Justiniani ، وبما عمّره من أسوار عاصمة ليبيا ، ومدن وحصون عديدة . ومن الدليل على متانة هذه الاستحكامات ، ما حدث بعد قرن من الزمان ، حينما قاوم الغزو العربى ، دوق ليبيا فلافيان ، باحتمائه بأسوار توشيرا Teucheira[(١٣)].

وتقدّر إقامة خط حدود لحماية وادى النيل من خطر النوبيين ، بعد أن انتقل الحد الجنوبى إلى جزيرة فيلة ، فأنشأ دقلديانوس قلعة فى هذه الجزيرة ، وشيدحولها سور . يضاف إلى ذلك أن قام سور ضخم آخر على النهر تجاه القلعة ، ويمتد من الشاطىء ، عبر الصحراء حتى سيين ، حيث يتصل بأسوار المدينة . وظلت قلعة فيلة قائمة حتى القرن الخامس ، وكان يرابط بها حامية عسكرية ،وقد اهتم البيزنطيون بصيانة استحكامات جزيرة فيلة فى القرنين السادس والسابع[(١٤)].

ولما كانت فيلة تعتبر من إقليم الحدود ، فإن هذه السلسلة من التحصينات ، يكملها جزيرة الفنتين وسيين ، بفضل ما رابط فيها من حاميات عسكرية ، فتألف خط الحدود من القلاع والحصون الممتدة من سيين إلى ما وراء فيلة ، ولقد صار ديرسان سيمون ، المواجه لأسوان الحالية مقراً لحامية عسكرية[(١٥)].

ويعتبر حد أوجستامنيكا من أهم الحدود ، من جهة آسيا ، وعلى الرغم من أن هذه الجهات لم تتعرض للهجوم قبل القرن السابع الميلادى ، فإن هذا الهجوم قد يحدث فى يوم من الأيام ، وإذا وقع فسوف يكون فى أشد الهجمات خطورة ،

نظراً لما قام بهذه الجهات من ممالك عربية فى الشام ، ولما درجت عليه الدولة الساسانية من سياسة الهجوم[١٦] . وحدث زمن الإمبراطور انستاسيوس الثانى ، أن توغلت بعض القوات الفارسية فى الدلتاحتى بلغت ضواحى الإسكندرية . ولذا صارمن الحتم حماية ما بالوجه البحرى من زراعات وفيرة ، وإغلاق الطريق المؤدى إلى الإسكندرية فى وجه المهاجمين . فالمدن الواقعة شرقى اوجستامنيكا ، والخارجة عن حدودها المعروفة ، جرى تحصينها ، مثل القلزم والعريش .

ثم جرت إقامة خط حدود قوى فى غرب برزخ السويس وعلى حافة الدلتا المأهولة بالسكان ، على امتداد خط يتجه من بيلوزيوم الى قلعة أو حصن بابليون ، وهذا الخط هو الطريق الذى تتخذه عادة القوفل القادمة من الشام . ولمنع المغيرين من الهبوط على الإسكندرية عن طريق الدلتا ، تركزت التحصينات عند الطرف الجنوبى للدلتا[١٧] .

وإلى جانب المواضع الحصينة المقامة على الحدود ، جرى تحصين معظم المدن الداخلية ، لاسيما الإسكندرية . فالقنوات التى أحاطت بها من كل جانب ، جعلت منها جزيرة ، وما حماها من الحصون الأمامية ، التى اشتهرت بخنادقها وأسوارها الضخمة ، وما أعدته من أدوات الدفاع ، كل ذلك جعل منها حصنا منيعا[١٨] . يضاف إلى ذلك اتصال الإسكندرية بحرا بالعالم البيزنطى ، إذ أن الإمبراطورية البيزنطية كانت تملك أسطولا بحريا قويا ، يستطيع أن ينهض لمساعدة الإسكندرية إذا تعرضت للحصار[١٩] .

ومن المواقع الحصينة أيضا العريش ، التى لازالت بقايا أسوارها الضخمة قائمة حتى القرن الثانى عشر الميلادى ، ومنها أيضا بيلوزيوم التى صمدت لحصار العرب مدة شهرين ، وسايس ، وهليوبوليس ، ونقيوس ، إذ أشار المؤرخ حنا النقيوسى ، إلى أبوابها مما يدل على أنها كانت محاطة بأسوار[٢٠] . ومن المدن الحصينة أيضا البهنسا فى أركاديا ، وانتينوى (أنصنا — بناحية الشيخ عبادة ، مركز ملوى بمحافظة أسيوط) فى طيبة[٢١] .

وفى القرن السادس الميلادى ، لم يتغير الوضع الحربى إلا قليلا . فالمعروف وفقاً لقانون ١٣ ، أن الدوق صار فى يده السلطتان المدنية والعسكرية . ولم يختلف جيش الأقاليم فى التكوين عن الجيش الرئيسى فى الدولة ، من حيث الفئات التى يتألف منها . وأهم هذه الفئات هى الجيش النظامى ، وجنوده يعتبرون خير الجنود ، ويجرى تجنيدهم إجباريا ، أو بالتطوع ، أو بالوراثة (أى أن أبناء المسرحين من الجيش يثبتون فى الفرق التى ينتمى لها أباؤهم) . وترتب على التطوع ، أن دخل فى الجيش عناصر متبربرة (٢٢)*

أما جيش الحدود ، فكان جنده من الفلاحين ، حصلوا على أراضى زراعية تقع على الحدود يعيشون عليها ولا يغادرونها ، ويمارسون استخدام السلاح تحت قيادة أفراد معينين ، ويتولون حراسة الحدود من الأخطار الخارجية . ويتألف من المعاهدين فرق خاصة تنفق عليهم الدولة ، ويتولى قيادتهم أفراد معينون من قبل الإمبراطور ، ويرجعون عادة إلى أصل متبربر ، وانحاز إلى هذا الجيش كل المغامرين من خارج الإمبراطورية . يضاف إلى هذه الفئات فى الأقاليم عناصر أخرى مثل البقلار ، الذين يعتبرون جيشاً خاصا من المأجورين ، وهؤلاء الجند على فئتين : فئة تنتمى إلى كبار موظفى الإمبراطور أمثال الدوقات وقادة الجيش ، أما الفئة الأخرى فتتألف من الأفراد الذين يدخلون فى خدمة شخص من الأشخاص ، ولم يكن لهم صلة بالجيش ، غير أنه قد يحدث أحيانا أن يقوم قائد هذه الفئة بتأجير خدماتهم للدولة ، وبذلك يسهمون فى أمر الدفاع عن الإمبراطورية (٢٣) .

هذا التنظيم ظل معروفا فى مصر زمن جستنيان ، ففى مايتعلق بالجيش النظامى comitatenses ، تشير البرديات إلى بعض الحاميات المرابطة فى بعض مدن الأقاليم ، مثل البربر فى هرموبوليس والسكيثيين فى أبوللونوبوليس (قوص) ،

---

(٢٢)* جرى أحيانا تأليف فرق من أسرى الحروب ، غير أن ذلك لم يكن قاعدة .

والمقدونيين فى انتابو (العثمانية)، والداسيين فى أرسينوى (مدينة الفيوم)، والأيبـوريين فى الإسكندرية . وهذه الأسماء ظلت عالقة بالحاميات المرابطة فى هذه المواضع، حتى بعد أن تغير نظام التجنيد[٢٤]؛ إذ صار الجند يتخذون من المصريين، بعد أن كانوا يتخذون من سكان الأقاليم الأخرى . فكان كل مالك مكلفا بتقديم عدد من الأفراد، يتفق مع مساحة ما يملكه من الأراضى وحسب ثروته . ويجرى الاقتراع العسكرى فى مواطن هؤلاء المجندين، تحت إشراف موظف خاص، فيحصل كل مجند على شهادة تثبت أنه تقرر تجنيده، وتشتمل على أمر من الدوق إلى كل السلطات المرتبطة بالجندية والتجنيد، بإثبات اسم صاحب هذه الشهادة فى سجل الكتيبة، وعندئذ يتقدم الشخص بهذا الأمر إلى الفرقة التى ينتمى إليها . وهذه العمليـة أشارت إليها بردية الفنتين، التى ترجع إلى القرن السادس الميلادى، والتى تشير إلى أن جنود الحاميات فى سيين والفنتين، يرجعون أصلا إلى هاتين الجهتين[٢٥] . ومعنى ذلك أن سكان كل إقليم تتألف منهم القوة المرابطة به، أو على الأقل الجانب الأكبر منها[٢٦] .

ومن المصادر الأخرى التى يتخذ منها القوة المرابطة بالأقاليم، ويتصل أيضاً بما سبق الإشارة إليه، أبناء الجند المسرحين، إذ جرى تسجيلهم فى مواطن أمهاتهم، أى الجهات التى ولدوا بها، وذلك لوضاعة أصلهم، ومن الطبيعى أن يؤدوا خدمتهم فى تلك الجهات[٢٧] .

وما ورد من الإشارات إلى ما كان يرابط فى أبوللونو بوليس وأنتيابوليس، من عساكر تنتمى إلى أصول فارسية أو قوطية أو وندالية، إنما يدل على أن هؤلاء العساكر جرى اتخاذهم من الأسرى الذين وقعوا فى الحروب التى شنها جستنيان ضد هؤلاء الأقوام[٢٨] .

والخلاصة أن معظم عساكر الجيش البيزنطى بمصر كانوا متخذين من

المصريين ، سواء كانوا بالجيش النظامى أو جيش الأطراف ، فكلا الفئتين كان يجند عساكرها من أهل البلاد ، إما بطريق التجنيد الإجبارى ، وإما بالتطوع ، وإما بالالتزام المفروض على أبناء المقاتلة ، بأن يخلفوا آباءهم فى الخدمة الحربية . فتألف معظم الجيش من المصريين ، ولم يكن به من الجند المتبربرين إلا قلة نادرة ، ولم يكن بمصر من الجند المرتزقة (المعاهدين foederatii) إلا بعض كتائب ألفها جستنيان من العناصر الأجنبية[٢٩] .

وهذه الجيوش البيزنطية فى مصر ، تراوح عددها بين ٢٥ ألف و ٣٠ ألف جندى ، انتظمت فى وحدات يتراوح عدد الوحدة منها بين ٣٠٠ و ٥٠٠ رجل ، وتولى قيادة كل وحدة قائد اشتهر باسم التريبون Tribun .وهذه هى الوحدة المقاتلة فى جميع فئات الجيش من الفرسان والرجالة . ولم يكن الجيش البيزنطى فى مصر إلا جيشا إقليميا ، مهمته الدفاع عن الجهات التى يرابط بها ، أى المحافظة على الأمن فى هذه الجهات . فمتى استقر الجند بإقليم من الأقاليم ، التى انقسم إليها القطر المصرى ، فلا يبرحه إلى جهة أخرى . ولم يكن القائد إلا موظفا من موظفى الإقليم ، يتولى قيادة الجند طالما كانوا فى حدود منطقته . ويعتبر الدوق هو القائد الأعلى لكل الكتائب التى يتألف منها جيش إقليمه ، فكان يتولى السلطتين الإدارية والعسكرية بإقليمه . أما التريبون ، فإنه يعتبر الحاكم العسكرى للمنطقة التى يدير شئونها المدنية الباجرك ، وفى كثير من الأحيان يجمع بين السلطتين أى الوظيفتين (التريبون والباجرك)[٣٠] .

والمعروف أن كل الجيوش بمصر ، خضعت منذ نهاية العصر الرومانى ، لأوامر القائد الأعلى للجيش فى الشرق Magisrer Militum per Orientem ، على أن هذه السلطة على جيوش الأقاليم أخذت تتضاءل ، فلم تكن ثمة علاقة بين جيش مصر ، وسائر الجيوش فى الشرق . ولم يقدم القائد العام بالشرق إلى

http://www.al-maktabeh.com

مصر مطلقا ، ولم تخرج القوات المصرية من مصر[٣١] . غير أنه يصح أن نتساءل عما إذا كان للقوات المرابطة بالقطر المصرى قائد عام ، يتخذ مركزا وسطا بين قائد الشرق وبين الدوقات[٣٢] .

الواقع أنه لم يكن ثمة قائد من هذا القبيل ، ولم يكن للدوق الأوجستال بالإسكندرية سلطة عامة على سائر الدوقات ؛ إنما يشرف على العساكر بالإسكندرية وبالقسمين (الأبروشيتين) اللذين تتألف منهما دوقية مصر . ومن الواضح أنه نظراً لأهمية الإقليم (دوقية مصر) الذى يحكمه ، يعتبر أهم الدوقات المصريين ، غير أنه لم يكن رئيسهم من الناحية الرسمية ، وبذلك خضعت الجيوش البيزنطية فى مصر لقيادة خمسة دوقات متساوين فى المكانة . ويلى الدوقات ، رؤساء المدن (التريبونات) ، الذين يقابلون الباجركات فى النظام الإدارى[٣٣] .

ويقيم التريبون عادة فى الباجركية ، وبهذه الحاضرة تقع أكبر ثكنة للجيش ، وربما جرى تشييدها خارج سور المدينة ، أو فى برج من أبراج أسوار المدينة . على أن بعض الفصائل أو السرايا الحربية ، اتخذت مواطن دائمة أو مؤقتة فى بعض الجهات ، لحماية مركز له أهمية استراتيجية ، أو رابطت فى بعض الكفور التابعة لقرية من القرى المعرضة لخطر من الأخطار ، أو رابطت فى دير قريب من القرية مثلما حدث من مرابطة بعض الجند فى دير Baullos فى جهة Apollonopolis Magna (ادفو)[٣٤] .

ويتلقى التريبون تقليده بوظيفته من الإمبرطور ، من الناحية الرسمية ، غير أنه فى الواقع كان الدوق هو الذى يختاره وهو الذى يعزله ، وكان يختاره من السكان الوطنيين ، ومن أعيان المدينة التى يباشر فيها عمله ، واتخذ كبار الملاك من هذه الوسيلة ما يزيد فى سلطانهم[٣٥] .

وجرت القاعدة بأن كل موضع حربى، يقع فى داخل الحدود، يحتله جيش نظامى، على حين أن جيش الحدود يرابط فى القلاع القائمة بالأطراف. ولم يحدث بالحدود مثلما حدث فى داخل البلاد من حيث تفتيت السلطة؛ إذ أن كل تريبون كان مستقلا، ولا يخضع إلا للدوق مباشرة، بينما تطلب ضروريات الدفاع وجود هيئة عامة، تشرف على جميع القوى الموزعة على القلاع والمعسكرات فى سائر الأقاليم لرد الأخطار[٣٦]. وحدث فى آخر العهد الرومانى أن انقسم كل حد من الحدود إلى قطاعات اتخذت إسم أهم مدينة مجاورة، وكل قطاع من هذه القطاعات خضع لسلطة قائد اتخذ اسم Praepositus، وقد ظل هذا النظام معروفا فى مصر فى القرنين السادس والسابع[٣٧]. وتألفت فى أقاليم الحدود، هيئة تشرف على إدارة القوى المرابطة، من حيث الفصل فى الخصومات بين الجند، وفى تسجيل أسماء المقترعين للجندية، وجباية الميرة اللازمة للجند[٣٨].

والمعروف أن الجندى فى الجيش البيزنطى، كان يتقاضى نوعين من المرتبات، راتب نقدى (Solatium)، وجراية (مؤونة)، وتتولى الحكومة إمداده بالسلاح والكسوة، ومن الدليل على ذلك ما تقرر رصده فى ميزانية مدينة انتيا بوليس من مبالغ معينة للانفاق منها على أسلحة الجند[٣٩].

وأهم من ذلك ما كان يجبى من الخراج المخصص لمؤونة الجيش البيزنطى فى مصر؛ إذ أن كل منطقة حربية تكفلت من حيث المبدأ، بتموين الجند للرابطين بها. فإلى جانب ما كان يجبى من القمح برسم الإسكندرية والقسطنطينية، كان يؤخذ من القمح جانب، وهو المعروف بالميرة العسكرية annona militaria ليعيش عليه الجند[٤٠]. وعلى هذا النحو دفع الكونت أمونيوس، من كبار الملاك فى انتيا بوليس نحو دينارين، على اعتبار أنها من الميرة العسكرية[٤١]. وكان

الجند المعروفين باسم Bisilecti ، الذين استدعاهم جستنيان من أفريقية ، يؤلفون جانبا من حامية انتيابوليس ، وتعهدت خزانة انتيابوليس بدفع نفقات هؤلاء الجند وغيرهم من السيثيين Scythians . كما أن كنيسة أبوللونوبوليس تكفلت بدفع نفقات السيثيين المرابطين فى منطقتها العسكرية ، وتعهدت قرية Kerké بإقليم أرسينوى بدفع نفقات جند أرسينوى(٤٢) .

وما كان يصرف للجندى من جراية ، شملت القمح ، والشعير ، والنبيذ ، والخل ، والزيت ، والأتبان للدواب والخيل ، والحبال ، واللحم ، والدجاج ، والسمك المملح ، والسروج ، والماشية ، والبغال والفحم النباتى ، فضلا عن الأموال(٤٣) .

أما المواضع الحربية التى رابطت بها القوات بمصر ، فإنها لم تقل عن ٨٤ مدينة poleis ، باستثناء الإسكندرية ، فإذا أضفنا إليها مدن ليبيا ، صار المجموع ٨٧ موضعاً . والمعروف أن كل موضع من هذه المواضع ، كانت ترابط فيه كتيبة واحدة ، غير أنه حدث فى كثير من الأحوال ، أن اجتمع جند مَوْضِعَيْن معاً تحت قيادة تريبون واحد ، ولعل السبب فى اندماج القوتين يرجع إلى قلة العدد . وترتب على ذلك أن صار بالقطر المصرى نحو ٧٥ كتيبة(٤٤) ، فإذا كان عدد الكتيبة تراوح بين ٣٠٠ ، ٥٠٠ رجل ، فكأن الجيش البيزنطى بمصر كان يبلغ نحو ٢٣ ألف جندى(٤٥) .

وهذا النظام قد يبدو ، من الناحية النظرية ، خالياً من العيوب ، فالحدود بالغة المناعة ، والتحصينات متينة وقوية ، والجند وفير العدد ، جرى توزيعهم توزيعاً طيباً يتلاءم مع الحاجة إليهم ، ومع ذلك إذا فحصنا القيمة الحقيقية للنظام الحربى فى مصر ، لظهرت لنا عدم كفايته(٤٦) . إذ أن جيش مصر لم يكن فى جوهره سوى جيش إقليمى ، جرى تجنيده من سكان البلاد ، وتولى قيادته أفراد من نفس سكان الإقليم ، لم يغادروا

مواطنهم مطلقاً ، ولم يكن كذلك لجيش الاحتلال من الصفات العسكرية إلا حظ ضئيل ، إذ أغفل الجند التدريب والنظام العسكرى ، واتخذ كثير منهم لأنفسهم مهناً مدنية ، إلى جانب مهنة الحرب ، فصاروا يستثمرون ما يملكون من منازل وأراضى[٤٧]. هذا إلى جانب أن كل الجند أو معظمهم كانوا من المصريين ، فصاروا يشاركون مواطنيهم فيما يحسون به من الآلام ، ويشتركون معهم فى كراهية اليونانيين ، وهذا أمر يجعل إخلاصهم للدولة البيزنطية موضع شك ، فضلا عن عدم حماسهم فى القتال لصالحها[٤٨].

وينبغى أن نلاحظ أيضاً أن الجيش لم يزد على أنه قوة للشرطة ، اختصت بحفظ الأمن ، والمبادرة إلى مساعدة ولاة الخراج فى جباية الضرائب . فالدوقات الذين يتولون قيادته ، إنما كانت مهمتهم جباية الضرائب ، وإرسال القمح المطلوب إلى الإسكندرية ، ومنها يشحن إلى القسطنطينية ، فلم يحفلوا بما يتطلبه الجيش من تدريب[٤٩]. أما التريبونات فكانوا ينهضون لمساعدة الموظفين ، ولم يكن لمعظمهم دراية بقيادة العمليات الحربية[٥٠].

ومن عيوب النظام الحربى بمصر أيضا ، أن الجيش لم يكن يخضع لقيادة موحدة ؛ فكل دوق يتولى قيادة الجند المرابطين بدوقيته ، وعليه أن يقاتل وحده ، مثال ذلك : أن دوق مصر تولى وحده الدفاع عن دوقيته سنة ٦٠٦ ، حينما هاجمه القائد نكيتاس من قبل نائب أفريقية ، ولم تصل إليه المساعدة من كونت الشرق إلا بعد فوات الأوان ولم يكن للدوق من الصفة ما يجعله يطلب المساعدة من الدوقات الآخرين ، الذين لم تتعرض أملاكهم للخطر أو التهديد[٥١].

ومن المحقق أن دوق ليبيا ، لم يشترك فى القتال ضد المسلمين ، إلا بعد أن استولوا على وادى النيل بأكمله ، وبعد أن تعرض لتهديدهم . كما أن حنا دوق

http://www.al-maktabeh.com

طيبةظل مقيما فى دوقيته ، فى انتظار اللحظة التى تظهر فيها القوات العربيـــة أمام عاصمته أنتينوى[٥٢]. ولم يشترك فى الحرب ضد المسلمين إلا جنود دوقية مصر ، ودوقية أوجستامنيكا، ثم اشترك بعدئذ جند أركاديا[٥٣]. والخلاصة أن ما حدث من القصور فى التعاون بين الدوقات ، أفاد منه بونوس قائد فوكاس سنة ٦٠٩ ، بما أحرزه من انتصارات فى الأقاليم التى شبت فيها الثورات، وأفاد منه أيضاً الفرس الذين غزوا مصر سنة ٦١٧ ، واستغله العرب أخيرا لصالحهم[٥٤].

ولم يكن الدوقات من رجال الحرب ، باستثناء نارسيس دوق طيبة سنة ٥٣٥، الذى تعتبر حالته حالة استثنائية[٥٥]*. ولم يكن للدوقات من عمل أساسى سوى جمع الأموال ، وإرسال ضريبة القمح ، وتنفيذ السياسة الدينية التى اتخذها الإمبراطور البيزنطى . ولما كانت مصر بمأمن من الغارات الخارجية ، لم يكن الدوقات إلا رؤساء دواوين ، جهلوا فنون الحرب ؛ ومن الدليل على ذلك أن حنا دوق طيبة هرب من عاصمته انتينوى حينما لاح له الفرسان المسلمون ، فحمل معه ما شاء من الأموال ، وولى هاربا[٥٦].

ومن العيوب السائدة أيضا ، عدم تقدير الصالح العام ، والمنازعات الشخصية، وانعدام الوحدة الإقليمية ، فقبيل حصار المسلمين لحصن بابليون ، نشبت فتنة كبيرة بين تيودور القائد العام و بين التريبونات ، واشتدت هذه العداوة أحيانا حتى بلغت حد الخيانة مثال ذلك ليونس Leonce ، تريبون مريوط ، الذى هيأ لنكيتاس أمر دخول مصر سنة ٦٠٩، فما كاد يصل نيكتاس ، نائب هرقل ، إلى مصر ، حتى تخلى عن حنا الأوجستال كل جنده، وكذلك عندما حلت الهزيمة بتريبون الإسكندرية، لم يبق على الولاء لفوكاس سوى تريبون سمنود ، وتريبون اتريب[٥٧].

---

(٥٥)* وذلك أن جستنيان أراد أن يقضى على ما تبقى من آثار الوثنية فى فيلة ، فعهد إلى نارسيس بتدمير المعابد التى يرتادها المتبربرون من النوبيين والبليميين .
(Maspero: p. 129. : انظر)

وما حدث من تداعى النظام الحربى وانهياره ، هيأ للجند من الفرص ماجعلهم ينصرفون إلى مزاولة حرف لا تمت للعسكرية بصلة من الصلات ، كما أن الجند لم يخوضوا أية حرب جدية(٥٨).

وسبق الإشارة إلى أن الجند المرابطين بمصر لم يغادروها مطلقاً ، وذلك عكس ما كان يحدث من قبل ، فى القرن الرابع ، حينما كان النظام مرنا ، فتنتقل بعض القوات من مواضعها إلى جهات أخرى للاشتراك فى حرب تمس الصالح العام ، فقد أرسل تيودوسيوس ، قوات من مصر إلى أفريقية لقمع فتنة نشبت بها ، وكذا جرى إرسال عساكر من مصر ، زمن فالنز إلى سوريا . غير أن ما حدث فى القرن الخامس من إصلاح ، وما نجم عنه من تغيير الأوضاع الإدارية ، لم يؤد إلا إلى ازدياد ارتباط الجيوش الإقليمية بالمواضع المرابطة بها(٥٩).

وكل ماقام به الجيوش البيزنطية من حرب فى القرن السادس ، لم تتجاوز قتال النوباد والبليميين، الذين كانوا يهبطون إلى فيله كل عام للاحتفال بأعيادهم ، وأثاروا الشغب مع بعض الرهبان الذين يسيرون على قاعدة شنوده الأتريبى فى بانوبوليس (اخميم) ، وكذا ماقام به أرستوماك لقتال المتبربرين من ليبيا ، الذين أوغلوا فى زحفهم حتى بلغوا الدلتا(٦٠). وفيما عدا ذلك لم يخدم المصريون إلا فى داخل بلادهم(٦١).

ومن الدليل على فساد الأحوال الحربية ، ماحدث زمن الإمبراطور موريس ، من أن ثلاثة إخوة من مدينة Metelis (تل النجيلى قرب العطف) ، وكانوا باجركة وتريبونات لمدن عديدة بالدلتا ، قاموا بالثورة دون غرض ظاهر ، فطاردوا باجرك بوصير ، فهرب إلى بيزنطة ، فألفوا جيشاً من المغامرين ، وتعرضوا لمسير السفن التى تحمل القمح إلى الإسكندرية ؛ وترتب على ذلك أن نشبت ثورة بالإسكندرية ، وبلغ من عجز الأوجستال حنا أنه لم يستطع قمع الثورة ، فأعفاه

الإمبراطور من منصبه. والواقع أن الأمر لم يكن متعلقاً بعجز الأوجستال ، إذ أنه لم يلبث أن عاد إلى منصبه ، بل كان متعلقا بالوسائل التى كان فى أشد الحاجة إليها لقمع الفتنة . فلما عاد حنا إلى منصبه استعان بأحد المغامرين (تيودور) وصحبه ، فقضى على الفتنة ، بعد أن عجزت عن ذلك القوات النظامية(٦٢) .

وحدث بعدئذ بزمن قصير فى إقليم بانو بوليس (أخميم) ، أن تعرضت هذه الجهة إلى خطر أحد قطاع الطريق ، ولم يستطع دوق طيبة أن يتغلب عليه ، فبادرت الحكومة المركزية بإرسال قوة أنزلت به هزيمة ساحقة ، وأعادت الأمن إلى نصابه . وما حدث فى نهاية القرن السادس الميلادى ، من ثورة ثلاثة باجاركة، وحركة قاطع طريق ، ليس إلا دليلا على ضعف الجيش البيزنطى فى مصر .

ومع أن الجيش كان كثير العدد، فإنه كان سيء القيادة والتنظيم والتدريب(٦٣) ؛ فنستخلص من حنا النقيوسى ما اشتهر به القادة من الضعف ، وتفرق كلمتهم، وعدم اتفاقهم على خطة موحدة ، وماجرى بينهم من الحروب والفتن ، وما اتصف به العساكر من سوء التدريب ، وسوء النوايا ، وعدم الولاء والإخلاص ، وأكثر من ذلك ما ساد من المنافسات والمنازعات ، والأحقاد الشخصية ، فضلا عن الاختلافات الدينية والسياسية . على أن أهم العوامل التى أدت إلى هزيمة بيزنطة فى مصر ، ما اتصف به الجيش من الضعف ، فلم يكن فى وسعه أن ينهض للدفاع عن البلاد(٦٤) .

الفصل الحادى عشر

الحياة الاجتماعية

لم يحظ من المدن الكبيرة فى العالم القديم بمثل ما حظيت به الإسكندرية ، فى مصر ، من التاريخ والموقع . فمنذ أن أنشأها الإسكندر ، حتى استيلاء العرب عليها فى القرن السابع الميلادى ، أى نحو مايقرب من ألف سنة ، ظلت الإسكندرية تشتهر برخائها وازدهارها . فباعتبارها مركزاً لتجارة نشطة ، توثقت علاقاتها مع المدن المطلة على البحر المتوسط ، و بلاد الشرق الأقصى ، مثل الهندوالصين وسيلان . واشتهرت الإسكندرية بأنها مدينة البذخ والجاه والثراء ، وما يقترن بذلك من اللهو والعبث ، كما كانت حاضرة العلم والمعرفة والفن ، إذ دان لمكتبتها ومتحفها ، ما نما بها من حركة علمية كبيرة ، ومدرسة زاهرة فى الثقافة والاستنارة ، ونشاط أدبى ضخم ، ورق فنى رائع .

ولما انتصرت المسيحية ، حظيت مدارس الإسكندرية من الأفلاطونية الحديثة ، بآخر أشعة مجدها ، فظلت حتى القرن السادس الميلادى ، موطنا لشعراء مجيدين من أمثال نونوس Nonnos . ولكل هذه الأسباب ، صار للإسكندرية مكانة مرموقة فى تاريخ المدنية والآداب والفنون ، وما ابتدعته من مظهر حضارى ، جدير بأن يتخذ اسم الحضارة الإسكندرانية .

والواضح أن الإسكندرية ، ظلت فى العصر البيزنطى ، مثلما كانت فى العصرين الرومانى والبطلمى ، حاضرة البلاد ، وأهم مدن القطر المصرى . فلازالت تحتفظ بعظمتها وفخامتها ، بفضل ما كان لها من ميناءين على البحر المتوسط

وميناء داخلى على بحيرة مريوط ، وبما اشتهرت به من شوارع مستقيمة فسيحة متقاطعة ، ومن دور تألفت من طبقات عديدة ، تعلوها أبراج شاهقة ، ومن آثار جميلة ، وأسوار منيعة متينة . يضاف إلى ذلك ما زخرت به ضاحيتها من المنازل الصغيرة الرائعة ، والحدائق الغناء[1] .

ويقع فى شرق المدينة ، ويشرف على الميناء ، قصر ملوك البطالمة السابقين ، الذى اتخذه مقرا له من بعدهم ، الوالى الرومانى ، ثم أضحى فى العصر البيزنطى دارا للوالى الأوجستالى . وبالقرب من هذا القصر قام المتحف والمكتبة ، اللذان يعتبران من مراكز النشاط الفكرى ، ومن مفاخر الإسكندرية ، وعلى الشارع التجارى الرئيسى المعروف باسم بلاتيا Plateia ، والذى يمتد من شرق المدينة إلى غربها ، قام وسط الحدائق والأزهار ، المدرسة المشهورة باسم الجمناز[2] . واصطف تحت سقائف هذا الشارع ، الدكاكين الكبيرة التى يتألف منها السوق[3] . وفى الميدان الكبير الذى يتوسط المدينة ، ارتفع قوس النصر المعروف باسم tetrapyle ، أى ذى الأبواب الأربعة العالية . وفى ظاهر المدينة ، خارج الباب الشرقى ، يقع الملعب وميدان السباق . وتوافر بالإسكندرية ، دور اللهو (المسارح)، والحمامات العامة ، واشتد اعجاب الناس بالصهاريج المقامة على أعمدة تحت الأرض ، والتى صارت نموذجا ، لما تشيد منها بالقسطنطينية[4] .

ومع أن الإسكندرية ، كانت حاضرة الهلينية ، فإنها تعتبر منذ زمن مبكر عاصمة للمسيحية . فمنذ نهاية القرن الثانى وطوال القرن الثالث ، وبفضل كلمنت واوريجين ، تعتبر الإسكندرية من مواطن الدفاع عن المسيحية . وازدادت أهميتها ابتداء من القرن الرابع ، فليس فى البلاد ، باستثناء سوريا ، ما يضارع الإسكندرية فى شدة ما كان يجرى بها من مناظرات دينية ، والحماس الدينى . ففيها نبتت الأريوسية ، ومنها انتشرت المونوفيزتية فى سائر أنحاء العالم الشرقى باعتبارها رد فعل للنسطورية ، وبها ازدادت أهمية الديرية ؛ فى مصر نشأ كبار مؤسسى

الحياة التنسكية ، أمثال انطون ، وباخوم ، وشنوده ، وصرابيون ، الذين بفضل نشاطهم الشديد ، عمرت الصحراء بالأديرة والزهاد ، وزخرت ضواحي الإسكندرية بالأديرة . أما في داخل المدينة ، الإسكندرية ، فإن البطريرك ، الذي كان يتطلع في القرن الخامس ، إلى أن يصبح بابا للكنيسة الشرقية ، بدا كأنه أقوى خليفة للفراعنة ، بفضـــل ما يحيط به من جيش الرهبان الذين يبذلون له الطاعة والخضوع (٥) .

على أن المسيحية اتخذت في مصر ، وفي سوريا ، طابعا خاصا ؛ إذ صارت تعتبر من مظاهر الروح القومية ، فما يحدث من إلحاد أو زيغ ، يعتبر مظهرا من مظاهر الانشقاق والمروق . ولذا فإن التقاليد القومية لم تختف في هذه البلاد ، التي تتألف من وادي النيل ، العريقة في تاريخها . فعلى الرغم من أن الإسكندرية تأثرت بالحضارة اليونانية ، فإن الجانب الأكبر من البلاد ، ظل مصريا خالصا . وما حدث من انتصار المسيحية ، أدى إلى انبعاث الروح القومية . فما جرى من تدمير معبد السيرابيوم سنة ٣٩١ ، زمن الإمبراطور تيودوسيوس ، ومصرع هيپاتيا ، يعتبر دليلا على شدة ما تكنه الكنيسة المسيحية من كراهية وعداوة للهلينية الوثنية . وقد وقع تخريب السيرابيوم تحت نظر وإشراف البطريرك تيوفيل ، ففي مخطوطة مصرية ، ترجع إلى مستهل القرن الخامس الميلادي ، رسم يمثل البطريرك تيوفيل في هيئة المحارب المنتصر الظافر ، وقد وقف على أطلال معبد وثني معروف ، ولم يبق من هذا المعبد إلا تمثال واحد ، ليكون شاهدا ودليلا ظاهرا ، ضد الوثنية (٦) . والراجح أنه قام في موضع معبد السيرابيوم ، كنيسة جرى تدشينها باسم القديس يوحنا المعمدان ، وذلك في ٢٦ مايو سنة ٣٩٥ ، واتخذت اسم اركاديوس (٧) .

وكثر إنشاء العمائر الدينية من الكنائس والأديرة والمشاهد ، فمن الكنائس ، الكنيسة الكبرى ، المعروفة باسم قيصريون Kaisareion ، وكنائس كيرينوس Quirinus ، وثيوناس Theonas ، والقديس مرقص التي حوت قبر مونيك

http://www.al-maktabeh.com

الأنجيلى ، وقبور القديسين كوزما ، وداميان ، والقديس دينيه St. Denys ، والقديس اثناسيوس وغيرهم . أما الأديرة فكانت كثيرة العدد ، منها ما يقع داخل أسوار مدينة الإسكندرية ، على أن أشهرها يقع بضاحية المدينة ، كالأديرة التابنيسية فى كانوب وايناتون Enaton · ومن هذه العمائر منشآت خيرية ، يتولى البطريرك إدارتها العليا ، و بلغ عدد العاملين بها فى أوائل القرن الخامس نحو ستمائة موظف ، فكأنهم عبارة عن جيش صغير شديد التعلق بالبطريرك[٨] .

والمعروف أن الإسكندرية انقسمت منذ قديم الزمن خمسة أحياء ، ثم ازداد عددها بمضى الزمن . ووفقا لهذا التقسيم ، كان بها خمس ابروشيات ، ومع ذلك فإن المدينة احتفظت بما اشتهرت به قديما من الرخاء والثروة والحياة الناعمة ، والطباع الوديعة التى تنزع للهو والعبث . وظلت على ما كانت عليه مدينة يونانية، تعتبر أجنبية وغريبة عن الإقليم (مصر) الذى اتخذها عاصمة له . و بلغ من شدة التصاق هذه الصفة بالإسكندرية فى العصر البيزنطى ، أن سكان سائر البلاد من المصريين ، كانوا يعدون التوجه إلى الإسكندرية ، رحيلا عن مصر وخروجا منها[٩] .

السكان

بلغ عدد سكان الإسكندرية فى القرن السادس الميلادى ، نحو ٦٠٠ ألف نسمة وكانوا من أخلاط الناس ، و يعتبر اليونانيون أهم العناصر التى يتألف منها سكان المدينة ، ومنهم تألفت الأرستقراطية المحلية ، التى ينتخب منها أعضاء سناتو الإسكندرية ، ونظرا لما اشتهرت به هذه الأرستقراطية من ثروة وما ارتبطت به من صلات وعلاقات ، ازداد نفوذها وسلطانها[١٠] .

أما اليهود فظلوا حتى سنة ٤١٥ ، يؤلفون جالية كبيرة بالمدينة . غير أنه حدث فى تلك السنة ، أن أمر البطريرك كيرلس بطردهم من المدينة ، وأغلق

معابدهم ، وأمر باستباحة دورهم ونهبها . وعلى الرغم من أنهم عادوا إلى الإسكندرية بعد أن تعرضوا للاضطهاد ، فإنه لم يعدلهم ما كان لهم من قبل من مكانة(١١) .

على أن العنصر المصرى لا زال يعتبر أساس سكان مدينة الإسكندرية ، و يتألف منه معظم السكان ، والملحوظ أن شاع بالمدينة منذ أواخر القرن الخامس استخدام اللغة القبطية(١٢) .

و إلى جانب هذه النواة الصلبة من الوطنيين ، الذين يتألف منهم السكان، قدم إلى الإسكندرية ، عدد كبير من الأجانب ، اجتذبهم إليها ما كان المدينة من أهمية تجارية ، وما لجامعتها من شهرة ذائعة ، فصارت مدينة الإسكندرية ملتقى السوريين واليونانيين الوافدين من آسيا الصغرى و بيزنطة ، والتجار القادمين من اثيوبيا و بلاد العرب ، بل جاء إليها أناس من الهند . كل ذلك جعل للإسكندرية طابعا مختلطا ، كالذى اشتهرت به المدن الواقعة فى شرق البحر المتوسط(١٣) .

واشتهر أهل الإسكندرية من قديم الزمن بسرعة الإثارة ، وعدم الاكتراث بالسلطة والحكومة ، ونزع سكانها إلى الثورة والتمرد ، والميل إلى الشغب ، يضاف إلى ذلك ما ذاع عنهم من المرح والسرور ، وسرعة الخاطر ، والثرثرة ، والعبث واللهو(١٤) .

ولما انتصرت المسيحية، اشتد ميلهم إلى المجادلات الدينية ، واحتد النزاع فى المدينة ، بين الأحزاب المتنافسة المتنازعة المتعادية ، من الوثنيين واليهود والأرثوذكس والمونوفيزتيين على اختلاف فئاتهم . وطفح تاريخ الإسكندرية فى القرنين الخامس والسادس ، بالمعارك والمذابح ، و بما شنه المونوفيزتيون ضد الإمبراطورية البيزنطية من نضال مرير ، استمر حتى فتح العرب لمصر . و يصح أن يحدث فى أثناء هذا النضال ، فترات يزداد فيها بأس الحكومة ، و يشتد فيها

ساعد البطريرك ، فيعود الأمن إلى نصابه . و يصرح البطريرك تيودوسيوس أن ما غلب على أهل الإسكندرية من الميل إلى الأبهة ، والحرص على الحصول على الألقاب والتشاريف ، جعلهم ينصرفون عن الإيمان ، و يعملون على التماس الحظوة عند الإمبراطور البيزنطى . والواقع أن هذا التصريح تشوبه المبالغة إذ أن أهل الإسكندرية ، بادروا إلى مناهضة سلطة الإمبراطور ، و بذلوا أرواحهم فى سبيل التمسك بعقيدتهم (١٥) .

ومن أكثر الأمور أهمية عند الحكومة البيزنطية ، الحرص على استتباب الأمن و إقرار السلام ، فى مدينة الإسكندرية ، التى اشتهرت بضخامتها واتساع رقعتها . ولتحقيق هذه الغاية ، لجأت الحكومة إلى أن تتخذ من الوسائل ما سلكته فى القسطنطينية ، بأن درجت على أن تقدم الطعام للعامة ، وأن توفر لهم وسائل التسلية واللهو ، ولذا قرر دقلديانوس ، سنة ٣٠٢ ، أن يوزع على فقراء الإسكندرية ، جانباً من القمح ، الذى جرت جبايته من دافعى الضرائب من المصريين ، واشتهر هذا القدر من القمح الذى كان برسم مؤونة أهل الإسكندرية ، باسم الجراية Alimonia ، وأبقى الأباطرة للمدينة هذا الامتياز الذى منحه لها دقلديانوس . وما حرص عليه جستنيان من منع تأخير توزيع القمح ، إنما يدل على خوفه وحذره ، من أن يؤدى هذا التأخير إلى أن يقع بالمدينة من الأحداث ما يثير أهل الإسكندرية ، المشهورين بحدة المزاج (١٦) .

وتكفلت الحكومة أيضاً بوقود الحمامات العامة ، وببعض النفقات النثرية ، وتولت الكنيسة من جانبها بذل المعونة للمحتاجين . ومن الوسائل التى اتخذتها الحكومة عادة ، لقمع مقاومة سكان الإسكندرية ، ما لجأ إليه من وقف الجراية ، و إغلاق الحمامات العامة (١٧) .

واشتهر أهل الإسكندرية أيضاً ، بشدة ميلهم إلى الملاهى ، فأقبلوا على مشاهدة المسارح ، وما يجرى بها من تمثيل ورقص وموسيقى ، وحرصت الحكومة

على أن توفر لهم هذه المتعة . ولما قرر جستين الأول أن يطرد من بلاد الشرق ، كل المشتغلين بالرقص ، استثنى الإسكندرية من هذا القرار ، فلم يكن سكان الإسكندرية أقل من أهل القسطنطينية ميلاً إلى مشاهدة ألعاب السيرك .

وحدث بالإسكندرية ، مثلما حدث بالقسطنطينية ، من اشتداد التنافس بين حزبي الخضر والزرق ، اللذين يتعصبان لفريقي اللاعبين بالسيرك ، وترتب على هذا التنافس ، أن ساد بالمدينة ، ما كان يسود عادة بالقسطنطينية ، من الاضطراب . ولذا حرصت الحكومة البيزنطية أيضاً ، على أن توفر لأهل الإسكندرية هذه التسلية ، فتقرر في مرسوم سنة ٥٣٨ ، أن يتولى الوالي الأوجستال بالإسكندرية الانفاق على ٣٦ حصاناً ، برسم الملعب[١٨] .

غير أن كل هذه التدابير لم تكن كافية لاطمئنان الحكومة البيزنطية بمصر . ففي القرن السادس ، حرصت على ألا يجرى في الأقاليم بيع الأسلحة التي تنتجها مصانع الحكومة ، إلى سائر الأفراد . وفرضت غرامة كبيرة ، يبلغ مقدارها عشرين صولدا ذهبياً ، على كل موظف يهمل في تنفيذ هذا المرسوم ، وتقرر جعل الغرامة مضاعفة ، على الدوق الأوجستال بالإسكندرية ؛ ولم يكن الغرض من كل ذلك سوى الحرص على منع وقوع الفتن والثورات في مدينة الإسكندرية . وورد في مرسوم سنة ٥٣٨ ، ما يدل على اتخاذ تدابير مماثلة ، ذلك أنه يقع عند منافذ أبواب الإسكندرية الموضعان المعروفان باسم مريوط ، ومنيلائيتس Ménélaites ، اللذان يتبعان لأسباب مالية ، إقليم ليبيا ، ويعتبران ملجأ وملاذا ، يهرع إليه دعاة التمرد ومثيرو الفتن بالإسكندرية ، كيما يفلتوا من قبضة عمال الوالي الأوجستال . فتقرر تعيين موظف خاص ، لملاحظة وحراسة هذين الموضعين الخطرين ، والتزم هذا الموظف بناء على أمر الأوجستال برد المجرمين ، ومراقبة المشبوهين ، وطردهم أو القبض عليهم . وأصدر الإمبراطور جستنيان إلى الوالي الأوجستال ، الأوامر بأن يبذل

http://www.al-maktabeh.com

كل جهده فى المحافظة على الأمن بالإسكندرية . وهذا هو السر فى أن الإمبراطور جعل له سلطة حربية كبيرة ، يستطيع بها أن يقمع الفتن والحروب الداخلية[١٩] .

الطبقات الاجتماعية :

وإلى جانب هـــذه الفئة من السكان ، وهى الفئة التى يتألف منها معظم السكان ، ظهرت طائفة الأغنياء ، التى تكوّنت من رؤساء البيوت التجارية والمصارف ، ومن الأسرات العريقة من النبلاء المحليين . ومنهم يجرى اختيار أعضاء السناتو ، كما اتخذت الحكومة منهم عادة كبار موظفيها، وهذه الفئة المختارة أى حزب العظماء ، صار أفرادها بحكم وظائفهم ومصالحهم من أشد الناس تعلقا بالحكومة البيزنطية ، ويعتبرون فى مصر ، الدعامة التى تستند إليها الحكومة البيزنطية[٢٠] .

وقامت قوة جديدة ، إلى جانب هذه الأرستقراطية العلمانية ، وتتمثل هذه القوة الجديدة فى الكنيسة . فقد اشتهر بطريرك الإسكندرية ، بوفرة ثروته التى استمدها من أملاكه الشاسعة ، من الأراضى والعقارات ، ومن هبات الأباطرة وسائر الناس ، ومن ضياع الكنيسة الواقعة خارج مدينة الإسكندرية ، بل كان للبطريرك ضياع فى إقليم أرسينوى (الفيوم) . وكان لكنيسة الإسكندرية أيضا أسطول ، مؤلف من ١٣ سفينة كبيرة ، استخدمت فى تجارة البحر المتوسط وبحر الأدرياتى . فتكدس بخزانة الكنيسة من الأموال ، ما هيأ لبطريرك الإسكندرية ، أن يوزع بانتظام رواتب على من يقصدونه ، سواء استحقوا الإحسان أو لم يكونوا فى حاجة إليه، وقام البطريرك أيضاً بإطعام أكثر من ٧٥٠٠ من فقراء أهل المدينة ، وأكثر من بذل المعونة خارجها ، وكان يقرض الحكومة البيزنطية الأموال ، إذا اقتضت الأحوال ذلك[٢١] .

ولا شك أن هذه الثروة الطائلة أثارت قلق الإمبراطور البيزنطى، وحرص

جستنيان على المحافظة على خزانة كنيسة الإسكندرية ، حتى لا تمتد الأيدى لنهبها ، فزعم لنفسه الإشراف على اختيار الموظف الموكل بالخزانة وأعماله (econome). والواقع أن الموكلين بإدارة أملاك كنائس الإسكندرية ، إنما يتبعون البطريرك ، فهو الذى يدفع لهم مرتباتهم ، ويصدر إليهم الأوامر ، ويدعوهم لحضور مجالسه . وخضع لسلطات البطريرك أيضاً ، موظفو المؤسسات الخيرية ، فهو الذى يعين رؤساءها ، فأطاع أوامره دون مناقشة أو مراجعة ، الموكلون بترتيب الجنازات ورجال الدين والرهبان[٢٢] .

على أن مكانة البطريرك الروحية لم تكن بأقل من مكانته الدنيوية (الزمنية) ؛ إذ فرض مذهب كنيسته ، وهو مذهب كيرلس وثيودوسيوس ، على شعب طيع ، يقدس أولئك الذين يحتلون كرسى القديس مرقص (البطريركية) . فكان لزاماً على الحكومة البيزنطية أن تهتم بشخصية البطريرك ، الذى يعتبر سيد الكنيسة ، دون منازع ، وأقوى شخصية بالإسكندرية ، وموطن احترام مصر بأجمعها . فإذا اطمأن الإمبراطور البيزنطى إلى البطريرك ، وجرى الاتفاق بينهما ، استقامت الأحوال ، واستقرت الأمور بالبلاد ، أما إذا ظهر من البطاركة ، من اشتهروا بالطموح والإقدام ، أمثال تيوفيل وكيرلس وديوسقورس ، أو كانوا من خصوم الحكومه البيزنطية ، أمثال البطاركة المونوفيزتيين ، انكشف ضعف الحكومة البيزنطية ، إزاء بطريرك الكنيسة ، وما يحوزه من سلطة مطلقة ، لا تنازعها فى ذلك قوة أو سلطة[٢٣] .

ولذا حرصت الحكومة البيزنطية فى مصر ، على أن تجعل فى يدها ، كل نواحى الإدارة العامة بالإسكندرية ، فأنشأ الإمبراطور أنستاسيوس وظيفة المراقب المالى Vindex ، كيما يتولى ، تحت إشراف الأوجستال ، إدارة مالية الإسكندرية ، بعد أن انتزع هذا الاختصاص من سناتو المدينة[٢٤] .

وزاد جستنيان من سلطات هذا الموظف ، بأن أخضع أعضاء السناتو (البلدية) لسلطة الأوجستال . وورد فى مرسوم سنة ٥٣٨ ، ما يشير إلى شدة اهتمام الإمبراطور جستنيان ، بتنظيم إدارة النفقات (المصروفات) بالمدينة ، وإصلاح ميزانية البلدية . أما إدارة الجمارك فتولاها موظف كبير اشتهر باسم Alabarque ، الذى يعتبر من كبار الشخصيات (٢٥) .

وبذا نستطيع أن ندرك ما كان للدوق الأوجستال بالإسكندرية من سلطة واسعة المدى ؛ إذ خضع لسلطانه ، ما رابط فى المدينة وضواحيها فى الإقليم الذى يتولى إدارته ، من قوات حربية ضخمة ، تزداد قوة بما ترسله بيزنطة ، إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، من أمداد . وبهذه الوسيلة ، صارت الحكومة البيزنطية تفخر بأنها قبضت على زمام الأمور فى المدينة الكبيرة (الإسكندرية) . والواقع أن ضبطها للإسكندرية ، ونفوذها بها ، يفوق ما كان لحكومة بيزنطة من سلطات فى سائر القطر المصرى ، لا سيما طيبة ، فظلت الإسكندرية طوال العصر البيزنطى ، موطن اهتمام شديد من قبل الحكومة البيزنطية (٢٦) .

النشاط الاقتصادى

كان للإسكندرية مكانة كبيرة فى الإمبراطورية البيزنطية . وما حدث من نمو وتطور فى صناعاتها وتجارتها ، جعل منها مدينة بالغة الثراء ، وافرة الرخاء ، ودهش الإمبراطور هادريان ، حين شهد مظاهر النشاط الاقتصادى والصناعى بهذه المدينة الضخمة ، التى لا يعيش فيها متعطل على حد قوله (٢٧) . والواضح أن الإسكندرية ظلت حتى الفتح العربى مركزا هـــاماً من المراكز التجارية والصناعية (٢٨)* .

(٢٨*) كانت المدينة اليونانية بأقاليم القطر المصرى ، تعتبر حدثاً غريباً . فلما أعوزها الأرض التى يعيش على غلاتها السكان ، جعلت كل اعتمادها فى حياتها =

ظلت الإسكندرية حتى القرن السادس أكبر سوق تجـــارية بمصر ، ولا زالت تحتفظ باحتكار البردى. ويشير ابن حوقل مؤلف كتاب صورة الأرض إلى أن الإسكندرية ، انفردت دون المدن الأخرى بتصدير البردى إلى سائر أنحاء العالم. ويذكر القديس جيروم إلى أن التجار السوريين ، تولوا بيع البردى فى غالة . وفى زمن الميروفنجيين ، تعتبر مرسيليا مستودعا لما يرد من البردى ، والواضح أن هذا البردى كان مجلوبا من مصر . واستمرت الإسكندرية ، إلى ما بعد فتح العرب لمصر ، تصدر البردى (٢٩) .

واحتفظت الإسكندرية بما اشتهرت به قديما من صناعة الأحجار الكريمة وتهذيبها وصقلها ، ويشير بالاديوس ، إلى قسيس كان بارعا فى تهذيب الأحجار الكريمة، كما ازدهرت بالإسكندرية صناعة الأطباق من الفضة ، التى تصدر

= وبقائها على ما لليونانيين من مكانة ممتازة . فلما اختفت هذه المكانة ، ظهرت شخصية المواطن المصرى ، وأخذت النظم البلدية التى سادت فى العالم اليونانى الرومانى تزول بالتدريج . يضاف إلى ذلك أن ظهور الباجركيات ونموها ، أضعف شأن المدينة باعتبارها وحدة إدارية ، فاقتسم الباجرك والأسقف ما كان للمدينة من وظائف إدارية .

ولم تكن القرية عند الأباطرة البيزنطيين سوى مصدر رئيسى لضريبة القمح ، وبذل الأباطرة جهدهم لمنع نمو الملكيات الكبيرة ، على أن القرية نمت وتطورت على حساب المدينة . وما حدث فى القرن الرابع الميلادى من الاعتراف بامتلاك القرية لكل ما يقع فى زمامها من الأراضى ، يعتبر عاملا جديداً فى حيازة الأرض بمصر ؛ إذ ترتب عليه ، أن صار موظفو القرية مسئولين عن جباية الضرائب . واحتفظت القرية بنظام النقابات ، فالمعروف فى القرن السادس أن تألف فى قرية Tacona ، مجلس برآسة رئيس القرية Meizon ، ويساعده ستة آخرون . وتتولى هذه الهيئة تأدية ما هو مقرر من الضرائب على أراضى القرية ولزومها وتألفت فى بعض القرى نقابات للمشتغلين بالرعى .

واقترن نمو القرية بانبعاث الثقافة المصرية الوطنية ، مصبوغة بالصبغة المسيحية . على أن أفروديتو (كوم اشقاو) كان لها وضع خاص ، إذ أنها كانت مدينة ثم تحولت إلى قرية ، ولذا كان من المفروض أن تحتفظ بقدر من الحياة الوادعة ، التى اشتهرت بها المدينة الإغريقية ، غير أن ذلك قد اختفى ، على الرغم من أن الشاعر ديوسقوروس ، اشتهر بثقافته اليونانية الواسعة التى هيأت له أن يقرض بها الشعر . ومع ذلك لا زالت اليونانية هى اللغة الرسمية بالقطر المصرى ، وظلت هذه اللغة سائدة بمصر حتى بعد الفتح العربى ، ولعل ذلك كان الأثر الوحيد الذى بقى من النفوذ البيزنطى .

(Johnson : Economic Studies, pp.99. 106 — 107, 153 — 154).

إلى القسطنطينية . وذاع صيتها فى صناعة الأوانى الزجاجية ، فحرصت على أن تجلب الرمل اللازم لصناعة الزجاج . وتأثر صناع الزجاج فى غالة منذ قديم الزمن بالمؤثرات الاسكندرانية [٣٠] .

واشتهرت مصر من قديم الزمن بصناعة الأوانى الفخارية لاستخدامها محليا . ويرجع إلى القرن الرابع الميلادى مجموعة من القوارير ، تحمل نقوشا دينية بارزة ، وهى المعروفة بقوارير مينا ، التى حرص الحجاج على اقتنائها ، كيما يملأوها بالماء من مشهد القديس مينا بالقرب من الإسكندرية ، ثم يحملونها إلى بلادهم ، وانتشرت نماذج من هذه القوارير فى جميع بلاد البحر المتوسط [٣١] . ولا شك أن صناعة هذه القوارير وجدت لها سوقا رائجة ، و جنى المشرفون على الأضرحة من ورائها أرباحا وفيرة [٣٢] .

واتخذت الأوانى الفخارية أشكالا وصوراً مختلفة ، فالطفل الذى تصنع منه هذه الأوعية ، كان متعدد الألوان والأنواع ، فمنه الأحمر والقرمزى والذهبى ، والأصفر والعنبرى والليمونى . وتفنن المصريون فى زخرفة الأوعية بالألوان المختلفة ، واتخذت هذه الزخارف صور الحيوانات والأسماك . والراجح أن هذه الصناعة مهدت لما قام بالفسطاط ، بعد الفتح الإسلامى ، من صناعة الأوانى الفخارية [٣٣] . ويشير القانون رقم ١٣ الذى أصدره جستنيان ، إلى أن الضريبة المقررة على تصدير الفخار من الإسكندرية تضاف إلى موارد البلدية [٣٤] .

أما المنسوجات الصوفية ، فاقتصرت أول الأمر على الاستهلاك المحلى ، ثم تحسنت مكانة هذه المنسوجات فى أواخر العصر البيزنطى و بعد الفتح الإسلامى ، فجرى تصديرها إلى أسواق الشرق الأقصى [٣٥] .

وخضعت المنسوجات المصرية إلى مؤثرات أجنبية ، فيشير قانون دقلديانوس إلى أن المنسوجات المصرية الكتانية كانت تحاكى مصنوعات طرسوس . وتأثر

النساجون المصريون ، فى زركشة منسوجاتهم ، بما عاصرهم من الفن السورى والإيرانى الساسانى . ولم يكتف النساجون المصريون بمحاكاة غيرهم فى اسلوب الصناعة ، بل امتد تقليدهم إلى محاكاتهم فى الألوان(٣٦) .

ومن المنسوجات التى ترجع إلى العصر البيزنطى ، والتى جرى العثور عليها فى كرانيس (كوم أوشيم) Caranis ، أثواب من الصوف ، وشاشات من الحرير تطرز بها العباءات ، وملافح من الحرير ، وأقمشة وملابس رسم عليها صاحبها ، وقلانس من اللبد ، وحقائب مصنوعة من خيوط الصوف(٣٧) .

والواضح أن النسيج كان من الحرف المألوفة عند الرهبان والراهبات ، لأنه لا يتعارض مع تأدية الواجبات الروحية(٣٨) . كما أن مصانع النسيج والصباغة كانت ملكا للحكومة ، غير أن ذلك لم يمنع من أن تجرى هذه الصناعات فى دور بعض كبار التجار ، الذين يستخدمون بعض عمال المصانع الحكومية فى غير أوقات عملهم(٣٩) .

وانتظم فى النقابات ، العمال الذين يشتغلون فى صناعة النسيج ، وما يتعلق بها من الحرف والمهن : أمثال نساجى الكتان ، والصوف ، والمطرزين (الرقامين) ، والصباغين ، وصناع الشباك ، وصناع (الأدوات الجلدية) ، والمنسوجات الكتانية ، ومعظمهم من الصناع الأحرار ، يضاف إلى هؤلاء الخياطون والأساكفة.(٤٠)

واحتفظت الإسكندرية فى القرن الرابع ، بما كان لها من قبل من شهرة فى صناعة العقاقير . فما كان يرد إلى الإسكندرية من المواد الخام ، من الهند ومن الشرق الأدنى ، بل من مصر ذاتها (طيبة والواحات) ، يتم تحويله بالإسكندرية إلى سلع تجارية . وأظهر صناع الإسكندرية براعتهم وحذقهم فى صناعة الأدوية والعطور ، وفى تعبئتها وتسويقها ، فصارت لها شهرة ذائعة ، وارتفعت أسعارها ، وحصل الإسكندرانيون على أرباح وفيرة . وتشير إحدى البرديات إلى ١٩٢

http://www.al-maktabeh.com

نوع من المواد الحيوانية والنباتية والمعدنية ، المستخدمة فى صناعة العطور والأدوية[٤١] .

وفى السنوات الأخيرة ، جرى بمصر اكتشاف حلى ثمينة ترجع إلى العصر البيزنطى ، منها عقود رائعة من الذهب ، توسطها أنواط تحمل صور الأباطرة ، ومنها خواتم وأساور ، وجلاجل ، تدل على ما اشتهر به السكان من ذوق فنى ، ومهارة رائعة ، أما صناعة العاج فحظيت بشهرة كبيرة ، ومن الدليل على ذلك ما بعث به البطريرك كيرلس من مصنوعات عاجية ، فى هداياه إلى رجال القصر الإمبراطورى بالقسطنطينية ، التى شملت كذلك الأثواب القيمة والبسط والوسائد[٤٢] .

وكان النطرون من احتكارات الحكومة، فتقوم بتأجيره وتجعله التزاما. ويجرى جلبه إلى وادى النيل عن طريق الطرانة (كوم ابو بيللو) Tarenuthis ، التى اتخذها مقرا لهم ، الموظفون المكلفون بتحصيل الخراج من الملتزمين أو المستأجرين[٤٣] .

والمعروف أن النقابات تعرضت لسخط الحكومة الرومانية وغضبها ، منذ عهد أغسطس قيصر حتى زمن اسكندر سفيروس . على أن النقابات بمصر كانت تخدم غرضا اقتصاديا ، يفوق كل مالها من خطر على سلامة الدولة ؛ فنقابات الصناع تعتبر مسئوله عن سد حاجات الحكومة ، وعن تأدية الضرائب المفروضة على أعضاء النقابات ، الذين ارتكبوا مخالفات ولم يتموا أعمالهم. والمعروف أن مجلس القرية ، منذ زمن دقلديانوس ، كان مسئولا عن تضامن سكان القرية فى دفع الضرائب المقررة على الأفراد الذين لم يؤدوا ماعليهم من الضرائب . وأفادت أسرة ابيون من النقابات فى تحصيل ما تقرر على فلاحيهم من الضرائب[٤٤] .

وفى القرن الرابع كانت النقابات بالبهنسا بالغة التنظيم، وكان لها رئيس يشغل مركزه لمدة معينة ، ومن واجباته أن يخطر حكومة الأقاليم بما لدى النقابة من موارد[٤٥] .

وفى وثيقة ترجع إلى سنة ٤٢٦ ما يشير إلى قيام النقابات بجباية الضرائب المقررة على المهن والحرف(٤٦) ، كما ظلت النقابات معروفة بمصر فى القرن السادس، ففى أفروديتو ، تعاونت النقابات مع موظفى الكنيسة فى الاحتجاج على باجرك أنتيابوليس ، لما اشتهر به من الشدة فى جباية الضرائب . ومن النقابات المعروفة ، نقابة الرعاة ، التى لم يقتصر عملها على حراسة الحقول ، بل قامت أيضاً بدفع ما تقرر عليها من الضرائب . والمعروف أن نقابات الإسكندرية جرى إعفاؤها سنة ٤٣٦ من التزام تنظيف السقايات ، وانتظم عمال المستودعات الحكومية بالإسكندرية فى نقابات(٤٧) .

على أن الإسكندرية كانت بلداً تجارياً كبيراً ، ومركزاً من مراكز التجارة العالمية ؛ إذ احتلت الإسكندرية موقعاً ممتازاً فى شرق البحر المتوسط . فباعتبارها منفذاً طبيعياً لوادى النيل الغنى الخصيب ، تلقت عن طريق القناة التى تستمد مياهها من النيل عند شيديا Shedia ، وتصل بين النهر والإسكندرية ، كل ما تنتجه مصر لا سيما القمح ، الذى يجرى تصديره إلى البلاد الواقعة شرقى البحر المتوسط و بلاد العرب ، و إلى الغرب أيضاً(٤٨) ، فزخر دائماً ميناؤها الداخلى ، الواقع على بحيرة مريوط ، بالسفن القادمة من أعالى البلاد (الصعيد) . ولمدينة الإسكندرية على ساحل البحر المتوسط أيضاً ، ميناءان بالغا الصلاحية والأهمية ، فيحف بالميناء الشرقى ، أحواض انتظمت فى سلسلة طويلة . وتعتبر نقابة الملاحين بالإسكندرية من أشهر نقابات المدينة وأهمها ، فبفضل حرص هؤلاء الملاحين واهتمامهم ، انتظمت طرق الملاحة بين مصر والقسطنطينية و إيطاليا ، وتوغل التجار المصريون فى البحر الأدرياتى ، وانتظمت العلاقات بين مصر وغالة ؛ فحملت السفن البردى إلى مارسيليا ، كما اتصلت مصر بأسبانيا فقدم إلى الإسكندرية التجار ومندوبوهم من أسبانيا وغالة ، وامتدت خطوط الملاحة كذلك إلى الجزائر البريطانية، فجلبوا منها القصدير(٤٩) .

والمعروف أن كنيسة الإسكندرية مارست التجارة فى القرن الرابع الميلادى، وبلغت سفنها ، بريطانيا وصقلية وبحر (الادرياتيك) ، وشملت شحناتها الحرير والأوانى الفضية والحبوب ، وكانت الكنيسة تملك ما يزيد على ثلاثين سفينة فضلا عن سفنها التى تنقل المتاجر فى نهر النيل (٥٠) .

على أن القناة التى تصل بين النيل والبحر الأحمر ، لم تستخدم فيما يبدو ، فى القرن السادس . كما أن الطرق الممتدة من طيبة ، ومن قفط إلى برنيس (مدينة الحراس) Berenice، وميوس هورمز (أبو شعر القبلى) على البحر الأحمر، فقدت ما كان لها من أهمية فى العصور السالفة (٥١) .

وعلى رأس البحر الأحمر تقع ثلاث مراكز تجارية هامة ، وهى أيلة Aela، وكليزما (القلزم) ، وجزيرة يوتاب Jotabe (تيران) . وتعتبر القلزم أهم هذه المراكز ، للتجارة المصرية ، وكانت أكبر ميناء على البحر الأحمر ، وتقع فى الطرف الشمال الغربى منه ، بالقرب من موضع السويس الحالية . ومن هذا الميناء ارتحل التجار المصريون ، فارتادوا الأقاليم التى تقع على شاطئى البحر الأحمر ، فمنها يبدأ الطريق الذى يمتد على الساحل الشرقى للبحر الأحمر ، وينتهى إلى Ocelis (عدن) بجنوب بلاد العرب ، وسلكه التجار إلى بلاد حمير ، يلتمسون البخور ، وخيار شنبر ، التى جلبها الصوماليون ، فضلا عن عود الند والمر والعطور من اليمن (٥٢) .

أما الطريق الممتد على الساحل الغربى للبحر الأحمر ، فإنه ينتهى عند عدال Adaulis ، أهم موانى الأحباش ، حيث حصل التجار على كل ما يرد من داخل أفريقية من السلع ، كالبخور والتوابل من الصومال ، والزمرد من بلاد البليميين، والعاج من اثيوبيا ، والذهب من أقصى بلاد ساسو (Sason) ، الذى جلبته قوافل

٢ كـوم مقابل الملح والحديد، وكذلك الرقيق. بل انهم أوغلو إلى ماهو أبعد من ذلك، إذ أن عدال تعتبر مركزاً جرى منه الاتصال بشرق آسيا ، و بإيران، عن طريق الخليج الفارسى (العربى) ، ثم بجزيرة تابروبان Taproban ، التى لم تكن سوى سيلان الحالية ، والتى تقع فى أقصى جنوب الهند ، وتعتبر أكبر مستودع لتجارة الشرق (٥٣).

وقدم إلى عدال وعدن Ocelis ، التجار من بيزنطة وسائر البلاد ، ليحصلوا على متاجر الهند والصين، غير أنه لم يذهب منهم إلى أقصى الشرق إلا عدد ضئيل، وكان العرب والأحباش ، يعتبرون أنشط الوسطاء فى هذه التجارة . ومن الواضح أن الاتصال التجارى بالشرق لم يكن سهلا ، نظرا لسيطرة إيران على الطرق البرية المؤدية إلى البحر المتوسط ، وعلى رأس الخليج الفارسى ، فضلا عن سيطرتها على التجارة التى تجتاز هذه الطرق. وتعرضت التجارة والطرق التجارية ، للتوقف بسبب مانشب باستمرار من الحروب بين الفرس والبيزنطيين (٥٤)*.

ومن تجار الإسكندرية الذين ترددوا على جزيرة تابروبان (سيلان)، كوزماس Cosmas ، المعروف باسم رحالة الهند Indicopleustes ، الذى أشار فى مؤلفه المعروف باسم وصف البلدان (الطبوغرافيا) المسيحية Topographie Chretienne ، الذى جـــرت كتابته بين سنة ٥٤٥ ، وسنة ٥٥٠ ، إلى أهمية هذا المستودع الشرقى الـكبير (جزيرة سيلان) . إلا أن سيلان استقبلت من الهند وإيران وأثيوبيا ، عددا كبيراً من السفن ، نظراً لما تحتله هذه الجزيرة من مركز متوسط بين هذه الأقاليم ، كما أنها أرسلت منتجاتها إلى إيران و بلاد حمير وعدال. وحمل الصينيون بحرا إلى هذه السوق الـكبيرة ، الحرير وعود الند ، والقرنفل وخشب الصندل . و بعثت الهند إليها بما يخرج منها ، من الفلفل والمسك والسمسم،

---

(٥٤)* من الدليل على ضخامة التجارة الشرقية ، أنه حينما وقعت الحروب بين الأحباش والحميريين سنة ٥٢٤ — ٥٢٥ ، وأراد ملك الأحباش نقل جنوده لقتال حمير ، استولى على السفن التجارية الراسية وقتذاك عند جزائر فارسان ، وتشمل ١٥ سفينة من أيلة ، و ٢٠ سفينة من القلزم ، و ٧ سفن من برنيس ، وسفينتين من جزيرة يوتاب ، و ٧ من جزائر فارسان نفسها ، و ٩ سفن من الهند .
(Johnson : Economic Studies, p. 138).

http://www.al-maktabeh.com

والعطور، والقطن والنحاس ، كما توافر بها منتجات السند . يضاف إلى ذلك ما توافر بالجزيرة نفسها من الأحجار الكريمة مثل حجر المحبة amatist ، واللؤلؤ ونحوها . كل ذلك سعى للحصول عليه من سيلان، تجار الغرب ، بل إن منهم من أوغل في السفر بحرا ، فتجاوز سيلان، إلى سيام وأنام وتوكين Toukin [٥٥]، ولاشك أنه لم يكن من هؤلاء التجار إلا عدد قليل من الإسكندرية . فكوزماس رحالة الهند ، لم يبلغ فيما يبدو الهند وسيلان ، برغم مايحمله من لقب رحالة الهند ، غير أنه اشتهر بكثرة أسفاره ، فارتاد كل شاطىء البحر الأحمر ، وعرف اثيوبيا ، و بلغ الخليج الفارسي (العربي) ، وحمله حب الاستطلاع على أن يجمع أخبارا كثيرة عن سيلان ، أكبر الأسواق الشرقية ، كما كان كوزماس رجلا واسع الثقافة ، شديد الذكاء ، متفتح الذهن ، عرض في كتابه نظريات شائقة عن صورة العالم ، وأقام نظاما كاملا للكون [٥٦] .

على أن كل ما يهمنا ، هو ما ضمنه كتابه من ملحوظات ، وما حواه من أخبار مضطربة عن الجغرافية والتجارة في عصره . ونستخلص من كتابه ، أن تجار الإسكندرية ، قدموا في بعض الأحوال إلى سيلان ، مستودع الهند الكبير، غير أن أكثر مجيئهم إلى هذه الجزيرة ، إنما كان على سفن اثيوبية لا على سفنهم الخاصة . وكيفما كان الأمر ، فإن كوزماس وكتابه يعتبران دليلا كافيا على نشاط تجار الإسكندرية ، واتساع أعمالهم التجارية [٥٧] .

ولما كان للفرس بجزيرة سيلان جالية كبيرة قوية ، فما ورد إلى بيزنطة من منتجات الشرق ، إنما جاء معظمها بفضل وساطة الفرس ، لذلك حاول الإمبراطور جستنيان أن يزيد من أهمية هذا النشاط التجاري ، فأراد حوالي سنة ٥٣٠ أو سنة ٥٣١ ، أن ينتزع من الفرس هذا الاحتكار ، وأن يحول إلى مصر كل مايرد من الهند (سيلان) من التجارة . فأجرى مفاوضات مع بلاط اكسوم

(الأحباش) ، ليحمل الأثيوبيين على أن يحلوا فى الوساطة مكان الفرس ، بأن حاول أن يقنعهم بما يصيبهم من وراء ذلك من أرباح طائلة[٥٨] .

ووافق ملك الأحباش على رأى الإمبراطور البيزنطى (جستنيان) ، غير أن الفرس كانوا أقوى نفوذا فى موانى الهند . فاشتد حرصهم على التمسك بتجارة الحرير ، التى تعتبر من أهم السلع اللازمة لقصور البيزنطيين . أما السلع الأخرى، التى لا تقل أهمية عن الحرير عند البيزنطيين ، فصارت موضع منافسة قوية بين الفرس والأثيوبيين . ولا بد لما يرد منها عن طريق الأحباش ، أن يجتاز الإسكندرية قبل الوصول إلى القسطنطينية ، فتقاضت عليها رسوما كبيرة[٥٩] .

وأخذت الإسكندرية تصدر إلى بلاد البحر المتوسط ، منتجات مصر ، وما يصنع بالإسكندرية من السلع ، وما يرد من ثروات الهند والشرق الأقصى ، فأصاب تجارها ، المشهورون بالجرأة والإقدام ، أرباحا وافرة . فما لاحظه الإمبراطور هادريان من قبل ، عن نشاط أهل الإسكندرية ، لا زال مستمرا فى القرن السادس ؛ فالمصارف الكبيرة بالإسكندرية ضارعت فى عددها البيوت التجارية . على أن انخفاض سعر النقد ، وارتفاع أسعار المعيشة ، الذى ازداد منذ أواخر القرن الرابع ، ألحق بتجارة الإسكندرية أضرارا شديدة ، وأثر الاضطراب فى حالتها الاقتصادية ، ونزعت المقايضة إلى أن تحل فى مصر مكان العمليات التجارية المنظمة . ثم لم يلبث هذا التحول فى السوق ، أن أدى إلى اضمحلال الإسكندرية وتداعيها[٦٠] .

حياة الترف فى الإسكندرية

على الرغم مما أصاب المدينة فى القرن السادس من الاضمحلال ، فإن ما اشتهرت به من الرخاء الاقتصادى، جعل منها مدينة الترف والثراء . وازداد اهتمام سكان الإسكندرية بالاحتفال بالأعياد، وشاع فيها العبث والمجون ، وحدث حوالى

أواخر القرن الثالث الميلادى ، أن وجه كلمنت الاسكندرى النقد الشديد إلى نساء الإسكندرية ، لاشتداد ميلهن إلى استخدام المساحيق ، ومايبزعن إليه من ارتداء المنسوجات الحريرية، والثياب الموشاة بالذهب، والثياب ذات الذيول الطويلة ، التى تهدىء من المسير ، وتبدو كأنما تكنس الأرض ، على حد قول هذا الأخلاقى المسيحى الكبير . واتخذن من الثياب القصيرة ما يكشف عن الركبة ، كالتى اتخذها فتيات اسبرطة وما اتخذنه من الأحذية التى انطبع على نعالها عبارات الحب ، جمل مشيهن يثير الأفكار الشهوانية . واشتد كلمنت فى لوم النساء ، لما يبدين من عناية واهتمام بشعورهن وصباغتها ، وكان اللون الأصهب هو المستحب عندهن ، واتخذن الشعر المستعار ، وحرصن على أن يجعلن من شعورهن تراكيب هندسية بالغة التعقيد ، وأمعن فى المحافظة عليها ؛ وبلغ من شدة خوفهن على إتلافها و إفساد نظامها ، أنهن لم يجرؤن على المسير إلا فى حذر شديد ، ولم يستسلمن للنعاس[٦١] .

وأنكر كلمنت على (الحلاّق) ، ما دأب عليه من التفنن فى إجراء الضفائر المثيرة ، التى اشتد شغف النساء بها . ومن الطبيعى أن يلجأن إلى تزيين الوجه ؛ فيطلين الخدود ، و يزججن بخط من السواد باطن جفون عيونهن ، و يتعطرن بالزيوت والأدهان والعطور . أما إتخاذ الحلى ، والأثواب الدقيقة التطريز ، فلم يكن أقل أهمية[٦٢] . وكل ذلك كان معروفا فى القرن الثالث ، زمن كليمنت ، وظل سائداً فى المجتمع البيزنطى فى القرنين الخامس والسادس . ومن الدليل على ذلك ما جرى العثور عليه، فى السنوات الأخيرة ، بمقبرة بأخميم (بانو بوليس القديمة) ، وفى أنتينوى Antinoé ، من المنسوجات الصوفية الجميلة ، ومنسوجات الكتان والحرير ، ذات الألوان الزاهية الحية ، والتى أمتازت برسوم متنوعة ، تأثرت بمؤثرات هلينية أو شرقية ؛ ففى النسيج أختلطت معا المناظر الميتولوجية ، وحلقات الصيد ، وموضوعات عن المخلوقات البشرية ، والصور المستمدة من

حياة السيرك (الملعب) ، والشخوص (الرسوم الكاريكاتورية)، والموضوعات الدينية المستمدة من الأنجيل والكتاب المقدس[٦٣] .

فإذا أدركنا أن هذه المنسوجات ، إنما عثروا عليها فى بعض مدن الأقاليم ، صار من اليسير أن نتصور ما أتخذه نساء الإسكندرية وقتذاك من أسباب الترف والرشاقة . ولايقل دلالة عن هذه الأبهة والروعة ، ما عُثر عليه فى مصر فى السنوات الأخيرة ، من الحلى الجميـــلة التى يرجع تاريخها إلى القرن السادس الميلادى . إذ شملت عقودا من الذهب انتظمت فى صفوف ، وتوسط العقد نقود بيزنطية تحمل رسم الأباطرة ، ومن هذه الحلى أيضاً، خواتم ، وأساور وجلاجل (حلقان)[٦٤].

أما هيئة النساء فى زينتهن الرائعة ، وشدة ولعهن بترتيب شعورهن ، على نحو ماتراه فى صور دير بويط Baouit التى ترجع إلى القرن السادس ، وفى المنسوجات الملونة ، الواردةمن حفريات أنتينوى ، فإنها تدل على أن ما قاله كليمنت فى القرن الثالث ، عن نساء الإسكندرية ، ينطبق أيضاً عليهن فى القرن السادس ، وأن المتأنقات فى العاصمـة المسيحية (الإسكندرية) ، لم يكن أقل عدداً ، وأقل جمالا وشهرةمنهن فى المدينة الوثنية (الإسكندرية)[٦٥] .

ولم يكن كليمنت أقل عنفاً وشدةفى نقد الإسراف فىالطعام ، فاعتبر من دلائل الانحلال الخلقى بالمدينة ، ما اشتهر به أهل الإسكندرية من الحياة الوادعة ، والميل إلى الخمول والكسل ، والولع بالزهور ، وحب الملاهى ، والشغف بالملعب (السيرك)، ومع ذلك أشتهر الاسكندرى بسرعة الخاطر والذكاء الفطرى . وأبقى العصر البيزنطى على كل هذه الصفات ، وحافظ على ما كان معروفا من التقاليد[٦٦] .

ومن المحقق أن المسيحية أضفت على هذا المجتمع صفة بالغة الإتزان والرزانة ، على الأقل من الناحية الشكلية أو الظاهرية ؛ ففى الوثائق إشارات عديدة إلى

مايلـتزم به الأزواج من واجبات ، وإلى متانه تـكوين الأسرة ، على الرغم من أن عبارات هذه النصوص ، غلب عليها من البلاغـة ما يثير الشك فيما ينطوى عليه من حقيقة واقعة ، كماتضمنت وثائق الطـــلاق ، الأسباب التى أدت إلى الانفصال بين الزوجين . على أنه ينبغى ألا ننسى أن عدد الفقراء بالإسكندرية كان كبيرا ، وقد تـكفلت الـكنيسة برعاية ومؤن عدد من هؤلاء الفقراء (٦٧). يضاف إلى ذلك أنه ترتب على الفروق الاجتماعية فى العنصر والثروة والامتيازات، ما وقع بين طبقات المجتمع من منازعات وأحقاد، على الرغم فى أن المظهر الخارجى إنما ينم عن الانسجام والوفاق (٦٨).

الحياة العقلية

أشتهرت الإسكندرية بأنها حاضرة العلم والفن والأدب ، لأنها ظلت قرونا عديدة ، بفضل مـكتبتها ومتحفها ، مركزا لحركة علمية قوية ، ومقرا لمدرسة كبيرة للثقافة، ونواة لنشاط عقلى ضخم . فالمعروف أن الرومان ، بعد أن استولوا على مصر ، أبقوا على ماتركه البطالمة من منشآت ، تكريما لذكرى ملوك البطالمة من جهـــة ، ولمـا اشتهر به الرومان من الشغف بالآداب . وما حدث من إضطهاد للمسيحية وسائر النحل ، لقى تشجيعاً وتأييدا من قبل الأباطرة ، نظرا لمـا إتخذه هذا الاضطهاد من طابع سياسى ، إذ أن المسيحية كانت أشد رسوخا فى مصر ، منها فى سائر البلاد ، وكان لها أثر كبير فى تغيير أخلاق الناس وطباعهم ؛ فـكان وفقاً لذلك أن تتغير قوانين الإمبراطورية . (٦٩) وما صادفته المسيحية فى الإســكندرية من العلوم ، لم تصادفه فى سائر الجهات ، كما أن ماتعرضت له فى الإسكندرية من الضربات ، فاق كل ما تعرضت له دائما فى كل الجهات . ولم يلق مرسوم ميلان من الحماس الدينى مثلما لقى فى الإســكندرية ؛ إذ أنه حقق المساواة بين المسيحية وسائر الديانات (٧٠).

فالمعروف أن الكنيسة أقامت ، منذ ظهور المسيحية ، فى الإسكندرية ، وعندمدخل المتحف ، المدرسة المسيحية المعروفة باسم didascalée ،وهى فى جوهرها كانت مدرسة للأطفال ؛ ذلك أنه حينما تبين أنه من العسير على الأطفال أن يكتشفوا خالق العالم ومنشئه ، عمد المسيحيون إلى أن يعلموهم عظمة الله تعالى . وأنشأ هذه المدرسة ، فيما يبدو ، القديس مرقص ، الذى يعتبر أول أسقف للإسكندرية ، ومن معاصرى رسل المسيح . وتولى رئاسة هذه المدرسة بانتين Panténe ، الذى تخرج فى مدرسة الرواقيين ، وكان أستاذاً لكلامنت الإسكندرى وأوريجين [٧١] .

ولما صار المسيحية أهمية كبيرة ، تغلغلت بعد سنوات قليلة فى نفوس الناس ، ولم تحفل بما تعرضت له من اضطهادات من قبل رجال الحكومة والفلاسفة ، بل ازداد الإقبال على اعتناق الديانة الجديدة ، وإدراك مفاهيمها ، برغم صعوبة فهمها ، مثل التثليث ، والتجسيد ، والبعث ، والحض على حياة الإخلاص والبذل والتضحية [٧٢] . وكان لابد من التخلص من أعداء المسيحية بداخل البلاد ، بعد أن عاشوا زمناً طويلا فى فجور الوثنية ومجونها . على أن التخلص من البدع ، وإظهار حقيقة الإيمان ، وتنظيم حكومة الكنيسة ، استغرق من الزمن مالا يقل عن ثلاثة قرون ، لم يكف أثناءها الكهنة والفلاسفة عن محاولة القضاء على العقيدة الجديدة (المسيحية) . ولما رأوا أن الإمبراطور قسطنطين ، انتصر للمسيحية واعتبرها مساوية للديانات الأخرى (مرسوم ميلان سنة ٣١٢) ، ثم اعتبرها الديانة الأساسية بالإمبراطورية ، بعد أن هزم ليسينوس ، وأنشأ القسطنطينية واتخذها عاصمة له ، أيقنوا عدم توفر حرية الجدل والنقاش ، بل جرى عكس ذلك ، إذ اتخذ ضدهم من وسائل الشدة ، ما سبق أن اتخذوها ضد خصومهم . ولم يترك لهم من الوسائل للهجوم على المسيحية سوى التعليم والدعوة

http://www.al-maktabeh.com

(التبشير) ، غير أنه فرض على هاتين الوسيلتين من القيود ، ما جردهما من كل نفع وفائدة[٧٣] .

ويعتبر انتصار المسيحية بداية فترة جديدة فى تاريخ مدرسة الإسكندرية ، وإذ استنفدت هذه المدرسة ما لديها من نظريات فلسفية فى مهاجمة المسيحية ، كان لزاما عليها أن تلتمس فى أسرار الديانة المسيحية وخوافيها ، أسلحة جديدة للنضال ضد المسيحية . ولم يكن المتحف وقتذاك مقرا لدراسات دينية ، فما اشتهر به من قديم الزمن من الكهنوتية ، وأنه موطن الأسرار ، لم يعد له أهمية ، بل إنه أخذ يختفى ويحل مكانه السيرابيوم الذى يعتبر منذ زمن طويل ، الموطن الأصلى للوثنية المصرية ، ثم أضحى مقر الوثنية اليونانية[٧٤] . وما أشار إليه أحد المؤرخين من أن الإمبراطور قنسطنطين جدد عمارة المتحف الذى خربه « كراكلا » ، لم يكن فيما يبدو ، رأيا سليما لأن كراكلا لم يدمر المتحف ولم ينهبه ، ولأنه ليس صحيحاً أن يقوم قنسطنطين بحماية مدرسة الإسكندرية الوثنية ، إذا كان شجع الدراسات بما وفره من السلام فى سائر الإمبراطورية ، وبما بذله من حماية دور التعليم العام[٧٥] .

ولما كان من المعروف أن المتحف ظل قائما فى نهاية القرن الرابع ، نظراً لوقوفنا على عدد من علمائه فى أثناء هذا القرن ، فإنه لم تجر الإشارة إليه إلا على أنه جمناز أو معبد كلوديوس(Claudium)، أومعبد أغسطس(Sebasteum) ، والراجح أن المتحف لم يندمج بأوقافه فى السيرابيوم إلا بعد زمن الإمبراطور ثيودوسيوس ، فأصبح كهنة السيرابيوم من رجال المتحف[٧٦] .

وإذا لم يكن هذا الاندماج قد وقع ، فالمعقول أن يتخذ المتحف من أساليب التحفظ ، مالا يتعارض مع المسيحيين أو الوثنيين ، وما تجيز لكل طائفة منهما ، أن تفعل فى حدود القانون ، ما لم تكن تفعله حتى وقتذاك إلا عن طريق الاستثناء ؛ كأن يجتمع المسيحيون والوثنيون سوياً فى مدرسة واحدة من أجل دروس

أمونيوس Ammonius[٧٧] . وهذا الوضع يفسر أولا انهيار المدرسة التبشيرية didascalée فى هذه الفترة ، ومن الطبيعى ألا يحدث هذا التداعى ، إلا بعد أن انتقلت الدراسة من المتحف إلى موضع آخر . ويفسر أيضاً ما أصاب هذا المتحف من التداعى والانهيار ، لأنه لم يؤد شيئاً ذا قيمة للمسيحيين والوثنيين سواء ، فضلا عن أنه يعطل الإيمان ، ويثير النزاع بين فئتين ، ارتبطت إحداهما ارتباطاً وثيقاً بالسيرابيوم الذى اشتهر وقتذاك بفلاسفته ، على حين أن الفئة الأخرى التفت فى كبرياء حول الكرسى الأسقفى ، الذى تولاه دائما بطاركة متحمسون[٧٨] .

ولعل أكثر ما أسهم فى تداعى المتحف وانهياره ، ما تعرض له من منافسة من مدارس بلاد اليونان وإيطاليا وآسيا الصغرى . فلما قامت مدارس أدريان ، هرع إليها الشبان المسيحيون والوثنيون ، وأصاب مدرسة أثينيه Athenée من التطور ماجعل منها أكاديمية كاملة ، أما مدارس أثينا ونيقوميدية وأنطاكية ، فأصبحت مراكز رئيسية للبلاغة والفلسفة ، كما اجتذبت مدرسة بيروت ، كل من أراد أن يدرس الفقه والقانون . يضاف إلى هذه المدارس الزاهرة ، مدرسة القسطنطينية التى تعتبر منافساً خطيراً ، والتى يدرس فيها كل العلوم ، بما فى ذلك الفلسفة[٧٩] .

وألحقت هذه المدارس القوية ، بمدرسة الإسكندرية من الأضرار التى فاقت فى شدتها ما حل بهذه المدرسة من الإهمال على يد أسرة فلافيال . وهذا الإهمال لم يلبث أن اشتد الإحساس به . ومن الدليل على ذلك ، أنه حينما قام القديس جريجورى ثاوماتيرج Thaumaturge بإلقاء دروسه ، حوالى منتصف القرن الثالث ، قدم إلى مدرسة الإسكندرية الكبيرة جميع الشبان الراغبين فى دراسة الفلسفة ، من سائر أنحاء الإمبراطورية . وحدث عكس ذلك ، فى أوائل القرن الرابع ، حينما أراد القديس جريجورى أسقف نيسا ، وأخوه القديس باسيل

وصديقهما القديس جورج نازيانس ، أن يبـدأوا دراساتهم ، زاروا قيصرية والإسكندرية ، فصادفوا بها المدارس المسيحية القديمة ، غير أنهم توقفوا فى أثينا وسط حشد كبير من الطلاب ، وأوقفونا على ما اشتهر به العالمان هيميريوس Hymerius ، و برورسيوس Proeresius ، من الصفات الطيبة[٨٠] .

أقام بأثينا ، القديس جريجورى ورفقاؤه مدة خمس سنوات ، وكان من زملائهم خصمهم العنيد جوليان . ولما اشتهر به جوليان من التعلق بالهلينية ، بسبب دراساته ، و بسبب ما اشتهرت به أسرته من الشدة والصرامة ، أدرك أهمية الإسكندرية . فعهد إلى أحد العلماء الملتفين حوله ، وهو الطبيب زينون القبرصى ، بأن يبعث المدارس الوثنية فى الإسكندرية . وكان من اليسير أن تؤدى هذه السفارة عملها ، نظراً لأن الطريق كان ممهداً أمامها ، ولإدراك زينون ما يجرى بالإسكندرية . على أن زينون غادر الإسكندرية ، دون أن يتحقق غرضه ، بسبب ما نشب بالإسكندرية من ثورة قام بها الوثنيون ضد جورج القبادوقى الأسقف الأريوسى ، الذى احتل كرسى القديس أثناسيوس ، فقتلوه وأعادوا للوثنية ما كان لها من مجد . ولم يشأ الإمبراطور جوليان أن ينزل بالمجرمين العقوبة ، بل بادر بالعفو عنهم ارضاء لعمه جوليان حاكمهم السابق . وكان لزاما على زينون أن يعيد للوثنيين ما كان لهم من تفوق وسيادة ، بإعادة إنشاء مدرسة الإسكندرية . غير أن العمل لم يكن سهلا ؛ فما كاد المقر الرسولى (البطريركية) يصير شاغراً ، حتى احتله من جديد القديس اثناسيوس . ولم يستطع الإمبراطور أن ينفى هذا الأسقف ، وتحول معظم السكان إلى المسيحية[٨١] .

ولما حرم زينون من حاميه القوى ، حرص على أن ينسى أمر سفارته ، واكتفى بأن شغل كرسى أستاذية الطب ، والتف حوله عدد من الطلاب . ومن أشهرهم ماجنوس Magnus ، وأوريباس Oribase ، وكان زينون يفخر بأنه أسهم فى تنشئتهما[٨٢] .

ولم يجن المتحف والمكتبة فائدة من سفارة زينون ؛ إذ أن جوليان لم يبذل شيئا فى سبيل هذين المعهدين ، بل طلب إلى زينون أن يرسل إليه مجموعة المخطوطات الرائعة ، التى كانت بحوزة الأسقف جورج القبادوقى الذى لقى مصرعه على يد الوثنيين . ومن مظاهر تعصب جوليان وكراهيته للإسكندرية ، أنه أقام تحت سقائف البلاط بالقسطنطينية ، مكتبة أخذت زمن خلفائه تنمو وتزخر بالكتب على حساب الإسكندرية(٨٣) .

على أن خلفاء جوليان ، لم يحفلوا إلا بما يجرى بالإسكندرية من المناقشات التى أثارها الأريوسيون ، ولم يشجعوا المؤسسات الوثنية ، بل أنهم أبدوا من الكراهية لها ، ما لم يبدوه للمؤسسات الغنوسية . فصدرت الأوامر بإغلاق كل المعابد والمدارس فى سائر الجهات .

أما السيرابيوم ، فإنه بفضل ما أولاه السكان من تقدير ، ظل باقيا حتى زمن تيودسيوس ، فلما اشتدت ثائرة الوثنيين لما قام به المسيحيون من أمور اعتبروها إهانة موجهة لهم ، مثل تحويل بعض المعابد إلى كنائس ، وتحطيم بعض التماثيل ، والسخرية بالكهنة الوثنيين ، عمدوا إلى مهاجمة المسيحيين ، وقتلوا عددا كبيرا منهم ، وحملوا جماعة منهم إلى السيرابيوم استخدموهم فى عمارة القلعة ، وأمروا بإعدام كل من يرفض تقديم القرابين إلى سيرابيس . وعندئذ أمر الإمبراطور تيودوسيوس سنة ٣٩١ بتدمير المعابد التى قاومت الحكومة البيزنطية فى مصر(٨٤) .

وتشير بعض الروايات إلى أن تدمير السيرابيوم كان شاملا ، بينما تذكر روايات أخرى ، أن ما اشتهر به البناء من المتانة والصلابة ، أدى إلى أن التخريب لم يمتد إلى قواعد المعبد وأسسه ، فلم تتطلب عمارته من جديد إلا إصلاحات بسيطة ، ولم يلبث الرهبان أن نزلوا به .

http://www.al-maktabeh.com

على أن التخريب الكامل لا بد أن يشمل كل توابع المعبد ، كالأروقة ، والسقائف والمساكن ، والمكتبة التى قامت منذ ستة قرون ، ونمت وتكاثرت كتبها على مر الزمن. والراجح أن التدمير لم يكن شاملا ، لأسباب منها أنه يكفى لتحقيق الغرض المنشود ، وهو التخلص من الآثار الوثنية ، تحطيم المشهد (المعبد). ومنها أن تدمير المبانى المشهورة بمتانتها وصلابتها ، لابد أن يستغرق زمنا طويلا. يضاف إلى ذلك ما أورده ، المؤرخ الوثنى ينابيوس Eunapius ، من خبر نزول الرهبان فى السيرابيوم ، مثلما حدث من قبل ، نزولهم بمشهد (بمعبد) كانوب الذى لم يكن إلا من ملحقات السيرابيوم . غير أن ماهو أرجح من ذلك ، ويؤيده الكتاب المسيحيون ، أن قامت كنيسة فى موضع معبد سيرابيس ، جرى تدشينها باسم القديس حنا المعمدان ، وذلك فى ٢٦ مايو سنة ٣٩٠ ، واشتهرت باسم كنيسة أركاديوس (٨٥) .

ذلك ما وقع للمعبد ، أما توابعه فلم تتعرض للدمار الكامل ، لأنها كانت عمائر ضخمة رائعة ، ولأنه انتقل إليها فى القرنين الخامس والسادس ، ما تبقى من منشئات الإسكندرية القديمة ، وبقايا المدرسة المسيحية ، وسائر المعاهد الوثنية . وترتب على اجتماع هذه المؤسسات ، أن زال من أذهان الناس بمضى الزمن سيرة المتحف وذكراه ، ونسوا أنه كان قائما فى موضع البروكيوم Bruchium ، وحدث الخلط بين السيرابيوم ، وبين الاكاديمية (المتحف) ، وبلغ هذا البناء الجديد ، من الفخامة ما جعله يضم عند الفتح العربى ، مكتبة ضخمة (٨٦) .

ومن الكتاب المعروفين الذين زاروا الإسكندرية ، عقب تخريب السيرابيوم ، كاتبان ، أحدهما وثنى ، وهو افتونيوس Aphthonius والآخر مسيحى وهو روفينوس Rufinus* . ويشير الأول إلى توابع السيرابيوم ، التى قامت

(*) افتونيوس الأنطاكى ، من تلاميذ لبانيوس Libanuis الذى يعتبر آخر رجال =

بجوانبه الداخلية ، وشملت قاعات ، وردهات (أروقة) ، منها ما استخدم مكتبة ، ومنها ما اتخذ حجرات للدروس ، فهرع إليها التلاميذ ، ومنها ماجرى اتخاذه لعبادة الآلهة القديمة . ويذكر روفينوس عن هذه التوابع أنها شملت حجرة للدراسة ، أو مخدعاً للقسيس أو مقرا للمتولين أمر المعبد ، أو للرهبان المتزهدين (٨٧) .

غير أن متحف بروكيوم Bruchium ، لم يتخذ هذا الأسم ابتداء من القرن الخامس . والواقع أن مدارس النحويين والنقاد والفلاسفة والأطباء ، بقيت إلى مابعد كارثة سنة ٣٩١ . ولم تكن هذه المدارس تابعة للكنيسة ، على الرغم من خضوعها لإدارة مسيحية من قبل الإمبراطور والمدينة . وظلت هذه المدارس تجرى على نحو ما كان سائداً من قبل من الأفكار ، وبقيت الوثنية فيما تجدد من حقائف السيرابيوم ، حيث تقع بعض المزارات والمشاهد الصغيرة . ولم يحدث اعتراض على سير الدراسات الوثنية بالإسكندرية ، وعلى تردد الطلبة الوثنيين والمسيحيين على هذه المدارس العامة.(٨٨) فكان ثيون Theon يلقى دروسه

= البلاغة من اليونانيين . عاش فى أواخر القرن الرابع ، وأوائل القرن الخامس . وصنف كتاباً ، عن التداريب الابتدائية Preparatory Exercises يعتبر من أسباب شهرته ، لأنه ذاع استخدامه فى العصور الوسطى بأوربا وفى العصر البيزنطى .

ويشير أفثونيوس إلى المكتبة ؛ غير أنه لم يذكر معبد سيرابيس ، الذى يعتبر من أجل وأفخم المبانى فى العالم ، باستثناء العاصمة روما . ويذكر أفثونيوس أن توابع المعبد ، جرى تشييدها فى جوانبه الداخلية ، لصق الأعمدة المقامة. ومنها ما استخدم للمكتبة ، ومنها ما تردد إليها الطلاب ، ومنها ما جرى اتخاذه لعبادة الآلهة الوثنية .

أما روفينوس ، فكان من المؤلفين فى أصول الدين ، ومن رجال العلم . ولد بأكويليا ، وقدم إلى الشرق حاجاً بصحبة ميلانيا Melania ، وهى سيدة رومانية شريفة ، مات زوجها ، واشتهرت برعايتها للكنيسة ، وكانت تارة تقيم بمصر ، وتارة بفلسطين . ورسمه سنة ٣٩٠ حنا أسقف بيت المقدس . واشتهر عيله الشديد إلى أوريجين ، فترجم كثيراً من مؤلفاته إلى اللغة اللاتينية ، فهيأ للغرب الفرصة للوقوف عليها . وكان من تلاميذ ديديموس Didymus رئيس المدرسة المسيحية بالإسكندرية ، وتتلمذ أيضاً على تيوفيل الذى صار أسقفاً على الإسكندرية . ويعتبر روفينوس ، شاهد العيان الوحيد ، لما حدث من تدمير معبد سيرابيس

(انظر Paarson : Op Cit. p. 369.

Matter: Op. Cit. I. p. 332.

فى الرياضة . أما هيباشيا (المتوفاة سنة ٤١٥) ، ابنة ثيون ، والتى تعتبر آخر علماء المتحف ، فقد ذاع صيتها فى الرياضة والفلسفة ، وفى فلسفة أفلاطون وأفلوطين . واشتهرت هيباشيا بالعلم والأخلاق الفاضلة ، وهرع إليها من سائر أنحاء العالم الطلاب الذين أحبوا أن يتلقوا عليها الفلسفة . وهيات لها مكانتها وطباعها وشهرتها من الأسباب ، ماجعلها وثيقة الصلة بسادة مدينة الإسكندرية . فصارت تتردد ، دون حرج أو خجل ، على مجالس الرجال ، الذين أعجبهم مااشتهرت به من الطهارة والعفة . وأثارت هيباشيابدراستها للفلسفة من الحماس ماجذب إليهاالشاب سينيزيوس Synesius ، فتعلق بها ، وصار لايفارقها حتى بعد أن اعتنق المسيحية وصار أسقفا .

على أن المسيحين أثارهم ما دأبت عليه هيباشيا من الظهور فى المجتمعات العامة ، وازدياد صلتها بحاكم الإسكندرية البيزنطى ، أورستس ، فضلا عن وثنيتها ، فهجم عليها العوام بالإسكندرية ، أثناء قيادتها لعجلتها أو عربتها وأنزلوها من العربة وجروها إلى الكنيسة المعروفة من قبل باسم القيصريوم Caesarium ، حيث لقيت مصرعها (٨٩) .

غير أن الفلاسفة الذين جاءوا من بعدها لم يثيروا السكان مثلما أثارت هيباشيا ، فظلوا يواصلون دراستهم طوال القرنين الخامس والسادس ، بفضل ما لجأوا إليه من إخفاء عداوتهم للمسيحيين (٩٠) .

على أن تعاقب هؤلاء الفلاسفة بمدرسة الإسكندرية ، لم يجر فى نظام واطراد مثلما حدث فى تعاقب فلاسفة أثينا المعاصرين لهم . ومع ذلك يصح أن يفوقوا أساتذة أثينا فى العلم والفلسفة . ولما أغلق جستنيان سنة ٥٢٩ مدرسة أثينا ، ليحصل على أموالها (*) ، أبقى على مدارس الإسكندرية ، غير أنه منع فلاسفة الإسكندرية

(*) الواقع أن مدرسة أثينا أخذت فى التداعى والانهيار ، بعد وفاة بروكلوس =

من مغادرة المدينة ، ليلحقوا بزملائهم أساتذة أثينا الذين ارتحلوا إلى فارس(٩١) .

والواقع أن الإسكندرية ، فى العصر البيزنطى ، ظلت تحافظ على ما كان لجامعتها من مجد غابر . وذاع فى أنحاء الإمبراطورية البيزنطية ، ما اشتهرت به الإسكندرية من المتاحف والمدارس ؛ فهرع إليها الطلاب من سائر أنحاء الشرق ، ولاسيما من فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى ، وصار الأساتذة ، الذين عرفوا باسم السفسطائيين ، يعلمون القانون والطب والعلوم الرياضية ، فضلا عن البلاغة والفلسفة . وانصرف فريق من الطلاب إلى دراسة ونقد النصوص القديمة التى لقيت اهتماما كبيرا فى الأوساط الهلينية فى مصر . وانحاز إلى هذه الجماعة فى القرن الخامس الميلادى ، من رجال النحو ، أمثال تيودوت الاسكندرى Theodote ، ومن رجال المعاجم ، أمثال أوريون Orior ، أو من الشراح أمثال هزيكيوس Hesychios ، أو هيلاديوس Helladios . أما الفريق الآخر ، فتولوا تدريس نظريات الأفلاطونية الحديثة ، ومن هذه الفئة هيباشيا التى ذاع صيتها فى العلم والجمال فى أوائل القرن الخامس (ماتت سنة ٤١٥) . ونال أرسطو من العناية والاهتمام

= Proclus سنة ٤٨٥ ، الذى يعتبر من أشهر أساتذتها المتأخرين . وعلى الرغم من أن خلفاءه اشتهروا بالحماس ، غير أنهم كانوا أقل منه حظاً فى العلم ، فضلا عن أن معظمهم كانوا أجانب ، جاءوا إلى أثينا من سوريا وليديا وفينيقيا ، وازداد اهتمامهم بفقه اللغة والقانون والطب ، وتضاءل شأن الفلسفة ، واكتفى هؤلاء العلماء بأن يشتغلوا بالترجمة والشروح . يضاف إلى ذلك أن تحول إلى المسيحية ، أولئك الذين كانوا يبذلون أموالهم لمدرسة أثينا . وما حدث من منافسة مدرسة القسطنطينية والإسكندرية ، أدى إلى تضاؤل عدد تلاميذ مدرسة أثينا . وتعلقت مدرسة أثينا بالتقاليد الوثنية ، ورفض أساتذتها أن يسيروا على نهج زملائهم بمدرسة الإسكندرية ، الذين قصروا تعاليمهم على الدراسات الفلسفية الخالصة ، ولم يتعرضوا لكل ما يتعلق بالديانة . وحدث فى سنة ٥٢٩ أن تقرر إغلاق مدرسة الحقوق بأثينا . ثم توالى إصدار القرارات التى أدت آخر الأمر إلى إغلاق جامعة أثينا . وفى سنة ٥٢٩ أيضاً أمر الإمبراطور بمنع تدريس الفلسفة وطرد الأساتذة ومصادرة كل ما يعيشون عليه من المنح والأوقاف .

(٩١) انظر : Diehl : Justinien et la Civilisation Byzantine, au VI siecle, Paris 1901. pp. 562—564.
Simon : Histoire de l'Ecole d'Alexandrie, II, p. 604—605.

ما حظى به أفلاطون . وتضمنت كتابات حنافيلوبونوس واسطفان الفيلسوف ، مايشيد بمدرسة الإسكندرية فى القرن السادس الميلادى (٩٢) .

ونستخلص من وثيقة ترجع إلى القرن الخامس الميلادى ، وهى عبارة عن كتاب، عن حياة سفيروس Sèvere ، ألفه الفيلسوف المدرسى زكريا ، ما كانت عليه وقتذاك جامعة الإسكندرية ، بعد أن وصفها شاهد عيان.(٩٣) أما الأساتذة الأعلام ، ومنهم هيرايسكوس Heraiskos، وهورابوللون Horapollon ، فإنهم أثاروا فى الطلاب حماسا شديداً ، فقويت المنافسة بين الطلاب من الوثنيين والمسيحيين ، واحتدم النقاش فى كل مايتعلق بالأمور الدينية . إذ أن عدداً كبيراً من الأساتذة لا زالوا وثنيين ، على أن ذلك لم يمنع الطلاب المسيحيين من تلقى الدروس عليهم ، برغم ما اتهم به بعض الأساتذة من التعصب . ومع ذلك كان للأساتذة نفوذ كبير فى المدينة . وانتمى هؤلاء الأساتذة إلى أسرات عريقة ، وبذا تألف منهم حزب ، صار فى وسعه أن يثير الاضطراب بالاسكندرية متى سنحت الفرصة ، وأن يشترك صراحة فى الصراع السياسى والدينى . وفى ذلك دليل على ما تكنه هذه المدينة مقر البطريركية من الاحترام الشديد ، لهؤلاء الفلاسفة الوثنيين ، بفضل علمهم ، وعلى ما كان لهؤلاء الفلاسفة من مكانة (٩٤) .

وإلى جانب هؤلاء الهلينيين ، وهذا هو الاسم الذى اشتهر به الوثنيون وقتذاك ، اشتهرت جماعة من العلماء المسيحيين ، لاسيما حينما اضطهد الإمبراطور زينون ، أواخر القرن الخامس ، الأساتذة الوثنيين بجامعة الإسكندرية . ومثال ذلك حنافيلوبونس Philoponos « أى المحب للعمل » ؛ وهو من أفذاذ علماء الإسكندرية ، حوالى سنة ٥٦٨ ، اشتهر بثقافته الواسعة واشتغل بالفلسفة والنحو واللاهوت ، وشغف بأرسطو ، ويعتبر من شراحه . وقام فيلوبونس بشرح الايساغوجى الذى ألفه بورفيريوس الصورى ، وله تعليقات على

تدريس علم المنطق ، وفلسفة أرسطو ، وله تصانيف فى قواعد اللغة اليونانية والعلوم الرياضية وعلى الرغم من مسيحيته ، اشتهر بالتفكير الحر والاستدلال المنطقى .

وحاول فى رسائله الميتافيزيقية ، عن خلق العالم Creation du Monde ، وعن خلود العالم L' Eternité du Monde ، أن يوفق بين آراء أرسطو ، و بين الكتب والعقائد المسيحية . وهاجم فى كتابته الوثنيين وفلاسفة الأفلاطونية الحديثة ، والأرثوذكس ، وذلك لأنه نشأ على آراء المونوفيزتيين ، والدليل على ذلك أنه صنف ، بناء على طلب سفيروس أسقف أنطاكية ، رسالة عن التحكيم أو الحكم Diaitetes[٩٥] . و بفضل ذلك كله، صار لهذا الرجل الحاد الذكاء ، مكانة مرموقة فى جامعة الإسكندرية . فلما انزلق إلى البدعة، حين ألف فى الدفاع عن نظرية الثالوث Tritheiste سنة ٥٦٣ ، رسالته المشهورة التى حاول فيها أن يطابق طرق الفلسفة القديمة ، على مسألة دينية ، أثار بذلك فى الإسكندرية دهشة غريبة[٩٩]* .

أما كتابه عن البعث Resurrection ، الذى ألفه سنة ٥٧٠ ، فإنه أحدث من الإثارة والدهشة ما أحدثه كتابه السابق (الحكم) ، فأضحت الإسكندرية فترة من الزمن ، موطنا للنحلة الجديدة ، نحلة الثالوث. فلما تولى داميان كرسى بطريركية الإسكندرية سنة ٥٧٨ ، وجه كل اهتمامه إلى نقض أخطاء فيلوبونس ، على أنه لم يستطع أن يقضى على البدعة إلا بعد عناء[١٠٠] .

ولم يكن الفيلسوف اسطفان المسيحى ، بأقل من زميله (حنا فيلو بونس) إثارة للاضطراب بالإسكندرية ، أواخر القرن السادس . إذ أنه درس أيضاً

---

(٩٩)* التعاليم الإلحادية عن التثليث ، تنكر اتحاد الأقانيم الثلاثة ، وهذا الاسم جرى إطلاقه بصفة خاصة على تعاليم فئة من المونوفيزتيين فى القرن السادس ، وأشهرهم حنا فيلوبونس الأنطاكى ، شارح أرسطو ، الذى اعتبر أن الأقانيم الثلاثة ، التى يتألف منها نظرية التثليث ، ليست إلا ثلاثة آلهة . على أن هذه النظرية لم تتخذ طابعاً عملياً . ولم يتخل فيلوبونس عن مسيحيته .

(انظر : Cross : Dictionary of Christian Church. Art. Tritheism.)

http://www.al-maktabeh.com

أرسطو وشرحه ، مثلما فعل فيلوبونس. وحاول فيما يبدو أن يثبت عن طريق الفلسفة، ضعف العقيدة المونوفيزتية(*) . ومن الطبيعى أن ينكر ذلك أهل الإسكندرية ، واشتد البطريرك فى تحذير اسطفان الذى لم يكف عن تعاليمه ، ولم يلبث اسطفان أن تحول آخر الأمر إلى المذهب الخلقدونى ، ثم غادر الإسكندرية(١٠١) .

ونستخلص من ذلك كله ، أن النشاط الفكرى الغزير، استمر بالإسكندرية فى القرن السادس الميلادى . ولو تتبعنا الحركة الأدبية فى مصر فى القرنين الخامس والسادس ، لانتهينا إلى نفس النتائج . وسبق الإشارة إلى حركة الشعر فى القرن الخامس الميلادى والتى يعتبر نونوس Nonnus خير ممثل لها ، وإلى المدرسة التى قامت حوله فى بانوبوليس أخميم(١٠٢)** .

اشتهر المصريون ، بشهادة ايناب Eunape ، بولعهم بالشعر ، ومن أجل ذلك ، لم يحفلوا بالكتب الرزينة المتزنة . وشغف المصريون أيضاً بالآداب الرومانتيكية (العاطفية) ، كما يدل على ذلك كتابات أخيل تاتيوس Achille Tatios وموزيه Musée . والملحوظ أن أكثر هؤلاء الكتاب ، سواء كانوا وثنيين أو مسيحيين لم يكونوا ، شأنهم شأن أساتذة الجامعة بالإسكندرية ، متحمسين لعقيدتهم ، وكانوا دائماً موضع ريبة وشك . ذلك أن أرباب الثقافة

(*) اشتهر اسطفان بدعواه أنه ليس ثمة تفرقة بين مافى المسيح من طبيعتين إلهية وبشرية بعد اتحادهما فى طبيعة واحدة . وانبرى لمعارضته بطرس بطريرك أنطاكية .
(Hardy : Christian Egypt p. 162 : انظر)

(**) نونوس Nonnos ، شاعر من أخميم (بانوبوليس) ، عاش فى القرن الخامس الميلادى ، وهو من شعراء الملاحم . وملحمته المعروفة باسم ديونيسياكا Dionysiaca ، انطوت على كل ما وقف عليه من الأساطير اليونانية . وامتاز شعره على شعر من سبقه من الشعراء ، بدقة أوزانه . ووصف فى هذه الملحمة رحلة الإله ديونيسوس إلى الهند .
(Nonnos : Dionysiaca, ed- H. J. Rosel Loeb. 1950. : انظر
Vol. I. p. VII.

بل، ايدريس : مصر، من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ترجمة الدكتورين عبد اللطيف أحمد على ، ومحمد عواد حسين — القاهرة ١٩٥٤ ص ٢٥٠ حاشية ٣ .

فى الإسكندرية البيزنطية ، ظلوا يقدسون الماضى ، يضاف إلى ذلك أن ما اشتهر به السكان الأصليون ، الذين يعتبرون من أخلص أشياع المسيحية وأنصارها ، من الركود الفكرى جعل الصفوة المفكرة تزداد تعلقاً بتقاليد الحضارة الهلينية وأمجادها(١٠٣) . على أن الحضارة الهلينية أخذت تقترب من نهايتها فى القرن السادس الميلادى . ومع ذلك فإن ما ورد من البرديات من انتينوبوليس ، وغيرها من الأماكن ، تدل على ذيوع الأدبين اليونانى والرومانى ؛ إذ صار فى متناول القراء فى القرن السادس ، مؤلفات عديدة لم تصل إلينا ، ومن الملحوظ أن جرى وقتذاك فى طيبة الاهتمام بدراسة الشاعر يوفينال ، والتعليق على أشعاره برغم عسرها وصعوبتها . وتشير برديات أفروديتو إلى رجل ، من تلك القرية كان موثقا للعقود ، شغف بالشعر اليونانى ، وكان يقرض الشعر ، غير أن شعره كان رديئاً ، وقرأ هوميروس ، وقصائد أناكريون وأشعار نونوس ، وصنف معجما يونانيا قبطيا ، يدل على إلمامه بالأدب الكلاسيكى ، واقتنى مخطوطات لروايات ميناندر ، ومخطوطة لمسرحية ديموى Demoi التى نظمها يوبوليس Euopoles ، وهو شاعر من شعراء الكوميديا القديمة . وهذه الدراسات التى اهتم بها أحد أعيان قرية فى طيبة ، تدل على ما كان للثقافة الهلينية من أهمية وذيوع فى العواصم الكبيرة(١٠٤) .

الفنون :

وكان الأمر على هذا النحو فى الفن . فالمعروف أن المهندسين ، استخدموا منذ زمن مبكر ما صادفوه فى آشور وفارس من أساليب بالغة الجمال ، كما أرضوا ما اشتهر به ملوك البطالمة والسلوقيين من الميل إلى الأبهة والعظمة . فجدران العمائر المشيدة من اللبن ، كسوها بطبقة من الصفائح المعدنية ، ومن الرخام الثمين ، والعاج ، والزجاج ، والكلس ، والفسيفساء ، وبأستار من النسيج المزركش . وبذا اختفى الجدار البسيط وراء هذا الغطاء السميك القيم . فاختص بلاط الإسكندرية بهذه النقوش والزخارف المؤلفة من اختلاط عناصر متباينة . وتوفر بالبلاد من المواد

الثمينة والصناعات الفنية ، ما جرى الإفادة منها فى هذه الزخارف . ويعتبر معبد السيرابيوم من أجمل نماذج هذه الزخرفة ، المتعددة الألوان(١٠٥). يضاف إلى ذلك أن الإسكندرانيين حرصوا على أن يزداد لمعان كسوة الجدار أو الحائط ، فاتخذوا النقوش والصور البارزة ، وعملوا على تثبيتها فى إطار الحائط ، على نحو جعلها تبدو كأنها صورة حية . ونقلت روما عن الفن الاسكندرى هـذا النوع من الزخرفة ، كما يتضح ذلك فى جدران مدينة بومبى . ونقل ذلك البيزنطيون أيضاً ، فجرت زخرفة قصورهم وكنائسهم بالرخام والفسيفساء والصفائح المعدنية(١٠٦)* .

ومن أهم خصائص الفن الاسكندرى ، أنه فن زخرفى ؛ ففى كل عناصره ، كالنقوش والصور البارزة ، حرص على أن يلتمس أمرين أساسيين : دقة التفاصيل ، والواقعية فى التصوير . فالمعروف أن الإسكندرية كانت مدينة اللهو والمرح والسرور والحب . ولذا أحبت أن تجد فى الفن من العناصر الزخرفية مايشبع أذواقها ، كأن يجرى تصوير المحبين العاشقين ، وهما يتلاعبان ، و يقطفان عناقيد العنب ، و يحصدان الزرع ، وكأن ترسم المناظر الجميلة الخلابة ، التى يدور موضوعها حول

---

(١٠٦)* الواقع أن الفن البيزنطى ، إنما نشأ نتيجة لانصهار الأسلوب الكلاسيكى مع الأسلوب الشرقى . على أن هذا الامتزاج لم يتم دفعة واحدة فى كل أجزاء الأمبراطورية . إذ تم فى بعض الجهات فى القرنين الرابع والخامس الميلادى ، وفى بعض الجهات حدث فى القرنين السادس والسابع الميلادى ، ولاشك أن المسيحية تعتبر من العوامل الأساسية التى ساعدت على هذا الامتزاج . وتعتبر الفترة الممتدة من القرن الرابع إلى القرن السادس ، فترة إعداد وتمهيد ، للمرحلة التالية فى تطور الفن البيزنطى ؛ وهى الممتدة من القرن السادس إلى القرن الثامن ، التى اكتمل فيها للفن شخصيته . إذا أصبحت القسطنطينية مركزا للحضارة والعلم . ونشطت تجارة بيزنطة ، وارتبطت بعلاقات تجارية مع الهند والصين . وتوافر لبيزنطة من الرخاء ، ما انعكس أثره فى كثرة العمائر والمبانى بالقسطنطينية . على أن ظهور الإسلام وقيام الدولة الإسلامية ، واتساع أملاكها على حساب الدولة البيزنطية ؛ كان له أثر فى تحريم عبادة الصور ، وازالة صور المسيح والعذراء والقديسين من الأماكن العامة .

وترتب على اتخاذ القسطنطينية عاصمة للدولة البيزنطية ؛ واتصالها بالدولة الفارسية أن اختلط الفن الشرقى بالفن الهلينستى الذى كانت تمثله الاسكندرية .

انظر Diehl : Manuel d'Art Byzantin, I, p. 67.
Rice, Telbot : Byzsntine Art, p. 107.

المرأة والحب . ونظراً لما اشتهرت به الإسكندرية من رقة الإيمان وضعفه ، ولم تخش الآلهة ، أحبت فى الميثولوجيا القديمة ، جوانبها اللاذعة ، وشغفت بالرسوم بالصور الساخرة (الكاريكاتورية) أمثال صور سيلنكس Siléncs ، وساتيرس Satyres ، وبذا أضفت على الأدب الكلاسيكى صفة إنسانية . ووجدت المتعة فى أن تنقل فى صورة رومانسية ما كان معروفاً فى الزمن الغابر من أساطير المآسى الرائعة (١٠٧) .

ولم تختلف الإسكندرية عن سائر المجتمعات المتحضرة المهذبة ، بما تعلقت به من أذواق شاعرية ، فأحبت الطبيعة ، والأزهار والحدائق ، والحقول ، والطبيعة الصامتة . وشغف أهل الإسكندرية أيضاً بصور الحياة السائدة ، برغم ماغلب عليها من الصفة الكاريكاتورية ، نظراً لأنها تتفق مع ما اشتهر به أهل المدينة من الميل إلى المرح وسرعة الخاطر ، والفكاهة الساخرة (١٠٨) .

التصوير :

لقد كان فن التصوير عند المسيحيين الشرقيين هو فن الكنيسة ، الذى بدأ فى القرن الرابع ؛ لأنه لم يكن للمسيحية قبل هذا التاريخ فن قائم بذاته . أما من الناحية الفنية ، فإن هذا الفن الذى نشأ فى خدمة الكنيسة ، أخذ قوامه المادى من الفن الهلينستى . ومن أحسن الأمثلة لذلك، تلك الصور التى وجدت بمقابر الإسكندرية فى القرن الرابع وهى تشبه تلك التى وجدت بمقابر روما .

ولم يلبث هذا الفن الذى احتلت فيه مدينة الإسكندرية مركز الصدارة ، أن ذاع فى العالم القديم ، وانتقلت مؤثراته إلى الفن المسيحى . فقبلت الكنيسة عن طيب خاطر أن تزين مشاهدها وأضرحتها ، بما ابتدعته الإسكندرية من وحدات زخرفية جذابة ، وظلت متعلقة بها . إذ كانت العمائر الدينية فى القرنين الرابع

http://www.al-maktabeh.com

والخامس ، حافلة بصور الفسيفساء التى تحتوى على الرسوم الدنيوية ، كالطيور والأزهار ، ومناظر الصيد والقنص ، والمناظر الواقعة على ضفتى نهر النيل . أما الزخارف المعمارية فهى تشبه إلى حد كبير ما كان معروفا فى بومبى من الزخارف الجصية[١٠٩] .

وما يصادفه الإنسان من صور الأساقفة والرهبان ، وصور القديسين ، على فسيفساء القرنين الخامس والسادس ، أو على الأيقونات التى ترجع إلى زمن سابق لهذين القرنين ، إنما جرت معالجتها على النحو الذى عولجت به الصورة المصرية[١١٠] .

وظل الأثر الهلينى الخالص ، الذى نشأ بالإسكندرية ، بالغ القوة أيضاً فى العصر المسيحى ، ويتضح ذلك فى مصر ذاتها ، فى الزخارف الجصية ، التى تزين الكنائس ، فى مقابر البجوات بصحراء ليبيا (فى القرنين الرابع والخامس) ، ومقابر بويط (القرن السادس)[١١١] . وما جرى العثور عليه بالفيوم من صور مصرية ، تنبض بالحياة والتعبير ، وقد ظهر الأثر الهلينى فى توضيح تفاصيل الوجه وإظهار تعبيره . وهذا الأثر والتقليد انتقل أيضاً إلى الفن المسيحى . وكشف اينالوف Ainalof ، عن الخصائص البارزه للصور المصرية ، وتفاصيل القيام بها ، كما يظهر ذلك فى صور الأيقونات المكتشفة فى سيناء ، وفى فسيفساء راڤنا وسيينا (فى القرن الرابع والخامس)، التى تمثلت فى سلسلة من القلائد (المعينات) التى تحمل صور الأساقفة والرهبان ، وفى القوارير المحفوظة فى متحف بريشيا ، التى يزينها صور الحياة الواقعية . إذ أنها كلها تمثل أغراضاً دنيوية ؛ بما تعرضه من صور الطيور والأزهار[١١٢] .

ومن الدليل على ذلك أن قبة إحدى الكنائس ، فى مقابر البجوات ، ازدانت برسوم للسراديب ، التى تناثرت دون نظام ، على أرضية بيضاء ، وتخللها

صور لأغصان وقفت عليها الطيور[١١٣] . أما رسوم الجدران والحنية ، فكانت زخرفية بحتة . وما تحلت به قبة كنيسة أخرى ، بنفس المقابر ، من صور رمزية تمثل السلام والعدالة ، والدعاء ، والإيمان ، والأمل ، والكنيسة ، والصبر ، تدل أيضاً على تأثير الروح الهلينية[١١٤] .

ويتضح هذا الأثر أيضا فى بعض الصور الجميلة ، التى احتفظت بالطلاوة الهلينية الخالصة ، كالتى نشاهدها فى صورة القديس فويبامون فى هيئة فارس ، بكنيسة بويط ، وصورة الملائكة فى الجزء العلوى من عقد الحنية[١١٥] .

وهذا الأثر الهلينى لا زال باقيا فى بعض المخطوطات الجميلة ، مثل الكتاب المعروف بالطبوغرافيا المسيحية ، الذى ألفه كوزماس ، رحالة الهند Indicopleustes الذى سبق الإشارة إليه ، والذى جرى على وجه التحقيق زخرفته بالصور والرسوم فى مصر فى القرن السادس الميلادى . ومثل الدرج (الدبتيخن) المعروف المنسوب إلى جوزيه Josué ، والذى يعتبر من روائع الفن الاسكندرى ، ويرجع أيضاً إلى نفس الزمن[١١٦] . والواضح أن تصوير المخطوطات كان يعتبر فناً من الفنون الشائعة فى مصر . والراجح أن هذا الفن ، خلق فى الإسكندرية المسيحية ، مهنة تصوير بعض الكتب المسيحية الهامـــة . فالصور الدقيقة التى يزدان بها كتاب المزامير المحفوظ بالمكتبة الأهلية فى باريس ، إنما تدل على أن تصوير مزامير دواد حدث بالإسكندرية ، فما انطوت عليه المخطوطة من مناظر العشق ، والرموز ، والعمائر ، والألوان البراقة الزاهية ، يجعلها تحمل طابعا شديد المطابقة لروح الفن الاسكندرى . وصور بالإسكندرية الإنجيل مثلما صورت المزامير .[١١٨]

ويقابل هذه المؤلفات المسيحية التى تأثرت بالمدنية الهلينية ، ما عثر عليه بمصر

حديثا، من مخطوطة مصورة بالغة الأهمية، وهى عبارة عن تاريخ يونانى مكتوب على البردى، اقترن به صور أصابها شىء من التلف والفساد، والراجح أنه صار تصويرها فى مصر العليا فى أوائل القرن الخامس [١١٩]. فإذا جرت المقارنة بين مخطوطة كوزماس، وبين هـذه المخطوطة، التى لاشك فى وجود رابطة بينهما، تبين فى سهولة ويسر، أن مخطوطة كوزماس، تاصلت فيها الروح الهلنستية، على حين أن مخطوطة التاريخ امتازت بالصبغة القبطية (المصرية). ومن الواضح أن الفنان الذى قام بتزيينها وتحليتها بالصور، إنما ينتمى إلى هـذه الفئة من السكان الوطنيين، التى لم تحتفظ إلا بقشرة رقيقة من الهلينية، وأثارت فيها المسيحيه الروح القومية [١٢٠]. ولذا يحسن تحديد وتعيين صفة هذا الرسم، فنلحظ فيه مثلما نلحظ فى صور ديوسكوريد Dioscride (المحفوظة فى ڤينا) ما كان من الامتزاج بين المؤثرات الهلينية والمؤثرات الشرقية. على أن الحلية والزخرفة لم تحتل حيزا كبيرا، نظرا لأن سوريا لم تدخل فى مصر شيئا من أسلوبها الزخرفى الشرقى الفخم، إلا فى زمن متأخر [١٢١]. ولذا فإن صور مخطوطة التاريخ لم تمثل إلا أشخاصا، ويعتبر ذلك من الخصائص الهلنستية الهامة. على أن الهلنستية فى أسلوب هذه الصور، واتجاهها، أصابها تغيير كبير نتيجة الاتصال بالفن المصرى الوطنى. فإلى جانب الصور الرمزية التى احتفظت بقدر من الجمال اليونانى، كانت العذراء وسائر النساء، اللائى جرى رسمهن فى هيئة المتوسلات، قد اتخذن طابعاً محليا فى القامة، والملابس، والوضع. وإلى جانب صور الأشخاص كالتى لأحد الملائكة، والتى تعتبر أصلا هلينستية، صور أناس آخرين اتخذت أسلوبا سامياً [١٢٢]. على أن معظم الأشخاص لم يجر، عند رسمهم، مراعاة الحركة والحياة، بل صار رسمهم، على نحو أسلوب التماثيل، وقد أصطفوا وكأنهم أيقونات مقدسة جامدة [١٢٣]. وهذه الاتجاهات ذاتها فى الرسم والصورة التاريخية،

ظهرت أيضاً فى الصور والرسوم ، التى تمثل تدمير معبد السيرابيوم ، وتمثل أيضاً البطريرك تيوفيل واقفاً على أطلال المعبد الوثنى [١٢٤].

والواقع أنه ليس لهذه المخطوطة من الناحية الفنية إلا قيمة ضئيلة ، وكل ما لها من أهمية ، أنها ترجع إلى مانستخلصه منها ، عن التطور الذى حدث بمصر بعد انتصار المسيحية . فنى مقابل ما امتاز به الفن الاسكندرى من الرقة الجذابة ، والأناقة ، والخيال الحر الطليق ، وما حدث من رد فعل ضد الهلينية ، منذ القرن الرابع ، وأثناء القرن الخامس ، ترعرع فن وطنى ، بما تأصل فيه من المؤثرات الشرقية ، وجمّد كل ما انطوى عليه من أساليب يونانية ، وجعل منها اتجاهات جافة صلبة . وتخلى هذا الفن القوى فى نفس الوقت عن الزخرفة الجذابة الشيقة ، التى تعلق بها الاسكندريون ، ونزع إلى اتخاذ أسلوب التماثيل . وتأثرت بيزنطة بهذين الاتجاهين المتعارضين ، الاتجاه الهلينستى ، والاتجاه الوطنى ، اللذين عاشا بمصر جنبا إلى جنب ، غير أن الاتجاه الأول ، وهو الهلينستى ، لم يلبث أن تخلى عن مكانه للاتجاه الآخر ، وهو الأقوى . على أن بيزنطة نقلت عن الفن الاسكندرى وحاكته فى كل ما يتعلق بالصور الدينية ، وصور المخطوطات [١٢٥] . فالديوسكوريد المحفوظة بفينا برغم تصويرها فى بيزنطة ، والنيكاندور Nicandre ، المحفوظة فى باريس ، ليسا إلا صورة لما اشتهرت به الاسكندرية من فن مبتكر ، ومن الدليل على ذلك ، ماخلدتها به من الصور الرمزية ، والمواقف الميثولوجية ، ومناظر الحقول والنباتات والحيوانات، التى يهواها أساتذة الفن الاسكندرى [١٢٦].

النحت :

وما تفرق من التحف ، فى نحو عشرين متحفا ، إنما يشهد بما كان للعاصمة المصرية (الإسكندرية) من نشاط فنى ، بين القرنين الرابع والسادس . فمنذ زمن

مبكر ، جرى استخدام الحجر السماقى ، الذى يستخرج بصفة خاصة من محاجر سيين . والمعروف أن الإسكندرية صنعت التوابيت الرائعة ، التى ترجع إلى القرن الرابع ، والمحفوظة بالفاتيكان ، وكذا تابوت القديسة كونستانس ، والتابوت المنسوب للقديسة هيلانه ، وتشهد رسوم هذه التوابيت التى تتكون من أكاليل الأزهار ، ومن أطفال عراة يرقصون بين أغصان أشجار الكروم ؛ بتأثر فن النحت بالفن الهلينى (١٢٧). وتشهد بذلك أيضا الأدوات المصنوعة من العاج ، التى كان لها سوق الإسكندرية أهمية تجارية . فكثير من الأعمال الفنية ، المصنوعة من العاج ، تعتبر من خيرة الأساليب الهلينستية ، لاسيما تلك اللوحات المصنوعة من العاج والعظام ، التى جرى العثور عليها فى مقابر الإسكندرية ، والتى احتفظت حتى القرنين الرابع والخامس ، فى رونقها وجمالها ، بما اشتهر به الفن السكندرى من الأساليب والأشكال (١٢٨)* . ومنها الصور الرائعة المحفورة على الكرسى المحفوظ بكنيسة اكس لاشابل ، والتى تمثل صور عرائس البحر (حوريات) Néréides ، وباخوس ، بين أغصان الكروم ، وصور الفرسان (١٢٩)** . ومنها التحفة العاجية المعروفة بتحفة بربرينى Barberini ، المحفوظة بمتحف اللوفر (باريس) ، والتى تمثل فيها قسطنطين حامى المسيحية ، فى هيئة الفارس المنتصر ، وهى الهيئة التى يحبها المصريون . وأروع ما أنتجه هذا الفن ، من التحف ، تلك

---

(١٢٨)* أدرك الأستاذ سترزيجوسكى ما فى هذه التحف العاجية من أثر للروح الوطنية ، على الرغم من وجود البواعث والمؤثرات الهلينستية ، وهى بذلك تخالف التحف السكندرية الخالصة . وأظهر فى براعة ، أن فى مجموعة من التحف القبطية من الصفات ، ما يتفق مع خصائص الصور المحفورة فى قرص الكرسى المحفوظ بكنيسة اكس لاشابل . وما حدث من تغيير الأساليب والأشكال وفقاً للمزاج الوطنى ، يدل على ازدياد تفوق الأثر المصرى ، وتضاؤل التقليد الإسكندرى .

(انظر : Diehl : Manuel d'Art Byzantin, I. p. 81.

(١٢٩)** عرائس البحر (حوريات) Néréides ، عددهن خمسون ، ولكن يمثلن على شكل فتيات عرايا جميلات ، يركبن أحياناً حيوانات بحرية ، ويمسكن بأيديهن عصابات الزهر .
(انظر : سعاد ماهر وحشمت مسيحة : منسوجات المتحف القبطى ، ص ٦١) .

اللوحة الرائعة ، فى مجموعة تريفولك Trivulce ، التى تمثل صورة العساكر ، يغطون فى نومهم قرب القبر المقدس ، والقديسات عند المقبرة ، وتعتبر من أروع الأعمال الفنية السكندرية التى ترجع إلى القرن الرابع (١٣٠) ، وكذا قطعة الدبتيخن المحفوظة بالمتحف البريطانى ، والتى يرجع تاريخها إلى القرن السادس ، وتمثل أحد الملائكة (١٣١) .

وماتبقى من هذا الأسلوب الكلاسيكى ، نلمسه أيضاً فى آثار أخرى ، مصدرها فيما يبدو ، الإسكندرية أيضا . مثال ذلك الصندوق الصغير Pyxid ، المحفوظ بمتحف برلين ، والذى حفر عليه صورة فداء ابراهيم ، ويتجلى فيه الأثر الهلينستى (١٣٢) .

على أننا نلمس فى النحت على العاج ، المصنوع فى مصر ، ما كان من نزوع نحو الأسلوب التقليدى المتعلق بالتماثيل ؛ وأكثر ما يتضح ذلك فيما هو محفور على قطعة العاج المحفوظة فى متحف اللوفر ، من رسم يمثل القديس مرقس ، بين خلفائه من البطاركة ، وما كان من ازدياد تغلغل المؤثرات الشرقية ، فى الفن السكندرى ، إلى جانب المؤثرات الهلينستية (١٣٣) . وأقدم هذه المؤاثرت ، إنما جاء من داخل مصر ، أما أحدثها فجاء من سوريا ؛ ويتضح ذلك فى هذه اللوحات من العظام ، المحفوظة بمتحفى القاهرة واللوفر ، التى جرى حفرها وزخرفتها بالألوان ، وبذلك حلت الزخرفة المتعددة الألوان ، مكان الزخرفة المحفورة (١٣٤) .

المنسوجات

ونلحظ نفس الروح والأسلوب فى الثياب المنسوجة أو المطرزة ، وفى المنسوجات الصوفية والحريرية ، وفى الأقمشة المصبوغة المستخدمة لزخرفة الكنائس . وماجرى اكتشافه فى اخميم وانتينوى (شيخ عباده) من منسوجات ، إنما شملت مئات القطع ، التى يدل أسلوبها الشائق وزخارفها المتباينة ، على ما ارتبط بالفن السكندرى من أغراض (١٣٥) .

http://www.al-maktabeh.com

والواضح أن الأقمشة كان لها أهمية خاصة فى الفن البيزنطى . فنظرا لسهولة نقلها من مكان إلى آخر ، فاقت غيرها من الوسائل ، بما نشرته فى العالم من موضوعات الشرق وأساليبه . فأوقفت الناس على أعمال المصريين ، وأسهمت ، مع صور المخطوطات ، فى رسوخ فن الأيقونات المسيحية (١٣٦) .

والمعروف أن مصر اشتهرت من قديم الزمن بمنسوجاتها التاريخية ، وأشار بلينى الصغير ، إلى ما كان يصنع بمصر من المنسوجات الرفيعة المصبوغة ، التى كان يرسم على أرضيتها صور الأشخاص . وأنتجت المصانع المصرية ، إلى جانب هذه المنسوجات الرفيعة الملونة ، فُرُشاً من الكتان أو الحرير ، إزدانت غالبا بالألوان ، وجرى اتخاذها إما ملابس أو ستائر أو بسطاً . يضاف إلى ذلك منسوجات مصورة كالتى صنعت فى خلقيدونيه ، والتى تمثل فيها صورة القديس ايفيمى Euphemie (١٣٧) .

وفى السنوات الأخيرة تم اكتشاف عدد كبير من المنسوجات المصرية فى بانو بوليس (اخميم) ، التى أشار استرابون إلى مصانعها ، وفى انتينوى (شيخ عباده) ، التى استطاع جاييه Gayet أن يؤلف من هذه المنسوجات ، طائفة كبيرة من الأساليب والأنماط المختلفة ، فما إزدانت به هذه المنسوجات من زخارف ، كانت بالغة التباين والاختلاف (١٣٨) . على أن الزخرفة التى اجتمع فيها المؤثرات الهلينية والشرقية ، اتخذت مكانا ملحوظا ، لحفلت هذه المنسوجات أيضا بصور الأشخاص ، والمناظر الاسطوريه ، ورسوم الاشخاص ، وقصص الصيد والقنص ، والصور المستمدة من حياة السيرك ، والصور الكاريكاتورية ، و بالاختصار كل ما ارتبط بفن الإسكندرية الزخرفى (١٣٩) .

والملحوظ أيضاً أن مناظر من الكتاب المقدس ، رسمت على منسوجات كثيرة ، لاسيما فى الأستار والفرش بالكنيسة . ففى طرف أحد هذه المفارش حيث

جرى رسم الشهداء المشهورين ، نلحظ رسم القديس دانيال بين الأسود ، يتلقى الخبز من يد النبى حبقوق Habakuk . وبأسفل شريط مزخرف ، بصورة رمزية تمثل معجزات المسيح ، رسم القديس بطرس ، يتلقى المزامير من أيدى المخلص (المسيح) ، وصورة تمثل حجاب مذبح كنيسة القديسة صوفيه[١٤٠] .

ووفقاً لما هو مألوف فى الكنيسة المسيحية ، اختلط ، فى أحوال كثيرة ، مناظر العهد القديم ، بمناظر العهد الجديد فى المنسوجات ، إذ رسمت فى مربعات ، فى صفوف متوازية . ويحدث تارة فى المنسوجات الحريرية رسم قصة يوسف ، التى يهواها المصريون ، وتارة يجرى رسم القديسين بطرس وبولص ، واقفين ، وقد أمسكا بأيديهما الدرج (الدبتيخن) ، وفصل بينهما نبات . وفى بعض هذه المنسوجات من الصور والرسوم ما تعتبر أشبه باللوحات[١٤١] .

وبذا أكملت المنسوجات المصرية ماسبق أن عرفناه عن الفن المسيحى فى مصر . على أنه إذا تصورنا أيضاً ما كان من انتشار هذه المنسوجات فى أنحاء العالم ، (إذ زخرت كنائس روما بالطنافس الشرقية) ، لأدركنا ما كان لهذه المنسوجات ، بما انطوت عليه من مناظر الكتاب المقدس ، من أثر فى الفن فى أنحاء العالم المسيحى[١٤٢] . وحرصت بيزنطة ، نظراً لقربها ، على محاكاة النماذج المصرية ؛ فبفضل الإسكندرية ، ظل الفن البيزنطى على صلة بالأثر القديم ، المعروف بتعدد الألوان والجمال والأصالة ، وذلك برغم استمرار المؤثرات الشرقية .

وأسهمت مصر أيضاً فى نمو فن الأيقونات ، نظرا لأن فن التصوير الإسكندرى أحاط الموضوعات المستمدة من الكتاب المقدس ، بكل ما فى الفن الهلينستى من جمال[١٤٣] .

وعلى الرغم من أن الإسكندرية ، تراءت بين القرنين الرابع والسابع ، على أنها مدينة هلينستية كبيرة ، فى معظم مظاهرها ومعالمها ، فلا بد من الإشارة إلى

صفة اختصت بها تلك المدينة ، التى تعتبر حافظة للتقاليد اليونانية القديمة • إذ أن الفن السكندرى ، تطرق إليه ، فى القرنين الخامس والسادس الميلادى ، مؤثرات شرقية . فإلى جانب الأسلوب التصويرى الرائع الجـــذاب ، ظهر الأسلوب التقليدى (المتعلق بالتماثيل) . فأخذ تيار جارف من الواقعية ، ينفذ إلى ما صدر عن التقاليد الهلينية من آثار رائعة جميلة . وتفسير ذلك ، أن الإسكندرية لم تكن العامل الوحيد الذى تحكم فى الفن ، إنما كان يقع من ورائها كل القطر المصرى .. فمهما اشتهرت الإسكندرية بالثراء والمكانة ، ومهما ازدانت به حضارتها من الروعة والازدهار ، فإنها تعتبر أجنبية عن مصر البيزنطية . ولذا ينبغى أن نلتمس فى داخل البلاد ، ولا سيما فى مصر العليا (الصعيد) ، الطابع الحقيقى للبلاد فى العصر المسيحى . وينبغى أيضاً أن ندرك ماساد هذه الجهات من روح قومية قوية (١٤٤) .

أثر الروح القومية :

ترتب على الفتح الرومانى لمصر ، أن صار سكان البلاد الأصليين ، يقلون منزلة ومكانة عن اليونانيين . ولم يخف المستوطنون الرومان واليونانيون ، مايكنونه من احتقار للعنصر الوطنى ، الذى لم يقيموا له وزنا . واستمر الأمر على هذا النحو فى العصر البيزنطى ؛ ولذا لم تلق التماثيل والآثار المصرية شيئا من إعجاب بروكوبيوس ، وجان الليدى Lydien ، فلم يريا فيها إلا مظهراً من مظاهر الإسراف والعبث . وأمعن بعض الكتاب فى اتهام المصريين بالجهل ، وتجردهم من كل تفكير عميق (١٤٥) .

على أنه حدث منذ القرن الثالث ، تطور بالغ الأهمية فى مكانة المصريين الذين ظلوا بفضل لغتهم يعتزون بشخصيتهم ، فظهر من جديد الأساس المصرى

القديم ، إزاء الهلينية السكندرية . ونبت أيضاً ، حوالى ذلك الوقت ، نفس الظاهرة فى سائر أنحاء الشرق ، فى الشام ، وفى إقليم الجزيرة ، وآسيا الصغرى . ولعل هذه الظاهرة انبعثت فى تلك الجهات ، بتأثير دولة الفرس التى جرى احياؤها زمن الساسانيين ؛ ففى كل مكان انبعثت التقاليد القومية القديمة ، واقترنت بروح بالغة الكراهية والعداوة للهلينية[١٤٦] .

انبعثت الروح القومية فى داخل مصر ، ولا سيما فى الوجه القبلى . وما حدث من انتشار المسيحية بين السكان الوطنيين ، وما ترتب على ذلك من أنها وهبتهم الإحساس الشديد ، بمكانتهم وقوتهم ، شجع تلك الحركة القومية ؛ نظرا لما تكنه المسيحية من كراهية شديدة للوثنية اليونانية[١٤٧] .

فالمعروف أنه جرى منذ البداية الدعوة إلى المسيحية بين العوام ، باللغة الوطنية . ومنذ القرن الثالث الميلادى ، جرت ترجمة الكتب المقدسة إلى اللغة القبطية ؛ ومنذئذ نشأت الكتابة القبطية المؤلفة من حروف يونانية ، واكتملت بما أخذته عن الكتابة الديموطيقية من علامات[١٤٨] .

ومنذ القرن الثالث أيضاً ، أخذ فى الظهور فن قومى ، هو الفن القبطى ، الذى أدخل فى المؤثرات الهلينية ، عوامل مصرية ، وعوامل شرقية[١٤٩] .

وترتب على انتشار المسيحية فى مصر ، أن السكان الأصليين الذين تعرضوا للظلم والاستبداد والحرمان ، والذين يمثلهم الفلاحون والصناع وأرباب الحرف ، والذين لم يكن لهم زمن الرومان حق من الحقوق ، أدركوا ما كان لهم من أهمية ، وأحسوا بالدور الذى يصح أن يقوموا به فى بلادهم . ذلك أن المصريين منذ زمن بعيد ، برغم خضوعهم واستكانتهم لحكم اليونانيين ، لم يخفوا مايكنونه من كراهية واحتقار لليونانيين الذين يزدرونهم ، والرومان الذين يعملون على تحطيمهم وتدميرهم .

http://www.al-maktabeh.com

وازداد إحساس المصريين بذاتيتهم ، فى العصر البيزنطى ، وأضحوا يشعرون بمكانتهم ، ودفعهم كبرياؤهم الجريح ، إلى أن يعلنوا شعورهم وسخطهم . فصاروا فى القرن السادس الميلادى يرددون ، أنهم ينتمون إلى أقدم الأجناس البشرية ، وأعرق الأمم حضارة ، لما لبلادهم من الفضل فى اختراع الكتابة والهندسة وسائر العلوم (١٥٠) .

وحرص المصريون على أن يعتبروا ، أن كل عمل مجيد فى العالم ، إنما صنعه أجدادهم . فزعموا أن دقلديانوس وتيودوسيوس من المصريين ، وأن الإمبراطورة تيودورا ولدت بالإسكندرية ، بل و يعتقد كثير منهم أن المسيح لم يولد فى بيت لحم ، بل فى هراقليو بوليس بطيبه . واعتبروا مصر أرض الله المختاره ، و يقولون ان سيمون (سمعان) البرق ، الذى حمل صليب المسيح المخلص ، و يرمز بذلك إلى إخلاص مصر للمسيح ، كان مصريا ، نظراً لأن برقة كانت من توابع مصر (١٥١) .
ولاشك أن لهذا الخيال دلالة ومغزى ، إذ يدل على انبعاث العاطفة القومية عند المصريين ، الذين حرصو على التمسك بتاريخهم القديم ، ولم يقبلوا الاندماج فى اليونانيين والرومان (١٥٢) .

هذه هى صفة الإقليم الذى يصادفه الإنسان ، إذا تجاوز الإسكندرية فيتراءى له عالم جديد ، يكاد يكون مغلقا فى وجه الأجانب ، لايربطه بالإمبراطورية البيزنطية التى تحكمه ، إلا صلات واهية (١٥٣) .

المسيحية :

وعلى الرغم من أن المدن الهامة بمصر ، لازالت فى العصر البيزنطى ، تحمل طابع الهلينية فى كل ما تحويه من مناظر ، وما تزدان به من تماثيل ، وما يتألف منه سكانها من عناصر ، فإن المسيحية غيَّرت هذه المدن تغييراً تاماً . ففى القرن السادس ، زخرت ارسينوى ، التى تعتبر من أهم مدن الفيوم ، بالكنائس والمستشفيات ، فضلا عن الفنادق التى أقامتها الكنيسة ، والتى حصلت منها على

خراج كبير . وكان بأرسينوى الكنيسة الكبرى ، المعروفة باسم الكنيسة الجامعة (الكاثوليكية) ومشاهد (أضرحة) عظيمة ، جرى تطويبها (تكريسها) باسم العذراء ، والرسل ، والقديس مرقس ، والقديسين كوزما وداميان ، والقديسين فيكتور وتيودور ، فضلا عن كنائس دينية أخرى ، اتخذت أسماء كوللوثوس Colluthos ، وفويبامون ، وثيكلا Thecla . والراجح أن هذه الأسماء تشير إلى شخصيات كبيرة بالمدينة ، لا إلى القديسين [١٥٤]. على أن جانباً من شوارع المدينة وأحيائها ، اتخذت أسماء مايقع بها من الكنائس أو أسماء القديسين. فمنها شارع فيلوكسين Philoxène ، ولم يكن فيلوكسين إلا قديساً ذائع الشهرة فى مصر ؛ ومنها شارع الكنيسة الكبرى ، وشارع القديس ميناس [١٥٥] .

ويتضح من نصوص الكتاب المقدس ، التي جرت ترجمتها إلى لهجة الفيوم، والتى تم العثور عليها فى أرسينوى ، أن جانبا كبيراً من السكان المسيحيين بها ، كان من العنصر المصرى . على أن أسماء كثيرة أخرى ، تدل على وفرة عدد اليونانيين فى أرسينوى، فكل البرديات الهامة التى اكتشفت بها ، كتبت باللغة اليونانية . وتعتبر البهنسا Oxyrhynchos ، مدينة مسيحية أيضا ، زخرت بالكنائس ، وغصت بها الأديرة ، وعُثر بهذه المدينة على قطعة من البردى ، عبارة عن تقويم كنسى ، يرجع إلى القرن السادس الميلادى ، وتضمن التقويم قائمة بالأعياد الدينية التى يحتفل بها ، والكنائس القائمة بها . واتخذت هذه الكنائس أسماء القديس سرينوس Serenos ، والقديس حنا الأنجيلى ، والقديس ميخائيل ، والقديس يوست Just ، والقديس ميناس ، والقديس فيكتور ، والقديس كوزما ، والقديس فيلوكسينوس ، والعذراء ، والشهداء ، فضلا عن كنيسة فويبامون ، وكنيسة انيانى ، ولاشك أنهما اتخذا اسميهما من أسماء أعيان المدينة [١٥٦] .

وإلى جانب ما يؤدى عادة من صلوات يوم الأحد ، جرت أيضا إقامة صلاة أخرى ، فى يوم السبت ، فى مواضع عديدة بالإسكندرية ، وغيرها من البلاد . وصار أيضا الاحتفال بأعياد أخرى تذكارا لمولد المسيح ، وموالد القديسين . وأورد التقويم ما لا يقل عن ١٣ صـلاة ، تؤدى فى أثناء الشهر ؛ وفى ذلك دليل على نشاط الحياة الدينية بتلك المدن ، فى القرن السادس[١٥٧] .

وإذا كانت البرديات اليونانية العديدة ، التى تم اكتشافها فى البهنسا ، تدل على مكانة العنصر اليونانى بها ، فإن هذه المكانة نلحظها أيضاً فى أنتينوى التى تعتبر مقر دوق طيبة ، إذ تعتبر أهم مدينة بالقطر المصرى ، بعد الإسكندرية ، غلبت عليها الصفة اليونانية ، فى مظهرها وتماثيلها ، وفى روحها أيضاً[١٥٨] . واتخذ حاكم الإقليم من داره بلاطاً صغيراً ، نستطيع أن نقف على وصفه وملاهيه من أشعار ديوسقور ؛ وهو محام وشاعر ، عاش فى أفروديتو ، فى القرن السادس الميلادى . وغمر هذا الشاعر ، دوق طيبه ، ورجال حاشيته ، بقصائد الشعر ، والمدائح ، بل بالتوسلات والاستعطاف أيضاً . وعلى الرغم من أن أشعاره لم تبلغ حد الجودة ، فإنها تدل على أن مؤلفها رجل مثقف ، درس هوميروس وأناكريون Anacréon ، وعلى أن فى هذا الإقليم النائى البعيد ، أناساً من كبار الموظفين ، أو من السادة الإقطاعيين ، يهوون الأدب ، ويشغفون بالشعر اليونانى ، ويفقهونه ، كما تدل على أن دوق طيبة كان يشعر بشىء من الزهو والكبرياء ، حين يحمل فى كنفه وتحت رعايته ، شاعراً اختص به[١٥٩] .

وعند مغادرة المدن ، لم نصادف فى القرى والريف إلا عنصراً مصرياً خالصاً ، يتمثل فى الفلاحين ، الذين اشتهروا وقتذاك ، بالقصور الفكرى ، وضيق الأفق. ومعظم سكان الريف والقرى من المسيحيين ، غير أن المسيحية التى اعتنقوها

كانت بالغة البساطة والسذاجة ، على أنهم تعصبوا لها وتعلقوا بها ، وازداد حماسهم لها . وعلى الرغم من شدة تعلق هؤلاء السكان بعقيدتهم ، فإنهم لم يفهموا من أصول الدين إلا قدراً ضئيلا . وأكثر ما أحبوه وشغفوا به ، ما تعلق منه بقصص القديسين ، والشهداء ، والرهبان . وكان يروقهم أيضاً ذكر الغرائب ، والمعجزات والتصوف . ومن الكتب التى أحبوها وأعتزوا بها ، كتاب الراعى Pasteur الذى ألفه هرمياس Hermias ، والذى ترجم إلى اللغة القبطية(١٦٠) .

وينبغى أن نذكر أنه لم يكن يحسن القراءة من سكان البلاد ، إلا فئة قليلة ، أما سائر الناس فقد اشتهروا بالتقوى والورع ، تعلقوا بما جاء إليهم من الإسكندرية من التعاليم الدينية . ولم يكن فى وسعهم أن يدركوا ما إذا كان بطريرك من البطاركة ، وقع فى الهرطقة والإلحاد ، وحاد عن الطريق المستقيم ، فعلامة الإيمان الصادق عندهم ، تتمثل فى تقديس ما وضعه من التقاليد كبار البطاركة ، أمثال مرقص الانجيلى ، وبطرس الاسكندرى الشهيد ، والقديسين أثناسيوس وتيوفيل وكيراس ، وتيودوسيوس . ولا شك أنهم لم يدركوا تماما طبيعة هذا التقليد الدينى ، إنما يكفى الانتماء إليه كيما تكون مسيحيا كاملا ، وأرثوذكسيا صالحاً(١٦١) .

بقايا الوثنية :

وفى ثنايا تلك المسيحية الساذجة ، بقى كثير من الآثار الوثنية . ففى أثناء مايؤديه المسيحيون من عبادة للقديسين ، وحرصهم الشديد ، على أن يكتشفوا من الشخصيات النقية الصالحة ، ما يعبدونها من أجل قدرتها على إجراء المعجزات ، لم يغفلوا ما كان معروفا فى الزمن الغابر من الشياطين ، وتطرق إليهم الخوف منها . ويصح القول ، أن ماظهر فى مصر ، قبل غيرها من البلاد ، من تقديس الأطلال ، والمخلفات الدينية ، نجم عن قصة أوزريس ، وعبادة ماتناثر من

أعضاء جسده . فالعوام المعروفون بسرعة التصديق ، اعتقدوا ، مثلما حدث قديما ، فى السحر : وكل ماحدث من تغيير ، أنهم ابتهلوا إلى جيوفا السبؤتى Sabaoth مسر ، والمسيح ، بدلا من عبادة حورس وابوللو . وحملوا الأحجبة والتعاويذ ، مثلما كان معروفاً فى الزمن الغابر ، غير أنهم صاروا يكتبون عليها آيات من الإنجيل والدعوات . وكانوا يستخيرون الله ، ويسألونه المعجزات ، مثلما كانوا يفعلون مع الآلهة الوثنية ؛ ومن دعاء لأحد المؤمنين من سكان البهنسا « اللهم ، يارب العزة والقوة ، يا الله ، ياقدوس ، ياصَدُوق ، ياأيها الخالق المنعم ، ياأبا سيدنا ومنقذنا ، المسيح عيسى ، اكشف لى عن الحقيقة التى لا تصدر إلا عنك ، وأرشدنى ما إذا كنت تحب أن أتوجه إلى خيوط Chiout ، وأن ألتمس فيك رفيقاً يصحبنى ويحمينى . آمين[١٦٢] » .

وما جرى اكتشافه فى هيراقليوبوليس ، من تعويذة ، التف بها خيط أحمر تنطوى على هذا الدعاء : « اللهم ، يارب العزة والقوة ، ياأبا سيدنا ومنقذنا ، المسيح عيسى ، ويأيها القديس سيرنيوس ، أتوسل إليك أنا سيلوام بن صيرابيون Silouam son of Serapion ، وأحنى الرأس إجلالا ، وأتوسل إليك ، وابتهل أن تطرد عنى عبادك من الشياطين ، وأعوذ بك من شر المرض ، ومن كل ضعف ، كيما أصون صحتى » . وتلى ذلك نص الدعاء الإنجيلى[١٦٣] .

وفى الوثائق المصرية ، التى تعاصر هذه النصوص ، وترجع إلى القرن السادس الميلادى ، من عقود البيع والشراء ، وعقود العتق ، والوصايا ، وغيرها ، مازخر بالصيغ المسيحية ، والتوسلات للقديسين ، والحكم المأثورة ، فضلا عن آيات الإنجيل ، التى تجعل من الوثيقة القانونية عظة دينية خالصة[١٦٤] .

ويتضح الأثر القوى للمسيحية فى الرسائل الخاصة ، فيما انطوت عليه من الاحترام الشديد المرسل إليه ، والخضوع والخشوع من قبل المرسل ؛ ولم يكن

ذلك فيما يبدو ، إلا دليلا على التربية السليمة ، والتعليم الصحيح ، ولا شك أن الرسائل الخاصة ، إنما جرت وفقاً لنماذج أعدت لذلك الغرض . غير أن ذلك التدين الشديد ، لم يوقف استمرار ما تبقى من العقائد الوثنية ، وتغلغلها ، دون إحساس أو شعور ، إذ أن تقديم القربان لأشبه بما كان يقدم للإله سيرابيس من الطعام ، و يماثله فيما له من الفضائل (١٦٥).

أما فكرة الحياة الآخرة و يوم الحساب ، فإن كثيراً من الناس ، تصوروا المسيح ، مثلما تصوروا من قبل أوزريس ، ولذا وردالقول المأثور «ومن الشهداء، الذين لقوا حتفهم فى سبيل عقيدتهم و إيمانهم بالمسيح ، عدد كبير آمن ، دون أن يعلم بأوزريس ، ومات فى سبيله » (١٦٦).

على أن هذه المسيحيه الشكلية ، اقترنت بشعور وطنى عميق . وهذه الحقيقة تشير إلى أن فكرة القومية المصرية لم تتضح فى عصر من عصور التاريخ ، مثلما وضحت فى العصر البيزنطى. ففى وثيقة هامة ،ترجع إلى نهاية القرن الخامس كتبها هورابولون الفيلسوف الإسكندرى ، يتردد ذكر العبارات « وطننا ، والأرض مسقط رءوسنا » . وما تكرر فى آداب القرنين الرابع والخامس ، من الإشارة إلى لفظة وطنى πάτριος (Patrios.) ، يدل على كل ماهو وطنى (قومى) ، من العلوم ، والعادات ، والديانة ؛ وذلك للتفرقة بينه وبين ماهو واردمن الخارج، أى من العالم اليونانى . وكره المصريون السيادة اليونانية ، والحضارة اليونانية ، وهذا هو السر فى أن المسيحية لم تلبث أن اتخذت عندهم صورة معارضة سياسية (١٦٧).

كبار ملاك الأراضى :

الواقع أن المصريين خضعوا فى القرنين الخامس والسادس للكنيسة وللبطريرك ، من الناحية الدينية ، بينما وقعوا من الناحية الاقتصادية فى أيدى كبار الملاك .

http://www.al-maktabeh.com

وسبق الإشارة إلى ماحدث فى مصر ، فى القرن الرابع ، من ظهور طبقة كبار الملاك ، الذين دأبوا على أن تزداد أراضيهم ، على حساب صغار الحائزين للأرض وعلى أن يجعلوا تحت حمايتهم ، وأن يخضعوا لتبعيتهم ، من جاورهم من الفلاحين الأحرار ، الذين لم يلبثوا أن تحولوا إلى أقنان . وأخذ هؤلاء الملاك الكبار ، بفضل الجباية الذاتية ، يستقلون شيئا فشيئا داخل أراضيهم . واشتدت شوكة هؤلاء الاقطاعيين ، وازداد عددهم فى القرن الخامس ، ثم لم يلبث أن تألف منهم فى القرن السادس طبقة من النبلاء الاقطاعيين(١٦٨) .

ولتوضيح ما كان لهذه الفئة من أهمية فى البلاد وقتذاك ، يكفى أن نورد مثالا واحدا للدلالة على نفوذ وسلطان هذه الطبقة . ذلك أنه أقام بمدينة البهنسا أسرة كبيرة ، وهى أسرة أبيون ، حلوا بهذه المدينة نحو ١٥٠ سنة ، واشتهروا بأنهم من كبار الأعيان ؛ فصاروا ينعتون بأصحاب السعادة . ولم يذكرهم الناس إلا على أنهم من كبار السادة ، وأنهم من أرباب الشهرة والصيت ، وشاد الناس بمجدهم العريق . والواقع أن هؤلاء السادة احتلوا الوظائف العليا ، وحظوا بالرتب الرفيعة ؛ إذا أن أبيون ، رأس هذه الأسرة ، شغل سنة ٥١٨ ، وظيفة الوالى الكبير Praefectus Praetorium . وتولى ابنه فى السنوات من ٥٢٣ إلى ٥٣٨ ، وظيفة الدمستق ، والوالى الأوجستالى ، ومتولى الخزانة الإمبراطورية . وصار ابنه الآخر قنصلا سنة ٥٣٩ . واتخذ كثير من أبنائه لقب بطريق ، ولقب البطريق الأول Protopatrice . ومن هؤلاء الأبناء ، ولى اثنان دوقية طيبة ، وشغل جماعة منهم وظيفة الباجارك(١٦٩) .

ولم تكتف أسرة أبيون بما أحرزه أفرادها من مكانة فى الإدارة الإمبراطورية ، بل حازوا أملاكا شاسعة ، لا فحسب حول البهنسا ، بل فى سائر أنحاء الفيوم ، وفى اقليم كينوبوليس Cynopolis (الشيخ فضل) ،

وفى غيرها من الجهات . وامتلكوا قرى بأكملها، بما يحيط بها من الأراضى ، وبلغت ضياعهم من الاتساع ، أنه تألف منها مقاطعتان (كورتان) ، على رأس كل منهما كونت . وازدادت مكانة أسرة أبيون فى مصر ، وعاش أفراد الأسرة فى قصرهم بالمدينة ، على نحو ما يعيش الأمراء . وبفضل ما غمرتهم به الحكومة البيزنطية من الامتيازات ، أقاموا بأراضيهم على أنهم سادة إقطاعيون (١٧٠) .

وتولى زراعة هذه الأراضى ، الأقنان (الفلاحون) ، الذين لم يلبثوا أن أضحوا رويداً رويداً أرقاء ، بلغ من شدة ارتباطهم بالأرض ، أن أصبحوا من مقوماتها ؛ إذا استقروا بها ، بنسائهم ، وأطفالهم ، وماشيتهم ، ومتاعهم ، وليس بوسعهم أن يغادروها . وخضعت هـــذه الضياع لإدارة بلغت من قوة التنظيم ما بلغته إدارة الضياع الإمبراطورية ، وتولى هذه الإدارة هيئة من الموظفين ، من فئات مختلفة . على أن المالك هو الذى تولى جباية الضرائب العامة المقررة على ممتلكاته . ذلك أن كتّابه يرفعون القسائم ἀπαιτησουσιν إلى متولى جباية القمح προνοητης أو إلى جابى الضرائب υποςεντη'ς الذى لم يكن عادة ، سوى شخص حصل من السيد الاقطاعى على حق جباية الضرائب ، بمقتضى عقد ثابت ، مقابل مرتب محدود . ومن واجباته أن يوزع الضرائب على الأقنان (الفلاحون) ، وأن يبعث إليهم إخطارات ἐνταγια بما يلتزمون بدفعه من الضرائب . وكان لزاماً عليه أن يؤدى ما تحصل نقداً من الضرائب إلى سيادة « متولى خزانة المالك » . أما الضرائب التى تجبى عيناً ، ولاسيما القمح ، فتؤدى إلى قائد سفن المالك ، فيحملها مباشرة إلى انتينوى ، حاضرة الدوقية (١٧١) .

وعلى هذا النحو ، كان لبيت أبيون أسطول صغير ، يسير بنهر النيل ،

واتخذوا أيضاً لأنفسهم جنداً خاصاً ، اشتهروا باسم البقلار . على أن ما اتصف به هؤلاء الجند من العنف وابتزاز الأموال ، زاد فى رعب السكان العزل ، فلم يعودوا يطمئنون فى حياتهم . وعلى الرغم من أن القانون يحرم اتخاذ الجند الخاص المأجورين ، فإن العرف والتقاليد ، كانت أقوى من القانون ، فأضحى لكل كبار الشخصيات بمصر ، من الموظفين وغيرهم ، حرس خاص . وجعل كل مالك ، لضيعته شرطة خاصة ، فكان لأسرة أبيون رئيس للشرطة الخاصة protophylax، تولى حراسة الماشية والآلات الزراعية ، وتعاهد بالقبض على اللصوص .

وأقام أفراد أسرة أبيون بأراضيهم ، حصونا ، شحنوها بالحراس ، لحماية رقيق الأرض ، مما يصح أن يتعرضوا له من غارات البدو . واتخذوا سجناً خاصاً ، و بريدا خاصاً ، وفى ذلك دليل على ضعف كفاية البريد الإمبراطورى . و بلغ بعض هذه الأسرات الإقطاعية من السلطة والنفوذ ، أن سكت باسمها عملة خاصة(١٧٢) .

يضاف إلى هذه الثروة ، ما شغله هؤلاء السادة الإقطاعيون من وظائف عامة ، زادت فى مكانتهم ونفوذهم . وكان بعض هذه الوظائف متوارثاً فى الأسرة ؛ فوظيفة دوق طيبة ، شغلها اثنان ، على الأقل ، من أفراد بيت آبيون . أما وظيفة الباجركية ، فصارت فيما يبدو ، وقفاً على تلك الأسرة فى كثير من الباجركيات . وفى طيبة امتدح الشاعر ديوسقور ، الباجرك كوللوثس Collouthos بأنه « كان فريداً فيما اشتهر به من الفضائل ، سليل الحكام الأقدمين ، وور يث ڤيكتور الخالد الذكر ، الذى امتدحته الأقاليم » . على أن أواصر القرابة ، ر بطت بين معظم الأسرات الكبيرة(١٧٣) .

وهؤلاء السادة الأقوياء ، لم يكونوا عدداً قليلا فى مصر البيزنطية ؛ فإلى جانب أسرة أبيون ، تردد ذكر كونت أمونيوس Ammonios ، الذى ورد فى البرديات اسمه ، والحسابات التى دفعها إليه وكيله أو نائبه ، وتكررت الإشارة

أيضاً إلى كونت فويبامون . على أن مالكا آخر من ملاك البهنسا ، لم يرد لاسمه ذكر فى البرديات ، غير أنه اشتهر بما يحمله من لقب كونت المجلس Consistoire (١٧٤) .

كان لكل هؤلاء الأشخاص من القوة ، ما يكفى لمقاومة الحكومة ، ومعارضة ماصدر ضدهم من عقوبات صارمة . فإذا أدركنا أنهم جمعوا فى أيديهم، الإدارة العليا بمصر ، وأن كل الولاة الأوجستاليين ودوقات الأقاليم ، والباجاركات ، ورؤساء المدن ، كانوا عادة ، فى القرن السادس من السكان الأصليين . وإذا تذكرنا ماتقلده هؤلاء السادة من وظائف ، وما كان لهم من سلطان ، فحينما تحدث ديوسقور عن دوق طيبة ، وصفه بأنه أمير الأبروشية كلها ، وسيدها دون منازع . وإذا عرفنا آخر الأمر ، أن الإمبراطورجستين الثانى ، أشار فى أحد متجدداته (القوانين الإضافية) ، إلى أنه يجوز للأعيان أن يرفعوا للامبراطور ، أسماء المرشحين لوظائف حكام الأقاليم . فإذا تذكرنا كل ذلك ، أدركنا فى سهولة ويسر ، ماحل بالحكومة من ارتباك واضطراب ، نظرا لأن استقرارها وبقاءها ، مرهون بإخلاص هؤلاء السادة وولائهم . وسوف نرى أن جانبا كبيراً ، من هؤلاء السادة ، كان معاديا للسيادة البيزنطية ، بل أعلن ، فى أحوال كثيرة ، مناوءته الصريحة ، لما يصدر عن بيزنطة ، من أوامر .

وبذا نستخلص كيف أن هذا التطور الاجتماعى ، جعل من كبار الملاك ، السادة الحقيقيين للبلاد من الناحية السياسية ، فصاروا مصدر خطر على السيادة البيزنطية فى مصر (١٧٥) .

الكنيسة :

تعتبر الكنيسة قوة كبيرة أخرى ، إلى جانب الأرستقراطية المدنية . والواقع

http://www.al-maktabeh.com

أنه لا وجه للمقارنة بين رجال الدين فى الأقاليم ، وبين رجال الدين الملتفين حول البطريرك ؛ لما عرف به رجال الدين فى الأقاليم من الانحطاط الفكرى ، لأنهم لم يصيبوا إلا حظا ضئيلا من التعليم ، واستبد بهم الجهل ، وغلظ الطبع ، فأضحوا لا يفكرون إلا فى أمر واحد ، وهو الطاعة التامة ، للبطريرك القوى ، الذى استقر بالإسكندرية . حتى صرح أحدهم أنه ليس من بينهم من علماء الدين ، سوى ديوسقورس الاسكندرى . وأشار رجال الكنيسة المصرية فى مجمع خلقيدونية ، سنة ٤٥١ ، إلى أن آباء الكنيسة الممثلين فى مجمع نيقيه سنة ٣٢٥ ، أمروا أن تنتهج مصر كلها حذو رئيس أساقفة الإسكندرية ، وأنه ليس لأحد من الأساقفة أن يتصرف من تلقاء نفسه ، بل لابد من الرجوع إليه . واشتد خوف رجال الكنيسة من البطريرك ، لما يعلمونه من تعلق المسيحيين به . ولما تقرر دعوة الأساقفة المصريين لحضور مجمع خلقيدونية ، للنظر فى إدانة ديوسقورس ، أجابوا فى حسرة وأسى « غير أننا لا نستطيع بعدئذ أن نعيش فى البلاد ، فسوف يقتلنا الناس » ، ثم قالوا « فإذا أردتم كراسينا (وظائفنا) ، فلتأخذوها ، فلسنا نريد أن نبقى أساقفة ، إلا بشرط ألا نتعرض للموت[١٧٦] » .

والواضح أن هـــذا النوع من رجال الدين ، لم يكن كبير الأثر فى حياة المصريين الأخلاقية ، على أنهم كانوا يعتبرون أداة طيعة قوية فى يد بطريرك الإسكندرية[١٧٧] .

وإلى جانب رجال الدين ، جيش لا حصر له من الرهبان ، المعروفين بالصلاح والتقوى ، سواء كانوا من المتنسكين المنقطعين أو من الديريين ، هجروا العالم والتجأوا إلى « صحراء القديسين » ، واعتبرهم حنا الأفيسوسى ، بعد أن احتك بهم وعرفهم واختبرهم ، جديرين باسم « الصالحين » . وتوافرت الثروة للأديرة ، بفضل ما أغدقه عليها من الهبات ، آحاد الناس ، وكبار الشخصيات ، والأباطرة .

فصارت الأديرة تحوز وتملك الأراضى ، والقرى ، ورقيق الأرض ، والمستأجرين. وأوردت البرديات المستمدة من محفوظات دير القديس فو يبامون ، تجاه طيبة ، مثالا ، من بين مئات الأمثلة ، لما توافر للدير من الأراضى[١٧٨] . وتعتبر هذه الثروة من عوامل قوة نفوذ الرهبان وتأثيرهم ، غير أن أكبر من ذلك أثرا ما حظى به الرهبان من المكانة والإعجاب ، إذ اعتبرهم المصريون فقهاء فى العقيدة الدينية ، وأنبياء ، وقديسين،خصهم الله بالقدرةعلى القيام بالمعجزات . وحفلت حياة القديسين من المصريين ، بقصص المعجزات ، وما تنطوى عليه من عبرة، وما نشهده فيها من الملائكة والأنبياء ، أمثال داود، و المسيح . وقد توثقت العلاقات ، وتوطدت بينهم وبين هؤلاء الرهبان الزهاد الأتقياء ، الذين ارتقوا بقداستهم حتى صاروا فوق القانون[١٧٩] .

ولا شك أن كثيراً من هؤلاء الرهبان كانوا على حظ ضئيل من الثقافة، فلم يفقهوا شيئا مما دار فى الإسكندرية من مناقشات حول اللاهوت . ولم يسعوا للشهرة والظهور ببلاغتهم أو بصفاتهم على أنهم كتاب ، وكل ما يرمون إليه أن يعلنوا ثقتهم التامة بالبطريرك ، طالما احترمهم وأقر قداستهم .

أما نفوذهم وسلطانهم على العامة ، فأمر لا جدال فيه . وما اتخذوه لأنفسهم من مكانة هامة فى مصر البيزنطية ، يرجع إلى ما اشتهروا به من التعصب الشديد ، والاستعداد الدائم لأن يدافعوا بقبضة أيديهم وعصيهم ، عن كل من يستنصرهم ويدعوهم لمساعدته[١٨٠] .

وسبق الإشارة إلى شنوده الأتريبى ، الذى يعتبر خير مثال لهذا النوع من الرهبان ، بل لعله يعتبر أكمل نموذج للمسيحية المصرية . إذ كان رجلا شديد البأس ، بالغ العنف والقسوة على رهبان ديره ، لا يتردد فى أن ينزل ، دون رحمة أو شفقة ، أشد العقوبات وأعنفها ، بمن يحدث أقل خلل أو اضطراب

فى قاعدة الديرية . ولم تقتصر شدته على الرهبان ، بل تجاوزتهم إلى الوثنيين والوثنية ، فكان يمقت أوثانهم التى يختفى فيها الشيطان . يضاف إلى ذلك ما اشتهر به شنوده من مناوءة السلطات العامة ، بما دأب عليه من تحدى أوامرها وطرد مندوبيها ، غير أنه كان أشد قسوة على نفسه بما جرى من مصارعته لنوازع الشيطان[١٨١] .

على أن شنوده كان ، فى بعض الأحوال ، يبدى اهتماماً كبيراً ، وعناية ملحوظة ، بالمرضى والفقراء ، فكان ينزلهم فى ديره ، ويقدم لهم المؤن . و كتب شنوده باللغة القبطية من الرسائل والمواعظ ، ما امتازت بأسلوب شخصى حى ، وما انطوت عليه من روح مسيحية حقة[١٨٢] .

وعلى الرغم مما اشتهر به شنوده من الصرامة والشدة ، فإن ذكاءه كان محدوداً ، فلم يحاول أن يفهم شيئاً من دقائق علم اللاهوت الاسكندرى . وإذ كان البطريرك كيرلس ، يعتبر الرأس المفكر ، كان شنوده ، يعتبر ذراعه القوية الطيّعة . والتف حول شنوده جماعة كبيرة من المعجبين بصفاته وتقواه ، وبما يحيط به من جو المعجزات والكرامات ، فلما مات ، كان الحداد عليه عاما ، ولذا حفظت مصر لشنوده من الذكرى ، ما حفظته لكبار قديسيها[١٨٣] .

وعلى هذا النحو ، ازدادت الكنيسة اقتراباً من الشعب ، فصارت تشاركه آلامه ، وما يكنه من الكراهية الشديدة للبيزنطيين ، بل إن طائفة من الأساقفة ، فى القرن السادس ، لم يعرفوا من اللغات سوى اللغة القبطية . وكان الأساقفة والرهبان ورجال الدين من العنصر الوطنى ؛ وهذا هو السر فى أن الكنيسة بأكملها ، اندفعت وراء بطاركتها ، إلى المذهب المنوفيزتى ، فلم يلبث الشعب أن اقتفى أثرها . ويعتبر ذلك صورة من المقاومة للهلينية البغيضة ، وضربا من المعارضة لسيطرة الدولة البيزنطية ، ومظهراً للدفاع عن القومية المصرية والوطن المصرى[١٨٤] .

كنيسة القديس مينا

لازالت مصر حتى اليوم تحتفظ بعدد كبير من الآثار الهامة ، التى تتعلق بالحياة الدينية زمن الحكم البيزنطى . ففى غرب الإسكندرية ، وعلى الطريق الممتد منها إلى وادى النطرون ، وهو الطريق الذى كان يؤدى قديما إلى واحة آمون (سيوه) ، يقع موضع مشهور باسم كوم أبو مينا ، إلى الجنوب من مريوط مباشرة ، والموضع هو الآن عبارة عن صحراء ، ولا يدل على مجده الغابر ، إلا كومة كبيرة من الخرائب . وكان من قبل واحة خصيبة ، تقع بها مدينة صغيرة مقدسة ، فى وسطها قامت كنيسة اشتهرت ، فيما يقال ، « بأنها أجمل كنائس مصر » . وجرى تكريسها باسم القديس مينا ، كما يدل على ذلك اسمها الحالى . وكانت هذه الكنيسة تعتبر فى القرن الخامس والسادس ، من المواضع المشهورة ، التى يقصدها الحجاج ، ومن المزارات القومية ، التى خصها برعايته وعنايته ، كل من إمبراطور القسطنطينية وبطريرك الإسكندرية (١٥٨) .

ويعتبر القديس مينا من أشد القديسين احتراما وتبجيلا ، عند المسيحيين فى مصر البيزنطية . ومن الروايات المأثورة ، أنه بعد أن استشهد فى الاضطهاد الكبير زمن دقلديانوس ، جرى حمل جثمانه على جمل ، وعند الموضع الذى توقف فيه الجمل عن المسير بالصحراء الليبية ، تم دفن رفاة القديس . ولم تلبث أن قامت كنيسة على مقبرته ، ونشأ حول ضريحه مدينة صغيرة مقدسة ، أخذ الناس يحجون إليها ، من مصر وسائر بلاد الشرق . وهذا القديس الذى جرى تصويره فى الايقونات المسيحية واقفا بين جملين قاعدين ، صار يعتبر داعيا للقوافل . وبالقرب من قبره انفجر بالواحة نبع ، اشتهر بالكرامات والمعجزات ، إذا أن مياهه تشفى كل الأمراض . وورد فى النقش الذى عثر عليه بالقرب من القبر المقدس ما نصه : « اشرب من ماء القديس ميناس ، تزايلك الآلام » (١٨٦) .

وظلت مدينة القديس مينا موطن تبجيل واحترام ، حتى منتصف القرن التاسع

الميلادى ، حين تعرضت للنهب زمن الخليفة المتوكل العباسى . وفى القرن الحادى عشر كانت أطلالها لازالت تحتفظ بالجلال الرائع. وكشفت الحفائر التى قام بها العالم الأثرى كاوفمان Kaufmann ، سنة ١٩٠٨ ، عن بقايا الضريح المشهور. والواقع أننا لم نصادف فى مصر مايضارع هذه المجموعة الأثرية ، فى الوقوف على أهمية المسيحية فى مصر (١٨٧)

قام على التل الذى يشرف على المدينة ، كنيستان كبيرتان (باسيليقا) ، تبدوان للناظر من بعيد ، والتى تلفت منهما النظر أول الأمر ، هى التى أمر بتشييدها الإمبراطور اركاديوس فى مستهل القرن الخامس . وتألفت من ثلاثة أساكيب (naves) يبلغ طولها ٥٧ مترا ، وعرضها ٢٥ مترا. أما مجاز الكنيسة القاطع، ويبلغ طوله نحو ٥٠ مترا ، وعرضه ٢٠ مترا ، فإنه يقع أمام الحنية ، وما حوته الكنيسة من زخارف بلغت حدا كبيراً فى الروعة والجمال . وتعتبر كنيسة اركاديوس من روائع الفن المسيحى، لما اشتهرت به من جمال الأعمدة الرخامية التى تحمل المنصات التى يعتليها الوعاظ ، والتى تفصل بين أروقة الكنيسة ، ولروعة الرخام الذى صنع منه الأفريز ، الذى يحيط بأسفل الجدران ، وللفسيفساء التى تزين الكنيسة، ولما تحلت به تيجان الأعمدة من الصور المذهبة (١٨٨) .

وأهم من هذه الكنيسة ، تلك التى جرى تشييدها إلى الغرب من الكنيسة السابقة والتى تعتبر أقدم منها ، فوق الكهف الذى يرقد فيه القديس . وهذا الكهف الجنائزى الذى لايقل طوله عن ٣٨ مترا ، وعرضه عن ٣٢ مترا، يقع تحت الحنية. ومن خلال نوافذ مغلقة بقضبان من الحديد ، يصح رؤية قبر القديس. ويجرى الهبوط إلى الكهف ، باتخاذ سلالم كبيرة من الرخام ، تؤدى إلى دهاليز طويلة معقودة ، اكتست جدرانها بالرخام ، وتنتهى عند موضع الاعتراف ، الذى غشيت جدرانه أيضاً بالرخام ، واستقر به قبر القديس وتمثاله ، وتوقد به الشموع

ليلا ونهارا . وجرى تصوير الشهيد مينا ، واقفا بين جملين قاعدين (١٨٩)*.

وعلى مقربة من المقبرة ، كنيسة صغيرة ، تعلوها قبة ، كان يزينها قديماً فسيفساء مذهب . ولا نزال نلاحظ على الحيطان كتابات دينية ، خطها الحجاج ، أثناء اجتيازهم بهذا الموضع ، وفى ثراه رقد جماعة من المسيحيين الأتقياء ، الذين أحبوا أن يتخذوا مثواهم بالقرب من القديس مينا ؛ وفى ذلك دليل ناصع على ما حاذه هذا الضريح من الشهرة والاحترام ، عند الوافدين الذين قدموا لزيارته (١٩٠) .

---

(١٨٩)* يوجد بالمكتبة الأهلية فى باريس ، نسخة مخطوطة لكتاب ، ألفه جغرافى عربى مجهول ، وردت بها تفاصيل عن مينا ، يحسن ذكرها « بعد الخروج من الطرانة ، على طريق برقة ، يمر الإنسان بالمينا ، وهى عبارة عن ثلاث مدائن مهجورة ، فى وسط صحراء رملية ، ولا يزال بناؤها قائماً ، ويكمن العرب فيها للمسافرين . وفيها يرى الإنسان قصوراً عالية ، حسنة البناء ، وأكثرها قائم على عقود فوق أعمدة . ويعيش الرهبان فى بعضها ، وبها بعض الآبار ، ولكن ماءها قليل . ويرى الإنسان فيها كنيسة القديس مينا ، وهى بناء عظيم ، فيه عدد كبير من التماثيل ، والصور المتقنة الصنع ، وتوقد بها الشموع ليلا ونهاراً . وفى نهاية البناء مقبرة كبيرة ، عليها تمثالان لجملين من المرمر ، فوقهما تمثال رجل من المرمر ، وقد جعل رجلا فوق كل منهما ، وإحدى يديه مبسوطة والأخرى مقبوضة ، ويقال إن هذا تمثال القديس مينا . وعلى يمين الداخل إلى الكنيسة ، ترى عموداً عظيما من الرخام ، نقش عليه مشهد به صورة المسيح وحنا وزكريا ، وقد أقفل باب المشهد . ويرى بها كذلك صورة للعذراء (مريم) ، عليها ستاران ، وكذلك صور الأنبياء . وفى خارج الكنيسة صور لأنواع الحيوان ، وللناس فى أعمالهم من كل صنف ، ومن بينها صورة تاجر رقيق ، فى يده كيس نقود مفتوح . وارتفع فى وسط الكنيسة قبة ، تحتها تماثيل ، قيل إنها تماثيل الملائكة . وعلى مقربة من تلك الكنيسة ، مسجد يصلى فيه المسلمون ، والأرض التى حولها ذات زرع من أشجار الفاكهة والكروم . وفى كل عام ترسل مدينة الفسطاط ألف دينار للانفاق على هذه الكنيسة .

انظر : بتلر : فتح العرب لمصر — ترجمة محمد فريد أبو حديد ، ص ١٥٧ ، حاشية ٢ مطبعة دار الكتب المصرية . القاهرة ١٩٣٣ .

Butler A. : The Arab Conquest of Egypt, Oxford 1902. p. 177, note 2.

Quatremére : Memoires Geographiques et Historiques sur L'Egypte, Paris 1811, T. 1. p. 488.

http://www.al-maktabeh.com

على أن ما هو أعجب من هذا ، ما حدث من الاستعدادات ، التى تطلبها العلاج الذى سعى الناس لالتماسه عند القديس مينا .فى كثير من المتاحف ،اليوم ، قوارير صغيرة مصنوعة من الفخار أو الرصاص ، حملت اسم القديس مينا ، وصورته واقفاً بين الجملين . وملأ الحجاج هذه القوارير ، بالماء المبارك المقدس الذى يكفل لهم الشفاء . واتخذ بالكنيسة ذاتها من التدابير ما يفيد منها المرضى ؛ فمن النبع المقدس الذى يتدفق بجوار الكنيسة ، والذى يستطيع المؤمنون أن يغترفوا منه الماء مباشرة ، امتدت سقايات طويلة ، تنقل الماء المبارك ، إلى مجموعة كبيرة من العمائر أو المبانى ، منها الحمام المقدس ، الذى يقع به حوض كبير المساحة ، يبلغ ٧٠ متراً طولا ، و ٤٠ متراً عرضاً ، وتحيط به حجرات للاغتسال ، وقاعة كبيرة للانتظار ،وصهاريج . ومن هذه العمائر أيضاً كنيسة ذات حنيتين ، لازال باقيا منهما فتحات،يكسوها الرخام،ومن خلالها يصح اغتراف الماء المقدس،فضلا عن الخوابى (الأدنان) المصنوعة من الخشب ، والمرصوصة فى الأروقة الجانبية(١٩١) . ويقع على مقربة من ذلك، حوض به ثلاثة تجاويف ، يغطس فيه المرضى. ويسخن الماء ،أفران كبيرة مشيدة تحت الحوض . وتتناثر على الأرض قوارير كثيرة محطمة ، وأوانى موسومة بخاتم القديس مينا . وعلى الحيطان ، نصادف فى كل مكان كتابات ، خطها الحجاج الذين قدموا للاستشفاء بالمدينة المقدسة(١٩٢) .

وفى أثناء القرنين الرابع والخامس ، قام حول الكنيسة عمائر أخرى ؛ فإلى الغرب من كنيسة القديس مينا ، يقع مغطس (معمودية) مثمن الأضلاع ، بالغ الروعة ، يؤدى إليه رواق اصطفت به ثمانى أعمدة ، ورصفت أرضه برخام جميل ، وفسيفساء . ويقع إلى الشمال من الكنيسة ، دير كبير ، كأنه مدينة بذاتها ، لا تقل مساحته عن أربعين ألف متر مربع ، ولم يبق منه إلا القلايات والمخازن ، وقاعات فسيحة للاستقبال . ويحيط بالكنيسة (كنيسة القديس مينا)

وتحميها ، أسوار تعلوها أبراج . ثم قام حول الدير مدينة ، لا زال باقياً منها المقابر والدور . وبالمقبرة التى تقع إلى الشمال من الدير ، كنيسة كبيرة ، يبلغ طولها ٥٠ متراً ، ويرجع تاريخها إلى زمن الإمبراطور أركاديوس . ومن أهم الدور ، دار صانع الخزف ، الذى يصنع القوارير ، التى يشتريها الحجاج ، وتم اكتشاف مصنع الفخار، الذى حفلت حيطانه برسومه عجيبة، ومن الدور أيضا الفرن، والحانوت الذى يجرى فيه بيع القوارير ، والذى زخر ببقايا القوارير ، والمصابيح ولعب الأطفال .

وعلى الرغم من أن ذلك كله ليس إلا خرائب وأطلال فى الوقت الحاضر ، فإن هذه الخرائب جديرة باهتمام المؤرخين(١٩٣) .

دير القديس جيريمى (ارميا) Jérèmie

وفى سقارة ، بالقرب من خرائب مدينة منف القديمة ، يقع دير القديس جيريمى ، الذى يثير فى خاطرنا صورة أخرى لمصر المسيحية ؛ لما احتواه من زخارف ترجع إلى القرنين الخامس والسادس(١٩٤) .

وأنشأ هذا الدير ، حوالى سنة ٤٧٠ ، أحد الزهاد الصالحين وهو جيريمى ، الذى ذاعت شهرته فى جميع أنحاء مصر ، لما كان يمارسه هذا الرجل « ولى الله » من حياة القداسة ، ولأنه ، على حد قول المؤرخ حنا النقيوسى ، حباه الله ، « فجعله يحيط بمعرفة الأشياء كلها » ، ولذا قصده المسيحيون « للتبرك به ، وكيما يشفع لهم عند السيد المسيح »(١٩٥) .

وتزايد مجد جيريمى بعد وفاته ، وتضاعفت ثروة الدير الذى أنشأه وازداد شهرته ، وعمرت حول الدير مدينة صغيرة مقدسة(١٩٦) . وتعرض هذا الدير للخراب ، بعد الفتح العربى لمصر . ولا زال يقع على أطراف الدير خرائب الدور والفنادق ، والاصطبلات ، والمواضع التى كانت تربط بها المطايا (الركائب)،

والفسقيات (النافورات) التي يستقى منها ، وكل مايدل على أن المكان كان يوما من مواضع الحج الشهيرة(١٩٧) .

ويعتبر دير القديس جيريمى من أهم الأديرة ؛ فكنيسته الكبيرة ، التي عمرت بأكملها من أحجار ومواد منتزعة من الآثار القديمة ، والتي يؤدى إليها رواق (سقيفه) ، يصعد إليه الإنسان ، عن طريق درج ، اشتهرت ، فيما يبدو ، بزينتها وزخرفتها الفاخرة ؛ إذ تحلى محرابها بالفسيفساء ، وكست أعمدتها الصور . وعلى مقربة من الدير تقع الباسيليقا ، حيث يرقد ، حول قبر القديس جيريمى ، أشهر خلفائه . وتتصل هذه المبانى ، التي يؤمها الزائرون ، بالدير ، بطريق فسيح . وتتوافر بالدير كل الأدوات اللازمة لحياة الرهبان ، كالقلايات التي ينزل بها المتنسكون ؛ فلكل راهب حجرتان ينفذ إليهما الهواء من كوة بالسقف . وجرى حفر منامة الراهب فى جوف الحائط ، على هيئة محراب انشق بالحائط . وبالقلاية أيضا مذبح صغير ، ويقع بين القلايات ، حجرة مؤسس الدير ، وهى غرفة رائعة الجمال ، تحوى نقشا يشير إلى « الموضع الذى اعتاد القديس جيريمى أن يجلس به » . وعلى مقربة من الدير ، يقع المطعم والمخبز والمخازن ، التي لازالت تزخر بالقدور المرصوصة ، والتي تحمل نقشا ، يدل على مقر رئيس المشرفين ἀρχυπρητη'ς ، والمستشفى الذى يتولى إدارته « أبونا صاحب المستشفى » . وبالمستشفى غرفة صغيرة منفرده ، تقرر اتخاذها للمصابين بأمراض معدية ، ويكمل الصورة ، ما جرى العثور عليه بين الخرائب من النقوش(١٩٩) ومنها تقويم للأعياد التي يحتفل بها الرهبان ، ومن الأعياد الهامة ، عيد الأنبا ، أى عيد القديس جيريمى ، وعيد أينوخ Enoch ، رئيس الدير الذى جاء بعد جيريمى .

ومن النقوش ، قائمة بألوان الأطعمه التي تقدم على مائدة الدير ، ومنها

دعوات للقديسين الذين جعلوا الدير شهرة خاصة ، مثل القديسين جيرمى و إينوخ ، وكذا سبيل Sibylle . ومن الملحوظ أن نجد إلى جانب النقوش المكتوبة باللغة اليونانية ، كتابات حفرها باللغة القبطية ، الرهبان على جدران الدير . يضاف إلى ذلك أيضاً ، ما توافر فى كل موضع بالقلايات والكنائس الصغرى المجاورة لها ، من الصور الرائعة ، التى امتزج بها تقاليد ومؤثرات الفن السكندرى ، وما انطوى عليه الفن المسيحى من الواقعية . و بذا يقابل ما يغطى جدار الحيطان من رسوم زخرفية جميلة ، والصور الرمزية التى تنطوى على الدقة الهيلينية ، صور دينية خشنة جافة ؛ مثل صورة العذراء ، ترضع طفلها الجالس بين ملكين ، وصورة القديسين المتنسكين ، الذين اصطفوا إلى جانب المسيح[٢٠٠] . ومن هذه الصور أيضا ، صورة للراهب جيرمى ، اشتهرت بشدة تعبيرها ، وقوة حيويتها . ونستطيع أن نلحظ فى رسوم القرنين الخامس والسادس ، من الصور ، كالتى فى قرطاس الدبتيخين ، مايخالف ما اشتهرت به الإسكندرية من الصور الجميلة الرائعة ، وما اشتهرت به الصحراء العامرة بالرهبان ، من التقشف[٢٠١] .

دير بويط

ما قام به المعهد الفرنسى ، تحت إشراف الأساتذة كيلدا Cledat ، وشاسينا Chassinat ، وجان ماسبيرو ، من حفريات فى بويط ، بالوجه القبلى تعتبر بالغة الأهمية[*] . إذ قام بهذا الموضع دير يعتبر من أهم الأديرة بمصر ، وهو دير الأنبا أبوللو Apollo ، وهو ديرمزدوج ، فيما يبدو ، لأنه يلاصقه دير للنساء ، ولعله دير القديسة راسيل . ويعتبر أيضاً من مزارات الحج الشهيرة ، كما يدل على ذلك حجرة الاستقبال ، وماحفلت بها جدرانها من الكتابات ، التى حفرها الزائرون[٢٠٢]* .

---

(٢٠٢)* انظر : Clèdat: Le Monastére et la nécropole de Baoiut, 3 vols. Le Caire, 1904 — 1916.
Chassinat : Fouilles a Baouit. T. I. Le Caire 1911.
Jean Maspero : Rapport snr les fouilles de Baoiut (C. R. Acad. Inscri. 1913)

http://www.al-maktabeh.com

اشتهر هـــذا الدير بالاتساع، وكبر المساحة، كما تم اكتشاف مجموعة كبيرة من القلايات والكنائس الصغيرة، والقاعات، التى تقع حول الكنيسة الكبيرة، فضلا عن المخازن والاصطبلات والمطبخ؛ وكل ذلك يدل على ما كان لهذا الدير، من أهمية وشهرة فى قديم الزمن. ومن النقوش الهامة التى تم كشفها، ما كان يزين رءوس العقود وتجاويفها، وما كان يكسو تيجان الأعمدة، وزواياها مما يشبه الوشى الدقيق. وفى أسفل الحيطان، كسا الجدار أفاريز جميلة، دقيقة الحفر [٢٠٣].

ومن أهم ما جرى العثور عليه أيضاً، صور عديدة، يرجع بعضها يقينا إلى زمن العرب (القرن الثامن الميلادى)، على أن أقدم هذه الصور، يرجع إلى القرن السادس وأوائل القرن السابع. وتؤلف هذه الصور كلها، مجموعة هامة تمثل الفن المصرى المسيحى.

ويظهر فى هذا الدير، مثلما ظهر فى دير القديس جيرمى، أثر الأسلوب الهلينى، فى الحلية الزخرفية، التى تتمثل فيما يغطى جدران الحيطان من كساوى مصنوعة من الرخام وحجر السماق (الصوان)، وكذا فى صور الطيور والحيونات وسلال الأزهار، وصور الحياة السائدة، نقشت فى جامات أو معينات فيتألف منها على السطح الداخلى للحيطان، إفريز جميل. ويتضح هذا الأثر أيضا، فى الصور الرمزية والأسطورية، التى تذكرنا بالفن السكندرى [٢٠٤].

على أن كل ذلك، إنما يرجع إلى عصر قديم كاد يندثر، لأن الزخرفة نزعت إلى أن تتخذ أشكالا هندسية، وجنحت إلى أن تنتهج أسلوب ما كان معروفا من قبل، من الوحدات الزخرفية. غير أنه ننفذ إلى هذه المجموعة الأثرية،

تيارجارف من الواقعية ، وهبها الالهام ، فابتكر بذلك فنا أخذ يبتعد رويدا رويدا عن الروح اليونانية . إذا اصطف فوق افريز جدر الحيطان ، مناظر من الكتاب المقدس ، مستمدة من قصة النبي داود ، ومن طفولة المسيح، وكذا صور الأنبياء والقديسين ، ومشاهير الرهبان . وظهر على وجوههم من الصرامة ، وشدة التعبير ، ماوهب هذه الصور سمة صادقة من الحياة. ففي أعلى محراب الهيكل ، تراءى المسيح في هالة ، فوق صورة العذراء ، التي أحاط بها الرسل والقديسون . وفي غير هذا الوضع ، تظهر المادونا (العذراء) ، تحمل المسيح ، ويحف بها الملائكة والشهداء. ولا شك أن من هذه الصور ، ما احتفظ بشيء غير قليل من الدقة السالفة ، مثل صور القديسين الفرسان ، كالقديس فو يبامون ، وصور الملائكة التي تحلق من فوقهم . ولم يلبث أن ازداد انتشار الموضوعات المحببة ، في فن الأيقونات القبطي؛ إذ اشتد الشغف بتصوير القديسين المحليين، والشخصيات التقية الصالحة ، التي شيدت الكنائس الصغيرة . فظهر في ذلك من المهارة والبراعة ، ما اختصت به مصر في هذه الناحية . وأخذت الحلية الزخرفية والرمزية ، تختفي بالتدريج ، كيما يحل مكانها التصوير التاريخي[٢٠٥] .

أما رسوم الفرسكو ببويط ،فإنها تدل على تأثرها بالفسيفساء من حيث أوضاع التراكيب المنتظمة ، والاتجاهات المحكمة ، وتمثل أيضا ماطغى على الهلينية من أثر شرقي ، على أن بعض هذه الصور تعتبر من ابتكار الفن السوري[٢٠٦] .

الآثار الأخرى — الفن القبطي :

زخرت مصر بآثار من هذا القبيل ، ففي قبالة أسوان ، وعلى الكثبان الرملية ، التي تشرف على الضفة اليسرى لنهر النيل ، يقع دير القديس سمعان (سيمون). ويطلق عليه أهل أسوان اسم دير الانباهدرا ؛ نسبه إلى أحد الرهبان الذين عاشوا فيه في القرن الخامس في البقعة التي أقيم فيها الدير فيما بعد. وتدل أطلاله

على أنه كان يحيط به قديما ويحميه ، سور منيع . أما الأديرة الأخرى التى لم تندثر ، فإنه مهما أصابها من التغيير ، على مر القرون ، فإن ما بقى منها من العمائر ، ومن مظهرها العتيق ، ما يعطى صورة عن مصر المسيحية . فالدير الأبيض والدير الأحمر اللذان أقامهما شنوده حوالى نهاية القرن الرابع ، على الشاطىء الأيسر لنهر النيل ، قرب سوهاج ، بإقليم طيبة ، إنما يقع فى داخل أسوار قلاعهما المنيعة ، كنائس هامة. وهذه الكنائس ، كانت مستطيلة ، ذات ثلاثة أروقة ، يؤدى إليها بهو ، ينتهى بحجرتى استقبال ، ويفصلها عن الكنيسة الثلاثية الحنايا ، مجاز الكنيسة القاطع transept ، وفوق هذا المشهد (الكنيسة) ، قبة ، ترتكز على ثلاثة جذوع ، يرجع تاريخها فيما يبدو إلى ما بعد العمارة الأصلية[٢٠٧] . وعلى الرغم من أن التصميم لا زال على الصورة الأصلية ، فإننا نلحظ فى أشكال العمارة ، كل ما نقلته مصر المسيحية عن فارس والشام . ونلحظ ذلك أيضا فى الأديرة الواقعة بصحراء النطرون ، أمثال أديرة القديس مقار ، والأنبا بشاى ، وسوريان ، وبراموس ، التى يرجع تاريخها فيما يبدو ، إلى القرن السادس الميلادى ، وفى كنيسة المعلقة ، أو كنيسه أبى سرجه ، التى تعتبر أقدم كنائس مصر عهدا ، ويرجع معظم عمارتها ، فى صورتها الحاليه على الأقل ، إلى ما بعد الفتح العربى[٢٠٨] .

وقد نشأ فى مصر منذ القرن الرابع ، ولاسيما فى القرنين الخامس والسادس ، فن وطنى ، يعتبر إنقلابا ضد الهلينية ، تأثر بتقاليد الشرق القديمة ، ثم لم يلبث أن ازدهر وذاع[٢٠٩] . فعلى الرغم من أن الفن القبطى ، ظل ، فترة من الزمن ، متعلقا بما شاع ببلاد اليونان من النماذج والأساليب ، وبالزخرفة التى هواها الإسكندرانيون ، فإنه أخذ عن سوريا ، استخدام الأساليب والنماذج اليونانية ، فى اتجاهات متفرقة ، واتخاذ رسوم بالغة التطور ، ومزج الزخرفة السكندرية ، بالزخارف الجصية . ثم أخذ الفن المصرى ينزع بالتدريج إلى أن يحمل المساحة

المعدة لرسم الأشخاص صغيرة ، ليفسح المجال للزخرفة التجريدية. أما المناظر المصورة التى احتفظ بها الفن المصرى ، فإنه نقلها عن النماذج السورية . وتلك كانت المرحلة الأخيرة فى تطور الفن المصرى المتأصل فى الشرق ، والذى امتاز بالواقعية ، وصار بعد أن تخلص من المؤثرات الهلينية ، فنا مصريا قوميا خالصا (٢١٠) .

تجلت هذه الاتجاهات فى زخارف بعض المخطوطات، مثل تاريخ الإسكندرية الذى جرى تزيينه وزخرفته بالوجه القبلى فى مستهل القرن الخامس ، وهو كتاب يغلب عليه الطابع القومى . وظهرت أيضاً فى كثير من الصناعات العاجية ، المستوردة أصـــــلا من مصر ، ومنها الحفر الغائر فى قرص كرسى كنيسة اكس لاشابل ، واللوحة المحفوظة بمتحف اللوفر (باريس)، والتى تمثل القديس مرقص ، بين خلفائه بطاركة الإسكندرية ، ومثل قرطاس الدبتيخن ، المعروف بقرطاس مورانو Murano المحفوظ بمدينة راڤنا (ايطاليا) ، ويتضح أيضا فى المنسوجات ، ولاسيما ما ورد منها من مقابر انتينوى (شيخ عبادة) و بانو بوليس (اخميم) .

على أن اختلاف هذه المنسوجات وتنوعها ، كان بالغ الأهمية فى تاريخ الملابس المصرية . فمنها سترات من الكتان المطرز ، وأثواب من الصوف ، ومنها العصبات الحريرية المطبوعة ، ومنها المنسوجات الحريرية الموشاة بالذهب ، التى تستخدم فى تزيين المعاطف ، ومنها الأقمشة المطرزة أو المطبوعة بالصور ، والبسط والفرش . وهناك مجموعة كبيرة من المنسوجات القطنية اقتصرت زخارفها على الرسوم النباتية المحورة ، أو الزخارف الهندسية البحتة . ولم يــكن الأسلوب الزخرفى أقل تنوعا ؛ إذ حفل بالمناظر الطبيعية ، وموضوعات الحياة العامة ، ومناظر الصيد والقنص ، والمناظر الطبيعية ، مثل مناظر الحياة على

امتداد النيل ، ومناظر لملعب (السرك) ، والرسوم الكاريكاتورية (الشخوص) ، وكل ما ارتبط بالفن السكندى من وحدات زخرفية .

وفى هذه الرسوم والصور من الملامح ، مايدل على مدى ما استوحاه الفن المصرى ،منذ القرن الخامس الميلادى ، من النماذج والأساليب المستمدة من مصر الفرعونية . غير أنه إلى جانب هذه المؤثرات المصرية القديمة ، ظهرت مؤثرات أخرى ، وموضوعات جديدة ؛ فبعض اللوحات تمثل صوراً حقيقية واقعية ، كما أن بعض المنسوجات ، جرى زخرفتها بموضوعات دينية . وما نجده بصفة خاصة من صور الفرسان ،وقد اخترق فيها الرمح جسم دابة مفترسة ، أو حيوان خرافى ، وهى صور تأثرت بالفن السورى والإيرانى ، إنما استخدمها الفن المصرى لتصوير القديسين المحببين للمصريين(٢١١) .

ومن هذا القبيل ، مانجده فى الأنواط التى نقش عليها ، مثلما حدث فى المنسوجات الساسانية ، صور ملك يمتطى فرسا ، ويطارد دابة مفترسة . أما الزخارف ، فإن المؤثرات الشرقية حلت مكان الزخرفة الهلينية ، ويتمثل ذلك فى زهرة المتصوف (الناسك)، وشجرة الحياة .

وما كان سائدا فى المنسوجات القديمة من لون يميل إلى الاحتشام والبساطه وعدم التنوع ، لم يلبث أن صار متعدد الألوان البراقة فى هذه المنسوجات التى يرجع معظمها إلى القرن السادس الميلادى ؛ وبذلك ترك الشرق طابعه على كل الفن المصرى ، وحرص على أن يجعل لهذا الفن الوطنى طابعه الخاص (٢١٢) .

على أن الفن القبطى وخاصة بالنسبة لفن النسيج ، لم يندثر بزوال الحكم البيزنطى من مصر وفتح العرب لها سنة ٦٤٠ م ، بل استمر إلى القرن التاسع تقريباً ، ويرجع السبب فى ذلك إلى السياسة الحميدة التى انتهجها العرب إزاء البلاد المفتوحة ،فقد تركوا الأمور الادارية والفنية فى أيدى ابنائها .

الأدب القبطى :

ظهر الأدب المصرى فى نفس الوقت الذى نشأ فيه الفن الوطنى . وسبق الإشارة إلى ماترتب على انتشار المسيحية ، من نتائج هامة ؛ منها ما كان من إحساس المصريين بأهميتهم ، واستخدام اللغة المصرية فى التبشير بهذه الديانة الجديدة ، كيما تبلغ سائر الناس ، وترجمة الانجيل منذ زمن مبكر إلى اللغة القومية ، لتحقيق ذلك الغرض ، وابتكار كتابة جديدة للتعبير عن هذه اللغة القومية .

ومن الطبيعى أن يقترن انتصار المسيحية فى القرنين الخامس والسادس ، بازدياد سيطرة العنصر الوطنى ، ومن الدليل على ذلك ، أن العقود الرسمية المحررة باللغه اليونانية ، تقرر كتابتها أيضاً باللغة القومية (القبطيه) . ومن الواضح أن عدداً كبيراً من الناس ، كانوا يجهلون اللغه اليونانيه ، فلم يسع الأساقفه لجهل معظمهم باليونانية، إلا أن يستخدموا اللغه القبطيه فى الشرح والتفسير[(٢١٣)] . ولذا كان لزما ، من أجل صالح المصريين ، أن يجرى التأليف باللغة القبطية ، على الرغم من أنهم بوجه عام ، لم يكونوا شغوفين بالأدب . والواضح أن هذه الكتابات كانت عادة كتابات دينية ، ومعظمها عبارة عن تراجم لحياة القديسين[(٢١٤)] . ومن هذه الكتابات أيضاً قصائد ، وصل إلينا منها شذرات ومختارات ، ومنها قصص الأتقياء الصالحين ، وسير الشهداء ، ومشاهير الزهاد وكلها عبارة عن أدب شعبى ، حافل بالمعجزات الخيالية الخارقة ، وزخر هذا

(٢١٣)* ومن هؤلاء أبراهام أسقف هرمونثيس Hermonthis (أرمنت) ، الذى أملى وصيته باللغة القبطية ، كيما تنقل إلى اليونانية — انظر بل : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ص ٢٥٢ .

Hardy : Christian Egypt. pp. 169, 172.

http://www.al-maktabeh.com

الأدب أيضا بالصور الحرة ، و بكل مايستهوى خيال القراء من المصريين[٢١٥] . ومن الواضح أيضاً ، أن هذه الآداب لم تتصف بالجودة ، برغم أنها كانت شديدة الوفرة . ومع ذلك كان لهذه الآداب أهمية تعليمية ، لا لما نستخلصه منها من أفكار مصر المسيحية وعقائدها ، بل لما ترتب على غزارة هذه الآداب وطابعها ، من نتيجتين هامتين : —

النتيجة الأولى ، أن العصر البيزنطى فى مصر ، اشتهر بما حدث من تقلص وانحسار المؤثرات الهلينية ، وظهور الأمة المصرية ، واضطراد تقدمها . فتخلى اليونانيون (البيزنطيون) عن مكانهم للعنصر الوطنى . وأخذ المصريون يستردون قوتهم فى ثقة واطمئنان ، برغم أن عملية النهوض استغرقت زمنا غير قصير . فلم يكف هذا العنصر الوطنى ، المعروف بكراهيته للهلينية ، عن إظهار معارضته ومقاومته ، للسيادة البيزنطية . وساعده على اظهار كراهيته لكل ماهو يونانى ، اعتناقه المسيحية ، على المذهب المنوفيزتى ، المخالف لمذهب كنيسة بيزنطة . وتطلع المصريون ، إلى الغزو الفارسى سنة (٦١٢–٦١٨م) ثم الفتح العربى بصفة خاصة (سنة ٦٤١) ، على أنه تحرير لهم من ظلم واستعباد الدولة البيزنطية . وللمسيحية أثر عميق ، وأهمية كبيرة ، فى تطورتاريخ مصر البيزنطية ، لما كان لهذا الدين من أثر فى مقاومة الهلينية ، ولما بذله من تشجيع قوى لإثارة الروح القومية[٢١٦] .

أما النتيجة الأخرى ، والتى لاتقل أهمية عن الحقيقة السابقة ، فتتمثل فيما صحب انبعاث القومية المصرية ، من تدهور اقتصادى ، وقصور فكرى . وسبق الإشارة إلى ضعف مستوى الفن والأدب المصرى ، وإلى أى حد تداعت الثقافة فى مصر البيزنطية ، باستثناء الإسكندرية . على أن هذا التدهور الفكرى ، لم يكن قاصرا على المصريين ، بل شاركهم فيه اليونانيون (البيزنطيون) ؛

كما يشير إلى ذلك ديوسقورس Dioscore ، الذى يعتبر آخر من ظهر فى مصر من الشعراء اليونانيين .

والراجح أن انبعاث القومية المصرية ، لم يصاحبه ظهور أحد من الأدباء والشعراء ، يستطيع أن يصورها بما هى جديرة به من التصوير والتمثيل ، وأن يتولى حمايتها والدفاع عنها (٢١٧) .

على أن المصريين أظهروا ، فى فترات خضوعهم للحكم الأجنبى ، ولا سيما فى العصر البيزنطى ، الذى طفح بالعيوب والنقائص ، من المقاومة الشديدة ، والكراهية البالغة ، للإدارة البيزنطية ، ما لابد أن يؤدى إلى زوال السيادة البيزنطية .

الفصل الثاني عشر

تداعي الحضارة البيزنطية بمصر وانهيارها

أولا – موقف سكان البلاد :

١ – مقاومة عمال الخراج :

على الرغم من الإجراءات التي اتخذها جستنيان لضمان الحصول على الضرائب المقررة على مصر ، فإن دافعي الضرائب يعتبرون مسئولين عما أصاب الخزانة من قصور وفقر . وما لجأوا إليه من أعذار عن عدم مبادرتهم إلى تأدية الضرائب ، تختلف باختلاف الحالات .

وأشارت حسابات قرية أفروديتو إلى فئات المدينين بمصر للحكومة البيزنطية. فمن هؤلاء المدينين ، الصناع ، والتجار الخاضعين لما هو معروف باسم diagraphé ، أي الملزمين بتأدية بعض التكاليف والالتزامات ، ومنهم رجال الكنيسة ، وصغار الملاك ، الذين تحتم عليهم أن يؤدوا للخزانة ما هو مقرر على الأراضي من الضرائب العقارية . فتارة يقوم صغار المزارعين بدفع ما على أراضيهم من الضريبة إلى عامل الخراج مباشرة ، وتارة يتولى ذلك كبار الملاك ، الذين أضافوا إلى ضياعهم الكبيرة ، أراضي صغار الملاك ، الذين صاروا ألفانا لهم ، فصار كبار الملاك بذلك مسئولين ، بما لهم من حق الجباية الذاتية عن جباية ما هو مقرر عليهم من الضرائب (١) . وعلى الرغم من انتشار ونمو الملكية الخاصة ، فإن الأملاك العامة لم تختف نهائيا في القرن السادس الميلادي ؛ إذ أن الأراضي بمصر في القرن السادس اشتملت أيضاً على الأراضي المملوكة للقرية ، وعلى أراضي الإمبراطور ، غير أن أراضي الإمبراطور تضاءلت أهميتها في القرن السادس (٢) .

على أن ما تعرضت له فى كثير من الأحوال الطبقات الدنيا من المصريين؛ كالفلاحين والتجار وصغار الملاك ، من البؤس والشقاء ، هيأ لهم من الدواعى ما يجعلهم عاجزين عن تأدية ما هو مقرر عليهم من الضرائب . ومع ذلك فأننا نصادف إلى جانب أسرات كبار الملاك ، أسرات أصابها قدر من اليسار والثراء . ففى البرديات المحفوظة بميونخ (ألمانيا) ، وكلها تتعلق بأحوال أسرة استقرت قرب سيين ، وهى أسرة Patermouthis اشتهر أفرادها بالجاه والدعة . والراجح أن هذه الأسرة لم تكن نادرة فى القرى المصرية ، وأن أسرات من هذا القبيل ظهرت فى جهات أخرى ، على أن سواد صغار الملاك لم يكونوا كلهم من هذه الفئة[٣] ومن الأمثلة التى تدل على ما تحمله هؤلاء من شدة وطأة الضرائب ، ما جرت به العادة من أن يدفع المستأجر ، للمالك ، ما هو مقرر على الأرض من إيجار ، فى صورة قمح أو محصولات أخرى[٤] . مثال ذلك أن أحـــد الأفراد واسمه ديوسقورس ، باع نحو ثلاثة أفدنه من أرض لا يصيبها الرى ، إلى دير من الأديرة ، وعندما أراد الدير أن يحصل على الضرائب التى باسم ديوسقورس ، طلب أن يؤدى رسوم بلدية عن ١٥ فدانا من أراضى ، صالحة للزراعة ، تقع فى زمام قرية Phthla[٥] .

وحدث أيضاً أن تعرض دافعو الضرائب للخراب بسبب ثقل وطأة الضرائب عليهم . ومن الدليل على ذلك أن شخصاً اشتدت به الضائقة ، واستبد به الفقر ، فرهن إحدى بناته مقابل الحصول على صولد ذهبى . وتشير بردية من البرديات إلى أن ابنته الكبرى ، التى تعمل فى تجارة السمك المملح فى أنتيابوليس ، حرصت على استخلاص أختها بأن لجأت إلى رئيس الإدارة scrinarius لمساعدتها[٦] .

أما الجهات المعرضة لغارات البدو فازدادت أحوالها سوءاً . فتعرضت أقاليم الوجه القبلى ، فى أحوال كثيرة ، لهجمات البليميين أو البدو ، الذين دأبوا على نهب

http://www.al-maktabeh.com

السكان وخطفهم . ومن الدليل على ذلك أنه حينما مات كبير أطباء مدينة أنتينوى ، أوصى بمبلغ من المال لافتداء الأسرى من يد المتبربرين[٧] .

وفى الزمن الذى زار مصر فيه جان موسكوس Moschos ، تعرض جنوب البلاد لغارات اللصوص وقطاع الطرق . وعلى الرغم مما أنزله بهم من الهزيمة فى سنة ٥٥٧، النوباد الذين صاروا حلفاء للإمبراطورية البيزنطية واعتنقوا المسيحية ، فإنهم لم يكفوا عن شن الغارات حتى اضطر دوق طيبة إلى أن يحصن جزيرة فيله[٨] . وتعرضت الجهات الشمالية من القطر المصرى لغارات البربر والمازيك . فتشير الروايات إلى أن دانيال ، أحد رؤساء الأديرة ، فى الأسقيط Scete وقع فى أسر المغيرين مرات عديدة[٩] .

وحدث أيضاً أن المغيرين وقطاع الطرق الذين يجوبون الصحراء ، وجدوا لهم من أهل القرى المصرية من يمد لهم يد المساعدة . ففى شكوى مرفوعة إلى طيبة ، يشير إلى أن منطقة أومبو Ombos (كوم امبو)، تعرضت للغارة والنهب من قبل البليميين ، وقد تلقى هؤلاء البليميون المساعدة من أحد الأشخاص ، واسمه كوللوتوس Kollouthos ، وهو شبه متبربر ، ونصف يونانى ، والراجح أنه كان وثنيا[١٠] .

وعلى الرغم من تعليمات جستنيان التى تقضى بأنه لا يجوز التأخير فى دفع الضرائب ، فإن البرديات زخرت بأمثلة عديدة ، نقضت هذه القاعدة . ومثال ذلك ما بعث به ميناس ، باجرك انتايو ، من رسالة إلى اثنين من أعضاء المجلس الذى يحكم قرية أفروديتو ، وهما ديوسقورس وأبوللوس ، ويشكو فيها من تأخير دفع الضرائب ، وفى رسالة أخرى ما يشير إلى أن القرية لم تؤد كل الأقساط المطلوبة منها[١١] . ومن الإيصالات التى جرى العثور عليها ، ما يتعلق بدفع ما تأخر من الضرائب ، وهذه الضرائب المتأخرة شملت أحياناً ضريبة النولون ، والقمح ، على

الرغم من أن أوامر الإمبراطور تقضى بأنه لا يجوز مطلقاً تأخير تأدية هاتين الضريبتين[١٢] .

وما جرى من حرص بعض دافعى الضرائب على ترديد القول بأنهم أوفوا بما عليهم من ديون ، إنما يدل على أنهم خالفوا القوانين ، وجرى تهديدهم أحيانا باستخدام القوة ضدهم، وفرض الغرامات عليهم[١٣] .

على أن أهل مصر لم يقفوا من جباة الضرائب موقفا سلبيا . ففى مرسوم ١٣ توقع جستنيان ما يصاحب جباية الضرائب من اضطرابات . فمن الناحية العملية لم يقبل الموظفون الموكلون بجمع الضرائب على هذا الضرب من العمل ؛ ففى رسالة محررة باللغة القبطية ما يكشف عن امتعاض شخص جرى تكليفه بجباية الضرائب ، إذ كان يخشى على الأخص منطقة قوص ، وما اشتهرت به من تدبير المكائد[١٤] .

وامتدت متاعب الجباية أيضا ، إلى الجباة الخاصين المكلفين من قبل الضياع الكبيرة المتمتعة بحق الجباية الذاتية . ففى رسائلهم ما يشير إلى مايسببه لهم رقيق الأرض، من مشاكل ومتاعب . فيروى أحدهم ، وهو المعروف باسم فيكتوز ، أنه جبى ما تأخر من الضرائب المستحقة على أهل قرية موشة (فى أسيوط) Mouchis ، غير أنه لم يكن سعيدا ومسروراً فى قرية Pinuris، لأنه لم يستطع أن يحصل على شىء بعد أن وصل إلى القرية مع العمدة meizon ، واستمر سفرها يومين . ولما كانت الأموال المطلوبة عظيمة الأهمية ، فإنه فكر فيما سوف يتبعه السيد من وسائل لإعفائه من هذه المهمة الشاقة ، التى مكث فيها تسعة عشر يوماً دون أن يحصل على نتيجة من النتائج . وفى رسالة أخرى مايشير إلى ماعاق بفكر صاحبها من أمر تأخير أهل ثلاث قرى فى تأدية ما هو مقرر عليهم من الضرائب لسيدهم ، وحرص هذا السيد على أن يلتمس من الوسائل

مايبرىء ذمته عند عمال المالية[١٥] . كأن يبعث بالمندوبين إلى القرية لجباية الأموال، وينصحهم بأن يجبوا أموالا وفيرة ، وحذرهم من العقاب الذى يصيبهم إذ لم يشتد حماسهم فى جباية الضرائب[١٦] .

ولجأ دافعوا الضرائب ، فى سبيل التخلص من دفع الضرائب ، إلى أن يتخذوا من الوسائل التى تدل على اليأس والقنوط ، بأن هربوا من أراضيهم وتخلوا عن زراعاتهم . وعلى الرغم من القوانين الصارمة التى أصدرها جستنيان ضد الملاك المتهمين بأنهم هجروا أراضيهم ، فلا زال ثمة أراضى وحقول لاسيد لها ، تألف منها الأراضى القاحلة التابعة للقرية ، والتى تقرر فرضها على سكان القرية ، ليقوموا بزراعتها ، ومن الطبيعى أن ذلك لن يؤدى إلا إلى ازدياد أعبائهم[١٧] .

يضاف إلى ذلك أن ما حدث من ازدياد نمو حياة الرهبانية فى مصر ، لم يكن فى صالح الإدارة المالية . فإن الأديرة والمناسك استهوت عددا كبيرا من المصريين ، ففى زمام قرية واحدة ، وهى نقيوس ، انتشر ما يقرب من سبعمائة راهب . فلما غادروا مدينتهم وقريتهم وتخلصوا من الالتزامات التى ارتبطوا بها قبل المالية (الادارة المالية)، توجهوا إلى الصحراء فاستقروا عادة فيما كان من الصحراء قريبا من القرى المصرية ، فى شعاب الوديان والمغارات ، يمارسون فيها حياة المتنسكين[١٨] . ومن تبقى منهم بأرضه ، رأى أن أسلم وسيلة للتخلص من الضريبة ، هى أن يلتمس حماية كبار الملاك ، وبذلك صار يقابل نفوذ وقوة كبار الملاك ما اشتهر به صغار الملاك من الضعف والمذلة ، على أن فى ذلك شيئاً من المبالغة[١٩] .

ومن الواضح أن الكنيسة تعتبر من كبار الملاك الأثرياء . فبفضل ما حصلت عليه من هبات دينية ، صارت تملك جانباً كبيراً من أرض مصر ، تشمل الأراضى التى تحيط بالأديرة والكنائس ، فهى فى الواقع تعتبر قوة مالية كبيرة . فامتلكت كنيسة الإسكندرية من الأراضى والممتلكات ، ما امتد حتى إقليم أرسينوى

فإلى جانب ما كان لها من نصيب فى ضريبة الميرة العامة ، استطاعت أن تجمع من كميات القمح ، ما شحنت بها ذات مرة ثلاث عشرة سفينة كبيرة من السفن التجارية التى يشحن بها الحبوب[٢٠] .

وعلى الرغم من أن الأديرة تؤدى الضريبة العقارية ، فإن عدداً كبيراً من هذه الأديرة ، استطاع أن يحصل على امتيـــاز يعفيه من هذه الضرائب ، ولا شك أن ازدياد الضياع الديرية سبّب للخزانة خسارة كبيرة . على أننا لا نعلم الطريقة التى اتبعها المشرفون على أملاك الكنيسة فى الوفاء بالالتزامات قبل الخزانة ، ولا نعلم أيضا ما اتخذته الكنيسة من إجراء لحماية فلاحيها من عمال المالية . على أن جستنيان رأى من الصواب ، أن يمنع البطريرك ورجال الكنيسة ، من أن يعطوا من جانبهم ، دافعى الضرائب ، خطابات بإعفائهم من الضرائب[٢١] .

أما كبـــار الملاك المصريين فلا شك فيما بذلوه من مساعدة لأقنائهم ، وفيما مارسوه من حرية إزاء الخزانة .[٢٢] وما أقاموه من جيوش خاصة بضياعهم ، عملوا على استخدامها ، عند الضرورة ، لمقاومة جباة الضرائب .

وينبغى ألا نغفل أيضا ما كان يجرى فى معظم الأحوال ، من أن بعض كبار الموظفين كانوا يلتمسون من الوسائل الأكيدة ، ما يتحاشون بها القوانين المالية؛[٢٣] فالكونت أمونيوس ، من كبار الملاك فى طيبة لم يحفل مطلقا اذا تأخر فى تأدية الضرائب المطلوبة منه[٢٤] .

وفى خطاب إدارى ، سبق الإشارة إليه ، ورد أن موظفا صار يؤنب أهل أفروديتو لإهمالهم ، ومن التفاصيل الممتعة الواردة به نقطة على جانب كبير من الأهمية. ذلك أن هذا الموظف لم يجد ما يوضح به سوء نية السكان ، من تأنيبهم بهذه العبارات «انظروا كيف قام كبار الملاك بالمدينة ، لا سيما أسرة جوليان ، الوالى السابق ،

بتأدية كل ما هو مقرر من الضرائب فوراً، فلم يسببوا لى من هذه الناحية شيئا من القلق والاضطراب . فكيف يجرؤ سكان أفروديتو ، بعد الاشارة إلى هذا المثال ، على أن يتأخروا فى دفع ما عليهم من الضرائب والمقررات ، وأن يواجهوا تهديدات الباجرك . فإذا لم تبادروا غدا بدفع ما هومقرر عليكم من الضرائب ، فلن يجلب لكم ذلك السرور والبهجة »[٢٥] .

ووقفت الدساتيرالإمبراطورية جامدة ، إزاء ما اشتهر به كبار الملاك المصريين من القوة والنفوذ . فعلى الرغم من أن الدساتير الإمبراطورية حرمت نظام الحماية ، فإن الحماية صارت من التقاليد الثابتة فى النظم . و إذا غدا من اليسير الحصول على حماية كبار هؤلاء المقطعين المحدثين ، وذلك بأن يصير صغار الملاك اقنانا لهم ، بعد أن صارت الضرائب من الثقل والضخامة ، ما لم يكن فى وسع ما ينتج من أراضيهم أن يسدد ماهو مقرر من الضرائب فى معظم الأحوال ، فأخذوا فى التخلى عنها لكبار الملاك،أماحماتهم فكانوا خيراًمنهم فى ثباتهم فى النضال ضد الخزانة[٢٦] .

وتشير برديتان من أفروديتو إلى مثلين عن هذا النوع من انتقال الملكية ؛ إذ تنازل أحد الأفراد ، واسمه Psatés عن أراضيه إلى ديوسقورس أحد الملاك بأفروديتو . والمثال الآخر يتناول أيضا عقدا بين ديوسقورس ذاته و بين جيريمى (أرميا) Jéremie ، والديساتس . ونتبين من ذلك أن أرض أسرة يساتس ، انتقلت بالتدريج إلى أيدى أسرة ديوسقورس المشهورة بثرائها[٢٧] .

وكل ما بذله الأباطرة من محاولات لمنع الحماية ومحاربتها لم تجد نفعا ، وصارلزاماً على الأباطرة الذين خلفوا جستنيان فى الحكم ، أن يجددوا ما سبق أن أصدره من القوانين التى لا تقر الحماية[٢٨] .

والواضح أن ماجلبه كبارالملاك من أضرار للحكومة كان بالغ الخطورة إذ أنهم امتلكوا الجانب الأكبر من أرض مصر ، فأضاعوا على الخزانة قدراً كبيراً من

الضريبة العقارية التى ينبغى أن تحصل من البلاد . يضاف إلى ذلك أنهم بفضل ما بذلوه من حماية لصغار الزراع، أسهموا فى مساعدتهم على التخلص مما هو مقرر عليهم من التزامات[٢٩] .

وما يجرى من منازعات أحيانا بين سكان المدن والقرى ، كانت تؤدى فى أحوال كثيرة إلى اشتباك مسلح ، فلم تلبث أن تنشب الحروب الداخلية . وأسهم المصريون فى إثارة الفوضى؛ حيث حرص كل فرد ، فى هذا المجتمع الاقطاعى ، على أن ينال حقه بيده ، نظراً لما اشتهرت به الحكومة البيزنطية فى مصر من الضعف . وساءت بذلك حالة الإدارة المالية ، إذ تحطمت القوى الإمبراطورية إزاء مقاومة دافعى الضرائب من المصريين . ولاشك أن ماحاق بالمصريين من ظلم الولاة البيزنطيين، واشتدادهم فى جباية الضرائب ، كان من العوامل التى دفعت المصريين إلى اعتناق الإسلام والترحيب بحكم العرب[٣٠] .

٢ — المصريون ومناوءة البيزنطيين :

لم يختلف المصريون عن سائر رعايا الدولة البيزنطية ، فى حرصهم على التخلص من الالتزامات المالية المفروضة عليهم من قبل الدولة . غير أن ما اشتهر به المصريون من الطباع والصفات ، التى تكرر ظهورها أثناء الحكم البيزنطى ، وهذه الطباع تتمثل فى شدة مقاومتهم ومناوءتهم ، تعتبر من الصفات الأصيلة عند المصريين .

ذلك أنه حينما صارت مصر ولاية رومانية ، لم تكن الهلينية قد تغلغلت إلى داخل البلاد ، فظل القطر المصرى دائما وثيق الارتباط بالتقاليد الوطنية . والمعروف أن روما اتبعت فى حكم مصر ما اتبعته من الوسائل فى سائر الولايات ، على أنه فى أثناء السيادة الرومانية لم تنفذ الهلينستية إلى داخل البلاد ، ولم تصب نجاحا يذكر فى الإقليم . وعلى الرغم من أن ، كراكلا منح سكان مصر حق المواطنة ، فى القرن الثالث الميلادى ، فالواقع أنه قصد بذلك العنصر الذى غلبت عليه الصفة

http://www.al-maktabeh.com

اليونانية . غير أن اليونانيين ، أى الاسكندرانيين ، ومنهم يونانيو الجمناز ، واليونانيون العاديون ، لم يؤلفوا إلا اجانبا ضئيلا من السكان[٣١] ، ومنهم تتألف الأرستقراطية المحلية ، التى ينتخب منها مجلس سناتو المدينة ورجال البلدية ، فضلا عما اشتهروا به من الثروة والنفوذ . بينما استقر المصريون بالساحل ، وفى غرب النيل ، أما الأجانب ، فإنهم سكنوا بضاحية الإسكندرية ، وأضحوا من الرعايا . على أن القرى ذاتها لم تلبث أن أخذت بالتدريج بحياة البلديات (حياة المدن) . ففى القرن الثالث صارت الوظائف العامة وجباية الضرائب بالقرى من الأعباء العامة التى يتكفل بها فئة مسئولة من أهل القرية ، وظل هذا النظام سائداً فى القرن السادس الميلادى . على أن حياة المدن فى مصر أصابها من الانهيار والتداعى ما أصاب سائر الإمبراطورية ، ومع ذلك فإن أهل القرى ، وحراس الحقول ، اتخذوا لأنفسهم من الأسماء ما اختص بها المواطنون الرومان ، فلم يكتفوا بالأخذ بالحضارة المصرية[٣٢] .

وما حدث من توقف التعليم وانقطاعه فى الجمناز فى القرن الرابع الميلادى ، يعتبر ضربة خطيرة أصابت الثقافة اليونانية فى البلاد برغم بطء تقدمها وسيرها[٣٣] . ومع ذلك لا شك أن اللغة اليونانية ظلت قائمة ، وعلى الرغم من أنه جرى استخدامها على أنها لغة القانون والإدارة ، فإن الإلمام بها لم يكن إلا شكلياً وظاهريا ، حتى عند الكتاب الذين يحررون العقود . وظلت اللغة القومية (القبطية) سائدة ، بعد أن أخذت عن اليونانية الحروف الهجائية وكثيراً من الألفاظ . فلم تكن الوثائق وحدها ، فى القرن السادس ، هى التى يجرى تحريرها باللغة القبطية ، بل تحتم أيضا مثلما حدث فى أوائل عصر البطالمة ، أن يجرى تحرير العقود العامة باللغتين الرسمية والقوميه[٣٤] . ولم تكن هذه الترجمة لازمة فحسب ، للمزارعين الأميين بالقرى ، بل إن القبطية كانت لغة الحديث أيضاً فى شوارع لإسكندرية . ومن الأمور البالغة الأهمية للموظفين القادمين من بيزنطة إلى مصر ، ما كانوا

يستخدمونه من ملخصات عن المحادثة ، اشتملت على اللغات اللاتينية واليونانية والقبطية[٣٥] . وماقام به الأسقف هيرموثيوس Hermouthius من ترجمة الإنجيل إلى اللغة القبطية ، إنما يدل على أنه ليس من المحتم على من يريد أن يكون من رجال الكنيسة ، أن يعرف اليونانية ، بل إنه ازداد استخدام القبطية ، وتفضيلها على اليونانية ، فى الآداب الدينية[٣٦] .

وانتشرت الآداب القبطية تبعا لذلك فى سائر أنحاء البلاد ، ومن الواضح أن الأدب القبطى كان وثيق الصلة بالمعتقدات الدينية ، التى يعتبرها المصريون من أقوى مظاهر استقلالهم . وكان تعلقهم الشديد ، بالكنيسة المونوفيزتية ، التى تعتبر من بعض النواحى ، كنيستهم القومية ، مظهرا من مظاهر المقاومة للحكومة البيزنطية التى اعتبروها حكومة الأجانب . يضاف إلى ذلك أن الديانة المصرية القديمة (الوثنية) ، لازالت قائمة فى الوجه القبلى ، وفى ذلك دليل على استمرار التقاليد المصرية القديمة ، فى صورة أخرى[٣٧] . وبذلك لم تختف تماما روح العنصر المصرى أثناء السيادة الرومانية ، إنما ازداد شعور المصريين ، بقوميتهم فى القرن السادس الميلادى . وأكثر ما تجلت هذه الروح ، عند الفتح العربى ؛ فلم تعد مصر مجرد ولاية امبراطورية ، اذ اشتد المصريون فى مقاومة البيزنطيين ، وصاروا ينظرون إلى بلادهم على أنها مملكة شبه مستقلة . ومن الدليل على ذلك أن المقوقس عظيم القبط فى مصر ، كان فى مكانة سائر الملوك (قيصر الروم ، كسرى ملك الساسانيين ، ونجاشى الحبشة) الذى بعث إليهم النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) الرسل يدعوهم إلى الإسلام[٣٨] .

على أن المصريين أنفسهم اشتد تيههم و إعجابهم بكل ماهو مصرى ، وأضمروا الاحتقار والكراهية لكل أجنبى قادم من بيزنطة . و ينبغى أن نقرر أيضا أن العنصر المصرى يعتبر أقدم العناصر المعروفة على سطح الأرض[٣٩] . فلم يكن ثمة من استطاع أن يقاوم المذهب الخلقدونى سوى المصريين الخلص . ويشير تاريخ

بطاركة الإسكندرية إلى المقاومة العنيفة التى أبداها دير بالوجه البحرى ، لما أجراه الإمبراطور هرقل من اضطهاد شديد للمونوفيزتيين[٤٠] . فما اشتهر به الرهبان من البسالة الرائعة ، إنما يرجع إلى أنهم من العنصر الوطنى الخالص ، لم تختلط بهم عناصر أجنبية . فإن تكن من أهل البلد ، يعتبر ذلك ميزة بلغت من عظم الشأن ، أن شاعرا من طيبة أشاد بها عند أحد كبار الموظفين ، وهو فلافيوس ماريانوس Flavios Marianos دوق طيبة . فلم يكن أجنبيا ، أو غريبا ، سليل كيرلس ، وكوميتس Komêtès ، المعروفين بزعامتهما الوطنية . كما أن الشخصيات التى أثارت الخيال الشعبى ، بما قاموا به من أعمال جليلة ، أو بما ارتكبوه من جرائم ، كانوا من المصريين ، فكان دقلديانوس ، فى قصصهم مصريا ، وكانت تيودورا ، من أصل مصرى[٤١] . وزعم المصريون : فى غمرة كبريائهم الوطنى ، أن المسيحية لم تكن إلا من مفاخر عنصرهم ، فمصر دون غيرها من البلاد ، تعتبر خير الأوطان . ألم يكن المسيح فى زعمهم قد وُلد فى هيراقليوبوليس (الطابية الحمراء) بطيبة ؟ أى أنه من المصريين[٤٢] .

أما بيزنطة فلم تظهر هذا الاعجاب بالعنصر المصرى الأصيل . فلم تجد الأهرام وما حاط بها من القداسة ، من المؤرخ بروكوبيوس سوى الازدراء ، ولم يعترف بعظمتها أو أهميتها . أما الصفات الفكرية عند القبط فلم تحظ بشىء من التقدير فى القسطنطينية ، إذ أن عواطفهم سقيمة ، ولا يركن إليهم فى الأعمال الجدية ، ولم تتوافر عندهم الكياسة فى المناقشات الميتافيزيقية ، واشتهر علماء الدين عندهم بالجهل . يضاف إلى ذلك ما رمى به البيزنطيون ، القبط من الجهل ، وأنهم ليسوا إلا رعية . وبرغم ما حدث فى القرن السادس الميلادى من أنه أضحى من المصريين كبار ملاك ، ومن نال حظا كبيراً من التعليم ، ومن صار من كبار موظفى الحكومة ، فقد اعتبروهم فى شىء من التجاوز بأنهم يمتون إلى الأصول المصرية[٤٣] . ذلك أن بيزنطة ، باعتبارها وريثة للبطالمة والرومان فى حكم مصر ، اعتبرت نفسها

صاحبة السلطة المطلقة فى تصريف أمور مصر ، على الرغم من أنها لم تنجح فى جعل لغتها الرسمية هى اللغة القومية ، بينما نجح العرب فى ذلك [٤٤] . وزاد من سخط المصريين وثائرتهم ماتعرضوا له من قبل هؤلاء الأجانب من السخرية والازدراء، لاسيما حين زعم هؤلاء الأجانب ، باعتبارهم حكام البلاد ، لأنفسهم الحق فى أن يفرضوا عليهم مذهبا دينيا معينا ، وأن يستخلصوا منهم الضرائب المقررة [٤٥] .

ومن اليسير أن نتبين ، فى هذه الأحوال ، المتاعب والمصاعب التى يتعرض لها الموظفون المكلفون بممارسة القضاء والشرطة فى مصر . فإذا كانوا يعانون ويقاسون من التراخى والتهاون ، ومن الطغيان الذى اشتهر به الموكلون بالأمن والقانون ، فإن المصريين من جانبهم سوف لا ييسرون لهؤلاء الموظفين أن يؤدوا واجبهم . يضاف إلى ذلك أن أحدا لم يقبل على أن يتحمل من الأعباء والتكاليف التى تحملها صغار المستخدمين ، الذين يتولون بعض وظائف القضاء والشرطة [٤٦] . فالراجح أن أهل القرى والمدن نفروا من هذه الوظائف الحرجة الخطيرة ، مما أدى فى كثير من الأحوال إلى أن يتدخل رئيس الأبروشية لحمل أحد الأشخاص على أن يقبل أن يتولى إحدى هذه الوظائف البغيضة الكريهة [٤٧] . ومن الدليل على ذلك الأمر الذى أصدره رئيس أبروشية طيبة ، ديوسقورس ، إلى شخص اسمه أبوللو Apollos ، يطلب فيه أن يتولى وظيفة الشرطة riparios فى أفروديتو .

وما حفظته البرديات، فى كل العصور ، من شكاوى ، أوقفتنا على ما اشتهر به المصريون فى القرى من روح الدعابة والسخرية المرة ، فأصبح من الأمور الجارية كل يوم ، ما يقع بين الجيران من المناقشات والعداوات، وما يترتب على ذلك من حدوث الأضرار بالملكيات . [٤٨] على أن هذه المنازعات والمشاجرات لم تحدث فحسب بين الرعاة والفلاحين ، كما هو وارد فى نصوص القرن السادس

http://www.al-maktabeh.com

الميلادى ، بل ترتب على ضعف السلطة المركزية وبعدها ، أن أضحى للنزاع بين سائر الأفراد فى مصر البيزنطية أهمية خطيرة [٤٩].

ونستطيع أن نتصور الخسائر والأضرار ، التى نجمت عن المنازعات التى حدثت بقرية من القرى ، وذلك بما ورد فى قائمة بالأشياء المنهوبة من بيت شخص اسمه قرياقص Kyriakos ، عمدة سبانيا Spania ، وهذه القائمة تلاها أسماء الأشخاص الذين تحتم عليهم أن يدفعوا تعويضاً عن هذه السرقة ، والمبالغ التى تحتم على كل واحد منهم أن يدفعها . ومن هؤلاء الذين وردت أسماؤهم : شيخ القرية presbuteros ، والكاتب ، والمهندس ، والموكل بالمنشفى و pragmateutes ، والملاحظ epitropes ، وغيرهم من أرباب الحرف [٥٠] . واقترنت سرقة المواشى بما يحدث بانتظام من المعارك ، بل إن ما كان يجبى من الأموال برسم الضرائب ، تعرض فى غمرة الاضطرابات ، إلى النهب والسرقة . وحدث أن صارت قرية من القرى فريسة للاضطرابات والحروب الداخلية ؛ إذ ورد فى رسالة ، مكتوبة على بردية من البرديات ، أن وقع شجار بين جماعة من الفلاحين ، لم يلبث أن استفحل حتى أوشكت القرية أن تتحول إلى صحراء لولا أن تداركتها العناية الإلهية والدعوات والصلوات [٥١] .

وحدث فى بعض الأحوال أن وقع شجار بين قريتين ، ولم يتردد سكان القريتين فى أن يشتغلوا بالنهب والسلب ، والإغارة على جيرانهم [٥٢] .

وبلغ من اضطراب الأمن فى البلاد ، أن اتخذ كبار الملاك جيوشاً خاصة (البقلار) ، ودرجوا على أن يقوموا بتسليح أتباعهم وخدامهم [٥٣] . وأشار أحد الأفراد فى شكواه ، بأنه لا بد من حماية البلاد من الشرور الداخلية ، ولا يتحقق ذلك إلا بالتخلص من الجيوش الخاصة ، التى تعيش عالة على الشعب ، ومنع أتباع كبار الملاك من حمل السلاح ، ومنع ما يقع من المشاجرات وما يستخدم فيها من الأسلحة [٥٤] .

وبلغت كراهية السكان الأصليين وعداوتهم من الشدة ، أن حدتها لم تخف زمن الفتح الإسلامى . إذ يروى المؤرخ حنا النقيوسى ما صادفه من للتاعب الناجمة عن المنازعات بين الناس ، تيودور قائد القوات البيزنطية فى مصر ، ولا يبعد أن هؤلاء السكان رحبوا بقدوم العرب واستيلائهم على جزيرة لكيون Lokyon (٥٥)

ويشتد أحيانا النضال ، بما يجرى من تنافر بين حزبى (فريقى) السرك ، الزرق والخضر. فالمعروف أن الميل إلى سباق الخيل كان معروفا وشائعا فى أنحاء البلاد ، ففى المدن الداخلية ، ميادين للسباق ، كالتى بالاسكندرية . وفى حسابات البهنسا ، إشارة إلى مرتبات وأجور ، مستخدمى ميدان السباق ، وثمن أدوات خيل السباق . وكان لكبار الملاك اصطبلاتهم الخاصة (٥٦) .

وتردد أيضا ، فى ضواحى المدن ، صدى ما يقع من المنازعات العنيفة بين الزرق والخضر مثلما كان يحدث فى بيزنطة ذاتها .وما كان من النزاع بين الحزبين المتناظرين ، انعكس فى ثورات الموظفين ، التى بادر السكان إلى الاشتراك فيها .

هذا هو ماحدث بالضبط فى ثورة الباجاركة الثلاثة فى ايكيلا Aikeleh (فوه) التى وقعت زمن الإمبراطور موريس . اذ لم يلبث أن تولد منها من الاضطرابات والثورات ماعم أنحاء البلاد ، إذ أن ثلاثة من أهالى (ايكيلا) قرب الإسكندرية أرادوا أن يقتلوا حاكم بوصير ، لأنه تسبب فى هروب بعض الثوار المشاغبين (٥٧) . ولما علموا بعودة حنا أوجستال الإسكندرية من بيزنطة ، التى جرى استدعاؤه إليها لمساءلته فى أمر ثورة الباجاركة ، بلغ الاضطراب أشده وأقصاه . إذ أن أحد زعماء الفتنة ، واسمه اسحاق ، ركب البحر مع جماعة من صحبه ، فاستولوا على عدد من السفن ، ودمروها وغنموا مابها . ثم أمعن أهل أيكيلا فى ارتكاب الشرور ، فقبضوا على عدد من الأشخاص وألقوا بهم فى السجن ، ومنهم الموظفون الموكلون

بأسطول القمح . و بلغت الجرأة من بعضهم ، أنهم طالبوا بعزل الأوجستال . فاجتمع فى أبى صير ، الزرق والخضر بالموظف المعروف باسم Euloge ، الذى يتولى وظيفة Boethos ، وبطليموس قائد البربر . ووجهوا من التهم إلى الأوجستال « بأنه لا يحترم أهل البلاد ، و يكره الإنصاف ، ولا يستجيب لرغباتهم » ؛ وما نلحظه فى هذه القصة أن الموظفين والسكان الأصليين ، أجمعوا على مناهضة الحكومة البيزنطية(٥٨)* .

(٥٨)* هذه الرواية جاءت بصور مختلفة ، على الرغم من أن المصدر الذى أخذ عنه المؤلفون هو حنا النقيوسى : فيشير ما سبيرو إلى أن ثلاثة أخوة من مدينة Metelis ، كانوا باجاركة وتربونات لمدن عديدة بالدلتا ، قاموا بالثورة ، دون غرض ظاهر ، فطاردوا باجرك بوصير ، الذى هرب إلى بيزنطة . وألف هؤلاء الأخوة جيشاً من المغامرين ، وتعرضوا للسفن التى تحمل القمح إلى الإسكندرية ، فنشبت الثورة بالمدينة الجائعة ، لم يستطع الأوجستال حنا إخمادها ، فأعفاه الإمبراطور موريس من منصبه . غير أنه لم يلبث أن عاد إلى منصبه ، لحشد العساكر ، غير أن هذه الفتنة لم تنته بفضل القوات النظامية ، إنما بفضل أحد المغامرين ، وهو تيودور ومن كان بصحبته من الأعوان .

أما رواية (ديل) فتشير إلى ما تمتع به هؤلاء الأخوة الثلاثة من المكانة والثروة ، والمركز الإدارى المرموق ، ماجعلهم يهاجون الزرق بمنطقتهم وينهبون مدينتى بنا وبوصير ، ولم يفلت حاكمها من موت محقق إلا بصعوبة ، وبادر أهل أيكيلا إلى الانحياز إلى الثائرين . وصدرت الأوامر للدوق الأوجستال « حنا » بقمع الفتنة وعزل الثائرين من مناصبهم ؛ وعندئذ حشد الثوار جنوداً مزودين بالأسلحة القوية ، فاعترضوا السفن التى تحمل القمح إلى الإسكندرية ، وأدى ذلك العمل إلى وقوع مجاعة بالمدينة ، بلغت من الشدة أن قام أهل المدينة بالثورة على الدوق الأوجستال ، وطالبوا بعزله . ولما عزم الدوق على قمع الثورة ، بناء على أمر الإمبراطور ، إزدادت الثورة اشتعالا حتى عمت أنحاء الإقليم ، وركب أحد زعماء الثورة البحر فى عدة سفن ، وأوقف بعض السفن المتوجهة إلى الإسكندرية فأغرقها ، بينما استولى آخرون على السفن المحملة بالقمح ، القادمة بالنيل ، واغتصبوا ما تجمع من الضرائب التى أتبع موظفو الأمبراطور فى تحصيلها أساليب العنف والقهر . وعمل بعض كبار الشخصيات على إقصاء الأوجستال عن منصبه « لأنه لا يحترم الناس ، ولا يعاملنا بما نحب أن نعامل به » . وتطلب إخماد الثورة آخر الأمر ، حشد الجيش بأكمله « قوات الإسكندرية ، ومصر والنوبة » . واقتضى أيضاً استخدام القوة المرابطة بالإسكندرية ، حيث وقع كثير من التخريب والتدمير ، ولم تخمد الثورة إلا بعد معركة حربية . وتقرر إطلاق سراح فريق من الثائرين ، فانحازوا إلى جانب جيش الأمبراطور ، وتقرر أيضاً إعدام جماعة منهم بعد تجريسهم فى أنحاء المدينة ، وجرى الحكم على آخرين بعقوبات بدنية ، ومنهم من صودرت أملاكه . أما إيكيلا فتقرر إحراقها ، فلم يعد الهدوء والسلام إلا بعد زمن طويل (انظر :

Maspero : p. 130

Diehl: p. 534.

ولما أعلن موظفو مدينة ميرادا Merada فى الوجه البحرى ، الثورة ضد تيوفيل حاكم المدن الخمسة ،على حد قول حنا النقيوسى ، انحاز إليهم عدد كبير من سكان البلاد ، وانغمسوا فيما تلى ذلك من منازعات(٥٩) .

وحدث شىء من هذا القبيل سنة ٦٠٩ ، حين غزا مصر ، نكيتاس نائب هرقل حاكم افريقية ، الذى أعلن تمرده على الإمبراطور فوكاس(٦٠) . ولم يلبث المصريون أن انحازوا إلى الثوار ؛ إذ أن حزب الزرق بالإسكندرية ، نهض للمساعدة ضد الحكومة البيزنطية فى مصر ، التى يمثلها الدوق الأوجستال اريستوماك ، دوق الإسكندرية ، والذى اشتهر بأنه صديق الإمبراطور (فوكاس). فصادروا ممتلكاته ، وكذا أملاك أعيان مدينة منوف ، فحل بهم من الفقر ماجعلهم عاجزين عن تأدية ما هو مقرر عليهم من الضرائب(٦١) . على أن الكراهية المشتركة للحكومة البيزنطية ، حكومة فوكاس ، أدت إلى اتفاق الحزبين المتنازعين الزرق والخضر ، فتخلى الزرق عن تأييد الإمبراطور(٦٢) .

ولما اشتهر به سكان مصر زمن البيزنطيين من سرعة الإثارة الدينية ، فمن الطبيعى أن يشتركوا فيما يجرى من المنازعات ؛ إذ امتلأ خيال المصريين بما يقوم به الزهاد من المعجزات، وما أحاط حياتهم من الغرائب ، وما ارتبط بهم من الرؤيات المثيرة . وتأثر نكيتاس أيضاً بذلك ، ففى أثناء ثورة نكيتاس ، حدث أن أحد الزهاد وهو تيوفيل، وكان شيخاً اتخذ مقامه على رأس عمود يقع على شاطىء النيل، وظل على هذه الحالة نحو ثلاثين سنه ، واشتهر بتنبؤاته، فأشار إلى أن نائب هرقل سوف يحرز النجاح والنصر . ولما سمع نكيتاس بما اشتهر به هذا الزاهد من الفضائل ، بادر إلى زيارته ليستأنس برأيه ، وقد استبد به الخوف من النتائج التى سوف تترتب على النضال ضد بونوس Bonos ،الذى بعث به فوكاس إلى مصر ، بعد نجاحه فى قمع ثورة لليهود بأنطاكية ، ليرد جيوش هرقل ، وليعيد مصر إلى سابق

بولائها لفوكاس[٦٣] . فأخبره هذا الزاهد «سوف تقهر خصمك بونوس ، وسوف تسقط حكومة فوكاس، وسوف يكون هرقل إمبراطوراً » . وما كاد نكيتاس يستمع إلى هذه النبوءة ، حتى عاد إلى الإسكندرية ، وشن هجوماً كبيرا على جيش الإمبراطور ، فأحرز انتصاراً باهرا[٦٤] .

والواضح أن مدينة الإسكندرية كانت تعتبر أخطر موطن للاضطرابات فى سائر أنحاء البلاد ؛ فالمعروف أن الإسكندرية يعيش بها أخلاط من الناس ، من السوريين ، واليهود ، والعرب ، واليونانيين ،فضلا عن السكان الأصليين ، فلم تكن فحسب مركزا للعلم والدراسة ، أومستودعاً ضخماً للتجارة ، بل كانت أيضامكانا للمتعة واللهو ، اشتهر أهلها بالميل إلى الشغب والثورات[٦٥] . وأدرك جستنيان هذه الحقيقة ، فأشار فى إحدى قوانينه الصادرة سنة ٥٣٩ ، إلى أنه ينبغى على حكام الإقليم ، أن يحرصوا على أن ما يصنع من الأسلحة فى مصانع الحكومة ، لايجرى بيعها إلى الأفراد ، وألا تستخدم فى الفتن الداخليـة . وفرض غرامة قدرها عشر صولدات (ليرات) على من يخالف ذلك من حكام الإقليم ، بل إن الخوف من ثورات الإسكندرية بلغ من الشدة ، أنه جرى تهديد الدوق الأوجستال ، بأن يدفع غرامة قدرها عشرون صولدا (ليرة) إذا لم يمعن فى مراقبة تجارة الأسلحة[٦٦] .

وفى كل ثورة من الثورات التى تنشب بالإسكندرية ، تعرضت شون القمح للهجوم والنهب ، فينعدم الخبز فيزداد الناس هياجا . ومن الدليل على ذلك أن ما أحدثه رجال ايكيلا (فوه) من الاضطرابات ، أدى إلى ندرة المؤن فى الإسكندرية ، فحاول أهلها اغتيال الأوجستال حنا ، فألحقوا بالمدينة خسائر فادحة[٦٧] .

ولما حدثت ثورة نكيتاس ، كان من الطبيعى أن يشارك فيها أهل الإسكندرية ، إذ أخذوا يطاردون القوات الإمبراطورية ، ويقذفونها بالحجارة ويرمونها بالسهام .

ولم يكونوا أقل خطورة من الجند، على أنصارفوكاس؛ ومن الدليل على ذلك أن تيودور، البطريرك الخلقدونى، لجأ إلى كنيسة القديس اثناسيوس الواقعة على شاطىء البحر، خوفا من أهل الإسكندرية ومن قوات نكيتاس أيضا[٦٨].

وفى أثناء الفتح العربى، نشبت الحرب الداخلية بين سكان المدينة، ومن الطبيعى أن يشترك الزرق والخضر فى النزاع، والراجح أن هذاالنضال إنما نبع من المنازعات الدينية[٦٩].

فما اشتهر به المصريون من الميل إلى الثورة والاضطراب، كان من العوامل التى اعترضت تحقيق إصلاحات جستنيان فى مصر، إذ صار من العسير أن ينتظم فيها تطبيق إدارة مالية وقضائية ثابتة. وما طاب لسكان البلاد من إثارة القلاقل ضد الحكومة البيزنطية، جعل من العسير على موظفى هذه الحكومة أن يباشروا عملهم فى شىء من الاطمئنان والهدوء[٧٠].

ثانيا — مظالم الموظفين

١ — تحسن الأحوال الإدارية

ونظراً لثقة جستنيان فيما قام به من إصلاح، اكتفى بمراعاة ما ساد البلاد من الإهمال والفساد، من قبل الموظفين. ألم يتخذ من الوسائل ما يمنع حدوث الاضطرابات والقلاقل؟ ألم يكفل للموظفين من المرتبات ما يليق بعظمة بيزنطة؟.

الواقع أن ما اتصف به الموظفون فى مصر من الطباع السيئة لم تتغير مطلقا، وأن ما سلكوه، من النهج فى مباشرة سلطتهم لايتفق تماماً مع ما يعلقه عليهم الإمبراطور من آمال. ومع ذلك كان بمصر فى القرنين السادس والسابع من الشواهد ما يدل على حزم الولاة، واهتمامهم بصالح المحكومين. فلاينبغى أن نبالغ فى استمرار الظلم الذى تعرض له المحكومون، كما ينبغى ألا ننكر ما كان من الرخاء فى وادى النيل، حينما سقطت مصر فى يد العرب؛ إذ أن مصر كانت

http://www.al-maktabeh.com

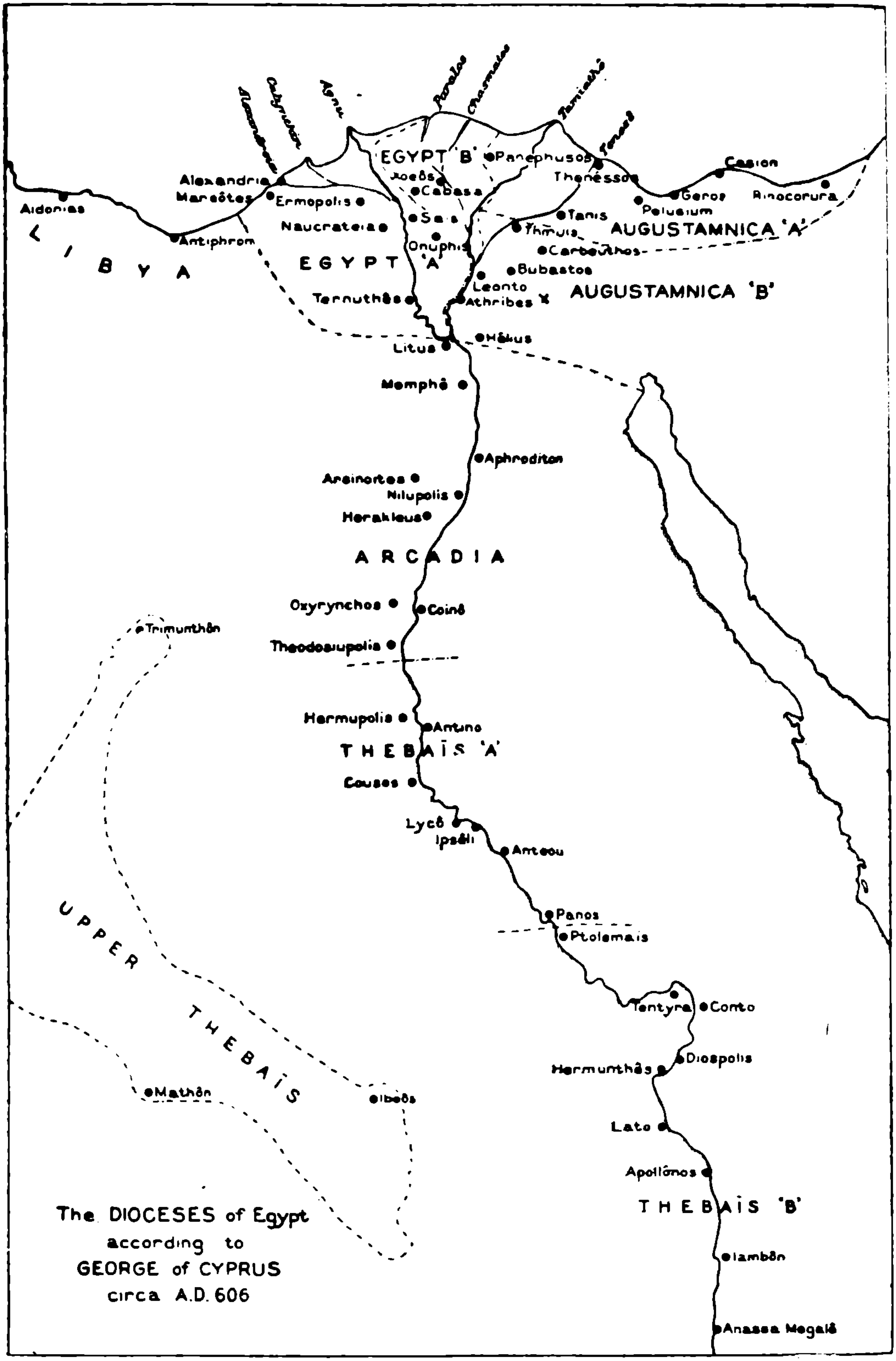

أقسام مصر الإدارية (الدوقيات)

حوالى سنة ٦٠٦ ميلادية

ولم يكونوا أقل خطورة من الجند، على أنصارفوكاس ؛ ومن الدليل على ذلك أن تيودور ، البطريرك الخلقدونى ، لجأ إلى كنيسة القديس اثناسيوس الواقعة على شاطىء البحر ، خوفا من أهل الإسكندرية ومن قوات نكيتاس أيضا(٦٨) .

وفى أثناء الفتح العربى ، نشبت الحرب الداخلية بين سكان المدينة ، ومن الطبيعى أن يشترك الزرق والخضر فى النزاع ، والراجح أن هذا النضال إنما نبع من المنازعات الدينية(٦٩) .

فما اشتهر به المصريون من الميل إلى الثورة والاضطراب ، كان من العوامل التى اعترضت تحقيق إصلاحات جستنيان فى مصر ، إذ صار من العسير أن ينتظم فيها تطبيق إدارة مالية وقضائية ثابتة . وما طاب لسكان البلاد من إثارة القلاقل ضد الحكومة البيزنطية ، جعل من العسير على موظفى هذه الحكومة أن يباشروا عملهم فى شىء من الاطمئنان والهدوء(٧٠) .

ثانيا — مظالم الموظفين

١ — تحسن الأحوال الإدارية

ونظراً لثقة جستنيان فيما قام به من إصلاح ، اكتفى بمراعاة ما ساد البلاد من الإهمال والفساد ، من قبل الموظفين . ألم يتخذ من الوسائل ما يمنع حدوث الاضطرابات والقلاقل؟ ألم يكفل للموظفين من المرتبات ما يليق بعظمة بيزنطة ؟.

الواقع أن ما اتصف به الموظفون فى مصر من الطباع السيئة لم تتغير مطلقا ، وأن ما سلكوه ، من النهج فى مباشرة سلطتهم لايتفق تماماً مع ما يعلقه عليهم الإمبراطور من آمال . ومع ذلك كان بمصر فى القرنين السادس والسابع من الشواهد ما يدل على حزم الولاة ، واهتمامهم بصالح المحكومين . فلاينبغى أن نبالغ فى استمرار الظلم الذى تعرض له المحكومون ، كما ينبغى ألا ننكر ما كان من الرخاء فى وادى النيل ، حينما سقطت مصر فى يد العرب ؛ إذ أن مصر كانت

تنعم بحركة تجارية وصناعة ناشطة[٧١]* . وظهر على المصريين بعض أمارات الرفاهية ، وظلت الإسكندرية مركزاً للنشاط الفكرى والفنى ، كما أن الثقافة اليونانية امتد أثرها إلى الوجه القبلى[٧٢] .

وبفضل نفوذ الكنيسة، وبموافقة السلطات العامة، تكاثر بمصر المؤسسات الخيرية ، فجرى إنشاء مستشفيات للمرضى ، وفنادق ينزل بها الغرباء (الأجانب)، وأسهم كبار الملاك فى الإنفاق على هذه المؤسسات ، بفضل ما اشتهروا به من الثروة وحب الخير[٧٣] .

وفيما اشتملت عليه البرديات من نصوص ما يشير إلى أن بعض الموظفين أدوا واجبهم على خير وجه . مثال ذلك أن أحد الموظفين تكفل بحماية دافعى الضرائب من مندوبى المالية لما اشتهروا به من الدعاوى الظالمة[٧٤] . ومنهم من اعتذر فى تأخره عن إخطار سيده عما حدث من العيوب الإدارية التى من هذا القبيل . وحدث أيضاً أن ظفر أحد الولاة بلقب « ممتاز » ، وهناك من حزن لفراقه أهل الجهة التى يتولاها ؛ مثال ذلك بولص حاكم مدينة سمنود من قِبل فوكاس، الذى حظى بمحبة كل سكان المدينة[٧٥] .

على أننا لا ننكر أن جستنيان وخلفاءه لم يتلقوا مساعدة ضئيلة من سلطة الكنيسة النامية ، وذلك فيما أنشبوه من نضال ضد مبادىء الإدارة وعيوبها فى مصر[٧٦] . فالمعروف أن القانون جعل للأساقفة نفوذاً وسلطانا كبيراً ، بأن اعتبرهم خير المدافعين عن السكان ، ضد مايقع عليهم من مظالم الموظفين الفاسدين . فكان لهم أيضاً من الرقابة العليا على حكام الأقاليم أنفسهم ، ما جعل فى وسعهم أن يلزموهم بتأدية واجباتهم . فإذ خرج موظف من عمله كان من حق سكان

---

(٧١)* يشير بتلر إلى أن بناء السفن كان من الصناعات الهامة فى مصر، فى القرن السادس الميلادى، وإلى أن مناجم المرمر والرخام كان لا يزال يجرى استغلالها. (انظر:
Butler : The Arab Conquest of Egypt pp. 103, 112.

الأقاليم أن يرفعوا إلى الأسقف شكاويهم عن المظالم التى ارتكبها[٧٧] .

الواقع أن موظفى مصر كانوا يخشون ما اشتهر به الأسقف من الصراحة ، فعلى الرغم من ثقتهم فى عفو الأساقفة ، فأنهم وجدوا فيهم خصوماً لا بد من الإذعان لهم . مثال ذلك ، ما ورد فى خطاب مرفوع إلى الأسقف أبا كيفالون Apa Kephalon ، من حنا بن بساتس Psatés ، يلتمس منه أن يتجاوز عن الأخطاء التى ارتكبها[٧٨] ، وكان قد اتهم بأنه أساء السيرة مع الرعية ، وأشار حنا فى خطابه ، إلى أنه لم يكن إلا مرءوساً ، يقوم على تنفيذ أوامر رئيسه ، الذى يعتبر المذنب الحقيقى[٧٩] .

من ذلك يتبين ما يجده الأباطرة فى الكنيسة من مساعدات ضد ما يرتكبه الموظفون بمصر من مظالم ، وما كان للكنيسة من نفوذ وسلطان أخلاقى على سلوك رجال الإدارة ، على الرغم مما تولد عن المنازعات الدينية من شرور بين المونوفيزتيين وخصومهم . إذ لم يكن لرجال الدين الخلقدونيين سلطان ونفوذ على معظم الموظفين الوطنيين ، كما أن الموظفين القادمين من بيزنطة ويدينون رسمياً بالمذهب الخلقدونى ، لم يكن فى وسعهم أن يخضعوا لنصائح الأساقفة المونوفيزتيين . وبذلك تعقد الموقف ، وترتب على المنازعات الدينية اشتباك المصريين فى معارك دامية ، أضعفت من سلطة الكنيسة فى مقاومة الفساد الإدارى[٨٠] .

يضاف إلى ذلك أن ما كان للحكومة المركزية من سلطة على موظفى مصر ، أخذت فى التراخى والضعف ، نتيجة بُعد العاصمة (القسطنطينية) ، ودلت البرديات على أن الفساد انتشر وتغلغل فى الوظائف العامة بمصر بعد إصلاحات جستنيان[٨١] .

٢ — مظالم الموظفين على حساب السلطة المركزية

وما ساد مصر من الفوضى والاضطراب ، جعل جستنيان يقضى على النظام

http://www.al-maktabeh.com

القائم بها منذ القرن الرابع الميلادى ، ويعمل على أن يركز السلطة فى أيدى الدوقات . ومع ذلك فإن ما تعرضت له الحكومة من الخطر من قبل الموظفين، لم يبلغ من الشدة فى جهة من الجهات، مثلما بلغ فى مصر .

والمعروف وفقاً لإصلاحات جستنيان ، أن الدوقات وحدهم هم الذين جمعوا بين السلطتين المدنية والعسكرية ؛ غير أنه حدث فعلا أن السلطتين المدنية والعسكرية ، أو على الأقل أن اختصاصات عديدة اجتمعت فى يد موظف واحد فى سائر درجات الوظائف ومراحلها[٨٢] . فنلحظ مثلا أن الموظف المعروف باسم topoterete (مندوب الدوق)،يجمع إلى جانب وظيفته ، وظيفة المستشار القضائى chancelier .أما الباجاركة فاجتمع فى أيديهم فى بعض الأحوال اختصاصات مدنية عديدة ؛ فإلى جانب مباشرتهم وظائف الباجاركية ، يصح أن يكونوا موظفين بالدوقية أو الأبروشية . مثال ذلك يصح أن يكون الشخص مستشاراً قضائياً و باجركا ، أو يكون رئيساً للإدارة و باجركا ، أو أن يكون باجركا ومندوبا للدوق (topoterete)،بل أكثر من ذلك يصح أن يجتمع فى يد الباجرك وظائف مدنية وعسكرية . وكيفما كان الأمر ، فقد يحدث فى الوحدات الإدارية المختلفة ، كالأبروشيات والدوقيات ، أن يجتمع فى يد الموظف سلطة تبلغ من القوة مايجعله شبيها بملك عظيم الشأن ، إذا تهيأت له الظروف والأحوال[٨٣] .

فما حدث فعلا من أن الموظفين انتموا عادة إلى طبقة كبار الملاك ، هيأت لهم ثروتهم وأملاكهم ، سلطة كبيرة ونوعا من الاستقلال . فما حازوه من الأراضى ، التى شملت قرى بأسرها ، والتى تولى زراعتها فلاحون لم يلبثوا أن أضحوا أقنانا لهم ،هيأ لهم أن تمتد سلطتهم ونفوذهم على هذه الممتلكات .وبفضل نظام الجباية الذاتية والحماية ، صاروا يتصرفون فى ضياعهم على أنهم سادة إقطاعيون، يستخدمون جباة خاصين لجمع الضرائب ، وصار لهم خزائن خاصة يتولى أمرها

موظفون من قبلهم ، وموثقون ، وقاموا بتسليح أتباعهم ، وأعدوا لأنفسهم شرطة خاصة ، وأنشأوا فى ضيعاتهم سجونا خاصة . واتخذوا فى بعض الأحوال أسطولا يرتاد النيل ، واستخدموا نظام البريد ، الذى ارتقى وتطور ، على حين أن نظام البريد الرسمى (الإمبراطورى) أخذ يتداعى ، ومن الدليل على ذلك استخدام الحمير بدل الخيل فى البريد .[٨٤] بل إن الأمر بلغ ببعض الأسرات الارستقراطية فى مصر الوسطى ومصر العليا ، أن سكوا النقود باسمهم ، وازداد سلطانهم واستقلالهم على حساب الإمبراطور البيزنطى ، الذى يقيم بعيداً عنهم فى القسطنطينية[٨٥] .

فما أمدتهم به الثروة من النفوذ والسلطان ، وما صار لهم من سلطة قوية بفضل ما تولوه من وظائف ، الباجرك ، أو رئيس الأبروشية ، أو الدوق ، أدى إلى أنه أصبح لا يركن إلى ولاء وإخلاص هؤلاء الأشخاص الأقوياء ، الذين أصبح فى وسعهم أن يتحدوا ماورد فى القوانين من عقوبات يصح تطبيقها عليهم.

يضاف إلى ذلك أن أواصر القرابة التى تربط بين أفراد هذه الطبقة الارستقراطية من الموظفين، الذين ينتمون إلى طبقة كبار الملاك ، زادت فى نفوذهم وسلطانهم ، وصارت بعض الوظائف مثل الدوق والباجرك وراثية فى أسرة معينة من هذه الأسرات الارستقراطية ، مثال ذلك أسرة أبيون فى أركاديا . ونشهد أيضاً سيدة أسمها باتريشيا Patricia ، اتخذت لقب باجرك ، ولا شك أن هذا اللقب إنما بلغها عن طريق الوراثة ، فكانت تباشر وظائفها عن طريق مندوب أو ممثل لها[٨٦] .

وورد فى بعض الوثائق ما يشير إلى أن فردا من أسرة أبيون ، تولى إدارة الخزانة العامة بالقسطنطينية، فاتخذ لقب comes sacrarum largitionum ، ويعتبر ذلك دليلا على ما بلغه كبار الموظفين المصريين من النفوذ الكبير[٨٧] .

ومن الدليل على ارتفاع شأن هؤلاء الموظفين ، أن دوق طيبة اتخذ لنفسه بلاطا ، وأحاط نفسه بحاشيه ، وكان له شاعر يتغنى بأعماله ، ويشيد بأسرته ، ويحتفى بعيد توليه الحكم ، وبزواجه ، ويمتدح أبناءه الأمجاد ، ويحتفل باسم الأمير. وورد فى بردية من البرديات مايشير إلى « مايبذل من الولاء للدوق ، الذى يعتبر الحاكم الحقيقى للإقليم بأسره »(٨٨) .

ومن اليسير أن نتبين ما جرى من تراخى علاقات التبعية التى تربط بين هؤلاء الأشخاص الأقوياء (كبار الموظفين فى مصر) ، وبين سيدهم الذى يقيم بعيدا عنهم فى بيزنطة .

فإذا لم يهتم البلاد البيزنطى كثيرا بما كان من حماس الموظفين القادمين من بيزنطة ليشغلوا وظائف كبيرة فى مصر ، فإنه أبدى اهتماما بالغا إذا تولى أحد كبار المصريين الوظائف العامة . إذ أن الحكومة البيزنطية لم تقبل أن تغدق على السكان الوطنيين الألقاب الكبيرة ، فلم تعهد إليهم إلا بعدد ضئيل من الوظائف الصغيرة . والمعروف أنه فى زمن البطالمة ، لم يتجاوز المصريون فى سلك الوظائف ، وظيفة نومارك ، بينما شغل اليونانيون كل الوظائف الهامة . وفى القرن السادس ، صار أعيان مصر وأساقفتها ، يتقدمون بمرشحيهم إلى الإمبراطور ليختار من بينهم الأرخونات على حد ما ورد فى قانون جستين الثانى (Novelle cxLIx).ولم يلبث المصريون أن صار منهم باجاركة ودوقات ؛ ومنذئذ أخذت السلطة المركزية تدرك أهمية المقاومة الوطنية ، التى يمثلها الموظفون أنفسهم بعد أن أصبحوا من أهل البلاد . فلم يكونوا أقل اندفاعا من سائر السكان فى كل ما يجرى بالبلاد من الأمور ، إذ اشتركوا أكثر من مرة فيما تثيره المقاومة الوطنية من احتجاجات ضد الحكومة(٨٩) .

فمن الطبيعى أن يؤيد الموظفون المصريون مواطنيهم من المونوفيزتيين فى النضال ضد الحكومة البيزنطية . مثال ذلك أن أحد الدوقات الأوجستال بالإسكندرية(أريستوماك)، من اتباع الأسقف ساويروس Severe ،استخدم أربعة عشر ناسخا،فى كتابة نسخ عديدة من كتاب آباء الكنيسة ، بعد أن يجروا بها من التحريف ما يلائم المذهب المونوفيزتى ،وأن يقوموا على نشرها و إذاعتها(٩٠) .

وأدرك جستنيان الخطر،فأرسل من قبله الأوجستال رودون Rhodon ، الذى كان من أصل فينيقى ، لقمع المقاومة الدينية . ومن الواضح أن هذا التصرف من قبل جستنيان كان له ما يبرره ؛ إذ أن الدوق أريستوماك أيد تيودوسيوس (البطريرك المونوفيزتى) فى الانتخاب، الذى شارك فيه الموظفون المونوفيزتيون. أما الدوق ايلى Elie ،الذى تولى زمن الأوجستال رودون القيادة الحربية ، فكان يعرف اللغة المصرية ، ولم يستخدم فى مراسلاته السرية إلا كل من يعتقد بأنه وطنى (مصرى)،وكان حريصا على حماية المونوفيزتية(٩١) . وأراد البطريرك بولص التبنيسى أن يخلعه من وظيفته، وكشف الشماس بسويس Psois هذه المناورة ، فوقف البطريرك على مراسلات سرية بين ايلى ونصيره بسويس ، مكتوبة باللغة القبطية ، فجرى اعتقال بسويس وتسليمه إلى الأوجستال،ولم يلبث بسويس أن لقى مصرعه(٩٢).ولما أراد البطريرك قيرس Cyrus أن ينفذ الإعدام بصمويل القلمونى استطاع حاكم مدينة بيوم Piom أن ينزعه من بين يديه(٩٣) . وفى زمن هرقل كان الأوجستال يعمل صراحة لصالح المونوفيزتيين، إذ أن دوق أركاديا نفسه تولى رياسة المجمع الدينى الذى انعقد لإقرار النظام فى الكنائس اليعقوبية ، وذلك تحت رعاية الأوجستال ذاته(٩٤) .

و يشير حنا النقيوسى إلى أريستوماك المشهور بالقوة والكبرياء ، و بما ورثه من أموال طائلة من أبيه ، فأحاط نفسه بحاشيه ذود أفرادها بالسلاح ، وأنشأ سفنا يستخدمها فى زيارة كل مدن القطر المصرى . فلما صار قائدا حربيا ، لم تخف حدة عجرفته ، إذ كان يجد متعة كبيرة فى أن يستبقى رسل الإمبراطور زمنا غير قصير

فى الميناء . ولما جرى استدعاؤه ، إلى القسطنطينية للتحقيق معه فى تصرفاته ، سار إلى القصر وقد حمل هدايا فاخرة للإمبراطور[٩٥] .

ومن الأدلة التى ساقها حنا النقيوسى للتدليل على ماحدث من المظالم ، ما كان من سلوك ثلاثة أخوة من مدينة ايكيلا (فوه) قرب الإسكندرية . إذ كانوا يحكمون مدنا عديدة ، على حد قول حنا النقيوسى ، وحازوا ثروة ضخمة ، فهاجموا من فى منطقتهم من حزب الزرق ، ونهبوا مدينتى بنا ، و بوصير ، دون أن يأذن لهم حاكم الإقليم بذلك . فأراقوا الدماء ، وأشعلوا الحرائق فى المدينة وفى الحمامات العامة ، ولم يفلت حاكم الإقليم إلا تحت جنح الظلام . ولما علم الإمبراطور موريس بما حدث ، أصدر الأمر إلى حنا الأوجستال بالإسكندرية ، بعزل الحكام الأربعة . وعندئذ حشدوا قوة من الجند مزوده بالأسلحة ، واستولوا على عدد كبير من السفن التى تحمل القمح إلى الإسكندرية ، فأثاروا بهذا العمل الاضطراب بالمدينة ، فضلا عما أحدثوه بها من المجاعة . و بلغ الاضطراب من الشدة أن تحتم إرسال قوات ضد الحكام الثائرين ومن معهم من أتباعهم[٩٦] .

هذه الوقائع وأمثالها إنما تثير الشك فى ولاء و إخلاص هؤلاء الموظفين الذين تولوا إدارة مصر ، مما دعا الدولة البيزنطية إلى أن تتدخل لإقرار الأمن[٩٧] . على أن هذا التدخل لم يكن يؤدى إلا إلى ازدياد الفوضى واستمرارها ، فضلا عن كشف ضعف الجيش الإمبراطورى[٩٨] .

ونظراً لما للموظفين من نفوذ وسلطات ، لم يحفلوا بما يترتب على الإهمال من الأضرار التى تلحق خزانة الدولة . فلم يكن دافعو الضرائب وحدهم مسئولين عن المماطلة والتأخير فى دفع الضرائب المقررة عليهم ، بل إن هذه المسئولية تقع أيضاً على كاهل الموظفين ، لما تعوّدوا عليه من الإهمال فى تأدية واجباتهم ، فلم يتخذوا ضد هؤلاء المماطلين من وسائل الردع والعقاب ما فرضه جستنيان[٩٩] .

ففى إقليم اخميم تجاهل الموظفون ما اشتهر به من البساطة والمخاطرة ، مغامر اسمه إزارياس Azarias ، الذى استطاع بفضل ما حشده من قوة من العبيد الأحباش ، أن يستولى فى غفلة من السلطات المحلية ، على ما تحصل من الضرائب بهذا الإقليم . ولم يتقدم بطلب المساعدة والنجدة ضد هؤلاء الثائرين ، سوى سكان البلاد ، بينما تجاهل الموظفون هذا الأمر . والراجح أن هذا النوع من الموظفين ، يصح أن تبلغ بأحدهم الجرأة أن يحتفظ لنفسه بما جباه من الضرائب . وأشارت بردية إلى ماحدث من هذا القبيل فى افروديتو ؛ ذلك أنه جرى رفع شكوى إلى المحكمة الإمبراطورية بالقسطنطينية ، تضمنت أن سكان أفروديتو أشاروا إلى أن الباجرك مينا احتفظ لنفسه بمبلغ ٧٠٠ صولد ذهبى جباه منهم ، دون أن يعطيهم إيصالات بذلك ، ودون أن يؤدى هذا المبلغ إلى إدارة الحسابات(١٠٠) .

وما انعقد من اتفاق بين أحد الموظفين ، والراجح أنه مندوب الباجرك (boethos) و بين شخص تكفل له بجمع الضرائب ، إنما يوحى بأن بينهما أشياء خفية ؛ إذ أن المتعهد لم يتكفل للموظف بأن يضمنه فحسب ضد الدعاوى القضائية أو القانونية ، بل أيضا ضد كل ما يتعرض من اتهام أو تجريح أمام المحكمة ، وفى غير ذلك أيضا(١٠١) .

والمعروف أن كفالة صغار الموظفين وضمانهم، ليست إلا إجراء يتخذ لضمان حسن سلوكهم ، غير أن ما حدث يعتبر اغتصابا خادعاً . والواقع أن الموظفين المصريين عملوا على أن يخضعوا القانون لما اتخذوه من إجراءات خاصة(١٠٢) . من ذلك أن موظفا فى البهنسا اسمه Aurelios Pambechis ، أقسم لمتولى الخزانة بأنه سوف لا يلحقه ضرر إذا ما تقدم لضمانه ، فالعقد المتعلق بجباية الضرائب لم يكن فيما يبدو ، سوى حيلة بارعة لجأ إليها الموظفون كيما يفلتوا من العقاب(١٠٣) .

http://www.al-maktabeh.com

هذه الأمثلة إنما تدل على أن ما اتخذه جستنيان من تدابير، لم تؤد إلى النتيجة المطلوبة : فلم يعمل بالقرار الذى أصدره الإمبراطور ، وحرم فيه على الولاة أن يوفدوا من قبلهم مندوبين topoteretes . كما أن ما اتخذه جستنيان من تدابير بشأن الأزمة النقدية، لم تحظ بالاحترام الوافر . فعلى الرغم من القانون ١١ ، فلا زال الموظفون يحصلون من دافعى الضرائب فى مصر على مبلغ من المال يعتبر ضماناً لصفاء النقد الذهبى ، على الرغم من أنه لم يكن ثمة ما يدعو إلى ذلك نظراً لما جرى فعلا من التحسن . وأدرك جستنيان آخر الأمر أن الهيئة الإدارية بمصر لم تكن مقيمة على الطاعة ، ولم تكن بالغة الأمانة، ولم تكن أهلا للثقة ، فلم يحفل الموظفون بما يرد من الأوامر من القسطنطينية ، فأشار إلى أن موظفى مصر لأشد قوة ونفوذا من القوانين الإمبراطورية، نظراً لبعدهم عن مقر الحكومة (القسطنطينية)[١٠٤] .

٣ — شدة الموظفين فى معاملة دافعى الضرائب

ومن الطبيعى أن يكون سلوك هؤلاء الموظفين مع المحكومين أسوأ من سلوكهم تجاه الحكومة المركزية . وحفظت أوراق البردى الشكاوى العديدة ، التى أشار فيها الفلاحون وأهل المدن والأبروشيات، إلى ما كانوا يقاسونه من العذاب، و إلى ما أصابهم من التعاسة والشقاء ، وأن ما شنه المتبربرون من غارات لأقل عنفا مما يلاقونه من عمال الحكومة من سوء المعاملة[١٠٥] . وفى هذه الشكاوى ما يبين ما حاق بداخل البلاد من الأضرار ، إذ أن كاتباً تقدم بالشكوى إلى دوق طيبة، من أن الباجرك ميناس ألحق أضرارا بالغة بأهل أفروديتو[١٠٦] . ويخاطب الشاعر ديوسقوروس ، دوق طيبه وهو فلاڤيوس ماريانوس ، بأن يتدارك البلاد برحمته ، بعد أن تعرضت لما ارتكبه الموظفون من المظالم[١٠٧] .

وعلى الرغم مما تنطوى عليه هذه المدائح الموجهة إلى حكام البلاد ، من المغالاة والمبالغة ، فلا شك أنها تشير إلى شدة تعلق الناس بالإدارة العادلة . إذ

أن المادحين وجدوا أن خير من يمدحونه هو الموظف المنصف ، الذى لم يظلم رعاياه ، وأشاروا فى مدائحهم إلى ما تعرض له سكان البلاد من المظالم(١٠٨) .

على أن بعض الموظفين لم يحفلوا بما حصلت عليه بعض القرى والمدن من امتيازات . إذ جرى انتهاك ما كان لقرية أفروديتو من حق الجباية الذاتية ، كما أن أهل انتيابوليس الذين تمتعوا بامتياز خاص، لم يستطيعوا المحافظة على هذا الامتياز إلا بعد أن تقدموا بشكاوى تتعلق بهذا الموضوع(١٠٩) .

وتعرضت الإدارة المـــالية لما ارتـكبه الموظفون من أعمال الظلم والنهب والعنف(١١٠) . فلم يجر توزيع الضرائب بالعدالة المطلقة ؛ إذ ورد فى بعض الشكاوى، أن التزم أفراد بأن يدفعوا ضرائب عن أراضى لم يحوزوها ، وأن الموظفين طلبوا أحيانا من دافعى الضرائب ، أن يؤدوا من الضرائب ما يزيد على المقرر عليهم ، واستخدموا فى ذلك من الوسائل ما يمـكنهم من إذلال المعارضين . وقد تقع قرية بأسرها فريسة لتحكم الموظفين فى توزيع الضرائب ، مثال ذلك قرية Phthla، التى زاد الباجرك ما هو مقرر عليها من الالتزامات والضرائب ، مخالفا فى ذلك القانون(١١١) .

وعلى الرغم من أن جستنيان حرم على الموظفين أن يتقاضوا من دافعى الضرائب ، ما يعرف ببدل السفر ، فإن سكان طيبة التزموا بأن يدفعوا مبالغ من المال عند رحيل الموظفين مثل الحاكم (الوالى) أو نائبه . وتعرض دافعو الضرائب لا سيما عند الجباية ، إلى ما اشتهر به الجباة من القسوة والقوة ، فاتخذ الموظفون الموكلون بجباية الضرائب ، من الوسائل العنيفة ما يقهرون بهـا مقاومة السكان(١١٢) .

ومن الدليل على ذلك ما أورده سكان أفروديتو فى شكواهم إلى درق طيبة ، من الإشارة إلى الإجراءات الجائرة التى تعرضوا لها. فعلى الرغم من أن أفروديتو

تتمتع بحق الجباية الذاتية ، فان الباجرك ميناس قدم إليهم ليتولى بذاته جمع ما هو مقرر عليها من الضرائب . فأغار على القرية من أجل الحصول على الضرائب على حد زعمه ، وصحبه جند من السيزيين والمقدونيين ، فاغتصبوا البنات ، ودمروا ديرا للراهبات، وسدوا القناة التى تجلب الماء من النيل . وعلى الرغم من أن ذلك حدث زمن الفيضان، فإن الأرض لم تنتج شيئاً من المحصول . ولم يكتف ميناس بما ارتكبه من الشرور ، بل تعرض لقافلة من الحمير والإبل ، كان يقودها ثلاثة عشر شخص من سكان القرية ، إلى سوق ثيس This لبيع ما بها من الدواب ، وذلك بأن أرسل إلى ثيس بحجز القافلة عند وصولها ، وتعرض أصحابها للحبس . فصاروا ينتقلون من سجن إلى سجن ، من ثيس إلى انتينوى، ثم إلى انتيا بوليس ،حيث تعرضوا لمعاملة سيئة من قبل مستخدمى ميناس ،فاستولوا على ما كان معهم من الأموال ، واغتصبوا منهم معظم دوابهم ، بل جردوهم أيضاً من ملابسهم .

أما الباجرك ، فإنه فرض على القرية (أفروديتو) غرامة قدرها ١١٧ صولدا ، فضلا عن ٧٠٠ صولد كان قد حصلها من الضرائب دون أن يؤدى عنها إيصالا[١١٣] . وتعرض ديوسقوروس أحد أعيان القرية ومن أعضاء مجلسها، للاعتداء من قبل الباجرك ميناس أيضا ؛ فصادر ممتلكاته ومنحها إلى نائبه boethos فى فثلا Phthla ،وإلى الرعاة،والزمه بدفع ما هو مقرر عليه من الايجار والضرائب . ولما أجبرته الأحوال على أن يغادر البلاد ، لجأ إلى أنتينوى حيث حرص ، بعد أن تجرد من موارده وأملاكه ، على أن يلتمس وظيفة متواضعة، كاتب عقود ، بعـــــد أن كان محاميا ، ليكسب من ورائها عيشه وعيش أبنائه[١١٤] .

وزعم ميناس أيضاً سنة ٥٦٦ — ٥٦٧ ، أن أبو للوس Apollos صهر ديوسقوروس ، لم يؤد ما هو مقرر عليه من الضرائب ، فأرسل إلى داره قوة من العساكر (الشرطة) قامت بنهب البيت ، وتقرر منح أراضى أبو للوس للرعاة .

ثم أمر ميناس بالقاء القبض على ابن لديو سقوروس ، وأنزل به العذاب والتنكيل، وذلك لأنه يعتبر مسئولا عن ديون عمه . وأشار صاحب الشكوى (أبو للوس) إلى أنه دفع ما عليه من الضرائب ، وأن الايصالات التى تبين ذلك جرت مصادرتها حينما قام رجال الشرطة بنهب داره . ومن الدليل على أن شكوى أهل أفروديتو لم تكن كلها كاذبة ، أن الدوق (دوق طيبة) قرر إعفاءهم من دفع الضرائب[١١٥] .

ونستخلص من الوثائق أن ما حاق بقرية أفروديتو من الجور والظلم، لم يكن أمراً نادر الوقوع ، وأن الاعتدال والتسامح لم يكن من صفة ممثلى الدولة البيزنطية .

وتشير فقرة وردت فى سيرة القديس حنا المتصدق ، إلى ما تعرض له أحد دافعى الضرائب من الظلم والشدة ، وماجرى من إرغامه على أن يؤدى كل ما هو مقرر عليه من الضرائب ، على الرغم من فشل المحصول بسبب انخفاض النيل . وأصر جباة الضرائب على أن يتقاضوا الضرائب منه ، فلجأ المزارع إلى رجل من الأثرياء ، وهو دوق من الدوقات ، فتوسل أن يقرضه ، مقابل رهن أو ضمان ، ما يحتاج إليه من الأموال . فاستجاب الدوق لتوسلاته ، غير أن ما حدث من أن الدوق تأخر فى الوفاء بوعده ، أدى إلى أن يهاجمه جباة الضرائب ، وأن يستخدموا ضده من أساليب العنف ، ماجعله يهيم على وجهه ، ولم يجد مناصاً من أن يلجأ ، شأن غيره من الذين حاق بهم الظلم والشقاء ، إلى القديس حنا المتصدق[١١٦] .

والراجح أيضاً أن جباة الخراج ، الذين لم يعملوا على مناوءة كبار الملاك ، صبوا كل ما لديهم من أعمال العنف على الفلاحين العزل ، فاتخذوا جانب الملاك إذا وقع بينهم وبين فلاحيهم نزاع أو خصومة . مثال ذلك ما حدث لفلاح اسمه

http://www.al-maktabeh.com

أبوللوس Apollos ، الذى استأجر أراضى من أسرة الكونت فويبامون Phoibammon ، بمقتضى عقد يسرى لمدة غير محدودة . فأغفل ورثة فويبامون مادفعه أبوللوس للخزانة من الضرائب باسمهم ، ولم يكف جابى الضريبة hypodecte عن مطالبة أبوللوس بدفع الضرائب ، غير أنه من الطبيعى أن أبوللوس يرفض الاستجابة لدعوى جابى الضرائب . فتدخل مندوب الدوق topotérète فى الموضوع ، فحكم بإدانة أبوللوس(١١٧). ورفع أبوللوس شكوى جديدة إلى الدوق ضد الملاك ، غير أنه أرغم على أن يدفع ثمانى صولدات ذهبية، وذهبت احتجاجاته سدى(١١٨). وأكثر من ذلك،أن ورثة فويبامون ، وهما تيوفيل وديوسقوروس ، اللذان دفع لهما أبوللوس قيمة الإيجار عن الأراضى التى يزرعها ، لم يلبثا ، بعد أن أثقل كاهل أبوللوس ما تقرر عليه من الغرامات ، أن أوقعا الحجز على أملاكه ليضمنا بذلك الحصول على الإيجار(١١٩). فانتزعا منه أيضاً ١٦ فرسا ، منها ٩ أفراس له ، ٧ أفراس لأمه ، وتسعة عجول ، ودابتان من دواب الحمل . وأخذا منه أيضا ما فى مخازنه من الحبوب والأتبان . يضاف إلى ذلك أنهما استخلصا منه ستين رطلا من الصوف ، وإحدى عجلات عربته ، فضلا عن محصول النبيذ الذى حصل عليه من الأرض فى السنوات الثلاث التى استأجرها فيها(١٢٠).

على أن أبوللوس الفلاح ، لم يسكت على ما أصابه من الظلم وما حل به من الكوارث ، فما ساد الإدارة المالية من الاهمال والتحكم ، جعله يلجأ بشكواه إلى المحكمة ، غير أنها أصمت أذنها عن الاستماع لشكواه ، وفرضت عليه غرامة جديدة، وفى ذلك من الدليل على ماأصاب الإدارة القضائية من الفساد والخلل(١٢١).

وما تعرض له دافعو الضرائب من قسوة عمال الخراج وشدتهم ، وماحل بهم من التنكيل دفعهم إلى أنهم لم يطمئنوا إلى ما يبسطه القضاء من حماية وعدالة.

فعلى الرغم من الإصلاحات التى أجراها جستنيان ، والتى كان يقصد بها محاربة الإهمال والفساد ، فإن الإدارة القضائية بمصر ظلت على ما كانت عليه من الفساد والتعوا كل (١٢٢).

أما صغار رجال الشرطة الذى كانوا يختارون من بين أعيان القرية ، فإنهم اشتهروا بالإهمال وسوء النية . مثال ذلك أنه حينما قامت امرأة بسرقة خزانة كنيسة Aspidias ، وهربت إلى قرية kegethis ، فان عمدة هذه القرية رفض أن يسلم المال المسروق والمرأة التى سرقت (١٢٣). على أنه يحدث فى بعض الأحوال ما يقتضى تدخل رجال الشرطة ، فحينما نهب اللصوص الحقول التى تحيط بقرية طولطيس Tholthis فى اقليم البهنسا ، لم يقم حراس الحقول بمنعهم . وكان لزاما على رئيس الشرطة أن يتدخل ، فأمر الموكلين بالشرطة أمثال Cephalaiotai و Irenarques بالقدوم عليه ، و بصحبتهم اللصوص المغيرون ، و إذا لم يفعلوا ذلك ، فسوف يقدم إلى القرية فصيلة من العساكر بقيادة التريبون (١٢٤).

ومن الواضح أن أهل طولطيس خضعوا لسلطة عسكرية manu militari تعتبر الوسيلة الوحيدة الفعالة التى يلجأ إليها رجال الإدارة فى مصر ، والتى لا تخضع فحسب دافعى الضرائب ، بل أيضاً الموظفين المرءوسين لهم (١٢٥)

على أن ما اشتهر به رجال الشرطة من الإهمال ، جرت الإفادة منه فى بعض الأحوال. كما أنه أفاد من الإهمال أيضاً الموكلون بالقضاء ، فيرجع إلى فساد القضاة ورشوتهم ما سبق الإشارة إليه ، مما حدث من أن اثنين من أعيان أفروديتو وأعضاء مجلسها ، وكلا أبوللوس بن ديوسقوروس مندوب ستراتيجوس . فلما جرى ارسال أبوللوس إلى انتينوى ، اهتم أثناء إقامته فى عاصمة الدوقية ، بأن يجمع كل ما يستطيع من الأموال اللازمة لتدبير أمور القرية . واستخدم هذه الأموال فيما يعود بالنفع العام على مواطنيه (١٢٦).

أما خاتمة شكوى الفلاح أبوللوس، فتمثلت فى أن أبوللوس وَعَدَ موظفى ديوان الدوق ، الذين سوف ينظرون فى شكواه ، بأن يدفع لهم ثلث المبلغ الذى يطالبون به ، إذا نصروه فى شكواه ، بينما ينفق الثلثين الباقيين على نفسه بعد أن أصبح شيخا ، وعلى أبنائه (١٢٧) .

وساءت الأحوال بسبب جشع الموظفين ، ورأى جستنيان لزاما عليه أن يحرم على كل قاض بأن يطلب من الهبات ، ما يتجاوز ما هو مقرر قانونا . وتحتم على أحد دوقات طيبة أن يحدد سعر الهبات ، بأن منع الموظفين المرءوسين له بأن يتقاضوا من المتقاضين أكثر من قيراطين . ولكيلا يستغل موظفو ديوان الدوق سلامة نية المصريين وجهلهم باللغة اليونانية ، أصدر قرار الحظر باللغة القبطية (١٢٨) .

وإذا استطاع المتقاضون أن يحصلوا على حكم صالح ، لم يجر تنفيذ هذا الحكم . فحينما تقدم جماعة من أفروديتو إلى الدوق فى أمر مواطنيهم الذين جرى القبض عليهم ظلما فى سوق ثيس This ، حصلوا على أمر يقضى بإطلاق سراحهم فورا ودون أن يدفعوا غرامة، غير أنهم لم يلقوا أية رعاية فى السجن . وتقدمت أرملة بالشكوى إلى الباجرك ، لأن زوجها الثانى أساء معاملتها ، فأمر الباجرك المتهم بألا يتعرض لها ، غير أن الحكم لم ينفذ ، فاضطرت الأرملة إلى رفع الأمر إلى الدوق (١٢٩) .

وعلى الرغم من إصلاحات جستنيان، فإن سكان مصر لم يستطيعوا أن يحصلوا على حقوقهم فى وطنهم ، ولذا كان لزاما عليهم أن يغفلوا القضاء المحلى ، وأن يلجأوا إلى المحكمة الإمبراطورية بالقسطنطينية . فإذا حصلوا على حكم من المحكمة الإمبراطورية فى القسطنطينية ، فإن ذلك تطلب نفقات باهظة فى السفر والاقامة، فضلا عما اشتهر به هذا القضاء من البطء (فالقضية التى رفعها أهل أفروديتو بشأن حق

القرية فى الجباية الذاتية ، استغرق نظرها مالا يقل عن خمسة عشر عاما) . ومع ذلك فإنه ليس من المحقق أن يحصل المتقاضون على حقهم[١٣٠] . فمن ناحية المبدأ لم يتطلب الأمر سوى أن يقدموا إلى المحاكم المحلية ، محكمة الدوق أو محكمة رئيس الأبروشية ، ما منحهم الإمبراطور من براءة أو حكم (اينالوا بمقتضاه حقهم). غير أنه من الناحية العملية لم تكن الأمور سهلة هينة[١٣١] . وعلى هذا النحو عانى أهل افروديتو كثيراً من المشاق والشدة ، بعد عودتهم إلى طيبة ، فى تقديم القرار الإمبراطورى الذى حصلوا عليه بعد أن بذلوا ، جهوداً كلفتهم نفقات طائلة ، وكاد هذا القرار يبطل ، ويظل جامدا ، لو لم يتخذوا من الاجراء ، بما بذلوه من أموال ، ما كفل لهم مساعدة اثنين من الموظفين ، اشتهرا بنفوذهما وسلطانهما ، وتعهدهما بالعمل على تنفيذ الحكم . إذ أن الرجال الأربعة من أهالى أفروديتو ، حينما قدموا إلى بيزنطة ، عقدوا اتفاقا مع بالاديوس Palladios ، كونت المجلس الإمبراطورى ، ومع الكونت Epigonos وتعهد بالاديوس بأنه سوف يعود معهم إلى بلادهم ، ليعمل على أن ينال حكم الإمبراطور الاحترام اللائق به ، وذلك مقابل مكافأة معينة تحددت قيمتها فى العقد[١٣٢] .

ويتبين من ذلك كيف حابى رجال القضاء كبار الملاك على حساب صغار المزارعين . ولعل أمر الفلاح أبو للوس خير ما يوضح ذلك ، ففى النزاع الذى وقع بينه وبين أسرة أحد كبار الملاك ، انحاز مندوب الدوق topotérète ، إلى جانب الملاك الكبار[١٣٣] .

وإذ اطمأن الموظفون البيزنطيون فى مصر إلى أنهم بمأمن من العقوبة ، برغم ما يرتكبونه من أعمال القسوة والظلم مع الرعايا ، فإن ذلك يدل على أنهم كادوا أن يكونوا مستقلين عن السلطة المركزية[١٣٤] .

وما حدث فى أفروديتو من ازدياد الشكاوى المرفوعة بشأن الإدارة المالية

والقضائية ، جرى أيضاً فى الدوقيات الأخرى أمثال أركاديا ومصر . ولم يستجب الموظفون لرجاء جستنيان فى أن يحسنوا معاملة دافعى الضرائب ، حتى لا ينقطع المورد الذى يستمدون منه الضرائب (١٣٥) .

وما أصابه الموظفون من الاستقلال ، وما لجأوا إليه من الاستبداد فى معاملة السكان ، إنما يخفى وراءه ما أصاب الإدارة البيزنطية من ضعف لا أمل فى علاجه (١٣٦) .

والواقع أننا نستطيع أن نقرر أنه لو لم يلجأ الموظفون إلى استخدام القوة المسلحة، لتداعى ما تبقى لهم من هيبة ونفوذ عند السكان . فما كان لرجال المالية والقضاء من نفوذ إنما ارتكن أساساً على قوة العساكر . ولم يجر جمع الضرائب إلا بمساعدة القوة الحربية ، كما أن أعمال الشرطة صار يتولاها رجال الجيش . ولذا حدث فى القرن السادس أن تدخل الجيش فى شئون الإدارة المالية وفى قمع الفتن والاضطرابات (١٣٧) .

ثالثاً : أخطاء الحكومة المركزية .

١ — السياسة المالية :

ما أجراه جستنيان من إصلاحات لإعادة الأمن إلى نصابه ، وتحقيق العدالة فى البلاد ، لم يجد نفعا ازاء ما ساد من الإهمال وسوء النية عند الموظفين وعند سكان البلاد . على أنه لابد أن نقرر أن الحكومة المركزية تعتبر مسئولة إلى حد كبير عن فشل هذه الاصلاحات .

على أنه ينبغى أن نشير إلى بعض الوقائع التى تدل على ما أبداه الأباطرة من النوايا الطيبة نحو دافعى الضرائب؛ فقد حرصوا على ألا تبلغ معاملتهم واستغلالهم من الشدة ما قد يؤدى إلى فناء وزوال ثروتهم (١٣٨) .

ففى زمن جستنيان تقرر تخفيض ما هو مقرر على بعض القرى من الضرائب. ومن ذلك أيضاً ما حدث فيما بعد فى مصر من التجاوز عن ربع الضريبة ، من القمح ، وضريبة الذهب ، وتوريد الشعير ، والضريبة المعروفة باسم sunephia التى تودى برسم مرتبات الموظفين[١٣٩] . وورد فى بردية من برديات اهناسية ما يشير إلى التجاوز عن شطر من الضرائب المقررة على بعض دافعى الضرائب ، لأن أراضيهم لم يصبها ماء الفيضان ، وتقرر أيضاً إطلاق سراح بعض المقبوض عليهم ، مع وضعهم تحت المراقبة ، كيما يقوموا بجمع محصولهم ، ولكيلا تتعرض جباية الضرائب لشىء من الصعوبات[١٤٠] .

والخلاصة أنه جرى نصح الموظفين بأن يحسنوا معاملة دافعى الضرائب ، وألا يتصرفوا بما يخالف القوانين والأوامر الإمبراطورية . غير أنهم لم يلبثوا أن تجاوزوا حدود سلطتهم[١٤١] . وفى الحالات التى لجأ فيها دافعو الضرائب إلى الإمبراطور ، بسبب ما وقع عليهم من ضرر من قبل جباة الضرائب ، كان الأمبراطور يأمر ، بعد فحص ملتمسهم ، بأن يجرى تحقيق رغبات الشاكين ، إذا كانت شكواهم صحيحة . وهذا هو ماحدث فى أمر قرية أفروديتو ، بشأن دعواها فى حق الجباية الذاتية[١٤٢] .

غير أن هذه الوقائع ليست إلا استثناءات ، أفاد منها دافعو الضرائب المصريون ، إذ أن القاعدة هى أن الضرر هو الذى يبقى ويستمر . فالواقع أنه منذ زمن جستنيان ، كان لما بلغته خزانة الدولة من الحالة السيئة أثر فى إرغام الأمبراطور على أن يتغاضى عن المبادىء التى كان يرجو تحقيقها فى إدارة الأقاليم[١٤٣] . ولاحظ المؤرخ بروكوبيوس ، أنه على الرغم من أن جستنيان لم يأخذ بتقاليد من سبقه من الأباطرة ، فإنه لم يتجاوز عن الضرائب المتأخرة على دافعى الضرائب[١٤٤] .

http://www.al-maktabeh.com

وسبق أن أشرنا إلى ما أورده جستنيان فى القانون ١٣ بشأن فرض القيود الشديدة على الخطابات التى حصل عليها بعض المدينين للخزانة ، والتى تقضى بإعفائهم من دفع الضرائب المقررة أو تأجيلها[١٤٥] .

ومن الملحوظ أيضاً أن جستنيان تحتم عليه ، برغم رغبته وإرادته ، أن يفرض ضرائب جديدة ، وأن يشتد فى تحصيل ضريبة القمح[١٤٦]. وعلى الرغم من حرص جستنيان على أن يحسن معاملة الرعايا ، فإن ما حدث من سوء تحصيل الضرائب ، وشدة الحاجة إلى الأموال ، نظراً لأن موارد (إيرادات) خزينة الوالى الكبير لم تكن كافية لدفع مرتبات الموظفين ، تطلب تحصيل ضرائب إضافية من السكان[١٤٧] .

واحتاجت مصر ، بصفة خاصة ، إلى مبالغ كبيرة من المال ، للانفاق منها على إقامة المرافق العامة مثل : الحمامات ، والسقايات ، والشون المنيعة ، وتشييد الاستحكامات ، والتحصينات ، اللازمة للدفاع عن القطر المصرى ، وإقامة مساكن ينزل بها الموظفون أثناء انتقالهم وسفرهم . ولم يكن الوضع المالى ، فى زمن الأباطرة الذين خلفوا جستنيان على عرش الدولة البيزنطية ، يجيز للحكومة أن تستخدم الشدة فى جباية الضرائب . إذ أن جستين الثانى اكتشف بعد أن تولى عرش الإمبراطورية أن خزانة الدولة غارقة فى الديون ، وأنها تكاد تكون فى حالة افلاس . أما الإمبراطور موريس ، الذى خلف تيباريوس الثانى على الحكم ، فانه اتبع سياسة اقتصادية ترمى إلى التقشف الشديد ، غير أن ما اشتهر به من الشح والبخل ، الذى جعله يبيع ما هو مقرر على مصر من القمح ، ليحصل على ثمنها ذهبا ، أثار نفور رعيته ، ففقد محبتهم[١٤٨] .

واذ كلّ أهل مصر من ثقل أعباء الضريبة الملقاة على عاتقهم ، رأى نكيتاس ، بعد أن انتزع مصر من يد فوكاس ، أن يجتذب المصريين لتأييد هرقل ونصرته ، فقرر التجاوز عن الضرائب لمدة ثلاث سنوات[١٤٩] .

أما اختيار الموظفين لإدارة الشئون المالية فى مصر ، فلم يكن فى كل الأحوال اختيارا سليما صحيحا . اذ تدخلت أهواء الإمبراطور الخاصة فى تعيين الدوقات فى كثيرمن الأحوال . يضاف إلى ذلك أن كبار الملاك الذين تولوا وظيفة الدوق ، صار فى أيديهم تنفيذ القوانين الإمبراطورية ، ومن الواضح أنهم يراعون فى تطبيقها المصالح المحلية ، ومصالحهم الخاصة أيضا(١٥٠) .

٢ — شدة الحكومة فى قمع الفتن والاضطرابات:

يتبين مما جرى من الأحوال الداخلية فى مصر فى القرن السادس وأوائل القرن السابع، أنه لم تتحقق آمال جستنيان فى حفظ الأمن والسلام فى داخل البلاد . وما حدث من الاضطرابات بالبلاد لم يكن المسئول عنها فحسب الموظفون الذين اشتهروا بعدم ولائهم وعدم اكتراثهم ، ودافعو الضرائب ، الذين تعرضوا لظلم هؤلاء الموظفين ، فعملوا على إثارة الفتنة والقلق ، بل تعتبر الحكومة المركزية فى بيزنطة مسئولة أيضاً عن هذه الفوضى ؛ لما يعوزها من القوة والنشاط والكياسة فى سياستها . ومن الدليل على ذلك أن جستنيان ذاته لم يسلم من سياسة التردد والحرج ، وذلك حينما عزل ليبريوس Liberios حاكم الإسكندرية عن منصبه ، وعين مكانه شخصاً آخر اسمه حناولقبه لاكساريون Laxarion . إذ أن تصرف الإمبراطور لم يكن من السلامة والنزاهة ، مما أدى إلى وقوع قتال بين الفريقين ، ترتب عليه أن وقع حنا صريعاً ، أما ليبريوس الذى قدم بعد هذه الحوادث إلى القسطنطينية ، فقد برأه مجلس السناتو ، غير أن الإمبراطور أدانه وألزمه بأن يدفع له غرامة(١٥١) .

وحدث زمن الإمبراطور موريس أن كثر عزل الموظفين المعروفين بعدم الاستقامة ، والذين كشفوا بحماقتهم عن السياسة الإدارية التى جرت عليها بيزنطة فى مصر . فحينما علم الإمبراطور موريس بنبأ ثورة البجاركة الثلاثة الذين ينتمون

أصلا لمدينة أيكيلا (فوه) ، ازداد غضباً وأمر فوراً بعزلهم. ولما وقف جستنيان على شكاوى أهل الإسكندرية بشأن ما أعقب ثورة البجاركة من المجاعة ، ووقوع الاضطرابات بالمدينة ، أمر بعزل أوجستال الإسكندرية حنا ، وإحلال أوجستال آخر مكانه ، وهو بولص . غير أنه حينما جاء حنا إلى القسطنطينية ، حيث جرى اعتباره مذنباً ، لم يلبث أن عمل على كسب رضى الإمبراطور وعفوه ، فعاد إلى مصر ، بعد أن منحه الإمبراطور سلطات كبيرة ، كيما ينزل العقاب بالمتمردين (١٥٢) .

وبينما يجرى في بيزنطة من التردد، وعدم الاهتمام بما يقع في مصر من الأحداث، اشتدت في مصر ثائرة النفوس ، واختل الأمن ، واضطربت الأحوال ، وازداد عتو الناس وكبرياؤهم (١٥٣) .

وتركت ثورة البجاركة أثراً عميقاً في البلاد ، وبلغ أنصارهم من القوة والنفوذ، أنه حينما تقرر قمعهم ، تطلب ذلك من حنـــا الأوجستال ، بعد عودته من القسطنطينية ، أن يحشد جيشاً مؤلفا من القوات المرابطة بالإسكندرية ، وبمصر الأولى ومصر الثانية ، فضلا عن قوة من النوبة. يضاف إلى ذلك ما بذله من المساعدة أحد زعماء المغامرين ، وهو تيودور ، بمن معه من الأتباع ولم يستتب الأمن ، إلا بعد أن نشبت فعلا معركة ضد الثوار (١٥٤) .

وشاع وقتذاك أن الإمبراطورية لم تكن بالغة القوة ، وأن ما يتشدق به قادة الجيش الإمبراطورى من القوة إنما يخالف فيما يبدو ما هو واقع فعلا (١٥٥) . إذ أن ما لجأت إليه الحكومة من وسائل لقمع الثورات في مصر ، إنما يدل دلالة واضحة على ما بلغته الحكومة من الضعف وعدم الاكتراث . فلم تكن هذه الوسائل فعالة ، بل إنها أسهمت فيما ساد البلاد من الفوضى والاضطراب (١٥٦) .

على أنه حدث في بعض الأحوال الخطيرة ، أن أرادت بيزنطة أن تنهض وتتخذ قراراً وتظهر نشاطها ، غير أن ذلك جاء متأخراً ، بعد أن ضاعت الفرصة،

فلم يتولد عن استخدام الشدة فى قمع الفتن إلا ازدياد الكراهية والعداوة . فقد حدث ، قبل قيام نكيتاس بالثورة أن بادر الإمبراطور فوكاس، بعد أن علم بتدبير مؤامرة فى الإسكندرية ترمى إلى تأييد منافسه هرقل ، بأن أرسل مبالغ طائلة إلى موظف بمدينة منوف . و بعث إلى مصر بقوات ضخمة ، واتخذ من التدابير ما يرى أنها كفيلة بإخضاع البلاد له ؛ إذ استدعى القائد بونوس المشهور بصرامته ، والذى سحق ثورة قام بها اليهود ضد المسيحيين فى أنطاكية . ووصل بونوس إلى الإسكندرية بطريق البحر ، وقد جلب معه من الأسود والفهود والحيوانات المفترسة ، والسلاسل ، ما سوف يستخدمها فى التنكيل والتعذيب ، كما أنه حمل معه مبالغ كبيرة من المال ، وكثيراً من الخلع والتشاريف[١٥٧] .

غير أن قدوم بونوس إنما زاد فى حقد الناس وكراهيتهم للإمبراطور فوكاس وحكومته؛ إذ أن البحارة المصريين، الذين جرى اعتقالهم فى سجن Hebdomon فى بيزنطة منذ بداية ثورة نكيتاس ، كانوا أول من تلقوا بالسرور خبر نجاح الثورة[١٥٨] .

على أنه ينبغى أن نقرر أن بُعد مصر عن القسطنطينية ، أسهم إلى حد كبير فى جهل القسطنطينية ، بما يقع من الأحداث فى مصر . وتزايدت العقبات والمصاعب أمام السلطة المركزية فى بيزنطة . إذ أن الحكومة البيزنطية فى القسطنطينية إنما كانت تقف على الأحداث الجارية فى مصر من الرسائل التى يبعث بها إليها الدوقات وأعيان البلاد، أو البطريرك الملكانى، أو من التقارير التى يرفعها الموظفون عند قدومهم إلى العاصمة ، مثلما فعل أريستوماك وحنا[١٥٩] . غير أنه من اليسير أن اكتشاف هذه المعلومات لم تكن وافية ، وتتطلب شيئا من الحذر والروية؛ ومن الدليل على ذلك أن من قدم إلى العاصمة (بيزنطة) من الموظفين، إنما جرى استدعاؤهم للتحقيق معهم فيما نسب إليهم من التهم، وحصلوا على كثير من التشاريف والخلع الإمبراطورية.

http://www.al-maktabeh.com

فلا شك أن كل ما كانوا يفكرون فيه ، أن يحرصوا على المحافظة على سلامتهم الشخصية ، فلم يكترثوا بأن يوقفوا الإمبراطور على الوضع الحقيقى بمصر (١٦٠) .

٣ — السياسة الدينية :

ما كان للأساقفة من أهمية فى الإدارة العامة فى كل أقاليم الإمبراطورية البيزنطية، تضاعفت زمن جستنيان . ففى مصر ازداد نفوذ الأساقفة من الناحيتين السياسية والاجتماعية، وما جرى من تداعى النفوذ الدينى للبطاركة إنما عوضه إلى حد كبير ازدياد نصيبهم فى معالجة الأمور العامة. على أن ما كان للكنيسة من نفوذ وسلطان قوى ، لم يكن بمأمن من الخطر . والواقع أن ما يتعرض له هذا السلطان من الخطر ، لا يتأتى إلا من قبل الحكومة البيزنطية بما اشتهرت به من هيبة كبيرة ونظام إدارى رائع . على أنه إذا صار للأساقفة نصيب كبير فى الإدارة المدنية، وإذا جرى اعتبارهم مساوين فى المكانة للحكام المدنيين ، وجعلهم يتحكمون فيما يتعارض مع سلطانهم ، وإذا عهد إليهم بالقيام بأعمال بالغة الأهمية فى أحوال خطيرة أو عصيبة ، وإذا صار البطريرك الملكانى بالإسكندرية الممثل الحقيقى للحكومة المركزية فى مصر ، فإن ذلك كله سوف يؤدى إلى الانزلاق فى طريق شديد الوعورة ، بأن يجعل الأساقفة المصريين ، بفضل ما تتمتع به الكنيسة من سلطة أدبية ضخمة ، يتخذون قبل الحكومة من موقف الاستقلال ما اتخذه الموظفون المدنيون . على أنه من الواضح أننا لن نلقى فى القرن السادس وأوائل القرن السابع بطريركا بلغ من الجرأة والتحدى مثلما بلغه بطريرك الإسكندرية ، كيرلس أو ديوسقوروس ؛ الذى كان يعتبر خليفة فرعون مصر ؛ والذى تحدى صراحة الإمبراطور البيزنطى ، وزعم، أنه لا الأمبراطور ،هو سيد مصر (١٦١) ومع ذلك نجد أن البطريرك الملكانى بولص التبنيسى ، الذى جرى عزله سنة ٥٣٩ ، بتهمة أنه اشترك فى جريمة قتل ، حاول أن يعود إلى كرسيه ، بعد أن يدفع إلى

جستنيان سبعمائة صولدا ذهبياً ،غير أن قدوم البابا فيجيلوس إلى بيزنطة منع هذه المساومة(١٦٢) .

أما من الناحية الإدارية ، لاسيما فيما يتعلق بالقضاء ، فقد بلغ نفوذ الأساقفة من الشدة ، ما أضعف ما كان من سلطة للموظفين المدنيين ، فاقترنت أسماؤهم بأسماء هؤلاء الموظفين فى الوثائق ، بل إن سلطتهم ونفوذهم تجاوز ، من الناحية العملية ، الوظائف التى اختصهم بها القانون(١٦٣) . فلم يكن الأساقفة فحسب محكمين (قضاة) يفصلون فى المنازعات المدنية ، وكانت تنعقد محاكمهم إلى جانب محكمة الدوق الأوجستال ، بل كانوا فى الواقع يمارسون النظر فى القضايا المدنية . ومثال ذلك ما لجأ إليه القديس حنا المتصدق، من أنه أجاز للناس أن يمثلوا أمام الكنيسة ، حتى يستطيع المظلومون أن يصلوا إليه دون خوف(١٦٤) . وحدث أيضا أن تسلم أسقف قفط، وهو الأب بيسنتيوس Apa Pesunthius، الشكاوى من الناس، وزعم أنه يعلم كل ما وقع فى أبروشية قوص من الأمور المخالفة للقانون.(١٦٥)* يضاف إلى ذلك أن بعض رجال الكنيسة أقحموا أنفسهم فى الإدارة المالية ، وسلكوا سبيلا غير سليم، بأن أعطوا دافعى الضرائب خطابات تجيز إعفاءهم من الضريبة . ونظرا لما اشتهر به جستنيان من الحرص على أن يعين الحدود بين السلطة المدنية والسلطة الدينية ، حينما تتعرض مصالح الخزانة للخطر ، اهتم بتحديد الأحوال التى يجوز فيها للبطريرك أن يمنح دافعى الضرائب المدينين للخزانة حق الالتجاء(١٦٦) .

فما كان للسلطات الكنسية من نصيب فى الحكومة المدنية، صار مصدرا

---

(١٦٥)* ويتبين من رسائل عديدة باللغة القبطية ، وتتعلق بالأب بيسنتيوس ، أنه كان يمارس القضاء حتى فى خارج أسقفيته . والمعروف أن هذا الأسقف شهد غزو الفرس لمصر ، فمن الطبيعى أن يلجأ إليه السكان ،وذلك لانعدام وجود سلطة مدنية قوية ، يطلبون منه المساعدة ، باعتباره أباهم .

(Rouillard : p. 231. note 6)

لما حدث من منازعات ومشاكل عديدة . وأدرك جستنيان ما تتعرض له لإدارة من خطر من قبل ما كان للكنيسة من سلطة زمنية . ولذا اهتم جستنيان بأن يحدد الحقوق والامتيازات التى للبطريرك ، كيما يتجنب بذلك الأضرار . والراجح أن الفصل بين السلطتين كان أمرا بالغ الدقة والصعوبة ، ولا شك أن النظام الإدارى لم يفد كثيرا من ازدواج السلطة (من الناحيتين الزمنية والكنسية). وكيفما كان الأمر فقد كان من عوامل تداعى النظام الإدارى ، الذى لم يكن ثمة مايسنده من قوة حقيقية أو هيبة كبيرة ، ما جرى من انتقال السلطة إلى أيدى أشخاص يعتبرون غرباء وأجانب على النظم الإدارية ، فضلا عن أن ماحدث من الانقسامات الدينية زاد الأمور تعقيدا . فما كان للأسقف الملكانى (الخلقدونى) من سلطة واختصاص ، إنما جلب من المشاكل ماجعل المصريين ينغمسون فى الأمور التى جرّها منصبه ، لاسيما فى الأوقات التى تأزم فيها الموقف بين المصريين وخصومهم ، عندما يشتد من حين لآخر اضطهاد الحكومة للمصريين [١٦٧] . وفى الجملة ، تعرض المصريون المونوفيزتيون ، فى عصور جميع الأباطرة إلى قدر كبير من التعصب والاضطهاد [١٦٨] .

ففى سنة ٥٣٧ ، عزم جستنيان ، تحت تأثير المندوب البابوى ، بيلاجيوس ، على تحطيم المونوفيزتية فى مصر ؛ إذ كانت مصر تعتبر قلعتها المنيعة . فأمر بعزل البطريرك تيودوسيوس ، وقرر استدعاءه إلى القسطنطينية ، حيث اعتقله فى قلعة ديركوس Derkos . على أن البطريرك تيودوسيوس لم يلبث أن حاز نفوذا كبيرا بين رجال البلاط ، كما أن مصر ظلت تعتبره زعيمها الشرعى الذى تدين له بالولاء. وفى هذا الوقت كان البطريرك الملكانى (الخلقدونى) الجديد ، وهو بولس التينيسى ، قد قبض على زمام الأمور فى البلاد . بفضل ما اشتهر به من الشجاعة

والقوة ، وكاد يفلح فى فرض الأرثوذكسية البيزنطية (المذهب الخلقدونى) فى الإسكندرية وفى الأديرة[١٦٩] .

واستخدم البطريرك ضد المصريين من وسائل الاضطهاد ما لم يستخدمه إلا الأباطرة والحكام الوثنيون ؛ فصار يلقى بالمصريين فى الحمامات ليكونوا وقودا لتسخين مياهها[١٧٠] . والواقع أن مصر ، على حد قول ماسبيرو « لن تُصبغ بالصبغة اليونانية ، إلا إذا تجردت من قسيسيها ورهبانها وأعيانها والموظفين المصريين ، وغمر الأجانب البلاد ، واختفى سكان مصر ، و إلا أعلنوا الثورة وخرجوا على الحكومة »[١٧١] . غير أن الحكومة البيزنطية كانت تعتقد أن فى وسعها أن تقوم بهذا العمل . فانتهى الأمر بانكسارها ، بعد أن أثارت ، بعنادها وعنفها كراهية المصريين[١٧٢] .

وبسبب حقد الإمبراطورة تيودورا ، وكراهيتها للبطريرك بولص ، تقرر عزله وتعيين شخص آخر اسمه زويل Zoile ، غير أنه لم يستطع أن يتولى كرسيه إلا فى حماية الجند ، ولم يلبث أن تقرر عزله أيضا ، سنة ٥٥١ ، وولى مكانه فى البطريركية رجل علمانى هو ابوليناريس Apollinaire الذى قدم فى حراسة جيش ، فتولى منصبه ، ثم خلع ابوليناريس زيه المدنى ، وأتخذ زى البطاركة[١٧٣] . وكان أول عمل قام به بعد ذلك ، أن دعا الناس إلى الاجتماع به فى الكنيسة ، ليتلوا عليهم رسالة الإمبراطور ، وبعد أن فرغ من ذلك وجه إليهم هذه العبارات «ياأهل الإسكندرية ، ياأيها الأشرار ، إن رجعتم إلى الإيمان ، وتخليتم عن البدعة اليعقوبية[١٧٤] * كان ذلك خيراً لكم ، وإن لم ترجعوا عما أنتم فيه ؛ فأشد ما أخشاه ، أن يبعث إليكم الإمبراطور من القادة من يهدر دماءكم ، و يستبيح

---

(١٧٤)* حدث أن قدم إلى مصر وقتذاك يعقوب البردعى Jacob Baradeus ، وهو من أكبر المنوفيزتيين ، فرسم (عين) إثنى عشر أسقفا موتوفيزتيا دفعة واحدة ، وعقد بالإسكندرية شبه مجمع دينى ، وذلك ليزيد من قوة المونوفيزتيين .

Diehl : p. 526 .

نساءكم ، وييتم أبناءكم»[١٧٥] . ومن الطبيعي أن يرد السامعون على هذا الخطاب بقذف البطريرك بالحجارة . وعندئذ أقبل الجند، وأجروا مذبحة مريعة في الناس داخل الكنيسة وخارجها[١٧٦] . وبلغ الناس من الخوف والذعر، أنهم هربوا إلى الأديرة بصحراء سقيط Scete . وتبالغ الروايات في ذكر عدد الضحايا ، فجعلتهم نحو ٢٠٠ ألف . وعلى الرغم من أن الهدوء والسلام عاد إلى المدينة (الإسكندرية) فإن المصريين لم ينسوا مطلقا تلك المذبحة الدامية ، ويقول ساويرس الأشموني : «إن ماحدث وقتذاك لم يكن له مثيل ، حتى في زمن الوثنية»[١٧٧] . ولم تنجح أية محاولة ، أواخر عصر جستنيان في إخضاع المونوفيزتيين وجعلهم يأخذون بالمذهب الملكاني[١٧٨] .

أما جستين الثاني الذي خلف جستنيان على الحكم ، فإنه اشتهر بالتسامح، وحاول أول الأمر التخلي عن السياسة التي جرى عليها جستنيان ، ولذا أعلن في مستهل حكمه : « إن الله لا يجيز لنا أن نلقي القبض على أحد ، أو نقذف به في السجن من أجل العقيدة الدينية[١٧٩] . على أنه حينما مات البطريرك المونوفيزتي (اليعقوبي) ، تيودوسيوس في منفاه سنة ٥٦٦ ، واتجه الاهتمام في مصر وقتذاك إلى اختيار خليفة له ، عارضت حكومة جستين الثاني أشد المعارضة في أن تعود البطريركية المونوفيزتية[١٨٠] . إذ أن جستين الثاني بعث إلى مصر من قبله رسولا اسمه Photin ، صهر بليزاريوس ، وعهد إليه بأن يعيد الأمن والهدوء في كل كنائس مصر والإسكندرية ، وجعل له سلطات استثنائية ضخمة ، على كل الأفراد والأعيان[١٨١] . على أن جستين الثاني لم يكن موفقا في اختيار هذا الشخص للقيام بهذا العمل ، لما اشتهر به من الجشع والقسوة، ولأن سلوكه لن يؤدي إلى تحقيق السلام المنشود . ولما فشل جستين في استمالة المونوفيزتيين ، لجأ في سنة ٥٧١ إلى أن يتخذ وسائل العنف لقمعهم ، فاستأنف الاضطهاد ضد المصريين بسبب فشل سياسته من جهة ، وبسبب تحريض بطريرك القسطنطينية من جهة أخرى[١٨٢] .

واتخذ الإمبراطور تيباريوس الثانى الذى خلف جستين الثانى على الحكم، سياسة أكثر تسامحاً، واستغل المونوفيزتيون هذه الصفة لاستعادة مكانة كنيستهم . ففى شهر أغسطس سنة ٥٧٥؛ قام أثنان من كبار رجال الكنيسة المونوفيزتية بالإسكندرية، بدعوة لونجينوس Longinuis أسقف كنيسة النوبة (منذ سنة ٥٦٦)، فطلبا اليه القدوم، للاشتراك فى اختيار بطريرك جديد، فوافق لونجينوس على ذلك وقدم سرا إلى مريوط؛ ورشح لهذا المنصب راهبا اسمه تيودور، كان ينزل بأحد الأديرة فى صحراء ليبيا، واشتهر بالزهد والتقشف فتقرر تنصيبه بطريركا . غير أن أهل الإسكندرية ورجال الدين بها عارضوا فى ذلك أشد المعارضة، لأنه لم يشترك فى عملية الانتخاب إلا جماعة قليلة العدد؛ ولأن الانتخاب تم سرا، ولأنه لم تجر استشارتهم فى ذلك، واعتبروا ذلك انتهاكا لقوانين الكنيسة، فاضطرب الناس، وطالبوا بانتخاب بطريرك جديد، فولى البطريركية (المونوفيزتية) شماس اسمه بطرس، كان زميلا للبطريرك تيودوسيوس فى منفاه، ومن أقرب الناس إليه . ورأى تيودور أنه من الخير أن يتنازل عن ترشيح نفسه حتى لا يثير الشقاق والنزاع(١٨٣)

وعلى الرغم من أن نفوذ البطريرك الجديد تضاءل إزاء نفوذ البطريرك الملكانى بالإسكندرية، حتى اضطر إلى أن يقيم بدير يبعد تسعة أميال عن الإسكندرية، فإن عودة البطريركية المنوفيزتية تعتبر فى ذاتها أمراً هاماً . ورأى البطريرك الجديد، بطرس، أن يوطد مركز الكنيسة المونوفيزتية، فعين (رسم) دفعة واحدة ستا وستين أسقفا، وأيده يعقوب البردعى(١٨٤).

ومع ذلك فإن الكنيسة المونوفيزتية ظلت ضعيفة، لما حدث سنة ٥٧٥ من الانقسام والنزاع عند انتخاب البطريرك، وما نشب من نزاع بين المونوفيزتيين فى مصر والمونوفيزتيين فى الشام(١٨٥)* ، استمر نحو أربعين سنة، أى إلى أن تولى هرقل حكم الإمبراطورية البيزنطية(١٨٦).

(١٨٥) * كان تيودور، البطريرك السابق، من أهل سوريا .
Hardy : Christian Egypt, PP. 152—153 .

http://www.al-maktabeh.com

وأول نتيجة ترتبت على النزاع بين المونوفيزتيين ، ما حدث من انهيار وحدة المذهب المونوفيزتى ، وضعف الكنيسة المصرية ، التى تضاءل شأنها أمام البطريرك الملكانى بالإسكندرية. يضاف إلى ذلك أن الكنيسة المونوفيزتية فى مصر انقسمت على نفسها انقساماً عنيفاً . ففى سنة ٥٧٠ ، كان بمصر والإسكندرية عدد لا حصر له من الجماعات المنشقة على نفسها ، فتفرع عن المونوفيزتية فى أواخر القرن السادس مالا يقل عن عشرين نحلة(١٨٧) .

وحاول أن يعالج بعض نواحى الضعف ، البطريرك الجديد الذى خلف بطرس على البطريركية ، وهو المعروف باسم دميان ، الذى امتدت بطريركيته من سنة ٥٧٨ إلى سنة ٦٠٠ ، وذلك بفضـــل ما اشتهر به من الذكاء والحماس ، والشجاعة والنشاط . فصار يتردد إلى الإسكندرية ، ويكثر من الإقامة بها ، ويعقد بها المجامع الدينية ، ويعظ فى الكنائس ، ولم يكتف بذلك ، بل قام بزيارة أنطاكية والقسطنطينية ذاتها . وحرص دميان على أن يعيد لكنيسة الإسكندرية هيبتها ، متحديا بذلك الملكانيين أنفسهم ، واهتم أيضاً بأن يعمل على إعادة الوحدة للكنيسة المونوفيزتية ، ولذا اشتد فى مهاجمة المذاهب المخالفة للمونوفيزتية . كل ذلك أعاد لكنيسة مصر من القوة والحيوية والرخاء مالا ينكر ، وازدهرت فى عهده أيضاً الأديرة . والواقع أن هذا النجاح الذى صادفه دميان ، لا يرجع فحسب إلى جهوده وشخصيته ، بل يرجع أيضاً إلى أن الأباطرة الملكانيين فى الإسكندرية كانوا وقتذاك متسامحين(١٨٨) .

على أن الكنيسة الرسمية (الملكانية) ظلت أيضاً قوية ، إذ أن رجال الدين ، على المذهب الملكانى (الخلقدونى) شغلوا كل كنائس الإسكندرية ، ومعظم الكنائس الأخرى . بينما لم يكن للمخالفين لمذهب خلقيدونية مقر لبطريركيتهم (المونوفيزتية) فى المدينة . واشتهر زعماء الكنيسة الملكانية ، أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع ، بأنهم من الرجال البارزين ، الحريصين على رفع

شأن كنيستهم ، ومنهم ايلوج Euloge (٥٨١ – ٦٠٨) الذى كان من أصدقاء البابا جريجورى الكبير ، واشتهر بالتبحر فى علم اللاهوت (الدين) ، وبقوة بيانه ، وبحماسه فى مناهضة المنشقين (١٨٩). ومنهم أيضاً القديس حنا المتصدق (٦١٢ – ٦١٩) Jean L'Aumonier ، الذى بفضل ما اشتهر به من القداسة والإحسان ، كان يقوم كل يوم بإطعام سبعة آلاف وخمسمائة فقير بالإسكندرية (١٩٠). وبفضل ما اشتهر به من نشر العدالة ، صار محبوبا من سائر الناس ، حتى من المنشقين ، الذين كان بوسعهم أن يقولوا فيه ، مثلما قالوا من قبل فى أحد أسلافه ، « إننا نحبك ، ولكننا لا نريدك أسقفا علينا » . إنما على الرغم من جهوده فى مناهضة المونوفيزتية ، بما لجأ إليه من الاقناع ، وما بذله من الصدقات ، فإنها لم تسفر عن شىء عظيم الأهمية ، بل إن الحزب المونوفيزتى صار يعيد تنظيم نفسه ، ويعمل على توحيد جبهته (١٩١).

ولم يحفل فوكاس كثيراً بأمر المنازعات الدينية فى مصر ، غير أنه انتزع من المونوفيزتيين بالإسكندرية ، الكنيسة التى أقاموها تحت رعاية القديسين قزمان (Cosmas) ودميان ، بعد أن انتقل إلى الملكانيين أمر كنيستهما .

وأظهر هرقل فى مستهل حكمه التسامح والتساهل مع المونو فيزتيين ، لما أسهموا به فيما حازه من الانتصار والنجاح بمصر ، وأظهر نكيتاس عطفه عليهم أيضاً (١٩٢) وبدا كأن الناس فرغوا من النزاع الذى لم ينقطع ، والذى استمر نحو قرن ونصف ، دون أن يؤدى إلى نتيجة من النتائج . فظل البطريرك المونوفيزتى انستاسيوس فى كرسيه حتى وفاته . وأجاز الملكانيون للمونوفيزتيين أن يعيدوا تشييد ما كان لهم من مزارات ومشاهد ، واتخذ البطريرك اندرونيكوس ، الذى جاء بعد انستاسيوس ، مقره بالإسكندرية ، دون أن يجد معارضة ، وقد خلفه على البطريركية بنيامين (١٩٣)*.

---

(١٩٣)* كان مقر البطاركة المونوفيزتيين فى دير ايناتون Enanton على مسافة ٩ أميال من الإسكندرية (Herdy : Op.Cit. p.157.)

وأضحى الحزب المونوفيزتى ، بعد إعادة تكوينه مستعداً للنضال، لا سيما حينما اتخذ هرقل سياسة العنف ضدهم ؛ وذلك أن هرقل أدرك ، بعد أن طرد الفرس من مصر ، أنه لا بد من إعادة الوحدة إلى الكنيسة . وبناء على أمر الإمبراطور ، انعقد فى هيرابوليس (Hiérapolis) ، مجمع دينى ، لاتخاذ صيغة توفق بين قرارات مجمع خلقيدونيه ومبادىء المونوثلستيه(١٩٤)* ، فخلق لنفسه بذلك مشكلة بالغة الدقة والحرج ، تتمثل فى محاولته حمل المصريين والمونوفيزتيين على قبول هذه الصيغة، واعادتهم إلى حظيرة الأرثوذكسية البيزنطية. وقد أعلن فى بيزنطه بأنه سوف يفرض ماجرى اتخاذه فى مجمع هيرابوليس من صيغة اتفاق ، مهما كلفه ذلك من ثمن(١٩٥). ولتنفيذ قراراته ، أرسل الإمبراطور فى سنة ٦٣١ ، إلى مصر قيرس Cyrïs أسقف Phase،(١٩٦)** الذى سوف يكون المحور الأساسى لما جرى من الأحداث بمصر حتى نهاية العصر البيزنطى ، وقد أعطاه الإمبراطور كل السلطات التى تساعده فى تأدية مهمته ، فجعله بطريركا ، وأوجستالا على مصر ، وأجاز له أن يطلب ما يحتاج من التعاون والمساعدة من سائر السلطات فى الأقاليم الأخرى(١٩٧). والواقع أن مهمة قيرس كانت عسيرة ؛ إذ أن الصيغة التى أصدرها مجمع هيرابوليس إنما أثارت الملكانيين والمونوفيزتيين على السواء . إذ ترتب على عدم كياسة قيرس ، وعلى تشكك المصريين فى هذه الصيغة ، أن المجمع الذى عقده قيرس فى الإسكندرية سنة ٦٣٣ للحصول على موافقة الفريقين لم ينجح(١٩٨)***. ولم يحظ هذا

---

(١٩٤) * هذا المذهب يشير إلى أن المسيح ينطوى على ارادة واحدة، ونشاط (فعل) واحد. (Hardy: p. 184.)

(١٩٦)** فى الشمال الشرقى لآسيا الصغرى .

(١٩٨)*** لم يقبله إلا فئة قليلة من السكانين ، وطائفة من الموظفين ، والعناصر الأرستقراطية بالإسكندرية التى حرصت على قبول الوصاية الإمبراطورية .
(Hardy : p. 185.)

الاتفاق خارج الإسكندرية بالقبول ، بل لم يعرف أن الغرض منه ، التوفيق . وظل المصريون على صلابتهم ، وحرصوا على المحافظة على استقلالهم الديني الذى جاهدوا فى سبيله ،منذ مجمع خلقيدونية (١٩٩). فما سمع به المصريون وأدركوه ، أن الاضطهاد قد نشب من جديد ، وأن مذهب خلقيدونية البغيض لا بد أن يفرض عليهم من جديد (٢٠٠). ولا بد أن الشائعات عن نوايا قيرس قد سبقته إلى مصر ؛ إذا أن البطريرك المونوفيزتى ، بنيامين ، قد لاذ بالهرب عند وصول قيرس ، أو قبيل ذلك بوقت قصير ، إذ لجأ إلى أديرة وادى النطرون وسقيط ، ثم اتخذ طريقة صوب الجنوب إلى طيبة ، مثلما فعل من قبل القديس أثناسيوس . وعلى الرغم من أنه كان يظهر فى بعض الجهات المعروفة مثل الدير الأبيض ، فإنه اختفى فى معظم الأحوال فى جهات غير معروفة(٢٠١).

واشتد الاضطهاد ، ولقى عدد كبير من المصريين مصرعهم على يد قيرس ، ومنهم أخ البطريرك بنيامين ، وجرى طرد عدد كبير من الأساقفة والرهبان من كنائسهم وقلاياتهم(٢٠٢)

وحاول هرقل للمرة الأخيرة أن يفرض سياسة الوفاق أو الاتحاد ، بأن أوعز إلى سرجيوس بطريرك القسطنطينية بأن يحصل من البابا على اقرار صيغة للتوفيق ، يستطيع بمقتضاها أن يحمل المونوفيزتيين المصريين على قبولها . ونظرا لأن كنيسة روما لاتقر مذهب المصريين بشأن الاعتقاد فى أن للمسيح طبيعة واحدة (هى الطبيعة الالهية) ، اقترح سرجيوس على البابا أن يقبل المونوثلستية ، أى مذهب الإرادة الواحدة ، دون الاشارة الى أن ما يصدر عن هذه الإرادة من فعل ، يكون مزدوجا أو منفردا . ووافق البابا على الصيغة التى اقترحها سرجيوس فأذاعها سرجيوس سنة ٦٣٨، فى الوثيقة المعروفة باسم Ecthesis (تقرير العقيدة)(٢٠٣)

وترتب على ما أجراه قيرس من الاضطهادات ، أن اضطر عدد كبير من

http://www.al-maktabeh.com

الأساقفة الى الأخذ بهذا المذهب ، وامتد سلطان الكنيسة الملكانية حتى بلغ طيبة جنوبا [٢٠٤] . غير أن الدولة البيزنطية فقدت ما كان يضمره لها المصريون من النوايا الطيبة[٢٠٥] .

ومن أجل الحصول على موافقه الكنيسة الرومانية، أنهى سرجيوس إلى البابا بما نجم عن سياسة التوفيق التى انتهجها الإمبراطور فى مصر من النتائج الباهرة . إذ أن قيرس ، استطاع أن يكسب جانب الكنيسة المونوفيزتية بفضل ما اشتهر به من الحكمة والكياسة والاعتدال ؛ إذ أن كل سكان الإسكندرية، وسائر سكان مصر، وطيبه ، وليبيا وغيرها من أقاليم الحكومة بمصر ، والذين انقسموا فيما مضى مذاهب وشيعا لا حصر لها ، أضحوا رأيا واحدا وأخذوا كلهم بعقائد الكنيسة الصحيحة، وبذلك تحققت وحدة الإسكندرية وهذا هو الأمر البالغ الأهمية[٢٠٦] .

الواضح أن هذا التقرير بعيد عن الحقيقة ؛ إذ أن المصريين لم يكونوا مستعدين لقبول هذا المذهب الجديد ، وكان لزاما عليهم إما أن يقبلوه أو يتعرضوا للموت . والمعروف أن عدداً كبيراً من الذين استشهد واتعرضوا للتعذيب الشديد[٢٠٧]. ولقى أيضاً الراهب صمويل القلمونى من التعذيب على يد قيرس ما كاد يودى بحياته، لولا أن انتزعه من أيدى الموكلين بتعذيبه أحد الموظفين المدنيين[٢٠٨] .

ترتب على هذا الاضطهاد، أن أخذ بعض المصريين يمارسون مذهبهم فى الخفاء ، والأهم فى ذلك بعض القسس الذين كانوا يقدمون إليهم متخفيين ، مثال ذلك قسيس من مريوط ، تخفى فى زى نجار فحمل حقيبة بها أدوات

---

(٢٠٧)* من هؤلاء أخ البطريرك بنيامين ، الذى أحاطوا جسمه بالشعلات المتقدة ، وصار شحمه يسيل على الأرض، ولما ظل على إصراره نزعوا أسنانه ، ثم جعلوه فى زكيبة ، ملأوها بالتراب ، ولما ازداد إصراراً على الرفض ألقوا به فى البحر . انظر :
(Butler: p. 184, note 2.)

النجارة ، وأخذ يذرع شوارع الإسكندرية ودروبها حتى وصل إلى إخوانه ، لمباشرة الطقوس الدينية[٢٠٩] .

وإذ ضاق المصريون ذرعا باضطهادات قيرس ، دبروا مؤامرة ضده ، غير أن هذه المؤامرة اكتشفها أحد الضباط البيزنطيين ، فوجه إليهم قوة من العساكر ، أثناء اجتماعهم فى إحدى الكنائس قرب مريوط . فلقى فريق منهم مصرعه ، وتعرض جماعة لسهام الجند ، فنفذت فى أجسامهم ، ومن عاش منهم جرى قطع أيديهم[٢١٠] .

وبلغ الاضطهاد من العنف والشدة ما جعله يستمر حتى أثناء الفتح العربى ؛ إذ أنه كان مستمرا أثناء حصار المسلمين لحصن بابليون[٢١١] ، بل حينما تقرر جلاء الجيش الإمبراطورى عن الإسكندرية ، يوم الأثنين الموافق لعيد القيامة سنة ٦٤١ ، أخرجوا المسجونين وأخذوا يمثلون بهم بتقطيع أوصالهم ، وعاد الاضطهاد مرة أخرى فى الوقت الذى سقطت فيه مصر نهائيا فى يد المسلمين[٢١٢] .

وبذلك لم يتحقق ما كان يأمله الأباطرة من الوحدة الدينية ، وترتب على سياستهم فى مصر نتائج بالغة السوء ، فلم يكن اختيار البطاركة الملكانيين مقبولا فى معظم الأحوال[٢١٣] .

واذ تعرض المصريون للاضطهاد من قبل الدولة ، لم يكن فى وسعهم أن يؤدوا ، الالتزامات المطلوبة منهم ، باعتبارهم دافعى ضرائب ، ولم يحرصوا على أن يحترموا ما تصدره حكومة كريهة لهم من الأوامر . يضاف الى ذلك أن ما كان ينزع إليه الموظفون فى مصر من الاستقلال سوف يؤدى الى ثورة صريحة ، إذا كانوا ينتمون الى الحزب الذى تعرض للاضطهاد . وما وقع من النضال والنزاع الدينى انما ولد الانقسامات الداخلية ، التى أسهمت فى امتداد الحروب والفتن الداخلية ، وذلك فى الوقت الذى تعرضت فيه البلاد للخطر الشديد من قبل الغزاة من الخارج[٢١٤] .

وعلى الرغم من أنه يصح القول بأن الاختلافات الدينية فى مصر ، إنما نجمت من المنازعات السياسية ، ونبعت من الروح القومية عند المصريين ، فإن ما جرى عليه الأباطرة البيزنطيون ، من سياسة دينية فى مصر ، أسهم إلى حد كبير فى زيادة الفوضى فيها ، وعمل على تدمير ما أدخلته بيزنطة فى مصر من النظم الإدارية[٢١٥] .

رابعاً : فتح الفرس لمصر

١ — اضطراب الأحوال فى مصر :

اشتد التنافس فى مصر ، فى السنوات الأخيرة من الحكم البيزنطى ، بين الأرثوذكس (أنصار المذهب الخلقدونى) و بين المونوفيزيتيين . فاعتبر المونوفيزتيون أنفسهم ، أنهم يمثلون الكنيسة الوطنية ، على حين أن الكنيسة الأرثوذكسية (الخلقدونية) ، تظاهرها وتساندها الحكومة ، ولذا وضعت يدها على أقدم العمائر الكنسية ، و نظر إليها السكان على أنها كنيسة متهرطقة ملحدة تستند إلى نفوذ أجنبى . ولم يمتد سلطان الكنيسة الخلقدونية إلى سائر أنحاء البلاد ، على حين أن الكنيسة المونوفيزتية حازت ولاء سائر الناس ، وصاروا يعتبرونها الكنيسة الجامعة الصالحة . ومن الملحوظ أن كبار رجال الأكليروس ومن يليهم فى المكانة والرتبة ، كانوا يعتبرون من الناحية الرسمية موالين للسلطان الأجنبى ، ولذا صاروا موضع ارتياب وشبهة عند سائر جمهور الكنيسة التى يتولون أمرها . واختتم البطريرك دميان رسائله بالدعاء للامبراطور بأن يتغلب على خصومه ، وأن ينتصر على أعدائه[٢١٦] .

يعتبر تيباريوس ، الذى تولى الوصاية على العرش البيزنطى منذ ٥٧٤ حتى ٥٧٨ ،

ثم صار امبراطورا (٥٧٨ — ٥٨٢)، آخر أمبراطور بيزنطى، لقى عطف المصريين ومحبتهم، ولعل ذلك راجع إلى أن اضطهاد الكنيسة المصرية، انقضى وزال فى زمنه، وإلى أن ممثلى الأمبراطور فى مصر، لم يلحقوا الضرر والأذى بالبطريركية المصرية، الواقعة فى ضواحى الإسكندرية[٢١٧].

وطالما جرى الإمبراطور موريس (٥٨٢ — ٦٠٢) على سياسة تيباريوس، لم يتعرض للكراهية من قبل المصريين. غير أن موريس لم يكن من ذلك النوع من الحكام، الذين يحظون بتأييد الشعب. فما بذله موريس من جهود لتدعيم مالية الإمبراطورية وملء خزائن الدولة بالمال، جعله شديد البخل، بالغ الشح، فأدّى ذلك إلى سقوطه. ومن الحقائق المعروفة عن سياسته فى مصر أنه، باع قمح مصر، وبذلك منع ما كان يوزع بالمجان من الخبز فى الإسكندرية والقسطنطينية[٢١٨]. على أن هذه الحقيقة يقابلها من جهة أخرى، ما أصدره من قرار، يقضى باعتبار قادة أسطول القمح الاسكندرى، غير مسئولين عن الخسائر الناجمة عن تحطيم السفن وغرقها[٢١٩].

وكيفما كان الأمر، فإن ما أقدم عليه فوقاس من عزل موريس عن العرش، وما تلى ذلك من مصرعه، هو وأفراد أسرته، لم يكن فى نظر المصريين سوى تغيير جديد فى الأسرة الحاكمة، التى تسيطر على مصر، من مقرها البعيد[٢٢٠].

على أن ما اشتهر به الإمبراطور فوقاس (٦٠٢ — ٦١٠) من العنف والشدة، أثار المعارضة والمقاومة. وطفحت العاصمة البيزنطية بالأوبئة والمجاعات والفتن الداخلية، وانقلب حزب الخضر على الإمبراطور وصاروا يندّدون به علنا فى الملعب، ويتهمونه بالفسق والفجور، وأشعلوا الحرائق فى المبانى العامة. وردّ عليهم

فوقاس بحرمانهم من حقوقهم السياسية ، وصار يلتمس الحلفاء . وكان يأمل فى أن يفوز بعطف الأرثوذكس فى الشرق مثلما حظى بالتأييد من روما . على أنه أمر بطرد أناستاسيوس البطريرك اليعقوبى بالاسكندرية ، وأصدر قرارا بأن لايجوز لمصر وسوريا أن تختار رئيساً كنسيا لها إلا بعد موافقته . وإزاء هذا الهجوم المشترك تناسى المونوفيزتيون فى أنطاكية والإسكندرية ما بينهم من منازعات . وفى سنة ٦٠٨ اجتمع البطريركان فى أنطاكية ، وتدخلت السلطات الأمبراطورية ، وانحاز اليهود إلى اليعاقبة فى مقاومتهم للقوات الإمبراطورية ، وأحرز الثوار النصر. فبادر فوقاس بارسال بونوسوس Bonosus ، كونت الشرق إلى أنطاكية ، فأعاد الأمن إلى نصابه ، ووطد سلطة الإمبراطور بانطاكية ثم ارتحل إلى بيت المقدس ، التى نشبت فيها الفوضى بسبب المنازعات بين حزب الخضر وحزب الزرق(٢٢١) .

وبينما كان الطاغية فوقاس ، يسيطر على العاصمة ، تأهبت افريقية لأنفاذ حملة لتقويض حكمه . دبر هرقل أرخون افريقية ، وجريجورى نائب الإستراتيجوس القيام بثورة ضد هرقل. ونظرا لأن هرقل كان متقدماً فى السن وقتذاك (سنة ٦٠٨)، تقرر أن يتولى أمر الحملة ضد فوقس ، هرقل الصغير ونكيتاس ابن جريجورى . وتقرر أن يسير نكيتاس لغزو مصر ، ويستولى على الإسكندرية، ثم يتوجه هرقل بحراً إلى سالونيك ، ويتخذها قاعدة للهجوم على القسطنطينية .(٢٢٢)

وفى أثناء سنة ٦٠٨ ، جرى حشد نحو ٣ آلاف رجل فى بنتابوليس وتولى قيادة هؤلاء الجند مع عساكر من البربر ، بوناكيس Bonakis الذى أنزل الهزيمة بالقادة الموالين للأمبراطور . وانحاز إلى جانب هرقل ليونتيوس حاكم مريوط وحاكم طرابلس . وأعد كبار الموظفين الخطة لنصرة الثوار فى الإسكندرية (٢٢٣) ، وظهر بالمدينة حزب يعمل لنصرة هرقل ، وتأهبت مصر

كلها للثورة ضد الحكومة البيزنطية ، وانكشفت الخطة للبطريرك الإمبراطورى، تيودور [٢٢٤] .

ولما علم فوقاس بهذا النبأ ، اهتم باستتباب الأمن فى البلاد ، فأرسل إلى مصر الأموال والعساكر ، وعهد إلى بونوسوس Bonosus كونت الشرق ، بعد أن قمع ثورة بانطاكية قام بها اليهود ضد المسيحيين ، بأن يتولى رد جيوش هرقل عن مصر ، وأن يتخذ من الأرهاب والشدة ما يكفل بقاء مصر على ولائها وتبعيتها للدولة البيزنطية [٢٢٥] . وما كاد نكيتاس يجتاز الحدود إلى مصر ، حتى انحاز اليه ليونتيوس ، حاكم مريوط ، ورفضت الاسكندرية أول الأمر أن تذعن له ، غير أن مقاومتها لم تستمر طويلا ، إذ أعلن رجال الدين والسكان والزرق والخضر ترحيبهم بنكيتاس [٢٢٦] . وحاول قائد الإسكندرية عبثا أن يوقف حركة الثائرين ، وأعلن أنه سوف يقاتل حتى الموت فى سبيل الأمبراطور ، فلقى مصرعه فى المعركة التى دارت بينه وبين الثائرين ، الذين رفعوا رأسه على رمح ، وطافوا به شوارع المدينة ، وكان ذلك إيذانا بالفوضى والاضطراب [٢٢٧] . أما البطريرك الخلقدونى تيودور والوالى الأوجستال (حنا)، فبقيا على ولائهم للحكومة البيزنطية ، فالتجأ البطريرك إلى كنيسة القديس أثناسيوس على ساحل البحر ، ولجأ الوالى الاوجستال ، وتيودور مراقب المالية ، إلى كنيسة تيودور شرق المدينة خوفا من السكان ، ومن جند نكيتاس المظفر ، على حد قول حنا النقيوسى ، ولم يكونا خاطئين فى تقديرهما ، فلم يلبث البطريرك الخلقدونى أن لقى مصرعه . [٢٢٨] وهذا الحادث جعل لحملة نكيتاس طابعاً دينياً ، إذ جرى الزعم أنها موجهة ضد الخلقدونيين . أما المونوفيزتيون بالاسكندرية فانهم انحازوا إلى هرقل ، وبادروا إلى نهب قصر الوالى الأوجستال،

http://www.al-maktabeh.com

والاستيلاء على الأموال التى بعث بها الأمبراطور فوقاس ، ووضعوا أيديهم على كل ما تحصل من الضرائب . واقتفت أثرهم مصر بأكلها ، وتقررت مصادرة أنصار الإمبراطور ، وجرى قلب تمثال فوقاس رأسا على عقب . ويقول المؤرخ حنا النقيوسى ؛ أن كل مدن مصر ، انحازت إلى الثورة ، وفرح الناس بالتمرد على فوقاس (٢٢٩).

ومن الملحوظ أن الأعيان المصريين ، الذين يعتبرون أيضاً موظفين رسميين ، بادروا بالتخلى عن الحكومة التى يخدمونها ، وأن السكان كانوا دائما متأهبين للثورة على نظام الحكم البغيض . (٢٣٠) ووقع فى أيدى نكيتاس خزائن الأموال ، والأسطول ، وجزيرة وحصن فاروس ، وطاف بوناكيس بأرجاء الدلتا ، فخضع له كثير من مدنها ، ولم يبق على الولاء فى الدلتا لبيزنطة سوى سمنود واتريب . (٢٣١) وحينما أبحر بونوسوس من قيسارية (بفلسطين) ، سمع بنبأ سقوط الاسكندرية فى يد نكيتاس . واتخذ جيشه من الفرسان الطريق البرى إلى مصر ، بينما انقسم أسطوله قسمين ، اتخذ أحدهما الفرع البيلوزى ، بينما سار القسم الآخر فى الفرع الشرقى للنيل (فرع دمياط) . واكتسح بونوسوس أول الأمر كل ما صادفه من مقاومة ، وأنزل هزيمة ساحقة قرب منوف بقادة هرقل وأشهرهما بوناكيس وليونتيوس . وعلى الرغم من مناعة نقيوس ، فإنها لم تستطع مقاومة جيش بونوسوس المظفر ، فخرج أسقفها تيودور ، ليلتقى بالقائد بونوسوس ، وقد حمل الأناجيل والصلبان ، والتمس الصفح والعفو ، غير أن بونوسوس أمر بقتله بعد أن تبين له ما كان يقوم به من نشاط سياسى ضد فوقاس ، فضلا عن تحريضه الناس بتحطيم تمثـال الإمبرطور بالمدينة . (٢٣٢) وأضحى بونوسوس بذلك يسيطر على كل الدلتا ، بعد أن هرع إلى الإسكندرية كل

قوات المتمردين ، التى استبد بها الخوف من بونوسوس ، إذا أقدمت على قتاله أو على الاستسلام له . وكان من اليسير على بونوسوس أن يواصل المسير من نقيوس إلى الإسكندرية ، بأن يتخذ طريق الفرع الغربى للنيل ، والقناة التى تربط النيل بالإسكندرية(٢٣٤) .

تأهب نكيتاس للقاء بونوسوس، فأعد بداخل المدينة جيشا ضخما ، مؤلفا من جنود نظامية وغير نظامية ، من البحارة والمدنيين ، يناصرهم حزب الخضر ، ورتب على أسوار المدينة الآلات والأدوات اللازمة للدفاع . وأرسل بونوسوس اسطولا صغير المهاجمة المدينة من جهة الجنوب ، غير أنه انسحب بعد أن تعرض لقذائف الحجارة من أسوار المدينة . وقدم بونوسوس، وقد وطد العزم على مهاجمة المدينة ، ولم يكن أهل الإسكندرية مستعدين لمقاومته . (٢٣٥) ولما تعرض نكيتاس للخطر ، والتمس نصيحة تيوفيل ، الذى اشتهر باسم تيوفيل المعترف ، وهو من أولياء الصعيد ، اتخذ رأس أحد الأعمدة مقاماله ، حيث يمارس زهده وتنسكه . والواضح أن هذا النوع من القديسين ، كان يجرى استشارتهم فى الأمور العامة ، لما اشتهروا به من الورع والتقوى ، ولما أحاطوا به من العلم نتيجة وفرة من تردد اليهم من الناس . فقال لنكيتاس «سوف تظفر ببونوسوس ، وسوف تحطم حكومة فوقاس ، وسوف يصير هرقل أمبراطورا »(٢٣٦) . ونصحه بأن يحشد عساكره ، وينشب معركة حاسمة ضد بونوسوس . وعندئذ حشد نكيتاس عساكره، وأمر بونوسوس جنده بالزحف على المدينة ، فتعرضوا لما كانت تلقيه عليهم العرادات من أعلا الأسوار من النيران . ثم أمر نكيتاس بأن يقوم الجند بهجوم شامل ، وانفتح باب الشمس، واندفع منه العساكر ، ودارت معركة رهيبة ، تعرضت فيها قوات بونوسوس لهزيمة ساحقة ، ولقى كثير من قادته مصرعهم . ولم يسع بونوسوس إلا الفرار

حيث اتخـذ الفرع الغربى للنيل ، واتجه إلى نقيوس التى اتخذهـا قاعدة لأعماله الحربية (٢٣٧) .

على أن نكيتاس طارد جيوش عدوه ، وحاصر نقيوس فاذعنت له ، وتحطمت روح بونوسوس آخر الأمر ، فهرب صوب الشرق ، إلى تانيس ، وبيلوزيوم ، حيث استقل سفينة إلى فلسطين ، وتوجه إلى القسطنطينية حيث لحق بالأمبراطور فوقاس .[٢٣٨]

وخضعت مصر لهرقل ، ووجه نكيتاس اهتمامه إلى إعادة الأمن والسلام ، لأن أحقاد الناس لم تهدأ حدتها أثناء القتال ، إذ أن أنصار حزب الخضر اتخذوا من انتصار نكيتاس ذريعة لمهاجمة أنصار حزب الزرق ، وللمضى فى النهب والقتل . ثم جرى التوفيق بين الحزبين ، بعد أن تم القاء القبض على زعمائهما وبذل النصح لأنصار الحزبين . وعين نكيتاس على المدن ولاة جددا يثق بهم ، وسامح الناس فى الضرائب المقرره عليهم لمدة ثلاث سنوات ، وختم حنا النقيوسى حديثه بأن «المصريين ازدادوا تعلقا به (نكيتاس) »[٢٣٩]. والواقع أن كراهية الناس للأمبراطور فوقاس ، لما اشتهر به من أنه طاغية [٢٤٠]، وأنه يمثل سلطة أجنبية وعقيدة مكروهه ، أفاد من ذلك كله نكيتاس . وفى تلك الأثناء ، وصل هرقل إلى القسطنطينية ، وأنزل الهزيمة بفوقاس بمساعدة القوات التى صحبها معه من افريقية والإسكندرية ، ونادى به سكان العاصمة البيزنطية امبراطورا وسط الحماس الشديد .[٢٤١]

الواقع أن السنوات الأولى من عهد هرقل ، يقابلها فى مصر حكم نكيتاس ، إذ لم يكن نكيتاس يشغل فحسب وظيفة الأوجستال ، بل صار له من السلطات ما يجعله نائب الإمبراطور فى القطر المصرى كله[٢٤٢]. أما انصار فوقاس فمنهم من لقى مصرعه أو تقرر نفيه ، ومنهم من تخلى عن نصرة القضية الخاسرة ، ووجه

نكيتاس كل اهتمامه بأن يعيد تنظيم الإدارة المدنية فى مصر ، وأن يعيد للجيش البيزنطى كيانه ، وهما الأداتان التى بفضلهما تستطيع بيزنطة الاحتفاظ بمصر . والمعروف أن هذين الجهازين يسيطر عليهما الفئة الحاكمة ، ولم يكن للمصريين فيهما نصيب . ولم يكن للحكومة البيزنطية فى مصر إلا غرض واحد ، وهو أن تبتز الأموال من الرعية كيما ينعم بها الحكام ، ولم تحرص على أن تجعل الحكم وسيلة لتوفير الرفاهية للرعية ، أو ترقية أحوال النـاس ورفع مستوى المعيشة بينهم ، أو تهذيب نفوسهم أو إصلاح مواردهم المادية(٢٤٣) . ولم يكن هذا الحـكم إلا حكماً أجنبياً ، لا يعتمد إلا على القوة ، ولا يحس بشىء من العطف على الشعب المحـكوم . وكان فى يد الحـكام ، عاصمة البلاد ، وحصن بابليون ، وسيطروا على المدن العديدة الحصينة ، الممتدة من أسوان جنوباً إلى بيلوز يوم شمالا . وانتشر جند الحكومة وجباتها فى تلك المدن ، يظهرون هيبة السلطان ، ويجمعون الأموال ، على حين أن التجار اليونانيين واليهود ينزلون أينما شاءوا تحميهم القوات البيزنطية ، ويمعنون فى منافسة التجار المصريين(٢٤٤) .

ولما اشتهرت به الإسكندرية من أنها مدينة ضخمة يسكنها أخلاط من الناس ، من اليونانيين البيزنطيين ، واليونانيين المستوطنين ، والمصريين ، والسوريين ، واليهود ، وأجانب من أمم مختلفة ، كانت تعتبر من أشق بلدان العالم حكماً . ومع ذلك فإن نـكتياس استطاع ، فيما يبدو ، أن يكسب احترام الناس له ، وإن لم يحظ بحبهم ، على الرغم ممـا اشتهر به أهل الإسكندرية من التقلب والميل إلى الاضطراب . وكان أول ما أمر به نكيتاس ، أن رفع عنهم جباية المال ثلاث سنوات ، فزاد ذلك فى تقدير الناس له ، إلى جانب ما شهدوا من بلائه فى الحرب . (٢٤٥) وكان البطريرك حنا المتصدق ، خير مساعد لنكيتاس وأكبر نصير له(٢٤٦) .

http://www.al-maktabeh.com

وبعد شهور ، غادر نكيتاس مصر ، وتوجه إلى الشام وآسيا الصغرى فأخضعهما للأمبراطور الجديد هرقل ، ثم مضى إلى القسطنطينية فبلغها فى سنة ٦١٢ . على أن نكيتاس ، لم يلبث أن عاد إلى الإسكندرية ، دوقا وأوجستالا ، وذلك فى سنة ٦١٤ أو ٦١٥ ، وكان لزاماً عليه أن يواجه بها أحداثاً خطيرة[٢٤٧] .

٢ — إغارة الفرس على مصر :

إذا قرأنا سيرة حنا المتصدق ، كما كتبها حوالى منتصف القرن السابع ليونتيوس صاحب نابلس ،[٢٤٨] وإذا طالعنا ما أودعه حناموسكوس Moschos من انفعالات وانطباعات فى كتابه المعروف باسم « الرياض الروحانية » ، وما أورده صفرونيوس فى مؤلفه عن كرامات القديسين ، سير Cyr وحنا أثناء إقامتهما فى مصر فى مستهل القرن السابع ، تراءى القطر المصرى ، زمن حكومة نكيتاس ، على أنه بلد يسوده الهدوء والسكون ، حافل بالرؤيات الصالحة ، وذاخر بالأعمال الخيرية . وبدت الكنيسة الخلقدونية زاهرة ، وافرة الرخاء ، إذ أصبح لها سبعون كنيسة بعد أن كانت لا تتجاوز سبع كنائس ، بفضل حماس البطريرك ، وما لقيه من تأييد حنا موسكوس وصفرونيوس[٢٤٩] .

كان بمصر وقتذاك ما كان فيها منذ مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ ، من مذهبين لكل منهما بطريرك ؛ وهذان المذهبان هما المذهب الملكانى أو الخلقدونى ، وأكثر من يدين به من أصل يونانى أو أوربى ، والمذهب المونوفيزتى أو اليعقوبى ، ويدين به معظم السكان من المصريين وعناصر أخرى . وحرص كل أمبراطور على مهاجمة المونوفيزتيين واضطهادهم ، وأراد المونوفيزتيون استئصال المذهب الخلقدونى[٢٥٠] .

وسبق الإشارة إلى مصرع البطريرك الخلقدونى ، تيودود عند استيلاء

نكيتاس على الإسكندرية سنة ٦٠٩ . والمعروف أن ثورة هرقل كانت موجهة ضد السلطان الإمبراطورى . و كان المصريون يأملون باشتراكهم فى هذه الثورة، أن يلقوا من المعاملة الطيبة ما لم يلقوه زمن فوقاس . والواقع أنه لم يخب رجاؤهم فى أول الأمر ، إذا بقى البطريرك اليعقوبى ، أناستاسيوس ، على كرسيه ست سنوات ، فضلا عن الخمس سنوات التى قضاها بطريركا أثناء الثورة . ومات أناستاسيوس فى ١٨ ديسمبر سنة ٦١٦ [٢٥١]. وعلى الرغم من أن الخلقدونيين لا زالوا محتفظين بسلطانهم فى العاصمة (الاسكندرية) ولهم أكبر الكنائس بها ، فإن المونوفيزتيين استطاعوا أن يشيدوا بالاسكندرية بعض الكنائس ، وأن يعمروا كنائس أخرى ، مثل كنيسة القديس ميخائيل ، وكنيسة القديس انجيلوس ، والقديس قزمان ودامیان ، فضلا عن أديرة عديدة ، وكان أناستاسيوس يعين القسس و يصدق على تعيين المطارنة [٢٥٢] .

وعلى الرغم من وقوع الشقاق بين المونوفيزتيين ، فإن هرقل كان حريصاً على أن يستميل قلوب المصريين ، و كان نكيتاس يرى لزاماً عليه أن يجزيهم على ما قدموه من خدمات . وفى الوقت ذاته نصب بطريركا خلقدونيا ، وهو حنا المتصدق ، كان له من الصفات والأعمال ما جعله موضع إعجاب وتقدير المونوفيزتيين ، أثناء حياته وبعد وفاته ، إذ اتخذوه أحد القديسين الذين تخلد أسماؤهم فى التقويم القبطى . يضاف إلى ذلك أن نكيتاس بذل جهداً كبيراً فى التوفيق بين المونوفيزتيين فى الشام ومصر ، مما يدل على حرصه على التسامح معهم [٢٥٣] .

---

(٢٥٣)* كان البطريرك الملكانى الجديد هو حنا المتصدق ، واشتهر بهذا اللقب ، لما كان يأتيه من أعمال البر والإحسان (انظر — بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٣٦) .

عاد إلى الأرثوذكسية (الخلقدونية) فى أنحاء البلاد ، عدد من القرى والكنائس الجامعة وكثير من الأديرة ، فضلا عن النساك الصالحين ، الذين استهوت حياتهم التنسكية وكراماتهم ، كل من زاروهم ، وعن العلاج العجيب الذى يجرى فى أبى قير بفضل القديسين سيرو حنا ، وعما اشتهر به البطريرك حنا من الإحسان . يضاف إلى ذلك ما كانت عليه الإسكندرية وقتذاك من حياة فكرية ناشطة ، وما يمتلكه أفراد بها من المكتبات الرائعة[٢٥٤].

على أن هذه الصور الجميلة لا تنبىء عن حقيقة أحوال البلاد ، لو لم يرد بها أحياناً من التفاصيل ما يجعلنا نقف على بعض هذه الحقائق . فنلمس ما تصادفه الحكومة البيزنطية فى مصر من صعوبات مالية ، حين يصرح البطريق نكيتاس إلى البطريرك حنا المتصدق « إن الدولة فى أشد الحاجة إلى المال ، وإن ما عندك من المال ، يأتى إليك عن رضى ، لا يؤذى أحدا ، فابعث ما عندك إلى بيت مال الدولة »[٢٥٥] . فقال له البطريرك « إن ما تقدمه لملك السموات ، يجب ألا تبذله لملك فى الأرض ، ولست بمعطيك شيئاً عن رضى ، ولكن خزانة الله تحت سريرى هذا ، وأنت وما تختار لنفسك » ، فوضع يده على أموال الكنيسة[٢٥٦]. ويتردد بصفة خاصة فى بعض صفحات الكتاب نغمة مثيرة عن الفرس الأنجاس ، الذين استباحوا الشام ، وعاثوا فيه فسادا ، وتقدموا حتى استولوا على بيت المقدس ، فهرع الألوف من السكان إلى الإسكندرية يلتمسون الإحسان من حنا المتصدق[٢٥٧] .

على أن الإمبراطورية البيزنطية ذاتها تعرضت لهجوم الفرس الذى بدأه كسرى الثانى ، بدعوى أنه يثأر لصديقه الإمبراطور موريس . وبعد أن استولى كسرى على أرمينيا ، التى طالما كانت ساحة للقتال ، قسّم جيشه إلى قسمين ، توجه قسم منه إلى الجنوب للاستيلاء على الشام ، وزحف القسم الآخر نحو الغرب

ليجتاز آسيا الصغرى ، فى طريقه إلى القسطنطينية . وما يعنينا فى هذه الحرب ،هو ما كان من أمر الجيش الذى توجه نحو الجنوب ، وكان سيره بطيئا ، حتى ان فتح أنطاكية لم يتم إلا بعد أن صار هرقل أمبراطورا . ولو صح أن الدافع لكسرى على خوض الحرب ، إنما هو الإنتقام من فوقاس ، لكان مصرع هذا الطاغية كافيا لوقف القتال . والواقع أن كسرى أدرك فى حربه ما أصاب البيزنطيين من الضعف ، وزاده النجاح رغبة فى المضى فى سبيله ، ولعله تطلع إلى إعادة إمبراطورية الفرس القديمة ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بإخضاع الدولة البيزنطية لحكمه . ولم يكن ذلك مجرد خيال بعيد التحقيق ، إذ أن جيوشه كانت أكثر عدداً ، وأتم عدة ، وأحسن نظاما ، من جيوش عدوه . وكان قادته لا نظير لهم عند البيزنطيين ، بعد وفاة بونوسوس ونارسيس ، يضاف إلى ذلك أن خزانة كسرى كانت عامرة بالمال ، وأن الشعب يؤيده وينصره ، على حين أن الفوضى والاضطراب والفتن سادت الدولة البيزنطية ، وكادت خزائنها أن تكون خاوية من المال(٢٥٨) .

ولما اشتهرت به بلاد الشام من وعورة المسالك ، لم يستطع القائد الفارسى شهر َبرز Shahr baraz ، أن يمضى إلى بيت المقدس ، بعد استيلائه على دمشق وقيسارية ، إلا فى السنة الخامسة من حكم هرقل(٢٥٩) . الواقع أن حياة هرقل اتخذت مظهرين متناقضين ، إذ اجتمع فيها النشاط الجم والفتور الشديد . ولعل هرقل وقتذاك كان يعانى مرحلة الفتور الشديد ، أثناء زحف الفرس وهجومهم ، إذ لم يصادفوا مقاومة فى تقدمهم وزحفهم ؛ فسقط بيت المقدس دون مقاومة ، بسبب خيانة اليهود ، وذلك سنة ٦١٥م(٢٦٠) . وأمضى الفرس فى المدينة واحدا وعشرين يوما فى القتل والنهب ، خربوا كنيسة القبر المقدس والكنائس الأخرى ،واستولوا على الصليب المقدس والأوانى المقدسة من الذهب.

والفضة . ووقع فى أيديهم عدد كبير من الأسرى ، منهم البطريرك زكريا . وأرسلوا الصليب والبطريرك هدية إلى زوجة كسرى ، ومن لم يدركه القتل والأسر من سكان بيت المقدس ، هرب لائذا إلى الجنوب[٢٦١] . وهذا الحادث هو الذى نزلت بمناسبته الآية الشريفة « آلم ، غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين »[٢٦٢] . على أن الملاذ الأكبر للهاربين المشتتين من المسيحيين كان القطر المصرى ، ولا سيما الإسكندرية ، التى أخذ عدد سكانها يتزايد بمن كان يرد إليها من اللاجئين منذ ابتدأ الفرس يغزون الشام[٢٦٣] . وجعل البطريرك حنا المتصدق كل موارده ، للتخفيف عن ويلات اللاجئين والفارين من وجه الفرس ، وبذل فى سبيل إعادة الكنائس فى بيت المقدس إلى سابق عهدها مقادير وافرة من المواد والدواب ، من القمح والخضر والسمك المملح والنبيذ والحديد فضلا عن الصناع والبغال[٢٦٤] . وأرسل حنا المتصدق أيضاً إلى فلسطين تيودور أسقف اماتوس Amathus فى قبرص ، وجورج أسقف العريش واناستاسيوس رئيس دير القديس انطون ، بأموال وفيرة ، لافتداء الأسرى[٢٦٥] . ويعتبر هذا دليلا على التعاون فى هذه الأمور بين الكنيسة الخلقدونية والكنيسة المونوفيزتية[٢٦٦] .

على أن الزحف الفارسى ظل مستمراً ، واستغرق فتح الشام ست سنوات ، وكان فتح بيت المقدس آخر فتوحهم فى بلاد الشام . فلما اقترب خريف سنة ٦١٦ ، حتى تم الاستعداد لغزو مصر . وتولى شاهين قيادة الجيش الفارسى الموجه لفتح مصر ، وبدأ مسيره من العريش ، إلى بيلوزيوم (الفرما) التى لم تبد أية مقاومة للغزاة ، ثم اتخذوا أيسر الطرق المؤدية إلى بابليون ، وبعد أن اجتازوا الطرف الجنوبى للدلتا ، زحفوا نحو الاسكندرية ، مجتازين نقيوس أثناء سيرهم . ووقع فى المدينة (الإسكندرية) اضطراب شديد ، وذعر كبير ، عند سماع نبأ اقتراب الفرس . غير أن المدينة كانت من المناعة ما جعلها تصمد فى مقاومتها . وتحتم على

الفرس أن يحاصروها ، وصاروا يخربون ، جريا على عادتهم ، كل الجهات الواقعة حول المدينة ، فنهبوا ما وقع فى ضواحيها من الأديرة ، وأشعلوا الحرائق فى كثير منها (٢٦٧) .

على أن المدينة صمدت للحصار ، لمناعة أسوارها ، غير أنها كانت تتوقع مصيرها وسقوطها فى يد الفرس ، إذ أن عددا كبيراً من جندها تقرر إنفاذه إلى بلاد أخرى من الدولة ، أو إلى بيزنطة ذاتها للدفاع عنها ، بعد أن استولى الفرس على بلاد الدولة البيزنطية ، و بذلك ضعف أمر الدفاع عن المدينة . يضاف إلى ذلك أن القمح لم يعد يصل إليها من ريف مصر . وعلى الرغم من أن أهل الإسكندرية كانوا ينالون جزءا صغيرا من القمح الوارد لها ، فإن تجارة القمح كانت تصدر من الإسكندرية إلى جميع أنحاء البحر المتوسط ، فكانت تتدفق إلى خارج المدينة ، فلما انقطع المورد ، استورد حنا المتصدق القمح من صقلية ، غير أن ذلك لم يكن كافيا (٢٦٨) . فلما طال أمد الحصار ونفدت الأقوات ، ولم تأت الأمداد من قبل هرقل ، واستبدت الحاجة بالناس ، وأيقنوا أنه لابد لهم من الاستسلام ، اضطربت المدينة ، وأوشكت المدينة على التسليم للفرس ، ارتحل نكيتاس و بصحبته البطريرك حنا المتصدق ، فبلغت السفينة بهما رودس ، ثم مرض البطريرك ، ولما أحس بدنو أجله ، توجه إلى جزيرة قبرص ، فهبط إليها ، حيث مات فى أماتوس ، فى ١١ نوفمبر سنة ٦١٧ (٢٦٩) .

ولاشك أن أهل الإسكندرية فقدوا كل أمل فى النجاة ، والراجح أن المدينة سقطت فى أيدى المحاصرين ، بالخيانة والخديعة فى يونية ٦١٨ . وجرت بالمدينة بعد سقوطها مذابح مروعة ، وفى الميناء ، وقع فى أيدى الفرس السفن ، التى شحنت ثروة الكنائس وكبار الشخصيات . ولم تلبث هذه الأموال والتحف

http://www.al-maktabeh.com

أن أرسلت مع عدد من الأسرى إلى كسرى الثانى ، وأرسل إليه أيضاً مفاتيح الإسكندرية [٢٧٠] .

٣ — الفتح الفارسى :

ثم سار الجيش الفارسى بالنيل ، فأخضع سائر البلاد دون أن يصادف مقاومة . وما اشتهر به الفرس من القسوة والعنف ، أثار الرهبة والخوف فى كل مكان ؛ فالأساقفة أنفسهم ، أمثال بيزنتيوس Pisentios ، أسقف قفط ، ولوا الأدبار عند اقتراب الفرس ، وتخلوا غير متحرجين عن المؤمنين [٢٧١] . وجاء فى موعظة بعث بها بيزنتيوس إلى أبروشيته «لقد خذلنا الله ، لما نقترفه من الذنوب ، وسلط علينا من الأمم من لا يرحمنا » [٢٧٢] .

و يتبين من ذلك أن الفرس بلغوا فى فتوحهم أطراف وادى النيل حتى أسوان ، وأن المصريين لم يرحبوا بهم ، ولم يروا فيهم محررين من ظلم البيزنطيين . و بذلك صدقت النبوءة المنسوبة إلى القديس شنودة المتوفى سنة ٤٥١ م ، والتى لم تكن فى الواقع إلا صدى لما تردد من أحداث القرن السابع ، وتشير هذه النبوءة إلى « أنه سيأتى الفرس إلى مصر ، يسفكون فيها الدماء ، و يسلبون أموال المصريين ، و يسبون أبناءهم يبيعونهم بالذهب ، فإنهم قوم ظالمون معتدون ، وستنزل المصائب على أيديهم بمصر ، يغصبون الكنائس مابها من آنية مقدسة ، و يشربون الخمر فى المحراب لايبالون ، و يهتكون أعراض النساء على مرأى من رجالهن ، وسيبلغ الشر أعظمه ، والشقاء أقصاه ، وسيهلك ثلث من يبقى من الناس، من بؤس وعذاب ، وسيبقى الفرس فى مصر حينا من الدهر ثم يخرجون منها [٢٧٣] ».

على أنه ما كاد هذا الخطب ينجلى ، حتى تحسن الموقف فى مصر ، بعد أن انسحبت الحاميات البيزنطية من سائر البلاد ، وجلت عن مصر نهائيا ، لأن

الفرس أثناء السنوات العشر أو الأثنتى عشرة سنة ، التى احتلوا فيها البلاد أخذوا يعاملون الخلقدونيين فى شىء من الأرتياب ، واعتبروهم مشبوهين . وسبق أن رأينا البطريرك الخلقدونى (حنا المتصدق) يلوذ بالفرار ، دون أن ينتظر ظفر الفرس وانتصارهم ، لإدراكه ماسوف ينتظره من مصير على أيديهم . على حين أن الفرس أحسنوا معاملة المونوفيزتيين ، وأظهروا لهم الرفق ولين الجانب ، فاستطاع البطريرك المونوفيزتى ، اندرونيك Andronic ، لأول مرة ، ومنذ زمن طويل سنة ٦١٦ ، أن يقيم بمفرده بالاسكندرية[٢٧٤]. ومن الأسباب التى أجازت للبطريرك المونوفيزتى البقاء بالإسكندرية ، أنه كان له أسرة عريقة بالإسكندرية ، وكان ابن عمه رئيس مجلس مدينة الإسكندرية[٢٧٥].والمعروف أن اندرونيكوس عند انتخابه كان شماسا فى كنيسة انجليون Angelion بالاسكندرية ، فبقى مقيما فى صومعته ، المتصلة بالكنيسة مدة بطريركيته ، وكانت ست سنوات[٢٧٦]. ولاشك أن ماشغل نكيتاس من حصار الفرس الاسكندرية صرفه عن الاهتمام بأمر البطريرك المونوفيزتى ، ومن الطبيعى أيضاً ألا يحفل الفرس بهذا الموضوع[٢٧٧] .

وكيفما كان الأمر ، فإن اندرونيكوس مات سنة ٦٢٣ ، وتقرر انتخاب بنيامين بطريركا للاسكندرية خلفاله . وكان بنيامين راهبا مصريا ، ينتمى إلى أسرة قبطية موسرة من قرية فرشوط ، من بين رهبان دير قبريوس ، الذى يقع إلى الشمال الشرقى من المدينة (الاسكندرية) ، فى وسط بستان من النخيل على مقربة من شاطىء البحر ، وتعرض هذا الدير للنهب على يد الفرس . وترهب بنيامين فى هذا الدير على يد رئيسه تيوناس Theonas ؛ واشتهر بشدة التقوى والبراعة فى العلم ، واتصل بالبطريرك اندرونيكوس ، فأعجبه منه

صفاته الطيبة ، واستبقاه فى المدينة معه ، ولم يلبث أن صار قساً ، وحاز ثقة البطريرك فصار يساعده فى كل أمور الكنيسة ، وإدارة البطريركية (٢٧٨) .

لم يبق بنيامين فى خدمة اندرونيكوس إلا شهورا ، ثم مات البطريرك ، فأوصى بأن يخلفه فى البطريركية بنيامين . وبولايته ، لم يعد لرجال الدين وأهل الإسكندرية سيطرة على البطريركية ، على الرغم من أن رجال الدين بالاسكندرية ظلوا قرونا عديدة يحافظون على ما كان لهم من حقوق فى اختيار البطريرك . ظل بنيامين نحو أربعين سنة يوجه إدارة الكنيسة المونوفيزتية فى أحوال وظروف بالغة التغيير ، ويعتبر بداية سلسلة من البطاركة الأقباط (٢٧٩) .

وسبق الإشارة إلى أن الفرس لم يحفلوا بأمر اندرونيكوس ، البطريرك المونوفيزتى ، فلم يطردوه من منصبه ، على حين أن بطريرك الخلقدونيين حنا المتصدق لجأ إلى الفرار . ومع ذلك فإن المقدونيين ظلوا محتفظين بما لهم من الكنائس بالإسكندرية . وخلف حنا على البطريركية الخلقدونية ، شخص اسمه جورج وليس معروفا ما إذا كان بطريركا أو نائبا للبطريرك ، ومتى حول هذا المنصب . والراجح أنه حدث سنة ٦٢٧ ، عقب جلاء القوات الفارسية ، وكل ماهو معروف ، أن كيرس هو الذى خلفه على البطريركية الخلقدونية (٢٨٠) .

ويتبين من رسائل بيزنتيوس أسقف قفط ، أن كبار رجال الكنيسة المونوفيزتية ، نهضوا أثناء اختفاء السلطات المدنية ، بأعباء القضاء فى الدوقيات . واعتبرهم سكان البلاد أنهم « الآباء الحقيقيون للشعب » ، فهدأت البلاد ، أثناء الاحتلال الفارسى ، بعد أن تخلصت لأول مرة ، منذ قرون عديدة ، من السيادة البيزنطية الكريهة (٢٨١) .

كان ذلك حدثا خطيرا ، إذ أن سهولة فتح الفرس لمصر ، أظهر ما كانت عليه الحكومة البيزنطية من الضعف ، وتعلم المونوفيزتيون ، الذين يؤلفون غالبية

السكان ، أن فى وسعهم أن يعيشوا فى هدوء واطمئنان فى ظل سلطة أخرى ، غير سلطة الإمبراطور البيزنطى[٢٨٢].

ولما انتصر هرقل ، وعادت مصر إلى حظيرة الإمبراطورية البيزنطية ، لم تضع هذه الدروس هباء ، نظرا لما حدث قبيل فتح العرب لمصر ، أن بلغت الإدارة البيزنطية فى مصر ، من السوء ما كانت عليه عندما تولى جستنيان العرش . يضاف إلى ذلك أن كراهية المصريين لكل ما كان يونانياً ، زادها حدة وشدة ، شعور المصريين بقوتهم ، وانبعاث قوميتهم ، فصار فى وسعنا أن ندرك أن زوال الحكم البيزنطى أضحى وشيك الوقوع ؛ فإذا جرى حادث مهما كان تافهاً ، فلا بد أن يؤدى إلى كارثة خطيرة[٢٨٣].

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الثالث عشر

فتح العـــرب لمصر

تعرضت الدولة البيزنطية سنة ٦١٩ ، لأشد ما تعرضت له من هجوم من قبل أعدائها فى سائر الجهات ، إذ استولى الفرس على الإسكندرية ، وحشدوا حوالى ذلك التاريخ أسطولها لمهاجمة القسطنطينية ، وذلك فى إثر ماشنه الآفار من هجوم ، وكأنما جرى ذلك التوقيت حسب خطة موضوعة . غير أن الإمبراطورية البيزنطية لم تلبث أن أثبتت ، على الأقل من الناحية البحرية ، أن بيزنطة لا تزالت تملك السيطرة . إذ لم يلبث الفرس أن ولوا الأدبار ، بعد أن هلك منهم نحو أربعة آلاف رجل بسفنهم ، ولم يتجاسر العدو على أن يقوم بمحاولة جديدة[1] . على أن هرقل أدرك آخر الأمر ، أنه لا بد له من إقرار السلام فى الشطر الأوربى من الإمبراطورية ، حتى يتيسر له مواصلة الحرب فى آسيا ، فعقد معاهدة مع الآفار سنة ٦١٩ ، وأدى لهم نحو ٢٠٠ ألف دينار اتاوة ، و بذل لهم جماعة من أقاربه وكبار القادة ليكونوا رهائن عندهم[2] . وحمل البطريرك سرجيوس ، الإمبراطور هرقل على أن يقسم بأنه سوف لا يتخلى عن القسطنطينية أو يغادرها ، وعندئذ تتولى الكنيسة تدبير ما يلزم من المال لإعداد الحملة . ووافقت الكنيسة على أن تقرض الدولة ، مقابل ربح معين ، ما لديها من ثروة من التحف الفضية والذهبية كيما تسك نقوداً ، لأن ما تخوضه الدولة من قتال ليس حربا اعتيادية بل تعتبر حربا صليبية ، الغرض منها أن تستخلص من الكفار المدينة المقدسة (بيت المقدس) والصليب المقدس[3] . ولذا ينبغى أن تجتمع الكنيسة المسيحية مع الدولة المسيحية فى النضال ضد العدو المشترك .

وسوف يقود هرقل جيوشه إلى القتال ، وسوف ينتصر أو يلقى حتفه ، بقوة الله[٤] .

غادر هرقل القسطنطينية فى ٤ أبريل ٦٢٢ ، بعد أن عهد بالمدينة وابنه إلى « أيدى الله وأمه العذراء والبطريرك[٥] » . وأنزل هرقل الهزيمة الحاسمة بالفرس فى معركة نينوى فى ديسمبر سنة ٦٢٧ ، وأعلن استعداده لمفاوضة الفرس فى شروط الصلح ، غير أن كسرى الثانى لم يستجب لدعوته . فكان لزاما على هرقل أن يقوم بحملة أخرى لمواصلة القتال ، غير أن حدث فى ٣ أبريل سنة ٦٢٨ أن قدم للإمبراطور هرقل فى مقر قيادته فى جانزاكا Ganzaca (جبال زاجروس) رسول من قبل البلاط الفارسى ، ينهى بما حدث من وفاة كسرى وتولية ابنه شيرويه الحكم . وعرض شيرويه الصلح على هرقل ، فقبله عن طيب خاطر . وتضمن الصلح إعادة الصليب المقدس ، والجلاء عن أراضى الإمبراطورية التى احتلتها الجيوش الفارسية . والراجح أن الحدود الرومانية عادت إلى ما كانت عليه فى معاهدة سنة ٥٩١ . وبذلك انتهت حرب هرقل ضد الفرس ، ونتج عنها جلاء الفرس عن مصر ، وفى السنة التالية ، مارس سنة ٦٢٦ ، إختتم الإمبراطور انتصاره بإعادة الصليب المقدس إلى بيت المقدس ، وهو حادث لازال تخلده حتى اليوم تقاويم الشرق والغرب ، على أنه عيد تمجيد الصليب (١٤ سبتمبر)[٦] . وأشارت أسطورة إلى أن الإمبراطور حينما اقترب من مدينة بيت المقدس ، خرج إليه موكب من القسس والرهبان ، يحملون الأناجيل والشموع والمجامر ، وجاء من ورائهم جموع كبيرة من السكان ، فإذا بلغ الباب الذهبى بالجانب الشرقى بالمدينة ، كان فى انتظاره البطريرك زكريا ، فسلم عليه وأظهر الخضوع له ، ثم أخذ يعنفه على فخامة ملبسه ، وطلب إليه أن يخلع رداءه الأرجوانى .

ويطرح ما عليه من الذهب حتى يقترب من المواضع الطاهرة بما يليق بها من الخضوع والخشوع [٧].

المعروف أن المسيحيين المنشقين عن الكنيسة الإمبراطورية (الخلقدونية)، يعتبرون حلفاء للفرس، ففى سوريا اتخذوا خطوات للتعاون مع الأرمن واليعاقبة السوريين فضلا عن النساطرة. على أن هذه السياسة لم تصل إلى مصر، واعتبر المصريون الفرس غزاة مخربين، ودمروا الأديرة والقرى الزاهره فى غرب الإسكندرية، وقتلوا رهبان نقيوس، بسبب إشاعة كاذبة عن ثروتهم [٨].

تولى بطريركية بيت المقدس، موديستوس سنة ٦٣٠ بعد وفاة زكريا، وصحبه هرقل بعد إعادة الصليب المقدس، أثناء عودته، كيما يعينه على إقرار أمور الكنيسة الإمبراطورية، وإعادتها إلى سابق عهدها، بعد عودة سوريا إلى الدولة البيزنطية، وليعمل على رد الكنائس التى جعلها كسرى للنسطوريين والمنوفيزتيين وإرجاعها إلى الخلقدونيين. يضاف إلى ذلك حرص الإمبراطور على أن يفيد منه فى التماس الوسائل التى تؤدى إلى توحيد المذاهب الدينية المختلفة، وكان هذا من أعز ما يأمله الإمبراطور، وتراءى له أن ذلك ليس ببعيد بعد أن أضحى بطل المسيحية وناصرها [٩]. غير أن موديستوس مات فى شتاء ٦٣٠ — ٦٣١، ولما لم يستطع هرقل أن يعثر على أسقف ينصره فى سياسته الكنسية، ترك كرسى بطريركية بيت المقدس شاغرا، على أنه لم يكن ليحيد عن رأيه فى التوفيق بين الخلقدونيين والمونوفيزتيين [١٠]. والواقع أن هذه الفكرة لم تكن أول الأمر إلا المظهر الكنسى لما قام به هرقل من أعمال حربية فى آسيا الصغرى وأرمينيا، من أجل توحيد الإمبراطورية. إذ يصح لأحد الفريقين أو المذهبين المتنازعين، أن يقول عن طيب خاطر، أن فى المسيح طبيعتين، إذا قبل الفريق الآخر، بعد مساندة علماء

اللاهوت من المونوفيزتيين ، وموافقة الخلقدونيين ، للاقتراح الذى يقضى بأنه ليس فى المسيح إلا إرادة واحدة وفعل واحد ، فحيث أنه لا يقوم بالعمل إلا واحد فحسب ، فليس له إلا جهد واحد ، وقوة مثيرة واحدة ، على حد قول سفيروس للتدليل على مركز المونوفيزتيين . أما الجانب المعارض الذى يجعل أن ما بالمسيح من إرادة بشرية ، تعتبر جانبا جوهريا من طبيعته البشرية الكاملة ، فمن الطبيعى أنها نبعت من علم اللاهوت المنسوب إلى ليو الخلقدونى ، غير أنها لم تجد سندا ثابتاً ، وظهرت لأول مرة فيما يبدو ، فى موعظة القاها ايلوج Eulogius أسقف الإسكندرية . وأصاب ممثلو الامبراطور نجاحا حينما ابتكروا ما أطلق عليه المؤرخون صيغة الاتحاد ، على الأساس العقائدى الجديد ، مع الأرمن واليعاقبة السوريين (١١).

كان سرجيوس ، وهو سورى الأصل ، يوافق الإمبراطور فى رأيه ، وهو صاحب صورة التوفيق ، التى تقضى بأن يمتنع الناس عن الخوض فى الحديث عن كنه طبيعة المسيح ، وعما إذا كان له صفة واحدة أم صفتان ، ولكن عليهم أن يشهدوا أن له إرادة واحدة أو قضاء واحدا . ولما كان الإمبراطور فى أرمينيا سنة ٦٢٣ ، اتفق مع بولص ، الجاثيليق ، فتوحدت الكنيسة الخلقدونية بكنيسة أرمينيا . ثم زار هرقل فى سنة ٦٢٧ ، لازيقا ، ودعا كيرس أسقف فاسيس Phasis إلى مذهبه الجديد ، فوجد منه قبولا . وفى ذلك الوقت عرض على أثناسيوس أن يكون بطريركا فى انطاكية ، بشرط أن يقر ما أقره مجمع خلقدونية ، وأن يأخذ بتأويل الموحدين (المونوثلتيين) والراجح أن الرؤساء الثلاثة اجتمعوا بالإمبراطور فى هيرا بوليس بالشام ، وأقروا شروط التوفيق وكان المتوقع بعدئذ أن يسود السلام الكنيسة (١٢).

لعل هذا الوفاق صدر فى سنة ٦٣٢ ، وأعقبه ولاية كيرس بطريركية الإسكندرية ، وأمره الإمبراطور أن يجمع المذهبين المونوفيزتى والخلقدونى فى

المذهب الجديد . ونجحت خطة الإمبراطور وقتذاك ، وجاءت إليه الأنباء من مصر ، مبشرة بالنجاح . إذ وصف كيرس ما أصابه من نجـاح حتى تخيّل الناس أن هرقل بدأ باسترجاع دولته وجمع شملها ، بعد أن نزعها الفرس من يده ، ثم تلى ذلك أنه أوشك أن يحقق توحيد الـكنيسة كما يشتهى ، فيربط بين المسيحيين ويجعلهم إخوانا فى دين واحد[١٣] . وكيما ييسر هرقل للبطريرك كيرس عمله ، منحه فيما يبدو من السلطات المدنية الواسعة ، إلى جانب سلطته الروحية ، ما حمل ساويرس الأشمونى على أن يقول « إن كيرس جاء إلى مصر حاكما وبطريركا »[١٤] .

البطريرك كيرس :

كان على رأس كنيسة الإسكندرية المونوفيزتية ، منذ سنة ٦٢٣، البطريرك بنيامين الذى اشتهر بما كان له على مواطنيه من سلطان قوى ونفوذ كبير ، وبما بذله من جهد صادق لإعادة تنظيم الـكنيسة المصرية . ولا شك فى أنه عمل على إعادة وحدة الـكنيسة القبطية ، وعلى أن يعيد إليها إطمئنانها واستقرارها ، بعد أن زعزعتها ماجرى وقتذاك من أحداث سياسية[١٥] . وكسب بنيامين من محبة المصريين وتقديرهم وإجلالهم ، مالم ينقصه تغير الأحوال ؛ إذ أن مدة بطريركيته كانت أكثر عهد فى تاريخ القبط تغلباً وأعظمه أحداثاً . على أنه لم يتساهل فى أمر الدين ، ولم يتغاضى عن رذيلة فى الخلق . فشرع منذ أول أمره بأخذ قسسه بالشدة إذا ارتـكبوا الرذائل ، وحرص على أن ينتزع الشرور من مواضع كثيرة ، لم يكن للأساقفة عليها من سلطان ، بسبب مشاغل الحرب . وزار بابليون قبل تـكريسه ورسامته . ولما ولى البطريركية كتب إلى أساقفته يقول « رأيت فى مقامى فى حلوان و بابليون ، جماعة من أهل العناد والـكبر ، من القسس والشمامسة، وما أشد ما كرهت نفسى أعمالهم . و إنى أبعث بهذا الـكتاب

إلى جميع الأساقفة ، آمرهم أن ينظروا مرة فى كل شهر ، فى أمر كل رجل من رجال الدين ، لم تمض على رسامته عشر سنوات »[١٦] .

قضى بنيامين أربع أو خمس سنوات فى سلام وهدوء ، فى ظل الحكم الفارسى بالإسكندرية ، وشهد جلاء الفرس ، بعد أن انتصر هرقل . والراجح أن الحاميات الفارسية خرجت من مصر فى أوائل سنة ٦٢٧ ، على أن بعض حامياتهم بقيت فى أماكن متفرقة حتى سنة ٦٢٨ ، فجلت عن البلاد بمقتضى شروط المعاهدة مع هرقل . ثم عاد إلى بلادهم الأسرى المصريون الذين وقعوا فى أيدى الفرس والراجح أن هرقل أرسل فى شتاء ٦٢٨ — ٦٢٩ ، بطريق البحر جيشا لاحتلال مصر من جديد ، ولاستعادة أملاك الدولة البيزنطية من فلسطين حتى بنتابوليس[١٧] .

ومهما تكن نوايا هرقل الطيبة عند تعيين كيرس أسقف فاسيس بطريركا على الإسكندرية ، فإن هذا الإجراء كان من أشد الأخطاء خطورة . إذ كان المسيحيون على اختلاف مذاهبهم يرقبون حروب هرقل ضد الفرس ، بقلوب خاشعة واجفة ، فلما انهزم الكفار ، وتم استخلاص بيت المقدس ، وعاد الصليب المقدس ، أعلن المسيحيون على اختلاف نحلهم ، الفرح والسرور بما جرى من النصر . وأظهروا أيضاً سرورهم ، بما حل باليهود من نقمة ، واشتركوا جميعا فى التوبة تكفيرا عن هذا الذنب ، وكانت هذه لحظة ذهبية ، لو اغتنموها لأدت إلى وفاق واتحاد دائم .[١٨] وفطن هرقل إلى هذا ، غير أنه لم يدرك أن مذهبه الذى حاول به التوفيق ، قد يأباه أهل مصر ، فإذا أصروا على رفضه ، فلن يسع هرقل إلا أن يفرض مذهبه عليهم فرضا . ومع ذلك فإن هذه الوسيلة هى التى جرى عليها فى مصر مثلما فعل فى الشام[١٩] . والمعروف أن العقيدة الدينية إنما

http://www.al-maktabeh.com

تقوم عليها وقتذاك الدولة وتصدر عنها أوامرها ، فلم يكن هرقل مخالفا لما هو معروف فى وقته ، فقرر أن ما ابتدعه رؤساء الأساقفة الثلاثة فى دولته من مذهب لابد أن يسود على سائر المذاهب ، بكل الوسائل السلمية وغير السلمية[٢٠] .

وقع اختيار هرقل على كيرس ليكون داعية للمذهب الجديد فى مصر . وسبق لكيرس أن شغل وظيفة أسقف Phasis فى شمال شرق آسيا الصغرى ، وهو المعروف فى تاريخ مصر باسم المقوقس[٢١] ،

على أن بنيامين ، فيما يبدو ، تلقى بالحذر والأضطراب خبر قدوم البطريرك الجديد ، كيرس ، سنة ٦٣١ . والراجح أن أحدا لم يستشره فى رأى المصريين فيما يجرى إدخاله فى مصر من البدعة الجديدة . فلم ينتظر حتى يصل كيرس ، ولم يحاول أن يتلقاه ، بل عقد بالإسكندرية مجمعا ، شهده القسس والرعية ، وألقى فيهم خطابا يحضهم فيه ، « على أن يثبتوا على عقيدتهم حتى يوافيهم الموت » . ثم كتب إلى أساقفته جميعا ، يأمرهم بالهجرة إلى الجبال والصحارى ، ليختفوا بها ، حتى يرفع الله عنهم غضبه ، وانبأهم أن البلاد سيحل بها الوبال ، وأنهم سيلقون الظلم والعسف عشر سنين ثم يرفع عنهم[٢٢] .

هذا مابعث به بنيامين فى خطابه إلى أساقفتهم ، ثم تسلل خفية تحت جنح الظلام من الإسكندرية ، ولم يكن معه إلا رفيقان . فسار الى مريوط ، ومنها إلى المينا Al-muna (أبومينا) ؛ وهى قرية بواحة عند مفترق الطريقين ، طريق الإسكندرية ووادى النطرون ، وطريق الطرانة وبرقة[٢٣] . ثم واصل سيره حتى بلغ الأهرام ومنها اتخذ حافة الصحراء أثناء سيره إلى الصعيد ، حتى وصل إلى مدينة قوص ، فلجأ إلى دير صغير بالصحراء ، غير بعيد عن المدينة ، وصادف هروب بنيامين الوقت الذى جاء فيه كيرس إلى الإسكندرية أو قريبا منه[٢٤] . ولم يرد من الاشارات

ما يدل على أن كيرس سعى إلى أن يتفاهم مع البطريرك المونوفيزتى . والراجح أن قدومه أدى إلى تشريد رجال الدين القبط، خائفين فزعين ، ولاشك أن ماحدث من اجتماع السلطتين الدينية والزمنية فى يد كيرس ، أضعف مركز بنيامين ، وجعل له سلطاناً مطلقاً . ولم قدم كيرس إلى الإسكندرية ، تظاهر أنه جاء مسالما ، وجعل يشرح للناس المذهب المونوثليتى الجديد ، وهو المذهب الذى كان الأمبراطور يأمل من ورائه أن يزيل ما أحدثه مجمع خلقدونية من شقاق . فكان عليه أن يستميل الخلقدونيين والمونوفيزتيين . على أن مذهبه لم يلق منذ أول الإمر التوفيق، لأنه أساء شرحه ، وأساء الناس فهمه ، وتلقوه لقاء سيئا . إذ رأى كثير من الخلقدونيين أن المذهب الجديد مخالف تماما المذهب الخلقدونى ، أما المونوفيزتيون فإن من سمع منهم بالبدعة الجديدة ، قال إن المذهب الجديد مادام مسلم بأن الله له إرادة واحدة ، وفعل واحد ، فإنه لابد له أن يسلم بأن له كذلك طبيعة واحدة ، وعلى ذلك فإن كيرس إنما جاء فى الحقيقة مسلما بالمذهب المونوفيزتى[٢٥] . وكيما يزيل ما علق بالأفهام من الخطأ ، عقد كيرس بالإسكندرية مجمعا عرض فيه الأمر ، ليتناظر المجتمعون فيه ، وليتناقشوا فى مسائله، وعندئذ تولى صفرونيوس الذى قدم إلى مصر ، قيادة المعارضة الخلقدونية،وحاول بكل مالديه من قوة أن يثنى كيرس عن غرضه . غير أن المجمع أقر النحلة الجديدة ووسم من ينكرها بتسع سمات شائنه . على أن كيرس لم يظهر من الكياسة والرحمة ما هو جدير بنائب الأمبراطور ؛ إذ واجه المعارضة بكل ما لديه من قوة إرادة ، وعظيم السلطة . على أن اللوم ينبغى أن يوجه إلى الجانبين ، إذ أن كيرس كان متكبرا ، وكان القبط على شىء من العناد وقلة البصيرة ؛ إذ كرهوا أن يغيروا شيئا فى عقيدتهم ، أو ينتقص استقلالهم الدينى ، الذى ناضلوا فى سبيله منذ مجمع خلقدونيه ، وأعلنوا استعدادهم للتضحية من أجله[٢٦] .

ومهما يكن أمر المذهب الذى ابتدعه هرقل وبطاركته الثلاثة فى الشرق ، ومهما تكن صورته التى وقف عليها القبط ، فالواقع أن المصريين تلقوه منذ أول الأمر بكراهية شديدة . فلم يخطر ببالهم أن يغيروا ذرة من أصول عقيدتهم أو لفظا من شعائر مذهبهم ، واعتبروا ذلك خيانة لدينهم واستقلالهم[٢٧] .

ولما رأى كيرس أنه لم يستطع أن يستميل القبط بالخداع ، ولا أن يحملهم على ما أراد ، بعد أن رماهم بالكفر واللعنة ، لجأ إلى ما هو أشد من ذلك ، ولا شك أن الإمبراطور اشترك فى ذلك . غير أن هرقل قام فيما بعد ببذل محاولة أخرى من أجل التوفيق والاتحاد . ونظرا لما حدث من رفض مذهب الإرادة الواحدة والفعل الواحد ؛ اقترح سرجيوس أنه لابد من الاعتراف « بالإرادة الواحدة » . غير أن مايتعلق بأن الفعل الذى ينفذ الإرادة الواحدة ، كان فعلا واحداً أو مزدوجاً ، فيرجأ القول فيه ، ويمتنع الناس عن أن يخوضوا فى مناظراتها[٢٨] . وأرسل إلى البابا فى روما ، هونوريوس ، يطلب منه الموافقة على هـــذا الحل ، أو التخلص من المشكلة . ثم جعل ذلك فى رسالة رسمية Ecthesis ، بعث بها إلى جميع جهات العالم الشرقى ، وطلب إلى الناس أن يعتقدوه ويتبعوه . وبعث سرجيوس مع حنا قائد الشرطة بهذا القرار إلى كيرس ، وأرسل معه هدية ، صليبا له قدره من القداسة . على أن هذه الرسالة زادت من حدة المعارضة ، ولم تلق إلا الرفض . وأدرك الإمبراطور أن صفرونيوس هو عدوه اللدود الذى يحرص على إحباط سعيه ، ولم يجد شيئاً ما كان من استمالته وتعيينه بطريركا على بيت المقدس . أما القبط (المصريون) فوجدوا أن الصيغة الثانية للمذهب الجديد ، تعتبر أشد قبحاً وأبلغ مرارة من الصيغة الأولى[٢٩] .

على أن كيرس أصاب أول الأمر ، فيما يبدو ، بعض التوفيق فى تحقيق

الرسالة التى عهد بها إليه الإمبراطور هرقل ، وهى إعادة الأمن إلى نصابه ، وإعادة الوحدة الدينية ، على الرغم من الأحوال السيئة التى واجهته بالبلاد . ففى الرسالة التى وجهها البطريرك سرجيوس سنة ٦٣٤ إلى البابا هونوريوس ، أشار إلى أن كل « سكان الإسكندرية ، وكل مصر وطيبة وليبيا ، وسائر أقاليم القطر المصرى ، التى اقتسمها فيما مضى عدد لا حصر له من البدع والهرطقات ، أضحت بفضل الله وحماس البطريرك (كيرس) متحدة ، تهتف بصوت واحد ، وتؤمن بالعقيدة الصحيحة» ، كما أن كيرس كان يشيد بما ظفر به من نتائج [٣٠] .

ولم تلبث الأمور أن ساءت وفسدت ؛ إذ أن كيرس صادف ، منذ أن عقد المجمع الدينى غداة وصوله إلى الإسكندرية ، معارضة من قبل الخلقدونيين ، وتعرض لمهاجمة الراهبين صفرونيوس ومكسيموس ، اللذين طلبا إليه ألا ينزلق نحو البدعة الجديدة (المونوثلتية) . أما القبط فإنهم نزعوا أول الأمر إلى الوفاق والصلح برغم موقف بطريركهم (بنيامين) ، فكانوا يذيعون علنا أنهم « لم يذهبوا إلى مجمع خلقدونيه ، بل إن المجمع هو الذى سعى إليهم » غير أنهم لم يلبثوا أن أعلنوا عداءهم وخصومتهم [٣١] . إذ أنه لمن أبعد الأمور أن تكون الصيغة الأولى للمذهب الجديد (Eirenicon) ، أو الرسالة Ecthesis التى تضمنت الصيغة الجديدة ، قد بلغت أقباط مصر ، خارج الإسكندرية ، فلم يذكر فى أثناء الاضطهاد الكبير إلا شى واحد ، وهو أن البيزنطيين كانوا يخيرون الناس بين قبول مذهب خلقدونيه ، فى الصيغة التى عرضها ليو Tome of Leo ، و بين الجلد أو الموت [٣٢] .

الاضطهادات :

أحس كيرس باخفاقه فى أن يحمل القبط (المصريين) على المذهب الذى تقرر . ولم يعبأ بعدئذ بما أدخله الإمبراطور من تهذيب وتعديل على هذا المذهب . فكان يعرض على الناس أحد أمرين ، قبول الاتحاد أو الاضطهاد [٣٣]

http://www.al-maktabeh.com

وخضعت البلاد كلها لسيطرة كيرس، يدبر أمورها كيفما شاء. وعاد الجيش البيزنطى إلى احتلاله مواقعه فى سائر أنحاء البلاد، فامتد نفوذ البيزنطيين إلى الأطراف الجنوبية. والواضح أن كل هذه العساكر كانت تأتمر بأمر كيرس. ومن الطبيعى أن يتخذ المصريون موقفاً سلبياً إزاء عودة البيزنطيين إلى احتلال البلاد. فإذا لم يكن من الدواعى مايحمل المصريين على محبة الفرس، فإنهم لم يلبثوا أن اكتشفوا أن الحكام الجدد (البيزنطيين)، لم يهيئوا لهم من الأسباب مايجعلهم يفرحون لما حدث من التغيير؛ إذ تعرضوا على أيديهم إلى الجلد والضرب الشديد، ولسع العقارب. والمعروف أنه لما استقر الحكم الفارسى فى مصر، أجازوا للمصريين حرية العبادة، غير أن كيرس نزع منهم هذا الإمتياز، وفرض عليهم المذهب الجديد[٣٤].

استمر الاضطهاد عشر سنوات، وكان على حد ما ورد فى الوثائق القبطية، بالغ العنف والشدة، والواضح أن مدة هذا الاضطهاد تطابق المدة التى كان كيرس فيها بطريركا. إذ أن مجمع الإسكندرية انعقد فى اكتوبر سنة ٦٣١، وبدأ الاضطهاد بعد مضى شهر أو شهرين[٣٥]. وما وصل إلينا من سير القديسين فى هذا العصر، زخرت بالروايات التى تشير إلى ما أصاب المؤمنين من ألوان التعذيب. وانطوت هذه الروايات على الشتائم واللعنات التى جرى توجيهها إلى البطريرك (كيرس) الذى أمر بالاضطهاد والتعذيب، فكان ينعت بأنه كافر، وزنديق، غير جدير بأن يقيم الشعائر والطقوس، ووصفته بأنه ابن الشيطان والمسيخ الدجال. واجتمعت مصر كلها على كراهية من كان اسمه «القوقازى»، ولعل ذلك اللفظ هو المعنى الحقيقى للفظة المقوقس، وهو الاسم، بالغ الغرابة، المثير للاختلاف والجدال، والذى نصادفه فى النصوص العربية والقبطية، والتى لا شك أنها تقصد

به البطريرك كيرس ؛ فالمعروف أن كيرس كان أسقفا فى فاسيس ، بالقرب من القوقاز [٣٦].

وكيفما كان الأمر ، كان النضال عنيفا . ومن الطبيعى أن تشير الروايات إلى أن القسوة والعنف ، لم تنل من ثبات الشهداء وعزيمتهم . فميناس ، شقيق بنيامين تعرض للتعذيب والتنكيل به ، بأن أوقدت المشاعل ، وسلطت نيرانها على جسمه وأخذ يحترق ، « حتى سال دهنه من جنبيه إلى الأرض » ، ولكنه لم يتزعزع عن إيمانه ، فجرى نزع أسنانه ، ثم وضعوه فى حقيبة (زكيبة) بها رمل ، ثم توغلوا به فى البحر ، وأخذوا يعرضون عليه الحياة إذا هو آمن بما أقره مجمع خلقيدونية ، فعلوا ذلك ثلاثا ، غير أنه أصر على الرفض ، فرموا به فى البحر ، فمات غرقا . وقال مؤرخ حياة بنيامين « أنهم بهذا الفعل لم يقهروا ميناس الذى مات شهيداً ، بل عليهم بما اشتهر به من صبر المسيحيين » [٣٧].

أما صمويل القلمونى فجرى حمله إلى كيرس ، مكتوف اليدين من خلاف ، ووضعوا فى عنقه طوقا من الحديد ، ودفعوا به كما يدفع اللصوص . ولما رأى البطريرك كيرس ذلك الولى ، أمر جنده أن يضربوه ، حتى سال دمه كما يسيل الماء ، وسأله لماذا يحرض الرهبان على سبه ، وانكار مذهب ليو فقال صمويل « إن البر فى طاعة الله وفى طاعة البطريرك بنيامين ، وليس فى طاعة كيرس والدخول فى مذهبه الشيطانى ياسلالة الشيطان ، يأيها المسيخ الدجال » . فأمر كيرس رجاله بأن يضربوه على فمه فأعلن صمويل ، انكاره لمذهب خلقيدونية ، « ولعن الله المرسوم الكافر الذى أصدره الإمبراطور الرومى (البيزنطى) ، ولعن الله كل من يقبله ويتبعه » [٣٨].

فإذا كانت هذه الأمور وقعت فى الصحراء (حيث الأديرة) ، فلابد أن ما حدث للمصريين فى الدلتا ووادى النيل كان بالغ الفداحة . فكل من يأبى

أن يتخلى عن عقيدته أو ينازع كيرس فى رأيه وأمره ، تعرض للجلد والتعذيب أو ألقى به فى السجن ، أو يلقى حتفه[٣٩] .

ثم إن كيرس أقام أساقفة خلقدونيين فى سائر مدن القطر المصرى حتى أنتينوى ، فكأن سلطته لم تتجاوز هذه الجهات[٤٠] . وتقرر طرد الأساقفة والرهبان المصريين من كراسيهم وأديرتهم[٤١] . وتعرضت رجال الدين للقتل والتشريد ، ومن نجا منهم التمس أماكن نائيه ليختفى بها . واشتد السعى والبحث عن البطريرك بنيامين ، غير أن هذا السعى لم يسفر عن النجاح . والراجح أنه أخذ ينتقل من دير إلى دير ، والراجح أنه وجد له ملاذا أمينا فى طيبة ، مثلما حدث منذ قرون، حين لجأ القديس أثناسيوس إلى طيبة ، فأضحى فى وسعه أن يظهر ، حتى فى أشهر الأديرة ، مثل دير شنودة ، الدير الأبيض ، ومع ذلك فإنه حرص على أن يختفى فى معظم الأوقات فى مواضع مجهولة[٤٢] .

أما أولئك الذين لم يستطيعوا الإفلات من العقوبة والتعذيب ، فإنهم ألفوا أنفسهم آخر الأمر ، بعد أن تعرضوا للتنكيل والتعذيب ، مضطرين إلى الاستجابة المذهب الخلقدونى . فسير القديسين من القبط تتحدث عن الذين استجابوا لما بذل لهم من الوعود بالمناصب ، أو بعد الاقتناع ، أو الرشوة[٤٣] ، فدخلوا فى المذهب الجديد ، ومن هؤلاء كيرس أسقف نقيوس ، وفيكتور أسقف الفيوم ، ولا شك أن عدواهم انتقلت إلى سواهم[٤٤] . على أن المقاومة ظلت مستمرة على الرغم من الإرهاب والاضطهاد ، ففى الإسكندرية ، بقية ممن ظلوا يمارسون الشعائر المينوفيزتية ، أثناء الاضطهاد الذى استمر عشر سنوات ، فالتمسوا الوسائل التى أقاموا بها ليلا من الصلوات ما كان ممنوعا على المؤمنين . فكان قس من أهل مريوط اسمه اجاتو Agatho ، يتسلل إلى المدينة نهاراً فى لباس نجار ، فإذا جاء

الليل ذهب إلى الكنيسة كيما يقيم شعائر العبادة لإخوانه القبط . وصار هذا القس فيما بعد أكبر أصدقاء بنيامين ، وخلفه على البطريركية[٤٥] .

وبقى دير واحد بالإسكندرية أو بالقرب منها ، وهو دير مطره Matra على مقاومته البطريرك كيرس . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن كل رهبانه كانوا من المصريين ليس فيهم غريب واحد[٤٦] . وحدث أيضاً تدبير مؤامرة لاغتيال كيرس ، بعد أن أثار سخطهم ما رأوه من فعله ، إذ تارة ينهب أوانى كنائسهم الثمينة ، وتارة يضربهم ويسجنهم . فاجتمع اتباع المذهب الجايانى Gaianités ، فى كنيسة لهم فى دفاشير Dafashir بالقرب من مريوط، ودبروا مؤامرة لاغتيال هذا الظالم . غير أن خبر هذا المؤامرة وصل إلى قائد بيزنطى اسمه اوديكيانوس Eudocianus ، وهو من ألد أعداء القبط ، فأصدر أوامره للعساكر لقمع هؤلاء المتآمرين . فلقيت فئة منهم مصرعها ، واصابت فئة الجراح ، وتقرر قطع أيدى جماعة منهم دون محاكمة[٤٧] .

وأخذ بنيامين ، وهو فى مأواه ، يشجع المقاومة المونوفيزتية ويذكيها ، وعلى الرغم من أن الشدائد توالت على مذهب القبط ، وأن المصائب ظلت تفتك بأصحابه ، فإنه ظل قوياً ثابتا وبقى أكثر الناس على ايمانهم مقيمين . غير أن حد ذلك البطش بلغ نفوسهم ، فصدعها ، وجعل الداء ينخر فى جراحهم طوال سنوات الاضطهاد ، فكان ذلك سبباً فى ضياع كل أمل فى عودة السلام والوفاق بين الطائفتين المتنازعتين ، إذ اشتدت الكراهية لبيزنطة ومذهبها[٤٨] .

والواضح أن هرقل قصد أول الأمر إلى هدف نبيل . إذ كان يتطلع إلى أن يكفل للكنيسة السلام والاستقرار ما هيأه للدولة . غير انه لم يدرك ثبات الناس على أديانهم وحرصهم عليها ، ولم يعلم أن الدين خالط من أهل هذا الاقليم اللحم

والدم ، فإذا شاء أن ينزعه منهم بالقوة ، كان فى ذلك دماءهم وهلاكهم . يضاف إلى ذلك أنه لم يكن موفقاً فى اختيار الأداة التى تحقق غرضه . إذ أرسل إلى مصر رجلا ليعيد السلام ، فإذا به يتحول إلى طاغية ، أما رسالته عن السلام فلم يؤدها الرسول (كيرس) أو لم يسمع بها الناس . ولا شك أن هرقل أقر الاضطهاد الذى أجراه كيرس ، إذ أن الأمبراطور كان حريصا على القضاء على الاختلاف المذهبى ، بأمر يصدر عنه . وظن أنه يستطيع بهذا القرار أن يهدىء العواطف الثائرة ، فرأى انه زاد العاصفة شدة ، ولم يستطيع الصبر على الخيبة والفشل ، فعزم على أن يسعى للسلام بخوض حرب دينية فى مصر والشام ، فمهد بذلك الطريق فى القطرين لمطامع جنود الاسلام (٤٩) .

الفتح العربى

لما سلّم البطريرك صفرونيوس مدينة بيت المقدس إلى الخليفة عمر بن الخطاب ، سار صوب الشمال كل من الخليفة وعمرو بن العاص . وتوجه عمرو لحصار قيسارية بينما اتخذ عمر بن الخطاب مقر قيادته فى الجابية بالقرب من دمشق . والراجح أن عمرا عرض على الخليفة أمر فتح مصر ، بعد الاستيلاء على بيت المقدس سنة ٦٣٨ غير أن الوقت لم يكن ملائما . فلما تكللت جهود الحملة الإسلامية فى الشام بالنصر ، وأوشكت على الانتهاء ، عرض عمرو من جديد على عمر بن الخطاب ، وذلك فى خريف سنة ٦٣٩ ، أمر فتح مصر ، وجعل يبين للخليفة ما كانت عليه مصر من الغنى ، وما كان عليه فتحها من السهولة ، فقال إنه ليس فى البلاد ما هو أقل منها قوة ، ولا أعظم منها ثروة وغنى . وأشار إلى أن اريطيون Aretion ، الحاكم البيزنطى على بيت المقدس ، لجأ إلى مصر ، وأخذ يحشد الجند ، ولابد للعرب أن يوقعوا به قبل أن يستفحل الأمر (٥٠) . يضاف إلى ذلك أن الاستيلاء على مصر يزيد من قوة المسلمين فى بلاد الشام أيضا . انعقد هذا الاجتماع بالجابية ، بالقرب من دمشق ، فى خريف

سنة ٦٣٩ ، أى أثناء المضى فى حصار قيسارية[٥١] . ونظراً لقرب مصر من بلاد العرب ، ولما اشتهرت به من وفرة الحبوب والقمح اللازمة لأهل الجزيرة العربية ، جعل أمر فتح مصر بالغ الأهمية ، وجرى هذا الفتح بعد اتخاذ خطة مرسومة ومنظمة[٥٢] .

رأى عمر بن الخطاب أن فتح مصر فيه خير للمسلمين ، غير أنه لم يكن وقتذاك فى وسعه أن يضعف جند الشام ، بأن يبعث منهم جيشا كافيا لفتح مصر . فلما طلب منه عمرو أن يسير إلى مصر بجيش يتراوح عدده بين ٣٥٠٠ ، ٤٠٠٠ رجل ، وعد الخليفه أن يفكر فى الأمر ، وعاد عمرو إلى حصار قيسارية ، التى يرابط بها جيش بيزنطى بقيادة قنسطنطين بن هرقل[٥٣] .

على أن الخليفة بعث برسالة إلى عمرو بن العاص ، أعلن فيها عن رضاه عن غزو مصر ، وطلب إليه أن يسير بجنده صوب الجنوب ، فمضى عمرو بن العاص بجيشه الصغير الذى لم يتجاوز ٤٠٠٠ مقاتل ، معظمهم من الفرسان ، ولم يعترضه حدث ، حتى بلغ رفح ، على مرحلة واحدة من العريش بأرض مصر[٥٤] . وعندئذ جاءه خطاب من الخليفة يأمره بالعودة إذا لم يكن اجتاز الحدود إلى مصر ، فإذا كان قد دخل أرض مصر ، فليسر على بركة الله ، ووعده بأن يدعو له الله أن ينصره ، وأن يرسل له الأمداد[٥٥] . وتشير الروايات إلى أن عمرا حرص على ألا يقرأ الرسالة إلا بعد أن اجتاز الحدود ، فمضى فى سيره إلى العريش ، حيث احتفل العرب بعد الاستيلاء عليها دون مقاومة ، بعيد الأضحى (ذى الحجة سنة ١٨هـ ، ١٢ ديسمبر ٦٣٩)[٥٦] .

لا نكاد نطلع على وجه التحقيق شيئا عن تفاصيل فتح العرب لمصر ، نظرا لأن الكتاب الذين رووا أحداثه عاشوا فى وقت متأخر عن هذه الأحداث ، وأقدم هؤلاء الكتاب ابن عبد الحكم والبلاذرى ، وترجع كتاباتهما إلى أواخر القرن الثامن وأوئل القرن

http://www.al-maktabeh.com

التاسع الميلادى ، وفى كتاباتهما كثير من الخلط والأضطراب والتناقض . أما المصادر اليونانية فلم تورد إلا أخبارا ضئيلة الأهمية ، وانفرد تاريخ حنا النقيوسى ، بما أورده من أخبار قيمة . والمعروف أن حنا النقيوسى ألف كتابه حوالى نهاية القرن السابع الميلادى ، ولما يمض على فتح العرب لمصر إلا زمن قصير ، غير أن هذا الكتاب ، حوى عبارات غير سليمة ، كثيرة الاضطراب ، فضلا عما زخر به من الفجوات ، ولذا لم يورد هذا المصدر فى دقة وصف تتابع الأحداث ، وما قام به الرجال الذين أسهموا فى الفتح من أعمال . وأكثر من ذلك صعوبة أن مؤلف هذا الكتاب ، حنا النقيوسى ، رجل مسيحى مصرى ، ولذا فمن الطبيعى أن تتسم روايته بما اشتهر به عنصره من التعصب ، وما انطوى عليه من الكراهية والتحيز . ومع ذلك فإن المعالم الرئيسية فى هذا التاريخ ، جرى تصورها وإيرادها فى كثير من الدقة[٥٧] .

سبق أن أشرنا إلى ما أصاب الجيش البيزنطى فى مصر من الضعف الشديد ، وأن تيودور ، الذى تولى قيادة الجيش البيزنطى وقتذاك ، لم يختلف عن سائر نوابه ومرءوسيه فى التجرد من الخبرة الحربية . ولا شك أن كيرس اتخذ فى السنوات السابقة على الغزو العربى ، بعض التدابير للحماية والدفاع . إذ حفر خندقا حول حصن بابليون ، وزاد فى تحصين الحصون الأخرى ، ورمم أسوار كثير من المدن التى خربها غزو الفرس لمصر[٥٨] . وما ورد بالبرديات عن المواضع الحربية ، يدل على ضآلة الاستعدادات الحربية[٥٩] .

على أن هجوم العرب جاء ، فيما يبدو ، مفاجئاً للقادة البيزنطيين ، إما لأنهم لم يعتبروه ، أول الأمر ، سوى غارة من غارات البدو ، كالتى تعرضت لها مصر من حين إلى آخر ، وإما لأنهم لم يستطيعوا أن يتخذوا فى الوقت المناسب الإجراءات الضرورية . فمدينة بيلوزيوم ، أو الفرما ، التى تقع على مسافة ميل ونصف ميل من البحر ، وتقع عند مصب الفرع البيلوزى ، وكانت مدينة قديمة ، تعتبر مفتاح

مصر من جهة الشرق ، وتشرف على الطريق الممتد عبر الصحراء ، ومع ذلك لم تكن فيما يبدو منيعة ، فلم يجد الفرس عناء فى فتحها ، ولعلهم خربوا أسوارها وحصونها وكنائسها[٦٠] . وسقطت بيلوزيوم فى يد العرب فى يناير سنة ٦٤٠ بعد حصار لم يستمر شهراً واحداً[٦١] . ولما اطمأن عمرو ، بعد استيلائه على بيلوزيوم ، إلى تأمين خط مواصلاته مع بلاد العرب ، وطريق العودة إذا حات بجنده الهزيمة ، اتخذ طريقه نحو الجنوب الغربى ، فسلك الطريق الذى يحازى الحافة الشرقية للدلتا ، وهو الذى سبق أن سلكه الفرس ، حتى بلغ بلبيس . ولم تجد نفعاً مقاومة البيزنطيين ، فلم تلبث بلبيس أن سقطت بأيدى العرب ، ومضى عمرو فى طريقه حتى وصل إلى النيل ، عند موضع يقع على مسافة غير بعيدة من شمالى حصن بابليون ، أطلق عليه المؤرخون العرب اسم « أم دنين » ، وورد فى كتاب حنا النقيوسى باسم تندونياس (عند موضع حديقة الأزبكية)[٦٢] . على أن الجيش البيزنطى تنبه الى الخطر ، ولم يقبل أن تقع تلك القرية فى أيدى العرب ، لما اشتهرت به من موقع حصين ، يجاوره مرفأ على النيل فيه سفن كثيرة ، وفى ذلك أهمية كبيرة للحرب . أما تيودور القائد العام للقوات البيزنطية فى مصر ، فإنه أدرك ، برغم ضعفه وعدم كفايته الحربية ، أن تلك الحرب ليست غارة من غارات البدو ، بل كانت حربا خطيرة . أدرك عمرو أنه ليس فى وسع من بقى معه من الجند ، أن يستولوا على الحصن (بابليون) أو أن يحاصروه . أو يفتح مدينة مصر ، المتصلة بالحصن . ولذا قرر القائد العربى أن يتوجه بقواته لغزو الفيوم ، ريثما يصل إليه ما وعده به الخليفة عمر بن الخطاب من أمداد[٦٣] .

كان يلى حكم مدينة الفيوم وقتذاك ، دومنتيانوس Domentianos ، بينما كان والى إقليم الفيوم ، تيودوسيوس ، بصحبته أناستاسيوس والى الإسكندرية فى بعض بلاد الدلتا بالقرب من نقيوس . وتعاهد بالدفاع عن الإقليم (الفيوم) حنا قائد الحرس الأهلى ، وكان تحت إمرته رجل آخر اسمه حنا المارومى

John of Marôs ، وأنزل عمرو هزيمة ساحقة بالقائد اليونانى ، ولقى القائد حنا ونائبه مصرعهما[٦٤] .

معركة هليوبوليس سنة ٦٤٠ .

وفى تلك الأثناء احتشد فى حصن بابليون قوات بيزنطية وفيرة ، جاء شطر منها من سائر القطر المصرى ، وقدمت أيضاً أمداد من القسطنطينيه ، وهرع إلى الحصن أيضا البطريرك كيرس ، ومعه تيودور القائد العام للقوات البيزنطية[٦٥] .

استهل عمرو مسيره إلى الفيوم فى أول شهر مايو سنة ٦٤٠ ، وقضى فى غزوته أسابيع ، لحقت بالبيزنطيين أثناءها خسائر كبيرة ، بينما حاز العرب غنائم وفيرة . وقدمت الأمداد التى وعد بها الخليفة ، فى ٦ يونية ، وبلغ عددها نحو ١٢ ألف رجل. فهبطت من بيلوز يوم إلى بابليون ، ولم يستطع البيزنطيون أن يمنعوا اتصال هذه القوات القادمة ، بقوات عمرو التى عادت من الفيوم . فالتقى عمرو بالمدد عند هليو بوليس ، التى اتخذها قاعدة لجيوشه ، لما توافر بها من الماء والمؤن[٦٦] . وأضحى جيش عمرو المؤلف من ١٥ ألف جندى ، من خيرة العساكر الإسلامية ، اشتهروا بالشجاعة ، من بينهم طائفة من أكبر فرسان الإسلام وشجعانه[٦٧] . لم نقف على عدد جيش تيودور ، غير أن المعروف أنه سحب أعداداً كبيرة من العساكر المرابطه بمدن الدلتا ، حتى يتوافر له من القوة ما تكفى لطرد العرب من هليوبوليس[٦٨] .

جعل عمرو خطته ، على أن يحمل البيزنطيين على الخروج من حصن بابليون الذى لا يزيد بعده عن هليو بوليس ، عن ستة أو سبعة أميال ، فيقاتلهم المسلمون فى السهل وهم بعيدون عن الحصن. فلما أحس تيودور من نفسه القوة ، سار إلى العرب بجيوشه نحو هليوبوليس ، ودارت معركة حاسمه فى سهل هليوبوليس ، تعرض فيها البيزنطيون

لهزيمة ساحقة (فى منتصف يولية ٦٤٠) ، ومن المحقق أن المهزومين هرعوا إلى حصن بابليون ، وتأهبوا للمقاومة[٦٩] .

وأفاد العرب من هذا الانتصار ، أن أصبح فى قبضة أيديهم مدينة مصر، وأضحوا يسيطرون على شاطىء نهر النيل ، من ناحيتى الحصن من أعلاه ومن أسفله ، ونقلوا معسكرهم من هليوبوليس ، إلى موضع فى شمال الحصن وشرقه ، بين البساتين والكنائس ، وهو الموضع الذى اشتهر فيما بعد بالفسطاط . يضاف إلى ذلك أن أضحى الجيش العربى من القوة ما يكفى لحصار بابليون[٧٠] .

اجتاز العرب النهر ، وقضوا فى فتح الفيوم نحو أسبوعين . ثم شرعوا فى غزو إقليم الدلتا ، فاستولوا على اثريب وعلى منوف . وارتاع الناس لتقدم العرب وزحفهم ، وفقد قادة البيزنطيين صوابهم ، فتخلوا عن مواقعهم ، ولم يحاولوا المقاومة . وبينما كان يجرى تنظيم الدفاع عن الطريق المؤدى إلى الإسكندرية ، عند مدينتى نقيوس وسبنيتوس (سمنود) ، كان كثير من السكان ، يهربون مذعورين نحو العاصمة (الإسكندرية)[٧١] . وعندئذ أخذ القبط فيما يقول حنا النقيوسى يساعدون المسلمين[٧٢] .

حصار بابليون :

عزم عمرو بن العاص على حصار بابليون ، إذ لم يكن فى وسعه أن يمضى فى سيره نحو الشمال ، فى أثر السكان الذين هرعوا إلى الإسكندرية ، إذ اشتد ارتفاع مياه النيل فى أواخر شهر أغسطس ، فأضحى من العسير اجتياز البلاد ، يضاف إلى ذلك أنه لا يأمن مهاجمة البيزنطيين له من هذا الحصن . وهذا الحصن الذى يقع بجنوب القاهرة ، فى الموضع المعروف بمصر القديمة ، لازال منه بقايا كبيرة من جانبين اثنين ، والأبراج المرتفعة السميكة ، التى بقى منها اثنان ، يقع بينهما

http://www.al-maktabeh.com

الباب العظيم القديم ، فضلا عن الأسوار المتينة . والمعروف أن ماء النيل كان يجرى تحت أسوار الحصن ، فكانت السفن ترسو تحتها ، وللحصن باب يطل على النهر ، لعله كان بين البرجين الكبيرين . وكان النيل أو فرع منه يصل إلى الباب الأكبر الجنوبى وإلى مرسى السفن ، وهذا الباب هو الذى يؤدى إلى كنيسة المعلقه . واكتملت الاستحكامات الدفاعية ، بما كان من استحكامات بجزيرة الروضة الواقعة تجاه الحصن (٧٣) .

عاد عمرو منذ أول سبتمبر ٦٤٠ إلى حصن بابليون ، وتأهب لتضييق الحصار عليه . ولم يكن لدى العرب من أدوات الحصار سوى ماغنموه من البيزنطيين أثناء قتالهم فى الفيوم ومنوف . كان عدد الحامية البيزنطية فى بابليون يتراوح بين ٥ ، ٦ آلاف مقاتل ، وكان بالحصن البطريرك كيرس والقائد تيودور . وكل الكنائس التى كانت فى داخل الحصن ، كان يؤمها قسس على المذهب الخلقدونى ، ولم يسمح لأحد سواهم أن يتعبد على غير ذلك المذهب ، لأن كيرس لازال مقيماً على عداوته للمصريين (٧٤) . وما كان له أن يتوقع من المصريين خيراً ، بل كان خير ما يقع منهم له ، أن يقفوا معتزلين ، ينظرون إلى ما ينشب من قتال بين القوتين العربية والبيزنطية (٧٥) .

أخذ ماء النيل فى الخندق المحيط بالحصن فى الهبوط ، واشتد صبر العرب على حصار الحصن ، وأدت شدة بأسهم فى القتال إلى ضعف فى عزيمة البيزنطيين فى داخل الحصن ، وضعفت روحهم المعنوية ، وثار الإختلاف والنزاع بينهم . ولما مضى من الحصار شهر ، واشتد جزع المرابطين بالحصن ، جمع كيرس من وثق بهم من رءوس الحرس ، ودعا معهم أسقف بابليون الخلقدونى ،

واستشارهم سراً فى الأمر ، و بسط لهم رأيه ، وكان ذلك فى أوائل شهر اكتوبر سنة ٦٤٠ ، وقال لهم إن الحرب خاسرة ، وأن سقوط الحصن أمر لا مفر منه ، وأنه لا يتوقع قدوم أمداد لنجدتهم قبل مضى أشهر ، وأن الحكمة تقضى ، حسبما درجت عليه الدبلوماسية البيزنطية ، ببذل المال للمسلمين مقابل ارتدادهم عن البلاد ، و بذلك تعود البلاد إلى بيزنطة . فاتفقوا على أن يمضوا فى الأمر وفقا لرأى كيرس(٧٦) . واستقر الرأى على أن يذهب كيرس وأصحابه فى جنح الظلام إلى جزيرة الروضة ، و يبعثوا إلى قائد العرب بما أرادوا فيفا وضوه سراً . ولما بلغ جزيرة الروضة ، أرسل إلى عمرو جماعة كان منهم أسقف بابليون ، فلقيهم عمرو ، وأكرمهم فأدوا رسالتهم بأن قالوا :

«إنكم قوم قد ولجتم فى بلادنا، وألححتم على قتالنا ، وطال مقامكم فى أرضنا ، و إنما أنتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم من العدة والسلاح، وقد أحاط بكم هذا النيل ، و إنما أنتم أسارى فى أيدينا ، فابعثوا إلينا رجلا منكم نسمع منه كلامكم ، فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا و بينكم على ما تحبون ونحب ، و ينقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم ، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ، ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفا لطلبتكم ،فابعثوا إلينا رجلا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شىء»(٧٧) .

و بعث عمرو برده مع الرسول وقال « ليس بينى و بينكم إلا إحدى ثلاث خصال ، إما أن دخلتم فى الإسلام ، فكنتم أخواننا ، وكان لكم مالنا ، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، و إما ان جاهدناكم بالصبر والقتال ، حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين(٧٨) » .

من الواضح أن ذلك لم يكن ما أراده كيرس ؛ فطلب إلى عمرو أن يبعث

إليه بجماعة من ذوى الرأى ، ليتشاورمعهم فى أمر الصلح ، فأرسل إليه وفد برئاسة عبادة بن الصامت ، على ألا يجيب البيزنطيين إلى شىء دعوه إليه ، إلا إلى إحدى هذه الخصال الثلاث . وحاول كيرس مرة أخرى أن يعرض على العرب الجلاء عن مصر ، « على أن تفرض لكل رجل منكم دينارين ، ولأميركم دينارين ، ولخليفتكم ألف دينار ، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم »[٧٩] . فأصر العرب على موقفهم ، وقال عبادة « لا ورب هذه السماء ، ورب هذه الأرض ، ورب كل شىء ، مالكم عندنا من خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم »[٨٠]

لم يقبل البيزنطيون الشرط الأول الذى يقضى بتحولهم إلى الإسلام . أما شرط الجزية فإنهم رفضوها أول الأمر على أساس أن دفعها يجعلهم عبيداً ، غير أن عبادة شرح لهم هذا الشرط « بأنهم إن دفعوا الجزية ، كانوا آمنين على أنفسهم ، وأموالهم ، وذراريهم ، مسلطين فى بلادهم على ما فى أيديهم وما يتوارثونه فيما بينهم (الاحتفاظ بحقوقهم المدنية) ، وحفظت لهم كنائسهم ، لا يتعرض لهم أحد فى أمور دينهم »[٨١] ومال كيرس إلى الاتفاق .

على أن هذه المفاوضات أثارت فى المدينة المحاصرة معارضة شديدة تزعمها الوالى جريجورى (جورج) ، الذى لحق بالمجتمعين ، ولقى كيرس من أصحابه عزما شديدا على القتال . فانقطعت المفاوضات ، واستمرت المقاومة ، وحاول البيزنطيون القيام بهجوم لرد الجند العرب عن الحصن ، غير أنهم فشلوا فى ذلك ، ولقى كثير منهم مصرعهم ، وارتدوا إلى داخل الحصن[٨٢] .

غير أن كيرس لازال يميل إلى الإذعان والتسليم ، فاتخذ من فشل البيزنطيين فى هجومهم وسيلة لاستئناف المفاوضات من جديد مع العرب ، بعد أن أدرك عجز البيزنطيين عن رد العرب ، و بعد أن تبين له ، ما أصاب معارضيه من ضعف العزيمة ، وميلهم إلى موافقته . وتم الاتصال بعمرو بن العاص ، وتقرر عقد الصلح على أن يبعث به إلى الإمبراطور هرقل ، فإن أقره نفذه . و بمقتضى هذا الاتفاق

قبل البطريرك كيرس الاستسلام ودفع الجزية ، وأن تبقى الجيوش حيث هى ، بعد أن تتوقف الأعمال العدائية ، و يظل الحصن فى يد البيزنطيين إلى أن يقر هرقل الصلح (٨٣) .

غادر كيرس حصن بابليون ، و بادر بالتوجه ، عن طريق النيـــل ، إلى الإسكندرية ، ومنها أرسل إلى القسطنطينية تقريرا عن الموقف فى مصر ، وعن الضرورة التى ألحت عليه بتوقيع الصلح مع العرب ، وطلب إلى الحكومة البيزنطية إقرار الصلح. غير أن بيزنطه تلقت هذه الرسالة لقاء بالغ السوء ؛ إذ أن الإمبراطور هرقل وجه منذ شهور ، اللوم إلى قادته بمصر ، و إلى كيرس ، نائبه فى حكم مصر ، لأنهم بلغ من إهمالهم لأمور مصر ، أن استطاعت فئة قليلة من العرب ، أن ترفع ألويتها فى مصر ، وتغلب جيوش الدولة ، فإذا به يرسل للإمبراطور بصلح لا يدرى ما إذا كان يقصد به رشوة العرب بمال ، مقابل الجلاء عن البلاد ، أو أنه يسلم لهم بامتلاك البلاد بما تحويه من قمح وثروة . فقرر الإمبراطور دعوة البطريرك كيرس للقدوم إلى القسطنطينية ، ليشرح موقفه ، الذى بلغ فى نظره حد الخيانة (٨٤) .

أساء الإمبراطور استقبال كيرس ، ولم يغن عنه ما شرحه للإمبراطور ، من أن المقاومة باتت مستحيلة ، وجعل يدافع عن فعله ، بأن العرب قد يحملون على الخروج من مصر ، وأن ما عرضه من دفع الجزية لهم ، يصح تدبيرها بما يقرره من ضريبة على متاجر الإسكندرية وسلمها ، فيعوض ذلك ما خسرته خزائن الدولة . ولوح له بأنه عرض على عمرو بن العاص أن يتزوج ابنة الإمبراطور (ايدوسيا Eudocia) ، أملا فى أن يؤدى هذا إلى أن يعتنق عمرو المسيحية (٨٥) . غير أن الإمبراطور اشتد فى لوم كيرس ، لأنه فرط فى ذهب مصر إلى المسلمين ، ووصفه بالنذالة ، واتهمه بالخيانة لأنه تخلى عن مصر للعرب ، ونعته بالجبن والكفر

وأمر آخر الأمر بعزله، ثم أسلمه إلى حاكم المدينة (القسطنطينية) ، فأنزل به المهانة ثم نفاه من البلاد[٨٦] .

أصدر هرقل الأوامر إلى قادته فى مصر ، بأن يبذلوا محاولة أخيرة لتخليص حصن بابليون . على أن النيل أخذ عند ذاك يهبط سريعاً ، و بذلك انخفض الماء الذى بالخندق ، فضعفت آمال المدافعين عن الحصن[٨٧] . يضاف إلى ذلك ما حدث من اشتداد تخاذل السكان ، فرفضوا إطاعة ما أصدره القادة البيزنطيون من أوامر بل ساعدوا المسلمين فى مهاجمة جانب الحصن المطل على النيل[٨٨] .إذ أن جماعة من المغامرين من الخضر والزرق معا ، دأبوا على الإغارة ليلا على جزيرة الروضة ، وانقضوا على السفن البيزنطية التى تتوجه إلى الحصن أو ترسو عند الباب الحديدى . ولا شك أن هذه الأعمال أثارت الاضطراب والارتباك عند المدافعين، وحرمتهم من الإفادة من النهر[٨٩] .

ولما مضى الشتاء ، قل خروج البيزنطيين من الحصن وقتالهم للمسلمين ، على حين كثر هجوم المسلمين على الحصن وزاد شدة . و إذ خارت قوى البيزنطيين عن الدفاع ، بسبب اشتداد وطأة الحراسة والقتال ، أدركوا أنه من العسير المضى فى الحراسة . ثم فتك المرض بأهل الحصن فقل عددهم ، ولم يأتهم المدد[٩٠] . ومضت الأيام ، دون أن يظهر من الدلائل أو يرد من الوسائل ، ما يبعث الأمل عند المدافعين . ولم تبلغهم إلا أنباء سيئة ، إذ جاءت الأنباء فى مارس سنة ٦٤١ بوفاة الإمبراطور هرقل ، والمعروف أنه مات فى ١١ فبراير سنة ٦٤١ ، فضعفت عند ذلك نفوسهم ، لما اشتهر به هرقل من البسالة فى الحرب ، والشدة فى القتال ، وقال أحد مؤرخى العرب « فكسر الله بموته شوكة الروم » ، ولعل هذه العبارات تعتبر تعبيراً صادقاً على ما أحدثه موته من الأثر فى جند مصر . بينما زاد المسلمين

جرأة ، وضاعف من همتهم فى فتح الحصن .[٩١] على أن هجمة موفقه قادها الزبير ابن العوام على أسوار الحصن فى زاويته الجنوبية الشرقية، قضت على كل أمل للمدافعين . فاجتمع كبارهم فى الصباح الباكر ، للتشاور فى أمر الصلح ، وعرض « جورج » قائد القوات المرابطة بالحصن ، أن يسلم على أن يأمن الجند على أنفسهم ، فأحسن عمرو لقاءهم ، وتم الاتفاق على أن يخرج الجند من الحصن فى ثلاثة أيام ، فينزلوا بالنهر ، ويحملوا مايلزم لهم من القوت لبضعة أيام .أما الحصن وما فيه من الذخائر وآلات الحرب والأموال ، فيأخذ العرب كل ذلك ،ويؤدى السكان الجزية للمسلمين[٩٢] .

وفى يوم الاثنين ، عيد الفصح ، ١٩ أبريل سنة ٦٤١ ، غادر العساكر البيزنطيون الحصن ، بعد أن أجهزوا ، إذا صدقت رواية حنا النقيوسى ، على القبط الذين جرى حبسهم بداخل الحصن أثناء الحصار ، لأنهم أبوا أن يتركوا دينهم ، أو لأنهم ارتابوا فى ولائهم ، أو ساورهم الشك فى خيانتهم[٩٣] . ولا عجب أن نجد الأسقف المصرى ، حنا النقيوسى ، يسبهم ويسميهم « أعداء المسيح ، الذين دنسوا الدين ببدعتهم النجسة ، وفتنوا الناس عن إيمانهم فتنة لم يأت بمثلها عبدة الأوثان ولا الهمج . وعصوا المسيح ، وأذلوا أتباعه ، فلم يكن فى الناس من أتى بمثل سيئاتهم ، ولو كانوا من عبدة الأوثان »[٩٤] .

مسير العرب الى الاسكندرية

يعتبر استيلاء عمرو بن العاص على حصن بابليون نصراً كبيراً للعرب ، إذ فتح لهم الطريق إلى الوجه القبلى ، والطريق إلى الوجه البحرى والإسكندرية . والواضح أن عمرو بن العاص بسط سلطانه على الجانب الشرقى كله من الدلتا ، فلما استولى

http://www.al-maktabeh.com

على حصن بابليون ، صار يسيطر على رأس الدلتا ، وجمع فى يده زمام وادى النيل الأوسط ، وتم له بذلك نصف الفتح(٩٥).

كان عمرو شديد الرغبة فى أن يسير جنده نحو الإسكندرية ، بعد أن طالت مدة إقامتهم فى المعسكر فى مدينة مصر . وكان يعلم أنه لن تمر ثلاثة شهور ، حتى يأخذ النيل من جديد فى الارتفاع ، فأرسل إلى الخليفة عمر ينهى إليه بما حدث و يطلب منه المدد ، على حين أنه بادر إلى اتخاذ التدابير اللازمة لإدارة المدينة التى فتحها ، وما يتبعها من الأراضى حولها . وعمَّر بناء الحصن ، وجعل به حامية من المسلمين بقيادة خارجة بن حذافة السهمى(٩٦).

واتخذ عمرو أول الأمر الطريق المؤدى إلى الإسكندرية ، فسار بجنده إزاء الفرع الغربى للنيل . ومن المحقق أن أول ما قصد إليه عمرو فى مسيره نحو الإسكندرية كان مدينة نقيوس ، التى تقع على الشاطىء الشرقى لفرع رشيد ، وكانت من المدن القديمة المشهورة بآثارها ، وكانت حاضرة أسقفية من أكبر الأسقفيات بمصر المسيحية ، وموضعاً بالغ الأهمية من الناحية الحربية ، فى حفظ الطريق بين بابليون والإسكندرية . فكان لابد للبيزنطيين أن يحتشدوا بها للقاء العرب(٩٧).

ومع ذلك سقطت نقيوس فى يد عمرو دون أن تبدى مقاومة ، ودخلها العرب فى مايو سنة ٦٤١ ، ولم يصادفوا بها جنديا واحدا يقف فى سبيلهم(٩٨).

لاشك أن الشقاق والاضطراب دهما البلاد ، فلم يمض زمن طويل ، حتى عمت الفوضى ، واندلع لهيب الحرب الأهلية بين أهل مصر ، فانقسمت مصر السفلى إلى حزبين ، حزب مع البيزنطيين ، وحزب يريد أن يتفق مع العرب . وليس معروفاً ما إذا كان النزاع يرجع إلى الاختلاف فى العنصر ، أو المذهب ، أو التشيع السياسى . والراجح أن هذا النزاع يرجع الى سبب سياسى . وصار من

الأمور الشائعة أن يتقابل الناس ، وينهب بعضهم بعضا ، أو يحرقوا البلاد ، على حين أن العرب صاروا ينظرون إلى كلا الحزبين نظرة الازدراء ، ولا يأمنون لأيهما ، ولا يتعاهدون مع أحديهما[٩٩] .

على أن سقوط نقيوس فى يد المسلمين ، وتفرق ما كان للبيزنطيين بالنيل من السفن ، جعل الطريق إلى الإسكندرية ، أمام العرب خاليا من العقبات . وكان الجيش البيزنطى ، يقوده وقتذاك تيودور ، الذى أخذ يتراجع نحو العاصمة (الإسكندرية)[١٠٠] . غير أن تيودور والجند البيزنطى ظلوا يقاتلون العرب أثناء ارتدادهم إلى الإسكندرية ، وأخذوا يدافعون عن البلاد أثناء انسحابهم ؛ وأبدى قائدهم تيودور من البسالة ما لم يكن متوقعاً منه . يضاف إلى ذلك أنه تلقى بعض الأمداد من القسطنطينية ، فصمد للعرب عند « كريون » Kariun ، الذى يعتبر آخر سلسلة من الحصون بين بابليون والإسكندرية ، ويفضى الطريق من ورائه إلى العاصمة[١٠١] . استمر القتال فى كريون عشرة أيام ، اشتد فيه النضال ، غير أن النصر كان آخر الأمر فى جانب المسلمين ، إذ فتحوا مدينة كريون وحصنها ، وارتد البيزنطيون إلى الإسكندرية يطاردهم المسلمون حتى أبواب المدينة (يونية ٦٤١)[١٠٢] .

كانت حامية الإسكندرية وقتذاك لا يقل عددها عن ٥٠ ألف رجل ، وتوافرت المؤن بالمدينة ، وجرت حمايتها من ثلاث جهات ، من ناحية البحر المتوسط شمالا ، وبحيرة مريوط جنوبا ، وقناة الثعبان غربا ، ولم يتيسر الوصول إلى الإسكندرية إلا من جهة الشرق والجنوب الشرقى . على أن المحاصرين لم يكن بوسعهم أن يقتربوا من الأسوار من هذه الناحية ، نظرا لوقوعهم هدفا للرماة من فوق الأسوار[١٠٣] . وزاد فى مناعة المدينة ما يحيط بها من أسوار ضخمة ، تحميها الآلات القوية . ولم يكن عند العرب شىء من آلات الحصار ، ولم تكن لهم

خبرة ودراية فى فنون الحصار وحربه ، فكان فى يد البيزنطيين من العدة والعدد، ما يستطيعون به أن يقووا على حرب فرسان المسلمين . على أن العرب كانوا قبل ذلك قد فتحوا الفتوح العجيبة فى مصر والشام ، فلم تقف دونهم حصونها . يضاف إلى ذلك شدة إيمانهم وثقتهم فى إحراز النصر[١٠٤] . على أن عمرا حينما حمل بجيشه ، عند قدومه ، على أسوار المدينة ، تعرض لما قذفته المجانيق من الحجارة الضخمة ، فارتد العرب ، وابتعدوا عن مدى رميها ، وانتظروا أن يتجرأ العدو على الخروج إليهم[١٠٥] . ومع ذلك فإنه كان لوقوف العرب بعسكرهم على مسافة غير بعيدة من المدينة أثر كبير ، إذ صاروا يناوءون البيزنطيين ، وقطعوا صلتهم بسائر البلاد ، ونهبوا قصور الأغنياء والأديرة التى غصت بها ضاحية الإسكندرية ، واجتمع لهم من ذلك غنيمة كبيرة[١٠٦] . وما حصلوا عليه منها من الخشب والحديد ، شحنوه فى سفن إلى حصن بابليون ، كيما يقيموا به جسرا ليعبروا عليه إلى المدينة التى لم يستطيعوا من قبل أن يعبروا إليها[١٠٧] .

قرر عمرو أن يترك جانبا من جيشه فى معسكره لملاحظة الإسكندرية ومراقبتها ، وأن يسير بالجانب الآخر ، لإخضاع بلاد الدلتا ، قبل أن يتعذر على المسلمين المسير بها ، نظرا لاقتراب أوان فيضان النيل . فسار إلى دمنهور ، وسخا التى امتنعت على جنده ، ثم واصل السير إلى طوخ ودمسيس ، وصادف مقاومة شديدة من قبل سكان هذين الموضعين ، فارتد عنهما . و بعد أن استمر فى هذه الغزوة نحو ١٢ شهرا استولى أثناءها على مواضع عديدة ، وأحرز غنائم وفيرة ، عاد إلى حصن بابليون[١٠٨] .

وحدث أثناء غياب كيرس فى منفاه ، أن ثارت بمصر فتنة بين الناس ؛ إذ وقع الشقاق بين المدافعين عن الإسكندرية ، واشتد النزاع بين حزبا الخضر والزرق . وساءت العلاقات بين القادة البيزنطيين ، إذ أن دومنتيانوس كان يناصب

ميناس العداء ، وينافسه فى التطلع إلى قيادة الجيش . بينما ازدادت كراهية ميناس لأودقيانوس . وظل تيودور على عدائه لدومنتيانوس [١٠٩] . ولم يحفظ دومنتيانوس للبطريرك كيرس عطفه ، ولم يظهر له إلا الحقد والكراهية ، وانحاز إليه فى ذلك حزب الزرق ، أما ميناس فاستعان بحزب الخضر فى نضاله . وتطور العداء بين الأحزاب إلى نشوب معارك عنيفة ، ولم يستطع تيودور أن يقضى على الفتنة إلا بعد مشقة وعناء [١١٠] .

وفى أثناء ذلك ، أدت وفاة الإمبراطور هرقل بالقسطنطينية (فبراير ٦٤١) إلى وقوع أحداث جسيمة . إذ ولى الحكم بعده ولداه قنسطنطين وأمه (أودسيا) ، وهرقل (المعروف بهرقلوناس) وأمه مارتينا ، وتقرر أن تشترك مارتينا معهما فى الحكم ، وكان قنسطنطين أكبر الأخوين وأكثرهما قبولا عند الناس ، وعند قادة الجيش والسناتو . استدعى قنسطنطين كيرس من المنفى ، وكانت مارتينا تلح فى إرجاعه ، لما اشتهر به من الولاء لها ، والاستجابة لمطالبها ، وتقرر أيضاً استدعاء الأوجستال تيودور من الإسكندرية ، للتشاور فيما ينبغى اتخاذه من سياسة فى مصر . ومهما يكن من رأى كيرس ، ومشورته فى ذلك الأمر ، فإن تيودور استطاع أن يحمل الإمبراطور على أن يعد بارسال أمداد كبيرة إلى مصر ، وقائد جديد اسمه قنسطنطين ليحل مكان القائد المعزول ، واسمه حنا [١١١] .

مات الإمبراطور قنسطنطين فى ٢٥ مايو سنة ٦٤١ ، فتولى العرش هرقلوناس ابن هرقل من مارتينا ، التى ظلت تشاركه فى الحكم ، وتوجه سياسة البلاد ، وظل هرقلوناس يحكم حتى سبتمبر سنة ٦٤١ حينما شاركه قنسطانز فى الحكم . وفى أثناء الفترة الواقعة بين مايو وسبتمبر سنة ٦٤١ ، تقرر اعادة كيرس إلى مصر ، وتكليفه بعقد الصلح مع العرب ، إذا تبين له أن الدفاع عن مصر أضحى مستحيلا ، وعهد اليه أيضاً باقرار الأمن فى البلاد ، والقضاء على الحروب الداخلية ، وتنظيم

http://www.al-maktabeh.com

الإدارة البيزنطية بالبلاد . ويتبين من ذلك أن الأمل لا زال يراود الإمبراطور فى أنه يستطيع الإبقاء على سلطان الدولة البيزنطية فى مصر (١١٢) . على أن كيرس لابد أنه حمل الإمبراطور والإمبراطورة والسناتو ورجال البلاط ، على الانصياع إلى رأيه الذى يقضى بأنه لا سبيل إلى المقاومة ، ولا بد من الاذعان للعرب (١١٣) .

لما هبط إلى الإسكندرية ، فى ١٤ سبتمبر سنة ٦٤١ ، كيرس وبصحبته الأوجستال تيودور ، تلقاه الناس فى حماس شديد ، وسرور بالغ . ويشير حنا النقيوسى إلى أن أهل الإسكندرية ، ملكهم الفرح ، فخرجوا «يظهرون سرورهم ، ويشكرون الله على عودة بطريرك الإسكندرية» (١١٤) . وصادف الاحتفال بعودة كيرس ، ذكرى الاحتفال بعيد رفع الصليب . واجتاز كيرس شوارع المدينة ، وقد فرشت بالطنافس ، وخفقت فوق رأسه الرايات والأعلام من الحرير ، وسار بين عبق البخور وترتيل الأناشيد ، وازدحمت طرق المدينة بالناس ، وحمل كيرس فى يده أثراً دينياً عزيزاً ، لعله كان صليباً به قطعة من صليب الصلبوت نفسه ، كان قد أودع فى يد رهبان (تبنيسى) ، ومضى البطريرك كيرس فى موكبه حتى بلغ باب الكنيسة الكبيرة ، كنيسة قيصريون Caesarion (١١٥) .

ولما صار كيرس فى الكنيسة أقام الصلاة ، وجعل موعظته حول عيد الصليب وإعلائه ، الذى درجت الكنيسه الشرقية حتى وقتنا الحاضر على الاحتفال به . فجعل يذكر الناس بما حدث فى الماضى ، منذ أن قام هرقل بحرو به فى سبيل الصليب حتى ظفر به ، فاسترده ، من يد الفرس ، ثم أقامه فى بيت المقدس فى ذلك اليوم المشهود ، يوم النصر والفوز . وعاشت الإسكندرية فى فرح وسرور ، برغم ماوقع فى ختام الصلاة من أحداث الاضطراب وتطير منها الحاضرون . ذلك أنه حينما أقبل الناس على الصلاة بعد الخطبة ، قرأ الشماس مزمورة أخرى غير التى درج

على قراءتها ، وفى هذه المزمورة، إشارة إلى عودة البطريرك . فلما سمع الناس ذلك ، ضجوا قائلين : إنه خالف السنن . وجاء فى تلك القصة أيضاً أنهم قالوا إن البطريرك لن يشهد عيداً للفصح بعد ذلك[١١٦] . أما الأوجستال (تيودور) ، فإن أعاد الأمن إلى نصابه ، بعد أن طرد من الوظائف دعاة الفتنة والاضطراب[١١٧] . واطمأنت العاصمة (الإسكندرية) إلى خلاصها ، على الرغم من تفكير كيرس ، فى استئناف الاضطهاد ضد المونوفيزتيين[١١٨] .

على أن هذا الاعتقاد والتقدير لم يشارك فيه كيرس ، ومن العسير أن نفسر سلوك البطريرك كيرس ، فهل كان يرمى من هذا الاضطهاد إلى أن يزيد من قوة بطريركية الإسكندرية من أجل مصلحته الخاصة ؟ . أو أن يجعل لنفسه نوعاً من السيادة والسلطان على مصر ، بعد انفصالها عن الإمبراطورية البيزنطية ، وتبعيتها من الناحية الاسمية للمسلمين ؟. أو هل أدرك كيرس أن المقاومة أضحت مستحيلة ، وأنه لابد من الصلح مع العرب ؟ . أو هل كان غرضه الأساسى ، أن تنال البلاد بالمفاوضات البارعة ، أحسن ما تستطيع أن تحصل عليه من المعاملة ؟. أو هل كان كيرس ، وهو سياسى بيزنطى ماهر ، يرى أن بوسعه أن يكسب عمرا ومن معه من البدو ، بما يبذله من الأموال الوفيرة لهم ، مثلما كان يجرى من اجتذاب المتبربرين ؟. الواضح أنه لمن السذاجة المفرطة ، أن يجرى اتهام كيرس بالخيانة ، وينبغى ألا ننسى أن ما حصل عليه من الحكومة البيزنطية من تفويض ، بإجراء المفاوضات، يحملنا على الاعتقاد أنه أظهر لهم بالقسطنطينية أهمية المفاوضات الدبلوماسية . على أن ما حدث وقتذاك من قدوم أمداد إلى الإسكندرية ، إنما يدل على أن التفكير لم يتجه منذ البداية إلى التخلى نهائياً عن فكرة المقاومة[١١٩] .

صلح سنة ٦٤١ .

كيفما كان الأمر ، ما كاد البطريرك كيرس يهبط إلى أرض مصر ، حتى بادر بالإتصال بعمرو بن العاص ، حوالى نهاية اكتوبر سنة ٦٤١ . ولعل ما لجأ إليه من الاضطهاد والتظاهر بالقوة ، إنما ليدارى عن أهل الإسكندرية حقيقة أغراضه ، وهى الإذعان للعرب ، ولا شك أنه كان فى ذلك كله ينفذ أمرا من الإمبراطور[١٢٠] .

قدم كيرس مع فئة قليلة العدد من القسس ، الذين جعلهم موطن سره ، إلى بابليون أثناء فيضان النيل ، وعاد إلى بابليون وقتذاك (اكتوبر سنة ٦٤١) ، عمرو بن العاص ، بعد أن فرغ من إخضاع الصعيد حتى أنتينوى (أنصنا) عاصمة طيبة[١٢١]* .

استقبل عمرو بن العاص فى حصن بابليون ، البطريرك كيرس ورفقاءه ، الذين جاءوا للتحدث فى أمر الصلح ، فرحب به عمرو وانتهت المفاوضات إلى صلح ، اتفق فيه الجانبان على شروطه جميعاً ، وانعقد هذا الصلح فى ٨ نوفمبر سنة ٦٤١ ، ويصح أن نطلق على هذا الصلح معاهدة الإسكندرية ، تمييزاً له عن الذى سبق عقده فى بابليون ، وبمقتضى معاهدة الإسكندرية تم فتح العرب لمصر .

معاهدة الإسكندرية

تضمنت هذه المعاهدة الشروط الآتية :

١٢١* نظرا لأن العساكر البيزنطية لم تنسحب بعد من إقليم طيبة ، جرت محاولة لمقاومة العرب . غير أن حنا ، حاكم إقليم طيبة رفض الإشتراك فى هذه المحاولة . واستولى على ما بخزانة الإقليم من الأموال ، وقاد عساكره صوب الغرب إلى الإسكندرية . وأضحى فتح الصعيد سهلا . ولما وقف المسلمون على ضعف البيزنطيين وكراهية السكان للامبراطور البيزنطى ، لما قام به من اضطهادهم ، اشتدت ضرواتهم فى القتال . (انظر Butler : op. cit. p. 319) .

١ — تقرر عقد هدنة لمدة ١١ شهرا ، وتنتهى هذه الهدنة فى أول شهر بابه القبطى الموافق للثامن والعشرين من شهر سبتمبر سنة ٦٤٢ .

٢ — أن يدفع الجزية كل من دخل فى العقد .

٣ — أن يبقى العرب فى مواضعهم فى مدة هـذه الهدنة ، على أن يعتزلوا وحدهم ، ولا يسعوا أى سعى لقتال الإسكندرية ، وأن يكف الروم عن القتال .

٤ — أن ترحل حامية الإسكندرية فى البحر ، ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم جميعها . على أن من أراد الرحيل من جانب البر ، فله أن يفعل على أن يدفع كل شهر ، جزءاً معلوما ما بقى فى أرض مصر فى رحلته .

٥ — ألا يعود جيش من الروم إلى مصر أو يسعى لردّها .

٦ — أن يكف المسلمون عن أخذ كنائس المسيحيين ، ولا يتدخلوا فى أمورهم أى تدخل .

٧ — أن يباح لليهود الإقامة فى الإسكندرية .

٨ — أن يبعث الروم (البيزنطيون) رهائن من قبلهم ، مائة وخمسين من جنودهم ، وخمسين من غير الجند ، ضمانا لتنفيذ العقد(١٢٢) .

هذه الشروط أوردها حنا النقيوسى ، وفى الشرط الأول منها ضمان للقبط على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، فضلا عن الحرية فى ممارسة ديانتهم ، وذلك مقابل أن يدفعوا جزية ، تتفاوت بحسب اختلاف أشخاصهم من نصف دينار إلى ثلاثة دنانير ، عن كل رأس ، باستثناء الشيخ العاجز والولد الصغير . وكان عليهم أيضاً أن يؤدوا ضريبة على الأراضى والعقار(١٢٣) .

لم يكن ذلك إلا تنازلا عن مصر ، وكان لابد من إقرار الخليفة عمر بن الخطاب ، والإمبراطور البيزنطى ، وكان فى مدة الهدنة متسع لذلك . ولما عاد كيرس إلى الإسكندرية لم يجد عناء فى أن يحمل الأوجستال تيودور ، والقائد قسطنطين على

قبول الاتفاق. ولم يجد صعوبة بعدئذ، فى أن يشرح مزايا الاتفاق فى اجتماع، شهده كبار قادة الجيش وكبار رجال الدولة من المدنيين والعسكريين، وفى مقدمتهم تيودور وقنسطنطين، فأظهروا الولاء والخضوع للبطريرك كيرس[١٢٤]. وحينما رأى الناس بعد زمن قصير، العرب يقتربون من المدينة، دون أن يتقدم أحد لقتالهم، اشتدت ثائرتهم ضد البطريرك كيرس، وهددوا بأن ينزلوا به الأذى. واستطاع كيرس هذه المرة أيضاً، بفضل ما اشتهر به من البلاغة والفصاحه، أن يهدىء ثائرة الناس، وأن يبرر سلوكه وموقفه، وأشار بضرورة الاذعان، وعرض شروط المعاهدة، وأقسم، والدمع يترقرق فى عينيه، أنه ما قصد إلا مصلحة قومه، وفائدة أبنائهم، فإن العرب قوم، لا يقوم لهم شىء إلا غلبوه، وقد أراد الله أن يملكوا أرض مصر، فما كان للروم (البيزنطيين)، إلا أن يصالحوهم فإنهم إن لم يفعلوا، جرت الدماء فى طرق مدينتهم، ونهبت أموالهم وقتلوا، ومن بقى منهم حيا، خسر ما كان يملك وضاع أمره. ولكن الصلح حقن دماءهم، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وديانتهم، ومن أراد أن يعيش فى أرض مسيحية كان له الحرية فى ترك الإسكندرية. على أن أمر الاختيار بين الهجرة من مصر والاذعان للمسلمين لم يكن أمرا هينا سهلا. فلم يتمالك البطريرك دمعه، بل بكى، وهو يطلب من الناس، أن يصدقوا أنه إنما بذل جهده فى أمرهم، وأن عليهم أن يرضوا بالصلح الذى عقده من أجلهم، يقصد به صلاح حالهم[١٢٥].

واستطاع كيرس بذلك أن يفوز برأيه، وعاد الناس إلى رأى الجيش، ورضوا بالتسليم والنزول عن مدينتهم للعرب. وأخذوا يجمعون قسط الجزية وهو ثلث المقدار المطلوب، وزادوا عليها مقدارا كبيرا من الذهب، وأدوه للمسلمين دون معارضة فى ١٠ ديسمبر سنة ٦٤١ (محرم سنة ٢١ هـ)[١٢٦].

وهنا أيضاً ، يصعب إدراك هـذا الرضى العام ، إذ أن الإسكندرية كان بوسعها أن تصمد للحصار مدة طويلة ، لسيطرة الأسطول البيزنطى على البحر ، مما يجعلها على اتصال مستمر بسائر أملاك الإمبراطورية البيزنطية(١٢٧) . ولأنها كانت من المناعة ما يجعل من العسير على عمرو ومن جاء معه من الجند أن ينال منها إلا عن طريق الحصار لمدة طويلة(١٢٨) .

ولا شك أن ما وقع بالقسطنطينية من أحداث عقب وفاة الإمبراطور هرقل ، وما زخر به بلاط خلفائه الضعاف من المؤامرات والدسائس ، وما حدث من تمرد رجال الجيش وقادته ، لم يهيء للحكومة فى بيزنطه من الوقت ، ما يحملها على التفكير فى مصر وانقاذها . ولا شك أيضاً فى أن الجيش البيزنطى الصغير المسئول عن الدفاع عن مصر ، لم يعد من الكفاية والقدرة ، ما يجعله يمضى فى المقاومة طويلا . يضاف إلى ذلك أن الانقسامات الداخلية فى الإسكندرية حطمت ما لديها من الشجاعة والقوة ، بعد أن حاول أهلها الاعتداء على كيرس . والراجح أن كراهية الناس لبيزنطة ، تعتبر السبب الرئيسى للتخاذل والضعف ، فتخلوا عنها ؛ إذ اشتد سخط السكان ، لما جرى من فساد الحكم ، وثقل وطأة الضرائب ، وكثرة أنواعها ، والاضطهاد الدينى ، والاضطراب والفوضى الناشبة فى البلاد . وكان أكثر الناس يأملون فى أن يستقبلوا فى ظل السيادة العربية من الأمن والاطمئنان وتخفيف عبء الضرائب ، ما لم يألفوه عند البيزنطيين . وفى ذلك يروى حنا النقيوسى حوادث لها دلالتها ومغزاها ، فيشير إلى أن من بين كبار موظفى الإدارة البيزنطية مثل دومنتيانوس حاكم اركاديا (الفيوم) ، من رضى ببذل المعونة للعرب(١٢٩) . ويتحدث أيضاً عن الكراهية التى يكنها المصريون للامبراطور البيزنطى ، لما صبه عليهم من الاضطهاد البطريرك كيرس الذى يمثله فى مصر ويأتمر بأمره . ويذكر حنا النقيوسى أيضاً أن سكان الفيوم

http://www.al-maktabeh.com

استسلموا للعرب وقتلوا كل من صادفهم من العساكر البيزنطيين[١٣٠] . والخلاصة أن التذمر من البيزنطيين والتبرم منهم كان عاما ، وأن السخط كان شائعاً ؛ وهذا هو السر فى أن كيرس استطاع أن يحقق سياسته ، دون أن يلقى معارضة[١٣١] .

على أنه ينبغى الاشارة إلى أن العرب إنما وضعوا خطة حربية منظمة لفتح مصر ، نظراً لما أصبح لمصر من أهمية حربية ، بعد استيلاء العرب على العراق وبلاد الشام ، وما قد تتعرض له هذه الفتوح من هجوم من قبل البيزنطيين براً وبحراً ، بل على المدينة أيضاً . وما لجأ إليه العرب من اتخاذ الوسائل الحربية والدبلوماسية ، والإصرار على الاستيلاء على مصر ، والحرص على أن ينزل كيرس على إرادتهم ، كل ذلك يدل على أن فتح مصر إنما تم بعد دراسة وخطة موضوعة[١٣٢] .

إتمام فتح البلاد

أخذ العرب ينجزون إخضاع البلاد ، ريثما يتم التصديق على المعاهدة . ففى ربيع سنة ٦٤٢ ، استولوا على مدن كثيرة بالدلتا ، مثل رشيد والبرلس ، ودمياط وتنيس (الواقعة بجزيرة فى بحيرة المنزلة) ، وسقطت كل هذه المدن دون مقاومة كبيرة[١٣٣] . وسبق الإشارة إلى ما حدث قبيل توقيع معاهدة نوفمبر سنة ٦٤١ ، من أن العرب شرعوا فى إخضاع الوجه القبلى ، فاستولوا على انتينوى عاصمة طيبة ، ولم يحاول حاكمها الدفاع عنها[١٣٤] . واذعن ما تبقى من البلاد فى سهولة ويسر ، بعد توقيع المعاهدة ، نوفمبر سنة ٦٤١ ، ولعل ذلك كان آخر ما أتاه هرقلوناس فى حكمه[١٣٥] . وشرع العرب وقتذاك فى إنشاء مدينة الفسطاط على أبواب حصن بابليون ، وشيد عمرو أول مسجد بها ، للدلالة على انتقال مصر إلى حكم المسلمين[١٣٦] .

وفى أثناء ذلك ، صدقت الحكومة البيزنطية على المعاهدة ، وتأهب عدد كبير من الناس، من الأغنياء والتجار، لمغادرة الإسكندرية . على أن البطريرك كيرس لم يعش حتى يشهد الجلاء النهائى للبيزنطيين ، الذى سبق أن مهد له ، إذ مات فى ٢١ مارس سنة ٦٤٢[١٣٧] . وتم تعيين بطرس خلفا له فى رئاسة الملكانيين فى ١٤ يوليو سنة ٦٤٢[١٣٨] .

لم يسع ممثلو الحكومة البيزنطية إلا أن ينفذوا المعاهدة، وقام على ذلك الأوجستال تيودور ، الذى تقرر تعيينه حاكما عاما على مصر ، عقب وفاة كيرس ، وقسطنطين قائد القوات البيزنطية ، إذ توليا أمر سحب القوات البيزنطية من الدلتا ، و يسر لهما ذلك ، ارتفاع النيل وقتذاك (سبتمبر ٦٤٢) . وتقرر فى الاتفاق انسحاب الجند فى موسم الفيضان حتى تسير عملية الجلاء فى يسر وسهولة ، فاستقل العساكر السفن والقوارب إلى الإسكندرية . وعندئذ تقرر إطلاق سراح من كان فى يد العرب من الرهائن فى حصن بابليون ، فلحقوا بأصحابهم فى الإسكندرية . وفى ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ ، أقلع الأسطول البيزنطى من الإسكندرية بمن كان عليه من بقايا الجيش البيزنطى ، ولم تبق بعد ذلك إلا أيام كيما يصالح أهل المدينة أمورهم ، إذ أن الهدنة انقضى أمدها فى ٢٩ سبتمبر ، والمعروف أن أجلها تحدد بأحد عشر شهرا . وفى ذلك اليوم ، فتحت أبواب مدينة الإسكندرية ، فدخلها عمرو يقود جنده ، فساروا بين صفوف الأعمدة البراقة، والقصور المنيعة التى حفلت بها الإسكندرية ، وانتهى بذلك حلم الدولة البيزنطية فى مصر[١٣٩] .

الإسكندرية عند الفتح

بهر العرب الظافرين فخامة الإسكندرية وما زخرت به من الغرائب، وتردد صدى هذا الإعجاب فى الخطاب الذى يزعم المؤرخون أن عمراً بعث به إلى الخليفة

ويعلن فيه الاستيلاء على مدينة الإسكندرية ويشير فيه « إن الله فتح علينا مدينة من صفتها أن بها أربعة آلاف قصر ، وأربعة آلاف حمام ، وأربعمائة ملهى ، واثنى عشر ألف بائع للخضر ، وأربعين ألفا من اليهود أهل الذمة » . وعلى الرغم من المبالغة الظاهرة فى هذه الأعداد ، فإنها تدل دلالة واضحة ماكان للمدينة من الأثر العظيم فى نفوس الفاتحين [١٤٠] . وبدا عمرو شديد الفخر ، بأن فتح وأخضع للإسلام مصر ، التى اعتبرها شديدة الخصوبة، وافرة الثروة ، اشتهر أهلها بالنشاط ، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ، ميمون الروحات [١٤١] .

أما الرواية المرتبطة بتدمير مكتبة الإسكندرية والقول المنسوب إلى عمر بن الخطاب عن مصير كتبها « إن كان ماجاء بها يوافق ماجاء فى كتاب الله فلا حاجة لنا به ، وإذا خالفه فلا أرب لنا فيه واحرقها» . فلا حاجة لتفنيدها بعد أن أنكر هذه الرواية سائر الباحثين فى هذا الموضوع ، إذ أن هذه الرواية لم تظهر لأول مرة إلا بعد أن مضى نحو ستة قرون على سقوط الإسكندرية فى أيدى العرب ، إذ أوردها المؤرخ العربى ابن القفطى فى كتابه «المعروف باسم إخبار العلماء بأخبار الحكماء» ، الذى ألفه حوالى سنة ١٢٢٧ ، وفى ذلك مايكفى لإثارة الشك فى قيمة هذه الرواية . وثمة حجتان أخريان تعتبران أشد دلالة وبرهانا ، ذلك أن حنا النقيوسى الذى يكاد يكون معاصراً للفتح العربى ، فضلا عن كونه مثقفا ومتعلما ، لم يشر من قريب أو بعيد بكلمة عن التدمير المزعوم الذى لحق مكتبة الإسكندرية ، فلو أنه وقع لما تردد فى ذكر خبره . ثم إن مكتبة الإسكندرية المعروفة اندثرت منذ زمن طويل ، أما تلك التى كانت فى المتحف ، فدمرها الحريق الذى صحب ثورة الإسكندريين ضد قيصر ، وذلك حسب إجماع الكتاب بلوتارك ، وسنيكا ، وديون كاسيوس واميان ماركللينوس ، وأوروزيوس. على حين أن مكتبة أخرى ، لا تقل عنها شهرة ، قامت بعد سنوات فى السيرا بيوم وزالت على الأرجح سنة ٣٩١ ، حينما هدم

المسيحيون هـذا المعبد الوثنى ، ودمروه نهائيا ، أوعلى الأقل تعرضت للنهب والتشتيت . ومن الملحوظ أنه منذ بداية القرن الخامس الميلادى ، لم يشر مؤلف من الذين زاروا الإسكندرية ، ومنهم من كان شديد الشغف بالمسائل الفكرية والعقلية مثل حناموسكوس Moschos إلى وجود مكتبة كبيرة مشهورة . وكيفما كان الأمر ، هـذه القصة لم تعد كونها سوى اسطورة ، يجب استبعادها نهائيا من التاريخ [١٤٢] .

على أن فتح مصر لم يتم وقتذاك نهائيا ، إذ أن الحرب لم تلبث أن اندلعت من جديد فى مصر. إذ جاء البيزنطيون يحاولون استرداد مصر مهما كلفهم ذلك من تضحية، ومات عمر بن الخطاب فى سنة ٢٣ هـ (نوفمبر سنة ٦٤٤) ، وتولى الخلافة عثمان بن عفان . والمعروف أن عمر بن الخطاب ، قبيل وفاته ، قيد سلطان عمرو بن العاص ، جريا على عادته مع سائر الولايات ،فتولى عبد الله بن سعد حكم الصعيد والفيوم ، وجعل إليه جباية الخراج ، فأتم عثمان ماشرع فيه عمر، بأن عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر ، وجعلها لعبد الله بن سعد [١٤٣] .

وجرت ولايته فى وقت ساء فيها حكم الولاة ، وثارت ثورة الناس عليهم وعلى الخليفة لجورهم . واشتد عبد الله بن سعد فى جباية الضرائب من أهل الإسكندرية ، فضلا عن أنه لجأ إلى زيادتها ، فأنفذ جماعة من زعماء الإسكندرية كتبا إلى الإمبراطور قنسطانز الذى انفرد بالحكم بعد وفاة هرقلوناس ، يسألونه النهوض لمساعدتهم، وشرحوا له أنه ليس بالإسكندرية إلا حامية ضعيفة لا تقوى على دفع الجيش البيزنطى [١٤٤] .

أثرت هذه الكتب فى الإمبراطور البيزنطى ، إذ أنه لم ينس ما لحق دولته من الضرر من ضياع مصر ، فأمر بإعداد قوة عظيمة، وكتم أمرها ، وكان البيزنطيون لا زالوا وقتذاك يسيطرون على البحر. ولم يكن للمسلمين سفن تأتى بأخبار العدو ،

http://www.al-maktabeh.com

فهاجم الإسكندرية فجأة أسطول بيزنطى مؤلف من ثلثمائة سفينة بقيادة مانويل ، فاستولى عليها فى ديسمبر سنة ٦٤٥ م (٢٥ هـ) (١٤٥) . ولم يقف جيش مانويل عن الإسكندرية بعد أن ملكها ، بل سار إلى ما يليها من بلاد الدلتا ينهب فيها ، ويغتصب من السكان ما لديهم من القمح والنبيذ ، والمال . ولم يعبأ البيزنطيون بمن أظهر لهم من المصريين الصداقة ، فأينما سارت جيوشهم أخذوا يعاملون السكان على أنهم أعداء ، فتحت بلادهم (١٤٦) . ومضوا فى طريقهم حتى بلغوا نقيوس . والواضح أن البيزنطيين لم يغيروا ما سبق أن اتخذه كيرس من سياسة ، ولم ينس المصريون ما تعرضوا له من اضطهاد وعذاب فى زمنه ؛ والراجح أنهم لجأوا إلى العرب لإنقاذهم من هذه المحنة (١٤٧) .

عاد عمرو بن العاص إلى قيادة جيش العرب فى بابليون ، وتوجه بجيشه للقاء البيزنطيين عند نقيوس ، فدارت معركة عنيفة بين البيزنطيين والمسلمين ، اندحر فيها الجيش البيزنطى ، وارتد من نجا منه إلى الإسكندرية ، واقتفى عمرو أثرهم . وصار أثناء مسيره يتلقى من المصريين المساعدة ، فكانوا يصلحون ما تخرب من الجسور ، ويمدون الجيش الإسلامى بالمؤن . فلما بلغ جيش العرب أسوار الإسكندرية ، أدرك عمرو بن العاص خطأه فى أنه ترك أسوارها قائمة ، ولم يجعل بها حامية قوية ، وحلف لئن ظفر بها ليهدمن أسوارها (١٤٨) .

حاصر عمرو المدينة، ولم يلبث أن نفذ بجيشه من أحد أبوابها، فاستولى عليها عنوة ، وأخذ الجند ينهبون ويحرقون كل ما تقع عليه أيديهم ، ويجهزون على كل من يصادفهم . واستطاع جانب من الجيش البيزنطى أن يلجأ إلى سفنه ، فهربوا بها بحراً ، وهلك عدد كبير من البيزنطيين فى المعارك التى دارت بالشوارع ، ومن الذين لقوا مصرعهم القائد مانويل ، وذلك فى صيف سنة ٦٤٦ (١٤٩) . وعلى الرغم من أن الإمبراطور قنسطانز حاول بعد تسع سنوات (٦٥٥) أن يعيد الكرة لاستعادة مصر ، بأن وجه إليها حملة بحرية ضخمة ، غير أن

البحرية الإسلامية برغم حداثة عهدها وقلة عدد سفنها ، أحبطت نشاط هذه الحملة ومنعتها من النزول بمصر . وتحول الهجوم الفاشل إلى كارثة خطيرة ، بسبب ما تعرض له الأسطول البيزنطي من عاصفة عنيفة . وما تبقى من السفن تفرق وتشتت في عباب البحر . ومنذ هذه اللحظة، لم تتعرض البحرية الإسلامية لتهديد كبير من الأساطيل البيزنطية، على الرغم من أن المدن الواقعة على السواحل تعرضت دائماً لغارات من البحارة والقرصان البيزنطيين(١٥٠) .

لقيت الإسكندرية جزاء مدينة مغلوبة على أمرها ، لأنها تمردت على العرب، واستنجدت بالبيزنطيين لقتالهم . ولم يكن ثمة ما يبرر حملة الإمبراطور ، وانتهاك المعاهدة باعتدائه على مصر ، ومحاولته الاستيلاء على الإسكندرية. ولذا كان العرب على حق في التشدد مع الثائرين ، وأرسل عمرو إلى الخليفة بالمدينة بطائفة من الأسرى الذين وقعوا بيده(١٥١) .

وبر عمرو بقسمه ، وهدم الأسوار الشرقية حتى سواها بالأرض ، كيما يتجنب مستقبلا كل مغامرة كالتي حدثت وتغلب عليها(١٥٢) . وفي الوقت ذاته، لم تعد المدينة حاضرة لمصر ، فعلى الرغم من رغبة عمرو في الإقامة بها ، فإن الخليفة أمره باتخاذ الفسطاط عاصمة للحكومة ، وفقا لما سبق أن أعلنه الخليفة من رغبة عند إنشاء الفسطاط(١٥٣) .

نهاية السيادة البيزنطية

وعلى هذا النحو ، انتهت السيادة البيزنطية على مصر ، وكتب حنا النقيوسي « إن الناس جميعا ، قالوا إن ما حدث من طرد الروم (البيزنطيين) ، وانتصار العرب ، إنما جلبه طغيان الإمبراطور هرقل، وما أنزله من ظلم واضطهاد بالأرثوذكس (القبط) ، وذلك بمساعدة البطريرك كيرس »(١٥٤) .

ومن المحقق أن الإدارة السيئة التى جرت عليها بيزنطة فى مصر ، والسياسة الدينية التى سارت عليها الحكومة الإمبراطورية ، تعتبران من الأسباب الأساسية التى أدت إلى زوال السيادة البيزنطية . ويؤيد ذلك موقف السكان من العرب ، فضلا عن إظهارهم الكراهية الشديدة للحكم البيزنطى. ومع أن الفتح لم يتم إلا بعد مقاومة غير منتظرة استمرت فترة طويلة ، برغم سوء حالة الجيش الذى تولى الدفاع عن القطر المصرى ، فإن عدداً كبيرا من السكان الأصليين انحازوا إلى جانب المسلمين ، بعد أن حلت الهزائم منذ البداية ، بالبيزنطيين (١٥٥) . ويروى حنا النقيوسى ، وهو مونوفيزتى شديد التعصب ، عن هذا الموضوع حقائق بالغة الدلالة ، منها حوادث التمرد والعصيان من قبل القوات التى تحافظ على الأمن الداخلى ، فكان الجند يرفضون الدخول فى المعركة أو يفرون منها . ومنها مالجأ إليه السكان الأصليون من مهاجمة الجند البيزنطيين أينما صادفوهم وتسليمهم إلى المسلمين ، بعد تجريدهم من سلاحهم (١٥٦) .

كان كثير من المصريين يبادرون إلى اعتناق الإسلام، ويحاربون فى صفوف المسلمين ضد البيزنطيين (١٥٧) . وفى الوجه البحرى ، أدرك حزب كامل أن المقاومة ليست مجدية ، وقرروا الانحياز للعرب ، وهاجموا كل من يرى غير ذلك (١٥٨) . وفى أثناء المحاولة الأخيرة ، التى قام بها البيزنطيون لاسترداد مصر ، كان موقف القبط أكثر صراحة من ذلك ، إذ اتخذوا بالإجماع جانب العرب ، وعاونوهم بكل مالديهم من الوسائل فى استرداد الدلتا ، وكانوا يشكون للعرب أولئك الذين كانوا ينعتونهم «باليونانيين اللصوص» (١٥٩) . يضاف إلى ذلك أن كثيرين من أهل الرأى والتفكير ، اعتنقوا الاسلام لينعموا بما اشتهر به من أمن وهدوء ، بعد أن افتقدوا ذلك زمنا طويلا (١٦٠) .

على أن عمرا لم يلبث أن أظهر غداة الفتح مهارة فائقة فى معاملة السكان الأصليين ، فالمعروف أنه لما مات البطريرك كيرس ، وجلت القوات البيزنطيه عن البلاد ، تقرر تعيين بطريرك ليحل مكانه فى ولاية أمر المذهب الخلقيدونى (الملكانى)، على أن ولايته لم تتعد أسوار مدينة الإسكندرية[١٦١] . على حين أن بنيامين بطريرك القبط ،لا زال مختفيا ، يطوف بأنحاء الصعيد ، وأدركت كنيسته الضعف والوهن ، بل إن ما تعرضت له على يد كيرس، من الضربات طوال فترة عشر سنوات كاد يودى بها . على أن المسيحية ، بعد الفتح العربى لمصر ، لم تعد الديانة الرسمية ، إذ صار الإسلام هو الديانة الرسمية للبلاد ، وهو الذى يفصل فيما يقع من المنازعات الدينية . وترتب على ذلك أن صار الناس أحراراً فى تدينهم ، فلم يحفل المسلمون بصدق أو كذب قرارات مجمع خلقيدونية ، ولم يعد القبط يخشون إظهار عقيدتهم و إيمانهم ، فأفاقت الكنيسة القبطية ونشطت ، ولم تلبث أن أثبتت دعواها فى أنها تعتبر كنيسة الأمة المصرية . ولذا قرر عمرو ابن العاص استدعاء البطريرك بنيامين ، وأعاده إلى مقره بالإسكندرية فلقى بها الاستقبال الحافل ، والحفاوة الزائدة ، والحماس الشديد[١٦٢] . ومكث بنيامين فى مخبأه ثلاث عشرة سنة،فكان لعودته أثر كبير فى إصلاح أحوال الكنيسة المصرية والمذهب المونوفيزتى . إذ كان القبط فى أشد الحاجة إلى بطريرك ذى رأى متزن، وخلق متين ، يقودهم و يلى أمرهم . فمنهم من خرجوا من عقيدتهم وهم ألوف ورضوا باتباع مذهب خلقيدونية خوفاً من اضطهاد كيرس[١٦٣] .

لم يكن من اليسير أن يعود إلى المونوفيزتية ، من اعتنق الإسلام ونعم بما نادى به الإسلام من الأخوة والمساواة ، ولما كفله من عدالة وأمن وطمأنينة. أما الذين اعتنقوا المذهب الخلقيدونى خوفا أو كرها ، فإن البطريرك بنيامين طلب إلى الذين اتبعوا مذهب خلقيدونية ، أن يعودوا إلى مذهبهم المونوفيزتى. فلما تم له جمع قومه ،

ولم شعثهم ، اتجهت همته إلى إصلاح ماتهدم من الأديرة ، ولا سيما ما كان منها فى وادى النطرون . وتوجه جماعة من الرهبان إلى الإسكندرية ، وطلبوا الى بنيامين أن يذهب معهم ليبارك الكنيسة الجديدة التى بنيت فى الصحراء (صحراء سقيط) ؛ وهى كنيسة القديس مقاريوس ، فأجابهم بنيامين إلى ما طلبوا ، وتوجه معهم إلى صحراء النطرون ، فى موكب حافل ، حملت فيه بين يديه المباخر وسعف النخيل . ونهض باسيل مطران نقيوس وشكر الله على ما قام به البطريرك من زيارة إلى الصحراء المباركة ، وأن يرى ما فيها من الآباء المقدسين والإخوة الطيبين الأبرار ، ويشهد بها شعائر الدين القويم . ثم شكر الله على أن انجاه من الكفرة ، وحفظ قلبه من ذلك الطاغية الأكبر « كيرس » الذى شرده فعاد إلى أبنائه ، يراهم ملتفين حوله مرة أخرى[١٦٤] . وأنشأ بنيامين أيضاً كنيسة القديس مرقص بالإسكندرية ، وظلت هاتان الكنيستان، مقرا للبطريركية قرونا عديدة ، حتى انتقلت إلى القاهرة ، بعد أن تداعت الإسكندرية ، ولم تعد عاصمة سياسية ، ومات بنيامين سنة ٦٦٢[١٦٥] .

وإن هذا القول لا يصدر عن قوم يشعرون بأنهم مستذلون ، بل يصدر عن أناس يبتهجون بالخلاص . وفى ذلك يشير بنيامين « كنت فى بلدى ، وهو الإسكندرية، فوجدت بها أمنا من الخوف ، واطمئنانا بعد البلاء، وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفرة وبأسهم»[١٦٦] . ويشير حنا النقيوسى ، الذى كتب بعد الفتح بخمسين عاما ، وعلى الرغم من تعصبه ضد المسلمين ، إلى أن عمراً لم يضع يده على شىء من أملاك الكنائس ، ولم يرتكب شيئا من النهب أو التعصب ، بل إنه حفظ الكنائس وحماها إلى آخر مدة حياته[١٦٧] .

وحيا المصريون فى حماس بالغ ، ما جرى من عودة السلام والطمأنينة ، وقدم إلى عمرو جماعة من الرهبان ، فأحسن لقاءهم ورحب بهم ، فأعلنوا ولاءهم وإخلاصهم[١٦٨] .

أبقى العرب على ما وجدوه بمصر من نظام إدارى ، وظلت اللغه اليونانية مستخدمة فى دواوين الحكومة ، كما تشهد بذلك أوراق البردى التى ترجع إلى القرنين السابع والثامن [١٦٩] . فأقر العرب «ميناس» الذى اختاره هرقل حاكما لمصر السفلى، وأبقوا أيضاً على سنوتيوس Sanutius على حكم الريف ، واحتفظ فيلوخينوس Philoxenus بحكومة أركاديا أو الفيوم. والمعروف أن هؤلاء الحكام الثلاثة كانوا يدينون بمذهب خلقيدونية، و يكرهون المصريين المونوفيزتيين . فإذا تعرض المصريون للاضطهاد والعنت ، فلا شك أن هؤلاء . الموظفين يعتبرون إلى حد كبير مسؤلين عن ذلك [١٧٠] .

على أن الفتح العربى ولّدفى نفوس المصريين أعذب الآمال ، و إذا كانت سياسة الحكومة البيزنطية وأخطاء إدارتها ، والامعان فى استغلال ثروتها ، أدى إلى إزدياد العلاقات السيئة بين المصريين والبيزنطيين ، فلا شك أن الفتح العربى أنهى هذا الصراع الذى استمر قرونا عديدة واستهل مرحلة جديدة من التاريخ المصرى .

http://www.al-maktabeh.com

ملاحق الكتاب

الحواشي والتعليقات

الفصل الأول

تمهيد

أحوال الامبراطورية الرومانية حتى القرن الرابع الميلادى

Bury : *History of the Later Roman Empire*, Vol. I, p. 5. (١)
Cambridge Ancient Hist. Vol. XII, pp. 372-376.

Bury : *op. cit.*, p. 5. (٢)

Ibid : p. 5. (٣)

Bury : *Op. cit.*, p. 5. (٤)

Ibid : p. 5-6. (٥)

Bury : p. 6. (٦)

Ibid : p. 6. (٧)

Bury : p. 16. (٨)

Ibid : p. 25. (٩)

Bury : p. 25. (١٠)

Ibid : p. 25. (١١)

Ibid : p. 25. (١٢)

Ibid : p. 26. (١٣)

Bury : p. 26. (١٤)

Bury : p. 26. (١٥)

Ibid : p. 26. (١٦)

Ibid : p. 27. (١٧)

Ibid : p. 27. (١٨)

Bury : p. 27. (١٩)

Bury : p. 27. (٢٠)

Ibid : p. 31. (٢١)

Ibid : p. 31. (٢٢)

Bury : p. 45. (٢٣)

Ibid : p. 46. (٢٤)

الفصل الثانى

النظم الدينية

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ، الطبعة الثانية ، ص ٢٤٤ .

(٢) Hardy : p. 11.

(٣) بل : مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى — ترجمة الدكتورين عبد اللطيف أحمد على ، ومحمد عواد حسين ، ص ١٠٥ ، حاشية ١ .

(٤) Hardy : *Christian Egypt*, p. 35.

(٥) Vasiliev : *History of the Byzantine Empire*, p. 36.

(٦) Hardy : *Christian Egypt*, p. 61.

(٧) *Ibid :* p. 61.

(٨) Camb. Med. Hist., Vol. I, pp. 502-503.

Diehl : *L'Egypte Byzantine*, p 439.

(٩) Camb. Med. Hist. Vol. I, p. 503.

(١٠) Camb. Med. Hist. I, p. 504.

(١١) *Ibid :* p. 504-505.

(١٢) Camb. Med. Hist. Vol. I, p. 517.

(١٣) Hardy : *Christian Egypt*, p. 119.

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الثالث

التنظيم الإدارى بمصر حتى قبيل زمن جستنيان

(١) بل : مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ص ٨٥ .

(٢) Rouillard : p. 3.

(٣) بل : مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ص ٢٣٧ .

(٤) Rouillard : p. 4.

(٥) Rouillard : p. 4 — Diehl : p. 453.

(٦) Rouillard : p. 4.

(٧) Rouillard : p. 5.

(٨) Diehl : p. 453.

(٩) Rouillard : p. 5.

(١٠) Rouillard : p. 6 — Diehl : p. 453.

(١١) Rouillard : p. 6.

(١٢) *Ibid* : p. 6.

(١٣) Diehl : p. 454.

(١٤) Rouillard : p. 7 — Diehl : p. 454.

(١٥) Rouillard : p. 7.

(١٦) Rouillard : p. 7 — Diehl : p. 454.

(١٧) Rouillard : p. 7.

(١٨) Rouillard : p. 7 — Diehl : p. 454.

(١٩) Rouillard : p. 8.

(٢٠) Diehl : p. 454.

(٢١) Rouillard : p. 8.

(٢٢) Diehl : p. 454.

(٢٣) Diehl : p. 454.

(٢٤) *Ibid* : p. 454.

(٢٥) Diehl : p. 454.

(٢٦) Rouillard : p. 9.

(٢٧) بل : مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ص ١٥٤ — ١٥٥ .

(٢٨) Rouillard : p. 9.

(٢٩) *Ibid :* p. 9.

(٣٠) Diehl : p. 456.

(٣١) Diehl : p. 456.

(٣٢) *Ibid :* p. 456.

(٣٣) Rouillard : p. 13.

(٣٤) Diehl : p. 456.

(٣٥) *Ibid :* p. 456.

(٣٦) Rouillard : p. 14.

(٣٧) Diehl : p. 456.

(٣٨) Rouillard : p. 14 — Diehl : p. 456.

(٣٩) Rouillard : p. 14 — Diehl : p. 456.

(٤٠) Rouillard : p. 14.

(٤١) Rouillard : p. 14.

(٤٢) Rouillard : p. 15 — Diehl : p. 456.

الفصل الرابع

التنظيمات الاقتصادية حتى قبيل عصر جستنيان

(١) Johnson : *Egypt and the Roman Empire,* p. 67.

(٢) Johnson : *Egypt,* p. 68.

(٣) Johnson : *Economic Studies,* p. 17.

(٤) Johnson : *Egypt,* p. 73.

(٥) *Ibid :* p. 80.

(٦) Johnson : *Egypt,* p. 82.

(٧) Johnson : *Ec. St.*, p. 39.

(٨) Johnson : *Egypt,* p. 76.

(٩) *Ibid :* p. 79.

(١٠) Johnson : *Ec. St.*, p. 38, 39.

(١١) Hardy : p. 43. — Johnson : *Egypt,* p. 80.

(١٢) Johnson : *Egypt,* p. 82.

(١٣) Johnson : *Ec. St* , p. 6.

(١٤) Hardy : p. 38, 39.

(١٥) Hardy : p. 43.

(١٦) Johnson : *Egypt,* p. 74.

(١٧) Johnson : *Ec. St.*, p. 40.

(١٨) *Ibid :* p. 40.

(١٩) Johnson : *Egypt,* p. 74.

(٢٠) *Ibid :* p. 77.

(٢١) Johnson : *Ec. St.*, p. 15.

(٢٢) Johnson : *Egypt,* p. 75.

(٢٣) Johnson : *Egypt,* p. 77-78.

(٢٤) *Ibid :* p. 77 — Ec. St., p. 27.

(٢٥) Johnson : *Egypt,* p. 79.

(٢٦) Johnson : *Ec. St.*, p. 45.

(٢٧) Johnson : *Ec. St.*, p. 45.

Ibid : p. 45. (٢٨)

Johnson : *Egypt*, p 81. (٢٩)

Ibid : p. 81. (٣٠)

Ibid : p. 81. (٣١)

Johnson : *Egypt*, p. 82. (٣٢)

Ibid : p. 82. (٣٣)

Johnson : *Egypt*, p. 82. (٣٤)

Ibid : p. 83. (٣٥)

Johnson : *Egypt*, p. 83. (٣٦)

Ibid : p. 83. (٣٧)

Ibid : p. 83. (٣٨)

Johnson : *Egypt*, p. 83. Hardy : p. 25. (٣٩)

Hardy : *op. cit.*, p. 43. (٤٠)

Johnson : *Egypt*, p. 84. (٤١)

Ibid : p. 84. (٤٢)

Johnson : *Egypt*, p. 84. (٤٣)

Ibid : p. 85. (٤٤)

Johnson : *Ec. St.*, p. 65. (٤٥)

Ibid : p. 80. (٤٦)

Johnson : *Egypt*, p. 92. (٤٧)

Johnson : *Ec. St.*, p. 16. (٤٨)

Johnson : *Egypt*, p. 77. *Ec. St.*, p. 27. (٤٩)

Johnson : *Ec. St.*, p. 45. — *Ec. St.*, p. 27. (٥٠)

Ibid : p. 19. (٥١)

Johnson : *op. cit.*, p. 41. (٥٢)

Johnson : *Ec. St.*, p. 67. (٥٣)

Hardy : *op. cit.*, p. 45. (٥٤)

Johnson : *Ec. St.*, p. 68. (٥٥)

Johnson : *Ec. St.*, p. 69. (٥٦)

Ibid : p. 69. (٥٧)

Ibid : p. 70. (٥٨)

Johnson : *Ec. St.*, p. 73. (٥٩)

Ibid : p. 73. (٦٠)

Ibid : p. 73. (٦١)

Johnson : *Ec. St.*, p. 75. (٦٢)

Johnson : *Egypt*, p. 87. (٦٣)

Ibid : p. 87. (٦٤)

Johnson : *Egypt*, p. 88. (٦٥)

Ibid : p. 88. (٦٦)

Ibid : p. 88. (٦٧)

Johnson : *Egypt*, p. 88. (٦٨)

Ibid : p. 88. (٦٩)

Johnson : *Egypt*, p. 89. (٧٠)

Johnson : *Ec. St.*, p. 29. *Egypt*, p. 96. (٧١)

Johnson : *Egypt*, p. 96. (٧٢)

Ibid : p. 96. (٧٣)

Ibid : p. 96. (٧٤)

Johnson : *Egypt*, p. 99. (٧٥)

Johnson : *Ec. St.*, p. 30 Johnson : *Egypt*, p. 100. (٧٦)

Johnson : *Egypt*, p. 100. (٧٧)

Hardy : *Large Estates*, pp. 76-77. (٧٨)

Ibid : p. 30. (٧٩)

Johnson : *Ec. St.*, p. 30. (٨٠)

Ibid : p. 30. (٨١)

Johnson : *Ec. St.*, p. 30. (٨٢)

Ibid : p. 30. (٨٣)

Ibid : p. 32. (٨٤)

Johnson : *Ec. St.*, p. 32. (٨٥)

Johnson : *Ec. St.*, p. 32. (٨٦)

Johnson : *Ec. St.*, p. 75. (٨٧)

Johnson : *Ec. St.*, p. 75. (٨٨)

Ibid : p. 76. (٨٩)

Johnson : *Ec. St.*, p. 76. (٩٠)

Ibid : p. 77. (٩١)

(٩٢) *Ibid :* p. 77.

(٩٣) Hardy : *op. cit.*, p. 50-51.

(٩٤) *Ibid :* p. 53.

(٩٥) Hardy : *op. cit.*, p 55.

(٩٦) *Ibid :* p. 56.

(٩٧) Hardy : *op. cit.*, p. 58.

(٩٨) Johnson : *Egypt*, p. 107.

(٩٩) *Ibid :* p. 107.

(١٠٠) Johnson : *Egypt*, p. 107.

(١٠١) *Ibid :* p. 108.

(١٠٢) *Ibid :* p. 108.

(١٠٣) *Ibid :* p. 108.

(١٠٤) Johnson : *Egypt*, p. 108.

(١٠٥) *Ibid :* p. 109.

(١٠٦) Johnson : *Egypt*, p 109.

(١٠٧) *Ibid :* p. 109.

(١٠٨) *Ibid :* p. 109.

(١٠٩) *Ibid :* p. 109.

(١١٠) Johnson : *Egypt*, p. 111

(١١١) *Ibid :* p. 111.

(١١٢) *Ibid :* p. 111.

(١١٣) Camb. Anc. Hist. XII, p. 400

(١١٤) *Ibid :* p. 400.

(١١٥) Camb. Anc. Hist. XII, p. 400.

(١١٦) *Ibid :* p. 400.

(١١٧) Camb. Anc. Hist. XII, p. 400.

(١١٨) *Ibid :* p. 401.

(١١٩) Johnson : *Egypt*, pp. 112-118.

(١٢٠) Johnson : *Egypt*, p. 112.

(١٢١) Cam. Anc. Hist. Vol. XII, p. 401.

(١٢٢) *Ibid :* p. 401-402.

(١٢٣) Johnson : *Egypt*, p. 118.

http://www.al-maktabeh.com

(١٢٤) Johnson : *Egypt*, p. 119.

(١٢٥) *Ibid :* p. 119.

(١٢٦) Johnson : *Egypt*, p. 119

(١٢٧) Johnson : *Egypt*, p. 120.

(١٢٨) *Ibid :* p. 120.

(١٢٩) Johnson : *Egypt*, p. 121.

(١٣٠) *Ibid :* p. 121.

(١٣١) Johnson : *Egypt*, p. 121.

(١٣٢) *Ibid :* p. 122.

(١٣٣) *Ibid :* p. 122.

(١٣٤) *Ibid :* p. 122.

(١٣٥) Johnson : *Egypt*, p. 124.

(١٣٦) *Ibid :* p.124.

(١٣٧) Johnson : *Egypt*, p. 124.

(١٣٨) *Ibid :* p. 125.

(١٣٩) *Ibid :* p. 125.

(١٤٠) Johnson : *Egypt*, p. 126.

(١٤١) *Ibid :* p. 126.

(١٤٢) Johnson : *Egypt*, p. 127.

(١٤٣) *Ibid :* p. 127.

(١٤٤) *Ibid :* p. 130.

(١٤٥) Johnson : *Egypt*, p. 130.

(١٤٦) *Ibid :* p. 130.

الفصل الخامس

التنظيمات الحربية

(١) Bury : I, p. 34.
Camb. Med. Hist. Vol. I, p. 44.

(٢) Camb. Med. Hist. I, p. 44.

(٣) Camb. Med. Hist. I, p. 44.

(٤) *Ibid :* p. 45.

(٥) Bury : Vol. I, p. 35,
Camb. Med. Hist. Vol. I, p. 45.

(٦) Camb. Med. Hist. Vol. I, p. 45.

(٧) Camb. Med. Hist. Vol. I, p. 45.

(٨) Bury : *op. cit.*, p. 38.

(٩) Bury :o *p. cit.*, p. 37,
Camb. Med. Hist. I, p. 46.

(١٠) Camb. Med. Hist. I, p. 47.

(١١) Bury : *op. cit.*, p. 39.

(١٢) Bury : *op. cit.*, p. 39.

(١٣) Bury : *op. cit.*, p. 40.

(١٤) *Ibid :* p. 40.

(١٥) Bury : *op. cit.*, p. 42.

(١٦) *Ibid :* p. 42.

(١٧) Bury : *op. cit.*, p. 42.

(١٨) *Ibid :* p. 43.

(١٩) Bury : *op. cit.*, p. 43.

(٢٠) Bury : p. 43.

(٢١) Bell : *Egypt under the Early Principate*, C.A.H. Vol. 10, Ch. X pp. 243-244.

(٢٢) Maspero : *Organisation Militaire de l'Egypte Byzantine* — Paris 1912, p. 44.

(٢٣) Maspero : p. 46.

(٢٤) *Ibid :* p. 46.

(٢٥) Maspero : pp. 47-55.

(٢٦) Maspero : p. 56-57.

(٢٧) Maspero : p. 58.

(٢٨) Bell : *op. cit.,* p. 246.

(٢٩) Maspero : p. 23.

(٣٠) Maspero : p. 42, p. 60.

(٣١) Maspero : p. 62.

(٣٢) Maspero : p. 64; Diehl : p. 473.

(٣٣) Maspero : p. 65.

(٣٤) Maspero : p. 67-68.

(٣٥) Diehl : p. 473.

الفصل السادس

تنظيمات جستنيان

Rouillard : p 3, Diehl : p. 454. (١)

Rouillard : p. 4, Diehl : p. 454. (٢)

Diehl : p. 454. (٣)

Rouillard : p. 4. (٤)

Rouillard : p. 5. (٥)

Ibid : p. 6, Diehl : p. 454. (٦)

Rouillard : p. 6. (٧)

Rouillard : p. 6, Diehl : p. 455. (٨)

Rouillard : p. 8. (٩)

Diehl : p. 455. (١٠)

Rouillard : p. 8, 12. (١١)

Diehl : p. 456. (١٢)

Rouillard : p. 15. (١٣)

Ibid : p. 16. (١٤)

Rouillard : p. 17. (١٥)

Ibid : p. 17. (١٦)

Rouillard : p. 17. (١٧)

Diehl : p. 456, Rouillard : p. 17. (١٨)

Diehl : p. 456, Rouillard : p. 17. (١٩)

Diehl : p. 456. (٢٠)

Diehl : p. 456. (٢١)

Rouillard : p. 18. (٢٢)

Diehl : p. 457, Rouillard : p. 18. (٢٣)

Rouillard : p. 18. (٢٤)

Diehl : p. 458. (٢٥)

Rouillard : p. 19. (٢٦)

Rouillard : p. 19. (٢٧)

http://www.al-maktabeh.com

(٢٨) Diehl : p. 458.

(٢٩) Rouillard : p. 19.

(٣٠) Rouillard : p. 20.

(٣١) Diehl : p. 459.

(٣٢) *Ibid :* p. 459.

(٣٣) Rouillard : p. 20.

(٣٤) *Ibid :* p. 20.

(٣٥) *Ibid :* p. 20.

(٣٦) Rouillard : p. 20-24.

(٣٧) Rouillard : p. 24, Diehl : p. 459.

(٣٨) Rouillard : p. 25.

(٣٩) Diehl : p. 459.

الفصل السابع

التنظيمات الإدارية بمصر

وفقاً للقانون رقم ١٣ الذى أصدره جستنيان سنة ٥٣٨ أو سنة ٥٣٩

Rouillard : p. 28. (١)

Diehl : p. 461, Rouillard : p. 28. (٢)

Rouillard : p. 28. (٣)

Ibid : 28. (٤)

Diehl : p. 461. (٥)

Diehl : p. 462. (٦)

Rouillard : p. 29. (٧)

Ibid : p. 30. (٨)

Rouillard : p. 30, Diehl : p. 462. (٩)

Rouillard : p. 30, Maspero : p. 79. (١٠)

Rouillard : p. 30. (١١)

Rouillard : p. 31. (١٢)

Maspero : p. 29. (١٣)

Rouillard : p. 32. (١٤)

Rouillard : p. 33, Maspero : p. 73, 76. (١٥)

Rouillard : p. 33. (١٦)

Ibid : p. 34. (١٧)

Ibid : p. 34. (١٨)

Rouillard : p. 34. (١٩)

Ibid : p. 34, Maspero : p. 76. (٢٠)

Rouillard : p. 34-35, Maspero : p. 76. (٢١)

Rouillard : p. 35. (٢٢)

Diehl : p. 463, Rouillard : p. 35. (٢٣)

Diehl : p. 463, Rouillard : p. 36. (٢٤)

Maspero : p. 80, Rouillard : p. 37. (٢٥)

Rouillard : p. 38. (٢٦)

(٢٧) Rouillard : p. 38, Diehl : p. 464.

(٢٨) Rouillard : p. 39, Diehl : p. 464.

(٢٩) Maspero : p. 81-82.

(٣٠) Maspero : p. 82.

(٣١) Maspero : p. 82.

(٣٢) Maspero : p. 82, Rouillard : p. 39.

(٣٣) Rouillard : p. 36, Maspero : p. 82.

(٣٤) Maspero : p. 83.

(٣٥) Maspero : p. 83.

(٣٦) Maspero : p. 83, Diehl : p. 463.

(٣٧) Maspero : p. 83.

(٣٨) Maspero : p. 84, Rouillard : p. 36.

(٣٩) Rouillard : p. 39.

(٤٠) Rouillard : p. 40.

(٤١) Maspero : p. 84.

(٤٢) Rouillard : p. 40, Diehl : p. 464.

(٤٣) Diehl : p. 464, Rouillard : p. 40.

(٤٤) Rouillard : p. 41, Maspero : p. 85.

(٤٥) Rouillard : p. 41.

(٤٦) Rouillard : p. 41.

(٤٧) Rouillard : p. 41.

(٤٨) *Ibid :* p. 41.

(٤٩) *Ibid :* p. 42.

(٥٠) *Maspero :* p. 85.

(٥١) Rouillard : p. 42.

(٥٢) Diehl : p. 463.

(٥٣) Rouillard : p. 42-43.

(٥٤) *Ibid :* p. 43.

(٥٥) Rouillard : p. 44, Maspero : p. 86.

(٥٦) Rouillard : p. 44.

(٥٧) Rouillard : p. 44, Maspero : p. 87.

(٥٨) Rouillard : p. 45.

(٥٩) Rouillard : p. 45, Maspero : p. 87.

(٦٠) *Ibid :* p. 46.

(٦١) Rouillard : p. 47.

(٦٢) *Ibid :* p. 47.

(٦٣) *Ibid :* p. 48.

(٦٤) Rouillard : p. 48.

(٦٥) *Ibid :* p. 48, Diehl : p. 464.

(٦٦) Rouillard : p. 49.

(٦٧) *Ibid :* p. 49.

(٦٨) Rouillard : p. 49.

(٦٩) *Rouillard :* p. 49-52.

(٧٠) *Rouillard :* p. 52.

(٧١) *Ibid :* p. 52. Diehl : p. 474.

(٧٢) Maspero : p. 1-2.

(٧٣) Rouillard : p. 57.

(٧٤) Rouillard : p. 52-53, Diehl : p. 464.

(٧٥) Rouillard : p. 54, Diehl : p. 464.

(٧٦) Rouillard : p. 54, Diehl : p. 464.

(٧٧) Rouillard : p. 54.

(٧٨) Diehl : p. 464.

(٧٩) Diehl : p. 464.

(٨٠) Rouillard : p. 60-61.

(٨١) *Ibid :* p. 55.

(٨٢) Rouillard : p. 55.

(٨٣) *Ibid :* p. 55.

(٨٤ *Ibid :* p. 55, 59, Maspero : p. 88.

(٨٥) Rouillard : p. 61.

(٨٦) Diehl : p. 464.

(٨٧) Rouillard : p. 62, Diehl : p. 464.

(٨٨) *Ibid :* p. 62.

Rouillard : p. 62. — Diehl : p. 465. (٨٩)

Rouillard : p. 63. (٩٠)

Rouillard : p. 62. — Diehl : p. 465. (٩١)

Rouillard : p. 63. (٩٢)

Rouillard : p. 64. (٩٣)

Ibid : p. 65. (٩٤)

Ibid : p. 65. (٩٥)

Ibid : p. 65. (٩٦)

Rouillard : p. 65. (٩٧)

Diehl : p. 464. — Rouillard : p. 65. (٩٨)

Rouillard : p. 65. (٩٩)

Ibid : p. 65. (١٠٠)

Diehl : p. 465. — Rouillard : p. 66. (١٠١)

Rouillard : p. 66. (١٠٢)

Rouillard : p. 66. (١٠٣)

Johnson : *Egypt and the Roman Empire,* p. 133. (١٠٤)

Rouillard : p. 68. (١٠٥)

Rouillard : p. 68. (١٠٦)

Ibid : p. 70. (١٠٧)

Ibid : p. 70. (١٠٨)

Rouillard : p. 71, 72. (١٠٩)

Ibid : p. 72. (١١٠)

Rouillard : p. 73. (١١١)

Ibid : p. 74. (١١٢)

الفصل الثامن

التنظيم المالى منذ زمن چستنيان

(١) Rouillard : p. 76. — Diehl : p. 465.

(٢) Diehl : p. 465.

(٣) *Ibid :* p. 465. — Rouillard : p. 76.

(٤) Rouillard : p. 78.

(٥) *Ibid :* p. 80.

(٦) *Ibid :* p. 80.

(٧) Johnson : *Economic Studies*, p. 259.

(٨) *Ibid :* p. 262.

(٩) Johnson : *Ec. St.*, p. 263.
Camb. Anc. Hist. XII, p. 400.

(١٠) Rouillard : p. 82.
أسد رستم : الروم ، ج ١ ، ص ١٧٧ .

(١١) Rouillard : p. 82.

(١٢) Rouillard : pp. 82-83.

(١٣) Rouillard : p. 83.
أسد رستم : الروم ، ج ١ ، ص ١٧٧ .

(١٤) Rouillard : p. 84.

(١٥) *Ibid :* p. 84.

(١٦) Rouillard : p. 84.
Johnson : *Economic Studies*, p. 330.

(١٧) *Ibid :* p. 325.

(١٨) Rouillard : p. 86.

(١٩) *Ibid :* p. 86.

(٢٠) Rouillard : p. 87.

(٢١) *Ibid :* p. 87.

(٢٢) Rouillard : pp. 88-89.

(٢٣) Rouillard : p. 89.

http://www.al-maktabeh.com

Ibid : p. 89. (٢٤)

Rouillard : p. 89. (٢٥)

Ibid : p. 90. (٢٦)

Ibid : p. 90. (٢٧)

Rouillard : p. 90. (٢٨)

Ibid : p. 91. (٢٩)

Ibid : p. 91. (٣٠)

Rouillard : p. 92. (٣١)

Ibid : p. 92. (٣٢)

Bury : *History of the Later Roman Empire,* Vol. I, p. 46. (٣٣)

Rouillard : p. 93. (٣٤)

Rouillard : p. 93. (٣٥)

Ibid : p. 93-94. (٣٦)

Ibid : p. 95. (٣٧)

Rouillard : p. 95. (٣٨)

Ibid : p. 95. (٣٩)

Ibid : p. 95. (٤٠)

Rouillard : p. 96. (٤١)

Ibid : p. 96. (٤٢)

Ibid : p. 96. (٤٣)

Rouillard : p. 97. (٤٤)

Ibid : p. 97. (٤٥)

Ibid : p. 97. (٤٦)

Ibid : p. 97. (٤٧)

Ibid : p. 98. (٤٨)
Johnson : *Ec. St.*, p. 219.

Rouillard : p. 98. (٤٩)

Ibid : p. 98. (٥٠)

Ibid : p. 99. (٥١)

Rouillard : p. 99. (٥٢)

Ibid : p. 99. (٥٣)

Johnson : *Ec. St.*, p. 286. (٥٤)

Rouillard : p. 99. (٥٥)

Ibid : p. 99. (٥٦)

Ibid : p. 100. (٥٧)

Johnson : *Ec. St.*, pp. 298-299. (٥٨)

Rouillard : p. 100. (٥٩)

Ibid : p. 100. (٦٠)

Ibid : p. 100. (٦١)

Rouillard : p. 101. (٦٢)

Ibid : p. 102. (٦٣)

Diehl : p. 460.

Diehl : p. 464. (٦٤)

Johnson : *Ec. St.*, p. 173-174. (٦٥)

Rouillard : p. 102. (٦٦)

Rouillard : p. 102. (٦٧)

Diehl : p. 466. (٦٨)

Rouillard : p. 105. (٦٩)

Ibid : p. 105. (٧٠)

Rouillard : p. 105. (٧١)

Rouillard : p. 105. (٧٢)

Diehl : p. 466.

Rouillard : p. 105. (٧٣)

Ibid : p. 105. (٧٤)

Diehl : p. 466. (٧٥)

Diehl : p. 467. (٧٦)

Rouillard : p. 105.

Rouillard : p. 106. (٧٧)

Ibid : p. 106. (٧٨)

Rouillard : p. 106. (٧٩)

Ibid : p. 106. (٨٠)

Rouillard : p. 106. (٨١)

Ibid : p. 107. (٨٢)

Johnson : *Ec. St.*, p. 275. (٨٣)

Rouillard : p. 107.

Rouillard : p. 107. (٨٤)

Rouillard : p. 108. (٨٥)

Ibid : p. 108. (٨٦)

Johnson : *Ec. St.*, p. 172. (٨٧)

Rouillard : p. 109. (٨٨)

Ibid : p. 109. (٨٩)

Ibid : p. 110. (٩٠)

Ibid : p. 110. (٩١)

Ibid : p. 110. (٩٢)

Rouillard : p. 110. (٩٣)

Ibid : p. 111. (٩٤)

Ibid : p. 111. (٩٥)

Rouillard : pp. 83-84. (٩٦)

Ibid : p. 112. (٩٧)

Ibid : p. 112. (٩٨)

Ibid : p. 113. (٩٩)

Rouillard : p. 113. (١٠٠)

Johnson : *Ec. St.*, p. 271, 303.

Ibid : p. 113. (١٠١)

Johnson : *Ec. St.*, p. 104. (١٠٢)

Rouillard : p.114.

Johnson : *Ec. St.*, p. 105. (١٠٣)

Rouillard : p. 115. (١٠٤)

Johnson : *Ec. St.*, p.105. (١٠٥)

Rouillard : p. 115.

Ibid :p. 105. (١٠٦)

Rouillard : p. 115. (١٠٧)

Rouillard : p. 116. (١٠٨)

Rouillard : p. 117. (١٠٩)

Ibid : p. 117. (١١٠)

Rouillard : p. 117. (١١١)

Ibid : p. 117. (١١٢)

Ibid : p. 117. (١١٣)

Ibid : p. 118. (١١٤)

Diehl : p. 467.

Rouillard : p. 118 — Diehl : p. 467. (١١٥)

Ibid : p. 118. (١١٦)

Rouillard : p. 119. (١١٧)

Rouillard : p. 119. (١١٨)

Diehl : p. 467. (١١٩)

Rouillard : p. 120. (١٢٠)

Diehl : p. 467. — Rouillard : p. 120. (١٢١)

Diehl : p. 467. — Rouillard : p. 120. (١٢٢)

Bury : Vol. I, pp. 46-47. (١٢٣)

Diehl : p. 469. — Rouillard : pp. 121-122. (١٢٤)

Diehl : p. 469. — Rouillard : pp. 121-122. (١٢٥)

Diehl : p. 469. (١٢٦)

Rouillard : p. 122. (١٢٧)

Diehl : p. 469. (١٢٨)

Diehl : p. 469. — Rouillard : p. 125. (١٢٩)

Rouillard : p. 127. (١٣٠)

Rouillard : p. 60. (١٣١)

Rouillard : p. 127. (١٣٢)

Ibid : p. 128. (١٣٣)

Rouillard : p. 128, note 3. (١٣٤)

Johnson : *Ec. St.*, p. 288.

Rouillard : p. 128. (١٣٥)

Johnson : *Ec. St.*, p. 279. (١٣٦)

Rouillard : p. 128. (١٣٧)

Rouillard : p. 130. (١٣٨)

Rouillard : p. 130. (١٣٩)

Rouillard : p. 130. (١٤٠)

Rouillard : p. 130. — Diehl : p. 469. (١٤١)

http://www.al-maktabeh.com

Rouillard : p. 131. (١٤٢)

Diehl : p. 469. — Rouillard : p. 132. (١٤٣)

Rouillard : p. 132. (١٤٤)

Johnson : *Ec. St.*, p. 327. (١٤٥)

Rouillard : p. 133. — Diehl : p. 469. (١٤٦)

Rouillard : p. 133. (١٤٧)

Rouillard : p. 134. (١٤٨)

Ibid : p. 134. (١٤٩)

Johnson : *Ec. St.*, p. 286. (١٥٠)

Ibid : p. 287. — Rouillard : p. 135. (١٥١)

Rouillard : p. 136. (١٥٢)

Ibid : p. 136. — Diehl : p. 469. (١٥٣)

Diehl : p. 469. (١٥٤)

Rouillard : p. 137. (١٥٥)

Johnson : *Ec. St.*, p. 252-253. (١٥٦)
Rouillard : p. 137.

Johnson : *Ec. St.*, p. 327. (١٥٧)
Rouillard : p. 138.

Rouillard : p. 139. (١٥٨)

Ibid : p. 139. (١٥٩)

Diehl : p. 469. (١٦٠)

Diehl : p. 469. (١٦١)

Rouillard : p. 139. (١٦٢)

Ibid : p. 140. (١٦٣)

Rouillard : p. 140. (١٦٤)

Johnson : *Economic Studies*, pp. 156-158. (١٦٥)

Rouillard : p. 141. (١٦٦)

Rouillard : p. 141. — Diehl : p. 470. (١٦٧)
Johnson : *Ec. St.*, p. 156.

Rouillard : p. 141. (١٦٨)

Rouillard : p. 141. — Diehl : p. 470. (١٦٩)
Johnson : p. 156.

Rouillard : p. 142. (١٧٠)

Johnson : p. 156. (١٧١)

Rouillard : p. 142. — Johnson : p. 160. (١٧٢)

Ibid : p. 142. (١٧٣)

Johnson : *Ec. St.*, p. 160. (١٧٤)

Rouillard : p. 143. (١٧٥)

Rouillard : p. 143. (١٧٦)

Procopins : *Buildings,* V. I, pp. 7-16. (١٧٧)

Johnson : *Ec. St.,* p. 156. (١٧٨)

Ibid : p. 156. — Rouillard : p. 143. (١٧٩)

Johnson : p. 157. — Rouillard : p. 143. (١٨٠)

Rouillard : p. 144. (١٨١)

Johnson : *Ec. St.,* p. 160. (١٨٢)

Diehl : p. 470. (١٨٣)

Rouillard : p. 145. (١٨٤)

Ibid : p. 145. (١٨٥)

Rouillard : p. 146. (١٨٦)

Diehl : p. 470. (١٨٧)

Rouillard : p. 147. (١٨٨)

Rouillard : p. 147. — Johnson : *Ec. St.,* pp. 241-245. (١٨٩)

Diehl : p. 470. (١٩٠)

الفصل التاسع

التنظيمات القضائية منذ زمن جستنيان

(١) Rouillard : p. 149, Diehl : p. 471.

(٢) *Ibid :* p. 149.

(٣) Rouillard : p. 150.

(٤) *Ibid :* p. 150.

(٥) *Ibid :* p. 150.

(٦) *Ibid :* p. 150.

(٧) Rouillard : p. 150.

(٨) *Vie et récits de L'Abbé Daniel* (Revue de L'Orient Chrétien, V, p. 389.)

Rouillard : p. 150.

(٩) Diehl : p. 471.

(١٠) Rouillard : p. 151.

(١١) Rouillard : p. 151.

(١٢) *Ibid :* p. 151.

(١٣) *Ibid :* p. 151.

(١٤) Diehl : p. 471.

(١٥) Rouillard : p. 152. — Diehl : p. 471.

(١٦) Rouillard : p. 153.

(١٧) Diehl : p. 471.

(١٨) Rouillard : p. 154.

(١٩) Rouillard : p. 154.

(٢٠) *Ibid :* p. 154.

(٢١) *Ibid :* p. 154.

(٢٢) *Ibid :* p. 155.

(٢٣) Rouillard : p. 155, notes 3, 4, 5.

(٢٤) Rouillard : p. 156.

(٢٥) *Ibid :* p. 156.

Rouillard : p. 156. (٢٦)

Ibid : p. 156. (٢٧)

Ibid : p. 156. (٢٨)

Ibid : p. 156. (٢٩)

Ibid : p. 156. (٣٠)

Ibid : p. 156. (٣١)

Diehl : p. 471. (٣٢)

Diehl : p. 471. (٣٣)

Rouillard : p. 158. (٣٤)

Ibid : p. 159. (٣٥)

Ibid : p. 159. (٣٦)

Rouillard : p. 159. (٣٧)

Ibid : p. 160. — Diehl : p. 472. (٣٨)

Ibid : p. 160. (٣٩)

Rouillard : p. 160. (٤٠)

Ibid : p. 160. (٤١)

Rouillard : p. 160. (٤٢)

Ibid : p. 160. (٤٣)

Ibid : p. 161. (٤٤)

Diehl : p. 472. (٤٥)

Rouillard : p. 161. (٤٦)

Diehl : p. 472. (٤٧)

Rouillard : p. 161. (٤٨)

Ibid : p. 162. (٤٩)

Ibid : p. 162. (٥٠)

Rouillard : p. 162. (٥١)

Ibid : p. 162. (٥٢)

Rouillard : p. 162. (٥٣)

Ibid : p. 163. (٥٤)

Ibid : p. 163. (٥٥)

Ibid : p. 163. (٥٦)

Rouillard : p. 163. (٥٧)

Ibid : p. 163. (٥٨)

Diehl : p. 472. — Rouillard : p. 109, 164. (٥٩)

Rouillard : p. 163. (٦٠)

Ibid : p. 164. (٦١)

Rouillard : p. 165. (٦٢)

Ibid : p. 165. (٦٣)

Ibid : p. 165. (٦٤)

Rouillard : p. 165. (٦٥)

Ibid : p. 165. (٦٦)

Ibid : p. 166. (٦٧)

Rouillard : p. 166. (٦٨)

Ibid : p. 166. (٦٩)

Ibid : p. 167. (٧٠)

Rouillard : p. 167. (٧١)

Ibid : p. 167. (٧٢)

Ibid : p. 169. (٧٣)

Rouillard : p. 169. (٧٤)

Ibid : p. 170. (٧٥)

Ibid : p. 170. (٧٦)

Rouillard : p. 170. (٧٧)

Rouillard : p. 171. (٧٨)

الفصل العاشر

التنظيمات الحربية منذ زمن جستنيان

(١) Johnson : *Ec. St.*, p. 214.

(٢) Johnson : *Ec. St.*, p. 216.

(٣) Diehl : p. 473.

(٤) Maspero : *Organisation Militaire de l'Egypte Byzantine*, p. 9.

(٥) Maspero : p. 11.

(٦) Maspero : p. 12.

(٧) Diehl : p. 473. — Maspero : p. 13.

(٨) Maspero : p. 16.

(٩) *Ibid* : p. 16.

(١٠) *Ibid* : p. 16.

(١١) Maspero : p. 23.

(١٢) *Ibid* : p. 23. — Diehl : p. 474.

(١٣) Maspero : p. 24.

(١٤) *Ibid* : p. 25.

(١٥) *Maspero* : p. 26.

(١٦) *Ibid* : p. 27.

(١٧) Diehl : p. 475.

(١٨) Diehl : p. 475.

(١٩) Maspero : p. 37.

(٢٠) Maspero : p. 40.

(٢١) Maspero : p. 41.

(٢٢) Maspero : p. 44.

(٢٣) Maspero : p. 46.

(٢٤) Maspero : p. 49.

(٢٥) Maspero : p. 56.

(٢٦) *Ibid* : p. 51.

(٢٧) Maspero : p. 56.

http://www.al-maktabeh.com

Ibid : p. 51. (٢٨)

Diehl : p. 476. (٢٩)

Diehl : p. 476. — Maspero : p. 72. (٣٠)

Maspero : p. 78. (٣١)

Maspero : p. 79. (٣٢)

Ibid : p. 79. (٣٣)

Maspero : p. 94. (٣٤)

Maspero : p. 95. — Diehl : p. 477. (٣٥)

Maspero : p. 103. (٣٦)

Maspero : p. 103. (٣٧)

Ibid : p. 104. (٣٨)

Ibid : p. 108. (٣٩)

Maspero : p. 109. (٤٠)

Maspero : p. 109. (٤١)

Maspero : p. 109. — Johnson : *Ec. St.*, p. 216, 225. (٤٢)

Johnson : pp. 220-224. (٤٣)

Maspero : p. 115. (٤٤)

Ibid : p. 119. (٤٥)

Diehl : p. 477. (٤٦)

Ibid : p. 477. (٤٧)

Ibid : p. 477. (٤٨)

Ibid : p. 477. (٤٩)

Ibid : p. 477. (٥٠)

Maspero : p. 121. (٥١)

Maspero : p. 121. (٥٢)

Ibid : p. 121. (٥٣)

Ibid : p. 121. (٥٤)

Maspero : p. 129. (٥٥)

Maspero : p. 123. (٥٦)

Ibid : p. 126. — Diehl : p. 477, 535. (٥٧)

Ibid : p. 128. (٥٨)

Maspero : p. 128. (٥٩)

Maspero : p. 129. (٦٠)

Ibid : p. 129. (٦١)

Maspero : p. 130. (٦٢)

Maspero : p. 131. (٦٣)

Ibid : p. 134. (٦٤)

الفصل الحادى عشر

الحياة الاجتماعية

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 479. (١)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 479. (٢)

Diehl : p. 480. (٣)

Diehl : *Manuel d'Art Byzantin*, p. 60. (٤)

Diehl : *Manuel*, p. 61. (٥)

Diehl : *Manuel*, p. 61. (٦)

Matter : *Histoire de l'Ecole d'Alexandrie*, T. 1, p. 321.

Matter : T. 1, p. 322. (٧)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 480. (٨)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 480. (٩)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 480. (١٠)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 481. (١١)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 481. (١٢)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 482 (١٣)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 482. (١٤)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 482. (١٥)

Ibid : p. 482. (١٦)

Ibid : p. 483. (١٧)

Ibid : p. 483. (١٨)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 483. (١٩)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 483. (٢٠)

Ibid : p. 483. (٢١)

Ibid : p. 483. (٢٢)

Ibid : p. 483. (٢٣)

Ibid : p. 483. (٢٤)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 483. (٢٥)

Johnson : *Economic Studies :* p. 298.

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 483. (٢٦)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 483. (٢٧)

Johnson : *Economic Studies*, p. 100.

Johnson : *Economic Studies*, pp. 99, 106-107, 153-154. (٢٨)

Johnson : *Economic Studies*, pp. 130-131. (٢٩)

Ibid : p. 110. (٣٠)

Ibid : p. 113. (٣١)

Ibid : p. 113. (٣٢)

Ibid : p. 113. (٣٣)

Johnson : *Economic Studies*, p. 116. (٣٤)

Ibid : p. 119. (٣٥)

Johnson : *Economic Studies*, p. 119. (٣٦)

Ibid : p. 119. (٣٧)

Ibid : p. 119. (٣٨)

Ibid : p. 123. (٣٩)

Johnson : *Economic Studies*, pp. 124-125. (٤٠)

انظر كتاب : الحسبة في بيزنطه

Johnson : *Economic Studies*, p. 125. (٤١)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 486.

Johnson : *Economic Studies*, p. 154. (٤٢)

Ibid : p. 126. (٤٣)

Ibid : pp. 151-152. (٤٤)

Ibid : p.154. (٤٥)

Johnson : *Economic Studies*, p. 154. (٤٦)

Ibid : p. 155. (٤٧)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 486. (٤٨)

Ibid : p. 486. (٤٩)

Johnson : *Economic Studies*, p. 137. (٥٠)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 486. (٥١)

Diehl : *Op. cit.*, p. 486. (٥٢)

Johnson : *Ec. St.*, p. 137.

Johnson : *Ec. St.*, pp. 138-145. (٥٣)

Diehl : *op. cit.*, p. 487.

Johnson : *Ec. St.*, p. 137. (٥٤)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 487. (٥٥)

Ibid : p. 487. (٥٦)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 488. (٥٧)

Diehl : *op. cit.*, p. 488. (٥٨)

Johnson : *Ec. St.*, p. 138.

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 488. (٥٩)

Johnson : *Economic Studies*, pp. 144-146.

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 488. (٦٠)

Ibid : p. 488. (٦١)

Ibid : p. 488. (٦٢)

Ibid : p. 489. (٦٣)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 489. (٦٤)

Ibid : p. 489. (٦٥)

Ibid : p. 490. (٦٦)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 490. (٦٧)

Diehl : *op. cit.*, p. 490. (٦٨)

Matter : *Histoire de l'Ecole d'Alexandrie*, T. I, p. 344. (٦٩)

Matter : *op. cit.* I, p. 344. (٧٠)

Simon : *Histoire de l'Ecole d'Alexandrie*, T. I, pp. 150-151. (٧١)

Simon : *op.cit.*, T. I, p. 151. (٧٢)

Matter : *op. cit.* I, p. 314. (٧٣)

Simon : *op. cit.*, I, p. 153.

Matter : *op. cit.* I, p. 315. (٧٤)

Matter : *op. cit.* I, p. 315. (٧٥)

Ibid : I, p. 315. (٧٦)

Ibid : I, p. 316. (٧٧)

Matter : *op. cit.* I, p. 316. (٧٨)

Ibid : I, p. 316. (٧٩)

Matter : *op. cit.* I, p. 317. (٨٠)

http://www.al-maktabeh.com

Matter : *op. cit.* I, p. 318. (٨١)

Matter : *op. cit.* I, p. 318. (٨٢)

Matter : *op. cit.* I, p. 318. (٨٣)

Matter : *op. cit.* I, p. 331. (٨٤)

Matter : *op. cit.* I, p. 322. (٨٥)

Matter : *op. cit.* I, p. 322, 414 Note 1. (٨٦)

Parson, E. A. : *The Alexandrian Library*, pp. 367-368.

Parson : *op. cit.*, p. 369. (٨٧)

Matter : *op. cit.* I, p. 332. (٨٨)

Parson : *op. cit.*, p. 356. (٨٩)

Matter : *op. cit.* I, p. 332.

Matter : *op. cit.* I, p. 333. (٩٠)

Diehl : *Justinien et la Civilisation Byzantine au VI siècle*, pp. 562-564. (٩١)

Simon : *Histoire de l'Ecole d'Alexandrie*, II, pp. 604-606 .

Matter : *op. cit.* I, p. 333.

Matter : *op. cit.*, p. 113. (٩٢)

Diehl : *op. cit.*, p. 491.

O' Leary : p. 33.

O' Leary : *op. cit.*, pp. 80-81. (٩٣)

Diehl : *op. cit.*, p. 491.

Diehl : *op. cit.*, p. 491. (٩٤)

O' Leary : *How the Greek Science passed to the Arabs*, p. 92. (٩٥)

Diehl : *op. cit.*, p. 492. (٩٩)

Diehl : *op. cit.*, p. 492. (١٠٠)

Diehl : *op. cit.*, p. 492. (١٠١)

Hardy : *Christian Egypt*, p. 162.

Nonnos : *Dionysiace*, ed. H. J. Rose, Loeb. 1950, Vol. I, p. VII.

بل (آيدرس) : مصر ، من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي ، ترجمة الدكتورين عبد اللطيف أحمد علي ومحمد عواد حسين ـ القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٢٥٠ حاشية ٣ .

Diehl : *op. cit.*, p. 494. (١٠٢)

Diehl : *op. cit.*, p. 494. (١٠٣)

Diehl : *Manuel d'Art Byzantin*, I, p. 67. (١٠٤)

Diehl : *Manuel d'Art Byzantin*, I, p. 66. (١٠٥)

Ibid, I, p. 67. (١٠٦)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 494. (١٠٧)
Diehl : *Manuel d'Art Byzantin*, I, p. 67.

Diehl : *Manuel d'Art Byzantin*, I, p. 67. (١٠٨)
Rice, Talbot : *Byzantine Art*, p. 107.

Diehl : *op. cit.*, 1, p. 69. (١٠٩)
Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 494.

Ibid : p. 495. (١١٠)

Ibid : p. 495. (١١١)

Diehl : *Manuel d'Art Byzantin*, p. 71. (١١٢)
Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 495.

Diehl : *Manuel d'Art Byzantin*, I, p. 71. (١١٣)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 494. (١١٤)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 494. (١١٥)
Diehl : *Manuel d'Art Byzantin*, I, p. 73.

Diehl : *Manuel d'Art Byzantin*, I, p. 75. (١١٦)
Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 494.

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 494. (١١٧)

Ibid, p. 495. (١١٨)
Diehl : *Manuel d'Art Byzantin*, I, p. 75.

Diehl : *Manuel d'Art Byzantin*, I, p. 76. (١١٩)

Ibid : p. 67. (١٢٠)

Ibid : p. 67. (١٢١)

Ibid : pp. 76-77. (١٢٢)

Ibid : p. 77. (١٢٣)

Ibid : p. 77. (١٢٤)

Diehl : *Manuel d'Art Byzantin*, I, p. 77. (١٢٥)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 496. (١٢٦)

Ibid : p. 496. (١٢٧)

Diehl : *Manuel d'Art Byzantin*, p. 81. (١٢٨)

Ibid : p. 81. (١٢٩)
Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 496.
Diehl : *Manuel d'Art Byzantin*, p. 81. (١٣٠)
Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 496.
Ibid : p. 496. (١٣١)
Diehl : *Manuel d'Art Byzantin*, p. 81.
Ibid, p. 81. (١٣٢)
Ibid, p. 81. (١٣٣)
Ibid, p. 82. (١٣٤)
Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 496. (١٣٥)
Diehl : *Manuel d'Art Byzantin*, p. 82. (١٣٦)
Ibid, p. 84. (١٣٧)
Ibid, p. 84. (١٣٨)
Ibid : p. 85. (١٣٩)
Ibid : p. 86. (١٤٠)
Diehl : *Manuel d'Art Byzantin*, p. 86. (١٤١)
Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 497. (١٤٢)
Diehl : *Manuel d'Art Byzantin*, p. 86.
Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 497. (١٤٣)
Ibid : p. 497. (١٤٤)
Ibid : p. 497. (١٤٥)
Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 498. (١٤٦)
Ibid : p. 498. (١٤٧)
Ibid : p. 498. (١٤٨)
Ibid : p. 498. (١٤٩)
Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 498. (١٥٠)
Ibid : p. 498. (١٥١)
Ibid : p. 498. (١٥٢)
Ibid : p. 499. (١٥٣)
Ibid : p. 499. (١٥٤)
Ibid : p. 499. (١٥٥)
Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 499. (١٥٦)

Ibid : p. 499. (١٥٧)

Ibid : p. 500. (١٥٨)

Ibid : p. 500. (١٥٩)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 500. (١٦٠)

Ibid : p. 500. (١٦١)

Ibid : p. 501. (١٦٢)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 501. (١٦٣)

Ibid : p. 501. (١٦٤)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 502. (١٦٥)

Ibid : p. 502. (١٦٦)

Ibid : p. 503. (١٦٧)

Ibid : p. 503. (١٦٨)

Ibid : p. 503. (١٦٩)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 503. (١٧٠)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 504. (١٧١)

Ibid : p. 505. (١٧٢)

Ibid : p. 505. (١٧٣)

Ibid : p. 505. (١٧٤)

Ibid : p. 505. (١٧٥)

Ibid : p. 506. (١٧٦)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 506. (١٧٧)

Ibid : pp. 506-507. (١٧٨)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 507. (١٧٩)

Ibid : p. 507. (١٨٠)

Ibid : p. 507. (١٨١)

Ibid : p. 507. (١٨٢)

Ibid : p. 507. (١٨٣)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 508. (١٨٤)

Butler : *Arab Conquest of Egypt*, p. 177, note 2. (١٨٥)

Ibid : p. 508.

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 509. (١٨٦)

Ibid : p. 509. (١٨٧)

Ibid : p. 509. (١٨٨)

Diehl : *Manuel d'Art Byzantin,* I, p. 63.

Diehl : *L'Egypte Chrétienne,* p. 510. (١٨٩)

بتلر : فتح العرب لمصر — ترجمة محمد فريد أبو حديد ، ص ١٥٧ ، حاشية ٢ — مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٣ .

Butler (A.) : *The Arab Conquest of Egypt.* Oxford 1902, p. 177, note 2.

Quatremere : *Mémoires Géographiques et Historiques sur l'Egypte,* Paris, 1811, T. I, p. 488.

Diehl : *L'Egypte Chrétienne,* p. 510. (١٩٠)

Ibid : p. 510. (١٩١)

Ibid : p. 510. (١٩٢)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne,* p. 511. (١٩٣)

Ibid : p. 511. (١٩٤)

Diehl : *Manuel d'Art Byzantin,* I, p. 63.

Diehl : *L'Egypte Chrétienne,* p. 511. (١٩٥)

Ibid : p. 511. (١٩٦)

Ibid : p. 511. (١٩٧)

Ibid : pp. 511-512. (١٩٨)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne,* p. 512. (١٩٩)

Ibid : p. 512. (٢٠٠)

Diehl : *L'Egypte Chrétienne,* p. 512. (٢٠١)

Ibid : p. 512. (٢٠٢)

Cledat : *Le Monastère et la Nécropole de Baouit,* 3 Vol., Le Caire 1904-1916.

Chassinat : *Fouilles à Baouit,* T. I, Le Caire 1911.

Jean Maspero : *Rapport sur les fouilles de Baouit* (C.R. Acad. Inscri., 1913).

Diehl : *L'Egypte Chrétienne,* p. 513. (٢٠٣)

Ibid : p. 513. (٢٠٤)

Ibid : p. 514. (٢٠٥)

Ibid : p. 514. (٢٠٦)

Ibid : p. 514. (٢٠٧)

(٢٠٨) Diehl : *Manuel d'Art Byzantin*, I, p. 67.

Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 515.

(٢٠٩) Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 515.

(٢١٠) *Ibid* : p. 516.

(٢١١) *Ibid* : p. 517.

(٢١٢) *Ibid* : p. 517.

(٢١٣) بل : مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ص ٢٥١ — ٢٥٢ .

Hardy : *Christian Egypt*, pp. 169 — 172.

(٢١٤) Dawes, E. : *Three Byzantine Saints*, p. IX-XIV.

(٢١٥) Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 517.

(٢١٦) *Ibid* : p. 518.

(٢١٧) Diehl : *L'Egypte Chrétienne*, p. 518.

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الثانى عشر

تداعى الحضارة البيزنطية بمصر وانهيارها

(١) Rouillard : pp. 175-176.

(٢) Rouillard : p. 176.

(٣) *Ibid :* p. 177.

(٤) *Ibid :* p. 177.

(٥) Rouillard : p. 177.

(٦) *Ibid :* p. 177.

(٧) *Ibid :* p. 177.

(٨) Rouillard : pp. 177-178.

(٩) *Ibid :* p. 178.

(١٠) *Ibid :* p. 179.

(١١) Rouillard : p. 178.

(١٢) *Ibid :* p. 179.

(١٣) *Ibid :* p. 179.

(١٤) Rouillard : p. 179.

(١٥) Rouillard : p. 180.

(١٦) *Ibid :* p. 180.

(١٧) *Ibid :* p. 180.

(١٨) Rouillard : p. 180.

(١٩) *Ibid :* p. 181.

(٢٠) *Ibid :* p. 181.

(٢١) *Ibid :* p. 181.

(٢٢) Rouillard : p. 181.

(٢٣) Rouillard : p. 182.

(٢٤) *Ibid :* p. 182.

(٢٥) *Ibid :* p. 182.

(٢٦) Rouillard : p. 183.

(٢٧) *Ibid :* p. 183.

(٢٨) *Ibid :* p. 183.

(٢٩) Rouillard : p. 184.

(٣٠) *Ibid :* p. 184.

(٣١) بلغ عدد سكان الإسكندرية فى العصر البيزنطى نحو ٦٠٠ ألف نسمة .
انظر Rouillard : p. 184. — Diehl : p. 482.

(٣٢) Rouillard : p. 185.

(٣٣) *Ibid :* p. 185.

(٣٤) Rouillard : p. 185.

(٣٥) من هذه اللخصات ، ملخص قام على دراسته شوبارت — انظر :
W. Schubart : *Ein lateinisch-gnechisch-Koptisches Gesprachbuch* (Klio XIII, 1913, pp. 27-28).

(٣٦) Rouillard : p. 186. — Diehl : p. 518.

(٣٧) Rouillard : p. 186.
Maspero, J. : *Histoire des Patriarches d'Alexandrie*, p. 32.

(٣٨) Maspero : *op. cit.*, p. 23.
Rouillard : p. 187.

(٣٩) Maspero : *op. cit.*, p. 24.

(٤٠) *Ibid :* p. 25. — Rouillard : p. 187.

(٤١) Rouillard : p. 188.

(٤٢) Maspero : *op. cit.*, p. 25.

(٤٣) Rouillard : p. 188.

(٤٤) Mallon, A : *Une école des savants égyptiens* (Mélanges de la Faculté Orientale de Beyrouth I, 1906, p. 110).

(٤٥) Rouillard : p. 189.

(٤٦) *Ibid :* p. 189.

(٤٧) *Ibid :* p. 189.

(٤٨) Rouillard : p. 189.

(٤٩) *Ibid :* p. 189.

(٥٠) Rouillard : p. 190.

(٥١) *Ibid :* p. 190.

(٥٢) *Ibid :* p. 190.

(٥٣) *Ibid :* p. 190.

(٥٤) Rouillard : p. 190.

(٥٥) Jean de Nikiou, *CXI*, 21.

Rouillard : p. 191. (٥٦)

Rouillard : p. 191. (٥٧)

Maspero : p. 130. (٥٨)

Diehl : p. 534.

Rouillard : p. 192. (٥٩)

Diehl : p. 535. (٦٠)

Rouillard : p. 192. — Diehl : p. 535. (٦١)

Jean de Nikiou CVIII. (٦٢)

Diehl : p. 535. — Rouillard : p. 193. (٦٣)

Rouillard : p. 193. — Diehl : p. 536. (٦٤)

Diehl : p. 482. (٦٥)

Rouillard : p. 194. — Diehl : p. 483. (٦٦)

Ibid : p. 194. (٦٧)

Jean de Nikiou CVII. — Diehl : p. 536. (٦٨)

Rouillard : p. 195. (٦٩)

Ibid : p. 195. (٧٠)

Butler : *The Arab Conquest of Egypt*, pp. 103, 112. (٧١)

Rouillard : p. 198. (٧٢)

Ibid : p. 198. (٧٣)

Rouillard : p. 198. (٧٤)

Jean de Nikiou XCVII, CVII. (٧٥)

Rouillard : p. 199.

Rouillard : p. 199. (٧٦)

Ibid : p. 199. (٧٧)

Rouillard : p. 199. (٧٨)

Ibid : p. 199. (٧٩)

Rouillard : p. 200. (٨٠)

Ibid : p. 201. (٨١)

Rouillard : p. 202. — Diehl : p. 520. (٨٢)

Ibid : p. 202. (٨٣)

Rouillard : p. 203. (٨٤)

Ibid : p. 203. (٨٥)

Rouillard : p. 204. (٨٦)

Ibid : p. 204. (٨٧)

Diehl : p. 520. — Rouillard : p. 204. (٨٨)

Diehl : p. 520. (٨٩)

Diehl : p. 520. (٩٠)

Diehl : p. 522. (٩١)

Ibid : p. 523. (٩٢)

Amelineau, E. : *Vie de Samuel* (Mem. Arch. franç. au Caire IV. 2, p. 774). (٩٣)

Rouillard : p. 207. (٩٤)

Ibid : p. 207. (٩٥)

Jean de Nikiou, XCVII (٩٦)

Rouillard : p. 208. (٩٧)

Diehl : p. 524. (٩٨)

Rouillard : p. 209. (٩٩)

Rouillard : p. 209, note 3. (١٠٠)

Rouillard : p. 209. (١٠١)

Ibid : p. 210. (١٠٢)

Ibid : p. 210. (١٠٣)

Rouillard : p. 211. — Diehl : p. 521. (١٠٤)

Diehl : p. 521. — Rouillard : p. 211. (١٠٥)

Rouillard : p. 210. (١٠٦)

Diehl : p. 520. (١٠٧)

Rouillard : p. 212. (١٠٨)

Ibid : p. 212. (١٠٩)

Ibid : p. 212. (١١٠)

Rouillard : p. 213. (١١١)

Ibid : p. 213. — Diehl : p. 521. (١١٢)

Rouillard : p. 214. — Diehl : p. 522. (١١٣)

Rouillard : p. 214. (١١٤)

Ibid : p. 215. (١١٥)

Rouillard : p. 215. (١١٦)

http://www.al-maktabeh.com

Maspero : *Les papyrus Beaugé* (Bul. de L'Inst. franç. d'arch. or. VII, p. 145).

Diehl : p. 522. — Rouillard : p. 216. (١١٧)

Rouillard : p. 216. (١١٨)

Ibid : p. 216. (١١٩)

Rouillard : p. 216. — Diehl : p. 521. (١٢٠)

Rouillard : p. 216. — Diehl : p. 521. (١٢١)

Rouillard : p. 216. — Diehl : p. 522. (١٢٢)

Ibid : p. 217. (١٢٣)

Ibid : p. 217. (١٢٤)

Ibid : p. 217. (١٢٥)

Rouillard : p. 217. (١٢٦)

Diehl : p. 522. — Rouillard : p. 218. (١٢٧)

Rouillard : p. 218. — Diehl : p. 522 (١٢٨)

Johnson : *Ec. St.*, p. 297

Rouillard : p. 218. (١٢٩)

Ibid : p. 219. (١٣٠)

Ibid : p. 219. (١٣١)

Rouillard : p. 219. (١٣٢)

Ibid : p. 219. (١٣٣)

Rouillard : p. 220. (١٣٤)

Ibid : p. 220. (١٣٥)

Ibid : p. 220. (١٣٦)

Rouillard : p. 221. (١٣٧)

Ibid : p. 223. (١٣٨)

Johnson : *Ec. St.*, p. 289. (١٣٩)

Rouillard : p. 224. (١٤٠)

Ibid : p. 224. (١٤١)

Ibid : p. 224. (١٤٢)

Ibid : p. 224. (١٤٣)

Procope : *Histoire Secrète* XXXIII, 2. (١٤٤)

Rouillard : pp. 104, 105, 119, 224. (١٤٥)

Ibid : pp. 90, 224. (١٤٦)

Ibid : p. 225. (١٤٧)

Rouillard : p. 225. — Diehl : p. 522. (١٤٨)

Ibid : p. 225. (١٤٩)

Rouillard : p. 226. (١٥٠)

Rouillard : p. 226. (١٥١)

Ibid : p. 227. — Diehl : p. 534. (١٥٢)

Rouillard : p. 227. (١٥٣)

Jean de Nikiou XCVII. (١٥٤)

Rouillard : p. 228. (١٥٥)

Rouillard : p. 228. (١٥٦)

Jean de Nikiou, XCVII. (١٥٧)

Jean de Nikiou CIX (١٥٨)

Ibid : XCV, XCVII. (١٥٩)

Rouillard : p. 229. (١٦٠)

Maspero : *Histoire des Patriarches d'Alexandrie,* pp. 62-63. (١٦١)

Rouillard : p. 231. (١٦٢)

Rouillard : p. 231. (١٦٣)

Ibid : p. 231. — Diehl : p. 525. (١٦٤)

Rouillard : p. 231, note 6. (١٦٥)

Rouillard : p. 232. — Diehl : p. 532. (١٦٦)

Rouillard : p. 232. (١٦٧)

Ibid : p. 232. (١٦٨)

Diehl : p. 525. (١٦٩)

Maspero : *Histoire des Patriarches d'Alexandrie,* p. 144.

Ibid : p. 144. (١٧٠)

Ibid : p. 145. (١٧١)

Diehl : p. 526. (١٧٢)

Hardy : *Christian Egypt,* p. 154. (١٧٣)

Diehl : p. 526. (١٧٤)

Duchesne : *Histoire de l'Eglise au VIe siècle,* p. 341. (١٧٥)

Maspero : *Histoire des Patriarches,* p. 163. (١٧٦)

Diehl : p. 526. (١٧٧)

Rouillard : p. 233. (١٧٨)

Diehl : p. 527. (١٧٩)

Ibid : p. 527. — Rouillard : p. 234. (١٨٠)

Rouillard : p. 234. (١٨١)

Maspero : *Histoire des Patriarches*, p. 168.

Jean de Nikiou XCIV. (١٨٢)

Diehl : p. 527.

Diehl : p. 527. (١٨٣)

Ibid : p. 527. (١٨٤)

Hardy : *Christian Egypt*, p. 152-153. (١٨٥)

Diehl : p. 528. (١٨٦)

Galanites — Agnoethes — Aphthartodocetes — Corrupticoles. منها : (١٨٧)

Diehl : p. 528. انظر :

Hardy : *Christian Egypt*, pp. 145-146.

Diehl : p. 528. (١٨٨)

Diehl : p. 529. (١٨٩)

Hardy : *Christian Egypt*, p. 155.

Diehl : p. 530. (١٩٠)

Maspero : *Histoire des Patriarches*, p. 275.

Diehl : p. 530. (١٩١)

Rouillard : p. 234. (١٩٢)

Diehl : pp. 530, 539. (١٩٣)

Rouillard : p. 234.

Hardy : *op. cit.*, p. 157.

Hardy : p. 184. (١٩٤)

Rouillard : p. 235. (١٩٥)

Hardy : p. 184. (١٩٦)

Ibid : p. 185. (١٩٧)

Hardy : p. 185. (١٩٨)

Rouillard : p. 235. (١٩٩)

(٢٠٠) Hardy : p. 185.

(٢٠١) Hardy : p. 185.

(٢٠٢) *Ibid :* p. 185.

(٢٠٣) Rouillard : p. 236.

(٢٠٤) Hardy : p. 186.

(٢٠٥) *Ibid :* p. 186.

(٢٠٦) Rouillard : p. 236.

(٢٠٧) Butler : p. 184, note 2.

(٢٠٨) Rouillard : p. 237.
Amelineau : *Vie de Samuel de Kalamôûn* (Mem. Miss. arch. franç. du Caire IV, 2, p. 774.)

(٢٠٩) Butler : p. 190.

(٢١٠) Jean de Nikiou, CXIX.

(٢١١) *Ibid :* CXVII.

(٢١٢) Rouillard : p. 238.

(٢١٣) Maspero : *Histoire des Patriarches,* p. 182.

(٢١٤) Rouillard : p. 238.

(٢١٥) Rouillard : p. 239.

(٢١٦) Hardy : *Christian Egypt,* p. 178.

(٢١٧) *Ibid :* p. 179.

(٢١٨) *Ibid :* p. 179.

(٢١٩) *Ibid :* p. 179.

(٢٢٠) Evetts : *History of the Patriarchs,* p. 475.
John of Nikiou CIV, CX, CII, CIII.

(٢٢١) Camb. Medieval History II, p. 286-287.

(٢٢٢) *Ibid :* p. 287.

(٢٢٣) *Ibid :* p. 287.

(٢٢٤) Diehl : *op. cit.,* p. 535.
Butler : *The Arab Conquest of Egypt,* p. 13.

(٢٢٥) Diehl : *op. cit.,* p. 535.
Hardy : *op. cit.,* p. 179.
Butler : *op. cit.,* p. 14.

Diehl : *op. cit.*, p. 535. (٢٢٦)

Hardy : *op. cit.*, p 179.

Camb. Med. Hist. II, p. 287.

Diehl : *op. cit.*, p. 535. (٢٢٧)

Butler : *op. cit.*, p. 15.

Ibid : p. 535. (٢٢٨)

Hardy : *op. cit.*, p. 180.

Camb. *Med. Hist.*, II, p. 287.

Butler : *op. cit.*, p. 15.

Diehl : *op. cit.*, p. 536. (٢٢٩)

Butler : *op. cit.*, p. 15.

Diehl : *op. cit.*, p. 536. (٢٣٠)

Hardy : *op. cit.*, p. 179.

Camb. Med. Hist. II, p. 287. (٢٣١)

Diehl : *op. cit.*, p. 536. — Butler : *op. cit.*, p. 16.

Camb. Med. Hist. II, 287. (٢٣٢)

Butler : *op. cit.*, p. 18.

Hardy : *op. cit.*, p. 180. (٢٣٣)

Butler : *op. cit.*, p. 19.

Butler : *op. cit.*, p. 19. (٢٣٤)

Butler : *op. cit.*, p. 19-20. (٢٣٥)

Diehl : *op. cit.*, p. 537. (٢٣٦)

Hardy : *op. cit.*, p. 180.

Butler : *op. cit.*, p. 22.

Butler : *op. cit.*, p. 25. (٢٣٧)

Butler : *op. cit.*, p. 27. (٢٣٨)

Diehl : *op. cit.*, p. 537.

Diehl : *op. cit.*, p. 538. (٢٣٩)

Butler : *op. cit.*, p. 27.

Ibid : p. 31. (٢٤٠)

Hardy : *op. cit.*, p. 180. (٢٤١)

Butler : *op. cit.*, p. 42. (٢٤٢)

Hardy : *op. cit.*, p. 180-181.

(٢٤٣) Butler : *op. cit.*, p. 42.

بتلر : فتح العرب لمصر (الطبعة الثانية ١٩٤٦) — ترجمة محمد فريد أبو حديد — ص ٣٢ .

(٢٤٤) Butler : *op. cit.*, p. 43.

بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٣٢ .

(٢٤٥) Butler : *op. cit.*, p. 43.

بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٣٣ .

Hardy : *op. cit.*, p. 181.

(٢٤٦) *Ibid :* p. 181.

(٢٤٧) Diehl : *op. cit.*, p. 538.

(٢٤٨) *Ibid :* p. 538.

(٢٤٩) Diehl : *op. cit.*, p. 538.

(٢٥٠) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٣٥ .

(٢٥١) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٣٥ .

(٢٥٢) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٣٦ .

Butler : *op. cit.*, p. 47.

(٢٥٣) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٣٦ .

(٢٥٤) Diehl : *op. cit.*, p. 538.

(٢٥٥) *Ibid :* p. 538.

بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٣٧ .

(٢٥٦) Diehl : *op. cit.*, p. 538.

بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٣٧ .

(٢٥٧) Diehl : *op. cit.*, p. 538.

(٢٥٨) Hardy : *op. cit.*, p. 181.

Butler : *op. cit.*, p. 58.

(٢٥٩) Butler : *op. cit.*, p. 59

بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٥٣ طبعة أولى .

(٢٦٠) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٥٣ .

Hardy : *op. cit.*, p. 181.

http://www.al-maktabeh.com

سبق الإشارة إلى أن اليهود أوقعوا بالمسيحيين فى أنطاكية ، فأرسل إليهم فوقاس ، قائده بونوسوس ، فأنزل بهم الانتقام الشديد . ولاشك أن يهود أنطاكية ساعدوا الفرس فى السنة التى تلت ذلك ، وفى بيت المقدس . (انظر بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٥٤ حاشية ١) .

(٢٦١) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٥٥ .

(٢٦٢) سورة الروم من القرآن الكريم .

(٢٦٣) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٥٦ .

Hardy : *op. cit.*, p. 181.

(٢٦٤) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٦٠ .

Hardy : *op. cit.*, p. 181.

(٢٦٥) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٦١ .

Butler : *op. cit.*, p. 67-68.

Hardy : *op. cit.*, p. 181.

(٢٦٦) Hardy : *op. cit.*, p. 181.

(٢٦٧) Diehl : *op. cit.*, p. 539.

Butler : *op. cit.*, p. 75-76.

(٢٦٨) Hardy : *op. cit.*, p. 181.

Butler : *op. cit.*, p. 78.

(٢٦٩) Hardy : *op. cit.*, p. 181.

Butler : *op. cit.*, p. 79.

Diehl : *op. cit.*, p. 539.

(٢٧٠) Butler : *op. cit.*, p. 80.

Diehl : *op. cit.*, p. 539.

(٢٧١) Diehl : *op. cit.*, p. 539.

(٢٧٢) Butler : *op. cit.*, p. 85.

Amélineau : *Etude sur le Christianisme en Egypte au septième siècle*. Paris 1887, p. 30.

بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٧٦ .

(٢٧٣) Diehl : *op. cit.*, p. 539.

Amélineau : *Monuments pour servir à l'histoire de l'Egypte Chrétienne*, Paris 1888.

Butler : *op. cit.*, p. 88.

(٢٧٤) Diehl : *op. cit.*, p. 540.

Butler : *op. cit.*, p. 81.

(٢٧٥) Butler : *op. cit.*, p. 81.

تولى أندرونيكوس البطريركية المونوفيزتية بعد وفاة انستاسيوس سنة ٦١٦ .

Hardy : *op. cit.*, 182.

(٢٧٦) بتلر : فتح العرب لمصر . ص ٣٩ .

Hardy : *op. cit.*, 182.

Butler : *op. cit.*, p. 52-53.

(٢٧٧) Hardy : *op. cit.*, 182.

(٢٧٨) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٢٦ .

Butler : *op. cit.*, p. 169-170.

Hardy : *op. cit.*, p. 183.

(٢٧٩) Hardy : *op. cit.*, p. 183.

(٢٨٠) Butler : *op. cit.*, p. 171.

(٢٨١) Diehl : *op. cit.*, p. 540.

(٢٨٢) Diehl : *op. cit.*, p. 540.

(٢٨٣) Diehl : *op. cit.*, p. 540.

الفصل الثالث عشر

فتح العرب لمصر

(١) Camb. Med. Hist. II, p. 292.

(٢) *Ibid :* p. 292.

(٣) *Ibid :* p. 292.

(٤) *Ibid :* p. 292.

(٥) Hardy : *op. cit.*, p. 183.

(٦) Hardy : *op. cit.*, p. 183.

Camb. Med. Hist. II, p. 299.

(٧) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١١٧ .

Hardy : *op. cit.*, p. 183.

(٨) Hardy : *op. cit.*, p. 182.

(٩) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٢١ .

Butler : *op. cit.*, p. 135.

(١٠) Butler : *op. cit.*, p. 136.

Hardy : *op. cit.*, p. 184.

(١١) Hardy : *op. cit.*, p. 184.

ماترتب على مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ ، من سخط وكراهية فى مصر والشرق، ظل زمناً طويلا يهدد الإمبراطورية ، وأدى إلى ما قام به زينون من محاولة لإعادة الوحدة الدينية بما اتخذه من صيغة التوفيق Henotikon ، وما قام به جستنيان من محاولة لتهدئة ثائرة المونوفيزتيين بما لجأ إليه من إنكار الفصول الثلاثة Three chapters . غير أن هاتين المحاولتين لم تحرزا نجاحاً ملحوظاً . وما أحرزه الفرس من انتصارات عاجلة ، جذب انتباه هرقل إلى هذه الأمور ، وجعله يحاول تحقيق ما اقترحه سرجيوس ، وهو سورى الأصل ، الذى رأى أن المونوفيزتيين قد يقبلون صيغة « الطبيعتين » إذا اقتنعوا أنها لا تدل على « قوتين أو عملين » . ولذا كتب سرجيوس حوالى سنة ٦١٨ إلى جورج ارساس المصرى ، وهو ينتمى إلى الفئة البوليصية Paulianist ، من المونوفيزتيين ومن اتباع بولس أسقف أنطاكية ، المعزول سنة ٥٧٨ ، يسأله الأسانيد التى تؤيد مذهب الفعل الواحد ، ويعرض الاتحاد على هذا الأساس . وما تلى ذلك من خطوات أوقفها احتلال الفرس لمصر . وفى سنة ٦٢٢ تحدث هرقل أثناء حملته فى أرمينيا ، مع قائد مونوفيزتى اسمه بولس ، ودعاه إلى مذهب الإرادة الواحدة ، غير أنه لم يصب نجاحاً . ثم أصدر قراراً ضد بولس ، أرسله إلى أركاديوس أسقف قبرص ، أبطل فيه عقيدة الفعلين أو الإرادتين . وبينما كان هرقل

فى لازيقا ، سنة ٦٢٦ ، تحدث فى هذه المسألة مع كيرس أسقف فاسيس Phasis ، الذى كان فيما يبدو عالماً بالموضوع ، فكتب إلى سرجيوس يطلب منه مزيداً من التفاصيل . فرد سرجيوس على اعتراضاته ، وبعث إليه بصورة خطاب من مينا أسقف القسطنطينية إلى البابا فيجيليوس ، الذى تضمن الإشارة إلى الإرادة الواحدة ، وعندئذ أظهر كيرس أنه مقتنع . ولما عاد الاتصال بالشرق فى سنة ٦٢٨ ، أرسل سرجيوس كتاب ميناس إلى تيودور ، أسقف فاران Faran بالقرب من سيناء ، الذى قرر قبوله ، وهذه الرسالة ، وكتاب ميناجرى توجيههما إلى بولس المونوفيزتى أسقف أرززروم (أرض الروم) Theodosiopolis .

ولما تم استرداد الشرق ، نشطت فكرة التوفيق بين المذهبين الخلقدونى والمونوفيزتى . ففى سنة ٦٣٠ أو ٦٣١ ، اجتمع الأمبراطور هرقل فى هيرابوليس فى الشام بالبطريرك أثناسيوس ، ووعده بأن يكون بطريركا على أنطاكية (بعد أن ظل كرسيها شاغراً منذ سنة ٦١٠) ، إذا قبل مشاركة الخلقدونيين فى عقيدتهم على أساس الفعل الواحد ، فأبدى استعداده لقبول ذلك . غير أنه لما مات البطريرك سنة ٦٣١ تحطم المشروع ، على الرغم من أن بعض الأديره ، لا سيما دير ماروت فى لبنان ، قبلت الاتحاد . وفى سنة ٦٣١ قدم إلى سوريا ، بناء على دعوة هرقل ، جاثيليق الأرمن ، عزراً ، وجرى حثه على قبول مشاركة الخلقدونيين ، فلما عاد أقر الاتحاد فى مجمع انعقد فى أرززروم Theodosiopolis ، غير أنه لم يعترف رسمياً بمجمع خلقدونية . وفى سنة ٦٣٢ ، عند وفاة البطريرك جورج ، تقرر تعيين كيرس بطريركا فى الإسكندرية ، فبادر إلى المفاوضة مع الحزب المونوفيزتى الأساسى بالمدينة ، وهو حزب التيودوسيين . وتم الاتفاق مع هذه الفئة من المونوفيزتيين (٣ يونيه ٦٣٣) . وتضمن الاتفاق تسع نقط ، بمقتضاه جرى الاعتراف بنظرية الطبيعتين وصفتهما ، وإقرار الفعل الواحد ، ولم يجر الاعتراف بمجمع خلقدونية ، أو إقرار لفئة القادة المونوفيزتيين .

وعندئذ ظهرت المعارضة ، إذ توسل إلى كيرس ، صفرونيوس أحد الرهبان الفلسطينيين الذى كان وقتذاك بالإسكندرية ، بألا يذيع هذه المواد ، فأحاله كيرس إلى سرجيوس . ولما لم يستطع سرجيوس أن يقنع صفرونيوس ، كادت محاولة التوحيد (الاتحاد) تسبب انشقاقاً ، وعندئذ وافق على إجراء اتفاق ينبغى أن يستبعد فيه الإشارة إلى « الفعل الواحد » أو « الفعلين » . وعاد صفرونيوس برسالة فى هذا المعنى ، إلى بيت المقدس ، حيث جرى انتخابه بطريركا لها فى أوائل سنة ٦٣٤ . وفى تلك الأثناء كتب سرجيوس إلى كيرس بشأن التوفيق ، ولما لم يرض كيرلس بنقض ما قام به من عمل ، لم يقبل رأى سرجيوس . وأرسل سرجيوس إلى هرقل برسالة مينا التى تحتوى على ما يؤيد نظرية « الفعل الواحد » و « والإرادة الواحدة » ، غير أنه اقترح أنه لا بد من أن تتوقف المناقشة فى هذا الموضوع . وكتب سرجيوس إلى البابا هونوريوس يقترح ابطال الصيغتين « الفعل الواحد » و « الفعلين » . ووافق البابا على إبطال الصيغتين ، غير أنه أقر نظرية « الإرادة الواحدة » التى يسمى أنصارها بالمونوثلستيين Monotheletes . وكتب بذلك إلى صفرونيوس ، الذى أراد أن يجتذب البابا إلى جانبه ، فأعلن موافقته على كتاب

http://www.al-maktabeh.com

البابا متى وافق كيرلس بطريرك الإسكندرية على ذلك . على أن ما حدث من سقوط بيت المقدس فى يد المسلمين سنة ٦٣٧ ، وما تلى ذلك من وفاة صفرونيوس ، أوقف كل مايتعلق بذلك . وما حدث فى مصر من التخلى عن العقيدة التى قام عليها الاتحاد ، حطمت الاتحاد نفسه ، وما اتخذه كيرس من اجراءات عنيفة لتنفيذ غرضه ، جعل الأمور تزداد سوءاً .

والخطوة التالية التى اتخذها سرجيوس ، تتمثل فى وضع الصيغةالمعروفة باسم Ecthesis ، تضمنت المبادىء الواردة فى الرسالة الموجهة إلى هونوريوس ، والتى اتخذت صورة اعتراف قانونى بالعقيدة . وأقر هرقل هذه الوثيقة ، وجرى إعلانها على أسوار كنيسة القديسة صوفيا (خريف سنة ٦٣٨) . وأرسلت منها صورة إلى كيرلس وإلى سفيرنيوس Severenus الذى صار بابا بعد هونوريوس (أكتوبر سنة ٦٣٨) ، وقرر مجمع القسطنطينية انزال العقاب بكل من يقول بالفعل الواحد أو الفعلين . وكان ذلك آخر عمل قام به سرجيوس الذى مات سنة ٦٣٨ .

انظر : Camb. Med. Hist. II, pp. 398-400.

Hardy : *op. cit.*, p. 185.

(١٢) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٢١ — ١٢٢ انظر الحاشية السابقة

(١٣) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٢٢ .

Butler : *op. cit.*, p. 137.

Diehl : *op. cit.*, p. 542.

(١٤) Diehl : *op. cit.*, p. 542.

(١٥) Diehl : *op. cit.*, p. 542.

بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٢٩ .

(١٦) Butler : *op. cit.*, p. 173.

بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٢٨ .

(١٧) Butler : *op. cit.*, p. 174.

(١٨) Butler : *op. cit.*, p. 175.

(١٩) Butler : *op. cit.*, p. 175.

(٢٠) Butler : *op. cit.*, p. 175.

(٢١) Butler : *op. cit.*, p. 175.

Hardy : *op. cit.*, p. 184.

Diehl : *op. cit.*, p. 542.

(٢٢) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٣١ .

Butler : *op. cit.*, p. 176-177.

Diehl : *op. cit.*, p. 543.

(٢٣) Butler : *op. cit.*, p. 177.

(٢٤) Butler : *op. cit.*, p. 179.

(٢٥) Butler : *op. cit.*, p. 180.

(٢٦) Butler : *op. cit.*, p. 181.

(٢٧) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٣٤ .

(٢٨) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٣٤ .

(٢٩) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٣٥ .

Butler : *op. cit.*, p. 182.

(٣٠) Diehl : *op. cit.*, p. 543.

(٣١) Diehl : *op. cit.*, p. 543.

(٣٢) Butler : *op. cit.*, p. 182.

Diehl : *op. cit.*, p. 543.

(٣٣) Butler : *op. cit.*, p. 183.

(٣٤) Butler : *op. cit.*, p. 183.

(٣٥) Butler : *op. cit.*, p. 183.

Diehl : *op. cit.*, p. 543.

(٣٦) Diehl : *op. cit.*, p. 544.

(٣٧) Diehl : *op. cit.*, p. 544.

Butler : *op. cit.*, p. 184.

(٣٨) Butler : *op. cit.*, pp. 186-188.

Diehl : *op. cit.*, p. 544.

(٣٩) Butler : *op. cit.*, p. 188.

(٤٠) Diehl : *op. cit.*, p. 544.

Butler : *op. cit.*, p. 188.

وفي بتلر أنصنا ، وهي انتينوى ، التي تعتبر عاصمة طيبة ، وتقع تجاه هرموبوليس الكبيرة Hermopolis Magna ، إلى الشمال من ليكوبوليس Lycopolis ، وهي أسيوط؛ فكأن سلطة كيرس لم تتجاوز جنوب أسيوط (Butler : *loc. cit.* note 3) .

(٤١) Hardy : *op. cit.*, p. 186.

(٤٢) Hardy : *op. cit.*, p. 186.

Butler : *op.cit.*, p. 188-189.

(٤٣) Diehl : *op. cit.*, p. 544.

Hardy : *op. cit.*, p. 186.

Butler : *op. cit.*, p. 189.

(٤٤) Butler : *op. cit.*, p. 189.

(٤٥) Butler : *op. cit.*, p. 190.

Diehl : *op. cit.*, p. 544.

(٤٦) Butler : *op. cit.*, p. 190.

Diehl : *op. cit.*, p. 544 — Hardy : *op. cit.*, p. 186.

(٤٧) Diehl : *op. cit.*, p. 544.

Butler : *op. cit.*, p. 190-191.

(٤٨) Butler : *op. cit.*, p. 191-192.

(٤٩) Butler : *op. cit.*, p. 193.

على أن المونوثلتية الامبراطورية ظلت باقية إلى ما بعد الوضع السياسى الذى نشأت من أجله ، حتى تقرر آخر الأمر ، فى المجمع المسكونى السادس ، سنة ٦٨١ ، التخلى عنها انظر : (Hardy : *op. cit.*, p. 186)

(٥٠) Butler : *op. cit.*, p. 195.

ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٥٣ — ٥٦ .

(٥١) Butler : *op. cit.*, p. 195.

Camb. Med. Hist. II, p. 349.

(٥٢) Camb. Med. Hist. II, p. 349.

(٥٣) Butler : *op. cit.*, p. 195.

(٥٤) *Ibid* : p. 195.

Diehl : *op. cit.*, p. 544.

ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٥٦ .

(٥٥) Butler : *op. cit.*, p. 196.

Diehl : *op. cit.*, p. 544.

(٥٦) Butler : *op. cit.*, p. 198.

ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٥٦ — ٥٧ .

(٥٧) Diehl : *op. cit.*, p. 545.

(٥٨) Diehl : *op. cit.*, p. 545.

Butler : *op. cit.*, p. 207.

(٥٩) Hardy : *op. cit.*, p. 187.

(٦٠) Butler : *op. cit.*, p. 210.

(٦١) Diehl : *op. cit.*, p. 545.

ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٥٨ .

(٦٢) Butler : *op. cit.*, p. 216-217.

ابن عبد الحكم : المرجع السابق ، ص ٥٩ .

(٦٣) Diehl : *op. cit.*, p. 546.

Butler : *op. cit.*, p. 222.

(٦٤) Butler : *op. cit.*, pp. 222-224.

(٦٥) Butler : *op. cit.*, p. 225.

(٦٦) Butler : *op. cit.*, pp. 226-228.

(٦٧) Butler : *op. cit.*, p. 229.

ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦١

(٦٨) *Ibid :* p. 229.

(٦٩) جعل بتلر تاريخ معركة هليوبوليس ، ١٥ يوليو سنة ٦٤٠ *Ibid :* p. 233.

Diehl : *op. cit.*, p. 546.

(٧٠) Diehl : *op. cit.*, p. 546.

Butler : *op. cit.*, p. 235.

(٧١) Butler : *op. cit.*, p. 236-237.

(٧٢) Diehl : *op. cit.*, p. 546.

(٧٣) Butler : op. cit., pp.238-242.

Diehl : *op. cit.*, p. 547.

(٧٤) Butler : *op. cit.*, p. 251.

(٧٥) *Ibid :* p. 253.

(٧٦) Butler : *op. cit.*, p. 253-254.

Diehl : *op. cit.*, p. 547.

(٧٧) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٨٨ .

Butler : *op. cit.*, p. 255.

ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦٥ .

(٧٨) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٨٩ .

Diehl : *op. cit.*, p. 547.

ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦٥ .

(٧٩) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٩٠ .

Diehl : *op. cit.*, p. 547.

ابن عبد الحكم : ص ٦٥ — ٦٧ .

(٨٠) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٩١ .

ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦٨ .

(٨١) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٩١ .

Diehl : *op. cit.*, p. 548.

(٨٢) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٩٢ — ١٩٣ .

Diehl : *op. cit.*, p. 548.

(٨٣) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٩٣ .

Diehl : *op. cit.*, p. 548.

(٨٤) بتلر : فتح العرب لمصر ص ١٩٣ .

Butler : *op. cit.*, p. 262.

Diehl : *op. cit.*, p. 548.

ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٧١ .

(٨٥) Diehl : *op. cit.*, p. 548.

Butler : *op. cit.*, p. 264.

(٨٦) Diehl : *op. cit.*, p. 548.

Butler : *op. cit.*, p. 264.

(٨٧) Butler : *op. cit.*, p. 264.

(٨٨) Diehl : *op. cit.*, p. 548.

(٨٩) Butler : *op. cit.*, p. 265.

(٩٠) *Ibid :* p. 266-267.

(٩١) *Ibid :* p. 270.

Diehl : *op. cit.*, p. 548.

ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٦ .

(٩٢) Butler : *op. cit.*, p. 272.

Diehl : *op. cit.*, p. 549.

(٩٣) Butler : *op. cit.*, p. 273-274.

Diehl : *op. cit.*, p. 549.

(٩٤) Butler : *op. cit.*, p. 274.

Diehl : *op. cit.*, p. 549.

(٩٥) Butler : *op. cit.*, p. 280.

(٩٦) *Ibid :* p. 281.

(٩٧) Butler : *op. cit.*, p. 282.

Diehl : *op. cit.*, p. 549.

(٩٨) Diehl : *op. cit.*, p. 549.

Butler : *op. cit.*, p. 284-285.

(٩٩) Butler : *op. cit.*, p. 285.

(١٠٠) Butler : *op. cit.*, p. 286.

(١٠١) *Ibid :* p. 287-288.

Diehl : *op. cit.*, p. 550.

(١٠٢) Butler : *op. cit.*, p. 290.

(١٠٣) Butler : *op. cit.*, p. 294.

(١٠٤) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٢١٦ .

(١٠٥) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٢١٦ .

Diehl : *op. cit.*, p. 549.

(١٠٦) Butler : *op. cit.*, p. 296.

Diehl : *op. cit.*, p. 549.

(١٠٧) Butler : *op. cit.*, p. 296.

(١٠٨) Butler : *op. cit.*, p. 297-298.

Diehl : *op. cit.*, p. 549.

(١٠٩) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٢٢٨ .

(١١٠) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٢٩٩ .

http://www.al-maktabeh.com

Diehl : *op. cit.*, p. 549.

(١١١) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٦ .

(١١٢) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٢٢٥ .

Diehl : *op. cit.*, p. 549-550.

(١١٣) Butler : *op. cit.*, p. 306.

(١١٤) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٢٣٠ .

Diehl : *op. cit.*, p. 550.

(١١٥) Diehl : *op. cit.*, p. 550.

Butler : *op. cit.*, p. 314.

(١١٦) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٢٣٢ .

Diehl : *op. cit.*, p. 550.

(١١٧) Diehl : *op. cit.*, p. 550.

(١١٨) Diehl : *op. cit.*, p. 550.

(١١٩) Diehl : *op. cit.*, p. 551.

Butler : *op. cit.*, p. 306, 318.

(١٢٠) Butler : *op. cit.*, p. 317.

(١٢١) Butler : *op. cit.*, p. 318.

(١٢٢) Butler : *op. cit.*, p. 320.

Diehl : *op. cit.*, p. 551.

(١٢٣) Butler : *op. cit.*, p. 321.

Diehl : *op. cit.*, p. 551.

(١٢٤) *Ibid* : p. 551.

Butler : *op. cit.*, p. 330, 331.

(١٢٥) Butler : *op. cit.*, p. 332.

Diehl : *op. cit.*, p. 551.

(١٢٦) *Ibid* : p. 551.

Butler : *op. cit.*, p. 333.

(١٢٧) Diehl : *op. cit.*, p. 551.

Butler : *op. cit.*, p. 336.

(١٢٨) Diehl : *op. cit.*, p. 551.

(١٢٩) Diehl : *op. cit.*, p. 552.

Butler : *op. cit.*, p. 234, 265.

(١٣٠) Diehl : *op. cit.*, p. 552.

Butler : *op.cit.*, p. 319.

(١٣١) Diehl : *op. cit.*, p. 552.

(١٣٢) Camb. Med. Hist. II, p. 349.

(١٣٣) Butler : *op. cit.*, pp. 350-357.

Diehl : *op. cit.*, p. 553.

(١٣٤) Butler : *op. cit.*, p. 319, 358.

Diehl : *op. cit.*, p. 553.

(١٣٥) Butler : *op. cit.*, p. 338.

(١٣٦) Diehl : *op. cit.*, p. 553.

(١٣٧) Butler : *op. cit.*, p. 361, 365.

(١٣٨) Butler : *op. cit.*, p.364.

(١٣٩) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٢٦٩ .

(١٤٠) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٢٧٠ .

Butler : *op. cit.*, p. 368.

ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٨٢ .

(١٤١) Diehl : *op. cit.*, p. 554.

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٣٢ — ٣٣ .

(١٤٢) Diehl : *op. cit.*, p. 554.

بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٢٩٥ — ٣١٢ .

(١٤٣) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٣٤٢ .

(١٤٤) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٣٤٣ .

(١٤٥) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٣٤٤ — ٣٤٥ .

(١٤٦) Butler : *op. cit.*, p. 471.

بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٣٤٦ .

(١٤٧) Butler : *op. cit.*, p. 471.

(١٤٨) *Ibid :* p. 474.

(١٤٩) Diehl : *op. cit.*, p. 555.

Butler : *op. cit.*, p. 475.

(١٥٠) Butler : *op. cit.*, p. 489.

(١٥١) Butler : *op. cit.*, p. 484-485.

Diehl : *op. cit.*, p. 555.

(١٥٢) Butler : *op. cit.*, p. 485.

(١٥٣) Diehl : *op. cit.*, p. 555.

Butler : *op. cit.*, p. 488.

(١٥٤) Diehl : *op. cit.*, p. 555.

Butler : *op. cit.*, p. 446.

(١٥٥) Diehl : *op. cit.*, p. 555.

(١٥٦) Diehl : *op. cit.*, p. 555.

(١٥٧) Diehl : *op. cit.*, p. 556.

Butler : *op. cit.*, p. 350.

(١٥٨) Diehl : *op. cit.*, p. 556.

Butler : *op. cit.*, p. 356.

(١٥٩) Diehl : *op. cit.*, p. 556.

Butler : *op. cit.*, p. 480, 488, 489.

(١٦٠) Butler : *op. cit.*, p. 443.

Butler : *op. cit.*, p. 439. (١٦١)

Diehl : *op. cit.*, p. 556. (١٦٢)

Butler : *op. cit.*, p. 439, 440.

Butler : *op. cit.*, p. 443. (١٦٣)

Butler : *op. cit.*, p. 444, 445. (١٦٤)

Diehl : *op. cit.*, p. 556. — Hardy : *op. cit.*, p. 189.

Butler : *op. cit.*, p. 449. — Hardy : *op. cit.*, p. 189. (١٦٥)

Butler : *op. cit.*, p. 445. (١٦٦)

Severus : *History of the Patriarchs*, p. 505-506.

Diehl : *op. cit.*, p. 556. (١٦٧)

Butler : *op. cit.*, p. 445.

Diehl : *op. cit.*, p. 556. (١٦٨)

Butler : *op. cit.*, p. 441.

Diehl : *op. cit.*, p. 557. (١٦٩)

Butler : *op. cit.*, p. 363. (١٧٠)

http://www.al-maktabeh.com

ملاحق

١ – ملحق عن أقاليم القطر المصرى

(ا) أقاليم الوجه القبلى (١)

الإسم الحالى	الإسم اليونانى
الفنتين	Eléphantine
ادفو	Apollinopolis magna
الكاب	Eileithyiapolis
كوم الأحمر	Hierakonpolis
اسنا	Puis Latopolis
الكرنك (طيبة)	Diospolis magna
قفط	Coptos
دندرة	Tentyris
هو	Diospolis parva
البربا — المنشاة	Thinis (puis Abydos)
أخميم	Panopolis ou Khemmis
اطفيح — كوم أشقاو	Aphroditopolis
شطب	Hypselis
فاو الكبير	Antaeopolis
أسيوط	Lycopolis
القوصية	Kusae
الأشمونين	Hermopolis magna
المنيا — طحا الأعمدة	Theodosiopolis
القيس (مركز بنى مزار) — الشيخ فضل	Cynopolis
الحيبة (مركز الفشن) — عزبة كرارة	Hipponos
البهنسا	Oxyrhynchos
أهناسيا	Herakleopolis
مدينة الفيوم	Crocodilopolis
أطفيح	Aphroditopolis

(١) Gabriel Hanotaux : *Histoire de la Nation Egyptienne*, Tome I, p. 161

(ب) أقاليم الوجه البحرى [1]

الإسم الحالى	الإسم اليونانى
البدرشين وميت رهينة	Memphis
أوسيم	Létopolis
زاوية أم الرخم قرب مرسى مطروح	Apis
منوف	Prosopis
صا الحجر	Sais
تل سخا	Xois
تل النجيلى بالقرب من العطف	Métélis
تل المسخوطة	Hérôonopolis
أبو صير (الغربية)	Busiris
تل أتريب	Athribis
هربيط	Pharbeithos
سمنود	Sébennytos
المطرية	Héliopolis
صان الحجر (محافظة الشرقية)	Tanis
دمنهور	Hermopolis parva
تل الربع	Mendês
هيو	Diospolis parva
تل بسطة	Bubastis
تل المقدام — كوم المقدام	Léontopolis
صفط الحنة	Arabia

(١) Gabriel Hanotaux : *Histoire de la Nation Egyptienne*, Tome I, p. 181.

٢ — ملحق بأسماء المدن اليونانية الواردة بالكتاب وما يقابلها من الأسماء الحديثة

أيلة (العقبة)	Aela
قرب فوة	Aikeleh
العثمانية	Antaiou
الشيخ عبادة — مركز ملوى	Antinae
قوص	Apollonopolis magna
كوم أشقاو	Aphrodite
مدينة الفيوم	Arsinoe
مدينة الحرّاس	Berenice
كانوب — كوم صمدى	Canopus
كوم أوشيم	Caranis
أرمنت	Hermonthis
الأشمونين	Hermopolis
الطابية الحمراء	Heraçleopolis
تل المسخوطة	Heroonopolis
يوتاب — جزيرة تيران بخليج العقبة	Jotabe
الشيخ فضل	Kynopolis
إسنا	Latopolis

Lycopolis	أسيوط
Mareotis	مريوط
Menelaites	إقليم عاصمته كانوب
Nitra	وادى النطرون
Oxyrhynchos	البهنسا
Ptolemais	المنشاة
Sceta	صحراء سقيط
Tentyra	دندرة

ملاحظة : ننصح بالرجوع فى تحقيق سائر أسماء بلاد القطر المصرى إلى :

John Ball: Egypt in the Classical Geographers, Cairo 1942.

http://www.al-maktabeh.com

٣ — ملحق بأسماء أباطرة العصر البيزنطى فى مصر

دقلديانوس	٢٨٤ — ٣٠٥	
قنسطنطين الأول (الكبير)	٣٠٦ — ٣٣٧	
قنسطانز	٣٣٧ — ٣٥٠	
قنسطنطيوس	٣٣٧ — ٣٦١	— انفرد بالحكم منذ سنة ٣٥١
يوليان (جوليان) المرتد	٣٦١ — ٣٦٣	
يوفيان (جوفيان)	٣٦٣ — ٣٦٤	
ڤالنس	٣٦٤ — ٣٧٨	
ثيودوسيوس الأول (الكبير)	٣٧٩ — ٣٩٥	— انفرد بالحكم بعد سنة ٣٩٢
أركاديوس	٣٩٥ — ٤٠٨	
ثيودوسيوس الثانى	٤٠٨ — ٤٥٠	
مارقيان	٤٥٠ — ٤٥٧	
ليو الأول	٤٥٧ — ٤٧٤	
ليو الثانى	٤٧٤	
زينون	٤٧٤ — ٤٩١	
أناستاسيوس الأول	٤٩١ — ٥١٨	
جستين الأول	٥١٨ — ٥٢٧	
جستنيان الأول	٥٢٧ — ٥٦٥	

جستين الثانى	٥٦٥ — ٥٧٨
تيباريوس الثانى	٥٧٨ — ٥٨٢
موريس	٥٨٢ — ٦٠٢
فوقاس	٦٠٢ — ٦١٠
هرقل	٦١٠ — ٦٤١
قنسطنطين الثالث	٦٤١
هيراقليوناس	٦٤١
قنسطانز الثانى	٦٤١ — ٦٦٨

٤ — جدول بأسماء الأباطرة والولاة والبابوات والبطاركة فى العصر البيزنطى

الأباطرة	ولاة مصر	البابوات	بطاركة القسطنطينية	بطاركة الاسكندريه
دقلديانوس ٢٨٤ — ٣٠٥	مارك أوريليوس . بعد أكتوبر ٢٨٤	كايوس ٢٨٣		ثيوناس ٢٨٢ — ٣٠٠
	ديوجين . قبل مارس ٢٨٦	ماركالينوس ٢٩٦		
	ڤلاڤيوس ڤاليروس بومبيانوس اكتوبر ٢٨٧ — ١٥ سبتمبر ٢٨٩			
	اعيليوس روستيكيانوس نائب الوالى سنة ٢٩٨			
	إيليوس بوبليوس ١٩ أغسطس ٢٩٩			
	كلوديوس كولكيانوس ٢٨ فبراير ٣٠٣ — ٢٩ مارس ٣٠٦			بطرس الأول ٣٠٠ — ٣١٠
جاليريوس ٣٠٥ — ٣١١	أمونيوس ١٧ أغسطس ٣١٢	ماركيللوس الأول ٣٠٨		أخيلاس ٣١٠ — ٣١١

الأباطرة	ولاة مصر	البابوات	بطاركة القسطنطينية	بطاركة الاسكندرية
		يوزيبيوس ٣١٠		
مكسيمين ٣٠٥ — ٣١٣		ملتياديس ٣١١		الاسكندر ٣١٢ — ٣٢٦ أو ٣٢٨
		سلفستر الأول ٣١٤		
ليكينوس ٣١٣ — ٣٢٣	انطونيوس جريجوريوس ٣١٤		اسكندر الأول ٣١٤-٣٣٧	
	اوريليوس أنطونيوس ٢ أبريل ٣١٦			
	كونتيوس أير ١٢ ديسمبر ٣٢٢			
	سانبيانوس ١٧ أغسطس ٣٢٣			
قنسطنطين الأول ٣٢٣ - ٣٣٧	يوليوس يوليانوس ٨ يونية ٣٢٨	مرقس ٣٣٦		اثناسيوس ٣٢٦ أو ٣٢٨ إلى ٣٧٣
	سبتيميوس زينون ٦ أبريل ٣٢٩			
		يوليوس ٣٣٧		
	ماجنتيانوس ١٩ أبريل ٣٣٠			
	فلورنتيوس ١١ أبريل ٣٣١			
	هيجينوس ٢ أبريل ٣٣٢			

الأباطرة	الولاة	البابوات	بطاركة القسطنطينية	بطاركة الاسكندرية
	باتيريوس ١٥ أبريل ٣٣٣			
	فلاڤيوس فيلاجريوس			
	٧ أبريل ٣٣٤ — ٣ أبريل ٣٣٧			
	فلاڤيوس أنطونيوس تيودوروس			
	٣٣٧ — ٢٨ مارس ٣٣٨			
قنسطانز الثانى (قنسطنطيوس)	فلاڤيوس فيلاجريوس	ليبريوس ٣٥٢	بواص الأول ٣٣٧ — ٣٣٩	
٣٣٧ — ٣٦١	٣٣٨ — ٣٠ مارس ٣٤٠		يوزيبيوس ٣٣٩ — ٣٤١	
	لونجينوس		بواص الأول (ثانية)	
	١٩ أبريل ٣٤١ — ٢٧ مارس ٣٤٣		٣٤١ — ٣٤٢	
	بالاديوس ١٥ أبريل ٣٤٤		مقدونيوس الأول	
			٣٤٢ — ٣٤٦	
	نسطوريوس		بواص الأول (ثالثة)	
	٧ أبريل ٣٤٥ — ١٩ أبريل ٣٥٢		٣٤٦ — ٣٥١	

الأباطرة	الولاة	البابوات	بطاركة القسطنطينية	بطاركة الاسكندرية
			مقدونيوس الأول (ثانية) ٣٥١ – ٣٦٠	
	سيباستيانوس ١١أبريل٣٥٢–٢٧مارس٣٥٤			
	ماكسيموس ١٦ أبريل٣٥٥ – ٧ أبريل٣٥٦			
	كاتافرونيوس ١٠ يونية٣٥٦–٢٣مارس٣٥٧			
	هيرموجنيس بارناسيوس ٣٥٧ — ٤ أبريل ٣٥٩			
	ايتاليكيانوس ٣٥٩			
	فاوستينوس٣٥٩ – ٨أبريل٣٦١			
	جيرونتيوس٣٦١ – ٣١مارس٣٦٢			
			ايدوكسيوس ٣٦٠–٣٧٠	

الأباطرة	الولاة	البابوات	بطاركة القسطنطينية	بطاركة الاسكندرية
يوليان (جوليان) ٣٦١—٣٦٣	ايكديكيوس أوليمبوس يولية٣٦٢ — ١٥ سبتمبر٣٦٣			
يوفيان (جوفيان) ٣٦٣—٣٦٤				
فالنز ٣٦٤—٣٧٨	هيريوس ٤ أبريل٣٦٤	داماسوس ٣٦٦	ديموفيلوس ٣٧٠—٣٨٠	
	فلافيانوس ٣٦٤—٢١يولية٣٦٦			
	بروكولثيانوس بعد ٢١ يولية ٣٦٦ -- أول أبريل ٣٦٧		ايفاجريوس ٣٧٠	
	فلاڤيوس ايتوليميوس ١٣سبتمبر٣٦٧— ٢٩مارس٣٧٠			
	أوليمبيوس بالاديوس ٣٧٠ — ١٧ أبريل ٣٧١			
	اثيليوس بالاديوس٣٧١ - ٣٧٤			بطرس الثانى٣٧٣—٣٨٠

الأباطرة	ولاة مصر	البابوات	بطاركة القسطنطينية	بطاركة الاسكندرية
تيودوسيوس الأول	هادريانوس	سيريكيوس ٣٨٤	جريجورى الأول	
٣٧٩—٣٩٥	٣٧٩ – ١٧ مارس ٣٨٠		نازيانز ٣٧٩ – ٣٨١	
	يوليوس يوليانوس			
	١٧ مارس ٣٨٠			
	بالاديوس ١٤ مايو ٣٨٢		مكسيموس الأول ٣٨٠	
	هيباتيوس		نيكتاريوس ٣٨١—٣٩٧	
	٢٩ أبريل ٣٨٣–٢٨ مايو ٣٨٣			
	أنطونيوس ٣٨٣			
	أوبتاتوس ٤ فبراير ٣٨٤			تيوفيل ٣٨٤—٤١٢
	فلورنتيوس ٢٠ ديسمبر ٣٨٤			
	إلى ١٦ يونية ٣٨٦			
	يوزيبيوس ٣٨٦			
	باولينوس			
	٣٠ نوفمبر ٣٨٦ – ٣٨٧			

الأباطرة	ولاة مصر	البابوات	بطاركة القسطنطينية	بطاركة الاسكندرية
	فلافيوس أولبيوس أريثريوس			
	٣٠ أبريل ٣٨٨			
	الاسكندر			
	٣٨٩ — ١٨ فبراير ٣٩٠			
	ايفاجريوس			
	٣٩٠ — ١٦ يونية ٣٩١			
	هيباتيوس ٩ أبريل ٣٩٢ —			
	١٢ أبريل ٣٩٢			
	بوتاميوس			
	٥ مايو ٣٩٢ — ٣٠ يوليه ٣٩٢			
	إيفاجريوس ٣٩٣			
أركاديوس ٣٩٥ — ٤٠٨	جينا ديوس ٥ فبراير ٣٩٦	أناستاسيوس الأول ٣٩٩	حنا فم الذهب ٣٩٨ — ٤٠٤	
	ريميجيوس	أنوسنت الأول ٤٠١		
	٢٠ — ٣٠ مارس ٣٩٦			

الأباطرة	ولاة مصر	البابوات	بطاركة القسطنطينية	بطاركة الاسكندرية: المونوفيزتيون	بطاركة الاسكندرية: الملكانيون
	أرخيلاوس ١٧ يونية ٣٩٧ —		ارساكيوس ٤٠٤ — ٤٠٥		
	٢٦ نوفبر ٣٩٧		اتيكوس ٤٠٦ — ٤٢٥		
	بنتاديوس ٤٠٣ ٤٠٤				
	بوثاليوس ٤٠٤ — ٤٠٥				
تيودوسيوس الثانى	أورستس ٤١٥	زوسيموس ٤١٧	سيسينيوس الأول		
٤٠٨ — ٤٥٠	كاليستوس ٧ سبتمبر ٤٢٢	بونيفاس الأول ٤١٨	٤٢٦ — ٤٢٧		
	كليوباتر ٢٩ يناير ٤٣٥	سلستين الأول ٤٢٢	نسطوريوس ٤٢٨ — ٤٣١		
	كارمو سينوس ٢٥ يونية ٤٤٣	سكتسوس الثالث ٤٣٢	مكسيميانوس ٤٣١ — ٤٣٤		
		ليو الأول ٤٤٠	بروكلوس ٤٣٤ — ٤٤٦		
مارقيان ٤٥٠ — ٤٥٧	تيودوروس ٤٥١		فلافيانوس ٤٤٦ — ٤٤٩		
	فلورس ٤٥٢		أناتوليوس ٤٤٩ — ٤٥٨	ديوسقورس ٤٤٤ — ٤٥٤	بروتيريوس ٤٥١ — ٤٥٧
ليو الأول ٤٥٧ — ٤٧٤	الاسكندر	هيلاروس ٤٦١	جيناديوس ٤٥٨ — ٤٧١	تيموثاوس الثانى ٤٥٧ — ٤٦٠	تيموثاوس سالوفاكيول
	١٩ أغسطس ٤٦٨ - أول سبتمبر ٤٦٩	سيمبليكوس ٤٦٨	أكاكيوس ٤٧١ — ٤٨٩	٤٧٥ — ٤٧٧	٤٦٠ — ٤٧٥ ، ٤٧٧ — ٤٨٢
زينون ٤٧٤ — ٤٩١	بؤيثوس ٤٧٦	فيلكس الثانى ٤٨٣	فراڤيتاس ٤٨٩ — ٤٩٠		

http://www.al-maktabeh.com

الأباطرة	ولاة مصر		البابوات	بطاركة القسطنطينية	بطاركة الاسكندرية	
					المنوفيزيون (الأقباط)	الملكانيون
	أنتيميوس	٤٧٧				
	ثيوكتستوس	٤٧٧ — ٤٧٨		ايفيميوس ٤٩٠ — ٤٩٦		
	ثيوجنوستوس	٤٧٩ — ٤٨٢				حنا الأول ٤٨٢ — ٤٨٩
	بيرجاميوس	٤٨٢				
	أبولونيوس	٤٨٢				
	أرسينيوس	٤٨٧			اثناسيوس الثانى ٤٩٠ — ٤٩٦	
أناستاسيوس ٤٩١ — ٥١٨	يوستاتيوس	٥٠١	سيماكوس ٤٩٨ — ٥١٤	مقدونيوس الثانى ٤٩٦ — ٥١١	حنا الأول ٤٩٦ — ٥٠٥	
	تيودوسيوس	٥١٦	هورميسداس ٥١٤ — ٥٢٣	تيموثاوس الأول ٥١١ — ٥١٨	حنا الثانى ٥٠٥ — ٥١٦	
جستين الأول ٥١٨ — ٥٢٧			حنا الأول ٥٢٣ — ٥٢٦	حنا الثانى ٥١٨ — ٥٢٠	ديوسقورس الثانى ٥١٦ — ٥١٧	
جستنيان ٥٢٧ — ٥٦٥	ديوسقورس	٥٣٥	فيلكس الرابع ٥٣٠	ابيفانوس ٥٢٠ — ٥٣٥	تيموثاوس الثالث ٥١٧ — ٥٣٥	بولص التبنيسى ٥٣٧ — ٥٣٩

الأباطرة	ولاة مصر	البابوات	بطاركة القسطنطينية	بطاركة الاسكندرية	
				المونوفيزتيون (الاقباط)	الملكانيون
		بونيفاس الثانى ٥٣٠ – ٥٣٢			
	رودون ٥٣٨	حنا الثانى ٥٣٣ – ٥٣٥			
	ليبريوس ٥٣٩ – ٥٤٢	أجابيتوس ٥٣٥ – ٥٣٦	أنتيميوس الأول ٥٣٥ – ٥٣٦	تيودوسيوس الأول ٥٣٥ – ٥٦٦	زويل ٥٣٩ – ٥٥١
	يوحنا لاكساريون ٥٤٢	سلفيريوس ٥٣٦ – ٥٣٧	ميناس ٥٣٦ – ٥٥٢		
	هيفائيستوس	فيجيليوس ٥٣٧ – ٥٥٥	بوتيخيوس ٥٥٢ – ٥٦٥		أبو للينير ٥٥١ – ٥٧٠
		بيلاجيوس الأول ٥٥٦ – ٥٦١			
جستين الثانى ٥٦٥ – ٥٧٨	جرمانوس جستينوس ٥٦٦	حنا الثالث ٥٦١ – ٥٧٤	حنا الثالث ٥٦٥ – ٥٧٧	بطرس الرابع ٥٧٦ – ٥٧٨	حنا الثانى ٥٧٠ – ٥٨١
تيباريوس الثانى ٥٧٨ – ٥٨٢		بيلاجيوس الثانى ٥٧٩ – ٥٩٠	حنا الرابع ٥٨٢ ٥٩٥	دميان ٥٧٨ – ٦٠٥	
موريس ٦٨٢ – ٦٠٢	يوحنا	جريجورى الأول ٥٩٠ – ٦٠٤	كيرياكوس الثانى ٥٩٥ – ٦٠٦		ايلوج ٥٨١ – ٦٠٧
	باولوس				
	يوحنا المرة الثانية				

الأباطرة	ولاة مصر	البابوات	بطاركة القسطنطينية	بطاركة الاسكندرية	
				المونوفيزتيون (الاقباط)	الملكانيون
	قنسطنطيوس				
	ميناس ٦٠٠				
فوكاس ٦٠٢ – ٦١٠	بتروس جستينوس ٦٠٢ – ٦٠٣	سابنيان ٦٠٤ – ٦٠٦	توماس الأول ٦٠٧ – ٦١٠	أنستاسيوس ٦٠٤ – ٦١٦	تيدور سكريبون
		بونيفاس الثالث ٦٠٧			٦٠٧ – ٦٠٩
	يوحنا ٦٠٩				
هرقل ٦١٠ – ٦٤١	نكيتاس ٦١٠	بونيفاس الرابع	سرجيوس الأول	اندرونيكوس ٦١٦ – ٦٢٣	حنا الثالث (للتصدق)
		٦٠٨ – ٦١٥	٦١٠ – ٦٣٨		٦٠٩ – ٦١٧
		ديوسديدت ٦١٥ – ٦١٨			
	كيرس ٦٣١ – ٦٤٠	بونيفاس الخامس		بنيامين ٦٢٣ – ٦٦٢	جورج
		٦١٩ – ٦٢٥			٦٢١ – ٦٣١
	تيودوروس	هونوريوس الأول	بيروس الأول		كيرس
		٦٢٥ – ٦٣٨	٦٣٨ – ٦٤١		٦٣١ – ٦٤١
		سفيرينوس ٦٤٠			
					بطرس الرابع
هرقل الثانى ٦١٤					٦٤١ – ٦٥٥

http://www.al-maktabeh.com

٥ ـ اللوحات

لوحة رقم (١) قطعة من القماش المنسوج بطريقة القباطى .

لوحة رقم (٢) حشوة خشبية محفور عليها رسم حيوانين ورسوم أخرى نباتية .

لوحة رقم (٣) حشوة خشبية على شكل إفريز عليها رسوم آدمية وحيوانية ونباتية محفورة.

لوحة رقم (٤) شريط من القماش منسوج بطريقة القباطى .

لوحة رقم (٥) شرقية أو قبلة كنيسة من مدينة باويط .

لوحة رقم (٦) قنينة من الفخار للماء المقدس من (دير أبو مينا) .

لوحة رقم (٧) مسرجة من الفخار .

استدراك

١ — ما ورد من الشرح أسفل اللوحة رقم ٢ ، خاص باللوحة رقم ٣ .

٢ — ما ورد من الشرح أسفل اللوحة رقم ٣ ، خاص باللوحة رقم ٢ .

لوحة رقم (١)

قطعة من القماش المنسوج بطريقة القباطي Tapistry . وهي من الكتان بلونه الطبيعي ، أما الزخارف فن الصوف الرفيع المتعدد الألوان . ونلاحظ أن الزخارف تتكون من رسوم آدمية وحيوانية ونباتية وهندسية ، وأن هذه الزخارف محصورة في أشرطة طولية . والوحدات الزخرفية عبارة عن فارس وراقصة ، أو فارس يمتطي صهوة جواده . ويفصل بين الأشرطة التي تحتوي على رسوم آدمية أشرطة رفيعة تحتوي على زخارف نباتية . وإلى جانب الشريط الزخرفي نجد رسم رجل بحجم كبير وبيده مزمار ، وهو من الشخصيات المحببة التي نجدها بكثرة على المنسوجات .

والأسلوب الزخرفي لهذه القطعة يشبه إلى حد كبير الأسلوب البيزنطي ، الهلينستي ، الذي امتزج فيه الأسلوب الشرقي والهليني ؛ فالرسوم الآدمية قريبة من الطبيعة إلى حد ما ، وإن كانت الناحية التشريحية فيها مهملة ، فالنسب بين أجزاء الجسم غير مراعاة ، إلا أن الحركات معبرة إلى حد كبير .

أما الرسوم النباتية فحورة عن الطبيعة إلى حد كبير ، إلا أن تعدد الألوان قد أضفى على الزخارف بعض الحياة .

وهذه القطعة من صناعة مصر في القرن الثالث الميلادي .

لوحة رقم (٢)

حشوة خشبية على شكل إفريز ، عليها رسوم آدمية وحيوانية ونباتية محفورة . وموضوع الزخرفة يحكى قصة من القصص المسيحى ، إذ نجد ملاكين مجنحين يحملان إكليلا من الزهر يضم داخله عادة الصليب (وإن كان الصليب فقد فى هذه الحشوة) ، وفى نهاية اللوحة نجد رجلين من رجال الدين يقدمان القربان إلى الصليب . وتحت إكليل الغار يوجد حمامتان ، والحمام من الطيور المقدسة عند المسيحيين إذ أن اسمها يكون مقطعاً من اسم المسيح .

والأسلوب الزخرفى لهذه الحشوة يشبه إلى حد كبير ، فن النحت الرومانى ، فالرسوم الآدمية والحيوانية قريبة من الطبيعة إلى حد كبير ، كما أن الفنان اهتم بالتفاصيل الدقيقة اهتماماً كبيراً ، ويبدو ذلك واضحاً فى تفاصيل الملابس وفى الأجنحة . وعلى الرغم من الدقة فى إظهار الأجزاء والتفاصيل إلا أن رسوم الأشخاص غير معبرة ، بل هى تبدو جامدة بعض الشىء . كما نلاحظ أن الفنان راعى أن تكون الزخارف متماثلة ، وهى من المؤثرات الشرقية التى تأثر بها الفن البيزنطى .

أما الأسلوب التطبيقى لهذه الحشوة فإنه يبين تمكن الفنان من الحفر على الخشب ، فقد حفرت الرسوم حفراً بارزاً مجسما حتى أنها تبدو وكأنها منفصلة عن أرضية الحشوة .

وهذه الحشوة من كنيسة سانت برباره التى يرجع تاريخ إنشائها إلى القرن الرابع . ومن المرجح

http://www.al-maktabeh.com

لوحة رقم (٣)

حشوة خشبية محفور عليها رسم حيوانين ورسوم أخرى نباتية قوامها عنقود وورقة العنب . وموضوع الزخرفة عبارة عن أسد يفترس غزالا ، وهو موضوع شرقى قديم ، أكثر من استعماله الساسان ، ولعل مسيحي مصر وجدوا فى مثل هذه الموضوعات متنفساً عما يلاقوه من اضطهاد أباطرة الرومان ، التى ترمز إلى اعتداء القوى على الضعيف ، أما العنب فهو من الموضوعات المحببة عند المسيحيين إذ أنه يرمز إلى الخمر ، الذى يستعمل فى العشاء الربانى ، على أنه دم المسيح .

والاسلوب الزخرفى الذى استعمل فى هذه الحشوة يبين تطوراً جديداً فى فن التصوير ، فعلى الرغم من أن أطراف الأسد والغزال مرسومة بأسلوب تعبيرى يعبر عن الطبيعة ، إلا أن الفنان نجح إلى حد كبير فى التعبير عن طبيعة كل من الحيوانين وعن الحركات التى يؤديانها .

أما الأسلوب التطبيقى لهذه الحشوة ، فيدل على تقدم الفنان القبطى فى فن الحفر على الخشب ، فالرسوم محفورة ، عميقة بعض الشىء ومجسمة . وقد استطاع الفنان إظهار عضلات الحيوانين وتفصيل أجزاء جسميهما ، وكذا التفاصيل الدقيقة فى ورقة العنب .

ومن المرجح أن تكون هذه القطعة من القرن (٥ — ٦ م) .

لوحة رقم (٤)

شريط من القماش منسوج بطريقة القباطى Tapistry . والنسيج من الكتان لخيوط السداه ، أما خيوط اللحمة فمن الصوف المتعدد الألوان .

ونلاحظ أن الزخارف محصورة فى عدة أشرطة عريضة وضيقة ، والأخيرة عند الطرفين ، وتحتوى على زخارف نباتية محورة ، أما الشريط العريض المتوسط فيحتوى على زخارف آدمية وحيوانية محصورة فى جامتين ، ويفصل بينهما زخارف نباتية محورة . والموضوع الزخرفى يمثل قصة من القصص القبطى الذى يبدأ فى الفنون القبطية منذ القرن الخامس الميلادى .

أما الأسلوب الزخرفى ، فهو أسلوب محور عن الطبيعة إلى درجة كبيرة ، حتى أن الرسوم الآدمية والحيوانية أصبحت رسوماً رمزية لا أثر للحياة فيها ، وهو أسلوب اختص به القبط دون غيرهم من مسيحي العالم ، الذين لاقوا من التعذيب والاضطهاد على يدى الرومان ما لم يلاقيه غيرهم من المسيحيين ، ولذلك فقد نبذوا كل ما هو رومانى حتى الفن ، ومن ثم فقد أصبحنا نجد فى مصر ، فى العصر الرومانى ، أسلوبين من الفنون ، الأسلوب الأغريقى الرومانى ومركزه مدينة الاسكندرية ، وأسلوب جديد ظهر واضحاً عند ما اعترف بالدين المسيحى ديناً للدولة منذ نهاية القرن الرابع . وقد اتخذ الفن القبطى من الصعيد والبلاد النائية مراكز له ، وعلى ذلك فليس من الإنصاف أن نقول إن الفن القبطى فن شعبى ، بل هو فن وطنى ، أما الفن الإغريقى الرومانى ، أو الفن البيزنطى كما تسميه بعض المراجع ، فهو المستعمر الدخيل .

على أن هـذا الأسلوب التخطيطى فى الرسوم الآدمية والحيوانية الذى امتاز به الفن القبطى ، لم ينته بمجىء العرب ، بل استمر خمسة قرون حتى العصر الفاطمى ؛ فقد صادف هذا الأسلوب المحور عن الطبيعة هوى عند المسلمين فأقبلوا على استخدامه .

ويمكن إرجاع هذه القطعة إلى القرن (٥ – ٦ م) .

لوحة رقم (٥)

http://www.al-maktabeh.com

شرقية (Abside أو قبله) كنيسة من مدينة باويط ، عليها رسوم بالفرسكو (الرسوم المائية) المتعددة الألوان . وتمثل هذه الرسوم السيد المسيح عليه السلام يجلس على عرش ، ويحمل بيسراه السفر ، ويومىء بإشارة البركة بيمناه ، ويحيط بعرشه حيوانات ترمز إلى الرسل الأربعة ؛ فالأسد يرمز إلى الرسول مرقس ، ورأس العجل ترمز إلى الرسول لوقا ، ورأس النسر ترمز إلى القديس يوحنا ، أما وجه الإنسان فيرمز للرسول متى . ويحيط بالعرش يمنة ويسرى رئيسا الملائكة ميخائيل وجبرائيل .

وقد احتوى تجويف الشرقية على رسوم أخرى تحت صورة السيد المسيح ، تمثل السيدة العذراء وهى تحمل السيد المسيح ، وحولها الإثنى عشر رسولا ، وقد حمل كل منهم إنجيلا فى يده ، وأسماؤهم مدونة فوق رؤوسهم باللغة القبطية .

والأسلوب التصويرى لهذه الشرقية يتبع إلى حد كبير الأسلوب الإغريقى الذى كان سائدا فى مصر فى العصر الرومانى ، وخاصة فى رسوم الأجسام والملابس ، أما بالنسبة للوجوه فهى محورة بعض الشىء ، وفيها شىء من التعبير الذى تفتقره الرسوم الرومانية . ونلاحظ أن الرؤوس كلها حولها دوائر هى عبارة عن هالة التقديس ، وعلى ذلك يمكننا القول بأن القبط استخدموا فى الرسوم الحائطية وكذا المخطوطات ، أسلوباً فنياً من البيزنطى ، أما فى المنسوجات وحاجياتهم الخاصة ، فقد استعملوا فناً خاصاً بهم ، هو الأسلوب القبطى .

ويمكن إرجاع هذه الرسوم إلى القرن (٥ — ٦ م) .

لوحة رقم (٦)

قنينة من الفخار للماء المقدس من (دير أبو مينا) ، وهى تشبه فى شكلها العام (الزمزميات) التى يحملها الحجاج المسيحيون إلى بيت المقدس .

أما طريقة الزخرفة فهى مصنوعة بطريقة القالب الذى يضغط على العجينة الفخارية ، وهى لينة قبل جفافها .

أما الاسلوب الزخرفى ، فهو الأسلوب القبطى ، فالرسم الآدمى الذى يتوسط الجامة المستديرة ، وكذا الحيوانات التى على جانبيه مرسوم بأسلوب تخطيطى محور عن الطبيعة إلى حد كبير .

ويمكن إرجاع هذه القنينة إلى القرن (٤ — ٧ م)

لوحة رقم (٧)

مسرجة من الفخار زخرفت واجهتها بزخارف قالبية على شكل دائرة يحيط بها خطوط متوازية وينتهى بحبيبات . وعند فتحة المسرجة يوجد صليب متساوى الأضلاع ، واعتماداً على وجود هذا الصليب ، لا يمكن إرجاع هذه المسرجة إلى ما قبل القرن الرابع الميلادى ؛ لأنه لم يظهر فى ذلك الوقت ، فقد كان الأقباط يستعملون قبل ذلك علامة الحياة (عنخ) عند المصريين القدماء ، بدلا من الصليب خوفاً من اضطهاد الرومان .

على أننا لا نستطيع تحديد هذه المسرجة ، لأن شكلها ومادتها ظلتا مستعملتين حتى العصور الوسطى فى مصر وخارجها

http://www.al-maktabeh.com

مصادر ومراجع عن مصر البيزنطية

أولا — البرديات والنقوش :

BGU : Aegyptische Urkunden aus den Koniglichen Mussen zu Berlin.
(Weidmann). 1895-1926. 7 Vols.

— "Greek-Coptic Glossary" H.I. Bell and W.E. Crum. "A Greek-Coptic Glossary" in Aegyptus. Vol. VI. Milan 1925 pp. 177-226.

Ostraca : Ulrich Wilcken, Griechische Ostraka aus Aegypten und Nubien, Leipzig 1899. 2 Vols.

P. Amherst : Bernard P. Grenfell, Arthur S. Hunt, the Amherst PapyriLondon. Oxford Un. Press. 1900-1901. 2 Vols.

P. Baden : Friedrich Bilabel, Griechische Papyri (Veroffentlichungen aus den badischen Papyrus — Sammlungen. heft. 4) Heidleberg 1924. 180 pp.

P. Basel : E. Rabel and Others. Papyrus-Urkunden der Offentlichen Bibliothek der Universitat zu Basel-Berlin 1917.

P. Berlin : Moller, Sigurd Moller, Griechische Papyri aus dem Berliner Museum, Gothenberg 1929.

P. Cairo : Jean Maspero, Papyrus Grecs d'époque byzantine (Catalogue général des Antiquités egyptiennes du musée du Caire) Cairo (I.F.A.O.) 3 Vols. 1911-1916.

P. Cairo : Zenon, C.C. Edgar. Zenon. Papyri (Catalogue général des Antiquités egyptiennes du musée du Caire). 1925-1928 — 3 Vols.

P. Flor : Girolamo Vitelli, Dominico Comparetti. Papiri Fiorentini. Milan 1906-1915. 3 Vols.

P. Giessen : Ernst Kornemann, Paul M. Meyer. Griechische Papyri im Museum der oberhessichen Geschichtsvereins zu Giessen. Leipzig 1910-1912.

P. Grenfell II: Bernard P. Grenfell, Arthur S. Hunt New Classical Fragments and other Greek and Latin Popyri (Greek Papyri, Series II.) Oxfford 1897.

P. Hamburg: Paul M. Meyer : Griechische Papyrusurkunden der Hamburger Staats-und Universitatsbibliothek. Leipzig 1924. Vol. I.

P. Iand : C. Kalbfleisch and others : Papyri Iandanae — Leipzig. 1912-1914.

P. Klein : Form, C. Wesseley. Griechische Papyriusurkunden kleineren Formats. Leipzing — 1904-1909. 2 Vols.

P. Leipzig : Ludwig Mitteis Griechische Urkunden der Papyrussammlung zu Leipzig Leipzig 1906.

P. Lond., : F.G. Kenyon, H.I. Bell, Greek Papyri in the British Museum 1893-1917, 5 Vols.

P. Munich : August Heisenberg, Leopold Wenger, Byzantinische Papyri in der Konigichen Hof-und Staats Bibliothek Zu Munchen Leipzig 1914.

P. Ox : P. Grenfell, Arthur S. Hunt, H. Idris Bell. The Oxyrhynchus Papyri-London 1898-1927. 17 Vols.

P. Rainer : Jakob Kroll. Corpus Papyrorum Raineri Vol. II. Koptische Texte . Vienna 1895.

P. Ross-Georg : Peter Jernstedt. Die Kome-Aphrodito Papyri der Sammlung Lichacov Tiflis 1927.

P. Ryl : Arthur S. Hunt. Catalogue of the Greek Papyri in the John Rylands Library. Manchester 1911-1915. 2 Vols.

P SI. G. Vitelli, Papiri Greci e Latini. Florence. 1912-1929. 9 Vols.

P. Strassburg : Friedrieh Preisigke, Griechische Papyrus der kaiserlichen Universitats-und Landesbibliothek zu Strassburg-Leipzig 1912-1920. 2 Vols.

P. Stud. Pal. X. Carl Wesseley Griechische Texte zur Topographie Agyptens-Leipzig 1910.

P. Stud. Pall XX Carl Wesseley, Textus Graeci ... Leipzig 1921.

Rec. Chret, Gustave Lefebvre. Recueil des inscriptions grecques, chretiennes d'Egypte. Cairo 1907.

— Egypte Chretienne IV. Inscriptions coptes et grecques. Annales du Service des Antiquités de l'Egypte Vol. XI 1911.

ثانيا : المصادر والمراجع الأوربية :

1) Amelineau, E. : La Conquête de l'Egypte par les Arabes. Revue Historique CXX. 1915).

— Etude sur le Christianisme en Egypte au Séptieme siècle. Paris. 1887.

— La Geographie dë l'Egypte à l'Epoque Copte. Paris 1893.

— Histoire du patriarche copte Isaac (Extrait de Bull. Correspond. afr. II. 1890).

— Monuments pour servir à l'Histoire de l'Egypte Chretienne aux IVe et Ve siècles. Paris 1888.

— Vie de Samuel de Kalamoun (Mém. Miss. arch. franç. au Caire. IV. 2).

2) Aussaresses, F. : L'Armée byzantin à la fin du VIe siècle d'après le Strategos de l'empereur Maurice. Paris 1909.

3) Bell, H.I. : The Byzantine Servile State in Egypt. Journal of Egyptian Archaeology (JEA). Vol. IV. London 1917.

— Cults and Creeds in Graeco — Roman Egypt. Liverpool 1953.

— The Decay of a Civilisation JEA. X. 1924.

— Egypt and the Byzantine Empire (Legacy of Egypt Ch. XII.)

— Egypt under the Early Principate. Cambridge Ancient History Vol. X.

— An Epoch in the Agrarian History of Egypt. Recueil d'Etudes egyptologiques dediées à la mémoire de Jean — François Champollion Paris 1922.

— Hellenic Culture in Egypt. J.E.A. VIII (1922).

— Jews and Christians in Egypt. London 1924.

— Translations of the Greek Aphrodito papyri in the British Museum. Der Islam, Band. II, III, IV. XVII. 1911, 1912, 1913, 1928.

4) Bettenson: Documents of the Christian Church. Oxford 1959.

5) Boak, A.E.R.: The Master of Offices in the Later Roman and Byzantine Empire (Two Studies in Later Roman and Byzantine Administration. New York 1924.

6) Boak : Organization of Guilds TAPA LXVIII (1937).

7) Budge, W. Paradise or Garden of the Holy Fathers — London 1907.

8) Bury J.B. — History of the Later Roman Empire. 2 Vols London 1923.

9) Butler A. — The Arab Conquest of Egypt. Oxford 1902.

— The Lusiac History of Palladius. Texts and Studies. London 1898, 1904.

10) Cantarelli, Luigi: La serie dei prefetti de Egitto: III Dalla morte di Theodosio I alla conquista araba: in Atti della R. Accademia dei Lincei, serie quinta Vol. XIV. Rome 1913.

11) Casanova, P. : Les noms coptes du Caire et des localites voisines (Bull. de l'Inst. franç. arch. or du Caire T.I.)

12) Chassinat : Fouilles à Baouit. T.I. Le Caire 1911.

13) Clausing : The Roman Colonate. New York 1925.

14) Cledat : Le Monasteie et la Necropole de Baouit. 3 vols. Le Caire 1904-1916.

15) Clugnet: Vie et récits de l'Abbe Daniel (Revue de l'Orient Chretien V. (1900).

16) Codex Jnstinianus. ed — P. Krueger.

17) Codex Theodosianus. Mommsen. Berlin 1905.

18) Corpus Juris civilis III. Novellae ed. Schoell & Kroll.

19) Cross, F.L. : Dictionary of Christian Church. Oxford. 1957.

— The Study of St. Athnasius Oxford 1945.

20) Crum & Bell : Coptic & Greek Texts. Copenhagne 1922.

22) De Bock, W : Materiaux pour servir a l'Archéalogie de l'Egypte Chrétienne. St. Petersbourg 1901.

23) Delbrueck, R. & Hans Lietzmann; Studien zur Spâtantiken Kunstgeschichte. 2 Vols. Berlin 1929.

24) Dawes & Baynes : Three Byzantine Saints. Oxford 1948.

25) Diehl, C. : Une crise monétaire au VIe siècle (Revue des études grecques. XXXII 1919).

— L'Afrique Byzantine. Paris 1896.

— Justinien et la civilisation byzantine au VIe siècle. Paris 1901.

— Manuel d'Art Byzantin. Paris 1910, 1926 (2 Vols.).

— L'Egypte Chrétienne et Byzantine (Hannoteau : Histoire de la Nation Egyptienne III).

26) Duchesne, L: Histoire de l'Eglise au Ve siècle. Paris 1922.

27) Gelzer, Mittheis: Altes und Neues aus der byzantinisch-agyptischen Verwaltnngmisere (Archiv fur Papyrusforchung 1913). Leipzig 1913.

— Studien zur Byzantinischen en Verwaltung Aegyptens. Leipzig 1907.

28) Glanville, S.R.K. : Legacy of Egypt. Oxford 1953.

29) Hardy, Bdward Rochie : The Large Estates of Byzantine Egypt. New York 1931.

— National Elements in the Career of St. Athanasius. Church History. Vol. II. 1933.

— New Light on the Persian Occupation of Egypt. Journal of the Society of the Oriental Research XIII. New York. 1929.

— Christian Egypt. New York. 1952.

http://www.al-maktabeh.com

30) Johnson, Allan Chester & Louis C. West: Byzantine Egypt. Economic Studies. Princetion, 1949.

31) Johnson A.C. : Roman Egypt (Vol II .. Economic Survey of Ancient Rome.) Baltimare 1936.

— Egypt and the Roman Empire. Michigan 1951.

32) Jones, A.H.M. : Egypt Ch. XI The cities of the Eastern Roman Empire. Oxford 1937.

33) Leipoldt, Johannes : Schenute von Atripe. Leipzig 1903.

34) Lewis, Reinhold : Roman Civilisation, 2 Vols. New York.

35) Leontius von Neapolis : Leben des heiligen Johannes Barmherzigen Erzbischofas von Alexandria. Leipzig 1893.

36) Mallon, A. : Une école des savants égyptiens. (Melanges de la Faculté Orientale de Beyrouth I. 1906).

37) Maspero, Jean : Un dernier poète grec d'Egypte. Dioscore d'Aphrodite (Rev. des etudes grecques. XXIV. 1911.)

— Etudes sur les papyrus d'Aphrodité (Bull. de L'Inst. franç. d'arch. orient. VI. 1908, VII. 1910.)

— Histoire des Patriarches d'Alexandrie. Paris 1923.

— Horapollon et, la fin du paganisme egyptien (Bull. de L'Inst. franç. d'arch. orient. XI. 1914.)

— L'Organisation militaire de L'Egypte byzantine. Paris 1912.

— Les papyrus Beaugé (Bull. de L'Inst. franç. d'arch. orient. X. 1912).

— Rapport sur les fouilles de Baouit (e.r. Acad, Inscrip. 1913).

38) Matter, M: Histoire de L'Ecole d'Alexandrie 3 vols. Paris 1840.

39) Milne, J, Grafton: The Currency of Egypt in the Fifth Century. Numismatic Chronicle Séries V. Vol. VI London 1926.

— Egyptian Nationlism under Greek and Roman Rule JEA. Vol. XIV. 1928.

— Feudal Currency in Roman Egypt. London 1926.

— A History of Egypt under the Roman rule. London 1924.

40) Mittheis, L. & Wilken, V. : Grundzüge und Chrestomatie der papyruskunde. Leipzig 4 Vols. 1912.

41) Nonnos : Dionysiac, ed. H. J. Rse. Loeb 1952.

42) O'Leary: How the Greek Science passed to the Arabs. London 1951.

43) Parson, E.A. : The Alexandrian Library. London. 1952
Pisentius : The Arabic Life of S. Pisentius. O'Leary — Patrologia Orientalis XXII. Paris 1930.

44) Procopius : Histoire Secrète. 2 Vols Paris 1856.

— Buildings of Justinian, London 1886.

45) Quatremère, E. : Memoires geographiques et historiques sur L'Egypte. 2 Vols. 1811.

46) Reveillot, E. : Memoire sur les Blemmys. Paris 1878.

47) Rice, Talbot : Byzantine Art (Penguin)

48) Robertson, A (ed) : St Athanasius' Works. London 1892.

49) Rouillard, Germain : L'Administration civile de L'Egypte Byzantine Paris 1928.

50) Schnebel, Micheal: Die Landwirtschaft im hellenistischen Aegypten. Munich 1925.

51) Seeck, Otto : Die Briefe des Libanius, Leipzig 1906.

52) Simon, Jules: Histoire de L'Ecole d'Alexandrie. 2 Vols Paris 1845.

53) Segré A. : The Byzantine Colonate. Traditio V. 1947.

— The Annona Civica and the Annona militaris. Byzantion, XVI 1943.

54) Severus: History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria. Paris 1907. Evetts (ed, and Trans).

55) Vasiliev : The Byzantine Empire, Madison, 1952.

56) Wenger, Leopold : Volk und Staat in Agypten am ausgang der Romerherrschaft. Munich 1922.

57) Zotenberg (ed. et Trans) : Chronique de Jean de Nikiôu. Paris 1883 (John of Nikiou : The Chronicle of John, Bishop of Nikiou trans. Charles, London 1916).

58) Zulueta, Francis de : Patronage in the Later Roman Empire (in Paul Vinogradoff, Oxford Studies in Social and Legal History Vol. I). Oxford 1909.

ثالثاً — المصادر والمراجع العربية

١ — ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة جـ ١ ، ٢ ، القاهرة ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ (دار الكتب المصرية) .

٢ — ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها . نشر تورى Torrey نيوهافن ١٩٢٢ ، ونشر هنرى ماسيه — المعهد الفرنسى القاهرة سنة ١٩١٤ .

٣ — أسد رستم : الروم ، جزءان ، بيروت ١٩٥٥ .

٤ — العرينى : كتاب عن الحسبة فى بيزنطة — مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، مايو ١٩٥٧ .

٥ — بتلر : فتح العرب لمصر — ترجمة محمد فريد أبو حديد — القاهرة ١٩٣٣ .

٦ — بل ، آيدريس : مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ترجمة الدكتور عبد اللطيف أحمد على والدكتور محمد عواد حسين ، القاهرة ١٩٥٤ .

٧ — سعاد ماهر وحشمت مسيحة : منسوجات المتحف القبطى .

٨ — كرم ، يوسف : تاريخ الفلسفة اليونانية ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٥٨ .

http://www.al-maktabeh.com

كشاف

عن أسماء الأعلام والشعوب والقبائل والوقائع والمصطلحات

(ا)

أبا كيفالون : ٣٤٢ .

ابن القفطى : ٤٣١ .

ابن عبد الحكم : ٤٠٨ .

أبو قرقاص : ١٨٩ .

أبوللوس (الفلاح) : ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ .

أبوللونوبوليس (قوص) : ١٣٨ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٣٢٦ ، ٣٩٩ .

أبو ايناريس (بطريرك) : ٣٦٦

أبيوف : ٨٥ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١١١ — ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٦ ، ١٩٠ ، ٢٢٩ ، ٢٦١ ، ٣٠١ — ٣٠٣ ، ٣٤٤ .

أتريب : ٢٤٥ ، ٣٧٩ ، ٤١٢ .

اتيـــلا : ٧٠ .

أثناسيوس : ٢٨ ، ٣١ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٦ — ٥٨ ، ٦٣ ، ٢٥١ ، ٢٧٣ ، ٢٩٨ ، ٣٧٢ ، ٣٩٦ .

اثينـــا : ١٣٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

اثيوبيـــا : (انظر الحبشة) .

أجابيتوس (البابا) : ١٥٢ .

أخميم : (أنظر بانوبوليس) .

اخيلوس : ٩٧ ، ٩٩ ، ١١٥ ، ٢٣٢ .
أدرنة (معركة) : ١٣٤ .
أرسطو : ٢٧٩ — ٢٨١ .
ارسينوى : ١٣٩ ، ١٥٨ ، ٢٢٠ ، ٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٥٥ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٢٧ .
أركاديا : ١٠٣ ، ١١٨ ، ١٥٦ — ١٥٩ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ، ٢٠٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤٥ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥٧ .
أركاديوس (الإمبراطور): ٣٠٩ ، ٣١٢ .
آرل (مجمع) : ٥٢
أرمينيا : ٣٨٥ ، ٣٩٥ .
أريطيون (الحاكم البيزنطى) : ٤٠٧ .
اريوس (الأريوسية) : ٣٩ ، ٤٣ — ٥٣ ، ٦٣ ، ٢٤٩ ، ٢٧٤ .
اسبرطة : ٢٦٧ .
اسطفان : ٢٧٩ — ٢٨١ .
اسكندر (أسقف الاسكندرية) : ٤٤ — ٤٧ .
الاسكندرية (السكندريون — كنيسة) : ٨ — ١٤ ، ١٨ — ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٠ — ٣٥ ، ٣٨ ، ٤٠ — ٩١ ، ٩٧ ، ١٠٦ — ١٠٩ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٧ — ١٤٢ ، ١٤٧ — ١٥٢ ، ١٥٦ — ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٧٢ — ١٧٤ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٨ — ١٩٢ ، ١٩٦ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧ — ٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢٢٤ — ٢٢٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ — ٢٩٨ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣١٤ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٧ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨—٣٤١ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٦٠ — ٣٦٣ ، ٣٦٦—٤٠٥ ، ٤١٠ ، ٤١٢ ، ٤١٦ ، ٤١٨ — ٤٣٧ .

اسنا : (انظر لاتوبوليس) .

اسوان : (انظر سيين) .

آسيا الصغرى : ٩ ، ٣٩ ، ٦٦ ، ٧٤ ، ٩٦ ، ٢٥٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٨ ، ٢٩٤ ، ٣٨٣ ، ٣٨٦ ، ٣٩٥ ، ٣٩٩ .

افتونيوس : ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

أفروديتو (كوم أشقاو) : ٩٤ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٥ — ١٢٧ ، ١٣٩ ، ١٦٩ ، ١٧٥ ، ١٨٣ ، ١٨٨ ، ١٩٥ ، ١٩٨ ، ٢٠٥ — ٢٠٩ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٨٢ ، ٢٩٧ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٤ ، ٣٤٨ — ٣٥٦ ، ٣٥٨ .

أفلاطون (الأفلاطونيه) : ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤٨ ، ٢٧٧ — ٢٨٠ .

أفيسوس (مجمع) : ٦٦ ، ٦٩ ، ٧١ — ٧٣ .

أكاسيوس (بطريرك القسطنطينية) : ٧٩ .

أكسوم : (انظر الحبشة)

الفنتين : ٦٧ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩ .

أم دنين (تندونياس) : ٤١٠ .

أمونيوس : ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١١٧ ، ١٢٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢٤٢ ، ٢٧٢ ، ٣٠٣ ، ٣٢٨ .

أنا توليس (بطريرك القسطنطينية) : ٧١ .

أناكريو : ٢٨٢ ، ٢٩٧ .

أنتايو : ١٣٨ ، ١٦٩ ، ١٨٩ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٣٩ ، ٣٢٥ .

أنتيابوليس (العثمانية) : ٥٨ ، ١١٤ ، ١١٨ ، ١٢٤ — ١٢٧ ، ١٥٨ ، ١٦٩ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٤ ، ٢١٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٦٢ ، ٢٨٢ ، ٣٢٤ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ .

انجيلا (بلدة) : ٢٣٤ .

أندرونيكوس (البطريرك) : ٣٧٠ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ .

أنستاسيوس (الإمبراطور) : ٧٩ ، ٩٠ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١٢٩ ، ١٤٠ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٥ ، ١٧٢ ، ١٨٥ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٥٦ .

انستاسيوس (البطريرك) : ٣٧٠ ، ٣٧٧ ، ٣٨٤ .

أنطاكية : ٤٣ ، ٥١ ، ٦٣ — ٦٩ ، ٧٤ ، ٨٠ ، ٢٧٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٣٣٨ ، ٣٦٢ ، ٣٦٩ ، ٣٧٧ ، ٣٨٧ ، ٣٨٦ ، ٣٩٦ .

انطون (القديس) : ٢٤ ، ٢٧ — ٣١ ، ٣٤ ، ٣٦ — ٣٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٢٥٠ .

انوسنت (البابا) : ٦١ .

أنتيموس (بطريرك الأسكندرية) : ١٥١ .

أنتينوى (الشيخ عبادة) : ٩٩ ، ١٥٨ ، ١٧٥ ، ١٨٩ ، ١٩٥ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٣٧ ، ٢٤٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ ، ٣١٨ ، ٣٢٥ ، ٣٥١ ، ٣٥٤ ، ٤٠٥ ، ٤٢٥ ، ٤٢٩ .

أهناسيا (أوكسرنيكوس) : ١١ ، ١٥ ، ٣٩ ، ٨٥ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١١٨ .

اوتيخا : ٧٠ ، ٧١ ، ٧٨ .

اوداكر : ٧٨ .

أورستس (حاكم الاسكندرية) : ٦٢ ، ٢٧٧ .

أوريجين : ٨ ، ١٩ — ٢٤ ، ٤٠ ، ٥٩ ، ٢٤٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ .

أوريليان : ١ ، ١١٩ .

أوغسطس : ١ ، ٢ ، ٤ ، ٨١ — ٨٣ ، ٩٦ ، ١١٢ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ٢٣٠ ، ٢٦١ ، ٢٧١ .

أوغسطين (القديس) : ٦٥ .

أيدوسيا (ابنة هرقل) : ٤١٦ .

إيران : ١٨٠ ، ٢٦٤ .

إيطاليا : ٤ ، ٥ ، ٧ ، ٧٨ ، ٨١ ، ١٣٠ ، ٢٦٢ ، ٢٧٢ ، ٣١٨ .

ايكيلا (فوه) : ٣٣٦ ، ٣٣٩ ، ٣٤٧ ، ٣٦١ .

أيلة : ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

ايلوج : ٣٧٠ ، ٣٩٦ .

اينوخ : ٣١٣ ، ٣١٤ .

(ب)

بابليون : ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ٢٣٧ ، ٢٤٥ ، ٣٧٤ ، ٣٨٢ ، ٣٨٧ ، ٣٩٧ ، ٤٠٩ — ٤٢١ ، ٤٢٥ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٣ .

باخوم : ٣٤ — ٣٩ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ١٠٦ ، ٢٥٠ .

باراتونيوم (عاصمة ليبيا الإدارية) : ١٥٩ ، ١٦٨ .

باسيل (القديس) : ٢٧٢

بافلاجونيا : ٧٤ ، ١٦٣ .

بالاديوس : ٣١ — ٣٦ ، ٣٩ ، ٢٥٨ .

بالامون (ناسك) : ٣٤

بانوبوليس (أخميم) : ٢٦ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ١٨٩ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٦٧ ، ٢٨١ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٣١٨ .

البتراء : ٦٧ .

بتوليمايس (المنشاة) : ١٥٨ .

بثينيا : ٢٠٣ .

البجوات : ٢٨٥ .

البحر الأحمر : ٢٦ ، ٢٧ ، ١٤١ ، ١٨٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ .

بحر الأدرياتى (الأدرياتيك) : ٢٥٥ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

البحر الأسود : ٢٠١ ، ٢١٢ .

البحر المتوسط : ٨ ، ٣١ ، ٩٦ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٨١ ، ٢١٢ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٣٨٨ ، ٤٢٠ .

البربر : ١٣٩ ، ١٤١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٣٢٥ ، ٣٣٧ ، ٣٧٧ .

برقة : ٤٠ ، ٥٦ ، ١٤١ ، ٢٣٤ ، ٢٩٥ ، ٣١٠ ، ٣٩٩ .

برنيس (مدينة الحراس) : ٢٣٣ ، ٢٦٣ .

بروتيريوس (بطريرك الاسكندرية) : ٧٦ ، ١٤٩ .

بروكوبيوس : ٢١٢ ، ٢٩٣ ، ٣٣٣ ، ٣٥٨ .

البطالمة : ٨٢ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ١٠٨ ، ١١٩ ، ٢٦٩ ، ٢٨٢ ، ٣٣١ ، ٣٤٥ .

بطرس (أسقف الاسكندرية) : ٤٠ — ٤٢ ، ٣٦٩ .

بطرس (بطريرك أنطاكية) : ٢٨١ .

بطرس (القديس) : ٧١ ، ٢٩٢ .

بطرس مونجوس : ٧٩ ، ٨٠ .

البلاذرى : ٤٠٨ .

بلوزيوم (بيلوزيوم — الفرما) : ١٤٠ ، ١٤١ ، ٢٣٧ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٧ ، ٣٨٩ — ٤١١ .

البليميون : ٦٧ ، ٦٨ ، ١٦١ ، ١٨٠ ، ٢١٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٦٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

جلينى الصغير : ٢٩١ .

بنتابوليس (المدن الخمسة) : ٦٧ ، ١٤٠ ، ٣٧٧ ، ٣٩٨ .

بندكت (القديس) : ٣٧ .

بنيامين : ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٧ — ٤٠٠ ، ٤٠٤ — ٤٠٦ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ .

البهنسا : ٩٧ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١١ — ١١٥ ، ١٢٦ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨ ، ٢٣٧ ، ٢٦١ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٤ ، ٣٣٦ ، ٣٥٤ .

بوخيس (قرية) : ١٨٩ .

بورفيروس الصورى : ٢٧٩ .

بوصير : ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٤٦ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

بولص التبنيسى (بطريرك الاسكندريه) : ١٥٢ ، ٣٤٦ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ .

بولص الجاثليق : ٣٩٦ .

بولص (القديس) : ١٦ ، ١٧ ، ٢٩٢ .

بولكيريا (زوجة تيودوسيوس الثانى) : ٦٤ ، ٧٠ — ٧٢ .

بومى (مدينة) : ٢٨٣ ، ٢٨٥ .

بوناكيس : ٣٧٧ ، ٣٧٩ .

بونطوس : ٥ ، ٧٦ .

بونوس (معبوث فوكاس) : ٢٤٥ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٦٢ ، ٣٧٧ — ٣٨٠ ، ٣٨٦ .

بويط (دير) : ٢٦٨ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٣١٤ .

بيامون (الراهبة) : ٣٠ .

بيت لحم : ٣٩ ، ٢٩٥ .

بيت المقدس : ٩ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٣٧٧ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٩٣ — ٣٩٥ ، ٣٩٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٧ .

بيروت : ٢٠ ، ٢٧٢ .

بيسنتيوس (بيزنتيوس أسقف قفط) : ٣٦٤ ، ٣٨٩ ، ٣٩١ .

بيلاجيوس : ١٥٢ ، ٣٦٥ .

(ت)

تابروبان : (انظر سيلان) .

تاكونا (قرية) : ٢٥٨ .

تانيس : ٣٨١ .

تبنيسي : ٣٥ ، ١٥٢ ، ٢٥١ .

تراجان : ٩ ، ١٣ .

تراقيا : ٥ ، ٧٦ ، ١٥٢ ، ١٦٣ ، ٢٠٣ .

ترتوليان : ١٣ ، ١٤ .

تل النجيلي : (أنظر ميتيلس)

تندونياس : (أنظر أم دنين)

تيباريوس الثاني : ٣٥٩ ، ٣٦٨ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ .

تيران (جزيرة) : انظر يوتاب .

تيموثيوس (بطريرك الاسكندرية) : ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٣ .

تيودور (القائد) : ٢٤٥ ، ٣٣٦ ، ٤٠٩ — ٤١١ ، ٤١٣ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ .

تيودور (البطريرك الخلقدوني) : ٣٤٠ ، ٣٧٨ ، ٣٨٣ .

تيودور (الأوجستال) : ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٠ .

تيودور (أحد المقامرين) : ٢٤٧ ، ٣٦١ .
تيودورا (الإمبراطورة) : ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٦٢ ، ٢٣٣ ، ٢٩٥ ، ٣٣٣ ، ٣٦٦ .
تيودوريت : ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ .
تيودوسيوس (البطريرك) : ١٥٠ ، ١٥٢ ، ٢٥٣ ، ٣٦٧ .
تيودوسيوس الثانى (الإمبراطور) : ٤٠ ، ٥٦ ، ٦٤ — ٦٦ ، ٧٠ — ٧٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٠ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ٢٣٢ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٣٦٥ .
تيوفيل (بطريرك الاسكندرية) : ٢٠ ، ٢١ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٧٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩٨ .

(ث)

ثيس (قرية) : ٣٥١ ، ٣٥٥ .
ثيكلا : ٢٩٦ .
ثيودريك : ٧٨ .
ثيون (عالم رياضى) : ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

(ج)

جائينوس (البطريرك) : ١٥٠ ، ١٥١ .
الجابية : ٤٠٧ .
جالينوس (الامبراطور) : ١٥ .
جان موسكوس ، ٣٢٥ .
الجرمان : ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ .
جريجورى (أسقف الأسكندرية) : ٥٠ ، ٥١ .
جريجورى الكبير (البابا) : ٣٧٠ .

جريجورى ثاومايترج (القديس) : ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

جستنيان : ٨٧ — ٩١ ، ٩٦ ، ١٠٢ — ١٠٤ ، ١١٢ ، ١١٧ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٤٤ — ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٨ ، ١٨٠ — ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٩٠ — ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ — ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٥٣ — ٢٥٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٧ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ — ٣٢٨ ، ٣٣٩ — ٣٤٣ ، ٣٤٦ — ٣٥٠ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧ — ٣٦٧ ، ٣٩٢ .

جستين الأول : ٢٥٤ .

جستين الثانى : ٣٠٤ ، ٣٤٥ — ٣٥٩ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

جورج القبا دوقى : ٥٣ ، ٥٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

جوليان (الباجرك) : ١٢٥ ، ٣٢٨ .

جوليان (المرتد) : ٥٤ ، ٥٥ ، ٢٧٣ ، ٢٨٤ .

جيروم : ٣١ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٢٥٨ .

جيرمى (دير القديس أرميا) : ٢١٧ ، ٣١٢ — ٣١٥ .

(ح)

الحبشة (الأحباش — الأثيوبيون) : ٣٥ ، ٥١ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٨٠ ، ١٩٠ ، ٢٥٢ ، ٢٦٣ — ٢٦٦ ، ٣٣٢ ، ٣٤٨ .

حنا (الدوق الأوجستال) : ١٤٢ ، ٢٤٤ — ٢٤٧ ، ٣٤٧ ، ٣٦١ ، ٣٧٨ .

حنا فيلوبونوس : ٢٧٩ — ٢٨١ .

حنا المارونى : ٤١٠ ، ٤١١ .

حنا المتصدق (بطريرك الاسكندرية) : ١٧٤ ، ٣٥٢ ، ٣٦٤ ، ٣٧٠ ، ٣٨٢ — ٣٩١ .

حنا موسكوس : ٣٨٣ .

http://www.al-maktabeh.com

حنا النقيوسى : ٢١٢ ، ٢٣٧ ، ٢٤٧ ، ٣١٢ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ ، ٤١٨ ، ٤٢٣ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ .

(خ)

خارجة بن حذافة السهمى : ٤١٩ .

خلقيدونيه : (مجمع) . ٤٠ ، ٦٠ ، ٧٢ ، ٧٤ — ٧٩ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٢ ، ٢٩١ ، ٣٠٥ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨٣ ، ٣٩٦ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ .

الخليج الفارسى (العربى) : ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

(د)

داسيا (الداسيون) : ٥ ، ١٣٨ ، ٢٣٩ .

داميان (القديس) : ٢٥١ ، ٢٩٦ ، ٣٧٠ ، ٣٨٤ .

داميان : (البطريرك) : ٢٨٠ ، ٣٦٩ .

الدانوب (نهر) : ٣ ، ٥ ، ١٣٥ ، ٢٠٠ .

دانيال (حاكم بنتابوليس) : ١٤٠ .

دانيال (القديس) : ٢٩٢ ، ٣٢٥ .

دفاشير (قرب مريوط) : ٤٠٦ .

دقلديانوس : ١ — ٤ ، ٧ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٨٣ ، ٨٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١١٥ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ٢٠٢ ، ٢١٢ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٥٣ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٩٥ ، ٣٠٨ ، ٣٣٣ .

دكيوس : ١٣ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٦ .

دمسيس : ٤٢١ .

دمنهور : ٤٢١ .

دندرة (إقليم) : ٣٤ ، ٣٥ .

دوديكاشونيون (دوديكاشينوس) : ١٤٠ ، ٢٣٢ .

دورتيوس الطيبى : ٣٠ .

دومنتيانوس (حاكم الفيوم) : ٤١٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٨ .

الديداسكاليه (مدرسة الاسكندرية) : ١٠ ، ٢٧٠ — ٢٧٩ .

دير أبو للو : ٣١٤ .

الدير الأبيض : ٣٨ ، ٣١٧ ، ٣٧٢ ، ٤٠٥ .

الدير الأحمر : ٣١٧ .

دير أندرياس : ١٠٧ .

دير ايناتون : ٢٧٠ .

دير شنودة : ٤٠٥ .

دير قبريوس : ٣٩٠ .

دير القديس أنطون : ٢٣٤ ، ٣٨٧ .

دير مطرة : ٤٠٦ .

ديركوس (قلعة) : ٣٦٥ .

ديمتريوس (أسقف الاسكندرية) : ١١ ، ٢٠ .

ديوسقورس (بطريرك الاسكندرية) : ٥٧ ، ٦٨ — ٧٣ ، ٧٦ — ٧٩ ، ١٤٩ ، ٢٥٦ ، ٣٠٥ ، ٣٦٣ .

ديوسقورس (من سكان أفروديتو) : ١٠٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ .

ديوسقورس (الوالى الأوجستال) : ١٥٠ ، ٣٢٥ ، ٣٣٤ .

ديوسقورس (الشاعر) : ٢٥٨ ، ٢٩٧ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٢٢ ، ٣٤٩ .

ديوسكوريد : ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

ديونيسيوس : ١٤ ، ١٦ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٨١ .

(ر)

راسيل (القديسة) : ٣١٤ .

رشيد : ٤٢٩ .

رفح : ٢٣٣ ، ٤٠٨ .

الرواقيون : ٢٧٠ .

رودس : ٣٨٨ .

روما (الرومان) : ١ ، ١١ — ١٣ ، ٣٩ ، ٥٠ — ٥٢ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦١ ، ٦٥ — ٧٦ ، ٧٨ — ٨١ ، ٩٨ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ٢٠٢ ، ٢٣٠ ، ٢٦٩ ، ٢٧٦ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٩٢ ، ٣٣٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٧ ، ٤٠١ .

(ز)

زاجروس (جبال) : ٣٩٤ .

الزبير بن العوام : ٤١٨ .

زكريا (البطريرك) : ٣٨٧ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ .

زكريا (الفليسوف) : ٢٧٩ .

زويل (البطريرك) : ٣٦٦ .

زيلع : (أنظر عدول) .

زينون (الإمبراطور) : ٧٨ ، ١٠٢ ، ١٤٩ ، ٢٧٩ .

زينون القبرصى (الطبيب) : ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

(س)

سابيليوس (أسقف ليبيا) : ٤٣ ، ٤٤ .

الساسانيون : ٢٣٧ ، ٢٦٠ ، ٢٩٤ .

سالونيك : ٣٧٧ .

سان سيمون (دير) : ٢٣٦ ، ٣١٦ .

ساويرس (الأسقف) : ٣٤٦ .

ساويرس الأشمونى : ٣٦٧ ، ٣٩٧ .

سايس : ٢٣٧ .

سبانيا (قرية) : ٣٣٥ .

سبتيموس سفيروس : ١٢ ، ١٣ ، ٢٠ ، ٨٣ .

سبيل (القديس) : ٣١٤ .

سخا : ٤٢١ .

سرجيوس (بطريرك القسطنطينية) : ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٩٣ ، ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ .

سفاجه : ٢٣٣ .

السفسطائيون : ٢٧٨ .

سفيروس الأنطاكى : ١٤٩ .

سفيروس المنوفيزتى : ٨٠ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

سقارة : ٣١٢ .

سقيط (صحراء) : ٣١ ، ٢٣٤ ، ٣٦٧ ، ٣٧٢ ، ٤٣٧ ، ٣٤٠ .

سلستين الأول (بابا روما) : ٦٥ ، ٦٦ .

http://www.al-maktabeh.com

سنود (سبنيتوس) : ٢٤٥ ، ٣٤١ ، ٣٧٩ ، ٤١٢ .

السند : ٢٦٥ .

السويس : (انظر القلزم) .

سيرابيس : ٣٤ ، ٢٧٤ — ٢٧٦ ، ٣٠٠ .

سيرابيوم : ٢٥ ، ٧٦ ، ١٤١ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٦٤ ، ٢٧١ — ٢٧٦ ، ٢٨٣ ، ٢٨٨ .

السيزيون : ١٢٥ ، ١٣٨ .

سيلان (جزيرة تابروبان) : ١٨٠ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

سيمون (سمعان البرقى) : ٢٩٥ .

سيناء : ٢٣٥ ، ٢٨٥ .

سيوة (واحة آمون) : ٢٣٤ ، ٣٠٨ .

سين (أسوان) : ٣٩ ، ١٣٧ — ١٤١ ، ١٩٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٨٩ ، ٣١٦ ، ٣٢٤ ، ٣٨٢ ، ٣٨٩ .

(ش)

شاهين (قائد الفرس) : ٣٨٧ .

شنوده (دير) : ٦٨ .

شنوده الأتريبى : ٣٨ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٣٠٧ ، ٣١٧ ، ٣٨٩ .

شهر برز (قائد الفرس) : ٣٨٦ .

الشيخ فضل : (أنظر كينوبولس) .

شيرويه : ٣٩٤ .

(ص)

الصحراء الشرقية (العربية) : ١٤٠ ، ١٤١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

الصحراء الغربية (الليبية) : ١٤٠ ، ١٤١ ، ٢٢٩ ، ٣٠٨ ، ٣٦٨ .

صرابيون : ٢٥٠ .

صفرونيوس : ٣٨٣ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٧ .

صقلية : ٢٦٣ ، ٣٨٨ .

صمويل القلمونى : ٣٤٦ ، ٣٧٣ ، ٤٠٤ .

صور (مجمع) : ٢٠ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٦٩ .

صوفية (القديسة) : ٢٢٣ ، ٢٩٢ .

الصين : ١٨٠ ، ٢٤٨ ، ٢٦٤ ، ٢٨٣ .

(ط)

طرابلس : ٣٧٧ .

الطرانة (كوم أبو بللو) : ٢٦١ ، ٣١٠ ، ٣٩٩ .

طرسوس : ٢٥٩ .

طوخ : ٤٢١ .

طولطيس (قرية بالبهنسا) : ٣٥٤ .

طيبه : ٣٠ ، ٣٨ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٨٢ ، ٩٤ ، ٤٠٤ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ — ١٦٩ ، ١٨٣ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢١٦ — ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ — ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٨٢ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣١٧ ، ٣٢٥ ، ٣٢٨ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٦ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٤٠٢ ، ٤٠٥ ، ٤٢٥ .

(ع)

عبادة بن الصامت : ٤١٥ ٠

عبد الله بن سعد : ٤٣٢ ٠

عثمان بن عفان : ٤٣٢ ٠

العثمانية : (انظر انتيابوليس) ٠

عدال : ٢٦٣ ، ٢٦٤ ٠

عدن : ٢٦٣ ، ٢٦٤ ٠

عدول (ميناء زيلع) : ١٨٠ ٠

العراق : ٩٦ ، ٤٢٩ ٠

العرب (بلاد العرب) : ٧٥ ، ١٠٦ ، ١٢٩ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٨١ ، ١٨٩ ، ٢٣٧ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢ — ٢٦٤ ، ٣١٠ ، ٣١٥ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٣٠ — ٣٣٤ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٤٠٧ — ٤٣٠ ، ٤٣٣ — ٤٣٥ ، ٤٣٨ ٠

العريش : ٢٣٣ ، ٢٣٧ ، ٣٨٧ ، ٤٠٨ .

العقبة (خليج) : ١٨١ ٠

عمر بن الخطاب : ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٤١٩ ، ٤٢٦ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ٠

عمرو بن العـــاص : ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٠ — ٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٨ — ٤٣٦ ٠

(غ)

غاله (غاليا) : ٤ ، ٥ ، ٣٩ ، ١٣١ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ ٠

الغنوسية (الغنوسيون) : ٩ ، ١١ ، ١٧ — ٢٠ ، ٢٧٤ ٠

(ف)

فارسان (جزائر) : ٢٦٤ .

فاروس (حصن) : ٣٧٩ .

فاسيس : ٣٩٦ ، ٣٩٨ ، ٤٠٤ .

فالنتيان الأول : ٦٦ ، ٨٩ .

فالنتيان الثالث : ١٢٩ .

فالنز (الأمبراطور) : ٤٠ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٨٨ ، ٢٤٦ .

فثلا (قرية) : ٣٥١ .

الفرات (نهر) : ٣ ، ١٣٥ .

الفرس (فارس) : ٧٥ ، ١٨٠ ، ٢٣٩ ، ٢٤٥ ، ٢٦٤ — ٢٦٦ ، ٢٧٨ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٩٤ ، ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٦٤ ، ٣٧١ ، ٣٧٥ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ — ٣٩٠ ، ٣٩٣ — ٣٩٨ ، ٤٠٣ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ .

فريجيا : ٢٠٣ .

فسباسيان : ١٢٠ .

الفسطاط : ٢٥٩ ، ٣١٠ ، ٤١٢ ، ٤٢٩ ، ٤٣٤ .

فلافيان (بطريرك القسطنطينية) : ٦٩ — ٧١ .

فلافيوس أبيون (من أعيان البهنسا) : ٢٢٨ .

فلافيوس ماريانوس (دوق طيبه) : ٢١٦ ، ٣٣٣ ، ٣٤٩ .

فوكاس (فوقاس) : ٢٤٥ ، ٣٣٨ — ٣٤١ ، ٣٥٩ ، ٣٦٢ ، ٣٧٠ ، ٣٧٦ — ٣٨١ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ .

فويبامون (السكونت) : ١٨٩ ، ٢٢٣ ، ٣٠٤ ، ٣٥٣ .

فويبامون (القديس) : ٢٨٦ ، ٢٩٦ ، ٣٠٦ ، ٣١٦ .

فيجيلوس (البابا) : ٣٦٤ .

ڤيكتور (أسقف الفيوم) : ٤٠٥ .

ڤيكتور (من أفروديتو) : ١٣٩ ، ٣٢٦ .

ڤيكتور (القديس) : ٢٩٦ .

فيلادلفيا (كوم الخرابه) : ١٠١ ، ١٠٨ ، ١٠٩ .

فيلة (جزيرة) : ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٩٠ ، ٢٣٢ — ٢٣٦ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٣٢٥ .

فيلو (الفيلسوف) : ٢٦ ، ٦٤ .

فيلو بولس : (انظر حنا) .

الفيوم (انظر اهناسيا) : ١١ ، ١٤ ، ٢٨ ، ٩٧ ، ١٠٥ ، ١١٦ ، ١٢٨ ، ١٥٨ ، ١٧٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ ، ٢٥٥ ، ٢٨٥ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠١ ، ٤١٠ — ٤١٣ ، ٤٢٨ ، ٤٣٢ ، ٤٣٨ .

(ق)

قبرص : ٣٨٧ ، ٣٨٨ .

قزمان (القديس) : ٣٧٠ ، ٣٨٤ .

القسطنطينية : ٢ ، ٥ ، ٢١ ، ٤٩ ، ٥٦ — ٧٢ ، ٧٥ — ٨٠ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥١ — ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٧٧ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٩٦ ، ٢٠٢ — ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ — ٢١٤ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٨ ، ٢٨٣ ، ٣٠٨ ، ٣٣٣ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ — ٣٤٩ ، ٣٥٥ ، ٣٦٠ — ٣٦٢ ، ٣٦٥ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٧٢ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٦ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٤١١ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤٢٢ ، ٤٢٤ ، ٤٢٨ .

القصير : (انظر ميوس هورمز) .

قفط : ١٤١ ، ٢٣٣ ، ٢٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٨٩ ، ٣٩١ .

القلزم : ١٤١ ، ١٩٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٦٣ .

قمن العروس : ٢٧ .

قنسطانز : ٥٠ — ٥٢ ، ٤٢٢ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ .

قنسطنطين : ١ ، ٢ ، ٤ ، ٣٤ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١٣٠ — ١٣٣ ، ١٨٤ ، ٢٠٣ ، ٢٢١ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٨٩ .

قنسطنطين بن هرقل : ٤٠٨ ، ٤٢٢ .

قنسطنطينا (الإمبراطورة) : ٤٤

قنسطنطيوس : ٥٠ — ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ١٠٢ .

قوص : (أنظر أبو للونوبوليس) .

القوقاز : ١٣٥ ، ٤٠٤ .

قيرس : (انظر كيرس) .

قيسارية : ٢٠ ، ٣٧٩ ، ٣٨٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ .

قيصرية : ٢٧٣ .

(ك)

كارانيس (كوم أوشيم) : ١٧٩ ، ٢٦٠ .

كاسيان : ٣١ ، ٣٩ .

كالوتيخيوس (الطواشى) : ١٥٠ .

كانوب : ٣٥ ، ١٠٧ ، ١٥٢ ٢٧٥ .

كراكلا : ١٠٩ ، ١٢٠ ، ١١٣ ، ٢٣٠ ، ٢٧١ ، ٣٣٠ .

كركيه (قرية) : ٢٢٠ ، ٢٤٣ .

كريسافيوس (الطواشى) : ٦٩ ، ٧٠ .

http://www.al-maktabeh.com

كريون (مدينة) : ٤٢٠ .

كسرى الثانى : ٣٣٢ ، ٣٨٥ — ٣٨٩ ، ٣٩٤ .

كلمنت (الاسكندرى) : ٨ ، ١١ ، ١٣ ، ١٨ — ٢٠ ، ٢٤٩ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ .

كلوديوس : ٧ ، ٩ ، ٩٧ ، ٢٧١ .

كليزما : (انظر القلزم) .

كنيسة أبى سرجة : ٣١٧ .

كنيسة أركاديوس : ٢٥٠ ، ٢٧٥ ، ٣٠٩ .

كنيسة انجليون : ٣٩٠ .

كنيسة تيودور : ٣٧٨ .

كنيسة تيوناس : ٥٢ ، ٢٥٠ .

كنيسة القديس أثناسيوس : ٣٤٠ ، ٣٧٨ .

كنيسة القديس انجيلوس : ٣٨٤ .

كنيسة القديس مرقص : ٤٣٧ .

كنيسة القديس مقاريوس : ٤٣٧ .

كنيسة القديس ميخائيل : ٣٨٤ .

كنيسة قيصريون : ٥٣ ، ٢٧٧ ، ٤٢٣ .

كنيسة المعلقة : ٣١٧ ، ٤١٣ .

كنيسة المعمودية : ٥٠ .

كنيسة النوبة : ٣٦٨ .

كوزما (القديس) : ٢٥١ ، ٢٩٦ .

كوزماس (رحالة الهند) : ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

كوللوثوس : ٢١٦ ، ٢٩٦ ، ٣٠٣ ، ٣٢٥ .

كوم أبو بيلو : (انظر الطرانة) .

كوم اشقاو : (أنظر افروديتو) .

كوم الخرابة : (انظر فيلادلفيا) .

كيرس (قيرس — المقوقس) : ٣٣٢ ، ٣٤٦ ، ٣٧١ — ٣٧٤ ، ٣٩٩
— ٤١٦ ، ٤٢١ — ٤٣٠ ، ٤٣٣ — ٤٣٧ .

كيرلس (بطريرك الاسكندرية) : ٢١ ، ٥٧ ، ٦١—٦٩ ، ٧٧ ، ٧٩ ،
٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٦١ ، ٢٩٨ ، ٣٠٧ ، ٣٦٣ ، ٣٩١ ،
٣٩٦ ، ٣٩٧ .

كيروس (دوق طيبة) : ١٦١ .

كيلسوس : ٢٢ ، ٢٣ .

كينوبولس (الشيخ فضل) : ١٥٨ ، ٢٠٧ ، ٣٠١ .

(ل)

لاتوبوليس : ٣٥ .

لاكسريون : ١٦٢ ، ٣٦٠ .

لكيون (جزيرة) : ٣٣٦ .

ليبانيوس (والى الاسكندرية) : ٨٨ .

ليبانيوس (عالم البلاغة اليونانى) : ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

ليبريوس (البابا) : ٥٢ .

ليبريوس (الدوق الأوجستال) : ١٦١ ، ٣٦٠ .

ليبيا (الليبيون) : ٤٣ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ١٤١ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ،
١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٨٢ ، ١٨٧ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ،
٢٠٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣ ،
٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥٤ ، ٢٨٥ ، ٣٧٣ ، ٤٠٢ .

ليكينوس (ليسينوس) : ٣٤ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ١٠٦ ، ٢٧٠ ٠
ليو (بابا روما) : ٦٩ — ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٩ ٠
ليو الأول (الإمبراطور) : ٨٥ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١١٨ ، ١٦٩ ٠
ليو الخلقدونى : ٣٩٦ ٠
ليونتيوس (حاكم مريوط) : ٣٧٧ — ٣٧٩ ٠
ليونتيوس (صاحب نابلس) : ٢٨٣ ٠

(م)

مارقيان : ٧٢ ، ٧٣ ٠
ماركوس أوريليوس : ٢٣ ٠
المازيك : ١٤٢ ، ٢٣٤ ، ٣٢٥ ٠
المتوكل (الخليفة العباسى) : ٣٠٩ ٠
مرقس (القديس) : ٨ ، ١١ ، ٢٦ ، ٢٥٠ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣١٨ ٠
مريوط : ٢٦ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٨ ، ١٩٤ ، ٢١٨ ، ٢٢٥ ، ٢٤٥ ، ٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٦٢ ، ٣٠٨ ، ٣٦٨ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٥ ، ٤٢٠ ٠
مقار (مكاريوس الراهب) : ٣٢ ٠
مقدونيا (المقدونيون) : ٥ ، ١٣٨ ٠
المقوقس : (انظر كيرس) ٠
مليتيوس الأسيوطى : ٤٢ ، ٤٣ ٠
المنشاة : (انظر بتوليمايس) ٠

منف : ١٤١ ، ٣١٢ .

منوف (مدينة) : ٣٣٨ ، ٣٦٢ ، ٣٧٩ ، ٤١٢ ، ٤١٣ .

موريس (الإمبراطور) : ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٦ ، ٣٣٦ ، ٣٤٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٧٦ ، ٣٨٥ .

ميتانوس (دير ميتانويا) . ١٠٧ ، ١١٨ ، ١٢٧ ، ٢٠٨ .

ميتيلس (تل النجيلى قرب المطف) : ٢٤٦ .

ميخائيل (القديس) : ٢٩٦ .

ميرادا (مدينة) : ٣٣٨ .

ميلان (مرسوم) : ٤٢ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

ميلان (مجمع) : ٥٢ .

مينا (مشهد القديس) : ٢٥٩ ، ٣٠٨ — ٣١١ .

ميناس (الباجرك) : ١٦٩ ، ٣٢٥ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٤٢٢ .

مينيلاتيس (ميفيلايت — مينيلائيتس) : ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٨ ، ١٩٤ ، ٢١٨ ، ٢٢٥ ، ٢٥٤ .

ميوس هورمز (أبو شعر القبلى — القصير) : ٢٣٣ ، ٢٦٣ .

(ن)

نارسيس (الطواشى) : ١٥١ ، ١٦١ ، ٢٣٣ ، ٢٤٥ ، ٣٨٦

نانوس (الشاعر) : ٥٧ .

نسطوريوس (بطريرك القسطنطينية) : ٦٤ — ٧٢ ، ٧٨ ، ٢٤٩ .

نقيوس (قرية) : ٢٣٧ ، ٣٢٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٧ ، ٣٩٥ ، ٤٠٥ ، ٤١٠ ، ٤١٢ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٣٣ ، ٤٣٧ .

نكيتاس : ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٣٣٨ — ٣٤٠ ، ٣٥٩ ، ٣٦٢ ، ٣٧٠ ، ٣٧٧ — ٣٨٥ ، ٣٩٠ .

النوباد : ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٦٢ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٣٢٥ .
النوبة (النوبيون) : ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٥ ، ٣٦١ ،
النوميديون : ١٢٥ ، ١٦٨ .
نونوس : ٢٤٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ .
نيقوميديا : ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٢٧٢ .
نيقية : ٢٩ ، ٣٠ ، ٤٥ — ٥٠ ، ٥٦ ، ٦٣ ، ٧٨ ، ٣٠٥ ، ٣١٧ .

(هـ)

هدريان : ١٢٠ ، ٢٣٠ ، ٢٥٧ .
هدرا (دير الأنبا) : ٣١٦ .
هراقليوبوليس (الطابية الحمراء بطيبة) : ٢٩٥ ، ٢٩٩ ، ٣٣٣ .
هرقل : ٢٢٢ ، ٢٤٥ ، ٣٣٣ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٦ ، ٣٥٩ ، ٣٦٢ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٧ — ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩٢ — ٤٠٢ ، ٤٠٦ ، ٤١٥ — ٤١٧ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٨ ، ٤٣٤ .
هرقلوناس (ابن هرقل) : ٤٢٢ ، ٤٣٢ .
هرموبوليس (الأشمونين) : ٥٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١١٦ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٦٨ ، ١٧٩ ، ٢٣٨ .
هرمونثيس (أرمنت) : ٣٢٠ .
هرمياس : ٢٩٨ .
هليوبوليس : ١٥٧ ، ٢٣٧ ، ٤١١ ، ٤١٢ .
الهند (الهنود) : ١٠٦ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ٢٣٣ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤ — ٢٦٦ ، ٢٨٣ .
هوزيوس (أسقف قرطبة) : ٤٨ ، ٥١ .
هوميروس : ٥٧ ، ٢٨٢ ، ٢٩٧ .

http://www.al-maktabeh.com

الهون : ٧٠ .

هونوريوس (البابا) : ٤٠١ ، ٤٠٢ .

هيباتى (هيباتيا) : ٥٨ ، ٦٢ ، ٢٥٠ .

هيبتانوميا : ٨٢ ، ١٥٨ .

هيبس : ٢٣٤ .

هيرابوليس : ٣٧١ ، ٣٩٦ .

هيراقلاس : ٢٤ .

هيرونوبوليس : ١٤١ .

هيلانة (القديسه) : ٢٨٩ .

(و)

الواحات : ١٥ ، ٦٧ ، ٢٣٤ ، ٢٦٠ .

الواحات الداخلة : ٢٣٤ .

وادى حلفا : ١٤٠ .

وادى النطرون (نتريا) : ٣١ — ٣٤ ، ٤٠ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٢٣٤ ، ٣٠٨ ، ٣١٧ ، ٣٧٢ ، ٣٩٩ ، ٤٣٧ .

الواندال : ١٣٧ ، ٢٣٩ .

(ى)

يعقوب البردعى : ٣٦٦ ، ٣٦٨ .

اليمن : ١٨٠ ، ٢٦٣ .

يهوذا الثانى (لقب البطريرك بولص) : ١٥٢ .

يوتاب (جزيرة تيران) : ١٨١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

يوحنا المعمدان : ٢٥٠ .

يوزبيوس (أسقف نيقوميديا) : ٤٤ — ٤٦ ، ٥٠ ، ٧١ .

يوڤينال (الشاعر) : ٢٨٢ .

يوليان (الإمبراطور) : ٩٧ .

يوليوس (البابا) : ٥٠ .

اليونان (اليونانيون) : ٥ ، ٩ ، ١٨ ، ٢٣ ، ٨٣ ، ١٣٢ ، ٢٧٢ ، ٣١٧ ، ٣٣٩ ، ٣٧٧ ، ٣٨٢ .

تصحيحات

صفحة	سطر	الصيغة المراد إثباتها
٣	١	الإمبراطور
٣	٢	الإمبراطور
٣	١٥	حدودها
٥	١	ايلليريا
٥	٢٣	غاليا
٦	٣	وبعده
٧	٩	امبراطوريين
٨	٦	البنادقة
٩	٢٥	كرم
١١	٢	والفلسفة الوثنية
١١	٢١	بانتاينوس
١١	٢٢	Catechtical
١٢	٦	من التهذيب
١٢	١٤	تقويض
١٢	٢٠	لا تعتبر
١٣	١	بلينى
١٣	٧	أثنـاء
١٣	١٨	المحاكمة
١٤	٨	libellatici
١٦	٩	انشقاق فى الدين
١٨	١٣	متحف الاسكندرية
٢٨	١٩	الناحية السيكلوجية (النفسية)
٢٩	١١	ويعملون
٣٢	١١	ينصرفون
٣٢	١٦	سنة ٣٩٠
٣٣	١٠	ماسوف يلقاه
٣٥	١٤	بانوبوليس
٣٩	٢	البهنسا (أوكسرنيكوس)
٣٩	٣	سيين
٤٠	١	فالنز
٤٢	١	معاملة رفيقهم
٤٢	١٥	سنة ٣١٣
٥٠	٢٥	History
٥١	٦	قنسطانز
٥٢	٢	قنسطانز
٥٦	١	فالنز
٥٧	٥	(٤١٢ — ٤٤٤)
٥٧	١٤	نانوس
٦٠	٥	ولذلك تقرر
٦٠	١٣	المجمع
٦١	١٠	على نهج عمه
٦٥	١٠	أغسطين
٦٧	١٠	ما للكنيسة
٨٤	٨	وجرى تقسيم مصر

صفحة	سطر	الصيغة المراد إثباتها	صفحة	سطر	الصيغة المراد إثباتها
١٠٣	٢٠	هراقليوبوليس	٢٤٦	٨	فالنز
١١٠	٤	adscriptiscii	٢٩٩	٢	جيوفا السبوتى والمسيح
١٣١	١	الفرنجة	٣٢٠	١٣	ولذا كان لزاما
١٣٤	٢	عدد كبير من المغامرين	٣٣٣	١٢	المسيح
١٣٨	١	وانحاز اليهم كل المغامرين	٣٤٥	٩	البلاط البيزنطى
١٥٥	٢١	إدارة خاصة	٣٤٨	١٣	boephos
١٥٩	٢٠	مينيلايت	٣٥١	١٧	boephos
١٦٩	٨	إذ لم يرد	٣٦١	١	ولما وقف على شكاوى
٢٠٢	١٦	وهذا الإجراء	٣٦٩	١٨	البطاركة الملكانيين
٢٠٢	١٧	الجند	٣٧٢	٨	طريقه
٢٠٢	٢١	وتقرر مراجعتها	٣٨٣	٧	ليونتيوس أسقف نابلس

http://www.al-maktabeh.com

If the circumstances of a case are such that we are compelled to admit a gladiator or similar person(1) as a witness, his testimony is not to be believed unless taken under torture. If some of the witnesses contradict the others, even though they are a minority (they may) be believed ... for it is not to numbers that one must look, but to the sincere credibility of the witnesses and to the testimony in which the light of truth most probably resides.

(1) That is, a slave.

There is extant also a rescript of the same emperor to Valerius Verus on ascertaining the credibility of witnesses, in the following terms : "No adequate ruling can be laid down with any fixed precision as to what manner of evidence is sufficient to constitute proof of a given matter. Though not always, yet often the truth of a given matter is discovered without public records. In some cases, the number of the witnesses, in others their rank and authority, in stille others, for example, their unanimous reputation, confirms the credibility of the matter under investigation. Therefore, I can write you only this in brief, that a judicial investigation certainly ought not to be confined exclusively to one kind of proof, but you have to determine what in your best judgment you are to believe or what you think has not been proved to your satisfaction."...

The Julian Law Concerning Violence provides that the following are not permitted to give testimony under this statute against a defendant : a person who has obtained freedom from him or his father, or persons who are under age, or anyone who has been condemned in a public trial and has not been completely reinstated, or who is in chains or in a public prison, or who has hired himself out to fight with wild beasts, or any woman who is or has been a prostitute, or anyone who has been sentenced or convicted for having taken money for giving or withholding testimony. For some persons should not be admitted to credibility of testimony because of deference to persons, others because of the unreliability of their judgment, and still others because of the stigma and public disgrace of their lives.

Witnesses should not be summoned rashly from rgeat distances, and much less should soldiers be called away from their units or duties for the purpose of presenting testimony, as the deified Hadrian ruled in a rescript. ...

The deposition of a slave is to be believed when there is no other proof for getting at the truth.

A father is not a competent witness for a son, nor a son for a father.

It is understood that no one is a competent witness in his own case. ...

(14) RULES OF EVIDENCE[1]

Acts of the Apostles 25 : 16.

It is not the Roman custom to condemn any man before the accused meets his accusers face to face and has an opportunity to defend himself against the charge.

Justinian Digest XXII. iii. 2

The burden of proof is upon the party affirming, not on the party denying.

Justinian Digest XXII. V. (abridged)

The credibility of witnesses should be carefully weighed. Therefore, in investigating their persons attention should be paid first of all to the rank of each, whether a man is a decurion or a plebeian ; and whether his life is honorable and blameless or on the contrary he is a man branded with public disgrace and is reprehensible ; whether he is rich or poor, so that he may readily do something for the purpose of gain ; whether he is hostile to the party against whom he bears testimony, or friendly to the party for whom he gives testimony. For if his testimony is free from suspicion either in view of the person by whom it is borne (because he is honorable), or in view of his motives (because he is motivated neither by gain, nor by favor, nor by hostility), he is to be admitted. Therefore the deified Hadrian stated in a rescript to Vivius Varus, governor of the province of Cilicia, that the person sitting in judgment is better able to know how much credence should be placed in witnesses. The wording of the letter is as follows : "You are better able to know how much credence should be placed in the witnesses ; who they are and of what rank and reputation ; which among them have apparently spoken frankly ; whether they have offered one and the same premeditated story or have without preparation made truesounding answers to the questions you put to them."

---

(1) Lewis, Reinhold : *Roman Civilisation,* vol. 2, p. 550-551.

http://www.al-maktabeh.com

assert, but his human will following his divine and omnipotent will, not resisting it nor striving against it, but rather subject to it. For the will of the flesh had to be moved, but to be subjected to the divine will, according to the all-wise Athanasius. For as his flesh is said to be, and is, the flesh of God the Word so the natural will of the flesh is said to belong to God the Word, and does so belong ; as he himself says, "I came down from Heaven not to do mine own will, but the will of the Father that sent me" (John vi. 38), calling his own that will of the flesh, since the flesh also was made his own.

For as his all-holy and immaculate ensouled flesh was not destroyed by being deified, but persisted in its own state and sphere ; so also his human will was not destroyed by being deified, but was rather preserved, as Gregory the theologian says : "For the willing that we understand to be an act of the Saviour's will is not contrary to God but is wholly deified."

(13) THE MONOTHELITE CONTROVERSY[1]

The Third Council (in Trullo) of Constantinople, 681.

Mansi, xi. 635 C sqq.

(Chalcedon left the Eastern Monophysites in schism, and the Monophysite tendency of the Second Council of Const. had not repealed the Chalcedonian definition. Meanwhile the threat to the Eastern Empire from the Persians and the Arabs made the schism politically dangerous. Cyrus, patriarch of Alexandria, encouraged by the Emperor Heraclius, suggested to Pope Honorius that the schismatics might be reconciled by a formula (which had been put forward by Sergius of Const.) which admitted the two natures but only one "divine-human operation or will". Honorius, who seems to have thought the terminology a matter of indifference, on the ground that the sinless human will of Christ could not be in conflict with his divine will, and that two wills acting in unison are indistinguishable from one will, agreed with this "monothelite" formula, which was published by Heraclius in the Ecthesis, 638. But the successors of Honorius saw in it the thin end of a Monophysite wedge, and Martin in 649 condemned the Ecthesis. There followed a schism which lasted till 681, when the Arab conquest of Egypt and Syria left no reason for conciliating the Monophysites at the expense of antagonizing the West. The Emperor deposed the patriarch, asked Pope Agatho for guidance, and a council reckoned as the Sixth Oecumenical met in the Trullus (domed chamber) of the palace. The Monothelites, including Honorius, were condemned, and the schism was ended.)

(After rehearsing the Chalcedonian doctrine of the person of Christ the definition proceeds :)

We also preach two natural wills in him and two natural operations, without division, without change, without separation, without partition, without confusion. This we preach in accordance with the teaching of the holy Fathers. And two natural wills, not contrary (God forbid), as the impious heretics

(1) Bettenson : *Documents of the Christian Church,* pp. 128-129.

with the Father, and consubstantial with us in respect of his manhood ; we confess thea he, having come down and been made incarnate of the Holy Spirit and the Virgin Mary, the God-bearer, is one, not two ; for we assert that both his miracles and also the sufferings which he, of his own will, endured in the flesh, belong to one single person ; we in no wise admit them that make a division or confusion, or bring in a phantom ; seeing that his truly sinless incarnation from the God-bearer idid not bring about the addition of a Son, for the Holy Trinity existed as a Trinity even when one member, God the Word, became incarnate.

Knowing then that neither the holy orthodox churches in all parts nor the priests who are at their head, the dearly beloved of God, nor our own sovereignty, have admitted, or do admit, any symbol or definition of faith other than the holy teaching aforesaid, we have without hesitation joined ourselves to it. And we write this to you for your assurance, not as producing a new form of faith. And we anathematize any one who has held or holds any other opinion either now or at any other time, whether at Chalcedon or at any synod whatsoever ; and in particular do we anathematize the before-mentioned Nestorius and Eutyches and all who upheld their teachings.

Join yourselves therefore to the Church, your spiritual mather, and in her enjoy the same communion with us, in accordance with the aforesaid one and only definition of the faith, that of the 318 holy Fathers. For your all holy mother, the Church, waits to embrace you as her true children, and longs to hear your voice that she loves so well which has been so long withheld. Hasten then ; for by so doing you will secure for yourselves the favour of our Lord and Saviour and God, Jesus Christ, as well as the approval of our sovereignty.

bearer, approves and readily accepts our harmonious worship and service, so long will the power of our enemies be overwhelmed and dispersed, and the blessings of peace, of favourable weather and abundant crops, and all that is to man's benefit, will be freely bestowed upon us.

Wherefore, since this irreproachable faith is the safe-guard of ourselves and of the Roman commonwealth, we have received petitions from pious archimandrites and hermits, beseeching us with tears that the churches should be restored to unity, that the members should be joined together, which the enemy of all good has from of old striven earnestly to rend asunder, knowing that he will meet with defeat if ever he attacks the body when it is entire. For of the countless generations which time has borne away from this life in the course of so many years it has happened that some have passed away deprived of the laver of regeneration, while others have been carried off without having partaken in the divine Communion ; and murders innumerable have been committed, and not the earth only but the very air has been polluted by the abundance of bloodshed. Who would not pray for the transformation of this state of things into good ?

Therefore we were eager that you should be informed that we and the churches throughout the world neither have held nor do we hold nor shall we hold, nor do we know of any that hold, any other symbol or teaching or definition of faith or creed other than the aforementioned holy symbol of the 318 holy Fathers, which the aforesaid 150 holy Fathers confirmed and if any hold such, we count him an alien. For we are assured that this symbol alone is the safeguard of our sovereignty, as we said, and all who desire the saving illumination are baptized on their acceptance of this alone. This is the symbol followed by all the holy Fathers in council at Ephesus, when they proceeded to pass sentence of deposition on Nestorius and those who followed him in his opinions; which Nestorius we also anathematize, together with Eutyches, and all such as hold opinions contrary to the above-mentioned. At the same time we accept the twelve chapters of Cyril, of blessed memory, late Archbishop of the holy Catholic church of the Alexandrians.

Moreover we confess that the Only-begotten Son of God, himself God, who truly took upon himself manhood, our Lord Jesus Christ, who in respect of his God head is consubstantial

(12) THE HENOTIKON OF ZENO, 482 (1)

Zeno (Emperor, 474-491) apud Evagrius, H.E. III. 14.

(After Chalcedon, Nestorianism, which had flourished in the most easterly part of the Roman Empire, with its centre at Edessa, was propagated in Persia by Barsumas, and thus arose the schismatic Persian (Assyrian) Church. The Monophysites remained strong in Syria and Egypt. Zeno was forced into exile for two years, his rival being supported by the Monophysites, and the Henotikon (Edict of Reunion) sought to end the schism, which was a political danger. But the suggestion of the edict that the Council of Chalcedon might have erred aroused indignation in the West, and Pope Simplicius excommunicated the Patriarchs of Alexandria and Constantinople and the Emperor himself. Hence arose a schism which lasted until the accession of Justin, 518, who reffirmed the definition of Chalcedon.)

The Emperor Zeno Caesar, pious, victorious, supreme, ever-worshipful Augustus, to the very reverend bishops and clergy, and the monks and people throughout Alexandria, Egypt, Libya and Pentapolis.

We are convinced that the source and stay of our sovereignty, its strength and impregnable safeguard, is that only genuine and true faith which, by the inspiration of God, was published by the 318 holy Fathers assembled at Nicaea, and confirmed by the 150 holy Fathers who, in like manner, met in council at Constantinople ; We therefore endeavour night and day by every means, by prayer, by strenuous exertions, by legislation, to promote in every part the increase of the holy Catholic and Apostolic Chruch, the undefiled and immortal mother of our realm ; that the pious laity, remaining in peace and harmony to God ward, may, with the bishops, the dearly beloved of God, the most pious clergy, the archimandrites and monks, offer up acceptably their sacrifice on behalf of our sovereignty. So long as our great God and Saviour Jesus Christ, who was incarnate and born of Mary, the Holy Virgin and God-

---

(1) Bettenson : *Documents of the Christian Church*, pp. 123-126.

(11) THE COUNCIL OF CHALCEDON, 451.

Parallel Furisdiction. Canons 9, 28. Bright, Canons of the First Four General Councils, xli, xlvii[1].

(These canons were denounced by Leo and never accepted in the West.)

9. Any cleric having a suit against another cleric may not leave his own bishop nor have recourse to the secular courts. Let him first try the case before his own bishop, or, with the consent of the bishop, before arbiters agreed on by both parties ...But if a cleric have a case against his own or any other bishop, let it be judged by the synod of his own province. But if any bishop or cleric have a suit against the metropolitan, let him have recourse to the Exarch of the diocese (i.e. the superior metropolitan of a group of provinces) or to the chair of the Imperial city of Constantinople, and plead his cause before him.

28. Following the judgement of the Holy Fathers in all things, and acknowledging the canon of the 150 most religious bishops (i.e. the Council of Const. 381) which has just been read, we also determine and decree the same things with regard to the privileges of the most holy city of Constantinople, New Rome. For to the throne of Old Rome, the Fathers gave privileges with good reason, because it was the imperial city. And the 150 bishops, which the same consideration in view, gave equal privileges to the most holy throne of New Rome ; judging with good reason that the city honoured by the monarchy and the senate, and enjoying equal privileges with the old imperial Rome, should likewise receive equal rank in matters ecclesiastical, holding the second place after her.

We likewise decree that the metropolitans, but only the metropolitans, of the dioceses of Pontus, Asia and Thrace (together with the bishops of those dioceses who are among the barbarians) shal be ordained by the said most holy chair of the most holy church of Constantinople. But that each metropolitan of these dioceses shall ordain the bishops of his province, as has been laid down by the divine canons. ...

(At this time the unit of ecclesiastical, as of imperial organization was the proncince, and a diocese was a group of provinces. These terms were later reversed, taking the meanings which they retain to this day.)

(1) Bettenson : *Documents of the Christian Church,* pp. 116-117.

http://www.al-maktabeh.com

mercy, might accomplish the first design of his affection towards us by a more secret mystery ; and that man, driven into sin by the devil's wicked craftiness, should not perish contrary to the purpose of God.

IV. The Son of God therefore came down from his throne in heaven without withdrawing from his Father's glory, and entered this lower world, born after a new order, by a new mode of birth. After a new order, inasmuch as he is invisible in his own nature, and he became visible in ours ; he is incomprehensible(1) and he willed to be comprehended ; continuing to be before time he began to exist in time. ...By a new mode of birth, inasmuch as virginity inviolate which knew not the desire of the flesh supplied the material of flesh. From his mother the Lord took nature, not sin. Jesus Christ was born from a virgin's womb, by a miraculous birth. And yet his nature is not on that account unlike to ours, for he that is true God is also true man. There is no unreality in this unity since the humility of the manhood and the majesty of the deity are alternated (invicem sun, or "exist in reciprocity"). For just as the God (deity) is not changed by his compassion, so the man (manhood) is not swallowed up by the dignity (of the Godhead). Each nature (Form, sc. of God and of servant) performs its proper functions in communion with the other ; the Word performs what pertains to the Word, the flesh what pertains to the flesh. The one is resplendent with miracles, the other submits to insults. The Word withdraws not from his equality with the Father's glory ; the flesh does not desert the nature of our kind. ...And so it does not belong to the same nature to say "I and the Father are one" and "The Father is greater than I." For although in the Lord Jesus Christ there is one person of God and man, yet the source of the contumely which both share in distinct from the source of the glory which they also share. ...

(1) Not spatially circumscribed.

marvellously unique, ought not to be understood in such a way as to preclude the distinctive properties of the kind (i.e. of humanity) through the new mode of creation. For it is true that the Holy Spirit gave fruitfulness to the Virgin, but the reality of his body was received from her body......

III. Thus the properties of each nature and substance were preserved entire, and came together to form one person. Humility was assumed by majesty, weakness by strength, martality by eternity ; and to pay the debt that we had incurred, an inviolable nature was united to nature that can suffer. And so, to fulfil the conditions of our healing, the man Jesus Christ, one and the same mediator between God and man, was able to die in respect of the one, unable to die in respect of the other.

Thus there was born true God in the entire and perfect nature of true man, complete in his own properties, complete in ours (totus in suis, totus in nostris). By "ours" I mean those which the Creator formed in us at the beginning, which he assumed in order to restore ; for in the Saviour there was no trace of the properties which the deceiver brought in, and which man, being deceived, allowed to enter. He did not become partaker of our sins because he entered into fellowship with human infirmities. He assumed the form of a servant without the stain of sin, making the human properties greater, but not detracting from the divine. For that "emptying of himself," whereby the invisible rendered himself visible, and the Creator and Lord of all willed to be a mortale, was a condescension of compassion, not a failure of power. Accordingly, he who made man, while he remained in the form of God, was himself made man in the form of a servant. Each nature preserves its own characteristics without diminution, so that the form of a servant does not detract from the form of God.

The devil boasted that man, deceived by his guile, had been deprived of the devine gifts and, stripped of the dower of immortality, had incurred the stern sentence of death ; that he himself had found some consolation in his plight from having a companion in sin. He boasted too that God, because justice required it, had changed his purpose in respect of man whom he had created in such honour, therefore there was need of a dispensation for God to carry out his hidden plan, that the unchangeable God, whose will cannot be deprived of its own

(10) THE TOME OF LEO[1]

Leo, Bishop of Rome, 440-461, Ep. xxviii (to Flavian),

13 June 449.

"Peter has spoken through Leo. This is the teaching of Cyril. Anathema to him that believes otherwise" (the bishops at Chalcedon).

I. (Eutyches' foolishness and misunderstanding of Scripture.)

II. He did not realize what he ought to hold concerning the Incarnation of the Word of God, and he had not the will to seek out the light of understanding by diligent study in the wide range of Holy Scripture. But he might at least have received with careful hearing that common and universal confession, in which the whole body of the faithful acknowledge their belief in GOD THE FATHER ALMIGHTY AND IN JESUS CHRIST HIS ONLY SON OUR LORD WHO WAS BORN OF THE HOLY GHOST AND THE VIRGIN MARY. For by these three statements the devices of almost all heretics are overthrown. God is believed to both Almighty and Father ; it follows that the Son is shown to be co-eternal with him, differing in no respect from the Father. For he was born God of God, Almighty of Almighty, co-eternal of eternal ; not later in time, not inferior in power, not dissimilar in glory, not divided in essence. The same only-begotten, eternal Son of the eternal Father was born of the Holy Ghost and the Virgin Mary. But this birth in time had taken nothing from, and added nothing to that divine eternal nativity, but has bestowed itself wholly on the restoration of man, who had been deceived : that it might overcome death and by its own virtue overthrow the devil who had the power of death. For we could not overcome the author of sin and death, unless he taken our nature and made it his own, whom sin could not defile nor death retain, since he was conceived of the Holy Spirit, in the womb of his Virgin Mother, whose virginity remained entire in his birth as in his birth as in his conception...... That birth, uniquely marvellous and

(1) Bettenson : *Documents of the Christian Church*, pp. 69-72.

to enter. Gorgonius the commander of the city force knows this, for he was present. And no unimportant evidence of the nature of this hostile assault is afforded by the circumstances, that the armour and javelins and swords borne by those who entered were left in the Lord's house. They have been hung up in the church until this time, that they might not be able to deny it, and although they sent several times Dynamius the soldier, as well as the commander of the city police, desiring to take them away, we would not allow it, until the circumstances was known to all.

6.—Now if an order has been given that we should be persecuted, we are all ready to suffer martyrdom. But if it be not by order of Augustus, we desire Maximus the Prefect of Egypt and all the city magistrates to request of him that they may not again be suffered thus to assail us. And we desire also that this our petition may be presented to him, that they may not attempt to bring in hither any other Bishop : for we have resisted unto death, desiring to have the most Reverend Athnasius, whom God gave us.

http://www.al-maktabeh.com

a war has been waged against the Church, and that, in the times of Augustus Constantius, Syrianus has caused virgins and many others to become martyrs.

3.—As it dawned upon the fifth before the Ides of February, that is to say, the fourteenth of month Mechir, while we were keeping vigil in the Lord's house, and engaged in our prayers (for there was to be a communion on the Preparation), suddenly about midnight, the most illustrious Duke Syrianus attacked us and the Church with many legions of soldiers armed with naked swords and javelins and other warlike instruments, and wearing helmets on their heads ; and even while we were praying, and while the lessons were being read, they broke down the doors. And when the doors were burst open by the violence of multitude, he gave command and some of them shot their arrows ; others shouted, their arms rattled, and their swords flashed in the light of the lamps ; and forthwith the Virgins were slain, many men were trampled down, and fell over one another as the soldiers came upon them, and several were pierced with arrows and perished. Some of the soldiers also betook themselves to plundering, and stripped the Virgins naked, who were more afraid of being even touched by them than they were of death.

4.—The Bishop continued sitting upon his throne, and exhorted all to pray. The duke led on the attack, having with him Hilarius the notary, whose part in the proceedings were shown in the sequel. The Bishop was seized, and hardly escaped being torn to pieces ; and having fallen into a state of insensibility, and appearing as one dead, he disappeared from among them, and has gone we know not whither. They were eager to kill him. And when they saw that many had perished, they gave orders to the soldiers to remove out of the sight the bodies of the dead. But the most holy Virgins who were left there were buried in the tombs, having attained the glory of martyrdom in the times of the most religious Constantius. Deacons also were beaten with stripes even in the Lord's house, and were shut there.

5.—Nor did matters stop even here : for after all this had happened, whosoever pleased broke open any door that he could, and searched, and plundered what was within. They entered even into those places, which not even all Christians are allowed

(9) A PROTEST AGAINST THE ARIANS

(circa A.D. 350[1])

1.—The people of the Catholic Church in Alexandria, which is under the government of the most Reverend Bishop Athanasius make this public protest by those whose names are under-written.

We have already protested against the nocturnal assault which was committed upon ourselves and the Lord's house; although in truth there needed no protest in respect to proceedings with which the whole city has been already made acquainted. For the bodies of the slain which were discovered were exposed in public, and the bows and arrows and other arms found in the Lord's house loudly proclaim the iniquity.

2.—But whereas after our Protest already made, the most illustrious Duke Syrianus endeavours to force all men to agree with him, as though no tumult had been made, nor any had perished, (wherein is no small proof that these things were not done according to the wishes of the most gracious Emperor Augustus Constantius; for he would not have been so much afraid of the Consequences of this transaction, had he acted therein by command;) and whereas also, when we went to him, and requested him not to do violence to any, not to deny what had taken place, he ordered us, being Christians, to be beaten with clubs; thereby again giving proof of the nocturnal assault which has been directed against the Church:

We, therefore make also this present Protest, certain of us being now about to travel to the most religious Emperor Augustus; and we adjure Maximus the Prefect of Egypt and the Controllers, in the name of Almighty God, and for the sake of the salvation of the most religious Augustus Constantius, to relate all these things to the piety of Augustus, and to the authority of the most illustrious prefects. We adjure also all the masters of vessels, to publish these things every where, and to carry them to the ears of the most religious Augustus, and to the Prefects and the Magistrates in every place, in order that it may be known that

(1) Historical tracts of St. Athanasius, Archbishop of Alexandria ; Oxford, 1943 : pp. 293-295.
Select Documents of Medieval History, pp. 123-126.

glory to judge living and dead, of whose kingdom there shall be no end:

And in the Holy Spirit, the Lord and the Life-giver, that proceedeth from the Father, who with Father and Son is worshipped together and glorified together, who spake through the prophets:

In one holy Catholic and Apostolic Church:

We acknowledge one baptism unto remission of sins.

We look for a resurrection of the dead, and the life of the age to come.

day, ascended into the heavens, is coming to judge living and dead.

And in the Holy Spirit.

And those that say "There was when he was not,"

and, "Before he was begotten he was not,"

and that, "He came into being from what-is-not," or those that allege, that the son of God is

"Of another substance or essence"

or "created,

or "changeable"

or "alterable,"

these the Catholic and Apostolic Church anathematizes.

(c) The "Nicene' Creed.

(Found in Epiphanius, Ancoratus, 118, c. A.D. 374, and extracted by scholars, almost word for word, from the Catechetical Lectures of S. Cyril of Jerusalem ; read and approved at Chalcedon, 451, as the creed of "(the 318 fathers who met at Nicaea and that of) the 150 who met at a later time" (i.e. at Constantinople, 381). Hence often called the Constantinopolitan or Nicaeno-Constaninopolitan creed, and though by many to be a revision of the creed of Jerusalem held by Cyril.

We believe in one God the Father All-sovereign, maker of heaven and earth, and of al things visible and invisible ;

And in one Lord Jesus Christ, the only-begotten Son of God. Begotten of the Father before all the ages, Light of Light, true God of true God, begotten not made, of one substance with the Father, through whom all things were made ; who for us men and for our salvation came down from the heavens, and was made flesh of the Holy Spirit and the Virgin Mary, and became man, and was crucified for us under Pontius Pilate, and suffered and was buried, and rose again on the third day according to the Scriptures, and ascended into the heavens, and sitteth on the right hand of the Father, and cometh again with

(8) THE NICENE CREED*

(a) The Creed of Caesarea.

Epist. Euseb. apud Socrates, H.E. i. 8.

(At the council of Nicaea (325) Eusebius of Caesarea, the historian, suggested the adoption of the creed of his own church It ran thus :)

We believe in one God, the Father All-sovereign, the maker of all things visible and invisible ;

And in one Lord Jesus Christ, the Word Of God, God of God, Light of Light, Life of Life, Son only-begotten, Firstborn of all creation, begotten of the Father before all the ages, through whom also all things were made ; who was made flesh for our salvation and lived among men, and suffered, and rose again on the third day, and ascended to the Father, and shall come again in glory to judge the living and dead ;

We believe also in one Holy Spirit.

(b) The Creed of Nicaea.

Eusebius' creed was orthodox, but it did not deal explicitly with the Arian position. It was taken as a base, and put forward by the council in this revised form (additions and alterations in italic type) :

We believe in one God the Father All-sovereign, maker of all things visible and invisible ;

And in one Lord Jesus Christ, the Son of God, *begotten of the Father*, only-begotten, *that is, of the substance of the Father*, God of God, Light of Light, *true God of true God*, *begotten not made*, *of one substance with the Father*, through, whom all things were made, *things in heaven and things on the earth ;* who for us men and for our salvation *came down* and was *made flesh*, *and became man*, suffered, and rose on the third

*Bettenson : *Documents of the Christian Church*, pp. 34-37.

and when they had brought her over they would lay her in their cemetry ; without elder or deacon no man could go to that nunnery, and only from one Sunday to the other.

Now in that same nunnery there was a certain sister who was a virgin, and she made herself an object of contempt, and she had had a devil in her ; and the other sisters used to treat her so contemptuously that they would not even allow her to eat with them. And the woman herself was well content at this treatment, and she would go into the refectory and serve the food and wait upon the whole company there, and she became the broom of the whole nunnery ; and indeed she made manifest that which is written in the Book of blessed Apostle, who said, "Whosoever wishes to become a wise man in this world let him become a fool in order that he may become wise". And this woman used to throw over her head a roughly cut piece of cloth, whilst the other women wore veils, well cut and well made, according to the rule which they had, and in this gard she used to minister in the refectory ; and they would not allow her to sit down with them, at the table. And whilst she was eating they never looked at her, and she never touched a whole loaf of bread, but used to eat the broken bits and crusts that fell from the tables, and she drank the rinsings of the basins and of the hands, and they sufficed her ; and she neither reviled anyone of them, nor murmured, nor spoke superfluous words, though they constantly reviled her, and struck her, and thrust her away with harsh words and blows.

http://www.al-maktabeh.com

perfect no law whatsoever is laid down, because their mind is at all seasons occupied with God, but this law which I have laid down for those who have not a perfect mind is laid down for them, so that although they fulfil only such things as are prescribed by the canons they can acquire openness of face. Now very many nuns hold fast unto this law and canon".

And there were living in that mountain about seven thousand brethern, and in the monastery in which the blessed Pachomius himself lived there were living one thousand three hundred brethern ; and besides these there were also other monasteries, each containing about three hundred, or two hundred, or one hundred, who lived together and they all toiled with their hands and lived thereby, and which whatsoever they possessed which was superfluous for them they provided (or, fed) the nunneries which were there. Each day those whose week of service it was rose up and attended to their work ; and others attended to the cooking ; and others set out the tables and laid upon them bread, and cheeses, and vessels of vinegar and water. And there were some monks who went in to partake of food at the third hour of the day, and others at the sixth hour, and others at the ninth hour, and others in the evening, and others who ate once a day only ; and there were some who ate only once a week ; and according as each one of them knew the letter which had been laid upon him, so was his work. Some worked in the paradise(1), and some in the gardens, and some in the black-smith's shop, and some in the baker's shop, and some in the carpenter's shop, and some in the fuller's shop, and some made baskets and mats of palm leaves, and one was a maker of nets, and one was a maker of sandals, and one was a scribe; now all these men as they were performing their work were repeating the Psalms and the Scriptures in order.

And there were there large numbers of women who were nuns, and who closely followed this rule of life, and they came from the other side of the river and beyond it, and there were also married women who came from the other side of the river close by ; and, whensoever anyone of them died, the other women would bring her and lay her down on the bank of the river and go away. Then certain brethern would cross over in a boat and bring her over with the singing of psalms and with lighted candles, and with great ceremony and honour,

(1) i.e. the orchard or place where the trees were.

wearing skull-caps without any nap upon them, and each skull-cap shall have in the front thereof a cross worked in purple.

"VI. And thou shalt establish the monks in four and twenty grades, and to each grade give a letter of the Greek alphabet from Alaf to Taw, every grade a letter".

And the blesed Pachomius performed and fulfilled these things according as he had been commanded by the angel ; and when the head of the monastery asked him that was best to him concerning the affairs of the brethern, the man said unto him, "The voice of Alpha and the voice of Bita salute the head of the monastery". Thus the whole of that assembly of brethern had letters of the alphabet, assigned to them, according to the designation of the four and twenty letters. To those who were upright and simple he assigned the letter yodh (i.e.), and to those who were difficult and perverse he assigned the letter ksi, and thus according to the dispositions and according to the habits and rules of life of the orders of monks did he assign letters unto them.

And he (i.e. the Angel) commanded that a monk who was a stranger and who had a different garb from theirs shall not enter in with them to the table ; and man who sought to be accepted as a monk in that monastery was obliged to labour there for three years, after which he was to receive the tonsure. When the monks were eating together they were to cover up their faces with their head-coverings, that they might not see each other eating, and might not hold converse together over the table, and might not gaze about from one side to other. And he commanded that during each day they should repeat twelve sections of the Psalter, and during each evening twelve sections of the Psalter, and during each night twelve sections of the Psalter, and that when they came to eat they should repeat the Great Psalm.

And the blessed Pachomius said unto the angel, "The sections of the Psalter which thou hast appointed unto us for repetition are far too few" ; and the angel said unto him, "The sections of the Psalter which I have appointed are indeed few, so that even the monks who are small (1) may be able to fulfil the canons, and may not be distressed thereby. For unto the

---

(1) i.e. those who have not the power to become great asceitics.

(7) OF THE BLESSED PACHOMIUS THE GREAT AND OF THE SONS OF HIS MONASTERY, AND OF THE NUNNERIES WHICH WERE IN THE THEBAID[1]

In the country of Thebes, and in the district thereof which is called Tebansis (Tabenna), there was a certain blessed man whose name was Pachomius, and this man led a beautiful life of ascetic excellence, and he was crowned with the love of God and of man. Now, therefore, as this man was sitting in his cell, there appeared unto him an angel who said unto him, "Since thou hast completed thy discipleship it is unnecessary for thee to dwell here ; but come, and go gather together unto thyself those who are wanderning, and be thou dwelling with them, and lay thou down such laws as I shall tell unto thee", and the angel gave him a book (or, tablet) wherein was written the following :

"I. Let every man eat and drink whensoever he wisheth, and according to the strength of those who eat and drink impose work ; and thou shalt restrain them neither from eating nor fasting. Furthermore, on those who are strong thou shalt impose severe labours ; and upon those who are of inferior strength, and upon those who fast thou shall impose light labours.

"II. And thou shalt make for them, a cell, and they shall dwell together three by three.

"III. And they shall partake of food all together in one chamber (or, house).

"IV. And they shall not take their sleep lying down, but thou shalt make for them seats so that when they are sitting down they shall be able to support their heads.

"V. At night time they shall put on garments without sleeves, and their loins shall be girded up, and they shall be provided with skull-caps(2) ; and they shall partake of the Offering on the Sabbath, and on the First Day of the Week,

---

(1) Palladius: *The Book of Paradise*, Vol. I, pp. 214-220.
Select Documents of Medieval History, pp. 119-123.

(2) Or, coverings for the shoulders and heads.

of love, and of righteousness which is the mother of them all, but towards those who were young monks like himself he was not envious, except in one matter only, that is to say, he would not be second to any of them in fair works. And he worked matters in such manner that they were not only not envious of him, but they rejoiced in him and gave thankgiving for him. They used to call him "Theophilus", which is being interpreted, "God-loving", and all the righteous gave him this name ; and some of them loved him like a brother, and some of them like a son.

http://www.al-maktabeh.com

Saint Anthony did not betake himself to the mountain at a great distance from the village, but only at a sufficient distance therefore so that he might be somewhat apart from the habitation of men. And at that time there was in another village on their borders a certain blessed old man, who from his youth up had lived a life of solitary ascetism, and this man the blessed Anthony saw, and was envious of his fair deeds. First of all he also began to live by the side of the village, in places which were free from the feet of men, and whilst living in this abode his mind was rent with doubt about the fair works of the ascetic life, and he gave his soul no rest, for he was constant in meditation about truth.

And whilst asking questions that he might learn somtehing about any of the righteous men who were in that place, in the fervour of his love he used to go forth strenuously to seek him (1); and he did not at first return to his own place, without first of all accepting the person of the man of God. In this manner he himself also received from the sight of each of the righteous men provision for the marvellous way ; and thus was his mode of life at the beginning of his ascetic career. And his thoughts were exceedingly well trained by him at the beginning of his life of righteousness, so that he might not in any wise be anxious about his family, or be fettered by the love of kinsfolk, or be held fast by the affairs of this temporary life; from all these he purged himself that he might be a pure offering unto God. Now, he used also to labour with his hands, because he had heard the words, "If a man doth not work he shall not eat"(2) : with a very little of the produce of the work of his hands he used to provide himself with food, and the rest he spent upon the poor. And he prayed continually for he had heard the words, "Pray, and let it not be tedious unto you"(3) : and he was wont to listen to the reading of the Scriptures in such wise that not one word might fall to the ground, and henceforth he kept in his mind the remembrance of the commandments which he heard, and they became unto him even as the Scriptures.

Now Saint Anthony was the storehouse of fasting, and of prayer, and of ascetic practices, and of patient endurance, and

(1) i.e. the old man mentioned above.

(2) Thessalonians, III, 10.

(3) *Thessalonians,* v. 17.

The Life of Saint Anthony by Athanasius, Archbishop of Alexandria

Now, by race the blessed Anthony was an Egyptian, and he was descended from a noble family, and was, indeed, an owner of slaves. His forefathers were believers, and from his earliest childhood he was brought up in the fear of our Lord; and when he was a child and was being reared among his own kinsfolk he knew nothing of his father or of what went on among his own people. He was so quiet, and his mind was so humble that he did not even trouble his parents with the work of asking questions. He was exceedingly modest, and he was honest beyond measure. He was unable to learn to read or to write because he could not bear the rough behaviour of the boys (in the school).

When his parents died, he was about 18 or 20 years old: and it happened that he had to be the ruler of the house and his sister. It came to pass one day when he was in the church, that a righteous idea entered his mind, and that he began to medidate within himself how the blessed Apostles forsook everything and followed after our Redeemer ; and how the others who succeeded them and walked in their footsteps and sold everything which they possessed and laid the money at the feet of the apostles, that it might be spent upon the poor. Whilst he was meditating these things, the lesson was being read, and he heard our Lord who said unto the rich man(1) "if thou wishest to be perfect, go and sell everything which thou hast, and give to the poor, and take thy cross, and come after Me, and there shall be unto thee treasure in heaven".

On another First Day of the week, he had again entered the Church, at the time of the reading of the Gospel, he listened to the word of our Lord to his disciples "Take no thought for the morrow". (2)

And straightway he received the commandment readily and he went out and distributed which remained to him for his sister among the poor.

(1) St. Matthew XIX, 21.
(2) St. Matthew IV, 25, 31, 34 and St. Mark XIII, II and St. Luke XII, II, 22.

(6) SAINT ANTHONY[1]

Palladius was probably born in Galatia about the year 367, and in the twentieth year of his age (386) he became a monk. According to Tillemont, he first practised ascetism in Cappodocia. He went to Jerusalem in 387. In 388 he went to Alexandria, and became the disciple of Isidore, who took him to a place six miles from the city, and handed him over to Dorotheos the Theban, who had lived in a cave for sixty years. **With** *this ascetic he lived nearly three years endeavouring to learn to subdue the passions of the body, for Palladius himself says that he needed "not only the word but also the labour of the body, and severe physical exercises, even like the young unbroken animal". This, however, he was unable to effect, for a severe illness made it necessary for him to return to Isidore. He went to all the principal monasteries near Alexandria, and conversed with nearly two thousand monks. He then sailed across Lake Mareotis, and came to mount Nitria, where six hundred monks lived. Here he dwelt for a year, and then he withdrew to the inner desert, and made his abode in that part of it which is called "the cells", where he remained for nine years. In 399 Palladius again fell sick. He went back to Alexandria. He became bishop of Bithynia. He seems to have suffered persecution because of his friendship for John Chrysostom. Palladius was deported to Syene (Aswan) in Upper Egypt. During his banishment from his bishopric he spent four years in ,"Antinoe of the Thebaid", ,where, he tells us, dwelt twelve hundred monks who worked with their hands, and he "learned concerning the whole of the system of the religious houses which were there". In 412 he was permitted to leave Syène, but it was not until 417 that his restoration to his diocese was possible. Between 417 and 420 Palladius set to work on the compilation of the "Book of the Paradise", and it was finished in 420.*

The "Book of Paradise" was written at the request of one Lausus, who was the chief chamberlain in the royal household, which has been generally assumed to be that of Theodosius II and for this reason it is commonly known as the "Lausiac History".

---

(1) Palladius & Hieronymus : *The Book of Paradise*, trans. by E. A. W. Budge, Vol. 1, pp. 8-12.
Select Documents of Medieval History, pp. 115-118.

And since the said Christians not only possessed those places in which they were wont to assemble but are also known to have had others belonging not to individual men but to their corporate body, that is the churches, all these, under the provisions of the law we have set forth above, you will give orders to have restored without any uncertainly at all or controversy to the said Christians, that is to the organization and to their places of assembly, observing of course, the aforesaid regulation, that those persons who restore the same without compensation, as we have stated, may look for compensation from our benevolence.

In all these matters you shall employ your most effective intervention for the aforesaid organization of the Christians, that this directive of ours may be fulfilled with all speed, so that in this also thought may be taken for the public peace through our clemency. To this extent it will come about, as set forth above, that the divine favor toward us, which we have already enjoyed in many matters, will continue for all time with good fortune for our successes together with the public happiness. And that, moreover, the form which this decree and benevolence of ours takes may be brought to the knowledge of all, it will be proper for you to issue your proclamation and publish this document everywhere and bring it to the knowledge of all, to the end that the decreeing of this benevolence of ours may not remain unknown.

adopting this policy, namely that we should consider that no one whatsoever should be denied freedom to devote himself either to the cult of the Christians or to such religion as he deems best suited for himself, so that the highest divinity, to whose worship we pay allegiance with free minds, may grant us in all things his wonted favor and benevolence. Wherefore, it is fitting that Your Devotion should know that it is our will that the conditions which were contained in our previous letter sent to your office with respect to the Christians be entirely removed, and that now each one of those who possess the same desire, namely to observe the form of worship of the Christians, should proceed freely to observe the same freely and unconditionally, without any interference or molestation to himself. These matters we decided to explain very fully to Your Solicitude, so that you may know that we have granted to the said Christians free and absolute power to observe their religion. And while you perceive that this indulgence has been granted to the said persons by us, Your Devotion will understand that free and untrammeled freedom in their religion or cult has similarly been granted to others also, in keeping with the peace of our times, so that each person may have unrestricted freedom to practice the cult he has chosen. This has been done by us so that we should not appear to have detracted anything from any form of worship or religion.

And, moreover, with special regard to the Christians we have decided that the following regulation should be set down : That, as for the said places in which they were wont to assemble previously, concerning which a definite regulation was previously contained also in the letter sent to your office, if any person should appear to have purchased them in prior times either from our fisc or from any other source, they shall restore the said places to the Christians without payment or any demand for compensation, setting aside all fraud and ambiguity ; and if any persons have obtained them as gifts, they shall similarly restore the same as quickly as possible to the said Christians; and in addition, if either those who have purchased the said places or those who have obtained them as gifts make some request of our benevolence, let them make the demands of the deputy prefect, so that we may take thought for them too through our clemency. All these things must be transferred to the organization of the Christians by your intervention at once and without delay.

(5) THE "EDICT OF MILAN"[1]

Lactantius On the Deaths of the Persecutors xlviii and Eusebius Ecclesiastical History x. v. 2-14.

Early in A.D. 313 Constantine and Licinius at a conference at Milan agreed upon an Empire-wide religious policy. As a compromise between Licinius' pagan position and Constantine's pro-Christian views, the Roman state adopted a position of neutrality and enunciated a policy of complete religious freedom. No general edict was issued at Milan, but in all probability detailed instructions were drawn up for provincial governors to implement the new policy, already in force in the West under Constantine's rule. The famous "Edict of Milan" was probably a directive of Licinius despatched several months later from Nicomedia to governors of the Eastern provinces.

Observing that freedom of worship should not be denied, but that each one should be given the right in accordance with his conviction and will to adhere to the religion that suits his preference, we had already long since given orders that both to the Christians ... to maintain the faith of their own sect and worship. But since many and various sects seem clearly to have been appended to that rescript in which such right was granted to the said persons, it may be perchance that some of them after a short time were driven away from such observance

When I, Constantine Augustus, and I, Licinius Augustus, met under happy auspices in Milan and had under discussion all matters that concerned the public advantage and security, among other measures that we saw would benefit most men, we considered that first of all regulations should be drawn up to secure respect for divinity, to wit : to grant both to the Christians and to all men unrestricted right to follow the form of worship each desired, to the end that whatever divinity there be on the heavenly seat may be favorably disposed and propitious to us and all those placed under our authority. Accordingly, with salutary and most upright reasoning, we resolved on

(1) Lewis, Reinhold : *Roman Civilisation*, Vol. 2, pp. 602-604.

http://www.al-maktabeh.com

and, as he refused, the command was given that he should be raised on high naked and have his whole body torn with scourges until he should give in and even against his will do what was bidden him. But when he remained unmoved even under these sufferings, they proceeded to mix vinegar and salt together and pour them into the mangled parts of his body, where the bones were already showing. And as he despised these pains also, a gridiron and fire were then produced, and the remnants, of his body, just as if it were flesh for eating, were consumed by the fire, not all at once, in case he might find immediate release, but little by little ; nor were those who placed him on the pyre allowed to desist until, after such sufferings, he should signify his assent to what was commanded. But he clung fixedly to his purpose, and triumphantly gave up the ghost in the midst of his tortures.

Such were the things that were done in Nicomedia at the beginning of the persecution. But not long afterwards, when some in the district known as Melitene[1] and again on the other hand when others in Syria had attempted to revolt against the government, an imperial command went forth that the bishops of the churches everywhere should be thrown into prison and bonds. And the spectacle of what followed surpasses all description ; for in every place a countless number were shut up, and everywhere the prisons, that long ago had been prepared for murderers and grave robbers, were then filled with bishops and presbyters and deacons, readers and exorcists, so that there was no longer any room left for those condemned for wrongdoing.

Moreover, the first letter was followed by others, wherein the order had been given that those in prison should be allowed to go in liberty if they sacrificed, but if they refused they should be mutilated by countless tortures. And then, once more, how could one here number the multitude of the martyrs in each province ?

(1) In the province of Armenia Minor.

(4) THE PERSECUTION UNDER DIOCLETIAN*

Eusebius Ecclesiastical History VIII. ii, vi (abridged)

From LCL

The persecution carried out by Diocletian and his colleagues was the last to which Christians were subjected on an Empire-wide basis, but it was also the severest and most sustained, lasting from 303 to 311.

We saw with our very eyes the houses of prayer cast down to their foundations from top to bottom, and the inspired and sacred Scriptures committed to the flames in the midst of the market places, and the pastors of the churches, some shamefully hiding themselves here and there, others ignominiously captured and made a mockery by their enemies.

It was the nineteenth year of the reign of Diocletian[1], and the month Dystrus, or March as the Romans would call it, in which, as the festival of the Savior's Passion was coming on, an imperial letter was everywhere promulgated, ordering the razing of the churches to the ground and the destruction of the Scriptures by fire, and proclaiming that those who held high positions would lose all civil rights, while those attached to households, if they persisted in their profession of Christianity, would be deprived of their liberty. Such was the first document against us. But not long afterwards we were further visited with other letters, and in them the order was given that the bishops of the churches should all, in every place, be first committed to prison, and then afterwards compelled by every kind of device to sacrifice.

We shall mention the kind of death that one of them met, and leave our readers to gather from that instance what happened to the others. A certain man was publicly brought forward in the city of which we have spoken above[2], under the rulers we have mentioned[3]. He was ordered to sacrifice;

---

*Lewis, Reinhold : *Roman Civilisation*, vol. 2, pp. 599-600.

(1) A.D. 303-304.

(2) That is Nicomedia.

(3) Diocletian and Galerius, who ruled the eastern half of the Empire under the Tetrarchy.

And many others throughout the cities and villages were torn in pieces by the heathen, of whom, I shall mention one as an example. Ischyrion was acting as the hired steward of one of the rulers. His employer bade him sacrifice ; when he refused, he insulted him, when he abode by his refusal, he abused him foully ; and as he still remained firm he took a very large stick, thrust it through his bowels and vital organs, and so killed him.

What need is there to speak of the multitude of those who wandered in deserts and mountains, and perished by hunger and thirst and frost and diseases and robbers and wild beasts ? Such of them as survive bear testimony to their election and victory, but one fact in connexion with these men also I shall adduce as evidence. Chaeremon was bishop of the city called Nilopolis, and of extreme age. He fled to the Arabian mountain with his wife, and never returned, nor could the brethren ever lay eyes again either on them or their bodies, although they made a long and through search. But many in that same Arabian mountain were reduced to utter slavery by barbarian Saracens. Of these some were with difficulty ransomed for large sums, others have not yet been, up to this day.

And I have not given this account, brother, to no purpose, but that you may know all the terrible things that happened with us. Those who have had a larger experience of them would know more examples.

when the governor was ashamed to ply continued tortures all to no end, and to be worsted by women, were put to death by the sword, and so had trial of no further tortures. For these Ammonarion, true champion, had taken upon herself on behalf of all.

Hero and Ater and Isidore, Egyptians, and with them a young boy of about fifteen named Dioscorus were delivered up. And at first (the governor) tried to wheedle the lad by words, as one easily led astray, and to compel him by tortures, as one that would easily give in ; but Dioscorus neither obeyed nor yielded. The rest he savagely tore in pieces, and, when they endured, committed them also to the flames. But, marvelling at the splendid bearing of Dioscorus in public and the wise answers he made to his questions in private, he let him off, saying that he granted him a period of delay to repent, on account of his youths. And now the most godly Dioscorus is with us, having remained for a still longer contest and a more lasting conflict.

A certain Nemesion, he also an Egyptian, was falsely accused of consorting with robbers, and when he had cleared himself before the centurion of that charge so foreign to his character, he was informed against as being a Christian, and came bound before the governor. He most unjustly inflicted on him twice as many tortures and scourgings as he did on the robbers, and burnt him between them, thus honouring him, happy man, with a likeness to Christ.

A whole band of soldiers, Ammon and Zeno and Ptolemy and Ingenuus, and with them an old man Theophilus, had taken their stand before the court. Now a certain man was being tried as a Christian, and at that moment was inclining towards denial, when these men standing by ground their teeth, cast looks at him, stretched out their hands and made gestures with their bodies. And when all turned towards them, before any-one could otherwise seize them, they ran of their own accord to the prisoner's dock, saying that they were Christians so that both the governor and his successors were filled with fear, and those who were on their trial appeared very courageous in the face of their future sufferings, while the judges were affrighted. So these men marched from the court in proud procession, exulting in their witness, God, spreading abroad their fame gloriously.

may be, a single one who fell into their hands—who up to the present has denied the lord.

http://www.al-maktabeh.com

Now there was no way, no thoroughfare, no alley by which we could go, either by night or during the day : always and everywhere all were shouting, that he who did not join in the chorus of blasphemy must immediately be dragged off and burnt. And thus this state of things continued at its height for a long time. But the strife and the civil war came up on the wretched men and turned on themselves the fury of which we had been the object ; and for a brief space we breathed again, since they had no time to indulge their anger against us.

The firm and blessed pillars of the Lord, being strengthened by Him, and receiving power and steadfastness in due measure according to the mighty faith that was in them, proved themselves admirable martyrs of His kingdom. Of these the first was Julian, a man who suffered from gout, unable to stand or walk. He was brought up with two others who carried him, of whom the one straightway denied ; the other, Cronion by name, but surnamed Eunus, and the old man Julian himself, confessed the Lord, and were carried upon camels through the whole city, very large in extent as you know, and thus unlifted were beaten, and in the end, surrounded by all the people, burnt in quicklime. A soldier who stood by as they were being led off, opposed those who insulted them ; and, when the croud cried out, Besas, that brave warrior of God, was brought up, and after excelling in the great war of piety was beheaded. And another, a Libyan by race, Macar, true both to his name and the (Lord's) benediction, though the judge urged him strongly to deny, was not induced, and so was burnt alive. And after these Epimachus and Alexander, when they had remained a long time in prison, enduring to the end countless agonies from scrapers and scourges, were also burnt in quicklime.

And with them four women : Ammonarion, a holy virgin, though tortured vigorously by the judge for a very long time, inasmuch as she had made it plain beforehand that she would not utter, anything of what he bade her, kept true to her promise, and was led away. And as to the rest, Mercuria, an aged woman of reverend mien, and Dionysia, the mother indeed of many children, who yet did not love them above the Lord,

(3) SUFFERINGS OF THE ALEXANDRIANS AND THE EGYPTIANS DURING THE REIGN OF DECIUS.

A.D. 250[1]

Diompius in a letter to Fabius, bishop of the Antiochenes, gives the following account of the contents of those who suffered martyrdom at Alexandria under Decius.

It was not with the imperial edict that the persecution began amongst us, but it preceded it by a whole year ; and that prophet and creator of evils for this city, whoever he was, was before-hand in stirring and inciting the masses of the heathen against us, fanning anew the flame of their native superstition. Aroused by him and seizing upon all authority for their unholy deeds, they conceived that this kind of worship of their gods—the thirsting for our blood—was the only form of piety.

First, then, they seized an old man named Metras, and bade him utter blasphemous words ; when he refused to obey they belaboured his body with cudgels, stabbed his face and eyes with sharp seeds, and leading him to the suburbs stoned him.

Then they led a woman called Quinta, a believer, to the idol temple, and were forcing her to worship. But when she turned away and showed her disgust, they bound her by the feet and dragged her through the whole city over the rough pavement, so that she was bruised by the big stones, beating her all the while ; and bringing her to the same place they stoned her to death. Then with one accord they all rushed to the houses of the godly, and, falling each upon those whom they recognised as neighbours, they harried, spoiled and plundered them, appropriating the more valuable of their treasures, and scattering and burning in the streets the cheaper articles and such as were made of wood, until they gave the city the appearance of having been captured by enemies.

But the brethern gave way and gradually retired, and, like those of whom Paul also testified, they took joyfully the spoiling of their possessions. And I know not if there be any save, it

---

Eusebius : *The Ecclesiastical History and the Martyrs of Palestine,* vol. 1. pp. 206-209.

(2) PERSECUTION UNDER DECIUS, 249-251.

*A Libellus (certificate of sacrifice) discovered at Fayoum (Egypt), 1893: Michigan, Greek Papyrus, 48. A.D. 250

The Edict of Decius, 250, commanded provincial governors and magistrates, assisted where necessary by local notables, to superintend the sacrifices to the gods and to the genius of the Emperor, to be performed by all on a fixed day. Many recanted; others bought certificates or had them procured by pagan friends. There seems to have been wholesale connivance by the officials.

To the commissioners for sacrifices in the village of Alexander's Island, from Aurelius Diogenes, son of Satabus, of the village of Alexander's Island, aged 72; scar on right eyebrow.

I have always sacrificed to the gods, and now in your presence, in accordance with the terms of the edict, I have done sacrifice and poured libations and tasted the sacrifices, and I request you to certify to this effect. Farewell.

Presented by me, Aurelius Diogenes

I certify that I witnessed his sacrifice, Aurelius Syrus.

Dated this first year of the Emperor Caesar Gaius Messius Quintus Trajanus Decius, Pius, Felix, Augustus, the 2nd of Epiph. (26 June 250).

**Michigan Papyrus, No. 158; A.D. 250

To those superintending the sacrifices of the village of Theadelphia, from Aurelia Bellias, daughter of Peteres, and her daughter Capinis. We have sacrificed to the gods all along, and now in your presence according to orders I poured a libation and sacrificed and tasted of the sacred offerings, and I request you to subscribe this for us. Farewell.

(Signatures) We, Aurelius Serenus and Aurelius Hermas, saw you sacrificing. Signed by me, Hermas.

Year I of the Emperor Caesar Gaius Messius Quintus Trajanus Decius Pius Felix Augustus, Payni 27.

---

*Bettenson : *Documents of The Christian Church*, p. 18.
**Lewis, Reinhold : *Roman Civilisation*, Vol. 2, pp. 596-597.

(1) CALUMNIES AGAINST THE CHRISTIANS

Tertullian Apology x. I, xxviii. 2-3 xxxv. I, xl. 1-2*

"You do not," say you, "worship the gods ; you do not offer sacrifice for emperors." It follows by parity of reasoning that we do not sacrifice for others because we do not for ourselves—it follows from our not worshiping the gods. So we are accused of sacrilege and treason at once. That is the chief of the case against us—the whole of it, in fact.

So now we have come to the second charge, the charge of treason against a majesty more august. For it is with greater fear and shrewder timidity that you watch Caesar than the Olympian Jove himself. So that in this too you will be found irreligious to those gods of yours, when you show more fear for the rule of a man. In fact, among you perjury by all the gods together comes quicker than by the genius of a single Caesar.

So that is why Christians are public enemies—because they will not give the emperors vain, false, and rash honors ; because, being men of a true religion, they celebrate the emperors' festivals more in heart than in frolic.

On the contrary, the name faction may properly be given to those who join to hate the good and honest, who shout for the blood of the innocent, who use as a pretext to defend their hatred the absurdity that they take the Christians to be the cause of every disaster to the state, of every misfortune of the people. If the Tiber reaches the walls, if the Nile does not rise to water the fields, if the sky does not move or the earth does, if there is famine, if there is plague, the cry at once arises : "The Christians to the lions !"

*Lewis, Reinhold : *Roman Civilisation,* Vol. 2, pp. 586-587.

APPENDICES

http://www.al-maktabeh.com

BYZANTINE EGYPT

By

E. E. AL-ARINI

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

BYZANTINE EGYPT

By

E. E. AL-ARINI

CAIRO 1961